الأعمال الكاملة

فتحي غانم



الجزء الأول

زينب و العرش

فتحي غانم

زينب و العرش

الجزء الأول

مكتبة

يناير ١٩٨٨

مكتبة
روزاليوسف

المـــدير الفنــى
عــدلى فهيــم
●
الغلاف والرسوم الداخلية للفنان
أحمد حجــازى

الى أحلام ناشد

بيان هام
ولا مفر منه

يرجو مؤلف هذه الرواية ، رجاء حاراً ، الا يتورط القارىء العزيز فى محاولة البحث عن صلة او اوجه شبه بين شخصيات هذه الرواية وشخصيات فى الواقع سواء كانت معروفة ، أو غير معروفة ، من الأحياء او الأموات ..

إن كل ما جاء فى هذه الرواية من أحداث وشخصيات إنما هى محض خيال ، ويؤكد المؤلف هذه الحقيقة ، ويلح فى تاكيدها منذ البداية ، حتى يوفر على القارىء العزيز جهداً ضائعاً قد يبذله فى عقد مقارنة او فى البحث عن صلة ، او اوجه شبه بين وقائع جرت فى مجتمعنا وبين خيال مؤلف ، يفرض عليه فنه ان يصوغ حكايته وكانها واقع قد حدث فعلاً !

شيطان يفرض نفسه

زينب .. زينب

ولكننا لن نستطيع أن نبدأ بقصة زينب ، رغم أن اسمها قد برز فى عنوان الرواية . إن ذلك الشيطان عبد الهادى النجار ، لن يسمح لنا بذلك ، وسيفرض علينا أن نصرف انتباهنا كله الآن إليه . ولاشك أن مختار زاده سوف يحتج باسم « الإتيكيت » فهو حجة فى كل ما يتعلق بالبروتوكول والإتيكيت ، منذ كان فى حاشية الملك فاروق . وسوف يقول « ياللشناعة » ألا تعرفون أن الأصول تقضى بأن تتقدم السيدة على الرجال ، ولكن لا قيمة لاحتجاج مختار زاده ، فهو رجل تافه ، وهذا هو حكم أحمد عبد السلام دياب ، رجل المخابرات ، عليه وقد كان دياب يقرأ تقارير مختار زاده ، فيشمئز من الرجل . ويتشكك ضميره المتدين فى كل ما يكتبه مختار . ومع ذلك . فلو قال لنا دياب رأيه فى .. كيف نبدأ الرواية ، لنصحنا ـ بعد تردد ـ بأن نبدأ بزينب ، وهو ما يكاد يتخلص من تردده ، حتى يتحمس لتلك المرأة التى كانت حكايتها ، سبباً غير مباشر فى انفعالات كثيرة وعواطف عارمة تفجرت فى نفسه . وأعادت إليه ذكريات كان قد ظن أنه نسيها تماماً . وعندما

عاودته الذكريات ، بدأ يفهم نفسه من جديد . أما نور الدين بهنس ، وكان زوجاً لزينب فى يوم من الأيام ، فهو لا يعرف إلا جمع المال ، ولسوف يقول لنا بصوته الذى يخرج من أنفه كالصرير ، إذا أردتم أن تكسبوا بعض المال من هذه الرواية ، فابدأوا بزينب . لأن قصتها مثيرة . وسوف تجذب القراء . وأنا موافق على أن تتحدثوا عن علاقتى بها . ولا تهمنى الفضيحة كل ما أطلبه هو عمولة مناسبة تخصم من الأرباح . ويفرك حسن زيدان يديه . ويقول « بالطبع زينب » فهنا مجال التشنيع وإثارة الفتن والصراع بين الرجال . وقد تدمع عينا يوسف منصور ، ويهمس مرتبكاً « أنا لا أفهم ما الذى تسألوننى عنه ، ولكنى لا أرى ولا أسمع إلا كلماتها وقد تأخر الليل فى ذلك الشارع المهجور المفضى إلى البحر فى الأسكندرية ثم .. ثم الكارثة التى وقعت » .

وحتى نقاد الأدب المتخصصين فى نقد القصص والروايات ـ والكاتب يحتفظ لهم بتقدير واحترام كبيرين ـ إنهم سوف يطالبون بزينب ، وإلا أصبحت الرواية روايتين ، وهذا بحق خطأ فنى لا يليق أن يرتكبه المؤلف .

ربما كان عم صالح هو الوحيد الذى سوف يهجم علينا ، ممسكاً بخناقنا ، صائحاً « أهكذا أيها الرجال تفضحون ابنتى ، بينما كان واجبكم أن تستروها وأن تحموها » ولكن عم صالح لا نفوذ له حتى نسمع كلامه ، فقد كان بواباً ثم ساعياً عند عبد الهادى النجار ، ثم أنه ليس أباً لزينب ، وقد يرى كثيرون أن رجلاً مثله ، من وسط آخر غير وسط زينب ، ومن مستوى اجتماعى مختلف ، لا يصح أن يدعى أو أن يتخذ مظهر الأبوة لزينب وخاصة أن والدها معروف .

وكانت ضجة الموتوسيكل تصاحب خروجه أو دخوله من الشارع الذى فيه بيته . وعلى أية حال ، مهما اتفقت الآراء أو اختلفت ، فإننا لا نستطيع أن نبدأ بغير عبد الهادى النجار . إن الرجل أقوى من أن نتجاهله ، وهو يفرض نفسه ، ويلقى بظلاله على جميع الشخصيات . وارتبط بدور فعال بكل ما يجرى من أحداث . ثم أنه كما قلنا شيطان من الصعب مقاومته ولذلك

سوف نتخلى ـ للأسف الشديد ـ عن زينب لفترة طويلة ، رغم اعتراضات الشخصيات الأخرى واعتـراضات النقـاد ، ولكن لا بأس . ومعـذرة .

ولنتحدث عن الأستاذ عبد الهادى النجار ، رئيس تحرير جريدة « العصر الجديد » رغم أنه ليس فى حاجة إلى التعريف ، فهو كما يقولون فى التعبير الدارج ، أشهر من نار على علم .





عبد الهادى النجار

صفحات مطوية من حياة رجل مشهور

قد يكون من المفيد أن نذكر الآن نبذة عن حياة هذا الرجل ، فقد يكون بها من التفاصيل ، ما يجهله بعض القراء على الأقل ، خاصة تلك الفترة التى قضاها عبد الهادى فى بداية حياته بمدينة طنطا .

والمعلومات التى يعرفها الكاتب عن محمد عبد الهادى سلامة النجار ، وهذا هو اسمه بالكامل كما هو مدون فى شهادة ميلاده ، إنما هى معلومات ناقصة ، خاصة تلك التى تتصل ببداية حياته - فليس لدى الكاتب الدليل القاطع عليها بل إن المعلومات التى كتبها ونشرها الأستاذ عبد الهادى عن نفسه ، هى أيضاً غير موثوق بها ، فكما هو شائع ومعروف لدى القراء أنفسهم ، لا أحد يثق ثقة مطلقة .. فى صحة ما يكتبه هذا الرجل . فهو يسعى وراء النفوذ والسيطرة قبل أن يسعى إلى الصدق . وهو يهتم بالتأثير على القارىء أو إثارته أكثر من اهتمامه بتسجيل الحقيقة . وهو مستعد أبداً أن يحول ما هو جاد أو هام إلى نكتة أو قفشة إذا ما خطرت له نكتة بارعة ، أو قفشة طريفة ، غير مكترث بجدية الموضوع أو أهميته ، ولقد كان حسن زيدان

نائبه ومساعده .. يقول للمحررين فى جريدة « العصر الجديد » ، « اكتبوا الجملة الموسيقية وابحثوا عن النكتة اللاذعة فرئيسنا على أتم استعداد لأن يكتب النكتة الجديدة حتى ولوكانت عن أمه » ، كما روى يوسف منصور وهو نائب أيضاً للأستاذ عبد الهادى ، ومساعده الثانى فى رئاسة التحرير ، أن الأستاذ عبد الهادى له فلسفة بالنسبة للحقيقة ، فليست عنده حقيقة واحدة مطلقة ، يتفق عليها الجميع ، إنما هى حقائق متعددة ، ومتعارضة . لأن ما هو حقيقى عند أى إنسان ، هو مصلحته فقط ولا شىء غير مصلحته .

لذلك علينا أن نتوقع من عبد الهادى ، وهو يروى عن حياته ، أن يقدم لنا معلومات ، ليست بالضرورة تتفق مع الحقيقة بالمعنى الدارج الذى يفهمه القارىء ولكنها تتفق بكل تأكيد مع الحقيقة كما يفهمها عبد الهادى نفسه ، أى أنه كتب عن حياته ليترك فى ذهن القارىء انطباعاً معيناً يتفق مع مصلحته وهواه . والقراء يذكرون أن الأستاذ عبد الهادى كتب ذات مرة عن والده ، فقال عنه إنه كان محامياً يدافع عن الحق والحرية ، وإنه كان عالماً ضليعاً ، ولقد استفاد عبد الهادى ، لأنه كان يقرأ لوالده كتباً ضخمة ما كان يجرؤ على الاقتراب منها ، لولا ضعف بصر أبيه ، الذى كان يطلب من ابنه أن يقرأ له ساعتين قبل أن ينام . ويذكر القراء ذلك المشهد الباكى الضاحك الذى وصف فيه عبد الهادى أباه ، عندما بكى لأن ابنه أخطأ ونصب الفاعل ولم يرفعه أثناء القراءة . واضطر عبد الهادى إلى أن يقبل يد الأب ويعتذر له ألف اعتذار ، والرجل ينهنه كطفل صغير ، ويقول بصوت تخنقه العبرات « أتنصب الفاعل يا عبد الهادى وأنا ما زلت حياً ، ماذا أنت فاعل إذا ما فاضت روحى إلى بارئها بسبب هذا الجرم الشنيع » .

ولو صرفنا النظر عن مثل هذه المبالغات التى كتبها عبد الهادى من باب الطرافة ، سوف نجد أنه لأمر ما ، أغفل تماماً ذكر أن والده ، كان معروفاً فى طنطا فى الثلاثينيات بين المحامين الشرعيين ، بما كان يتميز به من سلاطة لسان ، ووقاحة لا حدود لها ، وسماجة فى التعامل ، جعلت الناس تنفر منه ، ولكنها تقبل عليه فى نفس الوقت لتستعين به فى تعاملها مع الخصوم أمام

المحاكم ، ويقولون إن الزوجة كانت إذا تشاجرت مع زوجها ، هددته بأنها سوف تلجأ إلى الشيخ النجار ليمسح به بلاط المحكمة ويروون فى طنطا حكايات كثيرة عن الشيخ النجار فى أيامه الذهبية ، أيام أزمة الثلاثينيات ، والرجل محاط بنساء فقيرات لجأن إليه فى قضايا طلاق بسبب الفقر ، أو قضايا نفقة ، والرجل لا يتورع عن قبض الثمن من أجسادهن . كما يتحدثون عن صلة الشيخ النجار بعبد الرحمن باشا مكى الوفدى الكبير ، الذى كان يعقد سهراته بقصره فى عزبته المجاورة لطنطا ، وكان الشيخ النجار يقوم بدور مهرج السراى وشاعر الباشا ، والذى لاشك فيه أن الأستاذ عبد الهادى لا يريد أن يذكر كل هذا أو لعله قد نسيه بالفعل ، والمعروف عنه فى الجريدة ، أنه يكره الفلاحين ، وما من مرة جاءه أحد منهم لزيارته واستطاع أن يقابله . وكان سكرتيره يدخل عليه وهو جالس بين ضيوفه الكثيرين وأغلبهم من الوزراء وكبار الأدباء والفنانين يختلط بهم شبان لا يدرى أحد كيف التقطهم عبد الهادى وضمهم إلى مجلسه ويهمس السكرتير فى أذنه ، فإذا بعبد الهادى يصيح كالملسوع وهو يشير بحركة مسرحية .

- فلاحين .. ياراجل قل شيئاً غير هذا .. من أين أتوا .. وكيف عرفوا الطريق إلى هنا .. قل لهم إنهم أخطأوا العنوان .. وإن هذه ليست جريدة .. قل لهم إن هذا مستشفى أمراض عقلية .. قل لهم إن هذه سفارة بلجيكا .. قل لهم أى شىء .. واخرجهم من هنا فوراً .

ولقد عرف ضيوف عبد الهادى خوفه ، الحقيقى أو المصطنع ، من الفلاحين ، فكانوا يداعبونه بين وقت وآخر ، ويقول له قائل :

- لقد شاهدت وفد فلاحين مقبلاً على الجريدة يريد مقابلتك يا عبد الهادى بك .

ويدرك عبد الهادى أنها دعابة ، ولكنه يتمسك بها ، ويؤدى دوره باتقان ، فينتفض جزعاً ، ويصرخ ، ويدق الأجراس ، ويطالب سكرتيره باستدعاء شرطة النجدة .

وسأله يوسف منصور ذات مرة وكانا وحدهما .

- لماذا تكره الفلاحين .

فأجاب عبد الهادى بسرعة وكأنه أعد الإجابة من قبل .

- أكرههم .. لأنى أكره الفقر والجهل والمرض .. ألم تقرأ برنارد شو الذى وصف الفقراء بأنهم ألعن وأخبث شىء فى الوجود .

قال يوسف بصوته الهادىء :

- ولكنهم [illegible] ..

فقاطعه عبد الهادى :

- مشوهون .. وإذا تعاملت معهم فستصبح مشوهاً مثلهم .. ولقد عشت بينهم زمناً .. ولكنى نجوت بمعجزة .. ولن ألدغ من الفلاحين مرتين ولا تحدثنى عن مسئولية المثقفين ، ودور السياسة وواجباتها نحو الشعب .. فكل هذا على عينى ورأسى ، وأنا مستعد أن أنشر قصائد غزل فى الفلاحين كل يوم فى صدر الصفحة الأولى ، ولكن أرجوك .. لا تطلب منى أنا شخصياً أن أنال شرف التعامل معهم .

قال يوسف فى عناد :

- لابد أن لك أقارب من الفلاحين .

فضحك عبد الهادى ساخراً وقال :

- كلهم فلاحون .. وأبى فلاح وأمى فلاحة .. وبعد أن أصبحت يتيماً اعتبرت هذه الصلة قد انقطعت تماماً .. باختصار اعتبرنى نصيراً للفلاحين ككاتب وكرجل مهتم بالسياسة إلى آخر هذا الكلام .. ولكن احترم حريتى الشخصية ولا تجعلنى أختلط بهم .

ثم قال كأنه يحسم المناقشة :

- اعتبرها عقدة نفسية ياأخى .

وكل ما نستطيعه الآن هو أن نسجل فى الصفحات التالية بعض ما عرفناه عن حياة عبد الهادى ووالده الشيخ النجار فى طنطا .. وبعض هذا الذى نعرفه كان زبائن المقاهى فى طنطا يتندرون به ، ولكن هذا الزمن قد مضى ، وأصبح الذين يستطيعون إثارة هذه الذكريات قليلين . فأكثرهم مات أو

أعجزه المرض فلم يعد يتردد على مقهى الأقصر أو المصرية ، والذى ما زال محتفظاً بحيويته لم يعد يجد فى هذه المقاهى نفس الزبائن . لقد اختفى الأعيان . وظهر نوع جديد من الزبائن لا تعرف لهم أصلاً ولا نسباً ، وتغير الحال ، فسراى عبد الرحمن باشا مكى قد تحول إلى مدرسة . والمبنى الذى كان به مكتب الشيخ النجار فى شارع الخان قد تحول إلى ورشة أو مخزن أو شىء من هذا القبيل ، وتغير المنظر العام فى المدينة ، فالزحام كيوم الحشر . وكأنه مولد السيد البدوى مستمر كل يوم .. وظهرت النساء غير محجبات ، والبنات يرتدين ملابس هى بمقياس الماضى تخرج عن كل حشمة وتخدش كل حياء . كما كثر العيال كالنمل ، وطغت حركة السيارات عنيفة سريعة ، على حركة عربات الحنطور الوقورة المتمهلة ، ولم تعد أعين الجالسين فى مقهى الأقصر أو فى ميدان الساعة تستطيع أن تتبين من الغادى ومن الرائح . فالوجوه الغريبة كثيرة ، ولم يعد هناك من يفرق بين الذى يركب الحنطور أو يركب الأتوبيس الذى يهدر كالفيل الضخم فى شوارع المدينة فيسحق كل ذكرى عن منظر الشوارع فى الماضى . ذلك المنظر الذى لا يعرف عبد الهادى سواه . وهو الذى لم يدخل المدينة منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً .

ولعل عبد الهادى كان يستريح بعض الشىء لو رأى أن العربات الحنطور قد فقدت مكانتها . وهو الذى كان يرقب أولاد الأعيان يهبطون منها داخلين إلى مدرسة طنطا الثانوية ، بينما هو يسير على قدميه ، وكان يشعر بحسرة وغيظ .

قال عبد الهادى ذات مرة لأبيه :

ـ أنت تطالبنى بألا أخالط غير أولاد الأعيان .. فلابد لى أن أركب مثلهم الحنطور .

قال الشيخ النجار فى هدوء :

ـ سوف تركب الحنطور .

سأله عبد الهادى فى دهشة ، وهو الذى يعرف حاجة أبيه إلى القرش :

ـ كيف ؟

قال الشيخ :

- لا تسألني كيف .. أما الحنطور فستركبه .. وسيكون أعظم وأفخم حنطور فى البلد .

ولم يمض يومان حتى كان لطفى بن عبد الرحمن باشا مكى ، يمر على بيت عبد الهادى ويأخذه معه فى الحنطور إلى المدرسة .

كان الشيخ النجار عنيداً فى إصراره على اختلاط ابنه الأكبر عبد الهادى بأولاد الأعيان ، وألا يختلط بغيرهم ، وكان صريحاً فى التعبير عما فى نفسه ، فالانتماء إلى هؤلاء القوم ، هو الذى سوف يفتح أبواب المستقبل لعبد الهادى وهو الذى سوف يرفعه إلى أعلى الدرجات . وهؤلاء الأولاد الذين يخالطهم عبد الهادى اليوم ، هم حكام المستقبل ، وفى يدهم ستكون مفاتيح النعيم . ولا يجب على عبد الهادى أن يخشاهم ، أو يخجل منهم ، لأن أباه يعرف آباءهم ويعرف عائلاتهم ويعرف خباياهم وأسرارهم ، فإذا شعر عبد الهادى بإهانة وجهها إليه واحد من هؤلاء الأولاد ، فأبوه كفيل بأن يروى له من القصص عن عائلة هذا الولد مما يجعل عبد الهادى قادراً على التشنيع عليه وإذلاله . كل ما تفعله يا عبد الهادى . هو أن تهمس فى أذن أصحابه بما تعرفه . لا تواجهه أنت ، واتركهم يأكلون بعضهم بعضاً . وبذلك تكون الأقوى بينهم ، لأنك ستكون أكثرهم معرفة بأسرارهم .

وكان عبد الهادى يعجب من نصائح أبيه ، وكان يظنها كلاماً ساذجاً لا يفيد فى شيء فأولاد الأعيان هم أولاد الأعيان . وهو ليس مثلهم .. لا يملك المال ، ولا يملك الجاه ، وكل ما يستطيع أن يعتمد عليه هو صلة أبيه بعبد الرحمن باشا مكى ، وهى صلة غامضة لا يعرف كنهها ولا مداها . وهو يعامل لطفى ابن الباشا كما يعامل التابع سيده .. وهل يستطيع أن يفعل غير هذا وهو الذى رأى أباه يهرول أمامه على السلم عندما وقف الحنطور لأول مرة أمام بيتهم وفى داخله لطفى . كان الأب مهتاجاً لا يكتم عواطفه ولطفى ينظر إليه فى مرح ، وكان منظر الشيخ فيه ما يضحكه ، وهو أمر لم يتبين عبد الهادى حقيقته إلا فيما بعد . على أية حال كان الشيخ يتحدث وكأن الأمر

سهل ومستطاع ، ولكن عبد الهادى لم ينجح إلا فى أن يكون تابعاً ثم طفيلياً على أولاد الأعيان . وحتى عندما كان عبد الهادى يشير إلى أن عائلة النجار لها اسم وشهرة فى تجارة الحمص . وأن من بين أبناء عم والده الحاج محمد النجار الذى يملك آلاف الجنيهات . كان حديثه يقابل بفتور يخفى كثيراً من الاستهزاء . فلا وجه للمقارنة بين تاجر حمص وبين عائلات تملك القرى والطور وتسود على آلاف البشر .

إن كل ما وصل إليه عبد الهادى هو أنه أصبح تابعاً لأكثر من واحد منهم ، بعد أن كان يخص لطفى بتبعيته . وكان هذا أمراً مرهقاً ، وإن لم يدركه عبد الهادى فى ذلك الوقت على هذا النحو .. فالشباب .لا يعرف الإرهاق ولا يفهمه إن تورط فيه . كان على عبد الهادى أن يشى بما حدث فى السهرة للجميع ـ البنت التى كانت معهم . وكيف أحضروها . ما اسمها وما شكلها .. ماذا فعلت وماذا قالت . وأصبح واضحاً للجميع أن عبد الهادى ملك للجميع وأنه على استعداد لتقديم خدماته لكل من يطلبها من شلة أولاد الأعيان . ورغم ما بينهم من تنافس وغيرة . رضوا . جميعاً . لأنه أصبح أشبه بالمستشار فى أمور مغامراتهم . وتولواهم بأنفسهم تحديد المهام التى يقوم بها والاتفاق على من يحصل عليه الليلة . وكان الشيخ النجار لا يسأل ابنه لماذا قضيت ليلتك خارج البيت . بل كان يسأله مع من قضيت ليلتك .

فيقول له : كنت مع يوسف رضوان أو أحمد البقلى . فيهز الرجل رأسه راضياً ، وقد يطلب من ابنه أن يروى له أخباراً عن هؤلاء الأولاد . هل سينجح هذا العام ؟ هل هو الذى أعطاك هذا القميص ؟ ماذا أكلتم فى بيته ؟ وكان عبد الهادى لا يشك فى أن والده سوف ينقل ما سمعه منه إلى آباء الأولاد .. وأحياناً كان الشيخ النجار يساعد ابنه ببعض المعلومات . يوماً قال له عبد الهادى إن أحمد البقلى ، يرفض أن يضع أحد يده فى جيبه ويخرج نقوداً فى مجلسه ، وأنه مهما كان حال الذين معه ، فهو المسئول عن الانفاق عليهم . فقال له الأب : هذا تقليد فى أسرته فهم يعتبرون أنفسهم أسياد الناس جميعاً .

ولقد اقترض السيد البقلى أبو أحمد ذات مرة ألف جنيه من الحاج محمد النجار ، حملها إليه وهو جالس فى مقهى بالأقصر ، وأقسم الحاج محمد ، أنه لم تنقض الليلة حتى كان السيد البقلى قد صرف من الألف مائة جنيه وزعها على الحاضرين وكأنها حمص كل من مد يده متعللاً بحاجته إلى قرش أعطاه عشرة أمثال ما طلب . إن هؤلاء الأعيان ليسوا طبقة واحدة ولا مرتبة واحدة ، ودراسة مراتبهم لها أصول ، فبينهم من ينتسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء أشرفهم وأعلاهم مرتبة وأعظمهم كرماً وأريحية .. يليهم من انتسب إلى أمراء المماليك وهؤلاء يمتازون بالأدب الجم والغرابة فى التصرف ، تجدهم متكبرين متعالين فى أمور ، متواضعين بسطاء فى أمور .. فالواحد منهم يأنف الجلوس مع باشا فلاح .. وتراه يركب الدرجة الثالثة فى القطار بين الفلاحين . ويليهم الأتراك الغز . وليس أصدق من المثل القائل « آخر خدمة الغز علقة » فهم غادرون قساة . ومن بعدهم أولاد الذين أثروا من زمن بعيد لأنهم خدموا المماليك والأتراك . واستطاعوا أن يظفروا من بين أنيابهم بثروة ، مال اختلسوه ، أو نظارة وقف استولوا عليها أو أرض اغتصبوها وأغلبهم كانوا قطاع طرق وزعماء عصابات ترهب الفلاحين ثم أصبحوا أسياداً وأعياناً بينهم . هذه هى أهم مراتبهم . إذا عرفتها سهل عليك التعامل معهم .

فسأله عبد الهادى :

- وإلى أية مرتبة ينتمى عبد الرحمن باشا مكى ؟

فأجاب الشيخ النجار :

- إن جده الكبير كان من زعماء العصابات . استطاع أن يفرض سلطانه على أرض.مات وهو لا يعرف لها حدوداً .

قال عبد الهادى :

- وما صلتك يا أبى بهذا الرجل ؟

- أنا رجل دين .. أعامل كل هؤلاء معاملة الند للند .. ولا سلطان لأحد منهم علينا .. نحن لا نعرف للمماليك ولا للأتراك حكماً علينا .. نحن حفظة القرآن

وحماة الشرع نهديهم إلى ما يحكمون به .. وما من سلطة لهم إلا بموافقتنا ..

ألم تسمعهم يقولون إن مصر أم الدنيا .. لا بغداد ولا دمشق ولا أى بلد عربى آخر . لأننا أعلينا كلمة الشرع .. وبينما كان الخليفة يسلم السلطة فى بغداد للأتراك ، كنا نحتفظ للإسلام بسلطته بما فى رءوسنا وفى قلوبنا من معان وإيمان .. إننا لم نخضع أبداً لأحد

ولقد أودعت هذه الكلمات التى نطق بها الشيخ النجار ، ثقة كبيرة بالنفس فى صدر عبد الهادى ، واستطاع الأب أن ينقل له ذلك المعنى الملح عن الاحتفاظ بالسلطة فتعلق عبد الهادى بهذا المعنى . وأصبح يدير عينيه فى أولاد الأعيان ، محدثا نفسه بأنه قادر أن يصبح صاحب سلطان عليهم ورغم إعجابه الظاهر بهم ، وهو إعجاب أقرب إلى الانبهار ، كان يكرههم ، وتنتابه رغبة تؤرقه فى أن يبرز بينهم ، وألا يخضع لهم ولم يتورع عن شىء من أجل تحقيق هذه الرغبة ، كان يغش فى لعب الورق ليخرج واحداً منهم ، ضاق صدره به ، مفلساً فى ليلته ، وكان يشرب معهم ، ولكنه يقاوم السكر حتى يراهم ثملين مترنحين فيسخر منهم ، وهم يظنون أنه يساعدهم ، ولكنه كان يتورط فى نفس الوقت فى خدمة مباذلهم . كان لطفى ذا غرائز جامحة ، وكانت له مع نساء القرية والقرى المجاورة صولات وجولات . وكان يطلب من عبد الهادى أن يتصل بالمرأة التى يختارها لنفسه ، حتى لا تتوهم المرأة أن ابن الباشا قد وقع فى غرامها . فهاهى قد خضعت لتابعه قبل أن تخضع له ، وكان لطفى يطلب من عبد الهادى أن يقدم له ما يشبه التقرير المفصل عن المتعة التى حصل عليها من المرأة ، ليرى إن كانت تستحق أن يقربها أم لا تستحق . وحدث أن أعجب لطفى بإحدى القرويات فنادى شيخ الخفر وسأله عنها ، فعلم أنها زوجة لأحد الفلاحين فى القرية . فطلب منه أن يأتى بها إليه . وبعد يوم جاء شيخ الخفر ليقول للطفى إن فى الأمر مشكلة ، فالمرأة أصبحت لها ضرة ، والغيرة بين المرأتين شديدة . لأن كلتيهما جميلة . وقد تزوج الفلاح زوجته الثانية حتى يحد من دلال زوجته الأولى ويكسر كبرياءها .

وشيخ الخفر لن يضمن ألا تفشى الضرة بالسر ، وهى لابد أن تعلم لأن كل واحدة منهما ترقب حركات وسكنات الأخرى وتتحين الفرص لتكيد لها .

وسمع عبد الهادى بالمشكلة من لطفى ، فقال له مازحاً :

- الحل بسيط .. اطلب من شيخ الخفر أن يأتيك بالمرأتين .

وأحضرهما شيخ الخفر . وكان العبء مضاعفاً على عبد الهادى قبل أن يتمتع لطفى بالمرأة التى يشتهيها ومن يومها ولطفى ينظر إلى عبد الهادى فى انبهار ، وكأنه العقل الجبار الذى لا تستعصى عليه مشكلة ..

كان عبد الهادى واثقاً من نفسه تماماً فى تلك الفترة إلى أن جاءت تلك الليلة من رمضان ، وكان عبد الهادى يستعد لامتحان البكالوريا .

فقال له أبوه :

- الليلة سوف تذهب معى إلى سراى الباشا .

كان الشيخ النجار يرتدى جبة زرقاء زاهية . ويمشى مختالاً فخوراً بابنه الذى اشتد عوده وأصبح له شارب كالرجال ، ولما دخل على مجلس عبد الرحمن باشا مكى صاح الأب بصوت مفعم بالتأثر :

- هذا هو ابنى وفلذة كبدى وخادمك المطيع يا معالى الباشا .

كان عبد الهادى مبهوراً بما حوله فرغم أنه دخل السراى مع لطفى أكثر من مرة ، إلا أنه كان لا يجرؤ على الوقوف فى طريق الباشا ، أو الاقتراب من هذه القاعة التى يدخلها لأول مرة .. وكان الباشا طويلاً ضخم الجثة ، له وجه مربع قسماته حادة ، تفضح أنه سليل زعيم عصابات .. ولكن يد الباشا كانت طرية ناعمة ، هكذا شعر بها عبد الهادى بشفتيه وهو ينحنى يقبلها ..

وجلس عبد الهادى على مقعد بعيد بجوار الباب فى القاعة التى ازدحمت بضيوف كثيرين .

وارتفع أكثر من صوت ضاحك يقول للشيخ النجار :

- والله أنجبت يا أستاذ .

وشعر عبد الهادى بأن لهجة المخاطبين لأبيه ، ونظراتهم وبسماتهم ،

تحمل إليه قلقاً غامضاً فنظر إلى أبيه ، فرآه مستقراً فى مجلسه على مقربة من الباشا .

وقال الشيخ النجار فجأة بصوت لا يخلو من توسل خفى :

ـ الولد موجود بيننا .. وأرجوكم هذه الليلة أن تحافظوا عليه ، فهو غريب بينكم

فقال الباشا :

ـ اطمئن ياأستاذ .. ابنك فى حمايتى .

وهنا أتى الشيخ النجار بحركة مفاجئة ، إذ بدا وكأنه قفز من مقعده واقفاً ، وقال وهو يهتز بجسده فى ناحية ورأسه فى ناحية أخرى :

ـ الآن أنا مطمئن .. ومطمئن .. ومطمئن .

قالها بتنغيم ، وعمامته تهتز مع حركة رأسه .

فضحك الجميع وصاح صوت :

ـ هكذا اظهر على حقيقتك ياشيخ إبليس .

فجمد الشيخ النجار فجأة وانهار على مقعده ، وقال الباشا فى وقار :

ـ لا .. بركات بك أنا وعدت الأستاذ ..

قال بركات بك ، وهو رجل سمين له عينا ضفدع ومن أشهر المحامين الجنائيين فى المديرية .

ـ أمرك ياباشا .. ولكن هو الذى قام ورقص .

ومضى بعض الوقت ، قبل أن يسترد الشيخ النجار بعض حيويته فرفع رأسه وبدأ يتحدث فجأة وبإلحاح عن ابن حزم . وأدرك عبد الهادى أن أباه إنما يتحدث إليه ، ومن أجله ، وكان يشعر بألم حاد فى صدره وفى عينيه ، كان يريد أن يختطف أباه ويهرب به من هذا المكان ويلقى عليه درساً فيما يجب أن تكون عليه معاملة هؤلاء القوم . نفس الدرس الذى كان يستمع إليه من أبيه . أين السيطرة . أين السلطة . أين كلمة الشريعة . أين القدرة على فرض الإعجاب عليهم . لا شىء من هذا . إن أباه مجرد مهرج رخيص لا يستطيع أن يقاوم نفسه ، فيقوم راقصاً رغم أنفه وقد غلبه طبعه أوما تعود عليه . أفاق

عبد الهادى من آلامه . وقد انبرى أحد الأفندية عرف من الحديث أنه مفتش رى ، يناقش أباه فى ابن حزم . ويقول بملء فمه :

- ابن حزم لم يقل هذا الكلام ياأستاذ .

وإذا بالشيخ النجار قد اتسعت عيناه ، ونفرت عروق رقبته ونهض من مقعده هائجاً امتلأ قلبه بالحقد ، تتدفق الشتائم من فمه متهماً الأفندى بالكذب والجهل والكفر . وكان الشيخ النجار شخصاً آخر ، سليطاً وقحاً ينظر إلى الأفندى وكأنه حشرة سوف يسحقها . بينما جلس الأفندى هادئاً باسماً لا ينفعل . حتى انتهز فرصة التقاط الشيخ النجار لأنفاسه وقال فى هدوء مخاطباً الباشا :

- هل الكتاب موجود هنا يامعالى الباشا .

فقال الباشا مسروراً :

- نعم .. إنه موجود .

ونهض الباشا قائلاً فى حماس :

- وسأحضره بنفسى .

فصاح الشيخ النجار :

- وهل هذا يليق ياباشا .. تترك مجلسك من أجل إرضاء رغبة هذا الجاهل .

قال الباشا :

- يقول المثل .. خليك معاه حتى باب الدار .. ولست أدرى من الذى سوف أكون معه حتى باب الدار .. أنت أم الباشمهندس ..

وعاد الباشا وفى يده الكتاب وأمسك به الأفندى ، وفتحه على الفور عند صفحة بعينها وقرأ منها وصاح الجميع :

- الله أكبر .. أنت على حق .

وقال الباشا وقد جرفه الصياح والحماس :

- أنت الكذاب ياأستاذ والأفندى غلبك .

وفجأة بكى الشيخ النجار وانهمرت الدموع من عينيه ، وقال وهو يلطم خديه :

ـ كيف يحدث هذا يا شيخ سلامة ضيعت عمرك يا سلامة بلا فائدة .. الأفندية قرأوا وأنت لم تقرأ .

والتفت الشيخ إلى الجمع وصاح باكياً :

ـ أقسم أنى خارج من هذه الدار فلاأعود إليها حتى أتم قراءة ما لم يقرأه أحد من قبل .

أمسكوا به وطلبوا منه أن يجلس ويهدأ .. ولكنه قاوم كوحش جريح ، ودفعهم متحدياً ولم ينتبه إلى عبد الهادى . حتى رآه يسير وراءه صامتاً عند باب السراى .

سارا صامتين حتى وصلا البيت ، فقال الشيخ لابنه فى وقار حزين :

ـ سوف أبدأ القراءة الليلة . وسوف تقرأ لى أنت .. فقد ضعف بصرى .

ظن عبد الهادى أن أباه غير جاد ، ولكنه ناداه وأعطاه كتاب الطبقات لابن سعد . وقال له :

ـ سوف نبدأ بهذا الكتاب .

وقرأ عبد الهادى ، وسمع أباه يقول وهو يبكى :

ـ يابنى لا تنصب الفاعل وترفع المفعول .. كفانى مابى من مصائب . لقد غلب الأفندية المشايخ .. هأنت أفندى .. ولكنك لا تعرف حتى القراءة أتكون هذه هى نهايتى .

قال عبد الهادى بصوت يكتم ثورة اختلطت بالألم :

ـ لا تحزن يا أبى .. فسوف انتقم لك .

فارتجف الشيخ وقال فزعاً :

ـ ماذا تقول .. أجننت ؟!

قال عبد الهادى والثورة تنفجر فى صدره :

ـ لقد سخروا منك ياأبى .

قال الشيخ ووجهه ممتقع :

ـ لا تفكر فى عمل طائش .. يكون فيه القضاء عليك .. لن تضيع كما ضاع أبوك .

قال عبد الهادى :

- لن أخضع يا أبى .

قال الشيخ بصوت مبحوح :

- ومن قال لك اخضع .. ومن قال لك إن أباك قد خضع لأحد .. هل لأنك رأيتهم يسخرون منى ويستهزئون بى .. ولكن سخريتى منهم أكبر واستهزائى بهم أشد .. وما من شيء كان يمنعنى أن أفعل ما أشاء . صحيح أنهم يقبلون كلامى وتصرفاتى على أنها تهريج ، ولكن للتهريج ساعة ، وما كنت أقوله كان جديراً بأن يقض مضاجعهم حتى يوم الساعة . ألم أقل لعبد الرحمن باشا مكى فى نفس المكان الذى كنا فيه الليلة ، وأمام جمع من العظماء والكبراء .. إنه فاسق .. لقد ضحك وضحك معه العظماء والكبراء .. وأخذ كلامى مأخذ الهزل .. أقسم لك أنه لم يمض أسبوع حتى كان يعلن أنه مسافر للحج والتوبة .. فإذا كان التهريج أمام الحكام يدفعهم دفعاً إلى بيت الله ، ويجعلهم يسألون التوبة والمغفرة فأنعم به من تهريج ، لقد كان مهندسو الرى وأطباء الصحة ومأمورو المراكز يخشون تهريجى .. كنت أقول الحقيقة فى وجوههم وأنا أصرخ .. لقد فر طبيب الصحة من المركز بسبب كلمة قلتها له فى مجلس الباشا فضحك منها الجميع .. ثم أن الحكام لا يصح معاملتهم بغير ما يلهيهم ويسليهم وهذا أمر معروف وتقليد موروث . نعلمه نحن الذين قرأنا عن الأمور السلطانية والسياسات الملكية .. ألم يقل وزير الخليفة « المكتفى » لنوابه : « حصلوا للخليفة كتباً يلهو بها ويشتغل بها عن استخراج المال وخراب البلاد » إن التهريج فى مجلس الحكام فيه صيانة للأمة وحماية لها من حماقات الحكام . فلا تفكر أبداً فى الانتقام لأبيك لأنه لم يفعل ما يندم عليه .

والتقط الشيخ أنفاسه ثم انهمرت العبرات على خديه وهو يقول :

- الطعنة النجلاء التى أصابتنى فى مقتل .. أن هذا الأفندى غلبنى فى ابن حزم .

ولم تهدأ نفس عبد الهادى ، إذ لم يقتنع بكلام أبيه ، بل ظن أنه كذب عليه فيما ذكره عن وزير المكتفى ، فانتهز فرصة وسأل أباه فى حذر عن الكتاب الذى أورد هذه الواقعة ، فأرشده إلى كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية . لمحمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى تجاوز الله عنه . ووجد عبد الهادى القصة وما يزيد عليها .

وبينما هو يقرأ فى فصل « الأمور السلطانية والسياسات الملكية » إذا به يقع على هذه الفقرة نوردها بنصها : « لما فتح السلطان هولاكو بغداد فى سنة ست وخمسين وستمائة أمر أن يستفتى العلماء أيهما أفضل السلطان الكافر العادل ـ وكان هولاكو كافراً ـ أو السلطان المسلم الجائر . ثم جمع العلماء بالمستنصرية لذلك ، فلما وقفوا على الفتيا أحجموا عن الجواب . وكان رضى الدين على بن طاوس حاضراً هذا المجلس ، وكان مقدماً محترماً ، فلما رأى إحجامهم تناول الفتيا ووضع خطه فيها ، بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر ، فوضع الناس خطوطهم بعده » كان لما قرأه وقع كالزلزال فى نفسه ، لقد أفتى كبار علماء المسلمين ، بأن حاكماً عادلاً كافراً خير من حاكم مسلم ظالم ، فهل هذا معقول . أم أنهم خافوا بطش هولاكو . الذى ما كان يرضى بجواب آخر . على أية حال الفتوى قائمة .. وموقع عليها من جميع علماء بغداد منذ سبعة قرون . وهى تعترف الاعتراف المشين بأن هناك إسلاماً وجوراً . وهناك كفراً وعدلاً .

وذهب عبد الهادى إلى أبيه يسأله رأيه فى هذه الفتوى .

قال الشيخ النجار :

– الأمر بسيط . أرادوا إحراج الحاكم بأن يلزموه بالعدل .

قال عبد الهادى :

– حتى لو فرطوا فى الدين .

قال الشيخ النجار :

- لم يفرطوا بل غلبوا على أمرهم .

قال عبد الهادى :

- اشتروا حياتهم وكان الثمن دينهم .

قال الشيخ النجار وقد اتخذ لهجة المحامى :

- اشتروا العدل والرحمة للناس .

قال عبد الهادى :

- وهل جاء العدل على يد هولاكو ؟

قال الشيخ النجار بصوت غلبه التردد :

- لا هولاكو .. ولا غير هولاكو .. العدل ضاع من بعد عمر ابن الخطاب .

قال عبد الهادى فى مرارة :

- ما العدل ؟ .. وأين هو ؟ .. وكيف يتحقق ؟ .

قال الشيخ النجار :

- اهدأ يابنى .. واعلم أن العدل أصبح هو القوة ..

صاح عبد الهادى يائساً ..

- إذن فالإنجليز على حق .. إنهم هولاكو الجديد الذى نرضى به لأنهم الأقوى فهم الأعدل .

ومنذ ذلك الوقت تهدمت قيم راسبة فى نفس عبد الهادى ، وتحولت إلى انقاض وأشلاء قيم وكان أهم ما فقده ، تلك الثقة بالنفس التى أودعها فيه أبوه عندما كان يحدثه عن سلطان الدين وحماية الشريعة ورفض الخضوع لأحد . وشعر لفترة طويلة بالوحدة ، كل من حوله شخوص بلهاء زائفة .. لا حول لها ولا قوة . الشىء الوحيد الذى له قيمة واقعية فى هذا البلد ، هو الإنجليز ودار المندوب السامى ، أما هؤلاء الأعيان بطبقاتهم ومراتبهم ، ومغامراتهم ، فليسوا أكثر من سفاسف يخجل من أن يسعى إلى الانتماء إليها ، أو الظفر منها بشىء . أما أبوه وتلك الفتوى التى أصدرها علماء مسلمون منذ سبعة قرون ، فأمور لها العجب .. أبوه ليس أكثر من جبة وقفطان وعمامة تغطى عجزاً وفراغاً . وهو بعيد عن

الدين الذى يتحدث عنه ، لقد افتقد الدين الرجال يوم قهر هولاكو العلماء .. واكتفوا أول الأمر بالصمت ، وعندما تقدم ابن طاوس ليكتب بخط يده الفتوى أقبلوا جميعاً ولم يتراجع أحد ، ولم يحتج أحد ولم يستشهد أحد . هكذا كتب ابن طباطبا الشهير بأبى الطقطقى تجاوز الله عنه وبذلك أعلنوا أن الدين الذى فى نفوسهم ضعيف وهنت قواه . كان عبد الهادى يشعر بوحدة . ويشعر فى نفس الوقت أنه يرى بوضوح أكبر ما حوله من بشر . وكان يشعر بتعاسة ، وفقدان الثقة بالنفس . ويشعر فى نفس الوقت أنه يمتلك حرية أكبر ، وكأنه فطم من كل من حوله . وكان يشعر بأنه محاصر بما لا معنى له ، ولا فائدة من ورائه ولكنه شعر أيضاً بعدم الاكتراث ، حتى وهو يرى أباه يعاود تردده على سراى الباشا ، ويستأنف ما كان يمارسه من تهريج . ولعل هذا الشعور بعدم الاكتراث بما حوله هو الذى ساعد عبد الهادى على النجاح فى البكالوريا وسرعان ما وجد نفسه ملتحقا بكلية الحقوق . وكان ذلك حدثا ضخما فى حياة الشيخ النجار ، الذى كان يستعد فى قرارة نفسة ليوم يرى فيه ابنه قاضيا فى المحاكم الأهلية أو محاميا لدى هذه المحاكم التى لا يمارس فيها القانون إلا الأفندية المطربشون .

قال الشيخ النجار لعبد الهادى يوم دفع له مصاريف الكلية :

- لو كانت هذه النقود هى آخر ما أملك لما ترددت فى دفعها . فأنت لا تعلم كم تكون فرحتى يوم أراك محاميا أهلياً .. ماذا أقول لك .. إن الأفندى الحقير وكيل المحامى الأهلى يشمخ بأنفه فى تيه وكبرياء أمام المحامى الشرعى . غرور وقلة حياء . ولولا أن لى مقاما واسم النجار معروف وصلاتى معروفة لما اهتموا بأنى محام شرعى .

قال عبد الهادى باسما وكأنه يتحدث فى أمر لا يعنيه :

- عندما كانوا يسألوننى فى المدرسة عن عملك كنت أقول لهم محام و لااقول لهم شرعى .

هتف الشيخ النجار متشدقا :

- قل لهم عالم .. ورجل دين هكذا أبدو بين الناس .

وصمت عبد الهادى . وقال لنفسه نعم كنت تتظاهر بأنك رجل دين . ولكن ما معنى رجل دين . أهى مهنة .. وظيفة فى وزارة .. لقب له امتيازات وما هذه الامتيازات .. سلطة .. وأين هى . إنها مجرد قفطان تبدو به بين الناس ، ليكن لك ما تريد ياأبى .. فالأمر لا أهمية له عندى .. ألم أسمعهم فى تلك الليلة فى سراى الباشا يلقبونك بالشيخ إبليس ..

وأحس عبد الهادى فى تلك اللحظة بأنه يسير مع رجل غريب .. وقال لنفسه وهو يتلفت حوله قبل أن يمضى مع أبيه إلى الشارع خارجاً من الكلية ، يوماً ما سوف تنقطع صلتى بكل من عرفت .. وسأمضى وحدى . ثم التفت إلى أبيه جزعاً . فقد فكر فى موته . وأمسك عبد الهادى بذراع أبيه وقال بصوت غلبه الانفعال ليخفى هذا الخاطر المشئوم .

- حاذر ياأبى من الطريق .

ووجد عبد الهادى فى حياة الكلية ، ما يخرجه عن وحدته .. واشترك فيما يدور بين الطلبة من جدل سياسى ، حول حكومة صدقى وتحالف الوفد والأحرار والدستوريين ضدها ، وكان يعجب لنفسه .. فما من شىء يقوله .. أو تصرف يقدم عليه إلا وبدا له كأن شخصاً آخر هو الذى يتكلم ويتصرف ، أما عبد الهادى الحقيقى فهو وحيد ، يتفرج على هذا الشخص الآخر الذى يتعامل مع الناس .. وقف ضد الأغلبية الوفدية .. ووصف تحالفها مع الأحرار الدستوريين ، بأنه تحالف الجهلة الرعاع .. مع أولاد الأعيان التافهين .. فالوفديون لا يعرفون إلا التهريج والطبل والزمر وخطب النحاس الساذجة ، وخطب مكرم المسجوعة .. والأحرار الدستوريون لا يعرفون إلا مهارة محمد محمود باشا فى لعب الطاولة وتفننه فى أكل الملوخية البورانى والحديث عن ولائم الحمام المحشو بالفريك .

أما صدقي الخائن الذى باع البلد للإنجليز ، فهو رجل الكفاءات ، القوى .. الذى يعرف مصدر القوة والعدل والإصلاح فى هذا البلد .

وكلما اشتدت المعارضة ضد عبد الهادى ، كلما وجد نفسه يندفع أكثر فأكثر فى الهجوم على الوفد ، والدفاع عن صدقى . وكان ذلك المتفرج فى داخله يسخر من كل شىء ، ويتلذذ بتفرده .. بل يتعرف على قوة ذاته .. كلما كثر أعداؤه واشتدت الخصومة بينه وبينهم .

وفى ذلك الوقت اندلعت شائعة تحدثوا عنها فى مقاهى طنطا . وكأن القيامة قد قامت . ولقد كثر القيل والقال حول هذه الحادثة حتى أن أحداً لا يعرف أين تنتهى حدود الحقيقة وأين تبدأ حدود الخيال . ولكنهم فى طنطا قالوا إن الفتاة اسمها شهد وإنها ابنة أستاذ فى كلية الآداب . وأن لطفى بن عبد الرحمن باشا مكى ، خطبها من أبيها .. وهو رجل متحرر من التقاليد درس فى فرنسا .. ويؤمن بما قرأه فى الأدب الفرنسى عن الحب . فلما قال له لطفى ، إنه يحب ابنته شهد ، ويريد أن يتزوجها . وافق الرجل فى الحال دون انتظار لموافقة عائلة مكى وتمت الخطبة بغير رسميات ولكن الفلسفة أدت إلى كارثة ، لأن الرجل المتعلم فى فرنسا ، لا يعلم شيئاً بديهياً يعرفه كل زبائن المقاهى فى طنطا ، وهو أنك إذا وضعت الزبدة بجوار النار ذابت . وهكذا حملت شهد من لطفى قبل الزواج .

وانفجرت الفضيحة عندما ذهب محضر إلى سراى الباشا يعلنه بعريضة دعوى تعويض مرفوعة عليه من والد الفتاة وصادرة من مكتب بركات بك المحامى الكبير الذى انضم أخيراً إلى حزب الشعب وأعلن ولاءه لصدقى باشا .

ورغم أن محاكم طنطا لم تشهد مثل هذه القضية . ونفى بركات بك بنفسه الواقعة فى مجلسه بمقهى الأقصر . واعتبرها إهانة له أن يزج باسمه فى مثل هذه الأمور التى تمس أعراض الناس ، إلا أن الشائعة باضت وأفرخت شائعات أخرى . فمن قائل إن مكى باشا قد تصالح مع والد الفتاة الذى قبل عشرة آلاف جنيه تعويضاً عن شرف ابنته . ومن

قائل إن البنت انتحرت . وقالوا إن القصة كلها ملفقة من الوفديين لإثارة الأحقاد ضد صدقى باشا وإثبات دناءة تصرفاته وسفالة نواياه ، وهناك من قال إن عبد الرحمن باشا مكى نفسه هو الجانى . وإنها لم تكن فتاة اسمها شهد ، ولكنها زوجة مفتش الرى .. وأن زوجة الباشا لم تهدأ حتى كتب باسمها مائتى فدان . وساعد على انتشار هذه الشائعة أن مفتش

الرى نقل إلى الصعيد فى نفس الوقت . وقيل إنها زوجة الخواجة انطون صاحب المصبنة . وإنه هدد برفع قضية على الباشا فى المحكمة المختلطة . وهكذا اندلعت الشائعة محمومة مجنونة يصحبها جدل عنيف اختلط فيه حديث الجنس بحديث السياسة ، والأخلاق بالأحزاب ، حتى فوجىء الشيخ النجار ذات يوم بمن يهمس فى أذنه :

ـ اذهب إلى الباشا واعتذر له عما فعله ابنك عبد الهادى .

لقد وصل إلى سمع الباشا أن عبد الهادى المتحمس لصدقى هو مصدر هذه الشائعة .. وأنه يثرثر فى القاهرة بالفضائح التى يزعم أنه يعرفها عن لطفى . واتق شر من أحسنت إليه . ولا تعلموا أولاد السفلة ، فلحم أكتاف هذا الولد ولحم أكتاف أبيه من الباشا .. ألم يكن لطفى وهو سيده يذهب إليه ويأخذه معه إلى المدرسة فى الحنطور ومع ذلك عض الولد اليد التى امتدت إليه بالإحسان ، وهاجم الوفد .. وأعلن أنه نصير لصدقى باشا .. مع أن الباشا ولى نعمته وفدى كبير .

وأسرع الشيخ النجار إلى مجلس الباشا يستفسر عن الأمر ، فوجد الباشا متجهماً . يشيح بنظراته عنه . وأدرك أن الباشا قد صدق ما يقال عن ابنه . وأنه لم يعد يثق .. ولا يطمئن إلى وجوده فى مجلسه . وفى اليوم التالى سافر الشيخ النجار إلى القاهرة . وسأل ابنه ما الخبر .

قال عبد الهادى فى غير اكتراث :

ـ وما شأنى بما يقال ..

قال الأب :

ـ إن موقفى حرج .. ولابد أن تأتى معى إلى الباشا وتقنعه ببراءتك .

وعاد عبد الهادى مع أبيه إلى طنطا وذهبا إلى سراى الباشا وقدما له فروض الولاء والطاعة .

وقال الباشا وقد امتلأ بالرضا :

- إن بعض الظن إثم .. ولكن الشكوك ساورتنى لما أسمعه عنك يا عبد الهادى . إنهم يقولون إنك معجب بصدقى .

وطرق عبد الهادى برأسه .. لم يكن فى نفسه قادراً على أن يقول نعم ولا هو يرغب فى الكلام إطلاقاً .. كان كل ما يريده أن ينتهى كل شىء بسلام من أجل والده .

وازداد الباشا رضا بصمت عبد الهادى .. فمضى يقول :

- وعندما أفكر الآن فى أنك مصدر هذه الشائعة أجد إن هذا عبث . فالذى روج هذا الإفك شيطان ماكر .. ذو تدبير مفرط فى عبقريته وشذوذه . إنه صدقى وأعوانه .. وهذا الكلب بركات تعمد أن ينفى الشائعة ويثور ضدها ليؤكدها .. ويجعل من الحبة قبة .. إن السياسة قاسية وكل شىء مستباح فيها .. ونحن نظلم هذا الشاب الصغير .. ونظلم عقولنا إذا تصورنا أنه ذلك الشيطان الرجيم .

فى تلك اللحظة .. رفع عبد الهادى عينيه بسرعة نحو الباشا .. ثم خفضهما . وكان قلبه يدق لأن صوتاً هدر فى داخله فجأة ..

- ولم لا .. أنا قادر على أن أكون ذلك الشيطان الرجيم .





الهارب في صحراء المدينة

ويعرف القراء أيضاً أن الأستاذ عبد الهادى .. كتب عن نفسه أكثر من مرة .. مدعياً أنه تخرج فى كلية الحقــوق . ولكن الحقيقة أنــه لم يكمل دراسته .. فقد مات أبوه الشيخ النجار وهو فى السنة الثانية بالكلية . وسرعان ما تحقق من استحالة مواصلة العيش فى القاهرة .. أودفع مصاريف الكلية .

فقد رفض الحاج محمد النجار مساعدته بدعوى أن هذا التعليم لا فائدة من ورائه .. وأن أولاد الحاج أنفسهم لم يذهبوا إلى الجامعة .. وأن واجب عبد الهادى أن يبحث عن وظيفة ويساعد أمه وأخواته . وكانت الأم المريضة فى حالة ذعر حقيقى تجرى لاهثة هنا وهناك بين أخواله وأعمامه تبكى وتتسول . ولم يطق عبد الهادى هذا الموقف . وشعر بفداحة عجزه . وإذا به يصرخ فى أمه ذات يوم إنه تارك هذا البيت .. وهذه البلد وإنه لن يرى أحداً من أهله حتى يلقاهم يوم القيامة إذا كانت هناك قيامة .. كان غاضباً منهاراً ، وكانت أمه أيضاً غاضبة منهارة .. وترك عبد الهادى البيت .. وعاد إلى القاهرة .. وألقى بنفســه إلى رجال صــدقى . فتلقفوه يستخـدمونـه فى

المظاهرات . وفى تحريك الطلبة .. وساعدوه بتعيينه محرراً قضائياً بجريدة الشعب .. ليكمل تعليمه .. ولكن تيار الصحافة جرفه فهجر دراسة القانون . كأنه أراد أن يقطع الصلة بكل ماضيه بما فى ذلك الحلم الذى أراد أبوه أن يحققه فى شخصه .

ولاشك أن عبد الهادى كانت له دوافع أكبر من كل هذا .. ليهجر حياته الماضية [illegible] أول الأمر [illegible] بالفعل سوف يهجر الماضى . ويقطع صلته به على هذا! النحو الشاذ الفريد .. ولكنها خطوة أقدم عليها .. فإذا بخطوات تتلوها تمضى به فى طريق بلا عودة وكانت المرة الأخيرة التى ذهب فيها عبد الهادى إلى طنطا ، ليحضر جنازة أمه . وبعد أن هبطوا بها إلى القبر ، تلفت حوله بوجه جامد .. وقال لنفسه .. الآن انتهى كل شىء .. وكما دفنوا أمى دفنوا عبد الهادى ابنها وابن الشيخ النجار .. فلا صلة لى بأحد .. لا أشقاء ولا شقيقات .. ولا أعمام ولا أخوال .. ولم يعد عبد الهادى إلى طنطا منذ ذلك اليوم .

ولقد لاحظ الكاتب .. أن الذين يعلمون بكذب عبد الهادى .. بإدعائه أنه أكمل دراسة القانون وحصل على الليسانس فى القوانين المصرية .. إنما يتقبلون هذا الإدعاء بغير استنكار ، ودون اتهام جاد له بالكذب . وكان من حق عبد الهادى أن يدعى لنفسه ما يشاء .. فهو اليوم رجل ذو نفوذ وهوأهم من مستشار حصل على الدكتوراه فى القانون من السوربون . ولقد نجح الولد فوصل إلى ما كان لا يخطر ببال المرحوم أبيه . كان الشيخ سلامة النجار من أقل الرجال شأناً فى عائلة النجار .. فأصبح عبد الهادى اليوم هو رأس العائلة ومصدر فخرها .. وباسمه ونفوذه أصبحت لهم كلمة فى البلد رغم ما يشاع عنه من أنه لا يصل الرحم ولا يحضر لأحد من عائلته فرحاً أو جنازة . ورغم ما يشاع من أن أشقاءه لا يزورونه ولا يزورهم . وكان عبد اللطيف سلامة النجار شقيق عبد الهادى قد اشتغل كاتباً بالمديرية وفى ليلة زواجه انتظر حضور عبد الهادى فلما تأخر الليل ولا خبر عنه ثار عبد اللطيف وجعل يسب ويشتم وتناقلت الألسنة القصة . كما أن فرج سلامة النجار اضطر إلى العمل

كمسارياً مساعداً بالسكة الحديد . وكان يتردد على شقيقه فى مكتبه بالجريدة بين وقت وآخر دون أن يذكر أنه شقيقه فكان يأخذ منه أحياناً بعض النقود ليرسلها إلى شقيقاته .. ولاحظ فرج أن شقيقه يقابله بجفاء ظاهر .. وفكر فى أن السبب قد يكون فى مظهره .. فاقترض ذات يوم بدلة جديدة .. وحذاء لامعاً .. وذهب إلى عبد الهادى فى الجريدة .. متوقعاً أن تنفرج أساريره ويحسن لقاءه ، وفى ذلك اليوم بالذات رفض سكرتير عبد الهادى الدخول إليه ليخبره بأن هناك من يريد مقابلته وقال له السكرتير بمجرد أن رآه :

- طنطا ممنوع .

وفكر فرج فى أن يقول للسكرتير إنه شقيق عبد الهادى .. ولكنه تراجع .. وذهب إلى شقيقه فى مسكنه بغمرة .. وجعل يلومه على ما سمعه من السكرتير . ثم روى له فى عتاب وتأثر قصة البدلة والحذاء اللذين يرتديهما من أجله .

واذا عبد الهادى ينفجر ثائرا :

- أتريد أن تعذبنى .. أتريد أن أبكى لهذه المأساة البلهاء .. مالى أنا اذا كنت قد اقترضت حذاء .. أم أردت أن تمشى حافيا

قال فرج وهو ينظر اليه فى حزن :

- معك حق يا أستاذ .. كنت أظن إنى شقيقك ابن أبيك وأمك .

فصاح عبد الهادى :

- وهل كانوا سألونى قبل أن يلدوك .. أنا لا صلة لى بكم .. ولا أريد أن أرى أحدا منكم .

ولم يتصل فرج بشقيقه بعد ذلك .. حتى أعتقل عام ١٩٦٤ مع الإخوان المسلمين . وجاءت زوجة فرج فى الجريدة .. فقابلها كما يقابل زوجات المعتقلين من الإخوان والشيوعيين .. ووعدها بأن يتدخل للإفراج عنه .. ولقد خرج بالفعل من المعتقل قبل زملائه .

أما شقيقات عبد الهادى .. نفيسة وحكمت وهنية وابتسام .. فلا تربطهن به صلة .. إلا نقود يرسلها إليهم فى المواسم .. وهو لا يعرف كم عدد

أولادهن .. ولا يكاد يذكر أسماء أزواجهن .. وحدث ذات مرة أن ذهب عبد الهادى بنفسه إلى بنك النيل ليصرف شيكاً .. وهو فى العادة يكلف سكرتيره بمثل هذه الأمور .. ولكنه كان قد قضى السهرة حتى الصباح فى بيت نور الدين بهنس يلعب البوكر وخسر كل ما معه .. فخرج من البيت إلى البنك مباشرة .. وإذا بالصراف يبتسم له قائلاً :

- سعادتك لا تذكرنى ..

وقدم له الصراف نفسه على أنه زوج ابتسام .. وكان عبد الهادى قد رآه مرة .. عندما جاء إلى مكتبه .. يطلب يد ابتسام منذ سنوات بعيدة ووافق عبد الهادى ولم يحضر كتب الكتاب .. ثم لعله التقى به مرة أو مرتين بعد ذلك كما يحدث مع أزواج شقيقاته الآخرين .. الذين يهاجمونه بغتة فى مناسبات نادرة .. كأن يكون سائراً فى جنازة خارجة من جامع عمر مكرم أو شيئاً من هذا القبيل وبينما كان الصراف يثرثر بكلام لم ينتبه إليه عبد الهادى .. عن الأولاد والبنات الذين يسألون عن خالهم .. اكتفى عبد الهادى بابتسامة باردة .. وسؤال عابر عن حال ابتسام .. ثم قال فجأة للرجل وهو ينظر فى ساعته :

- أليس الأفضل أن تناولنى النقود .

فجمد وجه الصراف .. وتحول إلى ما يشبه الآلة .. تجرى أصابعه فى أوراق البنكنوت .. وأخذها عبد الهادى .. وهز رأسه وانصرف .. وعندما وصل إلى خارج البنك وغمرته ضياء الصباح تؤلم عينيه المرهقتين بالسهر .. همس لنفسه بصوت يكاد أن يكون مسموعاً .

- كل هذا بسببك أيها المهرج ..

وتذكر أباه وهما يعبران الطريق خارجين من كلية الحقوق .. يوم دفع له المصاريف .. وتذكر أنه فكر تلك اللحظة فى موته ..

ومع ذلك .. استفادت عائلة النجار من صلتها بعبد الهادى .. وكان أكثرهم استفادة أولاد العمومة أبناء الحاج محمد النجار تجار الحمص .. فقد أصبحت لهم هيبة وكلمة .. سواء عند أصغر ضابط فى المحافظة .. أو عند

المحافظ نفسه .. فلا أحد يكاد يصدق أن عبد الهادى لن يبطش بمن يتعرض لهم أو يستهين بهم .. وعندما تم الإفراج عن شقيقه فرج قبل بقية المعتقلين .. أصبح أمراً مفروغاً منه فى طنطا كلها أن الإفراج تم بنفوذ الأستاذ عبد الهادى وتأكد لدى الجميع .. أنها تمثيلية يقوم بها أشقاؤه .. حتى لا يطلب منهم أحد وساطة عبد الهادى فى أمر من الأمور.

إن الكاتب لا يريد أن يمضى فى سرد هذه التفاصيل إلا لغرض واحد .. وهو أن يقول إن عبد الهادى قد انفصل عن أهله .. وبيته ومدينته كما ينفصل الراهب الذى يعلن موته فى الحياة الدنيا .. ويتوجه إلى حياة الدير والرهبنة ، وقد لا يكون الكاتب موفقاً فى تشبيه موقف عبد الهادى بموقف الراهب ، ولكنه حقيقة لا يجد تشبيها آخر . إن عبد الهادى يشعر بينه وبين نفسه بهذا الشعور .. ويرى فى عزلته عن ماضيه وفى إقباله على ما هو فيه نوعاً من الرهبنة أو الدروشة .. أو الانجذاب .. رغم ما فى هذا كله من تناقض حاد بين حياة عبد الهادى كما نعرفها جميعاً وبين حياة الراهب فى الدير .

ولا بأس من الاستطراد بعض الشىء حول هذه النقطة . ونسبق الأحداث رغم أننا لن نستطيع أن نكشف تماماً الآن حقيقة الأمر .. أو بعض السر . كان يوسف منصور يروى لعبد الهادى عن كتاب قديم من كتب الأديرة المنتشرة فى مصر يرجع تاريخه إلى أكثر من ستة قرون . وقال يوسف :

- إنى لم أقرأ شيئاً مثل هذا التواضع وإنكار الذات .. فالراهب القبطى قد ذهب إلى الصحراء وعاش فى كهف متجرداً من كل شىء .. متخلياً عن كل رغبة أو نزوة والشياطين تحوم حوله كل ليلة .. تصور له مآدب شهية .. ونساء عاريات جميلات ومناظر اللهو والطرب فى المدينة وتدعوه أن يترك ما هو فيه ويقبل على اللذات . والراهب عزوف عما يرى .. صامد لا يتأثر بالإغراء . ومضى الأمر على هذا النحو أكثر من عشرين عاماً حتى يئست الشياطين فانفضت من حول الراهب . تركته للصفاء والطهارة والبراءة الالهية ، وبدا وكأن المعركة قد انتهت .. وأن الراهب قد انتصر .. فها هى أفراح السماء تهلل

فى صدره ولم يتمالك الراهب نفسه من الفرح . فصاح بملء فمه وبصوت تردد فى جنبات الصحراء :

هأنذا قد انتصرت عليك أيها الشيطان .

وهنا حدث أمر فاجع .. فقد توارت فجأة الأفراح .. وانحسرت النشوة من صدر الراهب .. وإذا بصدى صوته يكون قهقهة عالية اهتزت لها جنبات الصحراء وومض لها الأفق البعيد بشرر متطاير . كان الشيطان هو الذى يقهقه طرباً هاتفاً :

- لقد خسرّت نفسك بالغرور أيها العبد الذليل .

أليس هذا شيئاً قاسياً ومريراً فى قسوته .. أن يحرم الإنسان الذى حارب وقاوم .. من مجرد الفرح ولو لحظة بانتصاره .. من مجرد أن يقول إنه انتصر .. لأنه لو قال ذلك أصبح مغروراً وحقت عليه الهزيمة والضياع استمع عبد الهادى إلى القصة باهتمام .. ثم قال معلقاً :

- إن الذى يمضى فى شىء عليه ألا يفكر فى الانتصار . فلا شىء تمضى فيه وينتهى بانتصار أو هزيمة ، إنه ينتهى فقط بموتنا . أنا أعرف هذا دون أن أكون راهباً . ولقد تركت ورائى كل شىء .. فليس لى أحد فى هذه الدنيا يبكينى أو أبكى عليه .. لا أهل ولا زوجة ولا ولد ومع ذلك يبدو الجميع من حولى وكأنهم أصدقائى وأحبائى وتلاميذى وأخوتى .. ويوم أعترف لحظة واحدة لنفسى بأنهم كذلك سوف يكون مصرعى .. لأنهم جميعاً أعدائى .. ولست فى حاجة إلى أن أختبىء فى كهف بعيد فى الصحراء .. فهنا الصحراء وهنا الكهف .. وما هذه الجموع من الناس وهذه البيوت والشوارع إلا سراب . صدقنى إنى أعاملها وكأنها سراب .. ألا تصدقنى إذا قلت لك إنى أراها كأشباح .. لا حقيقة فيها .. ألا تصدقنى .

ونظر عبد الهادى إلى يوسف .. الذى كان يستمع إليه .. ولا يتوقع أن يطلب منه إجابة عن سؤاله .

وألح عبد الهادى :

- قل .. أتصدقنى ؟

قال يوسف بصوت هادىء :

ـ نعم أصدقك .

قال عبد الهادى وهو ينظر إليه مستريباً وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة .

ـ لماذا قرأت هذه القصة .. ولماذا رويتهالى ؟ ..

قال يوسف مفكراً

ـ لا أدرى ..

قال عبد الهادى وقد غلبه فضول :

ـ أكنت تتوقع أنى سوف أقول لك ما قلت الآن ؟

قال يوسف :

ـ أنا لا أتوقع شيئاً ولكن ..

وسكت يوسف .. فسأله عبد الهادى فى لهفة :

ـ ولكن .. ماذا .

قال يوسف متردداً :

ـ فى الحقيقة لا أدرى بالضبط ربما شعرت أنى لو قلت لك هذه القصة فسوف تقول لى شيئاً هاماً .

قال عبد الهادى فيما يشبه الضيق :

ـ لماذا أنت وحدك .. تبحث فى مثل هذه الأمور .. وتبحث عنها عندى .. أنا من بين جميع البشر .

قال يوسف ضاحكاً :

ـ كنت تسميهم منذ لحظة أشباحاً .. وبالطبع أنا لا أراهم كذلك .. ولكنهم لا يتحدثون مثلك .. أنت أقواهم وأكثرهم شجاعة وصراحة .

فهتف عبد الهادى مقاطعاً فيما يشبه الاحتجاج .

ـ اسمع .. أنا على استعداد لأن أسمع مثل هذه الأوصاف .. شجاعة .. صراحة .. بطولة .. إلى آخره من أى شخص آخر .. إلا أنت .. الآخرون لا أصدقهم فهم بكل تأكيد ينافقوننى .. ولا أهمية لما يقولون هم أشباح أو أعداء .. أما أنت فأمرك مختلف وكلماتك تزعجنى .. وعندما أسمعها منك

أشعر وكأنك تدبر لى مكيدة . وأنا لا أرغب فى السماح لهذا الشعور بأن يتغلب على .. وعندما أسأل نفسى ما سبب ارتباطى بك ؟ أذكر أنى أكره الطبيعة .. ولا أحب النزهات الخلوية .. وحياتى كلها فى مكاتب وغرف مغلقة .. وبين أثاث وموائد ومكاتب وأسرة أنام عليها فى غرف مغلقة وأسرة أنام عليها فى غرف نوافذها مغطاة بالستائر وأنت بالنسبة لى المنظر الطبيعى الوحيد الذى أتعامل معه .. فعندما أراك فكأنى رأيت نهراً أو ترعة أو شجرة وهذه الأشياء حقيقية ولكنها ساذجة .. صادقة ولكنها غير ماكرة مفيدة لمن يستغلها .. ولا تؤذى أحداً ..

قال يوسف متذكراً بعينين شاردتين :

- كان أبى يتهمنى بالغباء .. وأحياناً كان يصرخ فى عند أقل هفوة ، ياحيوان .. فأرتجف وأصدقه .. أما أنت فتقول لى يانبات ياشجرة ياترعة على أية حال ، يبدو أنى سأسمع مثل هذا الكلام حتى نهاية حياتى .

فقال عبد الهادى مازحاً .

- مثلك سوف تختطفه سريعاً امرأة .. وسوف تقول لك ما لم يسمعه أحد من كلمات الحب .. ولو كنت امرأة لا نقضضت عليك فى الحال .

قال يوسف فجأة مرتبكاً :

- ما رأيك فى النساء .. أهن أشباح أيضاً ؟.

قال عبد الهادى بغير تردد :

- عندما جئت كالراهب الذى تتحدث عنه إلى هذه الصحراء .. أعلنت موتى ، ورأيت نفسى ، أدفن مع أمى فى قبرها .. ومن بعدها تعاملت مع النساء كما أتعامل مع الرجال .. ليس بينى وبين أحد منهم ذكراً أو أنثى صلة خفية .. وشعارى مع المرأة هو نفس شعارى مع الرجل .. فهى حبيبتى . معبودتى . عدوتى .

ويكفينا الآن أن عبد الهادى كان يأخذ حياته وكأنها لا تختلف فى نظره عن حياة الراهب المتشدد فى رهبنته ، رغم كل ما فى هذه النظرة من تناقض وجرأة ووقاحة .

هناك حادثة أخرى ، لابد من ذكرها ، لأنها ارتبطت في أذهان كثيرين ف طنطا بانقطاع عبد الهادى نهائياً عنها ، رغم أن الكاتب يعلم أن هذه الحادثة لم تكن بكل تأكيد السبب فى انقطاعه ، وكان كثيرون يبررون عدم حضوره الأفراح والجنازات فى عائلته بأنه أقسم ألا يدخل المدينة ، وإنه لم يحنث بالقسم ، وإنه محق تماماً فى قسمه بعد ذلك الاتهام البشع الذى وجه إليه .

فقد شاع فجأة فى طنطا بعد اشتغال عبد الهادى مباشرة محررا قضائيا بجريدة الشعب ، إنه مصاب بداء الشذوذ الجنسى ، وإنه سبق أن ضبط ف واقعة أيام كان تلميذاً بمدرسة طنطا الثانوية ، فقد أمسكوا به فى دورة المياه مع ابن عمدة « كفر ع » كان طويلاً عريضاً ، له زوجة وأولاد ، وكان رغم ذلك ما زال تلميذاً فى المدرسة يمارس هواية اصطياد التلاميذ ، وليس الكاتب ف حاجة إلى أن يحذر القارىء من مثل هذه الشائعة .. فقد كان مصدرها فى ذلك الوقت الوفديين الذين حقدوا على عبد الهادى أو حقدوا على أبيه لسلاطة لسانه ، أو لتهريجه الذى تحملوه إرضاء للباشا ، ولكنهم حفظوه فى صدورهم تؤججه رغبة فى الانتقام . فما كادوا يرون اسم عبد الهادى فى جريدة الشعب وقد كتب عن قضايا وحوداث وجرائم ، حتى انطلقوا بالشائعة . وعلى أية حالة لم يؤثر هذا الاتهام فى مستقبل عبد الهادى ، كما إنه لم يكترث به ، ويلاحظ الكاتب أن الإتهام بالشذوذ الجنسى كان ظاهرة متفشية فى وقت من الأوقات ف معارك السياسة المصرية ، وليس لدى الكاتب تعليل لهذه الظاهرة التى أتهم بها رؤساء وزارات ووزراء وأمراء ونبلاء .

ولكننا لن نشغل أنفسنا بهذا كثيراً . وخاصة أن الوفديين فى مرحلة تالية تصالحوا مع عبد الهادى ، وتجاهلوا اتهامهم السابق الذى لم تتبق منه إلا تلك الحكاية التى يروونها أو يتهامسون بها فى طنطا . وما زال لها صدى ضعيف يتردد حتى اليوم فى القاهرة ، فتسمعها كقصة طريفة ، يرويها الراوى لتنتهى بضحكة عابرة . غير أن هذه القصة تثير بلاشك حرجاً خفياً عند الشبان الذين يلتفون حول عبد الهادى وما أكثرهم ، فالرجل اليوم أشبه

بشيخ طريقة ، لا يجلس ولا يتحرك إلا ومن حوله تلاميذه وأتباعه ، ومن بينهم يوسف منصور بطلنا ، الذى يشعر بينه وبين نفسه بشىء من الارتباك كلما أبدى عبد الهادى مظاهر عاطفية نحوه فيتساءل أهى عواطف طبيعية أم شاذة ؟ غير أن تساؤلات يوسف ظلت دائماً بلا إجابة ، ولم تكن هذه التساؤلات تلح عليه ، ولا كان يدور يلح فى الحصول على إجابة عليها ، حتى كانت الأيام التى تلت تنظيم الصحافة عام ١٩٦٠ ، عندما عين أحمد عبد السلام دياب رئيساً لمجلس إدارة الجريدة .. وقرر أن يطرد عبد الهادى من عمله ، فقد أثار فجأة حسن زيدان تساؤلاً خبيثاً حول الشذوذ الجنسى فى مجلس عبد الهادى . وفى فجر الليلة التالية كان عبد الهادى ويوسف وحدهما واقفين أمام بيت نور الدين بهنس ، وقال عبد الهادى ليوسف فجأة : إن حسن قد أثار موضوع الشذوذ الجنسى عامداً ، وإنه يتحرك من ورائه دياب الذى يريد أن يلوث سمعته قبل أن يعلن قرار فصله . ولسوف نذكر فيما بعد تفاصيل هذه القصة ، وما دار فى تلك الليلة أمام بيت بهنس .



اصدار جريدة جديدة

معلومات أخرى لا بأس من تسجيلها عن جريدة « العصر الجديد » التى ارتبط اسمها ، وذيوعها باسم عبد الهادى النجار . فالجريدة كما هو معروف من البيانات المذكورة بصفحتها الأولى ، تأسست عام ١٩٤٨ ، ولكن لعل كثيرين قد نسوا الآن أن ممولها الرئيسى كان بنك النيل الذى كان يساهم فيه مجموعة من كبار رجال المال المرتبطين بصناعة النسيج .. أما كيف حدث أن ارتبطت الصحافة بالنسيج فلذلك قصة . فقد قام أحمد باشا مدكور رئيس مجلس إدارة بنك النيل برحلة إلى امريكا فى بداية ذلك العام ، عاد منها ومعه أفكار جريئة عن إمكانية عقد اتفاق مع المليونير الأمريكى جاك فيشر الملقب بملك النايلون .. والذى أبدى استعداده لمناقشة مشروع لتمويل صناعة نسيج متطورة فى مصر ، تنتج منسوجات حديثة يستخدم فيها القطن المصرى مع ألياف صناعية جديدة . ولقد بذل مدكور باشا نشاطا واسعا لإقناع مجموعة من الممولين الكبار للانضمام لهذا المشروع ، فكان يقابل بمخاوف كثيرة ، منها أن ارتباط امريكا بالقطن المصرى ، سوف يقاومه رجال صناعة النسيج فى انجلترا .. وأن الحكومة الانجليزية سوف تتدخل لسحق هذه

المحاولة ، والانجليز مازالوا أصحاب الكلمة العليا فى البلد ، والمنافسة الأمريكية لانجلترا فى مصر مشكوك فى نجاحها .. لأن الامبراطورية البريطانية مازالت هى الامبراطورية ، وقد خرجت من الحرب منتصرة ، واذا كانت تعانى من أزمة اقتصادية حادة .. فليس من المعقول أن تستسلم لامريكا أو على الأصح لنزوات المليونيرات الأمريكيين ، ولا تنس

يا اكسلانس ـ والحديث كان موجهاً إلى مدكور باشا من مليونير سورى ـ أن هؤلاء الأمريكان لديهم القوة والثروة ولكنهم لا يتحركون بغير عقل انجلترا ، وسياسة انجلترا . وصحيح أن جاك فيشر مليونير خطير الشأن . ولكنه مجنون ، هوايته قيادة سيارات السباق والزواج من ممثلات هوليود . وهو اليوم يقول فكرة وغداً يقول نقيضها . وقال مليونير آخر لمدكور باشا .. إنه يخشى مقاومة كبار منتجى القطن فى مصر . إن خضوع القطن المصرى لصناعة أمريكية ، هو فى نفس الوقت خضوع لأكبر منافس فى الأسواق العالمية للقطن المصرى .. فالإنتاج الأمريكى من القطن وافر وسوقه ممتدة ومتشعبة فى العالم بأسره ، وهو قادر على التحكم فى الأسعار ولا منافس له إلا القطن المصرى بما له من مميزات خاصة فى الغزل الرفيع . وهذا المشروع سوف يحولنا إلى مجرد سماسرة نتقاضى العمولة التى يحددها ويفرضها المنتج الأمريكى ، ولكن مدكور باشا كان يفند هذه المخاوف ، ويثير ضدها مخاوف من نوع آخر . فالوقت قد أزف لرؤية الأمور على حقيقتها ، إن الحرب العالمية الهائلة التى انقضت منذ ثلاث سنوات ، قد غيرت وجه الدنيا ومن لم يدرك هذا بسرعة سحقته الأيام . ولا أحد يفكر بعقله ثم يشك فى أن أمريكا خرجت وحدها من هذه الحرب منتصرة . أما انجلترا وفرنسا فهما تقفان فى صف المهزومين مع ألمانيا واليابان . وجاك فيشر الذى تصفونه بأنه مجنون يشترى الآن مصانع فى انجلترا نفسها ، فحتى لو تمسكنا بصلاتنا التقليدية مع الانجليز ، فسنكتشف بعد سنوات قليلة أن الذين نتعامل معهم فى ليفربول هم الأمريكان . وأقسم لك ـ هكذا كان يردد مدكور باشا لكل من ناقشه ـ أن جاك فيشر قال لى إنه معجب بجسر لندن الشهير ، وإنه يفكر فى شرائه ونقله إلى

نهر كولورادو فى أمريكا .. ولعل القراء يذكرون أن هذا قد حدث بالفعل بعد حوالى عشرين عاماً . وإن كان الذى اشترى الجسر مليونيراً آخر ، ولعله كان قد سمع بالفكرة من جاك فيشر . وهكذا كان مدكور باشا يتحدث وكأنه نبى يحمل رسالة ، تهدف إلى نبذ الأفكار السائدة بين رجال المال فى مصر .. عن الارتباط بانجلترا وضرورة التوجه بسرعة إلى الكعبة الجديدة واشنجتون .

وكان مدكور باشا يؤكد فى حرارة أن مشروعه هو الحل الوحيد لإنقاذ القطن المصرى من نهاية مؤسفة سوف تؤدى باقتصاد البلد إلى كارثة ، فالحديث عن أهمية القطن المصرى وميزاته المتفوقة ، أصبح خرافة لا يصدقها إلا الواهمون . إن معامل الأبحاث فى مصانع جاك فيشر تبتكر كل يوم أليافاً صناعية جديدة وأقمشة من نوع جديد ، ويشير مدكور باشا إلى قميصه ويقول « هذا القميص ياكسلانس لا يتكرمش أبداً ، وبعد غسيله لا يحتاج إلى كواء ، وثمنه أرخص من أى قميص من القطن ، فهل ننتظر حتى يأتى اليوم الذى لا نجد فيه مشترياً واحداً لأقطاننا ، أم نضع أيدينا فى يد جاك فيشر ونطور صناعة النسيج ، ونجرى الأبحاث حول أقمشة يدخل فى نسيجها القطن المصرى مع الألياف الصناعية الأمريكية ، ونضمن بمساعدة فيشر تسويقاً عالمياً لمنتجاتنا . عليكم أن تختاروا ياسادة ، بين إنتاج الشيت والدبلان للفلاحين ، وتسويق بضاعتنا الكاسدة عند تجار المانيفاتورة ، وبين الخروج من هذه المصيدة إلى أسواق العالم » وعاد مدكور باشا يتفحص الوجوه الصارمة تطل منها عيون ثاقبة متحفزة ، كان قد دعا بعض رجال المال المساهمين فى البنك إلى العشاء فى قصره بجاردن سيتى وكانت الطائرات قد حملت إلى المائدة الاستاكوزا من جزيرة شدوان بالبحر الأحمر ، والبط بصلصة البرتقال من مطعم مكسيم فى باريس والزهور من روتردام فى هولندا .

وكان رغم ذلك عشاء خاصا ، لم يحضره سوى خمسة رجال ، وسيدة واحدة ، هى « ميمى » عشيقة مدكور باشا ، التى انصرفت بعد العشاء مباشرة . وتركت الرجال للحديث والقهوة والكونياك والسيجار . وما كاد الرجال يطمئنون إلى مقاعدهم الوثيرة ، حتى قال أحد المدعوين لمدكور باشا :

- يا باشا .. إن هذا المشروع سوف تكون له ردود فعل سياسية شديدة التعقيد .

فقال مدكور باشا بلهجة من يتوقع السؤال :

- بالطبع .. ولهذا جمعتكم أنتم بالذات .. بالتأكيد سوف يكون علينا أن نواجه هجمات من كل مكان .. السراى .. والانجليز .. والاحزاب . ولكنى ماتحدثت معكم فى هذا المشروع إلا بعد أن وضعت خطتى كاملة .. ولقد ناقشتها بالتفصيل مع خبراء چاك فيشر .. فإننا لن نتقدم خطوة واحدة قبل أن نمهد لها .

وأفاض مدكور باشا فى شرح خطته ، وتحدث عن ضرورة الاتصال برجال السراى ، وخلق جو موال للمشروع بين حاشية الملك ، وتحدث عن الاعتراضات التى قد تثور من جانب الانجليز وسوف يتولى الجانب الامريكى مهمة التصدى لها .. وتحدث عن الاتصال ببعض العناصر التى يمكن التفاهم معها فى جميع الاحزاب .. حتى قال وهو ينظر فى وجوه ضيوفه واحدا واحدا .

- علينا ياسادة قبل هذا كله أن نكتسب قوة خاصة بنا .. قوة لها تأثيرها فى الرأى العام . وتسمح لنا أن نتحدث مع الجميع سواء السراى أو الأحزاب .. ونحن نملك سلاحنا القوى .

ثم قال ببطء وهو يراقب أثر كلماته فى العيون المتربصة التى تعلن فى حزم إنه لا تنقصها شجاعة القبول ، أو وقاحة الرفض .

- علينا أن نصدر جريدة .

وارتفع أكثر من صوت يحتج :

- هذا يورطنا أكثر مما يفيدنا .

- قل ياباشا صراحة .. إنك تريد أن تصبح رئيساً للوزارة .

- هل نترك أعمالنا لنتحول إلى « جرنالجية » .

وابتسم مدكور باشا قائلا :

- نفس الاعتراضات التى قلتها عندما حدثنى چاك فيشر فى هذا الموضوع .. ولكنى اقتنعت آخر الأمر .. قال لى .. ياعزيزى مدكور .. أنا لا أضع أموالى فى

مكان قبل أن أوفر له كل وسائل الحماية .. ومن أهم هذه الوسائل أن تكون الصحافة معك .. وإما أن تدفع لها وأما أن تكون لك صحفك الخاصة ، وهذا أوفر لك ، وهو يضمن لك إمكانات واسعة للتخطيط لمشروعات أخرى فى المستقبل وصدقونى .. أن الرجل عنده من المعلومات والتقارير عن أهمية الصحافة المصرية أكثر مما يعرفة أحد فى هذا البلد حتى أصحاب الصحف أنفسهم .. إن هذا الرجل يؤمن فى شىء بسيط جدا .. وهو المعلومات .. إن المال بغير معلومات ، لا يساوى شيئاً .. ولكن مالا ومعلومات يساوى سلطة جبارة قادرة على إنجاح أى مشروع ، والصحافة لا تنقل المعلومات إلى القارىء وحسب إنها تجمع أضعاف ما تنشره للقارىء من معلومات ، كلها سوف تكون تحت أيدينا ولسوف نستفيد منها ولن نكون « جرنالجية » بل أقول إننا لن نظهر فى الصورة على الإطلاق كل ما سوف نفعله .. هو أننا سوف نختار الاشخاص المناسبين ونمولهم ليصدروا الجريدة .. جريدتنا .. وسوف يسهل لنا چاك فيشر عملية إستيرد أحدث آلات الطباعة . وسوف يرسل لنا أية كمية نحتاجها من الورق .

قال أحد الضيوف :

- إن الموضوع يزداد تعقيدا ..

فقاطعه مذكور باشا :

- نعم هو معقد .. ولكن ماذا ننتظر من مشروع كبير مثل هذا قد يكون بمثابة نقطة تحول فى تاريخ البلد .. إن الاحداث تجرى من حولنا بسرعة .. وعلينا أن نتحرك على مستواها .. وإلا غلبنا على أمرنا .

واستمرت المناقشة حتى ظفر مذكور باشا بالموافقة على مشروعه ، وكان ذلك عندما بدأ أكثر من صوت يسأله .

- من الذى يستطيع أن يدير مثل هذه الجريدة ؟

- ومن أصلح من عبد الهادى النجار .

وابتسموا عند سماع الاسم ، فهم يعرفون صلة عبد الهادى النجار أحد رؤساء تحرير جريدة الأيام بمذكور باشا . والحساب الجارى لعبد الهادى

النجار فى بنك النيل يشرح هذه الصلة .. ويفسر الاحاديث والصور التى تنشر لمدكور باشا بلا إنقطاع . حتى عشيقات مدكور باشا كان لهن حظ كبير فى هذه الدعاية .. والقراء تذكروا ولا شك قصة « ميمى » التى حضرت وحدها ذلك العشاء التاريخى فقد كانت عاملة مانيكير عند بيير الحلاق ، فأخرجها الباشا من عملها لتصبح سيدة صالون ، يقبل أناملها المليونيرات .. نفس الباشوات الذين كانوا يمدون لها أصابعهم لتقلمها وهى عاملة مانيكير . ولقد بدأ القراء يسمعون عن « ميمى » فى مرحلة تالية .. عندما بدأت جـريدة « العصر الجديد » تنشر لها صورا رائعة وتقدمها كاكتشاف سينمائى جديد ، لمع فى سماء الفن ويتنافس المخرجون لإظهارها فى فيلمها الأول . وكانت « ميمى » قد يئست من إقناع مدكور باشا بالزواج منها ، فالرجل له زوجته وأولاده ، ولا يؤمن بتعدد الزوجات فرأت أن تصنع شيئا لمستقبلها .. فقالت له ذات ليلة إنها تريد العمل فى السينما ، وقال مدكور باشا على الفور :

ـ غالى والطلب رخيص .

واتصل بعبد الهادى ، وكلفه بأن يجعل من « ميمى » نجمة سينمائية وانطلق لسان عبد الهادى فى مجلسه يتحدث عن أجمل امرأة رآها فى حياته .

ودعا المخرجين والصحفيين إلى حفل فى مسكن « ميمى » بالزمالك ليتعرفوا عليها ، وكان عبد الهادى يصيح فيمن حوله وقد غلبه حماس لا يمكن وصفه بأنه مصطنع ..

ـ أقسم إن جمال هذه المرأة ينمو كل لحظة .. أنظروا بأعينكم هاهى تزداد جمالاً .. هاهى تتفوق على جمالها الذى كانت عليه منذ دقيقة فاتت . سبحان الله .. هذه معجزة .. إنها الآن أجمل وأجمل ..

وأخرج عبد الهادى نظارة سوداء ووضعها على عينيه ، وهو يصيح فى المدعوين :

ـ افعلوا مثلى .. حتى لا يبهركم جمالها فيصيبكم بلوثة جنون ..

وقال المخرج سليمان للأستاذ عبد الهادى ، وكان يظن أن ميمى عشيقته :

- لماذا لا تكتب لها قصة موضوعها هذا الجمال الذى ينمو لحظة .. بعد لحظة .. وتصور لنا شعور رجل وهو يقبلها .. وصورتها تزداد حلاوة فى عينيه لقطة بعد لقطة .. حتى تبدو فى النهاية وكأنها ملاك هبط من السماء .. سيكون المشهد جديداً فى السينما .

وصاح عبد الهادى :

- إن الذى يكتب قصة هذا الجمال .. لابد أن يكون أعظم كاتب فى هوليود ..

ويذكر القراء أن « ميمى » ظهر لها فيلمان أو ثلاثة ، ثم اختفت ، لأن أفلامها فشلت فشلاً ذريعاً .. وكان مدكور باشا قد هجرها .. والذى يعلم بمكان « ميمى » الآن هو الدكتور عبد الحليم النمر ، مدير مستشفى الخانكة ، أو دار الصحة النفسية فهى نزيلة دائمة عنده ولا أمل لها فى الشفاء .

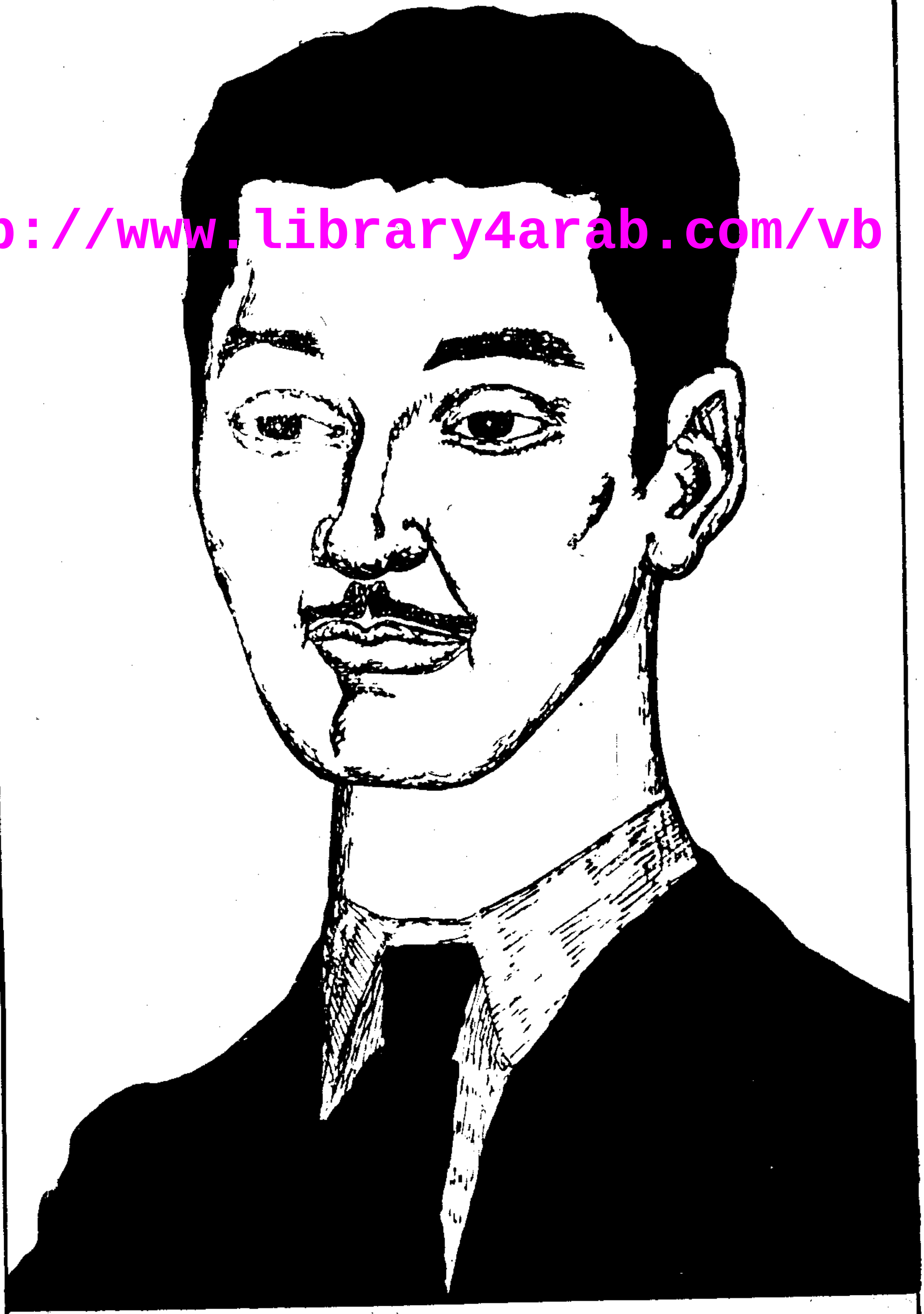
إن هذا الحماس الذى انطلق به عبد الهادى لخلق نجمة سينمائية من « ميمى » ، يصور لنا لمحة بسيطة من حماسه الهائل الذى اندفع به ، لإعداد جريدة « العصر الجديد » فور اتفاقه مع مدكور باشا . والذى اختار اسم الجريدة هو عبد الهادى ، وقال إنه التقطه من حديث مدكور باشا له ، عن تصوره لأهداف الجريدة ورسالتها ، الحياة الجديدة التى تنتظر مصر ، حياة ما بعد الحرب ، وحياة التقدم الصناعى ، والاختراعات الأمريكية ، ونظم الإدارة الأمريكية .. ونموذج الثراء الأمريكى الذى يدفعنا إلى إقامة اقتصاد مصرى يتخطى تماماً مرحلة بنك مصر . واستمع عبد الهادى لمدكور باشا وهو يتحدث عن ضعف الانجليز أعدائنا أمام أمريكا .. وبدا له كأن معنى جديداً يشرق فى رأسه ، فها هى حلقة جديدة تضاف إلى تلك الحلقات التى كان يتابعها منذ بداية حياته والمتصلة بالسلطة والأعيان الذين كان والده يتحدث عنهم كحكام ثم صدقى باشا والإنجليز الحكام الحقيقيين وأصحاب القوة الحقيقية ، والآن هاهى قوة جديدة تظهر أمامه ويتحدث عنها مدكور باشا بكل

هذا الاهتمام والإعجاب .. إن عبد الهادى ليرحب بهذه الفرصة التى قد تتيح له كتابة مقالات ساخرة عن الإنجليز ، سوف تكون فضلاً عما فيها من سخرية عملاً وطنياً يشيد به القراء . وطلب مدكور باشا من عبد الهادى أن يجمع فى الجريدة أكبر عدد من كتاب مصر ، وأن يبحث عن أكثرهم أهمية وأغزرهم علماً وفناً فى نظر القراء ، بصرف النظر عن ارتباطاتهم الحزبية فجريدة « العصر الجديد » يجب أن تكون فوق الأحزاب جميعاً ، وهى قادرة على ذلك بما لديها من مال وبما تملكه من خبرة وكفاءة صحفية يمثلها عبد الهادى وهكذا تجمع بالفعل أكبر عدد من كتاب مصر فى « العصر الجديد » وعلى رأسهم الكاتب المشهور الأستاذ على همام الذى كان يتمتع بسمعة عالية بين القراء ككاتب واسع الإطلاع وصاحب مدرسة فكرية لها تأثيرها بين المثقفين ،

ولكن الأستاذ همام أثار أول الأمر مشكلة خطيرة فقد اعترض على أن يكتب فى جريدة يرأس تحريرها ذلك « الصعلوك الجاهل المأفون » عبد الهادى . وبدأ الأستاذ همام يثرثر فى صالونه الأدبى مبدياً شكوكه فى هذه الجريدة . التى يزمعون إصدارها ، وليس لها مبدأ تدافع عنه أو حزب تتحدث باسمه ، وكل ما تعتمد عليه ، هو ذلك البهلوان عبد الهادى الذى استطاع أن يخدع مدكور باشا ويحصل منه على نقود ، فى أكبر عملية نصب قام بها نصاب فى تاريخ مصر . فهكذا خيل لهمام السر الدفين وراء إصدار هذه الجريدة . ولكن عبد الهادى لم يغضب ، وصمم على الظفر بالأستاذ همام ، وكل همه ألا يخلق أعداء أقوياء للجريدة .. وهى التى تسعى إلى أن تحشد فى صفحاتها أكبر قوة كاتبة ومؤثرة فى الرأى العام ، وقال عبد الهادى لمدكور باشا ، إن حل الأزمة ، فى رفع أجر الأستاذ همام عن المقال الذى يكتبه ، فالأستاذ همام ليس عبقرياً فى الفكر فقط . بل هو عبقرى قبل ذلك فى جمع المال واكتنازه ، واكتشف مدكور باشا صدق فراسة عبد الهادى ، فعندما اتصل تليفونياً بالأستاذ همام وقال له إنه سوف يقبض خمسين جنيها عن المقال الواحد ، قبل همام ، وإن اشترط حفظاً لكبريائه ألا يدخل مبنى الجريدة طالما عبد الهادى رئيساً لتحريرها ،

وقد يتشكك القارىء فى صحة هذه القصة ، وخاصة أنه معروف أن الأستاذ همام له مكتب الآن فى الجريدة لا يبعد خطوات عن مكتب عبد الهادى . ولكن هذا حدث بعد الثورة لا قبلها ولسوف نعود إلى ذلك .





يوسف منصور

أزمــة
فى العصر الجديد

التحق بطلنا يوسف منصور بالعمل فى جريدة « العصر الجديد » فى ديسمبر عام ١٩٥٠ ، وبذلك بدأت أول خطوة فى أحداث هذه القصة ، وكما هى العادة مع الأحداث الكبيرة ، فإن البداية تأتى متمهلة بطيئة ، تكاد لا تعنى شيئاً ، كبذرة يخفيها الفلاح تحت التراب ، فلا تراها العين ..

ولا يحس بوجودها إنسان ، ثم تمر السنوات ، فإذا بهذه البذرة الصغيرة شجرة باسقة عالية لها جذور ممتدة فى الأرض وأفرع متطلعة إلى السماء . غير أننا لن نتوه وراء هذه التعبيرات الإنشائية وسنكتفى الآن بتسجيل الظروف التى دخل فيها يوسف مبنى جريدة العصر الجديد ، ولقائه الأول بالأستاذ عبد الهادى النجار والمعروف أن الجريدة ولدت ناجحة ، فهكذا كان يردد الناس فى كل مكان ، وهذا صحيح بمقياس ما أحدثته من ضجة وإثارة ، إذ استخدمت المانشتات الكبيرة الحمراء وأبرزت فى صفحتها الأولى أخبار الجرائم ، وأخبار الزواج والطلاق فى الطبقة الراقية ، وكانت مثل هذه الأخبار لا تنشرها إلا بعض المجلات الأسبوعية فى صفحاتها الأخيرة ، وشاهد القراء

لأول مرة عدداً ضخماً من صور زوجات كبراء وعظماء . وعرفوا أسماءهن وتتبعوا أخبارهن فى الحفلات والصالونات ، وكان عبد الهادى يعطى مثل هذه الأخبار اهتماماً خاصاً ، يفوق اهتمامه بأخبار حرب فلسطين أو مناقشات البرلمان فى أمور السياسة والاقتصاد . وكان عبد الهادى يحول فى كثير من الأحيان أخبار السياسة إلى أخبار مجتمع ، فالخلاف بين حزبين سببه غيرة بين زوجات وزراء ، أو زعماء أحزاب ، كذلك كان يفسر المواقف السياسية بعلاقات الصداقة وما وراءها من أطماع ، أو الخصومات الشخصية التى تحركها مصالح متضاربة ، كذلك النزاع على نظارة الوقف بين رئيس الوزراء .. ورئيس وزارة سابق .. أو تلك المشادة البرلمانية فى مجلس الشيوخ حول سياسة الجمارك ، والتى كان وراءها تنافس حول منصب عضو مجلس إدارة شركة قناة السويس بين قطب سعدى وآخر حر دستورى . وكان طبيعياً أن تحدث هذه الأخبار فزعاً بين شركاء مدكور باشا ، الذين بدا لهم وكأن الزمام قد أفلت من أيديهم ، وأنهم خلقوا بأيديهم وأموالهم الوحش الذى سيفترس منافسيهم كما يفترسهم . وزاد من فزع هؤلاء الشركاء أن الحقيقة كانت غير الظاهر الشائع . فالجريدة من ناحية التوزيع ليست رائجة كما هو شائع عنها وأكبر توزيع وصلت إليه خلال العامين الأولين أى من صيف ١٩٤٨ حتى صيف ١٩٥٠ ، لم يزد عن عشرين ألف نسخة . وما كان أحد ليصدق هذه الحقيقة فاسم الجريدة على كل لسان ، وما تنشره من أخبار وفضائح .. يحدث ردود فعل فى الأندية والصالونات وأروقة البرلمان وكم من مناسبة .. تحدث فيها رجال حاشية الملك ، عن اهتمامه بما ينشر فى « العصر الجديد » وأنه كان أحياناً يقهقه حتى تدمع عيناه ، وأحياناً كان يثور ويمزق الجريدة .

ونفس الشىء كان يحدث بين رجال الأحزاب . فأحيانا يشمتون فى اعداء لهم . واحيانا يفزعون من شماتة اعداء لهم .. ولا أحد يعرف إلى أين ماضية هذه الجريدة ، وما الذى تريده بالضبط ، ومع من تقف ، وضد من تحارب .. وفى نفس الوقت كان واضحا من كشوف الحسابات ، وميزانية الجريدة عن

عامها الأول ، أن الحال لو استمر على هذا المنوال فلابد من مواجهة خسائر جسيمة ، وسمع عبد الهادى همسا كثيرا ، بأن مدكور باشا يواجه ضغوطا شديدة من شركائه الذين يطالبون بأن يرفع بنك النيل يده عن هذا المشروع الخاسر وخاصة أن الاحوال السياسية تزداد اضطرابا بعد حرب فلسطين وإعلان قيام دولة إسرائيل ، وانفجار القنابل فى البلد . وارتفعت أصوات هنا وهناك تنادى بحكم الإسلام أو تنادى بالاشتراكية أو بالشيوعية وهو ما جعل المليونير جاك فيشر يؤجل باستمرار مشروعه الكبير ، بدعوى أن الظروف لا زالت تحتاج إلى تمهيد قبل الدخول باستثمارات كبيرة فى مصر وكانت الهمسات التى سمعها عبد الهادى أقوى من أن يتجاهلها ، كما أنه كان أذكى من أن يتوهم استمرار مدكور باشا فى تحمل خسائر الجريدة ، فالرجل قبل كل شىء ، رجل مال .. ومثله كفيل بأن يسد الباب الذى تأتى منه الخسارة ويستريح . وجلس عبد الهادى صباح يوم فى مكتبه يفكر فى كل هذه المشاكل ، ثم يتساءل ماذا يكون مستقبله ، فيتخيل عودته إلى جريدة الأيام ، وهى عودة ذليلة بعد هزيمة انتهت بإغلاق جريدة . هل من سبيل لإنقاذ نفسه وسمعته ، إنه مازال يتحدث عن « العصر الجديد » باعتبارها أكثر الصحف المصرية انتشاراً ، ولا أحد يسأله عن رقم التوزيع ، إلا قال له بسرعة وكأنه يقرر بديهية .. إن التوزيع يزيد على المائة ألف نسخة يومياً . هل يفتعل موقفاً وطنياً جريئاً يؤدى إلى تدخل السلطات بإغلاق الجريدة ، يهاجم السراى مثلاً ، ولكن مثل هذا الهجوم قد تكون له عواقب وخيمة ، إلا إذا لجأ إلى من يحميه ، يعلن انضمامه مثلاً إلى الوفد ، إنه حزب متضخم فى هذه الأيام بشخصيات متنافرة ، من كبار الأعيان إلى كبار الشيوعيين ، وهو قادر على أن يجد مكانه فى ذلك الحزب ، ولكنه سوف يتعرض لمخاطر الضياع وسط هذا الزحام الوفدى الكبير ، ثم أن الوفديين لهم رجال صحافتهم الكبار . وهم لن يضعوا عبد الهادى فى مكانه اللائق به ، لا شىء يعادل مكانه الحالى .. حيث يشعر بقوته واستقلاله ، ومن ورائه أموال بنك كبير تمده وتسعفه . إنها أيام ذهبية توشك أن تضيع . هل ينضم إلى السعديين ، ربما تفوق بسرعة

بينهم ، ولكنهم بغير صحافة جديرة به والنقراشى باشا المدرس السابق جعل منهم تلاميذ فى مدرسة ، يتحدثون بمنطق المدرسين الذين يتعاملون مع الأطفال . إنه لن يحصل على فرصة بينهم ، فهل ينضم إلى السراى ، ويتعامل مع حاشية الملك ، ولكن هذه مغامرة تحتاج إلى أموال طائلة يبعثرها يميناً ويساراً قبل أن يصل إلى شىء . وهو لا يملك المال ولو كان معه آلاف الجنيهات لفعل مثل المقاول محسن عبد الوهاب الذى ذهب إلى نادى السيارات وخسر كل ليلة على مائدة فاروق بضعة آلاف فى البوكر المكشوف استطاع أن يعوضها أضعافاً مضاعفة فيما حصل عليه من صفقات ومقاولات . وابتسم عبد الهادى وهو يذكر تلك القصة التى نشرها فى الصفحة الأولى منذ أسبوع عن الثرى الوجيه محسن عبد الوهاب ، الذى عاد إلى بيته فى الفجر ، فأيقظ زوجته من النوم ، وقال لها وقد تهللت أساريره « باركى لى يابكيزة هانم . أنا خسرت الليلة فى نادى السيارات عشرين ألف جنيه » وفهم القراء من الخبر الغريب ، أن الرجل قد دفع المبلغ للملك فاروق رشوة مقابل حصوله على مقاولة بناء ملاجىء العجزة فى مديريات الوجه البحرى . وقد نشر عبد الهادى خبر هذه المقاولة فى اليوم التالى مباشرة .

قال عبد الهادى لنفسه ، كل هذه الاحتمالات ، لا تصلح لى .. بعد أن أصبحت هنا ، وعرفت مكانى هذا ، والأدهى والأكثر مرارة ، أنى مقتنع تماماً بما قاله مدكور باشا عن المستقبل ، فكل هذه القوى سوف تنهار ، وهى تأكل بعضها بعضاً الآن ، وما هذا الذى يحدث إلا بداية انفجار ، سوف يحولهم جميعاً إلى كومة انقاض ، ولو بقيت مكانى فسوف أقف فوق أشلائهم قوياً ساخراً إنهم الآن موتى فى نظرى .. أما الحياة الحقيقية ، فستكون مع القوة الحقيقية ، والثراء الحقيقى .. والعلم الحقيقى ، والمخترعات الحديثة ، والتطور الجديد .. وسوف يقود هذه الحياة ، رجال مثل مدكور باشا ، يعملون على مستوى عالمى ، يقيمون شركات مصرية أمريكية ، وصناعة مصرية أمريكية ، ولسوف أكون هنا صوتاً قوياً لا يجرؤ أحد على الوقوف أمامه ولكن

للأسف كل هذا أصبح معرضاً للضياع ، والجرى وراء هذه الأحلام لن يفيد .
ماذا أفعل والهزيمة توشك أن تنقض على . ومدكور باشا يرفض الاتصال بى منذ أكثر من ثلاثة أيام . ولابد أنه قد فرغ الآن من إعداد قراراته بإغلاق الجريدة إنه لن يسألنى أو يستشيرنى فى أمر القذف بى إلى الشارع . فهكذا يتصورون عندما ينعزلون عن العالم . كم كنت غبياً إذ تورطت مع هذه الأحلام .

إن المشاريع العظيمة لا تتحقق بهذه السهولة ، ولقد تعلمت الدرس بعد فوات الآوان ، لا يجب أن أندفع كالثور الهائج وراء انتصارات .. فالاندفاع لا يؤدى إلا إلى الأوهام .





ابن أحد الرجال الطيبين

كانت الهواجس تنهش عبد الهادى وتتصارع داخله ، وهو عاجز تماماً عن رؤية مسلك يتخذه ، بل إنه عاجز عن إدارة عمله اليومى ، فألغى جميع اجتماعاته ، ورفض مقابلة أحد من المحررين ، خشية أن يسمع مرة أخرى من يهمس له فى قلق ، إنه سمع بخبر قرار إغلاق الجريدة ويسأله عن صحة الخبر .

ونهض عبد الهادى فجأة وقرر أن يغادر مكتبه ، وأن يذهب إلى بيت صديقه نور الدين بهنس فربما وجده يلعب البوكر فينضم إليهم ، وتردد برهة أمام التليفون ، إنه يريد أن يهرب من هذا المكان بأية حجة ، ولسوف يحرج نفسه لو اتصل بنور الدين فلم يجده فى منزله ، كانت أصابعه تلمس التليفون ، وفجأة نزعها عنه مرتجفاً ، وكأن دقات الجرس قد لسعته . ورفع السماعة فى هلع ، واستمع إلى صوت مدكور باشا منتظراً سماع حكم الإعدام .

قال الباشا بسرعة :

- سوف أرسل لك .. ابن أحد الرجال الطيبين .

ولم يفهم عبد الهادى ولم يسمع بقية الكلام ومضت برهة قبل أن يقول بصعوبة :

- أفنـــدم .

كان الباشا يتحدث عن مستشار اسمه محمد بك منصور .. وشاب سوف يصل إلى عبد الهادى الآن ليعينه فى الجريدة .

قال عبد الهادى بصعوبة .. وخاطر يهمس من بعيد فى مؤخرة رأسه .. إن الباشا وهو يفكر فى تعيينات جديدة ، لن يفكر فى إغلاق الجريدة .

- بالطبع ياباشا .. سأعينه فوراً .

وتشجع عبد الهادى ، وطلب من مدكور باشا أن يسمح له بلقاء قريب ، فدعاه إلى بيته فى المساء .. وانتهت المكالمة .

ماذا قال الباشا بالضبط ، إنه لا يدرى ، ولكن يبدو أن الأمور تسير فى اتجاه آخر .. نعم .. وهذا الشاب القادم من عند الباشا يحمل معه كل ما فى الدنيا من فأل حسن . وسوف يعلم منه عبد الهادى الكثير عن الباشا وحالته النفسية .. وشعوره نحو الجريدة . إن هذا القادم كنز ثمين . إنه سيصدر أوامره بتعيينه ابتداء من اليوم .. كان عبد الهادى متحمساً لاتخاذ هذا القرار السريع وكأنه يصدر قراراً بتعيين نفسه . وانتظر وصول الشاب وهو ينظر فى ساعته . وطلب سكرتيره وقال له ، إن شاباً سوف يأتى فعليه أن يدخله فى الحال .. فسأله السكرتير فى دهشة ، عن اسم القادم . وفوجىء عبد الهادى بأنه لا يعرف الاسم ، فصاح غاضباً :

- إنه قادم من عند مدكور باشا .. أما اسمه فلا أحفظه .

وعجب عبد الهادى من غضبه ، وجعل يفكر فى اسم محمد بك منصور المستشار الذى تحدث عنه مدكور باشا .. إنه لا يعرف عنه شيئاً ، وسرعان ما اعترف بأنه غاضب فى الحقيقة من نفسه . وفجأة وجد شاباً طويلاً نحيلاً ، شاحب الوجه . أبيض البشرة ، ينظر إليه بوجه طفل تطل منه عينان فيهما صفاء غريب ، حتى خيل إليه أنه يحلم بوجود هذا الشاب الذى لا يدرى كيف

دخل ، يحوطه هذا السكون الشديد . كان الشاب واقفاً عند الباب متردداً فى الدخول . وما كاد عبد الهادى يراه ، حتى تهلل وجهه .. ولم يتمالك نفسه فهتف مرحباً فى ود حقيقى :

ـ أهلاً .. أنت الذى أرسلك مدكور باشا .. تفضل .. إنى أستبشر بك .. ولا تسألنى ما السبب .

وتوقف عبد الهادى ، وقد فطن إلى أنه يثرثر بكلام غريب ونهض مصافحاً الشاب ، وطلب منه الجلوس على مقعد بجوار مكتبه .. وهو يعيد فحصه فى فضول . وقال عبد الهادى :

ـ يبدو عليك أنك من النوع الخجول .

وأطرق الشاب برأسه ، وقد زاد خجله ، أو ارتباكه .. فسأله عبد الهادى :

ـ ما اسمك ؟

أجاب الشاب :

ـ يوسف منصور .

قال عبد الهادى على الفور :

ـ هل لك صلة بالمستشار محمد بك منصور .

قال الشاب بصوت ضعيف :

ـ المرحوم أبى .

أطرق عبد الهادى .. ثم رفع رأسه وسأل بصوت قوى :

ـ هل اشتغلت بالصحافة ؟.

قال يوسف ، وهو يتراجع إلى الوراء .. منكمشاً فى مقعده :

ـ لا ..

فسأله عبد الهادى وقد بدأت نبرة السخرية تعود إلى صوته :

ـ وهل عندك فكرة عن الصحافة ؟.

أجاب يوسف :

ـ لا ..

وضحك عبد الهادى . وقال بصوت مرح :

ـ عظيم .. احكى لى كيف وصلت إلى هنا .

ورفع يوسف عينين بريئتين ، يشوب صفاءهما خوف أطفال وتحركت شفتاه .. ولكنه لم يتكلم .

قال عبد الهادى مشجعاً وساخراً :

ـ تكلم .. هل أنت خائف منى ؟.

قال يوسف بسرعة :

ـ جئت ماشياً .

فقاطعه عبد الهادى بقهقهة عالية :

ـ لا أقصد هذا .. قل لى كيف عرفت مدكور باشا ؟.. وكيف فكر فى اشتغالك هنا ؟.

وفوجىء عبد الهادى وقد احمر وجه يوسف .. قائلاً بصوت عصبى فيه بعض حدة ولكنها لا زالت حدة أطفال :

ـ أنا لست خائفاً منك .

قال عبد الهادى باسماً :

ـ طبعاً .. وأنا آسف .. كل ما قصدته هو تشجيعك ، حتى لا تعاملنى كغريب .

فابتسمت عينا يوسف ، وقال ببساطة :

ـ أنا فعلاً فى حاجة إلى تشجيع .. وفى الحقيقة أنا خائف ومرتبك . فهذه أول مرة أدخل فيها جريدة .

صاح عبد الهادى :

ـ سوف تتعود .. وسوف تتخلص بسرعة من كل ارتباك .. اطمئن .. فهنا أسرع مكان لتغيير طبائع البشر .. ولكن قل لى كيف وصلت إلى مدكور باشا ؟.

قال يوسف :

- إنه صديق المرحوم أبى .. كانا فى السعيدية ، وفى كلية الحقوق وكنت أراه فى عيد ميلادى .. عندما يأتى إلى بيتنا .. ولقد حصلت على الليسانس قسم الإنجليزى فى مايو الماضى .. ثم ذهبنا إلى الأسكندرية وقضينا الصيف هناك .. ثم عدت إلى البيت ومنذ شهر جاء عبد اللطيف بك سعود وهو مستشار صديق للمرحوم والدى لزيارتنا ، وكانت زيارة مفاجئة وسأل والدتى عنى . فلما علمت أنى بلا عمل ، قال إنه سوف يساعدنى ثم جاء صباح اليوم وأخذنى لزيارة مدكور باشا فى البنك .

سأله عبد الهادى وهو يخفى لهفته :

- وماذا قال لك الباشا ؟.

- قال إن وظائف البنك لا تصلح لليسانس الآداب .. وأنه يرى أن العمل فى الجريدة سيكون مناسباً لى .

ولم يخف عبد الهادى اهتمامه وهو يسأله :

- هل قال لك إن مستقبلك فى الجريدة سيكون مفتوحاً ؟.

قال يوسف وقد بدأ يثرثر متغلباً على خجله :

- نعم .. لأنه يرى أن العمل فيها سيكبر ويتسع مع الوقت .. وأنه يريد أن يرى فى الجريدة الكثير من أبناء الناس الطيبين .

قال يوسف الجملة الأخيرة فى سذاجة تقرب من البلاهة . وقال عبد الهادى لنفسه إن هذا الشاب الطيب لن يصلح بكل تأكيد فى أى عمل صحفى .. ولكنه على استعداد اليوم لتعيين مائة شاب مثله .. مقابل ما يحمله هذا التعيين من بشرى ، ومن أخبار رائعة عن ثقة مدكور باشا فى مستقبل الجريدة .

وكان يوسف يقول :

- وقال لى إنه سيتحدث مع حضرتك .. ثم طلب منى المجىء إليك فوراً .

قال عبد الهادى ضاحكاً :

- لاشك أنه يحبك .

واستأنف يوسف ثرثرته :

- كان أبى يحبه .. وذات يوم ضربنى لأنى استقبلت مدكور باشا عند باب

الحديقة ، وأدخلته الصالون وقال لى اذهب وقل لوالدك إن مدكور باشا وصل .. فذهبت إلى أبى وقلت له .. إن هناك شخصاً ينتظرك فى الصالون ، ولم أقل له إنه الباشا .. ودخل أبى الصالون بعد ساعتين ليجد مدكور باشا هو الذى ينتظره .. فغضب ونادانى وضربنى .. ومدكور باشا يحمينى منه .. وعندما قابلنى اليوم .. قال لى لا تنس أنى أنقذتك يوماً من علقة ساخنة .

نظر إليه عبد الهادى يائساً .. يائساً .. هذا شاب [illegible] شديد الاهتمام

بحكايات طفولته ولكن لا بأس . فهو تعويذة كان يفتقدها هذا المكان وما دام قد اطمأن إلى موقعه فى هذه الظروف المضحكة التى أرسلت له هذا الولد .. فمن يمانع فى إبقائه والاحتفاظ به .. كما يحتفظون بالكلاب أو القطط المدللة .

وسأله عبد الهادى :

- وأى عمل تتوقع أن تقوم به .

قال يوسف :

- كان مدكور باشا يفكر فى الترجمة .. ولكنه قال إنه سيترك كل هذه الأمور لك .

قال عبد الهادى .. وهو يمد يده بعلبة السجائر إلى يوسف :

- وأنا موافق .. هل تدخن ..

قال يوسف .. باسماً :

- لا ..

فقال عبد الهادى فجأة وعلى شفتيه ابتسامة واسعة :

- ولا تعرف البنات !؟

فاحمر وجه يوسف ، واتسعت عيناه فيما يشبه الفزع .. بينما جلجلت قهقهة عبد الهادى .. ولم يقطعها دخول الساعى عم صالح الذى وقف ينظر إلى عبد الهادى يقهقه ، ويوسف باسماً .. ويبتسم هو الآخر .

وقال عبد الهادى مخاطباً عم صالح :

- الأستاذ لا يشرب القهوة فماذا تقدم له يا عم صالح ..

قال الرجل العجوز ذو الوجه الطيب بصوت قوى :

- والله بعد الضحك الذى يضيء وجهك يـاأستاذ .. لابـد أن أقدم لـه الشربات .. لقد رأيتك فى الصباح فحزنت .. ولكن الحمد لله .. هأنت تضحك .

قال عبد الهادى :

- وهل هنا شربات يارجل .

قال عم صالح فى كرم :

- سأشتريه .. وأقدمه له من عندى .

هتف عبد الهادى :

- لن ننتظر حتى تشترى الشربات .. وهو على أية حال سوف يعمل معنا .. فاشترى له الشربات فى وقت آخر .

ثم التفت إلى يوسف قائلاً :

- عم صالح .. فيلسوف كبير .. وهو يناقش الوزراء الذين يأتون لزيارتى .. ويشخط فيهم وكأنهم مرءوسون له .

قال عم صالح :

- كلنا أولاد حواء وآدم .

فقال عبد الهادى :

- لن تحاضرنا الآن .. اذهب واحضر كوب ليمون .

والتفت عم صالح إلى يوسف ، وحدق فيه متفحصاً ، ثم قال وعلى وجهه علامة ارتياح :

- هذا الوجه الجميل .. سوف يجلب السعد علينا .

ثم قال كالذى يخاطب نفسه :

- إنه يذكرنى بابنة لى .

فسأله عبد الهادى ، قبل أن يغادر الحجرة .

- أنا لا أعرف أن لك بنات يارجل .

قال عم صالح بصوت شارد .. وهو يفتح الباب خارجاً منه :

- إنها .. ابنتى .. وأكثر من ابنتى .

واتخذ عبد الهادى مسلكاً جاداً وقال ليوسف .

- دعنى أتحدث لك الآن كوالد .. أو أخ كبير .. أنت مقبل على عالم غريب تماماً عنك .. وأنا الآن أشعر على نحو ما بمسئولية نحوك .. ولست أدرى لماذا أقول لك هذا .. ولكنى أخشى عليك من الجو الذى نعيش فيه ، وأغلب الظن أنك ستتغير كما قلت لك .. ولن تكون كما أنت الآن .. مثل العذراء .. أنا واثق أنك لا تفهم ما أقول . ولكنك ستدرك ما أعنيه بالضبط فيما بعد .. على أية حال إذا صادفتك مشكلة فأنا هنا . وبابى مفتوح .. وستعمل فى قسم الترجمة .. وهو يترجم الأخبار الخارجية التى تأتى على التيكرز .. هل تعرف ما التيكرز .

قال يوسف وقد أصبح تلميذاً ينصت فى انتباه وأدب إلى أستاذه :

- لا ..

قال عبد الهادى :

- إنها الآلة الكاتبة التى تدق برقيات وكالات الأنباء .. سوف يشرح لك الأستاذ عزمى رئيس قسم الأخبار الخارجية كل شيء .. وسيدربك على الترجمة الصحفية .. فهى غير ترجمة شكسبير .. إنه رجل عجوز ويعرف مهنته . وهذا القسم بالذات بعيد بعض الشيء عن بقية الأقسام .. أحضر فى مواعيد العمل بانتظام .. وحاول أن تكون على علاقة حسنة بالجميع ولكن لا تتورط أكثر من اللازم فى صداقة مع أحد .. ولا تصدق كل ما يقولونه لك .

وجاء الأستاذ عزمى ، وشرب يوسف الليمون . وانصرف الصحفى الجديد مع رئيسه الجديد . وتركا عبد الهادى وحده . يقهقه بصوت عال فى الحجرة الخالية .. كان مرحاً ، وشعور التفاؤل ينعشه .. نعم إن هذه التعويذة سوف تجلب له السعد ، كما قال عم صالح .

عبد الهادى ..
يعقد صفقة

كان حسن زيدان قد التحق بالعمل فى جريدة العصر الجديد ، قبل يوسف بشهور . وكان قد تخرج فى نفس الكلية . وفى نفس الدفعة ، مايو ١٩٥٠ التى تخرج فيها يوسف ، وإن اختلفت دراسة كل منهما . فيوسف خريج القسم الإنجليزى . وحسن خريج قسم التاريخ ، كما أن يوسف نجح بدرجة مقبول . أما حسن فقد كان أول دفعته بامتياز . وكان كلاهما يعرف الآخر . ونشأت بينهما علاقة أثناء الدراسة لا تصل إلى مرتبة الصداقة . وعندما دخل يوسف مكتب الأستاذ عبد الهادى ، لم يكن يعرف أن حسن زيدان يعمل فى نفس الجريدة . كما أن عبد الهادى لم يتذكر إطلاقاً حسن زيدان واحتمال معرفة يوسف به ، عندما ذكر أنه تخرج فى نفس الدفعة رغم أن مثل هذه الملاحظة كانت عادة لا تغيب عن ذهن عبد الهادى الولوع باكتشاف الصلات والعلاقات بين الناس .. ولقد فوجىء يوسف بحسن زيدان يزوره فى بيته عصر اليوم الذى قابل فيه عبد الهادى . جاءه يهنئه ، وقد امتلأ حماساً وانفعالاً .. ولما سأله يوسف كيف عرف الخبر .. قال حسن متخابثاً ، إن له صلات بإدارة

الجريدة ، وأنه ما من شيء يجرى هناك إلا وعرفه فى الحال ، ثم شرع يتحدث عن مخاوفه من إغلاق الجريدة وما تتعرض له من خسائر . وسأل يوسف عن الوسيلة التى وصل بها إلى الجريدة فلما عرف سأله عن مرتبه فقال له إنه لم يتحدث فى هذا الموضوع مع الأستاذ عبد الهادى ، وأبدى حسن انزعاجاً شديداً . وجعل يلومه على إهمال هذا الأمر . وألح على يوسف أن يذهب معه فى الحال إلى الجريدة لمقابلة الأستاذ عبد الهادى وإثارة الموضوع ، قبل كتابة عقد بمرتب ضئيل . كما هو منتظر فى هذه الظروف التى تعانى فيها الجريدة أزمة مالية خانقة . ولكن يوسف لم يبد حماساً للفكرة .. واتهمه حسن بالغباء والبلادة . ثم عاد يحدثه عن فرحه بوجوده معه فى الجريدة ، وأحلامه فى أن يصبح صحفياً كبيراً ، وكاتباً يطوف العالم ويكتب عن الدنيا الواسعة . ولكنه ما كاد يسترسل مع أحلامه ، حتى قطعها .

ونهض يريد الانصراف .. وغلبه التشاؤم من جديد وهو يودع يوسف قائلاً له إنه ما زال يلوم نفسه لأنه لم يقبل وظيفة معيد بالكلية ، وهى الوظيفة المضمونة التى تهيىء له جو العلم والدراسة .. وبدا عليه القلق والحزن .. وكان يوسف يواجه تقلباته وانفعالاته بوجهه الهادىء وعينيه الصافيتين . منصتاً إليه فى اهتمام .. شعر حسن بأنه اهتمام غبى .. وكانت آخر كلمات حسن زيدان وهو يغادر البيت :

- والله أنا لا أصدق أن يوسف منصور يعمل فى جريدة العصر الجديد .

قال يوسف كأنه يعتذر عن ذنب ارتكبه :

- ربنا يستر .

فقال حسن موافقاً :

- نعم ربنا يستر .. فهذه مهنة لا تفيد فيها وساطة البشاوات .. ولسوف ترى .

وأسرع بخطواته مبتعداً .. وصوت يهمس داخل يوسف .. هذا صحيح .. هذا صحيح ..

وكان حسن زيدان قد التحق بعمله فى الجريدة بغير وساطة ، بل شق طريقه بأسنانه وأظافره ، وكان دخوله مبنى الجريدة لأول مرة كرسول يحمل مقال الأستاذ همام إلى مكتب الأستاذ عبد الهادى .. أو كمحصل يذهب إلى الخزينة ويقبض شيكات الأستاذ همام بأجر مقالاته . وكان حسن يصر على الدخول إلى عبد الهادى ويصمم على أن يسلمه المقال فى يده .. ويرفض أن يسلمه للسكرتير أو إلى أى أحد آخر مهما كانت الظروف .. فهكذا تعليمات الأستاذ .. ولاحظ عبد الهادى أن حسن يدخل عليه بخطوات شبه عسكرية ووجه متهجم « كان يدخل على وكأنه رسول من معسكر الأعداء قادم ليسلمنى إنذاراً نهائياً بإعلان الحرب » وكان عبد الهادى يعجب بينه وبين نفسه لهذا النوع من الشبان الذين يجمعهم همام حوله . إن الرجل لا يجمع حوله تلاميذ أدب . إنه يجمع فرقة كوماندوز .. وهذا الولد الذى يأتى بمقالاته ، يصلح لأن يكون مجرماً أو مجنوناً . لا أن يكون أديباً ، إن وجهه كالفأر . وجبهته ضيقة وشعره أكرت ومنظره كالقردة .. ولاشك أن همام يوصيه بأن يطلق الشرر من عينيه كلما دخل هذا المكتب ، ولعله سيطلب منه أن يرتكب عدواناً شريراً يوماً ما عليه .. هكذا كان عبد الهادى يستريب فى حسن ، حتى قرر ذات مرة أن يواجهه ويعرف سره .. فما دخل عليه .. حتى طلب منه الجلوس . وأمر له بكوب ليمون .. وجعل يرقبه وقد برقت عيناه لمرأى الليمون . ويتتبع حركة يده تمتد إلى الكوب ، وشفتاه ترتعشان تتلمظان فى نهم محروم وترتشفان ببطء وتلذذ .

وسأله عبد الهادى :

- منذ متى وأنت تعمل عند الاستاذ ؟

قال حسن فى كبرياء مفاجىء ، وكأن السؤال قد لدغه :

- أنا لا أعمل عند الأستاذ .. أنا طالب فى الليسانس بكلية الآداب قسم تاريخ .

فقال عبد الهادى ببرود لاذع :

- ولكنك تقوم فعلا بخدمات له .. وكان يرسل المقالات من قبل مع ساعى أو خادم لا أدرى ؟.. ألا يعطيك مرتبا .. أو مصروفا .

فقال حسن بحدة :

- أنا متطوع لخدمة الاستاذ .. وأجد شرفا فى هذا .. فهو أكثر من إله بالنسبة لى .

قال عبد الهادي محتفظا بهدوئه ورقته :

- أنا لا أعرف ما هذا الذى يكون أكثر من إله .. وماذا يكون اسمه وما هى صفاته ؟..

فقاطعه حسن بصوت حاد :

- اسمه الاستاذ على همام .. وصفته أكبر كاتب ومفكر فى هذا العالم .

قال عبد الهادى باسما وهو يراه يرتشف آخر نقطة فى ركوب الليمون :

- لا تنفعل .. وأجبنى على سؤالى .. ألا تأخذ منه أية نقود .. ولو مصاريف انتقال ؟

قال حسن مستنكرا :

- أنا لا آخذ من الأستاذ أى مليم .. وخدمته فى نظرى شرف لا يقدر بثمن .. ولقد رأيته منزعجا مما قد يحدث لمقالاته ، فهو لا يطمئن لأحد .. ويخشى أن يخفيها أحد ويدعى أنها لم تصل إلى الجريدة . فتطوعت للقيام بهذه المهمة .

قال عبد الهادى وفى نظراته تهكم لا يخفيه :

- معنى ذلك أنك دفعت أجر المواصلات إلى هنا .

قال حسن متردداً ، وقد بدأت الصلابة تذوب فى وجهه :

- فى الحقيقة .. أنا أمشى المشوار .

ضحك عبد الهادى وقال :

- من بيت الأستاذ فى الجيزة إلى ميدان الإسماعيلية !؟

أجاب حسن بصوت خفيض :

- نعم .

قال عبد الهادى بصوت وقور مفاجىء :

ـ هذا ولاء حقيقى لأستاذك .. عفواً .. أقصد إلهك .. لقد ظننت أنك غنى .. وأن لديك سيارة خاصة .

وهنا انهار حسن فجأة .. وتلفت حوله ، كأنه يخشى أن يسمع أحد ما سوف يقوله وقال فى عصبية :

ـ لا .. أنا فقير .. ولكنى أكافح بشرف .. وأنا الآن فى السنة النهائية .. وسوف انتهى من دراستى .. وأبنى حياتى .

قال عبد الهادى بصوته الوقور وهو يشير بيده معلناً انتهاء الحديث :

ـ أنا واثق من هذا .. وأتمنى لك التوفيق .

واكتفى عبد الهادى بهذا القدر من المعلومات من حسن .. لقد عرفه ، وأدرك حقيقته . إنه صورة أخرى من بين آلاف الصور لشبان فقراء يسعون فى ظمأ وجوع وحرمان إلى موقع فى الحياة يحصلون منه على الرزق ، ويسترون هذا الحرمان المرير بإدعاءات وأوهام ، ولقد اختار هذا الشاب حسن .. وهم الإله همام يجعل منه عائلته .. وأباه الذى ينتمى إليه ، وأمجاده التى يفخر بها ، ومثله الأعلى الذى يتباهى به .. بينما هو فى جوهره ولد يقرصه الجوع ، وتذله ألوان جديدة من الوهم . أما هو فقد تحطمت أوهامه فى أبيه .. ذلك الشيخ المهرج باسم الدين ومن يومها عاش بغير وهم ورفض محاولة الاستمرار فى الادعاء . ولم يكمل دراسته القانونية مثلما يفعل حسن ، وواجه مصيره . فلم يسمح لأحد أن يكشف أمره ، كما فعل الآن بحسن . ما أضعف هؤلاء الأولاد .. وما أعجزهم عن ستر ما هم فيه من ضياع ، ولم يعد عبد الهادى يكترث بحسن ، فكان لا يطلب منه الجلوس ، ولا يقدم له الليمون .. حتى كان ذلك اليوم الذى دخل فيه حسن عليه ، وقد حلق شعر رأسه بالموسى .. كان أصلعاً تماماً وكان متجهماً حتى بدا كأحد الجنود الألمان كما يصورونهم فى أفلام السينما ، كان منظره يدعو إلى الضحك لولا أن عبد الهادى شعر بأن الولد يعانى من هموم تركبه .

وصاح عبد الهادى وهو يأخذ منه المقال :

- ماذا فعلت بنفسك ؟

قال حسن وهو يتحسس صلعته :

- لقد اقترب موعد الامتحان ، وأنا دائماً أحلق شعرى هكذا فى الشهرين الأخيرين وأقطع صلتى بكل شىء إلا المذاكرة .. أنا دائماً أول دفعتى ، ولن يحدث أبداً أن أكون الثانى .. لو حدث فسوف أنتحر .

قالها حسن بعنف جعل كلامه حاسماً مقنعاً ومؤثراً .

ووجد عبد الهادى نفسه يقول فى اهتمام :

- ولكنك تضيع ساعات طوال فى المشى من الجيزة إلى هنا .. وفى هذا إجهاد لك يؤثر على مذاكرتك .

قال حسن معترفاً :

- نعم .. ولكن مقالات الأستاذ لابد من تسليمها .

وأدرك عبد الهادى سر التجهم والهموم التى تركبه .. إن الولد حائر بين طموحه وولائه ، بين آماله وعبوديته التى اختارها لنفسه مظهراً يتباهى به . وخطر لعبد الهادى خاطر نفذه فى الحال . قال وهو يخرج محفظة نقوده :

- إن هذه المقالات للجريدة .. وسوف ندفع لك مصاريف انتقالك .

ومد يده الممسكة بورقة من فئة الجنيه إلى حسن . وبغير تردد أخذ حسن النقود مردداً عبارات الشكر وقد تحول تجهمه إلى استسلام وإذعان .

قال عبد الهادى محذراً :

- لا تقل شيئاً عن هذا للأستاذ همام .

قال حسن مبدياً خضوعه للأمر :

- لا .. لن أقول .

ومضى عبد الهادى فى خبث :

- هذه أول نقود تقبضها من الجريدة ، ومن يدرى فلعلك يوماً ما تعمل معنا .

وإذا بحسن يقول فى لهفة :

ـ لقد فكرت فى هذا .. لولا أنى لا أريد أن أشغل نفسى الآن بشىء غير المذاكرة .

فسأله عبد الهادى بدهشة :

ـ وما رأى إلهك .. أوافق ؟

قال حسن بسرعة وبغير تفكير :

ـ مستحيل أن يوافق .

قال عبد الهادى ضاحكاً يستدرجه :

ـ هه .. سوف يشعر بخيبة أمل لو أن تلميذه انتهى به الأمر إلى أن يعمل فيما يسميه بالكباريه .. ألا يقول هذا عنا ..

قال حسن ضاحكاً :

ـ نعم .. ولكن كما تعرف أنه من جيل آخر .. وهو لا يؤمن بالكتابة الصحفية .

قال عبد الهادى ساخراً وواضعاً يده على مقال همام :

ـ بدليل أنه يكتب فى الصحف .

قال حسن :

ـ إن له رأياً فى ذلك .

قال عبد الهادى مشجعاً :

ـ نعم .. إنه الواعظ فى الكباريه .. ألم يقل هذا ؟

قال حسن مصححاً :

ـ لا .. لم يقل هذا .. قال إنه يفرض على القارىء المقارنة الحاسمة ، بين ما هو فكر أصيل وما هو تهريج كباريهات .

تمتم عبد الهادى :

ـ تهريج .. تهريج .. وهل فكرت فى العمل هنا فى قسم الفكر الأصيل ، أم فى قسم الكباريهات .

قال حسن فى حماس :

- أنا لا أفهم هذه التقسيمات ، وإذا كان لى حظ العمل هنا ، فسأعمل فى خدمتك .. وسأتعلم المهنة من أستاذها الأول الذى هو أنت .. واسمح لى أن أتحدث إليك بصراحة ، فالموضوع يمس مستقبلى .. وأنا أعرف أن الوصول إليك لن يكون باللف والدوران .. لقد علمتنى الحياة الكثير .. وأنا لا أستطيع أن أعرف رجلاً عظيماً مثلك ، ثم أجعل هذه الفرصة تفلت منى .. وأنا على استعداد للقيام بأى عمل من أجلك . أقسم لك أنك لو طلبت منى الآن كنس غرفتك لفعلت .. لو طلبت منى مسح حذائك سأكون مسروراً بهذا العمل .

كان عبد الهادى يستمع إليه فى إعجاب . إن هذا الولد الأصلع لن يحجم عن شيء ، هذا الكوماندوز المثقف من الممكن الاستفادة به إلى أقصى حد ، فضلاً عما فى اختطافه من مملكة همام من إثارة وطرافة .

قال عبد الهادى وهو لا يخفى سروره :

- أنت طموح .. وكثيرون طموحون ، ولكنهم خياليون . ولقد ظننتك واحداً منهم . ولكنى أعترف لك بأنى أخطأت التقدير . فأنت تستغل الخيال والحماس والتعصب ببراعة لمصلحتك . أنت فى الحقيقة شخص جشع وأنا أعرف ماذا حدث لك لقد دارت رأسك وزاغ بصرك وسال لعابك وأنت تقبض شيكات الأستاذ همام .. وفكرت فى أن العمل فى الجامعة حماقة وأمامك الفرصة ليكون لك نصيب يوماً ما فى مثل هذه الشيكات . وهذا شعور طبيعى ومتوقع فالكل جشعون ولكنهم أغبياء لا يعرفون الطريق لتحقيق جشعهم وكنت أظن أنك غبى مثلهم .. ولكنك طموح وجشع ثم تعرف تماماً كيف تهجم على ما تريد . هأنت تنظر إلى فى غير دهشة أو استنكار .. إن بك شراً جسوراً يجعلنى أجزم بأنك إنسان خطر على استعداد لأن يبيع نفسه للشيطان من أجل تحقيق طموحه اسمع .. هل أنت على استعداد لأن تعمل معى الآن ، فوراً دون أن تكون بك حاجة إلى مسح حذائى .. ولكن بشرط واحد ، أن تتخلى عن حصولك على الليسانس ، أنا لست فى حاجة إلى ليسانس التاريخ فهل توافق ؟ .

كان عبد الهادى مندفعاً فى الكلام معبراً عن نفسه ، بغير حذر أو تفكير ،

فما حاجته لهما ، وهو يتكلم ممتلئاً بقوة عارمة أمام شاب يريد أن يبيع له نفسه كان يتحداه فى صدق جشعه وطموحه وشره .

قال حسن بغير تردد :

- موافق .

صاح عبد الهادى فى حنق مفاجىء :

- أنت كاذب .

قال حسن فى إصرار :

- أنا لا أكذب .

وتمالك عبد الهادى نفسه قائلاً :

- كنت منذ برهة تقول الأول أو الانتحار .

قال حسن محتفظاً بإصراره :

- سواء فى الكلية .. أو هنا .. أنا الأول أو الانتحار .

وصدقه عبد الهادى ، وزاد إعجابه بقبوله التحدى بهذه الشراسة .. إن هذا الولد يقول له فى وجهه سواء يدرى أم لا ، وفى نفس الوقت الذى يعلن فيه خضوعه وعبوديته ، إنه لن يهدأ حتى يكون الأول على عبد الهادى نفسه ، هذا الطموح الجرىء الشرير .. هذا الجشع النادر الخطر ، لن يفلت منه ، إنه الآن أكثر تمسكاً به عن ذى قبل . مثل هذا الولد ، سوف يستفيد منه رغم خطورته الواضحة . سوف يذكره دائماً بمرارة الصراع الذى يعيش فيه . أنه قوى ولكن هذا لا يكفى . ويجب أن يحيط نفسه بهؤلاء الأقوياء الذين يتحدونه .. إن نجاحه فى تجنيدهم حوله . سيضع تحت أمرته قوة لا يستهان بها .. لا تقف أمامها قوة فى هذا البلد .

وقال عبد الهادى خارجاً من أفكاره وعلى شفتيه ابتسامة راضية :

- اتفقنا .. ولكنك ستحصل على الليسانس .. فلن أحرمك منه ولعلك كنت لا تصدقنى وأنا أقول لك تنازل عنه .. ولكنى صدقتك وأنت تعلن موافقتك على

ذلك ..كنت صادقاً فى هذه اللحظة على الأقل ..وعلى أية حال أرى أنك ستكون مفيداً لى .

قال حسن :

- سأفيدك بكل تأكيد .. لأنك تستطيع أن تستخدمنى وتستفيد منى ..

فقال عبد الهادى :

- وأنت أيضاً تستفيد ممن يستخدمك .. على أية حال سوف نؤجل كل هذا الكلام حتى تنتهى من امتحانك .

ونجح حسن زيدان فى امتحان الليسانس ، وكان أول دفعته ، وما هى إلا أيام حتى كان يقوم لعبد الهادى بكل عمل من الممكن تصوره حتى أن عم صالح دخل على الأستاذ عبد الهادى محتجاً ، بأن هذا الموظف الجديد يقوم بعمله فى نقل الأوراق والملفات من مكتب عبد الهادى إلى مكاتب المحررين والإدارة بل إنه تشاجر مع حسن أمام مكتب عبد الهادى عندما رآه خارجاً وراء الأستاذ حاملاً حقيبة أوراقه فاختطف عم صالح الحقيبة من يد حسن صائحاً فيه :

- احترم نفسك ياأفندى فأنا هنا لهذا العمل .. وإذا صممت على أن تحمل الحقيبة .. فالبس ملابس السعاه مثلنا .. واشتغل معنا كواحد منا أما أن تكون أفندى وساعياً فى نفس الوقت فهذا لا يليق .. فهناك شيء اسمه كرامة للعمل الذى نأكل منه العيش .

وفوجىء حسن لثورة عم صالح ، ولما أفاق من ذهول المفاجأة ، شتمه فأمسك عم صالح بخناقه وهو يزعق :

- احترم نفسك .. ياأفندى يامحترم .

وتدخل عبد الهادى هامساً لحسن :

- أتركه .. فهو رجل عجوز .

وسكت حسن فى الحال ، وقد وجد عبد الهادى يربت على كتف عم صالح

محاولاً تهدئته . غير أن حسن كان لا يقتصر فى عمله على هذه الأمور فكان يعمل ليل نهار ، فى تصحيح مقالات ، وإعادة كتابة تحقيقات صحفية وترجمة موضوعات من صحف ومجلات أجنبية لم يكلفه أحد بترجمتها . حتى أخبار الجرائم وفضائح المجتمع والرياضة كان يتلقاها فى التليفون ولا يقدمها لرؤسائه إلا بعد صياغتها فى صورة لائقة للنشر .

وغضب الأستاذ همام عندما اكتشف خيانة تلميذه ، وأنهى علاقته به فى يوم مشهود ، إذ تجرأ حسن على زيارته فى بيته ، وكان الأستاذ همام قد اتفق مع زملائه فى المجمع اللغوى على تكليف حسن ببعض الأعمال بالإضافة إلى عمله كمعيد فى الكلية . وما كاد الإله يلتقى بعبده الذى كفر به ، حتى انهال عليه باللوم والتوبيخ ، واتهمه بأنه دنس بيته بعد أن عمل فى المرحاض القذر مع ذلك الرجل النتن الذى اسمه عبد الهادى . ورفض همام أن يسمع شرح حسن ، أو ما زعم أنه رأيه الذى يريد أن يعبر عنه ، فالذين يعملون فى المراحيض لا يجسرون على التفوه أمامه بكلمة رأى التى لها احترامها وقدسيتها ، إن ما فعله حسن ، هو انزلاق إلى مهاوى البهيمية ولم يصبر همام ، فطرد حسن من بيته ، وهو يصيح أنه يطرد السفالة والنذالة التى تنتشر كالوباء بين البشر .

واستمع عبد الهادى إلى القصة من حسن ، وعيناه تلمعان ببريق الانتصار ، وجعل يردد القصة لفترة طويلة فى مجلسه ، وقد أضاف لها الكثير مما يثير الضحك . فجعل الأستاذ همام يخلع حذاءه ويجرى وراء حسن فى حجرات بيته ليضربه فوق رأسه بالحذاء . وكان مصمماً على أن تقع الضربة بالتحديد فوق أم رأسه .. وكان يصيح ملوحاً بالحذاء .. فوق أم رأسك ياكلب .. فوق أم رأسك ياكلب وبينما هو يجرى ، تعثر فوقع على الأرض . وهنا صرخ .. أغيثونى .. أدركونى .. إنها مؤامرة دبرها هذا الشيطان عبد الهادى .. ويضحك السامعون ويضحك معهم عبد الهادى حتى كانت ليلة ، فإذا به يقطع ضحكهم ، ويلتفت فجأة إلى حسن زيدان ويقول له :

- لست أدرى أهى مؤامرة ضد همام ، أم أنها مؤامرة ضدى أنا .

وظن الحاضرون أنها نكتة أخرى يضحكون عليها ..وأسرع عبد الهادى يشاركهم الضحك ..



بورصة البشر

كان عبد الهادى قد اطمأن إلى مستقبل الجريدة منذ ذلك اليوم الذى التحق فيه يوسف بالعمل . فقد ذهب فى المساء إلى مقر مدكور باشا حسب الموعد الذى حدده له . وهو يعرف من يوسف الكثير عن رغبة الباشا فى اتساع العمل وتطويره ، فأعد نفسه للموقف ، وجهز اقتراحات طموحه وطرد من نفسه كل قلق وخوف وهو يشكر الظروف التى هيأت له لقاء يوسف وإلا كان فضح عجزه واستسلامه أمام الباشا . وهو ما كان سيفعله حتماً فى لحظة يأس . أما الآن فالموقف قد تغير ،، وأمامه الفرصة الكبرى لأن يظهر أمام

الباشا كرجل له أعصاب فولاذية . له نظرة واثقة فى المستقبل ، وله قدرة هائلة على الصمود والمثابرة والنضال . ومع ذلك فهو يلوم نفسه على انهياره الذى لم يكشفه أحد . ما زالت أمامه دروس فى الحياة وما زال عليه أن يدرب نفسه على مواجهة التحديات والتقلبات . إن الطريق أمامه طويل شاق ومحفوف بالمخاطر ولكنه لن يتراجع . ولن يسمح لليأس أو الانهيار النفسى أن يحاصراه بعد الآن ، لقد كان خطأه الأكبر فى استسلامه لعواطفه وانفعالاته ، وهو الذى

ظن أنه قد تغلب على كل عاطفة وانفعال ، ألم يهجر أهله ، ألم يعامل الناس معاملة المصلحة ولا شىء غير هذا ، وإذا تظاهر بعاطفة ما فإنما هى مجرد قناع يرتديه من باب حسن المظهر ولباقة التصرف لا أكثر ولا أقل . أليس هو المتفرج على كل البشر بما فيهم نفسه . ومع ذلك فهو ما زال فى حاجة إلى تدريب للنفس .. للوصول إلى سيطرة أكثر نضجاً على المشاعر والانفعالات .. إنه فى حاجة إلى أن يفتح نوافذ عقله فيسمع أكبر ، ويلاحظ أكثر ، ويحصل على معلومات أعمق وأشمل ، وليتوافر له الجهد المطلوب لتحقيق هذا الغرض ، عليه أن يغلق أية ثغرة فى قلبه أو إحساساته . لو قالوا له فى أية مناسبة قادمة . سوف نغلق جريدة العصر الجديد ، أو سوف نطردك من منصبك ، فلن ينفعل ولن تهتز مشاعره . وسيهزم قائل مثل هذا الكلام ، مهما كانت سلطاته فى هذا البلد . وسيعمل على أن يكون قوياً ، حتى مدكور باشا نفسه ، يجب ألا يجرؤ على أن يمسه بسوء .

وهكذا دخل عبد الهادى قصر الباشا وهو شخص يختلف كثيراً عن ذلك الذى كان يراه فى نفسه هذا الصباح وما كاد الباشا يسأله عن أخبار الجريدة ، حتى انطلق يتحدث ضاحكاً واثقاً ساخراً من تلك الشائعات المنتشرة عن إغلاقها وقال إنه لم يشأ أن يزعج الباشا بهذه الترهات لأنه يعلم أن المشروع أهم بكثير من أن يتوقف على متوسط عدد النسخ المباعة فى العامين الأولين من صدور الجريدة ، أو يتوقف على خسائرها المالية التى هى مجرد مصاريف ضرورية لا غنى عنها ولا يمكن موازنتها فى عامين أو ثلاثة . وإنما هى تتوازن فى المدى الطويل ، الذى تؤكد كل الظروف أنه سيكون فى صالح الجريدة .

كان مدكور باشا يستمع إليه فى لهفة وإعجاب واضحين . فهكذا يجب أن يتحدث الرجال الذين يتعاونون معه . وهو آسف إذ يعترف بأن هذه الروح العالية لم يجدها فى بعض شركائه فى البنك والذين كانوا ولاشك مصدراً لهذه الشائعات ، بسبب فزعهم وضيق أفقهم . إن الذين همسوا بالشائعات كانوا

يرددون الحقيقة ، أو قل نصف الحقيقة بعد ما تناهى إلى أسماعهم من اعتراضات على الخسائر ، أو اعتراضات على ما يسمونه نشر الفضائح ، أما النصف الثانى من الحقيقة ، فهو أن مدكور باشا رفض كل هذه الاعتراضات لأنه يرى أن كل الظروف تؤكد أهمية الجريدة ، وأهمية تقويتها وتطويرها . وهو سعيد لأنه يسمع من عبد الهادى نفس هذا الكلام . إن الأمور واضحة . فالأوضاع القائمة لابد أن تنهار ، ونحن لن نضيع وقتنا فى الدفاع عنها أو الانزعاج لانهيارها ، إننا نسارع بكسب الوقت للإعداد للمستقبل . كل هذه القوى القائمة لا تستطيع أن تدرك نفسياً أو عقلياً المشروعات الصناعية الكبرى التى نريد أن نحققها بالاشتراك مع رءوس الأموال الأمريكية . السراى لا يهمها إلا المال الذى تستولى عليه ليبعثره فاروق على راقصات الكباريهات وموائد القمار . رجال الأحزاب كلهم فلاحون ، لا يتحدثون إلا عن المحصول والرى والسماد والسعر الذى يبيعون به ليشتروا مزيداً من الأرض . ولا أحد يريد أن يفكر فى غير هذا ، فالمشروع مغامرة ، والتفكير الاقتصادى السليم يزعجهم ويخافون منه كما يخافون العفاريت لأنهم مجرد مجموعة من الجهلاء المتأخرين . وهم بعد ذلك غير قادرين على الحكم ، فالبلد تتحول بسرعة إلى فوضى ، وكما أصدرنا جريدتنا ، فقد أصدر الشيوعيون ثلاث جرائد ، تنادى بالقضاء علينا . وهناك حزب اشتراكى له جريدة ، وحزب إسلامى له جريدة ، والكل يستعد للانقضاض وهؤلاء البلهاء فى الحكم يتصورون أن الإنجليز قادرون على حمايتهم ، كما حموا الخديوى توفيق .

ولكن الزمن قد تغير . والعداوة لإنجلترا أصبحت أقوى من أن تقاوم ، وأمامنا الأمريكان مستعدون للوقوف معنا بالمال والقدرة على التنظيم والخبرة فى الإدارة وإمكانات هائلة فى الدعاية ، بحيث أننا نستطيع أن نقف على أقدامنا وننفذ مشروعاتنا ونفتح أسواقنا ، دون حاجة إلى قوات الاحتلال البريطانى فى قاعدة القنال .. إن المستقبل واضح والطريق واضح . ولسوف يمضى فيه مدكور باشا معتمداً على عبد الهادى ، وهو يؤيده فى كل ما يفعله ، لا يتراجع

فى نشر فضائح هذه القوى الحاكمة المسيطرة على البلد ، لا يتراجع فى هجومه على الانجليز ، ولكن طبعاً بلباقة .. عليه أن يطلق عليهم الرصاص إلى المدى الذى لا يؤدى إلى دخوله السجن فهو حريص على عبد الهادى حرصه على نفسه ، ولعل أهم شىء أمام عبد الهادى اليوم ، هو أن يجعل من جريدة العصر الجديد مكاناً يؤمه الجميع ، كل الشخصيات الكبيرة فى البلد ، كل من له فكر أو صوت أو قدر من نفوذ .. مهما تعارضت أحزابهم أو اختلفت مشاربهم أو أهواؤهم وعلى عبد الهادى أن يكتسب صداقتهم ، وأن يتعرف على طبائعهم وأسرارهم وبذلك سوف يؤمن نفسه كما يؤمن الجريدة من شرور كثيرة ، أما ذلك الحديث عن الخسائر فهى حقا كما يقول عبد الهادى .. ليست خسائر وهى ملاليم بالنسبة لما قد تدره مشروعات الأمريكان من أرباح .

كان عبد الهادى يستمع إلى مدكور باشا فى إعجاب ، هذه هى الأعصاب الفولاذية الحقة ، وهذا هو الرجل الذى يعى دروسه تماماً ، وأنه ليغار منه ويخشاه ، ولكن كلام الباشا يفتح أمامه الأبواب على مصراعيها .. لأن يحقق لنفسه قوة تفوق كل هذا الذى يتحدث عنه ولكنه لن يندفع وراء الأوهام .. ولن يسمح لنفسه فى هذه اللحظة بالانفعال مع أحلام وخيالات ، إنه سيتواضع إلى أقصى حد ، وسيخرج من هذا القصر ، ليعمل عملاً دءوباً مثابراً بلا كلل ولا هوادة حتى يتحقق ما يجب أن يكون .

وصدق عبد الهادى فى عزمه وإصراره . فاستطاع أن يجعل من مجلسه كل ليلة فى جريدة « العصر الجديد » ندوة يتردد عليها كل من له اسم أو نفوذ فى هذا البلد ، وتردد عليها أيضاً كل نكرة مجهول ، أدرك عبد الهادى بحاسته أنه قد يكون له يوماً ما اسم أو نفوذ فى البلد وهكذا اختلط فى مجلسه وزراء بفنانين وباشوات وشيوعيين ورجال دين وتجار سوق سوداء ومهربين ورجال نقابات وممثلات سينما ومسرح ... وتعددت الأزياء واللهجات والأعمار فى صالون عبد الهادى ما عدا فئة واحدة قاومها عبد الهادى ولم يرحب بها فى مجلسه وهم الفلاحون .. فأحياناً كانت تأتى له وفود منهم فكان يتهرب منهم .

وكان لا يستطيع أن يمنع نفسه من السخرية بمن يجده فى مجلسه محتفظاً بلهجة الفلاحين أو متحدثاً عنهم مبدياً بعض الاهتمام أو العطف نحوهم. وقصته مع الشيخ أمين برهومة عضو مجلس النواب الوفدى معروفة. فقد انتهز الشيخ أمين وجود وزير المواصلات فى مجلس عبد الهادى وشرع يتحدث إليه بلهجته الفلاحى عن أهمية وقوف قطار الاكسبريس فى « قرية س » وإذا بعبد الهادى يهتف مازحاً ..

ـ ولكن المواشى لا تركب الاكسبريس ياشيخ أمين.

وإذا بالشيخ ينتفض غاضباً شاتماً لاعناً. ولكن عبد الهادى أسرع يطيب خاطره ويعتذر له ويطلب منه الصفح، ويرجوه أن يعود إلى مخاطبة الوزير فى موضوع المحطة وهدأ الشيخ، وعاد يتحدث فى الموضوع وإذا بعبد الهادى يهتف من جديد.

ـ ومن يقطع التذاكر للمواشى ركاب الاكسبريس يا شيخ أمين.

وانتفض الشيخ من جديد، وهجم على عبد الهادى يريد أن يضربه، وتدخل الحاضرون يمسكون بالشيخ الذى فقد أعصابه بينما عاد عبد الهادى يعتذر له، ويقبل رأسه ويستغفره، ويعلن توبته، حتى أجلس الشيخ من جديد إلى جوار الوزير، والحاضرون فى عجب من قدرة عبد الهادى على تهدئة الشيخ، وطلب منه عبد الهادى أن يتحدث فى موضوع القطار والمحطة فنظر إليه الشيخ فى حذر، وقال:

ـ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين يا عبد الهادى.

فأكد له عبد الهادى جاداً، أنه نادم على ما فعل، وأن امتناع الشيخ عن الحديث فى الموضوع معناه أنه لا يصدق عبد الهادى وهذه إهانة لا تغتفر. وأذعن الشيخ، وعاد إلى شرح مطلب وقوف الاكسبريس وإذا بعبد الهادى يهتف كالمجنون:

ـ وبأية لغة تحدثت معك المواشى عن طلبهم هذا يا شيخ أمين.

فى هذه المرة، انهار الشيخ، وبكى ولعله كان مغيظاً من نفسه، ولكن

الغريب أن عبد الهادى استطاع أن يهدئه من جديد . بينما الحاضرون يمسكون بطونهم من آلام الضحك العنيف الذى يهزهم ويحاولون كبته . بل إن عبد الهادى أفلح فى إقناع الشيخ أمين أن يعود إلى حكاية مطالبه ، لولا أن الوزير نصح الشيخ بالسكوت ، لأنه كان يبذل مجهوداً عنيفاً للاحتفاظ بوقاره أمام الشيخ أمين .

وكان عبد الهادى يجد سعادة غامرة فى أن يجمع النكرات بالمشهورين فى مكان واحد . وكان يتسلى وهو يرى الباشا مالك العشرة آلاف فدان ، وقد تورط فى حديث مع شاب شيوعى وهو لا يعرف عنه هذه الحقيقة . وكان عبد الهادى ينتهز فرصة دهشة مثل هذا الباشا من آراء الشاب ليقول للباشا فى وقار .

- هذه ليست آراءه ياباشا ولكنه قرأها فى كتاب لفيلسوف مشهور لابد أن سعادتك تعرفه ، وهو الكونت دى مونت كريستو .

فيهز الباشا رأسه شأن الرجل المطلع القارىء لكل الثقافات ، ويقول :

- هؤلاء الفلاسفة قرأت لهم أيام الشباب .. وهم يضللون أفكار الشباب

ويكتم الحاضرون ضحكاتهم ويسترون ذهولهم ، بينما يقول الشاب الشيوعى متحدياً :

- لا ياأستاذ عبد الهادى هذه آراء ماركس .

فيصيح عبد الهادى مدعياً الدهشة :

- كيف ياابنى تأخذ أفكارك عن ممثلين مهرجين مثل إخوان ماركس .

ويتلفت الباشا فى سرور ليقول لمن حوله فى رصانة ووقار :

- هذا هو حال شباب هذه الأيام .. السينما هى مصدر معلوماتهم .

كان فرح ماكر ينتعش فى صدر عبد الهادى ، وهو يكتشف عجز الناس ، وجهلهم ، وأطماعهم .. وجشعهم الغبى . كانت حجرته مسرحاً للكشف عن عورات النفوس فهى ليست مركزاً تصب فيه الأخبار وحسب ، بل هى مصب لنفوس البشر ، فإلى هذه الحجرة يسعى الناس ، بكل ما فى نفوسهم من طلبات

ورغبات وأطماع وشهوات ، إنها ليست حجرة ، إنها بورصة التعامل بالبشر ، يدخل المضاربون بالبيع والشراء ، بيع النفوس أو شراء النفوس .. والمضاربون من كل لون ومن كل طبقة ، والكل يأتون وفى عيونهم لهفة ، وإذعان لصاحب الحجرة لا فرق بين أولئك الذين دخلوها متكبرين مترفعين ،

أو الذين دخلوها محدودبين خاضعين ، الكل يسعون وراء عقد صلة بهذه البورصة .. الكل يسعون .. وراء عقد صلة بعبد الهادى الذى أصبح مع الوقت كالضوء الساطع الباهر ، القادر على أن يضفى بريقه إذا شاء على كل من يقترب منه وكان عبد الهادى يدير عمليات المضاربة بلباقة كاملة ، وخبرة تامة بهذا الخليط المتنافر من النفوس البشرية ، فهو يكاد يسيطر على منهج علمى يقيم على أساسه علاقاته الواسعة بكل الأطراف . فهو يتبادل مع الجميع العواطف ، ويتظاهر مع الجميع بحرارة فياضة فى اللقاء وهى حرارة لا تخبو أبداً ، فى نفس الوقت كان يفتش دائماً عن المصلحة المباشرة التى يجرى وراءها كل من سعى بقدميه إلى هذه الحجرة . هذا الوزير قلق على منصبه ، ووصلته أنباء عن احتمال تغييره ، وهو يريد نشر حديث له ، أو صورة كبيرة فى مكان بارز ، وهذا الموظف الكبير على استعداد لأن يعمل أى شىء ، مقابل أن يهمس عبد الهادى فى أذنه عن سر الحملة المدبرة ضده ، ومن وراءها ومن الذى يريد الوثوب على منصبه ومع ذلك فكلهم لا يحبون عبد الهادى إنهم يحبون مصالحهم ، وهذا الباب الذى يدخلون منه ، يدخلونه مضطرين مذعنين ، وكم يتمنون لو كان لهم سلطان أو نفوذ لا يضطرهم إلى اللجوء إلى عبد الهادى وليس هذا بالشىء الغريب المنافى لطبيعة البشر . بل إنه ليدهش حقاً لو كان الأمر عكس ذلك ، أنه لن يدهش فحسب بل وسوف تختل حساباته ، وتضطرب تقديراته ، فما الحياة إلا رغبات وشهوات وقوى تتصارع ومعارك مستمرة ، والسنة تنهش ألسنة ، وقلوب تأكلها الغيرة من قلوب ، وعيون تحسد عيوناً ، وشراهة تجتر شراهة .. وما العواطف النبيلة ، والمشاعر الرقيقة ، والفضائل التى يتحلى بها الناس ، إلا أدوات زينة .. لا بأس من التجمل والتزين بها ، خاصة إذا

كنت مقدماً على طعن أعز صديق بخنجر فى ظهره . هذه هى الحقيقة التى لابد أن نغطيها بالكلام الحلو، وبالعاطفة الرقيقة وبالمنظر الإنسانى النبيل، وبالقيم السامية التى نعلن ونؤكد ونقسم أنها متأصلة فى نفوسنا ، قيم الشرف والأخلاق والدين والمبادىء ، إلى آخر هذا الكلام الذى لا يخرج عن كونه كلاماً . إن عبد الهادى يكتشف قليلاً أو كثيراً أن هناك من يحبه أو يكرهه فهذا خارج الموضوع ، ولا صلة له بلعبة الحياة ، ولا يصلح للتعامل فى بورصة البشر إلا فى حدود استخدامه كما تستخدم النساء أدوات الماكياج .

ومع ذلك فلابد من استخدام هذه الأدوات ، والحاجة إليها لا تدل فقط على حاجة إلى التجمل والتزين ، بل هى اعتراف بالخضوع ، فالذى يضطر إلى إبداء الولاء ويبذل جهوداً فى الظهور بمظهر الصديق وينفق وقتا فى إبداء عاطفة حب إنما هو محتاج يعلن خضوعه عن طريق استعانته بهذه المظاهر حتى يصل إلى إشباع حاجته . والضعيف لابد أن يتظاهر بحب القوى ، وصاحب الحاجة لابد أن يتزلف وأن يتذلل أمام القادر على إجابة رغبته ، عليه أن يحتضنه وأن يقول له ياصديقى ، ياأخى . ياحبيبى . ولسوف نظل نسمع مثل هذه الكلمات الشاعرية ، طالما توجد مصالح والمصالح لن تنتهى ،

والحاجات لن تنتهى ، وبالتالى فإن الضعف البشرى لن ينتهى ، وخضوع النفوس لن ينتهى ، واللعبة مستمرة ، وهى لعبة حياة أو موت ، قاتل أو مقتول . وخير موقع يحتله الإنسان ، ليمارس هذه اللعبة بمهارة ومقدرة هو الموقع الذى يسيطر منه على المنظر الكامل فى أعماق النفوس ، وهو هذه الحجرة من جريدة « العصر الجديد » حيث تتعرى النفوس ولا يستطيع أحد أن يقدم على تصرف ما إلا وهو عريان تماماً من كل قناع . لا أحد يستطيع أن يخدع عبد الهادى ، أو كما كان يقول بعد خروج أحد الوزراء لحسن زيدان ويوسف منصور .

ـ إن هذا الرجل يدرك عن يقين إنى آراه عرياناً كما ولدته أمه .. لقد جاء إلىَّ

وهدفه الوحيد الدعاية لنفسه لضمان دخوله الوزارة القادمة ..مع أن لدى من المعلومات عنه ما يكفى لنسفه من أية وزارة إلى الأبد .

فصاح حسن زيدان :

ـ هذه فرصتنا لنهاجمه ونجهز عليه .

وقفز حسن خارجاً من الحجرة ، وكأنه سيعد حملة على الوزير فوراً والتفت عبد الهادى إلى يوسف متأملاً وجهه الصامت تطل منه عيناه الوديعتان وسأله .

ـ هل تكتب حملة ضد هذا الوزير .

قال يوسف ببساطة :

ـ أنت دائماً توجه إلى أسئلة تذكرنى بأسئلة الامتحانات . فضحك عبد الهادى وقال فيما يشبه الحنان :

ـ رغم طيبتك ، فإن لك أحياناً بصيرة مفزعة .. صدقت .. إنى أريد أن أمتحنك .. أو قل فى الحقيقة .. أريد أن أسبر غور ما حدث فيك من تغيير .. وكلما ظننت أن من السهل معرفة خبيئة نفسك .. وجدت أن هناك شيئاً يستعصى على الفهم .

وقطع عبد الهادى كلامه وسأل يوسف :

ـ وما رأيك الشخصى فى هذا الوزير ؟

قال يوسف بسرعة .

ـ كل ما أعرفه عنه أنه مثل أى وزير ..

صاح عبد الهادى :

هذه هى إجابتك التاريخية فأنت لا تتخذ موقفا أبداً .. كل هؤلاء الذين دخلوا هذه الحجرة وخرجوا منها ..قلت عنهم : إنهم بشر مثل بقية بشر .. ألا تتخذ موقفاً أبداً .. ألا تحكم على أحد بخير أو شر .

قال يوسف مستسلماً :

ـ ما هو الموقف الذى تريدنى أن أتخذه .

قال عبد الهادى مؤكداً :

- لابد أن يكون لك رأى .

قال يوسف :

- أى رأى تعنى ؟

قال عبد الهادى :

- رأيك الخاص .. ولكن يبدو أنى مضطر إلى أن أتسلق شجرة رأيك الخاص .

قال يوسف بغير انفعال :

- اعترف بأنى أجد صعوبة فى أن يكون لى رأى خاص فى أى شىء ، إن الرأى يحتاج إلى وقت . ولقد قلت لك إن أبى كان يتهمنى بالغباء .

صاح عبد الهادى :

- أنت تتحدث عن الغباء وكأنه ميزة ..

قال يوسف بسرعة :

- لا أدرى ربما كنت أشعر بأنه لعنة ..

فظل عبد الهادى يحدق فى وجهه ثم قال :

- لولا طيبتك يايوسف لكنت أكثرنا شراً .

قال يوسف فى حيرة واضحة لم تعكر صفو عينيه :

- ما أدرانى ربما أنا كذلك .

فانفجر عبد الهادى ضاحكاً :

- أنت تريد أن تتظاهر الآن بأنك شرير .. ولكن لا تستعجل الأحداث فأنت ما زلت مشروع شرير .. وكل ما تفعله حتى الآن هو أنك تقوم فى هذه الحجرة بدور الاستثناء الذى يثبت صحة القاعدة فأنت بالنسبة لمن يجلسون على هذه المقاعد .. نوع من الملائكة ضل طريقه إلى غابة الشيطان . ولكنها مرحلة مؤقتة .. فلا تنزعج فأنا كفيل بتصحيح هذا الخطأ .

قال يوسف وهو ينظر إليه فى تساؤل ساذج :

ـ هل تظن حقاً أنى ملاك .

صاح عبد الهادى :

ـ بالطبع لا .. ولكنى أحب أن أتصورك على هذا النحو .. فلا بأس أن أتخيل فى غابة الشياطين ملاكاً ضل الطريق .

مثل هذا الحوار كان بمثابة لون من الترف العقلى ، يتمتع به عبد الهادى ، وهو يتحدث عن الشيطان فى سجنه فى نوع من المبالغة المستترة ، وإحساس قوى بأنهم إذا كانوا شياطين ، فهو شيطانهم الأكبر إبليس .. حتى فوجىء عبد الهادى بقيام ثورة ٢٣ يوليو .

وأسرعت الأنباء إليه ، تحدثه أن هؤلاء القادمين الجدد ، يزعمون أنهم ملائكة جاءوا لطرد الشيطان من البلد والقضاء على ما بها من فساد ، وتطهير ما فى المجتمع المصرى من عيوب ، والقضاء على ما تفشى بين الناس من فقر وجهل ومرض . وارفع رأسك يا أخى ، فلن تكون بعد اليوم ضعيفاً مقهوراً ولن تكون ذليلاً مهاناً بسبب حاجتك المحروم منها .

وطبيعى أن عبد الهادى ، لم يصدق هذا الكلام ، واستقبله على أنه نوع من أدوات الزينة التى يتحلى بها هؤلاء الذين أمسكوا بالسلطة . وكان قد بلغ درجة عالية من القدرة على ضبط النفس كما أفلح فى التدريب على مواجهة التحديات والتقلبات ، وحصل على نفوذ بين الكبراء والعظماء ، بحيث أنه لم يقلق ، ولم يهتز له رمش .. كان واثقاً أنه قادر على مواجهة الثورة ، رغم المخاوف التى أبداها مدكور باشا بعد أن انتزعوا منه لقب الباشوية ، فأصبح السيد مدكور ، ويومها قال عبد الهادى لنفسه ، إن ما ستفعله هذه الثورة هو إنها ستقضى على كل الذين كانوا أقوياء ، لتفسح لى المجال لأكون أكثر قوة ونفوذاً .

ولسنا بحاجة إلى سرد ما هو معروف عن هذه الفترة من تاريخ الثورة ، ووجهة نظر عبد الهادى فيها ، لأن الأحداث التى جاءت فيما بعد سوف تكون أقدر على الإفصاح والتعبير . ولننتقل إلى أول معركة حقيقية واجهها

عبد الهادى بعد الثورة ، وكان ذلك عند إعلان تنظيم الصحافة المصرية ، ودخول أحمد عبد السلام مبنى جريدة العصر الجديد مكلفاً بالاستيلاء عليها ، وتولى منصب رئيس مجلس إدارتها .



رقيب فى العصر الجديد ..

كان عبد الهادى خلال تلك السنوات الثمانى من الثورة يزداد قوة ونفوذاً . وهو يشهد مصارع الأقويـاء ممن أطلقوا عليهم صفـة الاقطاعيـين أو الرجعيين . لقد شهد سقوط زعماء الأحزاب ، ونشر أخبار ما يجرى معهم من تحقيقات ومحاكمات ، وشعر بنشوة كبرى يوم عرضوا عليه وهو فى مكتبه بالجريدة صور عبد الرحمن باشا مكى واقفاً فى قفص الاتهام يستمع إلى الحكم عليه بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة ، « الباشا الوفدى السابق يستمع فى ذهول إلى حكم المحكمة » ، وشعر بنشوة مماثلة وربما أكبر عندما نشر خبر تأميم البنوك ومن بينها بنك النيل . وأراد أن ينشر صورة لمذكور باشا بهذه المناسبة ، لولا أن الرقيب اعترض قائلاً : إنه لا داعى لتذكير الناس بوجود هؤلاء الباشوات السابقين ، ولم يشأ عبد الهادى أن يلح فى نشر الصورة ، وكان يستطيع أن يتصل برؤساء الرقيب وأن يحصل منهم على الموافقة بالنشر ، فهم غالباً يلبون طلباته التى يقدمها لهم فى صورة نصيحة أو

مشورة . ولكنه فضل عدم إثارة الموضوع ، لأنه لم يجد مبرراً قوياً لنصحهم بنشر صور أعدائهم .. وكان عبد الهادى يدرك فى نفس الوقت أن رجال الثورة لا يطمئنون إليه ، وهو واثق أنهم يتربصون به ، وهم الذين يعلمون بتفاصيل أخبار مجلسه ، الذى يؤمه كثير من أولئك الاقطاعيين والباشوات السابقين الذين سقطوا فى المعركة ، وأصبحوا يترددون عليه ، بحثاً عن صلة ما تربطهم بأحد رجال الثورة ، أو [illegible] قد [illegible] من مصائب أكبر من تلك التى لحقت بهم ، وفى كل الأحوال ، انتظاراً لعلامة تظهر فى الأفق السياسى تشير إلى أن هذه الثورة بنظامها ورجالها فى سبيلها إلى الزوال . وكان

عبد الهادى يسعد برؤية هؤلاء الباشوات المنبوذين وهم يلتقون فى حجرته بوزراء أو مسئولين كبار من أصحاب السلطة فى الثورة . وكان يرقب بفرح شيطانى ، ذلك الأدب الجم الذى يتظاهر به الباشوات ، وتلك المجاملات المفرطة والثناء الفاضح الذى يكيلونه للثورة أمام رجالها ، كما كان يشهد ذلك الفضول الذى لا يخلو من فرح وشعور بالأهمية عند هؤلاء الذين يلتقون بباشوات العهد البائد ، وهم الذين ما كان يجرؤ أحد منهم على دخول مكاتب سكرتيريهم ، أو مجرد الاتصال بحاشيتهم ، أمام هذه اللقاءات المثيرة ، يسعد عبد الهادى وكأنه فى مقعد ممتاز يتفرج على مسرحية رائعة . هؤلاء يبتسمون لهؤلاء وهم يقولون فى مرارة لأنفسهم .. ملعون أبو هذا الزمن الذى جعلنا نحنى رءوسنا لكم ونتظاهر بحصولنا على شرف الجلوس معكم ، والواحد منكم كان لا يصلح أن يكون عامل تراحيل أو تمليا فى أرضنا ، وهؤلاء يبتسمون لهؤلاء وهم يقولون فيما يشبه التحذير لأنفسهم .. « أنتم أشبه بالأفاعى التى تنكمش لتنقض ، وتتراجع لتثب وتلدغ لدغة الموت » وكان عبد الهادى يتصرف بثقة ، ويعامل الجميع بحرارة .. ويتحدث بصراحة تتقبلها كل الأطراف ، وكأنها قفشات طريفة ، أو نكات مسلية مثلما حدث عندما قدم منصور باشا العزاوى إلى الدكتور رضا وزير المالية قائلاً له :

– هذا هو الذى أخذتم منه يادكتور نصف مليون جنيه ثمن أرضه التى

انتزعت منه وهو كما ترى سعيد جداً بما حدث .. وكل ما يريده هو أن تسمحوا له بشرف التنازل عن نصف مليون جنيه أخرى من أمواله التى هربها إلى سويسرا .

وابتسم الدكتور رضا وقال :

- ياريت .

بينما جعل منصور يخطب فى حماس مشيداً بوطنيته وبأنه لم يحزن على ما أخذوه منه من أرض . وأنه لو كان معه مليم واحد فى سويسرا أو فى أى بنك فى العالم لأسعده أن يقدمه للثورة وبعد أن انتهى منصور باشا من خطبته التي لم يصدقها أحد وكان هو أول من يعلم ذلك استراح وجهه وقال لعبد الهادى مبتسماً فى سخرية .

- أتريد إحراجى ياعبد الهادى أنا أستطيع أن أتكلم وأكتب عن الثورة أحسن من ذلك الكلام الذى تكتبه أنت فى جريدتك .

فقال عبد الهادى متخذاً قناعاً وقوراً وصوتاً خطيراً :

- ولكنك لا تعلم ياباشا بالبيان الذى سننشره غدا . ولسوف تقرأه بعد ساعتين عند مثول الجريدة للطبع . إنه بيان هام وقد جاء معالى الوزير بنفسه ليراجعه معنا قبل نشره .

واصفر وجه منصور باشا وجعل يتلفت حوله بعصبية ناقلاً بصره بين عبد الهادى والدكتور رضا وزير المالية ، وقال بصوت كالفحيح :

- أى بيان .. ماذا يقول البيان ؟

قال عبد الهادى ساخراً :

- إنه يتحدث عن النقود المخبأة تحت البلاطة والتى سيأخذونها بعد ساعتين منك ..

فارتبك منصور باشا وقال وهو يضرب كفا على كف :

- ليس عندى نقود لا تحت البلاطة ولا فوقها .

ثم نهض مخرجا محفظته من جيبه ، ومضى إلى الدكتور رضا . وأخرج من محفظته أوراقاً بيد مرتعشة .. وهو يهتف :

– كل ما معى كمبيالات وحجوزات يامعالى الوزير ..

فقال الدكتور رضا بسرعة :

– اطمئن ياباشا عبد الهادى كعادته يمزح .

لم يصدق منصور باشا وصمم على الانتظار حتى دخل عويس حاملاً أول أعداد الطبعة الأولى إلى مكتب عبد الهادى ووزعها على الحاضرين .. وقلب منصور باشا كل صفحة بدقة باحثا عن البيان ، فلم يجده .. ومع ذلك جعل يتلفت حوله ، يكاد يسأل جدران الحجرة .. أين هذا البيان .. ماذا يقول ؟

لقد اكتشف عبد الهادى أن منبع قوته ، فيما يتجمع لديه من أخبار ومعلومات يتمنى الآخرون الوصول إليها ، لم يعد الحسب والنسب مصدراً للقوة ، ولكن اجمع أكبر قدر من المعلومات .. واحصل على أكبر سيل من الأخبار ، وافتح أذنك وعيونك ، ووثق صلاتك بكل من يصلح مصدراً لخبر .

وعندئذ تملك قوة جبارة يسعى إليها الجميع ، البعض يتملقها . والبعض يخشاها . والبعض يسعى إلى الاستفادة منها والكل فى جميع الأحوال يلهث وراءها . ولا تقتصر مهمة عبد الهادى على الوقوف موقف المتفرج على الجميع ، بل عليه أن يبنى قوته التى يستمدها من معرفته بغابة البشر وما فيها من حيوانات بشرية قوية وضعيفة . متوحشة وأليفة . إن معرفته بحيوانات الغابة جعلت السلطات تهتم به .. وتستعين به لمعرفة الكثير من الأخبار .. وهو على استعداد دائماً لأن يقدم ما لديه من أخبار . وهو يعرف فى نفس الوقت أن السلطات تحيطه برجال المخابرات . أو كما قال ذات مرة لحسن زيدان وقد جاء يسأله رأيه فى اتصال بعض رجال المخابرات به :

– إذا أرادوا أن يجندوك فى خدمة المخابرات فاقبل على الفور ، لأنك ستكتشف أن كل الذين تعمل معهم هنا يتصلون بالمباحث أو المخابرات .

ثم سكت برهة وقال ساخراً :

ـ على أية حال أنا لا أفزع منهم ، وأقول دائماً ما مخابرات إلا بنى آدم .

فتشجع حسن وسأله :

ـ وأنت .. ما صلتك بهم ؟

وقال على الفور :

ـ هل هذا سؤال يسأله شاب ذكى مثلك .. أم أنك تتغابى .. أنا رجل المخابرات الأول فى هذه الجريدة .. وإن كان هذا لا يمنع من مراقبتى ، وتسجيل كل حركاتى وسكناتى ، وإحاطتى ومحاصرتى بأجهزة المخابرات ورجالها .

وكان أحمد عبد السلام دياب ، هو أول رجل مخابرات احتك به عبد الهادى مع بداية الثورة . ولقد جاء دياب إلى جريدة «العصر الجديد» لأول مرة كرقيب على الجريدة من واجبه أن يقرأ ويراجع كل الأخبار والمقالات والصور وينفذ تعليمات الرقابة . وكان طبيعياً أن يفكر عبد الهادى فى أمر هذا الرقيب الذى كان ضابطا فى الجيش ثم خلع ملابسه العسكرية ، وتحول إلى موظف مدنى يدرس الصحافة فى كلية الآداب وفى نفس الوقت يراقب الجريدة كل مساء . وظن عبد الهادى وهو رئيس التحرير المحنك وصاحب التجارب الواسعة والعلاقات الممتدة فى كل مجال .. إنه قادر على أن يطوى هذا الشاب ويضعه فى جيبه فى دقائق . وكان مدكور باشا ينصح عبد الهادى فى ذلك الوقت بالحذر ، لأن معلومات قد وصلته ، بأن هذا الرقيب ليس ضابطاً عادياً ، وأن له شأناً بين رجال الثورة . وكان عبد الهادى يضحك ساخراً ، لأنه قابل دياب فوجده غشيماً ، لا يفهم ما يقرأه ، بل إنه يشطب أحياناً كلاماً فى مصلحة الثورة ، ويسمح بنشر كلام يضرهم . فيتساءل مدكور باشا فى قلق ، إذا ما كان هناك أحد يعرف على وجه الدقة ما الذى فى مصلحتهم ، وما الذى يضرهم ، وعلى أية حال فالحذر مطلوب حتى تتضح الأمور . وفكر عبد الهادى أول الأمر ، فى أن يبهر دياب ، فيغمره بمظاهر نفوذه واتصالاته الواسعة ، فهو يطلب دياب إلى مكتبه ، فيدخل عليه ، ليجد وزراء يتحدثون فى شئون

السياسة فى جو مرح صاخب .. ويطلب عبد الهادى من دياب أن ينضم إلى مجلسه فيعتذر فى أدب وحياء ، لأنه مشغول بالعمل ، وينسحب من الحجرة .

وحدث ذات مرة أن دخل يوسف على عبد الهادى ومعه تحقيق إخبارى نقلته وكالة رويتر ، عن عقد صفقة سلاح بين مصر وتشيكوسلوفاكيا . وكان خبراً خطيراً ، وقد رفض دياب نشره وكان فى مجلس عبد الهادى وكيل وزارة الخارجية ، الذى سمع حديث يوسف مع عبد الهادى ، فقال مستظهراً علمه ببواطن الأمور ، إن الخبر صحيح .

فانتهز عبد الهادى الفرصة وصاح :

- الخبر صحيح .. والعالم قد عرف به .. فما الذى جعل هذا الرقيب يمنعه .. اذهب يايوسف وقل له أن يأتى إلى مكتبى .

وقبل أن يصل دياب ، كان عبد الهادى قد اتصل بوزير الخارجية ، الذى قال له : إنه لا مانع عنده من نشر الخبر . واستعد عبد الهادى للقاء يسحق فيه دياب ، الذى ما كاد يظهر عند الباب حتى سمع صياح عبد الهادى :

- تفضل ياسيد دياب .. يبدو أن الرقباء فى هذه الأيام أصبحوا كالأزواج الذين تخونهم زوجاتهم وهم آخر من يعلم بين الناس .. إن خبر صفقة الأسلحة صحيح .. ووزير الخارجية موافق على نشره ، وها هو أمامك السيد وكيل الخارجية يؤكد صحة الخبر .. لأنه لا يوجد رقباء مثلك فى صحف وإذاعات أمريكا وانجلترا ، وأظن بعد إذنك سوف ننشر الخبر .

وتفرس عبد الهادى فى وجه دياب ، منتظراً أن تبدو عليه علامات انزعاج أو قلق .. ولكن دياب ظل جامد الوجه ، بلا انفعال حتى علامات الأدب والحياء اختفت تماماً من قسمات وجهه . وإذا به يقول فى هدوء لا يخلو من خطورة :

- أنا انفذ التعليمات .. وتعليماتى لا أحصل عليها من وزير الخارجية أو من أى وزير غيره .

قالها دياب فى حسم ، ولم يترك لعبد الهادى مجالاً لمناقشة . فقد استدار ، وخرج من الحجرة ، وبعد نصف ساعة كان وزير الخارجية يطلب

عبد الهادى ، ويحذره بشدة من نشر الخبر قائلاً له : إن الرئاسة اتصلت به وطلبت منه أن يمتنع عن ذكر أى شيء عن هذا الموضوع .

ومع تكرار هذا الموقف ، تبين عبد الهادى أنه أمام حالة جديدة ، تختلف تماماً عن كل ما كان يعرفه فى الماضى . فهناك قوة أكبر من الوزراء ، تكمن فى الرئاسة .. وعليه أن يرتب أموره على هذا النحو . وأن يسعى إلى الاتصال بها . وإلى حين أن يحقق هذا الهدف حاول عبد الهادى أن يغرق دياب بمظاهر كرمه ، فهو يدعوه إلى العشاء مع المحررين آخر الليل .. ثم هو يأمر سائقه بأن يكون تحت أمر الرقيب عند انصرافه إلى بيته فى أطراف مصر الجديدة . كل ذلك ودياب لا يفتح صدره لعبد الهادى ويتعامل معه فى حدود الرسميات والمجاملات التقليدية .

ولاحظ عبد الهادى أن دياب يختار مجلسه إلى جوار يوسف عندما يدعوه إلى العشاء فى مكتبه ولاحظ بينهما ما يشبه الهمس ، والنظرات المتبادلة فى ابتسام وود وسأل عبد الهادى يوسف عن سر هذه الصداقة المفاجئة المتبادلة بينه وبين الرقيب ، أو ربما كانت بينهما معرفة سابقة ، فقال له يوسف إنه لم يعرفه من قبل . أما سبب هذه الصداقة فيرجع إلى أن دياب يستشيره كثيراً فى الأخبار التى يريد حذفها . وصعق عبد الهادى لما يقوله يوسف فى براءة شديدة وصاح منفعلاً :

ـ أنت الذى تنصحه .. ولمصلحة من ؟

قال يوسف وهو غير مدرك لما يتزاحم فى صدر عبد الهادى من انفعالات .

ـ لمصلحة البلد .

وانفجر عبد الهادى ساخراً مما اعتبره أغرب نكتة سمعها فى حياته :

ـ هل أنت الذى يقرر ما هو لمصلحة البلد .. أنت وهذا الغبى دياب .

أجاب يوسف وكأنه لا يسمع سخرية أو تهكماً :

ـ إنه ينادينى فأذهب إلى حجرته ، وأجده محتاراً قلقاً .. ويقول لى إنها مسألة ضمير . وأن الرقيب الحقيقى لا يريد أن يغضب الله فى تصرفاته . وأن كل

مايتمناه هو أن ينقذ البلد من الشر الذى يجثم على أنفاسها .. ثم يسألنى عن رأيى فى الخبر .. أو هذا المقال .. فأحاول أن أقول له رأيى ..

صاح عبد الهادى وقد زاد عجبه فطغى على سخريته :

- ولماذا يسألك أنت .. ولماذا لا يسأل حسن .. ولماذا لا يسألنى ! ؟ . قال يوسف :

- لا أدرى .. ربما كان يسأل حسن .. وكنت أظن أنه يسألك بعد أخذ رأيى .. فالموضوع يهمنا جميعاً .

وسكت عبد الهادى فجأة ، إذ كان يريد أن يفكر فى الأمر من جديد . قبل أن يتورط فى شىء وقد خيل إليه أن يوسف قد يكون على صلة أكثر عمقاً مما يتصور بدياب ، ورغم غرابة هذا التصور فى رأيه .. ولكن الأغرب منه أن يكون ما يقوله يوسف هو ما يحدث بالفعل أن يدلى يوسف بنصائحه الساذجة لدياب .. ودياب يقتنع بما يقتنع به من هذه النصائح ، ثم يمسك بالتليفون ويتصل بمن يتصل به من الرؤساء ويكرر ما اتفق عليه مع يوسف ، وهكذا تتوالى التليفونات وتتوالى الاتصالات ، حتى تنتهى إلى أن تصدر كتعليمات . هل هذا ممكن الحدوث . أيكون سر العملية كلها بهذه السذاجة . دردشة تليفونات ، واقتراحات ساذجة بلهاء .. ثم مظاهر سلطة وأوامر وتعليمات ، تصدر من أشخاص كل ما يعنيهم أن يثبتوا لأنفسهم أنهم أصحاب سلطة ، تماماً كالتركى المفلس الذى جلس على قارعة الطريق وأمامه صف من القلل ، فإذا جاء عطشان يمد يده إلى قلة ، صاح فيه شاخطا اترك هذه القلة واشرب من تلك .. هل هذا هو السر . لو صح الأمر ، فالمعركة معهم هينة إلى أقصى حد . خذوا من مظاهر السلطة كل ما تريدون واسمحوا لعبد الهادى أن يتحرك ليدعم سلطته الحقيقية فى مملكته . مارسوا من مظاهـر السلطة ما شئتم من ممارسة ، ولكن عليكم بعد التمتع بهذه المظاهر أن تعترفوا بأن خلف هذه المظاهر يوجد الرجل القوى عبد الهادى الذى يحتل هذا الموقع الذى تتجمع فيه الأخبار والمعلومات .. وتخرج منه الكلمة المنشورة التى

يتحدث بها الناس فى كل مكان وهو موقع أنتم فى حاجة إليه لتمارسوا به مظاهر السلطة .. وعبد الهادى يحتاج إليه ليكون دعامة أساسية للسلطة لا مجرد مظهر لها .

وسرعان ما شق عبد الهادى طريقه إلى مكاتب الرئاسة ، فهناك رجال لا يعلم بهم أحد ، بين أيديهم تقارير عن كل ما يجرى فى البلد ولقد أصبحت أقوى هذه التقارير وأكثرها إحاطة ونفاذاً إلى الأعماق تلك التى كتبها عبد الهادى نفسه ، أو راجعها بعد أن كتبها حسن زيدان مستعيناً بثقافته الواسعة . إن هؤلاء المجهولين عند الرأى العام ، أخطر وأقوى نفوذاً من الوزراء الذين يظهرون على مسرح السياسة ، وهم على استعداد لأن يقدموا لعبد الهادى الحماية وفوقها كل ما يطلبه من ولاعات وأربطة عنق باريسية .. وعلب سيجار هافانا وشيكولاته كادبورى وتفاح أمريكانى وأجهزة تسجيل واسطوانات لموسيقى الجاز والسيمفونيات وصوف انجليزى دورمى فاخر ، وأهم من ذلك كله حرية شخصية واسعة له بأن يلعب البوكر ويتخذ العشيقات بلا حرج أو حذر .

ولم يمض وقت طويل حتى أيقن عبد الهادى تماما أن دياب ينتمى إلى هؤلاء الرجال وأنه ليس بالموظف الصغير الذى كان يتوهم يوما ما أنه قادر على أن يطويه فى جيبه بسهولة .

حدث ذلك عندما نشطت إحدى الجماعات الارهابية ، ونشبت بينها وبين رجال الشرطة معركة مسلحة استخدمت فيها القنابل اليدوية والرشاشات أثناء محاولة رجال الشرطة اقتحام مخابئها . كان عبد الهادى قد علم بموعد اقتحام المخبأ فى وقت متأخر بالنسبة لطبع الجريدة ، وكان عليه أن يتصرف بسرعة ، ولابد من إرسال أحد المحررين الذين يستطيعون كتابة تحقيق سريع لا يحتاج إلى مراجعة أو إعداد قبل إرساله للمطبعة ، وفكر عبد الهادى فى إرسال حسن زيدان ، ولكنه خشى أن تتعطل أعمال أخرى كثيرة ، وعندئذ التفت إلى يوسف وكان قابعاً بجواره ، وقد فرغ من مراجعة أخبار القسم

الخارجى . وسأله إذا كان يستطيع القيام بالمهمة ، وقبل يوسف ، وذهب ومعه مصور إلى مخبأ الإرهابيين ولما وصل إلى هناك كانت المعركة قد انتهت ، وأسفرت عن مصرع واحد منهم ، كانت زوجته فى المسكن الذى اقتحمه رجال الشرطة وكانت امرأة شابة فى الثلاثين . نحيفة طويلة لها وجه شاحب مستطيل ، قسماته مشدودة ، وكانت ترتدى جلبابا من الكستور به نقوش زهر بنفسجى ، وتحمل بين يديها طفلها الرضيع الذى لم يتجاوز عمره ستة شهور . وكان الفقر هو المسيطر على الحجرة ، حصير على الأرض ، فوقه مرتبة بغير ملاءة ودولاب خشبى له مرآة مهشمة ، ولمبة جاز تنشر ضوءا كئيباً فيزيد وجه المرأة استطالة وغرابة وكان زوج المرأة عاملاً عاطلاً ، ويقال إنه فصل لكثرة غيابه من أحد مصانع النسيج . وكتب يوسف وصفاً تفصيلياً لكل ما رآه ، مجرد تسجيل للحجرة والمرأة وطفلها ومنظر الحارة التى يقع بها المسكن حيث دار تبادل إطلاق النار بين العامل وثلاثة آخرين كانوا معه ، قبض على اثنين منهم وفر الثالث .

وكَتب يوسف كل ما شاهده فور عودته إلى الجريدة بغير تفكير ، وكان الوقت ضيقاً فلم يقرأ أحد ما كتبه ، سوى دياب الذى قرأ بسرعة ووافق على النشر .

وظهرت الجريدة فى الصباح وفى صدر صفحاتها الأولى أخبار المعركة ومعها الوصف التفصيلى الذى كتبه يوسف ، وبجواره صورة لزوجة العامل وهى تقف ساهمة حاملة طفلها الرضيع . وما كاد النهار ينتصف حتى طلب عبد الهادى يوسف إلى مكتبه ، وكان وجهه ينم عن اهتمام خاص وعيناه تلمعان ببريق . وقال عبد الهادى ليوسف وهو يبتسم مخففا وقع كلامه :

- هل تدرى أنك أوقعتنا فى ورطة .. لقد سألتنى الرئاسة الآن إذا ما كنت متعاطفاً مع هذه الجماعة الإرهابية التى تحارب الدولة . فقلت لهم إن يوسف منصور لا يمكن أن يكون على صلة بمثل هذه الجماعة أو غيرها .. ولكنهم غير مطمئنين ، ولعلهم ينبشون الآن عن ماضيك وحاضرك وربما مستقبلك الذى لم

يحدث بعد . أتدرى أن ما كتبته عن زوجة الإرهابى القتيل يثير عطف الناس عليه .. وأخطر من ذلك تلك الصورة المنشورة لها . هأنت تقدمهم على أنهم فقراء مساكين .. ما هذا الكلام عن الحصير والمرتبة بغير ملاءة ولمبة الجاز . هل كنت تكتب قصة إنسانية أم معركة رهيبة دارت بين مجرمين ورجال الشرطة ، هل تريد أن تقول للناس إن الذى تحاربه الحكومة امرأة فقيرة ترتدى جلباباً من الكستور وطفل رضيع لا حول له ولا قوة .. طفل يتيم .. الحقيقة أنك لو كنت محامياً عن هؤلاء الإرهابيين لما فعلت أكثر من هذا .

وفوجىء يوسف بكلمات عبد الهادى ، وقال مستنجداً بالشىء الوحيد الذى يعتمد عليه فى مثل هذا الموقف .. الصدق الذى فى نفسه :

- لم أفكر فى كل هذا .. كل ما فعلته هو أنى سجلت ما رأيته .

وضحك عبد الهادى قائلاً :

- إن أحدا لن يفهمك سواى .. ومع ذلك فهناك مخرج .. فقد قلت لهم إن دياب وافق على الموضوع .

قال يوسف متردداً :

- نعم .. ولكن ما دخل هذا بدياب ؟

فقاطعه عبد الهادى :

- لا تقل لكن .. إن الخطأ خطأ دياب .. وهو الذى يجب محاسبته لموافقته على النشر .

قال يوسف :

- أرجو ألا تحدث له متاعب بسببى .

قال عبد الهادى مؤنبا :

- كلام فارغ .. دعهم يأكلون بعضهم بعضاً .. أما نحن فيجب أن نحمى بعضنا بعضا .

قال يوسف فى دهشة :

- نحمى أنفسنا من ماذا ؟

صاح عبد الهادى حانقاً :

ـ من غبائك .. أنت لا تريد أن تفهم .

وخرج يوسف حزيناً لغضب عبد الهادى وذهب إلى دياب الذى قابله هاتفاً :

ـ لولا أنك صديقى .. لقلت إنك أوقعتنى فى كمين بهذا الذى كتبته عن الإرهابيين .. ولقد وافقت على النشر لأنك كتبته .. ولأنى أعرف أن نواياك سليمة ولكنى أخطأت .

وسكت دياب ثم قال بعد برهة وهو يتأمل وجه يوسف الحزين :

ـ الواحد منا مازال يتعلم أمور السياسة .. ومازالت تنقصنا الخبرة والتدريب .. والذى استفاد مما حدث هو صاحبك عبد الهادى .. ولكن الأيام بيننا .

سأل يوسف فى غير فهم :

ـ كيف استفاد عبد الهادى ؟ .

فأجاب دياب :

ـ طالما لا نستطيع أن نؤدى عملنا كما يجب .. سيظل أمثال عبد الهادى هم المسيطرون على الصحافة .

فسأل فى دهشة :

ـ ولكنه صحفى والصحافة مهنته ؟ .

فأجاب دياب فى حدة :

ـ صحفى شرير .. خبيث .. ثعبان .. إنه عدو للثورة .

ثم قال فى غضب :

ـ هل تدافع يايوسف عن أمثال هذا الرجل ؟

ـ إنه فى حقيقته إنسان طيب .. وتستطيع دائماً أن تكسبه .

فسأل دياب محتجاً :

ـ تكسبه لماذا .. للتآمر .. للغدر .

قال يوسف :

ـ أبدا .. تكسبنه للحقيقة .. للبلد .

فقال دياب ناصحاً :

ـ هذا هو عيبك يايوسف .. أنت واقع تحت تأثيره .. وهو يخدعك وسوف ترى أنه فى يوم ما قادر على أن يطعنك فى ظهرك من أجل مصلحة تافهة .. أو نزوة عارضة .. إنه يأخذك معه تحت إبطه إلى سهراته وحفلاته .. ولكنه لا يعاملك كصديق .. فاحترس منه .

سأل يوسف فى عناد طفل :

ـ لماذا يفعل هذا ؟

قال دياب فى حدة لا يخفيها إلا شعوره باليأس من يوسف :

ـ هذا هو طبعه الخسيس .. إنه أسفل مخلوق ظهر فى الوجود .

قال يوسف فى ألم واضح :

ـ لا يجب أن تكرهه هكذا .

صاح دياب مستنكراً :

ـ من حقى أن أكرهه .. فهل تحبه أنت ؟

قال يوسف فى ثقة :

ـ نعم .

فسأله دياب متحدياً :

ـ أتظن أنه ملاك ؟

قال يوسف فى هدوء :

ـ لا .. إن له سيئات كثيرة .

فصاح دياب :

ـ هذا هو عيبنا نحن المصريين هذه الطيبة المفرطة ، إننا لا نستطيع محاربة الفساد بهذه الطيبة .. لابد من الحسم والبتر .. ولسوف نقضى على الفساد بضربة قاصمة .. كل شىء سوف يجىء أوانه .

سأل يوسف فى حيرة حقيقية :

- كيف نقضى على الفساد بضربة قاصمة .

قال دياب منفعلاً :

- سوف ترى .

ولم يمض على هذا الحوار أسبوعان .. حتى فوجىء الجميع بتعيين أحمد عبد السلام دياب فى منصب كبير بالمخابرات مشرفاً عاماً على نشاط جميع أجهزة الاعلام .

وقال عبد الهادى ليوسف معلقاً على الخبر :

- كان صديقك فى بعثة تدريب ليدرس أحوالنا ويعرف أخبارنا من الداخل . لم يكن أكثر من جاسوس أرسلوه ليتجسس علىَّ أنا بالذات .. وهو الآن يستعد ليوجه ضربة لنا .

قال يوسف ببساطة :

- نعم .. إنه سيوجه ضربة قاصمة .

فنظر إليه عبد الهادى مستريباً .

- من قال لك هذا ؟

قال يوسف فى هدوء :

- هو الذى قال .

فابتسم عبد الهادى فى قلق .. وقال متسائلاً :

- لماذا اختارك أنت بالذات ليقول لك هذا .

ثم ارتفع صوته فى ثقة :

- إنه لن يستطيع أن يضرب أحداً .. لقد علمتنى الأيام الكثير ولسوف تكون المعركة معه مثيرة ومسلية إلى أقصى حد .. ولكن نتيجتها محققة .

تقارير المخابرات

طال انتظار عبد الهادى للمعركة .. وكلما مر عام شعر بأن شهرته التى تزداد وانتشار جريدة « العصر الجديد » بين القراء واقبال المسئولين فى الدولة على مجلسه ، علامات على أنه يزداد قوة ونفوذاً مما يفرض على الثورة تأجيل انقضاضها عليه . ولكنه مع ذلك لم يطرد من خاطره ولو لحظة واحدة أن المعركة ضده لابد أن تنشب يوماً من الأيام . إن التجارب التى مرت به خلال سنوات الثورة مليئة بالدروس والعبر . فكم عرف من رجال مسئولين ، وزراء وغير وزراء ، كانوا ممتلئين ثقة بأنفسهم وبنفوذهم ولا يخطر ببال الواحد منهم أنه فى ليلة واحدة سوف يختفى فجأة من عالم السلطة والسياسة والنفوذ . البعض قبع فى داره . والبعض اعتقل لفترة . والبعض سافر إلى الخارج ولم يعد .. إنهم الآن يتظاهرون أمامه بالود .. ويعطونه كل ما يريده من اهتمام وتقدير . ولكنهم بكل تأكيد لا يثقون فيه . إنه كثيراً ما يقابل أحمد عبد السلام دياب فى الحفلات الرسمية ، أو يتصل به فى مكتبه بالمخابرات

لبعض شئون العمل . وما من مرة قابله إلا وأحس فى نظراته ضيقاً ونفوراً إن لم يكن كراهية سافرة .. وما من مرة سمع صوته فى التليفون إلا وشعر بأن فى لهجته شيئاً خفياً لا ينبىء بخير . إن دياب الرجل المتدين المتزمت فى تدينه ، لا يستطيع أن يخفى ما فى نفسه رغم كل ما يبديه عند اللقاء من بشاشة وترحاب . ولو ترك الأمر لدياب لا نقض على عبد الهادى وصرعه فى الحال . أما بشاشته فهى امتثال لأمر صادر من سلطة أعلى الواجب عليه طاعتها وتنفيذ أوامرها بلا تردد أو إبطاء .

ولكن إلى متى تستمر معاملة عبد الهادى على هذا النحو . إنهم يزدادون قوة ، خاصة بعد تأميم قناة السويس والانتصار على العدوان الثلاثى . لقد أصبحوا قوة هائلة لا تقاوم ، واستطاعوا أن يعلنوا الوحدة مع سوريا ، وأقاموا الجمهورية العربية المتحدة . إنهم الآن قادرون على فعل أى شىء وشتان بين قوة فرد مثل عبد الهادى وقوة ثورة ، ولكنه مع ذلك يشعر بأنه قادر على الصمود فى وجه أية محاولة لضربه .

ولقد صدق حدس عبد الهادى فمنذ بداية عام ١٩٦٠ وأحمد عبد السلام دياب يضع الخطة التفصيلية لعملية تنظيم الصحافة المصرية والاستيلاء على الصحف المملوكة للأفراد . وكان دياب يعمل فى كتمان شديد ، وقد بذل جهداً خارقاً فى جمع ملفات تحوى معلومات شاملة عن كل من يعمل فى الصحف التى سيتناولها التنظيم . كانت لديه معلومات عن كل محرر ، وكل عامل ، وكان قد جمع كل البيانات الخاصة بتمويل هذه الصحف ، وحساباتها فى البنوك . وكان قد أعد خرائط برسوم المبانى والمطابع والمخازن . كان يعمل ليل نهار ، ولا يقطع عمله إلا لثلاث ، أهمها الصلاة .. وثانيها الطعام ، وآخرها النوم . وكان قليلاً ما ينام .. فالرجل له ضمير يؤرقه . والوساوس لا تتخلى عنه ، وهو مؤمن بأنه سوف يوجه ضربة قاصمة للفساد .. وقد أكدت له المعلومات التى جمعها فى الملفات ، أن الفساد أعمق وأخبث وأخطر مما كان يتخيله فى أكثر تصوراته تطرفاً عن الشر .. وكان لا يملك نفسه من الانفعال وهو يقرأ عن

جرائم خلقية ، وسفالة فى التصرفات ، وضياع فى القيم ، وكأن الناس قد فقدت دينها إلى الأبد . وقد اشتد به الانفعال مع اتصال الإجهاد والإرهاق ، فسقط ظهر يوم فى مكتبه مغشياً عليه .. وقضى أسبوعين فى المستشفى وقد اشتبه الأطباء فى إصابته بذبحة صدرية خفيفة ، ولم يكف عن العمل أثناء وجوده فى المستشفى ، فكتب فى تلك الفترة خطة الاستيلاء على الصحف فى

ثلاث وعشرين صفحة من حجم الفولسكاب بخط واضح منسق . وقد عنى بأن يكتب فى أول صفحة بالخط الديوانى وبالحبر الأخضر « بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين » وقد حددت الخطة أسلوب الاستيلاء على الصحف ، والقوات اللازمة لتنفيذ العملية ، والأماكن التى تحتلها فى مداخل المبانى ، ولجان جرد الخزائن والمطابع والمكاتب ، كما حددت فى كل صحيفة ثلاث فئات وكان لكل فئة قائمة ، والقائمة الأولى كتب فى أعلاها بالحبر الأحمر « الأعداء » والقائمة الثانية كتب فى أعلاها بالحبر الأخضر « المتعاونون » والقائمة الثالثة كتب فى أعلاها بالحبر العادى ، « غير مشكوك فى أمرهم » .

وكتب دياب مقدمة للخطة ذكر فيها تحت عنوان « الهدف » أن المطلوب هو الاستيلاء على الصحف المذكورة باسم الشعب ، وتطهيرها من الفساد والعملاء بحيث تصبح هذه الصحف منابر لصوت الجماهير المؤمنة بالله والوطن والثورة . وجاء تحت عنوان « المهام » أن المهمة الأولى والعاجلة ، هى تحقيق الاستيلاء على الصحف .. مبانيها وأموالها فى البنوك والخزائن ومطابعها ومخازنها مع تأمين العملية واتخاذ كل الاحتياطات المناسبة لسحق أية محاولة للمقاومة أو التخريب أو الإتلاف ، أو قيام عناصر معادية بالتظاهر أو الشغب أو التحريض والإثارة بين العمال والمحررين ، ثم ذكر دياب بعض اقتراحات لإشاعة الطمأنينة فى نفوس العاملين بالصحف ، مثل تشكيل لجان من المتعاونين لبحث شكاوى المظلومين ، والإعلان عن علاوات جديدة وامتيازات وخدمات سوف يحصل عليها العاملون فى أسرع وقت . كذلك طالب بمعاملة الأعداء بعنف . واقترح أن يطلب منهم عدم مغادرة بيوتهم وتحديد

إقامتهم فيها لضمان عزلهم بحيث لا يستطيعون الاتصال بأحد أو التأثير على أية جماعة .

ولن نتابع هنا تفاصيل الخطة ، فالذى يهمنا هو أن دياب قد حملها إلى رؤسائه ، متلهفاً إلى وصول الموافقة عليها ، وتحديد ساعة الصفر للتنفيذ ، وجاءت الموافقة فعلاً ، ولكن دياب فوجىء بأمرين أثارا دهشته . أولهما تعديل فى الخطة بالنسبة لقائمة الأعداء فقد طلبوا استمرارهم [illegible] والعمل على تهيئة ظروف تسمح لهم بالاستمرار فى العمل . أما الأمر الثانى فهو أن دياب سوف يكلف بتنفيذ المهمة بنفسه فى جريدة العصر الجديد ، وسيترك منصبه فى المخابرات ليصبح رئيساً لمجلس إدارة الجريدة .

صاح دياب وهو يشعر بألم حاد فى صدره :

- كيف أعامل هؤلاء الأعداء بالحسنى .. كيف أطلب منهم الاستمرار فى العمل بعد أن أوجه ضربتى إليهم !؟

كان دياب يعبر عن احتجاجه الصارخ فى اجتماع موسع حضره رجال من الرئاسة ، واضطر إلى أن يستمع إلى منطقهم . إنهم يعلمون بأنهم أعداء ، وهم واثقون من صحة ما جاء فى التقارير عنهم ولكن القضية الآن ليست قضية أخلاق ، إنها قبل كل شىء .. قضية استمرار العمل . إن أحداً لا يستطيع أن يدير الصحف ، ويتولى رئاسة تحريرها لمجرد أنه رجل فاضل ذو أخلاق حسنة ونوايا طيبة . إن أحداً لا يستطيع أن يضمن نجاح الصحف ، واستمرار انتشارها بين القراء .. بإخلاصه الثورى . ثم أن القضاء على الفساد لن يتم بضربة قاصمة ، كما يتصور دياب . إن المعركة ضد الفساد شديدة التعقيد ، ولابد من تهيئة ظروف لنمو الصالحين ، وتدريب المتعاونين ، وتمكينهم شيئاً فشيئاً من السيطرة على العمل ، وعندئذ يسقط الأعداء ، دون أن يحدث ضرر بالعمل .

كان دياب لا يفهم هذا المنطق فإن الشر شر ، والعدو عدو .. ومهادنة الشر ومساومة الأعداء أكبر خطأ نقع فيه .. لأنهم لن يتيحوا لنا فرصة للعمل على



دياب

مساعدة الصالحين وتدريب المتعاونين . سوف يفسدونهم بأسرع من قدرتنا على إصلاحهم .

وسمع دياب من يقول له فى صوت هادىء لا يخلو من حزم :

- سوف يستشرى الفساد بين كثير ممن تراهم الآن مخلصين للثورة . ولكن هذا امتحان لصلابتهم ومناعتهم . ومن يصاب لأنه ضعيف ويسقط فنحن لم نخسره بل إننا طهرنا صفوفنا منه . وفى كل الأحوال إن الهدف ليس الوعظ والإرشاد وإلا أصبحنا كالوعاظ الذين لا يلتفت إليهم أحد . إن هدفنا هو أساساً السيطرة على مواقع العمل ثم تحريك الإنتاج فى كل المجالات المادية والمعنوية والثقافية ، وتطوير هذا الإنتاج شيئاً فشيئاً حتى يقف على قدميه ، وعندئذ سوف نجد القاعدة الصلبة من البشر الذين يقاومون كل فساد ، لا دفاعاً عن الأخلاق والقيم فقط بل لأن مقاومة الفساد سوف يتوقف عليها حماية البناء الذى قام بالإنتاج وارتبطت به مصالح الملايين .

صاح دياب يائساً :

- أنا أرفض أن أعمل مع هذا الشيطان عبد الهادى . صدقونى أنا أخشى على نفسى منه .

فابتسموا ، وقال أكثر من واحد :

- إنك استطعت مواجهته وأنت رقيب فى الصحيفة .. فمن الأسهل عليك أن تسيطر عليه وأنت رئيس لمجلس الإدارة .

وخرج دياب من الاجتماع مهموماً .. وكانت هواجس تفزعه ، إن هذا المنصب الجديد ، إنما هو إبعاد له عن عمله الذى ضحى من أجله بصحته وكل ما يملك من طاقة . ثم هو رجل عسكرى ، تعلم كيف يكون مقاتلاً . وهو لا يفهم فى أمور الدبلوماسية ، والتعامل بالأدب مع الأعداء وما يتطلبه ذلك من رياء وخداع ، إن احتمالات فشله أكبر من احتمالات نجاحه . ولكنه على أية حال لا يملك إلا الطاعة وتنفيذ الأوامر . ولابد أن ينتصر حتى ولو استشهد فى المعركة . وأخرج دياب ملف عبد الهادى يتفحصه من جديد . إنه

يريد أن يلم بكل شىء عن عدوه الأول فى الجريدة . يريد أن يتعرف على مواطن ضعفه التى يستطيع أن يوجه منها ضرباته التى توقفه عند حده .

كانت بالملف تقارير كثيرة عن علاقة عبد الهادى بمدكور باشا ، وصداقاته بالإقطاعيين ورجال الأحزاب السابقين .. وقال دياب لنفسه هذه العلاقات من الممكن السيطرة عليها ومواجهتها .. باستمرار فرض الرقابة على ما تنشره الجريدة لمنع ما سوف يقوله عبد الهادى لمصلحتهم . كما أن عبد الهادى من ناحية أخرى يقوم بدور الجاسوس المزدوج ، فهو يكتب التقارير عنهم وينبه إلى الكثير من أحوالهم ومواقفهم .. وإن كان ينصح بالتساهل معهم ويقترح التعاون مع بعضهم وكل هذا ليس فيه ضرر .. رغم ما فى احتماله من إرهاق .. وما يتطلبه من حذر ويقظة شديدين .. ولكن الشىء الخطير حقاً ، والذى لا يتصور دياب قبوله .. هو التعامل مع رجل فاسد تماماً على النحو الذى تكشفه التقارير عن حياة عبد الهادى الخاصة .. كيف يستطيع أن ينشر الفضيلة بين الناس ، رجل فاسق يرتكب الزنا ويلعب القمار كما تؤكد هذه التقارير . كيف يتحمل ضمير دياب أن يكون رئيساً للعمل ويوافق على أن يسلم رئاسة التحرير لرجل يأمر الدين برجمه بالحجارة حتى يموت .

هاهى حياة عبد الهادى مدونة فى هذه الأوراق ، ليس فيها بارقة أمل عن احتمال توبة الرجل وصلاحه .. إنه مدمن قمار . وهو يلعب البوكر أغلب الليالى فى بيت نور الدين بهنس بالزمالك ، وهو يقيم فى شقة فى عمارة بشارع عدلى . وما زال يحتفظ بمسكنه القديم فى غمرة .. ويتردد عليه أحياناً فى ساعات العصر حيث يلتقى بنساء من بينهن الممثلة السينمائية مهجة مراد والصحفية سعاد حرب محررة باب المرأة والطفل فى جريدة العصر الجديد ، ومنذ ثلاثة شهور بدأت تتردد على بيته السيدة زينب الأيوبى حرم السيد نور الدين بهنس . وفى الشهر الأخير زارته فى مسكنه بشارع عدلى وقضت ليلة كاملة هناك أثناء غياب زوجها بالأسكندرية . وهاهى تسجيلات المكالمات

التليفونية تؤكد أن زينب الأيوبى حملت من عبد الهادى ..وأنها أجرت عملية إجهاض عند الدكتورسامى عباس ، وأن خلافات حادة قامت بين عبد الهادى وزينب بسبب إلحاحها عليه فى أن يتزوجها .وهوما زال متردداً فى الموافقة على هذا الزواج بدعوى أن ظروفه الآن حرجة . وقد يتأثر مركزه بالفضيحة . ولكنه فى نفس الوقت يتوسل إليها ألا تقطع علاقتها به .

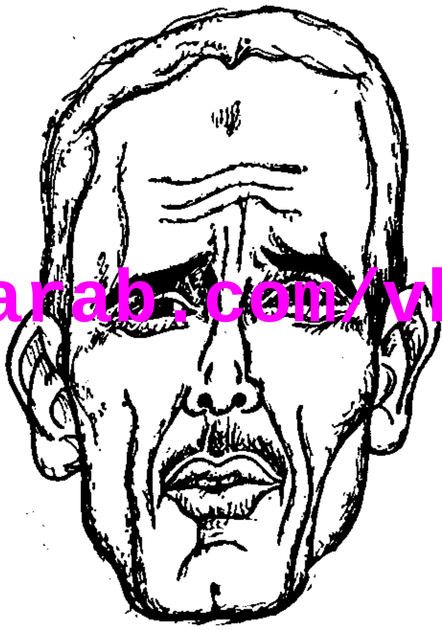
تطلع دياب [illegible] الأوراق فى عينيه [illegible] حيرة وغضب وقد صعد الدم إلى رأسه ، أى سبب فى الوجود يمنع الإقدام على سحق هذا الرجل حتى ولو أغلقت جريدة العصر الجديد . لو كان الأمر بيده لفرض على أمثال عبد الهادى الحد .ورجمه بالحجارة فى ميدان التحرير أمام مبنى الجريدة ، وبعد ذلك لن يجرؤ فاسق على ارتكاب معصية تغضب الله سبحانه وتعالى .

لقد كان على حق عندما طلب إبعاد الأعداء عن العمل . وهم ليسوا أعداء الثورة وحدها . إنهم أعداء الله إنهم أولاد إبليس على الأرض .. وهو حقاً لن يستطيع أن يحترم نفسه ويرضى ضميره .. إذا ما قبل التعاون مع عبد الهادى ولو مؤقتاً .. لابد أن يستأنف مناقشة الموضوع حتى لو وضع استقالته فى مواجهة بقاء عبد الهادى فى الجريدة . وتحمس دياب للفكرة .. وأمسك بورقة يكتب الاستقالة .. ولكن يده الممسكة بالقلم تجمدت .. وقد خطرله أنه قد يتهم بالعصيان وعدم الانضباط الواجب توافره فى رجل مثله ..

وعاد إلى الأوراق يقرأ تقارير أخرى عما يدور فى بيت نور الدين بهنس .. لقد اكتظت التقارير بمعلومات عن سهرات القمار فى هذا البيت . وأولئك الذين يترددون عليه . من بينهم المطرب المعروف هانى حمادة ، ولطفى مكى ابن عبد الرحمن باشا مكى ، ومختار زاده الذى كان من الرجال البارزين فى حاشية الملك فاروق ، وسعد الدين كرامى المدير العام بوزارة التموين .. وفؤاد برعى المقاول .. وفهمى عبد السميع صاحب مكتب استيراد وتصدير .. وزياد الطوبجى التاجر السورى .. وسليمان بكر المخرج السينمائى ، ويوسف منصور الصحفى بجريدة العصر الجديد .

وذكرت التقارير أن نور الدين بهنس يتاجر بالعملة الصعبة .. وأنه يحصل عليها عن طريق زياد الطوبجي وفهمى عبد السميع .. وأن المطرب هانى حمادة والمخرج سليمان بكر يتوليان مهمة عقد صفقات بيع الاسترلينى والدولارات فى الوسط الفنى .. وكل من يسافر من الفنانين والفنانات يعتمد عليهما . كما أن نور الدين بهنس يشارك فى عمليات مكتب فهمى عبد السميع بعشرة آلاف جنيه .. كذلك يتقاضى سعد الدين كرمى مرتباً شهرياً قدره خمسون جنيهاً نظير عمله مستشاراً بالمكتب فى المساء . وله عمولة ربع فى المائة من الصفقات التى يعقدها المكتب عن طريق موافقة وزارة التموين .

والجميع غير موالين للنظام .. وتدور أحاديثهم حول ضرورة التخلص منه فى أسرع وقت .. وقد نذر لطفى مكى أن يذبح عشرة عجول أمام مسجد السيد البدوى فى طنطا يوم يسمع خبر القضاء على الثورة . والمطرب هانى حمادة يغنى أحياناً نفس أغانيه المعروفة عن الثورة بكلمات مضادة ويتفوه فيها بعبارات وألفاظ جارحة ونابية ضد المسئولين ..



مختــار زادة يقــرر

وترك دياب الأوراق تسقط من يده . وصرخات مكتومة في صدره .. كيف يقبلون التعامل مع كل هؤلاء . لماذا لا يقبض عليهم .. هل سوف تنتهى البلد لو سكت فيها صوت هانى حمادة . وما الذى يمنع من محــاكمة فهمى عبد السميع على اتجاره في العملة الصعبة .. هو وزياد الطوبجى . وهذا المدير العام الذى يقبض رشوة خمسين جنيهاً كل شهر لماذا يبقى في منصبه . هل هذه المعلومات غير صحيحة . أم ماذا . إنه يكاد يجن . وعلى أية حال فليستدعى مختار زادة كاتب هذه التقارير ويناقشه ويستزيد منه بعض المعلومات ليطمئن قلبه .

وجاء مختار زادة إلى مكتب دياب في الموعد المحدد . فقال له دياب .. إنه لم يستطع قراءة التقارير لأنها مكتوبة بخط ردىء ، وبلغة ركيكة مليئة بالأخطاء الهجائية . ولذلك أراد أن يتحدث معه ويناقش معه ما جاء فيها . فمثل هذه المعلومات يجب الوثوق منها تماماً .. لأنه يتوقف عليها كثير من الإجراءات

الخطيرة الحاسمة ..وبذل دياب مجهوداً مضنياً ليفهم ما يقوله مختار زادة . فطريقته في الكلام مضحكة . ولغته أسوأ بكثير من خطه . ثم أنه يكثر من استخدام التعبيرات الفرنسية التى لا يفهم منها دياب كلمة واحدة . وفوق ذلك فالرجل معجب بنفسه . ويتصور أنه ما دام يتعامل مع المخابرات ، فلا بد أن له عبقرية شرلوك هولمز في الاستنتاج . ومع كل هذه المخاطر التى توحى بالشك في صدق الرجل استمع إليه دياب وابتسم له وهو يثرثر كما تثرثر النساء بكل ما يعرفه عن بيت نور الدين . وأضاف مختار إلى معلومات التقارير ، أن زينب الأيوبي كانت على علاقة بلطفى مكى .. وأن الجميع يعلمون بهذه العلاقة . ولا يشك مختار زادة فى أن نور الدين بهنس نفسه لا يجهل هذه العلاقة . فهو من ذلك النوع من الرجال الذين لا يكترثون بهذه الأمور .

فقاطعه دياب مشمئزاً :

- أليس رجلاً ؟

فنظر إليه مختار زادة باسماً واعتدل في جلسته وقد اتخذ مظهر الخبير وقال :

- إنه بكل تأكيد رجل يا سيدي .. فنحن نتحدث أحياناً في أمور الجنس والرجولة .. ولقد أقسم لنا عبد الهادى أنه شاهد نور الدين وهو عريان وكان ذلك في الأسكندرية وهما يرتديان لباس البحر فهاله ما يتمتع به الرجل من فحولة . ولكن الرجل محروم تماماً من أى شعور بالرقة أو الحنان .. إنه مجرد حيوان أو ماكينة . وهو لا يهتم بشىء غير النقود والأكل بشراهة .

كان دياب يستمع إليه وهو يفكر في عبد الهادى ويعجب لهذا الرجل الذى رأى جسد الزوج عارياً ورأى جسد الزوجة عاريا . إن عيني عبد الهادى لا يكفى أن يأكلهما الدود في قبره . مثل هذه العيون لابد أن تحرق في جهنم إلى أبد الآبدين .. وانتبه دياب إلى صوت مختار يسأله :

- سيدى يرغب فى أن أستمر .

قال دياب بسرعة :

- نعم هذه العلاقة بين زينب و ..

وقطع دياب كلامه فجأة .. كان يوشك أن يسأل مختار عن علاقة زينب بعبد الهادى .. ولكنه تذكر أن ما لديه من معلومات عن هذه العلاقة قد وصلته عن طريق مراقبة التليفونات ، ومن تقارير المخبرين الذين يراقبون تنقلات عبد الهادى .. أما مختار زادة فلم يذكر شيئاً عن هذا الموضوع ، لذلك فالأفضل أن يتركه حتى يقول ما عنده ولعله لا يدرى شيئاً عن هذه العلاقة .

كان مختار ينظر إلى دياب فى انتظار بقية سؤاله وفي عيونه خبث وفضول .

فقال دياب وهو يبسط كف يده :

- أعنى علاقة هذه المرأة بمجلسكم .. كيف تتصرف معكم ؟

فبدأ التردد على مختار زادة ، وكأنه يجد صعوبة في التعبير عما في نفسه ، وجعل يتحدث ببطء شارحاً أنه لم يختلط كثيراً بهذه السيدة . لأنها لا تجلس معهم إلا نادراً . وقد حدث أن دخلت عليهم ذات ليلة لتسأل المخرج سليمان بكر إذا ما كان يستطيع أن يجد لها عملاً في السينما . وقد باغتت سليمان بطلبها . فقد دخلت . واتجهت مباشرة إليه متجاهلة الآخرين . ووجهت سؤالها إليه بغير مقدمات . وعندما قال لها سليمان إنه موافق بشرط موافقة زوجها ، قالت في حدة : إن نور الدين موافق . ولا يستطيع إلا أن يوافق . وكان نور الدين ينظر إلى أوراق اللعب في ضجر لأنها تعطل اللعب . وارتبك سليمان .. وإذا بها تقول له فى حدة غير متوقعة إنها تسأله هو وعليه أن يجيب ولا دخل للآخرين في سؤالها أو إجابته . فقال سليمان إنه سيحدد لها موعداً لإجراء الاختبار اللازم ، وهنا غضبت وقالت له : إنها ترفض أن يختبرها أحد ، وأن إجابته هذه تدل على أنه مخرج فاشل . وعندئذ تبينوا من طريقة كلامها أنها أفرطت في الشراب ، وقام لطفى مكى أمام زوجها وأمسك بيدها ، وربت على كتفها ، وطلب منها أن تذهب إلى حجرتها وتستريح ، كان يحادثها في رقة ولطف وكأنه زوجها ، أما زوجها فكان منكس الرأس تعبث أصابعه بورق

اللعب . وشخطت زينب في لطفي وقالت له : لا تلمسني ، فاحمر وجهه واعتذر ، بينما أدارت وجهها محدقة في الموجودين وقالت وعيناها تلمعان بتهكم مجنون . من قال إنكم رجال . ولم نفهم ماذا تعني وما هدفها من توجيه مثل هذه الإهانة ، واستدارت وخرجت من الحجرة ، ثم عادت وأطلت من الباب ووجهت الكلام لعبد الهادى وقالت له : إنها تعرفه ، وأنها تقدره ، وأنها آسفة لما حدث ، وإن كان يستحق أن يسمع ما قالته بسبب وجوده بيننا ، ثم قالت وصوتها يكاد يبكى من فرط السكر .. أنا لا أفهم كيف يضيع رجل مثلك وقته هنا .. فقال عبد الهادى بصوت جاد :

- وأين أضيعه يا سيدتى .. إننى لا أجد في البلد كلها إلا أمثال هؤلاء الحيوانات .

وابتسم لها . فنظرت إليه طويلاً . وهمت بأن تقول شيئاً . ثم اختفت وأغلقت وراءها الباب . فضحك عبد الهادى وقال لنور الدين :

- إن زوجتك قنبلة متفجرة .. ولكنها صدقت . فأنا لا أجد من حولى إلا حيوانات .

فقالوا له إنه إذا كان هناك حيوان حقيقي فهو عبد الهادى شخصياً . ومنذ ذلك الوقت تفاهم الجميع على أن زوجة نور الدين بها لوثة . وهى مع ذلك جميلة .. فاتنة . جسمها فارع ممشوق .. وشعرها أحمر .. ووجهها ملىء بالنضارة والحيوية . ولها عينان ساحرتان .

وقطع مختار زادة وصفه لزينب .. وتنهد ، وقال لدياب :

- حقيقة يجب أن تعذرنى يا سيدي .. فأنا لا أبالغ في وصف جمالها . وأصلها التركى يثير في قلبي الأشجان .. إنه يذكرنى بصورة للمرحومة جدتى .. وصدقنى أن الملك فاروق لو كان رآها كان لابد أن يتعرف عليها . ومن يدرى ربما كان اختارها زوجة له . لا لمجرد أنها جميلة . ولكن لأن عندها ذلك الذى يسمونه حضوراً . أى تشعر بوجودها . وتجد نفسك منجذباً إليها .. لا تنتبه إلى أحد غيرها . ولكنها مع ذلك ليست مهذبة . تشعر من

لهجتها ومن حركاتها أنها ينقصها الكثير من التهذيب والتدريب لتكون سيدة عظيمة . ولكنها خامة أصيلة مدفونة فى تراب هذا .. هذا ..

وقطع مختار زادة كلامه . إذ أدرك أنه في حماسه يوشك أن يقول لدياب : إن زينب مدفونة فى تراب نور الدين الفلاح .. وتصبب العرق من جبين مختار وقد شعر بخوف حقيقي . وكأنه رأى تحت قدميه بئراً بلا قرار كاد يتعثر ويسقط فيه . إن دياب ليس أكثر من فلاح .. ولو كان سمع الكلمة ، فربما وضعه فى جب وأخرجه منه كل صباح ومساء ليضربه بالسوط مائة جلدة .

وقال مختار لاهثاً :

ـ أقصد أن هذه السيدة كان من الممكن أن يكون لها حياة من نوع آخر تماماً . ومن يدرى فلا بد أن تكون لها علاقات كثيرة .

فسأل دياب :

ـ أتعرف هذه العلاقات ؟

فهز مختار رأسه معلناً جهله بمعلومات أخرى عن علاقات زينب .. إنها تخرج كل ليلة فلا تعود إلا فى الساعات الأولى من الصباح أثناء انغماسهم في اللعب . وهى لا تكترث بوجودهم . وأحياناً تغنى بصوت مرتفع بعد عودتها .

وحدث بسبب هذا فصل طريف .

كان مختار يريد أن يقول أى شىء يجلب الابتسامة إلى وجه دياب المتجهم ، وكان خوفه منه يزداد لحظة بعد لحظة .. وكأنه متهم يوشك دياب أن ينقض عليه .. وهكذا أخذ يتحدث عن المطرب هانى حمادة .. الذى ظن أن زوجة نور الدين ترفع صوتها بالغناء ليسمعها . وأنها تريد الاشتباك معه في علاقة . وقد آثار عبد الهادى معه هذا الموضوع بعد خروجهم من البيت في الفجر . إذ سأله متخابثاً . ألم تسمع صوتها وهى تغنى لك يا هانى . فقال له إنه سمع . فلكزه عبد الهادى في صدره وهمس ماذا تنتظر يا أستاذ .. ولكن مختار لا يعرف ماذا حدث بعد ذلك . لأن هانى رفض أن يحدثهم بشىء . ولعله اتصل بها أو كما يؤكد عبد الهادى ، أنها رفضته ، وقالت له إنها لا تحب صوته .

وأنها تغنى أحسن منه . إنها على أية حال امرأة مجنونة . تنتظر منها أى شيء . وهى تقدم على أى شيء . وهى كما يقولون بالفرنسية ، تنفق حيويتها ببذخ . وهى تنفق ببذخ . فهى ترتدى فساتين غالية ، ولابد أنها تحصل على النقود من عشاقها لأن نورِ الدين بخيل إلى درجة لا يمكن تصورها ، ولا شيء يقدمه فى بيته إلا على حساب اللعب ، الكباب الذي يأكلونه يدفعون ثمنه ، بينما [illegible] طعامه ، ولا يشترى السجائر بدعوى أنه لا يدخن ، ولكنه يدخن بشراهة طوال اللعب وتمتد يده إلى علب السجائر من حوله ولا يطمئن حتى يفرغها بل أنه أراد أن يدرج في حساب اللعب مصاريف الكهرباء ، وهو كثيراً ما يتشاجر مع زياد الطوبجي ويتبادلان الاتهام بالسرقة والنصب ولكنهما يتصالحان بسرعة ، ونور الدين لا يحتمل الخسارة ، وهو نادراً ما يخسر ، لأنه لا يفعل أبداً . ولا يتحمس ، ولا يغامر ولا يتهور ، إنه يلعب وكأنه آلة حاسبة ، ولا أحد يثق في ذمته ، فلو سنحت الفرصة للغش أثناء اللعب فلن يتردد . لو لا أن الجميع يراقبونه ويتابعون حركات يده ، ولكنه بكل تأكيد يستطيع أن يضرب فجأة ويكسب بطريقة تثير الريبة ، فهل تتصور أنه في تلك الليلة التى دخلت فيها زوجته وأحدثت تلك الضجة وشتمت الجميع لأنها تريد الاشتغال بالسينما ، كان نور ينتهز الفرصة ليرتب الورق فما كادت تخرج ، حتى كسب واتهمه الجميع بأنه غش في الورق ولكنه صمم على أنه لم يغش . إن الذى يجعل الشلة تتردد على بيته ، هو أن بيته فخم ومريح للعب ، ولقد ملأ البيت بالتحف والكريستال والسجاجيد التى اشتراها أثناء وجوده بالسفارات في الخارج ، ولكن أهم ما يدفعهم للتردد عليه واللعب معه هو العامل النفسى ، فالرجل يستفزهم بدناءته ، وبحيوانيته ، إنك تريد أن تهاجمه وأن تستثيره ، وأن تؤلمه ، ولكنه لا يستثار ولا يتألم .

ويقول عبد الهادى النجار : إنه لا يجد لذة في الحياة تعادل رؤية نور الدين وهو يخسر . ولا يتورع عبد الهادى عن سبه ووصفه بأنه خنزير سمح حتى أصبح الكل ينادونه يا حلوف .. وهو لا يتأثر بهذا .. ويبتسم

ابتسامة صفيقة ، قائلاً بصوته البشع : إنه سعيد بشتيمته . لأنهم كلما شتموه جلبوا له الحظ ، والرجل له نظرية في ذلك .. ولعله محق في نظريته .. فكلما حقدنا عليه ، كسب فعلاً .. ونور الدين يبيع أى شىء لقاء أى مكسب .. وهو يعرف ولع عبد الهادى بالمخترعات الحديثة .. آخر صيحة تظهر فى أوروبا أو أمريكا ، في الولاعات . أو آلات الحلاقة الكهربائية . أو أجهزة التسجيل . أو أنواع الراديو الترانزستور . إن عبد الهادى لا يستطيع مقاومة إغراء هذه الأشياء إذا رآها في يد نور الدين الذى يتعمد إبرازها أمامه .. فيختطفها منه . ويدفع له أى مبلغ يطلبه . ورغم مشاركة عبد الهادى في الحديث الذي يدور ضد « الثورة المباركة » هكذا قال مختار زادة .. إلا أنه والحق يقال يأخذ دائماً موقف المعارض للمهاجمين .. وهو يقول : إن الذين لهم حق في الهجوم على الثورة اثنان فقط .. وهما لطفى مكى الذى دخل أبوه السجن وانتزعت منه أطيانه .. ومختار زادة الذى فقد مصدر نعمته وثروته ونفوذه بعد طرد الملك .

أما غير هذين الاثنين ، فالجميع استفادوا من الثورة ، فبسبب قيود النقد استطاع نور الدين بهنس وزياد الطوبجي أن يحققا أرباحاً خيالية . وهانى حمادة وسليمان بكر يتاجران معهما . ومكتب فهمى عبد السميع تضاعف نشاطه .. وفؤاد برعى زادت أرباحه وكان قبل الثورة يركب الترام وهو الآن يركب عربة مرسيدس ، وسعد كرامى يكسب ضعف مرتبه .. لكنهم يحتجون عليه بأنهم غير مطمئنين . وأن ما يملكونه اليوم قد تأخذه منهم الثورة في الغد .. فيضحك عبد الهادى ويقول لهم اطمئنوا .. فهذه الثورة لا تستطيع إلا أن ترتكب الحماقات التى يستفيد منها الرجل الشاطر الذي يستطيع انتهاز الفرصة .. إن الحياة فرص لمن ينتهزها .. والذين يتهمون الانتهازية هم الضعفاء العاجزون . وأمامكم هانى حمادة .. الذى انتهز الفرصة بحق ، فكسب من أغانى الثورة الوطنية أضعاف ما كان يكسبه من أغانيه العاطفية قبل الثورة .. ثم هو مرشح لأن يحصل على نيشان . فماذا يطلب أكثر من هذا . ثم يقول عبد الهادى إنهم يتحدثون عن سياسة تكافؤ الفرص .. وهذه

السياسة واقعية جداً ، وهو يؤيدها .. واحتمال الخطر الوحيد هو أن يفهم رجال الثورة هذه الحقيقة فيغيرون سياستهم . ولكنه واثق أنهم لن يفهموا . لأن من مصلحتهم ألا يفهموا .

وكان دياب ينصت في اهتمام واحتقار في نفس الوقت ، لما يسمعه وللرجل الذي يثرثر بهذه الحقارة .

وهنا خطر لدياب سؤال مفاجئ .

- هناك شخص لم تحدثني عنه .

وبدت الدهشة على وجه مختار .

وقال دياب متحفزاً :

- يوسف منصور .. ألم تلاحظ أنك لم تتحدث عنه بكلمة واحدة ....



أسمــاء في قائمة الأعداء

ما كاد مختار زادة يسمع اسم يوسف منصور ، حتى التمعت عيناه بهذا الذكاء المصطنع الذي يدعيه لنفسه . واسترد بعض الطمأنينة فقال متخابثاً : إنه فى الحقيقة لا يعرف عن هذا الشخص شيئاً ، ثم سكت محاولاً أن يقرأ شيئاً فى وجه دياب ، فلما وجده صامتاً جامد الوجه ، تململ فى مقعده ، وكأن شيئاً ما يؤرقه . ثم انطلق يثرثر من جديد مدعياً الفطنة .. وأنه سيتحدث بصراحة ويبوح بالسر . لقد أدرك منذ البداية أن يوسف منصور يعمل معه في المخابرات هذا شيء واضح لا يفوت على مثله . وهذا هو السبب فى أنه لم يهتم بتسجيل أى شيء عنه في تقاريره . وهو ينتهز الآن الفرصة لينبه إلى أن تصرفات يوسف مكشوفة ، ويبدو أنه مستجد في العمل .. إنه على أية حال مازال شاباً تنقصه الخبرة ويحتاج إلى تدريب ومران ، مثلاً إنه لا يشارك في اللعب ، ويجلس صامتاً طوال الوقت بجوار عبد الهادى كالصنم . وقد آثار هذا انتباه الآخرين ، بل ضاقوا بوجوده ، ولم يفهموا سبب جلوسه معهم . وانتهزوا فرصة غيابه أكثر من مرة ، ليثيروا الموضوع مع عبد الهادى

ويطالبوه بعدم إحضار هذا الشخص المريب إلى مجلسهم مرة أخرى ، ولكن عبد الهادى لسبب غير مفهوم كان يدافع عنه . ويقول إنه صديقه وإنه يأخذه معه أينما شاء ، وإذا رفضوا حضور يوسف فهو لن يحضر هو الآخر . كما أنه كان يقول إن يوسف يجلب له الحظ ، وهو يقولها بإيمان وحماس ، والغريب أن هذا هو ماحدث فعلا أول يوم جاء فيه يوسف مع عبد الهادى وجلس خلفه ، إذ كسب عبد الهادى حوالى سبعين جنيهاً وهو مبلغ ضخم . فالكسب والخسارة فى العادة لا يتجاوزان العشرين أو الثلاثين جنيهاً في الليلة الواحدة . ولكن عبد الهادى كسب وحده وخسر الجميع فى تلك الليلة . والأدهى من ذلك أن نور الدين خسر ليلتها أربعين جنيهاً وهذا حادث فريد في حياة نور الدين ، إنها كارثة بالنسبة له حتى أنه فقد قدرته على التنفس بعض الوقت واحتج مطالباً باستعادة خسارته ، لأن اللعب لم يكن سليماً بسبب وجود شخص غريب ..

وأنه إذا كان عبد الهادى يتفاءل بيوسف فهو من ناحيته يتشاءم من وجوده ، وقد بدا الارتباك على يوسف . وكان الموقف غاية في الحرج بالنسبة له ، فنهض يريد الانصراف لولا أن عبد الهادى ثار فى وجه نور الدين وشتمه ، وطلب منه أن يعتذر ليوسف ويقبل رأسه . فاستسلم نور الدين لأوامر عبد الهادى ، ونهض لاهثا .. متجها إلى يوسف معتذراً ، قائلاً له أعطنى رأسك لأقبلها .

ولكن يوسف تراجع فزعاً ورفض أن يقبل نور الدين رأسه ، وهمس فى خوف أنه قبل الاعتذار ، وبالطبع لم يكسب عبد الهادى في كل ليلة جاء فيها يوسف ، ولكن من الممكن أن تقول إن احتمالات مكسبه أصبحت أكبر عن ذى قبل ، وهذا يعنى أن يوسف يرفع معنويات عبد الهادى ، والكسب فى القمار كما يعرف مختار زادة بخبرته ، يحتاج دائماً إلى معنويات عالية ، في العادة ترتفع معنويات المقامر بوجود حسناء جميلة إلى جواره أو بعد شربه لكأس من النبيذ المعتق ، وكان الملك فاروق ترتفع معنوياته بالسندوتشات ، فكان يلتهم عشرين سندوتشاً من الكافيار ويلتهم فى نفس الوقت نقود اللاعبين ، ولكن هذه أول مرة يرى فيها مختار رجلاً ترتفع معنوياته بوجود إنسان مثل يوسف

إلى جواره ، وإذا صح ما يفترضه مختار زادة من أن يوسف يعمل للمخابرات وهو واثق من ذلك ، فهو ينصح بتغييره لأنه لا يتحرك إلا كتابع لعبد الهادى وهو دائماً لا يجيد التصرف ، فعندما تدور مناقشات حول الثورة ، لا يحاول أن يفتح الموضوعات .. أو أن يستثير حماسهم للكلام ، وبالعكس يتخذ موقفاً مريباً وشديد الغباء إذ يلزم الصمت ويستمع بانتباه ، كأنه يعنى بتسجيل كل كلمة يقولونها في ذاكرته ، وقد لفت هذا السلوك أنظارهم ، وواجهه فهمي عبد السميع ذات مرة فقطع كلامه وسأله فجأة وبصراحة إذا ما كان ينصت ليسجل ما يقولون فارتبك يوسف ، وتدخل عبد الهادى على الفور وقال إذا كان هناك من يسجل ما تقولون ويبلغ عنه فهو عبد الهادى شخصياً ، فأصر عبد السميع على أن يقول يوسف رأيه في الثورة فإذا به يجيب : إنه يراها ضرورية ، ويجب الدفاع عنها .. فوجموا .. واضطر مختار زادة إلى إنقاذ يوسف ، فهو قبل كل شيء زميل له فى المخابرات ، فضحك وقال : إن هذا الشاب أكثرنا خوفاً من الثورة ، بدليل أنه يقول هذا الكلام الذى لم يقل به أحد من العقلاء . وكان لتدخل مختار زادة أثره ، فهو في نظرهم رجل أريب محنك له دراية وخبرة منذ كان يعيش في حاشية الملك ، فهو خبير بالناس . وخاصة الجواسيس من بينهم . ومع ذلك ثار لطفى مكى وقال ليوسف : إن هذا الكلام عن الثورة لم يقله حتى الفلاحون الذين أعطوهم أرضه وطلب من يوسف متحدياً أن يعلن عن اسم أسرته حتى يطمئن إلى أنه ليس قريباً لأحد من رجال الثورة فاحمر وجه يوسف وفقد أعصابه ، رغم أنه في العادة شديد الهدوء وقال إنه بلا أسرة ، وإنه ليس قريباً لأحد من رجال الثورة .. وتدخل عبد الهادى وقال إنه ابن ناس طيبين ، وإنه ابن المستشار محمد منصور وأعلن فى حزم أنه لن يسمح لأحد بمهاجمة يوسف . والغريب أنهم توقعوا أن يختفى يوسف من مجلسهم بعد هذه المواجهة ، ولكنه استمر في التردد على بيت نور الدين ..

وهذا هو ما قطع كل شك لدى مختار زادة حول صلته بالمخابرات .. فما الذى يدفع أى إنسان على الاصرار على البقاء وسط جماعة لا يوافق على آرائهم ،

ولا يلعب معهم البوكر ويكتفى بالجلوس في صمت بينهم وهو يدرك في نفس الوقت أنهم لا يرحبون به ، إلا إذا كان مولعاً بتعذيب نفسه .. أو كانت له مهمة عليه أن يؤديها ، وهذه المهمة بكل التأكيد للمخابرات .

وسكت مختار زادة ، في انتظار أن يقول له دياب شيئاً ، ولكنه كان غارقاً فيما يشبه التفكير العميق . كان يفكر في حيرته عندما وضع اسم يوسف منصور في قائمة الأعداء ثم عاد وشطب اسمه من القائمة ، وقد تذكر صلاته

القديمة به وأنه إذا ما تولى رئاسة العمل في الجريدة فسيكون قادراً على انقاذ يوسف من براثن عبد الهادى وهذا أقل ما يجب أن يفعله ، فلا بد أن يكون قادراً على كسب هذا الشاب الساذج الطيب ، ولن يسمح للشيطان عبد الهادى أن يغلبه في يوسف ، وهكذا كان وضع اسم يوسف في قائمة المتعاونين .

ولكنه تراجع بعد أيام ، وهو يراجع القائمة .. كان لابد أن يثق ثقة مطلقة في كل من يكتب أسماءهم فى هذه القائمة ، فرفع اسم يوسف منها .. وكتبه فى قائمة غير المشكوك فى أمرهم . ثم غلبه الشك فى صواب قراره .. فما أدراه بخفية يوسف وأثر اختلاطه المستمر بعبد الهادى ، أليس الأفضل ومن باب الأمان أن يعود ويدون اسمه في قائمة الأعداء ، وها هى ثرثرة مختار زادة تزيد من حيرته .

وسمع مختار يسأله فى أدب لا يخلو من قلق :

- هل أخطأت في الكلام على هذا النحو عن يوسف .. في الواقع أنا كما قلت من قبل لا أدرى عنه شيئاً .

همس دياب وكأنه يسأل نفسه :

- بالعكس .. أريد أن أعرف منك المزيد ..

فتنهد مختار ، ولكن القلق لم يتخل عنه ، فجعل ينظر إلى دياب محاولاً تبين وقع كلامه عليه .. وانطلق يثرثر :

- في الواقع ، هو شاب طيب . وهو فعلاً كما يقول عبد الهادى ابن ناس طيبين . ولقد لاحظت ذلك ، يوم دخلت علينا زوجة نور الدين عندما أهانتنا

وقالت إننا لسنا رجال ، ثم اعتذرت لعبد الهادى لقد نسيت أن أقول لك ماذا فعله يوسف . وهو على كل حال شيء لا أهمية له في الظاهر ، ولكن بالنسبة لى فهمت منه الكثير عن شخصيته فبمجرد أن دخلت زينب ، انتفض يوسف واقفاً .. بينما كنا جميعاً جالسين حول مائدة البوكر ، ولم يتحرك منا أحد ، وطبيعي أن هذا ضد الأصول ، فسيدة البيت عندما تدخل أو أية سيدة فلا بد أن يقف لها الرجال والذي [illegible] يجب أن يقف .. هذا أمر مفروغ منه ولكن يوسف وحده هو الذى وقف وهى لا تهتم بذلك أو هكذا خيل إلى أول الأمر ..

فقد انقضت علينا وسألت سليمان بكر عن اشتغالها في السينما وكأنها لا ترى أحداً غيره في الحجرة .. وقد تسألنى لماذا لم أقف لها أنا الرجل الذي يعرف الاتيكيت كما يجب ، ليس هذا فقط ، بل أنا حجة فيه . ولكن الاتيكيت ليس قواعد تطبق حرفياً في كل الأحوال والظروف . صحيح أن قاعدة الوقوف للسيدة قاعدة مقدسة . ولكن هناك قاعدة أخرى أهم لا يدركها إلا الخبراء في الاتيكيت . وهى أن أكبر خطأ ترتكبه هو أن تصحح في الحال وأمام الجميع خطأ وقع .. إذا حدث خطأ فعليك أن تتجاهله ، وأن تعمل بلباقة على تغطيته ولا تثير حوله ضجة من أى نوع ، ثم تنبه المخطىء إليه في الخفاء ، كما تعتذر لمن وقع له الخطأ في الخفاء هذه القاعدة المقدسة رقم واحد في الاتيكيت .

وعلينا أن ننظر الآن فيما حدث عندما دخلت سيدة البيت الحجرة . لقد ارتكب الجميع خطأ فاحشاً بعدم الوقوف لها .. عندئذ يصبح وقوف يوسف تصحيحاً فورياً للخطأ في مواجهة الآخرين .. وهو بهذا التصرف يحرج سيدة البيت ولاشك . هو وحده واقف والآخرون جالسون . ما معنى هذا هو وحده الذي يحترمها ، والآخرون لا يحترمونها ، هذه في الحقيقة إهانة من يوسف لصاحبة البيت .. وهذا درس هام فى أصول الاتيكيت فقد يجرح الإنسان شخصاً آخر جرحاً بالغاً لمجرد أنه يحاول احترامه ، بل أنه قد يقتله بإصراره على احترامه له ، ولذلك فضلت أن أستمر في الجلوس مع الآخرين ، ومن حسن الحظ أن زينب لم تلتفت إليه . وعندما خرجت من الحجرة جلس

يوسف ، ولكنها عادت وفتحت الباب فجأة لتعتذر لعبد الهادى . ووثب يوسف واقفاً مرة أخرى . وكان وقوفه هذه المرة ملفتاً لنظرها .. ولكنها وجهت اعتذارها لعبد الهادى واكتفت بأن ألقت نظرة غريبة على يوسف يخيل إليَّ أنها كانت في دهشة من أمره . إنى واثق إنها أطالت له النظر . وكأنها تراه أو تتبين وجوده لأول مرة . ثم عادت وخرجت وطبيعى أننى انتهزت فرصة خروجنا بعد السهرة وانتحيت بيوسف جانباً وشرحت له خطأه وفهمنى في الحال فقد ظهر على وجهه علامات أسف حقيقية .. مما أكد لى أنه فعلاً ابن ناس طيبين . تصور يا سيدي أن عينيه لا تلتقيان بعيني من يومها إلا ورأيت حزناً وكأنه مازال آسفاً على ما أرتكبه من خطأ .

كان دياب يستمع إلى هذه القصة الأخيرة في ضجر . فوقف معلنا انتهاء المقابلة وهو يردد :

- هو فعلاً شاب طيب .

وحاول مختار زادة أن يشير إلى حاجته إلى بعض المال ، ولكن دياب عاجله بقوله في نفور واضح ..

- فيما بعد .. فيما بعد .

فانحنى الرجل وانصرف ، وكأن كابوساً انزاح عن صدر دياب . لعل الشيء الوحيد الذى سيكسبه من ترك منصبه هذا ، هو أنه لن يضطر إلى مقابلة مثل هذه الأشخاص الكريهة ، ولكن أهذا صحيح ، إنه يخدع نفسه ، فهو ذاهب إلى وكر عبد الهادى ، الملىء بالأفاعى والعقارب إنه هنا يحصر القاذورات والشرور فى أوراق وملفات ، ولكنه هناك سوف يمد يده إلى القاذورات ويتعامل معها ..

ومد دياب يده إلى قائمة الأعداء يتصفح أسماء أخرى ، ولفت نظره من بين الأسماء ، اسم صالح عبد التواب الأخرس ، ووظيفته ساعى مكتب عبد الهادى وقرأ دياب بفضول ملخصاً مكتوباً بالقلم الرصاص عن صالح .
التحق بالعمل فراشاً فى جريدة العصر الجديد . وكان قبل ذلك بواباً لعمارة الحاج رمضان السبع بشارع المبتديان . وقد عينه عبد الهادى فى الجريدة

واختاره ساعياً خاصاً لمكتبه . وقد لوحظ إنه كثير التردد على بيت نور الدين بهنس فى الزمالك ، وهو مازال يسكن فى حجرة فى سطوح عمارة المبتديان وقد شوهدت السيدة زينب الأيوبى حرم السيد نور الدين بهنس تتردد على حجرته وتمكث فيها وقتاً طويلاً كما إنها شوهدت تنتظره فى شارع جانبى بجوار مبنى الجريدة صباح أحد أيام شهر مايو الماضى ، واصطحبته إلى مقهى [illegible] وجلست معه [illegible] المعروف أن عبد الهادى النجار يحمى صالح الأخرس ، ويقف إلى جانبه ، مع أنه كثير الشجار مع المحررين ، كما أن عبد الهادى النجار ردد أكثر من مرة فى مجلسه أنه يحتفظ بصالح لأنه جرىء وقادر على أن يشتم الوزراء الذين يترددون على مجلسه . وأنه يقف على باب مكتبه كالأسد وأنه لن يتردد فى البطش بمن يسىء إليه .

وتذكر دياب عم صالح وابتسم .. إنه لا يظن أن عم صالح سوف يحاول البطش به إذا ما قرر فصل عبد الهادى . إن الرجل طيب القلب . وشهم . هكذا يعرفه . إنه ابن بلد حقيقي والكلمة الحلوة تأسره . وكان يرحب بدياب ترحيباً صادقاً ، ومثل هذا الرجل لا يستطيع أن يقول غيرما يضمره في قلبه ، ولكن ما هذه الصلة الغريبة بينه وبين نور الدين ولماذا تتردد عليه زينب فى حجرته بالسطوح . أيكون الجنون قد بلغ بها أنها أصبحت على علاقة بمثل هذا الرجل . أهذا محتمل . عم صالح عاشق لزينب ، هذا الرجل العجوز ؟ ! إنها مجنونة . ولكن عم صالح بكل تأكيد أبعد الناس عن الجنون . أيكون هذا التقرير خاطئاً ، على أية حال لا مفر من وضع اسم صالح في قائمة الأعداء . عم صالح الذي عرفه يهلل للثورة في كل مناسبة . ولكن صلته بعبد الهادى وبيت نور الدين تفرض على دياب الحذر .. نعم لا مفر أنه من الأعداء . ولو إلى حين حتى يتولى الأمور بنفسه ويقرر بضمير مستريح من هم الأعداء الحقيقيون ومن هم الأصدقاء الحقيقيون .

وامتدت يد دياب إلى قائمة الأعداء ، وجعل يراجعها من جديد . وتوقف عند اسم الأستاذ على همام . هذا الرجل مشكلة عويصة لا يدرى كيف

سيواجهها ما أسهل أن تجمع المعلومات عن أى إنسان ، ولكن ما أصعب التصرف بعد أن تحيط بهذه المعلومات وقد تجمعت بين يديك . إن هذا الرجل همام كان كاتب دياب المفضل ، وهو لا ينسى أنه كان يلتهم كتبه التهاماً ، أيام كان ضابطاً في السويس . والرجل عبقرى ما فى ذلك شك وكان وطنياً يحارب بقلمه الانجليز والسراى في جرأة منقطعة النظير ، وفلسفته في المرأة عظيمة .

فلولا همام لما تماسك دياب في أزمته العاطفية . لقد أقنعته كتابات همام بأن تغلبه على تلك الأزمة ، وخلاصه من ذلك العشق كان خلاصاً من مرض حقيقي . لأول مرة عرف من همام أن الحب مرض يصيب النفس ، كما تصيب الأنفلونزا الجسم . وفهم مما رواه همام أن الذي يصاب بالحب ولا يشفى منه لابد أن يموت ، حب المرأة سرطان مدمر ، ووسائل علاجه كثيرة ، إما بالزواج من المعشوقة ، وهذا كفيل بعلاج مرض الحب ، وشفاء النفس منه ، وعودتها إلى سيرتها الطبيعية أو ببتر كل علاقة بالمرأة على النحو الذى يبتر فيه الجراح القدم أو الذراع المصابة لينقذ بقية الجسد ، ومع ذلك شاء سوء الحظ أن يصطدم دياب بهمام . كان ذلك في الأيام الأولى من الثورة ، ولم يكن قد تقرر بعد ذهاب دياب للعمل رقيباً على صحيفة العصر الجديد . وكان يتردد على المخابرات ، هـو وغيره من الضبـاط ، ولم يكن العمل قـد انتظم بعد ، فالاختصاصات لم توزع ، والمسئوليات لم تحدد ، وأى واحد منهم ، قد يكلف بالقيام بأى شيء .. وإذا بمن يقول له : إن الأستاذ على همام قد تحدد له موعد للحضور ، وأن عليه مقابلته .. لماذا؟ وما الذى يقوله له ؟ وما الذى ينتظره منه ؟.. أسئلة كثيرة لها إجابة واحدة . قابله واستمع إليه ، ولا تقل له شيئاً من جانبك سوى أن تطمئنه وتريحه ، والمهم أن تعرف موقفه واتجاهه بقدر ما تستطيع .

وجاء همام ، فقابله دياب بترحيب شديد ، وتواضع جم ، وجلس ينظر إليه فى إعجاب ، ويردد أمامه ، إنه تلميذ لأفكاره وأدبه ، وأنه كان يتمنى منذ زمن بعيد أن يراه . فالأستاذ لا يعرف كم استطاع أن يؤثر في حياته ، وتقبل همام

كلامه ، وكأنه شيء متوقع ، واحتفظ بوجه رسمى ، وقال لدياب إنه يريد أن يدلى برأيه في الثورة ، ويريد أن يقدم النصح لقيادتها فالأمر أخطر من أن تتجاهل القيادة آراءه في كيفية تصريف الأمور .

فسأله دياب في تواضع شديد أن يشرح له رأيه ، وأنه آذان صاغية لكل ما يقول . فإذا بهمام يسأله فى قحة . ومن تكون حتى اتحدث أليك . وهنا صعد الدم فجأة إلى رأس دياب وقال في حزم :

ـ أنا لا أسمح لك بأن تحدثنى بهذه اللهجة يا أستاذ .

فصاح الأستاذ همام ثائراً :

ـ أية لهجة تنتظرها منى بعد كل الذي رأيته منكم ..لقد مضى أكثر من شهر وأنتم تتلكأون في مقابلتى .. ثم يتصل بي أحدكم ويقول لي انتظر فستأتيك عربة لتأخذك .. وأسأله إلى أين فيرفض الإجابة على سؤالى .. وأخيراً يأتى عساكر كأنهم قادمون للقبض علىَّ ، ويحملوننى في عربة چيب .. أنا أجلس في عربة چيب .. ياللمهانة .. ومع ذلك رضخت وركبت الچيب .. وجاءوا بى إلى هذا المبنى .. فإذا بجندى يستوقفنى ويسألنى عن اسمى ويطلب بطاقتى ويتفحص أوراقى .. وكأنى لص أو قاتل محترف .. إن هذا لم يحدث لى فى حياتي كلها .. إن اسم همام تفتح له الأبواب على مصراعيها .. لا أن يقابل بالفحص والتحرى والتحقيق ونظرات الشك والريبة .. ولو لا إنى خشيت أن تتطور الأمور إلى أسوأ لطلبت الانصراف في الحال .. ولكنى قلت ربما وجدت في النهاية كبيراً أستطيع أن أتحدث معه ، وأدخلونى إلى حجرة بها مكتب ويجلس إليه موظف وقح .. ظننته أول الأمر هو الشخص الذي سأقابله ، لو لا أنه قال إنه سكرتيرلك وجعل يحدثنى بكلام فارغ يتعمد فيه إهانتى أو استفزازى .. فيقول لى إنه لا يوافق على آرائى .. وأن أغلبها مأخوذ بتحريف عن أفكار القرن التاسع عشر .. هذا الدعى النكرة يقول لى هذا التخريف ..

ولا شك أنه شيوعي أو فوضوى .. ولكنى رفضت أن أدخل معه في نقاش لأنه ليس ندا لى .. قلت إنه مجرد ذنب من الأذناب .

وقاطعه دياب محاولاً تهدئته .. وكان يلوم نفسه لغضبه المفاجيء من همام وهو مصمم الآن على استرضائه بأية وسيلة :

- إنى آسف لما حدث يا أستاذ همام .. فكلنا نعرف قدرك .. ولا بد أن سوء تفاهم قد حدث .. ويجب أن تعذرنا .. فنحن لم نستعد عند القيام بالثورة بالعربات الفاخرة ، وكلنا مازلنا نتعلم ، ومن أجل الوطن نتحمل مشقة ركوب الجيب ونتحمل عدم قبول الناس .. ما داموا يضحون بأرواحهم من أجل البلد .. وصدقنى إن كل ما أريده هو أن أحقق لك كل رغباتك ..

صاح همام :

- إنى مصمم الآن أكثر من أى وقت مضى على مقابلة قائد الثورة . لن أتحدث إلا أمامه .

فهز دياب رأسه موافقاً وقال :

- سوف أطلب لك المقابلة .. ولكن يجب أن أقدم مذكرة عن الموضوع الذي تريد أن تتحدث عنه .

فقال همام في انفعال وتحد :

- في موضوع لويس التاسع .

ردد دياب في غير فهم :

- لويس .. التاسع .. التاسع عشر .

صاح همام :

- التاسع يا سيدي .. منذ ثمانية قرون والخطط تتراكم ضدنا .. ويجب أن يكون الجهد الذي تبذله الثورة لإحباط خطط العدو معادلاً لجهد ثمانية قرون كانوا يعملون ويدبرون ويفكرون خلالها بأقصى ما لديهم من طاقة وجهد .

قال دياب وهو يظن أن الرجل قد جن :

- نعم .. نعم .. ولكن هل تريد أن نعد خططنا فى ثمانية قرون يا أستاذ ..

قال همام :

- نعـــــم .

فسأله دياب فى حذر :

ـ وماذا نفعل خلال هذه القرون الثمانية .

صاح همام :

ـ لن أحدثك في التفاصيل .. ولكنى أقول لك فلنبدأ بالأجنة في بطون الأمهات .. أما الذين ولدوا فلا فائدة منهم .

وجد دياب نفسه يقول :

ـ اطمئن يا أستاذ .. اطمئن وثق أننا لسنا في حاجة إلى انتظار الأجنة التي لم تولد بعد .. فالرجال بخير ومصر بخير .. وهأنت أكبر دليل على ذلك ويهمنا دائماً أن تكون مستريحاً .

قال همام فى عناد :

ـ لن أستريح حتى أقابل قائد الثورة .

ووعده دياب خيراً ، وخرج معه حتى الباب الخارجى ، ورفض همام ركوب الچيب ، فاستدعوا له تاكسى وانصرف .

تذكر دياب هذه المقابلة ، وعاد يقلب الأوراق التى كتبها حسن زيدان وقدمها في صورة تقرير للمخابرات مكملة القصة ، لقد خرج همام غاضباً ، وجعل يثرثر فى كل مكان عن الجهل الذي قابله ، وقال بين تلاميذه ، إنه كان يحارب الإنجليز ويهاجم السراى ، ولكن الإنجليز امبراطورية ، والسراى يجلس فيها ملك ، ومحاربة الامبراطوريات والملوك شىء عظيم ، أما محاربة هؤلاء فليست شرفاً على الإطلاق .

ولم يقابل الأستاذ همام قائد الثورة ، ونشرت فيما بعد صحيفة العصر الجديد مع بقية الصحف بياناً رسمياً وزعه دياب بنفسه ، وجاء فيه أن مجموعة من الصحفيين والكتاب كانوا يتقاضون مصاريف سرية من الحكومات الحزبية أو من السراى ، وكان على رأس القائمة اسم الأستاذ على همام .

وفزع همام .. وفي نفس اليوم الذى ظهر فيه اسمه ، دخل لأول مرة مبنى جريدة العصر الجديد ، وذهب إلى حجرة عبد الهادى وطلب منه إغلاق الباب

عليهما ، وفتح فمه ليتكلم ولكنه بكى ، وكاد عبد الهادى أن يطير من الفرح لروعة المشهد ، ولكنه احتفظ لنفسه بما جرى بينه وبين عبد الهادى ولم يذكره لأحد سوى يوسف ، كما ذكره أيضاً في تقريره السرى للمخابرات .

لقد جاءه همام يبكى بعد افتضاح أمره ، وإعلان اسمه في قائمة الذين يقبضون المصاريف السرية . وطلب من عبد الهادي أن يحميه فلما سأله كيف يحميه ، قال إنه يريد حجرة له في هذا المبنى ، يريد مكتبا يجلس إليه ، ولم يفهم عبد الهادى الصلة بين طلب الحجرة والمكتب ، وطلب الحماية والأمان فالذى يستطيع أن يضربه وهو في بيته يستطيع أن يوجه إليه ضربات أشد وهو في مكتبه في الجريدة . ولكن هكذا! كان منطق الرجل ، ورحب عبد الهادى بالطلب ، وهكذا أعد له الحجرة والمكتب ، ومنذ ذلك الوقت والأستاذ همام يتردد على حجرته بانتظام كل صباح ، ويجلس إلى مكتبه ، لا يقابل أحداً ، وقد انقطعت صلته تماماً بالناس وأغلق مجلسه الأدبى في بيته ، رغم أنه مازال مصراً على كتابة مقاله الأسبوعى في الجريدة ، وهو يتعمد ألا يتحدث في السياسة ، ولا يكتب في السياسة ولا ينسى عبد الهادى يوم دخل عليه فجأة الأستاذ همام واقترب منه بصورة غير عادية حتى وضع فمه على أذنه وهمس :

- بذمتك .. ألم تقبض يا عبد الهادى مصاريف سرية أبدا .

فأجاب عبد الهادى بسرعة :

- طبعاً قبضت .. وقبضت أكثر منك بكثير .

فتراجع همام كأن عقرباً لدغه وصاح بائساً :

- ولماذا لم ينشروا اسمك ؟

فأجاب عبد الهادى :

- هذا هو الفارق بيني وبينك .

فسأل همام في اهتمام :

- ما هو هذا الفارق ؟

فصاح عبد الهادى :

ـ إنه الفارق بين لويس التاسع .. ولويس التاسع عشر .

ورغم أن هذا الحوار دار بينهما ولم يسمع به أحد ، إلا أن عبد الهادى سجله بحذافيره في تقريره للمخابرات .

وكان آخر تقرير قرأه دياب عن الأستاذ همام ، ذلك الذي كتبه صحفى انجليزي يعمل مع المخابرات وجاء فيه إن همام ما كاد يطمئن إلى الرجل الإنجليزي ، حتى انطلق يسب ويشتم الثورة .. ويقول له إن حكم الإنجليز كان أفضل ألف مرة من حكم الثورة .

وتشنجت أصابع دياب وهى ممسكة بالتقرير . هذا الرجل الذى تعلمت منه ، واستفدت منه ينقلب إلى خائن .. ما الذى يفسد نفوس الرجال . ما الذى يحولهم إلى أعداء .. وشعر دياب برجفة فنهض وقام يبحث عن سجادة الصلاة ..وسجد مبتهلاً إلى الله أن ينقذه من هذه الشرور والآثام التى تنهش البشر كما ينهش الدود أجساد الموتى في المقابر .

وخرج دياب من صلاته أكثر هدوءاً وثقة بالنفس ، ووجد في نفسه القدرة على أن يجرى اتصالاته مستأنفاً طلب التخلص من الأعداء القابعين في العصر الجديد بمجرد توليه رئاسة العمل . وألح دياب في الطلب ، حتى جاءته الموافقة بأنه حر التصرف بشرط واحد ، أن يثبت له إن الإجراء الذي يتخذه ضرورى ولا غنى عنه بالنسبة لضمان تنفيذ عملية الاستيلاء على الجريدة . وإن هناك ثقة كاملة في حسن تقديره . وفرح دياب بهذه الموافقة ، إنه الآن على استعداد للاستيلاء على وكر الشيطان .



ظلمنا زينب مرتين

يجب أن نعترف بأننا ظلمنا زينب حتى الآن مرتين . الأولى عندما أرجأنا الحديث عنها .. وقدمنا عليها عبد الهادى النجار الذى فرض نفسه على قصتنا بقوته وشهرته واتصالاته ومعاركه التى لم تنته بعد . والثانية ، أننا وقد استسلمنا لعبد الهادى .. وجدنا أنفسنا نتعرف على زينب ، من خلال تقارير مختار زاده للمخابرات . وهذا ظلم فادح لزينب ، فما هكذا تقدم البطلات فى الروايات فضلاً عن أن المعلومات التى وصلتنا عن زينب فى هذه التقارير تكاد تفسد كل شىء .. إن أخطر ما فيها أنها قد تدفعنا إلى إصدار حكم متسرع على زينب مثلما فعل دياب ، الذى تصورها امرأة ساقطة منحلة ، وما أسهل أن نتورط فى مثل هذا الحكم خاصة إذا لم نتذكر قول السيد المسيح « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد . فقضية زينب ليست فى أنها امرأة خاطئة وأن الآخرين أيضاً خطاة ، إن قضيتها فى إنها أرادت من الحياة شيئاً أكبر مما يحصل عليه البشر عادة فى مجتمعنا وأنها رفضت الحياة كما يقبلها الآخرون ، فحاولت أن تشق لنفسها طريقاً أكثر صدقاً وجمالاً وبهجة ، فواجهت صعاباً لا حدود لها . ومن هنا

كانت تجربتها فى الحياة جديرة بالتسجيل ، وكان فى التعرف على هذه التجربة فائدة قصوى لكل الذين يرفضون الحياة كما هى ، ويشعرون بالقلق والحيرة أمام السبيل الذى يختارونه لتحقيق حياة أخرى غير تلك التى يرفضونها . وزينب رغم كل شىء امرأة عادية ، فكونها بطلة فى رواية لا يعنى أنها تمتاز عن الآخرين بمواهب خارقة . أوقدرات سحرية ، بل إن البعض قد يتصور أن بها شيئاً من البلاهة أو الحمق ، ولكن هذا غير صحيح ، إنها امرأة مثل ملايين النساء ، وإذا كانت قد تورطت فى مغامرة أو خطيئة ، فذلك لأنها اندفعت بإصرار وعناد باحثة عن الخلاص ، ويجب أن نتنبه أيضاً ، إلى إنها لم ترفض حياتها ، بأى معنى من المعانى الشائعة فى عالم اليوم ، فهى بكل تأكيد ، ليست من « الهيبيز » ولا تنتمى إلى فرق اللامبالاة أو العبث أو الغضب ، وغير ذلك من تيارات رفض أوضاع الحياة القائمة ، والتى تنتشر فى أوربا وأمريكا .

فهؤلاء يرفضون أوضاع حياتهم ، وهم يشعرون بقوتهم كأفراد ، ويتخذون قراراتهم بإرادتهم المستقلة ، بأن يصنعوا ما يريدون . أما زينب ، فكانت حائرة تشعر بضعفها وبعجز إرادتها ، كما إنها كانت لا تدرى على وجه التحديد ماذا يجب أن تفعله ، وكانت تبحث باستمرار عمن يأخذ بيدها ويساعدها على الاختيار الصحيح ، ولكن يبدو أننا نعيش فى ظروف لا تسمح لنا بالحصول على معونة أو مساعدة من أحد . وهكذا وجدت زينب نفسها بين مأزقين ، فإما أن تخضع لما هو قائم فى مجتمعنا ، بينما الثورة تؤكد لها كل يوم أن عهد الخضوع قد مضى ، وتطالبها بأن ترفع رأسها ، وبين أن تتحرك وتغامر ، وهى لاتجد من يساعدها أو يأخذ بيدها ، فإذا بها تتعرض لمخاطر كما تتعرض لذلك الحكم القاسى بأنها امرأة منحلة ساقطة . وعلى أية حال ، لابد أن نعترف بأن هذا الحديث عن زينب الأيوبى هو فى حد ذاته مغامرة كبيرة ، وأننا قد نملأ صفحات بعد صفحات بحواديت عن نشأتها وحياتها فلا نصل إلى شىء فى أعماقها . ومع ذلك علينا أن نتابع حياتها منذ البداية ، مدركين أن كل ما قلناه عنها حتى الآن لا يساعدنا على الاقتراب من زينب أو

فهمها ، إن كل ما نرجوه ، وفى إلحاح ، أن نؤجل الحكم على زينب حتى نعرف قصتها كاملة . وإذا كانت متابعتنا لعبد الهادى النجار قد أوصلتنا إلى تقارير المخابرات عن زينب ، فعلينا الآن أن نصحح الأوضاع ، قبل أن نعود إلى عبد الهادى النجار ومعركته مع دياب ، ومن حقنا أيضاً أن نعرف ماذا تقول زينب عن عبد الهادى النجار .





خديجة السبع

آخر سلالة الأيوبيين

كانت زينب ، الابنة الوحيدة لزواج قصير بين مدحت الأيوبى وخديجة أخت المقاول الحاج رمضان السبع ، أما الأب مدحت ، فهو شاب تركى وسيم أشقر ذو عينين خضراوين . ظاهره هادىء ، لا يختلط بأحد من جيرانه ، ولا يكاد يحدثهم فى أمر من الأمور ، وربما كانت صلته الوحيدة فى الحى ، هو الحاج رمضان الذى كان على صلة بأبيه كاظم الأيوبى . أما أم زينب خديجة شقيقة الحاج رمضان ، فقد تزوجت وهى امرأة جاوزت الخامسة والثلاثين ، فهى بلاشك كانت أكبر من مدحت ، وكانت سمراء ، وكانت بدينة ، لأنها كانت تقاوم القلق ومخاوف عدم الزواج بالإفراط فى الطعام .

وكانت خديجة تروى فيما بعد عن هذا الزواج ، وكأنه أسطورة ، فمن كان يصدق أن هذه العانس ستتزوج يوماً ما ، فإذا ما تزوجت كان العريس شاباً تركياً جميل الصورة وأصغر منها سناً ، ولقد جرت العادة أن يتزوج الفلاحون من نساء تركيات . أما أن يتزوج شاب تركى أشقر من هذه العانس البدينة التى تنتمى إلى عائلة أصلها من الفلاحين فهذه هى الأسطورة والمعجزة .

ونحن نعرف أن الرجال فى بلدنا كانوا يسعون وراء الزواج من المرأة التركية ، لا لجمالها فحسب ، وإنما لأنهم كانوا يهتمون اهتماماً خاصاً بأن ينتمى نسلهم إلى أصل تركى ، فالأتراك حكموا مصر والأمة العربية لعدة قرون ، وكانوا أصحاب السلطة التى لا معقب عليها ، فكان الفلاح يشعر فى قرارة نفسه ، أنه إذا ما حكم امرأة تركية فى الفراشِ ، فكأنه تحرر من عبوديته ، وخرج من وضعه الاجتماعى المقهور إلى وضع أرقى ، وأن أبناءه سوف يتباهون من بعده بأنهم من نسل تركى حاكم . ويقال إن الحاج رمضان السبع كان يتمنى أن يتزوج من جارية تركية عند كاظم الأيوبى ، ولكن الرجل رفض أن يفرط فى جاريته التى أهداها له فخرى باشا منذ زمن بعيد . وهذا هو ما يجعلنا نتساءل ، ما الذى يدفع مدحت الأيوبى إلى طلب الزواج من خديجة . وهى فضلاً عن إنها عانس ، فلاحة ، لا صلة لها من قريب أو بعيد ، بالتربية التركية ، والمعاملة المهذبة ، ومراعاة اللباقة والأصول كما تقضى قواعد الأدب التركى . إن مدحت لن يتباهى بها . وهو لن يتوقع أن تنجب له نسلاً جميل الصورة ، كما أنها لن تكون له مصدر فخر ومباهاة . وكانت خديجة قبل زواجها من مدحت ، ترقبه من وراء شيش النافذة ، وهو يروح ويجىء خارجاً أو داخلاً بيته المجاور ، فلا يخطر ببالها أنها سوف تتزوج مثل هذا الشاب ، فهو جميل وأروع من أن تجرؤ على تصور نفسها زوجة له حتى ولا فى الأحلام . إن مثله يتزوج امرأة من نوع آخر ، غير شقيقة الحاج رمضان ، الرجل البلدى الذى أقام عمارة من أربعة أدوار بشارع المبتديان ، شغل نصفها بزوجتيه وعياله منهما ، وجعل شقيقته خديجة تعيش بين هؤلاء جميعاً ، تحت رحمة كلامهم القارص ، ومكائدهم التى لا تنتهى للإيقاع بينها وبين شقيقها ، كانت زوجتا الحاج رمضان تتشاجران كثيراً ، ولكنهما اتفقتا دائماً ضد خديجة ، حتى كاد شقيقها أن يزوجها ذات مرة من فلاح لا يملك شيئاً فى قريته ، ولم يعدل عن القرار إلا بعد أن هددت خديجة بالانتحار ، ورآها صالح الأخرس بواب العمارة ، وهى تقف فوق سور السطوح توشك أن

تقذف بنفسها من حالق فأمسك بها ، ولما قاومته صارخة لطمها على وجهها وأسكتها وأدخلها البيت ، ويومها زعق صالح فى الحاج رمضان . وطلب منه بلهجة آمرة ، أن يعدل عن هذا الزواج الذى كاد أن يودى بحياة شقيقته .

ولا تنسى خديجة صياح صالح بصوته الجهير ، وهو يردد حرام عليك ترميها رمية الكلاب . ولكن هذا الزمان قد انقضى .. وصبرت خديجة ، وصبرت وهى

لا تدرى أن القدر قد حدد مصيرها فى ذلك البيت المجاور ، ذى النوافذ المغلقة والحديقة المهملة ، والذى يسكنه أتراك متحفظون لا يتصلون بأحد . وكانت عزلة بيت الأيوبى عن سكان الشارع تثير فضول الجيران وتجعلهم يتابعون بدقة أحوال أهل ذلك البيت . ويقولون إن آل الأيوبى كانوا أثرياء فيما مضى ، وإنهم كانوا يملكون الشارع بأكمله ، وأن كاظم الأيوبى أبا مدحت ، كان ينفق أيامه الأخيرة قبل موته فى بدرون البيت ، حيث كان يشتغل بأعمال السحر ، ويجرى تجارب لتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب ، كما أنه كان يبحث عن سر الحركة الدائمة ، وكيف يحرك الآلات بغير حاجة إلى وقود ..

وكانت النتيجة أن الرجل بدد ثروته وكانت طائلة ، ويقال إن الحاج رمضان اشترى الأرض التى بنى عليها العمارة من كاظم الأيوبى ، وكان يعرفه فى أيام ثرائه ، وقام له بعدة مقاولات وأعمال .. ويقال إن الأرض التى أخذها الحاج رمضان ، كانت هبة من كاظم الأيوبى ، أو أن الحاج خدع (كاظم) وجعله يوقع له على إقرار بالبيع أو الهبة . وعندما مات كاظم تولى الحاج رمضان بنفسه إجراءات تشييع الجنازة والدفن ، فقد لجأت إليه دودو هانم زوجة كاظم ، التى أصبحت أرملته .. وكانت قد فتشت البيت بحثاً عن الذهب ، فلم تجده .. وهى التى كانت ترى أدراج « البوريه » مكدسة بطبقات فوق طبقات من الجنيهات الذهبية ، تفصل بين كل طبقة وأخرى ، طبقة من القطن ، ورأى الحاج رمضان القطن مكوماً أمام البوريه أما الذهب فقد اختفى ، وكان مدحت يرقب المشهد صامتاً . ولا يبدو عليه أنه يفهم ما يدور حوله ، وكان يتحرك وراء أمه كتابع أمين . وبعد وفاة كاظم بشهور ، ذهبت دودو هانم إلى

نسيم باشا ، وكان رئيساً للوزارة .. وشرحت له موقفها ، إن بيتها ملىء بالجوارى والخدم ، وهى لا تجد لهم طعاماً . وهو يجب أن يفعل شيئاً . فعرض عليها أن يلحق ابنها مدحت فى وظيفة تشريفاتى بمجلس الوزراء ..

وقبلت الأم الوظيفة على مضض ، ومن يومها شاهد سكان الشارع مدحت وهو يخرج صباح كل يوم من بيته ليركب موتسيكلاً من نوع « السيد كار » ويعود به بعد الظهر ، وكانت ضجة الموتسيكل تجذب خديجة .. فتسرع إلى شيش النافذة ، ترقب من ورائه ذلك الشاب الجميل الذى أضافت إليه ضجة الموتسيكل هيبة ما بعدها هيبة . والذى يهمنا الآن أن نعرف كيف دخلت خديجة هذا البيت ، زوجة لمدحت . لقد حدث ذات يوم وبلا مقدمات أن جاء مدحت إلى بيت الحاج رمضان ، فقابله الحاج وهو يتوقع كما حدث فى مرات سابقة فى الآونة الأخيرة ، أن يكون المرض قد اشتد بدودو هانم .. وأن مدحت فى حاجة إلى مساعدته فى طلب طبيب . فهو لا يستطيع أن يصنع شيئاً وحده ، وهو يخجل من مخاطبة أحد ، حتى ولو كان طبيباً يريد الاتصال به ، لإسعاف أمه ، إنه دائماً ذلك الطفل الشديد الفزع أمام الأحداث ، وهو لا يكاد يعرف كيف يتصرف . وكان الحاج رمضان يكاد يجزم بأن مدحت قد ورث شيئاً من جنون أبيه ، ذلك الجنون الذى اشتد بالأب فى نهاية حياته .. ومع ذلك كان يعامله بلطف .. ويبدى دائماً حماساً لخدمته .. وكان لا يضيق بمدحت إذا ما طرق بابه بعد منتصف الليل ، وهو مصفر الوجه .. لاهث الأنفاس .. قائلاً له كطفل حائر .. « ماما حرارتها أربعين » وكانت زوجتا الحاج رمضان غير راضيتين بهذا الإقبال الذى يبديه الحاج على مدحت الأيوبى ، وأمه دودو هانم .. فقد ساورتهما الهواجس ، أن الرجل قد يرتكب حماقة .. فيتزوج من السيدة التركية .. ويذهب ليعيش فى بيتها ، مع الجوارى التركيات ..

ويتصور نفسه أنه أصبح السلطان عبد الحميد فى زمانه . على أية حال ، كان مجىء مدحت هذه المرة لسبب آخر ، إذ ما كاد الحاج يقابله ويرحب به ، حتى سمعه يقول بسرعة وبغير مقدمات ..

- أريد أن أتزوج أختك يا حاج رمضان .

ودهش الحاج ، ولم يصدق أنه يسمع ما يسمعه .. وكان أول ما خطر له ، أن مدحت قد جن فعلاً . وأنه يعانى فى هذه اللحظة من نوبة جنون شديدة الوطأة .. واحتار الحاج ماذا يقول لهذا المجنون .. وأخيراً قال متلعثماً .

- هذا شرف كبير يا مدحت بك ولكن .. الهانم .. دودوهانم . أهى موافقة ؟!

فقال مدحت فى هدوء شديد :

- نعم موافقة .. وأنا أقنعتها لأنها كما تعلم مـريضة .. وداده حكمت لا تستطيع أن تخدمها .. فهى توشك أن تموت .. والجارية دولت مريضة أيضاً وأظن أنها سوف تموت قريباً .. والجارية جيلان لا تعمل شيئاً .. وماما تكرهها .. وتخشى أن تدس لها السم فى الطعام .. ولقد فكرت فى الأمر ، وانتهى تفكيرى إلى أننا فى حاجة إلى امرأة أمينة تخدم فى البيت . ولذلك فكرت فى أن أتزوج شقيقتك .

ثم نظر مدحت إلى الحاج فى خوف متسائلاً :

- أليست لك شقيقة ياحاج ... هكذا قال لى صالح الأخرس .. وأدرك الحاج لدهشته أن لمدحت دوافع منطقية .. وتحول مسار تفكيره من مدحت إلى شقيقته . إن ما هو معروض عليها ، هو وظيفة خادم فى بيت الأيوبى فهل توافق .

ووافقت خديجة فى الحال ، وافقت بجرأة .. لم تتردد .. ولم تتصنع الخجل ، حتى أن الحاج رمضان وجد لديه الفرصة لأن يريح ضميره ، وينبهها إلى حقيقة هذا الزواج ، وقالت لها زوجتا الحاج ، إن العريس مجنون ، وإن أمه المريضة مشكلة ، ثم أنه فقير لا يملك شيئاً . ولكن خديجة سخرت بكل هذه الاعتراضات ، ولعلها لم ترها . وقالت بصوت واثق منتصر .

- هذا هو زوجى .. وسوف أخدمه وأخدم أمه وأخدم جواريه ..

ولكن ما كاد مدحت يسمع بموافقة الحاج ، حتى تغيرت أحواله ، فقد انقطع عن زيارة الحاج ثم فوجئوا بانقطاع ضجة الموتسيكل وذات يوم علموا

لدهشتهم فى بيت الحاج ، أن مدحت ودودو هانم والجوارى ، قد خرجوا من البيت فى الصباح الباكر .. وأنهم ذهبوا إلى بيت لهم فى الريف بجوار الزقازيق حيث يملك مدحت ستة أو سبعة فدادين تبقت له من عزبة كانت يوماً ما تزيد على الستمائة فدان ، وعندما علم الحاج بالخبر ، أيقن أن مدحت قد عدل عن مشروع زواجه وعلم أنه استقال من وظيفته كتشريفاتى بمجلس الوزراء ، لأنه لم يتحمل التعامل مع النحاس باشا ، وحاشيته الملتفة حوله . ولكن خديجة

ظلت وحدها ، ولغير سبب معقول . واثقة من أن الزواج سوف يتم . وكانت تردد صارخة فى وجوههم :

ـ سوف أنتظره ولو غاب مائة سنة ..

ومضى عام ، قبل أن يظهر مدحت الأيوبى فجأة ، وقال كل ما يريده بسرعة ويسر ، بل وبغير تفكير . قال للحاج رمضان وهو يناوله مائتى جنيه ، إن هذه النقود لتشترى بها خديجة ثيابها .. وبعد شهر سوف يجىء ويأخذها معه إلى بيته فى الريف ، وهو لا يريد أن يأتى معها أحد ، هى وملابسها فقط . وهكذا تزوجت خديجة . وركبت مع مدحت القطار وحدها إلى الزقازيق .

قال لها مدحت وهما فى القطار :

ـ أنا لا أدرى لماذا تزوجتك .. وحتى آخر لحظة كنت متردداً فى المجىء ..

ثم سألها ودهشة فى عينيه وفى صوته نبرة لوم :

ـ لماذا وافقت على الزواج ؟!

ضحكت خديجة وقالت فى جرأة :

ـ ولماذا لا أتزوجك ؟!

فجعل يضحك كطفل صغير ، ولم تفهم لماذا كان يضحك .. وخيل إليها أنه ينظر إليها وكأنها أعجوبة ، وشعرت بأنها قادرة على أن تتحداه ، أو على الأقل تتحدى هذه الطفولة التى يحتمى وراءها .. ووصلا إلى القرية ، ودخلا بيتاً كبيراً .. وكان أول ما أحست به ، الكلاب الكثيرة التى تنبح فشعرت برهبة ، ووجدت خدماً فى استقبالها .. ولم تستطع فى تلك اللحظة أن تميز الوجوه ..

ولا أن تتبين المكان الذى تتحرك فيه . كل ما شعرت به هو أنها محاطة بجو أبهة ، منظر أبهة كانت لا تتصوره .. بل كان أكبر مما تستطيع أن تحلم به ، وسمعته يقول لها هذه داده حكمت ، وهذه حليمة المرضعة ، وهذا سيد الطباخ ، وكانت لا ترى شيئاً .. وتسمع همهمات غير مفهومة ، أغلبها له لكنة غريبة ، وكأنها فى عالم آخر ، ماتت وانتقلت إليه . ربما ماتت وهذه هى الجنة ، وسار بها فى دهليز على جانبه حجرات مغلقة ، وفتح بابا .. ودخلت وراءه حجره .. فرأت سيدة تركية جالسة على أريكة فى حجرة معتمة ، وكان شعرها أحمر ، ووجهها عجوزاً أبيض صارم القسمات ، وعيناها تنظران إليها فى ترفع واستعلاء ، فاندفعت نحو السيدة ، وانحنت على يدها تقبلها فإذا به يضحك ضحكته الطويلة السهلة ، ويصيح كالطفل :

- هذه جيلان الجارية التى أهداها فخرى باشا لوالدى .. لماذا تقبلين يدها .

وتراجعت فى فزع ، خوفاً من جيلان ، كانت تخشى أن تغضب من كلماته الجريئة ، ولكن المرأة ظلت هادئة الوجه ، وتمتمت بكلمات غير مفهومة لمدحت ، ورد عليها بكلام غير مفهوم ، وخرجا ، ليدخلها حجرة أخرى ، ورأت داخلها سيدة تركية جالسة على أريكة ، وكان شعرها أحمر ، ووجهها عجوزاً أبيض صارم القسمات . نفس ما رأته فى الحجرة السابقة . ونظرت إليه متوسلة أن ينقذها بكلمة . وإذا به يصيح :

- قبلى يدها .. فهذه أمى ..

وهجمت خديجة تبحث عن يد صغيرة دقيقة تقبلها .. وسمعت نفس التمتمة غير المفهومة وخرجت ورأسها يدور ، وارتمت على أول مقعد قابلها فى الدهليز .. وصاحت وهى تدق على صدرها تخاطبه بلهجتها غير المهذبة والتى لا تعرف سواها :

- يانهارك الأسود .. كل هذا فى بيتك .

فنظر إليها ، كطفل يتسلى بلعبة أعجوبة ، وعاوده ضحك عنيف . ثم قطع ضحكه فجأة ، ونظر إليها فى أدب شديد ، وقال بلهجة صارمة ، وكأنه يتحدث

فى موضوع مقدس أمام شخص له قداسته .

- والله .. ياهانم .. لو أمرت .. أنا مستعد أن أخرجهم من البيت فى الحال .. أنا لا تربطنى بهم صلة .. إنهم ملك أبى وأنا ورثتهم عنه .

وفوجئت خديجة ، بمنظره ، وبلهجته ، وبمناداته لها « ياهانم » وقوله « لو أمرت » وكاد يغمى عليها من الدهشة والخوف ، وهمست ودوار يظلم عينيها :

- أنا خدامتك .. وسوف أخدمهم جميعاً .

قال لها :

- أنت تخدمى أمى ولا أحد غيرها .

ولكنها خدمت الجميع .. وكان ذلك سبيلها لتسيطر على البيت ، وهم لا يكترثون بشىء ، غير أن تلبى طلباتهم . وكانت الحياة فى ذلك البيت تحكمها طقوس الأدب والاحترام ، وكان مدحت يعامل أمه كما لو كانت آلهة أو مصدراً لحياته ، وكان لا يخرج من البيت قبل أن يقبل يدها ، وأحياناً يخرج ثم يعود مسرعاً ، لأنه شك فى أنه لم يقبل يد أمه ، وقد اختنقت خديجة بهذه التقاليد التى طاردتها حتى فراشها ، فلم يستطع مدحت أن يشبع نهمها بعد سنوات وسنوات من الحرمان ، كان يقربها بحذر ، ولا يرضيها ، ولكنها قنعت بقدراته المحدودة ، التى لم يفلح فى تحريكها وتنشيطها طعام خاص ، أو إغراء تجود به أو دلال تتصنعه حتى وجدت نفسها حاملاً دون أن تشعر برجولته تسرى فى أوصالها ولو مرة واحدة ، وتوقعت خديجة أن يكون نبأ حملها له وقع خطير فى البيت ، وأن الجميع سوف يتلهفون على الأيوبى الجديد الذى تحمله فى بطنها .. ولكن أحداً لم يهتم بالنبأ . وظلت دودوهانم تنتظر منها أن تقدم لها الطعام فى حجرتها ، وأن تعنى بترتيب فراشها ، ومعاونتها فى الحمام . وقالت دودوهانم لخديجة ذات يوم ، إنها واثقة أن الذى فى بطنها ليس ولداً ، إن نسل الأيوبى لا يمكن أن يأتى من فلاحات . قالتها ببساطة ، وكأنها تقرر أمراً بديهياً لا مجال لمناقشته ، وفزعت خديجة ، عندما وجدت مدحت يوافق أمه ،

ويقول لخديجة إنه لا يتوقع إلا بنتاً ، وأنه واثق أن الذى فى بطنها بنت . لأن أمه لابد أن تكون صادقة ، ثم أضاف ، إنه لا يريد ولداً ، وأنه يرغب حقيقة فى أن تكون له بنت . وبكت خديجة فى فراشها ، وجعل مدحت يرقبها برهة ، ثم قال غاضباً ولكن فى أدب شديد :

ـ اسمعى يا خديجة هانم .. أنا آخر أيوبى سوف يعيش فى هذه الدنيا ، وجنازتى سوف تكون آخر جنازاتهم . لقد انتهينا ، ولم يبق لنا إذا عشنا إلا الذل . وكان المرحوم أبى يعرف هذا ، وحاول محاولته الأخيرة ، ليخترع شيئاً عظيماً نستطيع أن نستمر به فى الحياة ، ولكنه لم يحقق ما كان يرجوه ، فقد ثروته ومات قبل أن يعرف سر الذهب ، ولذلك أصبح محكوماً علينا بالفناء . وأنا سوف أموت قريباً .. هكذا يقول طالعى .. ومستحيل أن تأتى لنا الآن بأيوبى جديد بلا سلطان ولا قوة ولا مال .. إن الأيوبيين لا يعيشون فى الذل ولا يصبرون عليه مثلكم يافلاحين .. ولذلك فستأتين ببنت .. والله وحده يعلم ماذا يكون مصيرها ، ومن يدرى فربما استطاعت أن تبدأ حياة جديدة لعائلة جديدة يكون لها شأن وسلطان ..

ولم تفهم خديجة حرفاً واحداً مما قاله مدحت ، ولكنها وجدت نفسها أسيرة لكلماته التى لم تفهم منها إلا أنه لا يريد ولداً ، وحدثت نفسها بأنها لو جاءت بولد لهذا الرجل المجنون فربما قتله ، أو طردها هى وابنها من البيت ، ولم تتحمل هذه الخواطر المفزعة ، فجعلت تقنع نفسها بأنها تحمل فى بطنها بنتاً ، وصممت على أن تكون بنتاً جميلة تشبه دودو هانم ، فقضت بقية شهور الحمل وهى جالسة تحدق فى وجه حماتها ، تتأمل بشرتها البيضاء كاللبن الحليب ، وشعرها الأحمر ، وكانت تخرج إلى حديقة البيت فتقطف الورد الأحمر وتأكله ، وتعلن بين يوم وآخر أنها تشتهى التفاح أو الخوخ أو عسل النحل وتلح فى طلب ما تشتهيه . وتقول إن ابنتها التى فى بطنها هى التى تطلب هذه الأشياء . وأنها لابد أن تكون رائعة الجمال ، ورفضت طول فترة الحمل أن تنظر فى مرآة حتى لا ترى وجهها فتتأثر به ، وتأتى ابنتها على صورتها ، ولابد

أن هذا قد أثر بالفعل على شكل زينب ، وإن كنا لا نعرف تفسيراً علمياً له ، فقد جاءت زينب بالفعل فى جمال أخاذ ، فرحت به دودو هانم ، وتهلل وجه مدحت ، وبهرت به خديجة ، حتى أنها نسيت تماماً كل همومها وعذاباتها ومخاوفها ، وهى ترى البنت بين يدى مدحت ، يحملها وقد إغرورقت عيناه بالدموع وإلى جانبه دودو هانم تريد أن تختطفها منه وتحملها بين يديها .

وقبل مولد زينب بأيام ، ماتت الجارية جيلان ، فاعتبرت دودو هانم أن هذا فأل حسن ، فلقد ذهبت الجارية الشريرة التى كانت تخشى أن تدس لها السم ، وجاءت هذه الطفلة الملاك بعد أن طردت الشياطين من البيت .

وفى صباح اليوم الذى ولدت فيه زينب ، جاء بعض الفلاحين إلى بيت مدحت ، يستأذنونه فى السفر إلى القاهرة لحضور مولد السيدة زينب ، وبعد ساعات كان مدحت يحتضن ابنته .. ويقول :

- اسمها زينب .. فهذا يوم مولدها ..

وكتب اسمها فى شهادة الميلاد : « زينب هانم مدحت كاظم الأيوبى »



غمــوض
لابد من كشفه

يستأذن الكاتب فى أن يتحدث إليكم عن طفولة زينب المبكرة ، وقد يبدو أن مثل هذا الحديث هو ضرب من المستحيل ، إذ كيف نجرؤ على فهم نفسية طفل رضيع ، لا يدرك شيئا مما يدور حوله أو يدور داخل نفسه .. إن زينب نفسها لا تستطيع أن تتذكر ماذا كان فى أعماقها فى ذلك الوقت . إن الله وحده يعلم سر نفوس الأطفال ، لذلك ربما كان من الأفضل أن نكون أكثر تواضعا ، ونعرف حدودنا كبشر .. فنتجاهل هذه الفترة من حيـاة زينب حتى لا نتورط فى إدعاءات هى أشبه بالرجم بالغيب . ولكننا رغم معرفتنا بهذه المصاعب الحقيقية لا نستطيع أن نهرب من المحاولة لأننا نعلم أننا إذا هربنا منها الآن ، فسنضطر إلى العودة إليها فيما بعد .. عندما نزداد معرفة بزينب الأيوبى وهى امرأة ناضجة ، إنها ستبدو أمامنا وكأنها ملتفة بأسرار ، وستفرض علينا ألوانا من التساؤلات ، مثل تلك التى كان يرددها عبد الهادى النجار ، الذى كان يحدق فى وجهها ويسألها وقد غلبه انفعال لا يستريح إليه ، لأنه يجعله لا يملك نفسه أمام تلك المرأة الصغيرة .

- أى نوع من البشر أنت .. هل ولدت مثلما يولد بقية البشر ما الذى أرضعوه لك ؟

وفى مناسبة أخرى نروى تفاصيلها فيما بعد ، قال لها عبد الهادى :

- يجب أن اعترف لك بأنى أحسدك على هذه الثقة غير العادية بالنفس التى تنعمين بها وتمارسينها بكل هذه البساطة واليسر . لقد عانيت طويلا ، حتى أدرب نفسى لأكون صاحب إرادة قوية لا تهتز أمام الأحداث والمشاكل والصعاب ، ولكنى أحنى رأسى لك فى إعجاب .. وأقول فى تواضع شديد ، إننى مجرد تلميذ فاشل أمام أستاذ عبقرى فى هذا المجال ، أنت تنتصرين علىَّ فى كل لحظة ، أنت تنتصرين بغير جهد تبذلينه .. ثم لا تكترثين بانتصارك وهذه روعة وعظمة لم يصل إليها راهب انتصر على الشيطان .. ولست أدرى كيف أصبحت على ما أنت عليه من قوة ، إن فى ماضيك سرا أدفع حياتى ثمنا لأعرفه ، ولكن يبدو أننى لن أستطيع الوصول إليه ، أنت نفسك لا تعرفينه . ولقد قرأت أن بعض العلماء يؤكدون أن شخصية الإنسان تكمل فى السنوات الثلاث الأولى من حياته ، فما الذى حدث لك فى تلك السنوات ؟!

وضحكت زينب قائلة :

- كلام فارغ .. أنت تغرقنى فى المديح حتى لا أواجهك بعجزك .. أما عن الماضى فأنا لا أعرفه .. ومن الذى يذكر ما حدث له وعمره سنة أو ثلاث سنوات .

فصاح عبد الهادى محتجا :

- يجب أن تتذكرى .. قولى كلمة فقد يكون فيها خلاصى ..

فاختفت الابتسامة من وجه زينب الذى اكتسى بحزن وقور . وقالت بصوت حزين :

- قلت لك من قبل إنى لست واثقة أنى كنت طفلة يوما ما . إنى لا أصدقهم عندما يقولون لى إنه كان لى أب .. وإنه مات .. أليس الأقرب إلى العقل أنهم يخترعون هذه .. الأكاذيب .. أنا لا أصدق إلا ما أراه أمامى . أما هذا

التاريخ والأساطير فهى حكايات يتسلون بها ويخدعون بها أنفسهم . أنا لا أبحث عن أب .. إنى أبحث عن رجل فهل تدلنى عليه ؟

قال عبد الهادى وقد هجمت عليه الذكريات :

- لا تسخرى منى يازينب .. واحترمى لحظة الصدق التى أعانى منها الآن ، فمثل هذه اللحظة نادرة فى حياتى .. وقد اتهمك بأنك تهربين من ذكرى أبيك .. ولكنى لم أهرب من ذكرى أبى . بل رددت لنفسى دائما أنه كان مهرجا رخيصا وشعرت دائما أنى ابن ذلك المهرج الرخيص .. كما شعرت دائما بحقارتى .. أتدرين .. لقد كنت أتذكر أبى وأقتله . فعلت ذلك وهو حى يسير إلى جانبى فى الطريق .. وفعلته آلاف المرات وهو ميت .. تعاودنى ذكراه فكأنه بعث حيا فأقتله من جديد .. وأقتل معه كل شىء .. القيم والأخلاق والعواطف . أقتل كل ما يمكنك أن تتصوريه .. وإنى أقول لك إنه ما من سبيل لأن يكون الرجل ذا سلطان فى هذه الدنيا إذا لم يفعل ذلك . إنك تبحثين عن رجل وهمى ، لا وجود له ولا تنسى أنك وأنت تبحثين عنه ارتكبت كل ما فى الدنيا من شرور وآثام ، بعد أن تخلصت تماما من ذكرى أبيك .. وبذلك أتممت حريتك ، ونجوت من الشعور بالحقارة والذنب .

فقاطعته زينب فى دهشة :

- ذنب .. ولماذا أشعر بالذنب ؟

فهتف عبد الهادى :

- أنت رائعة ..

فقالت زينب :

- إن الأخلاق والعواطف التى تتحدث عنها ليست هى التى أبحث عنها ، ما قيمة الأخلاق التى يستطيع إنسان أن يتجاهلها أو يحطمها . ما قيمة العواطف التى تستطيع أن تعيش بدونها .. أنت سلطان على أشلاء وجثث ..

أنا لا أكترث بالأخلاق التى تعرفها أو تسمع عنها ، ولا تهمنى القيم التى تقتلها وتطالبنى باحترامها .. وإذا كان قد جمعنا فراش فلأنى كنت أريد أن

أعرفك على حقيقتك ، وكان يخيل إلىّ أنك الرجل الذى أبحث عنه .. والذى سوف استمر أبحث عنه .. الرجل الحر الذى لا يخضع ولا يتذلل ولا يحتقر نفسه . ثم يدعى أمام الناس أنه صاحب سلطان .. وأنه قوى وصاحب إرادة .. إننى أبحث عن رجل له قيم لا تتحطم .. وأخلاق لا تنحرف .. وعواطف لا تضيع .

صاح عبد الهادى متحديا :

- أنت تبحثين عن نبى ..

فقالت زينب بلا تردد :

- فليكن ..

فقال عبد الهادى ساخرا وإن لم يخل صوته من ألم :

- سوف ينتهى أمرك .. بأن تذهبى إلى فراش كل رجل فى مصر .. ثم لا تجدين رجلك .. ولسوف ينتهى بك الأمر .. إلى أن تنسى ماذا كنت تبحثين عنه .. ولا يبقى لك .. إلا رجال وأنت عارية فى فراشهم .. إن أفكارك العظيمة .. سوف تحولك بسرعة إلى مومس . هذه هى الحقيقة التى يجب أن تعلميها من الآن .

قالت زينب فجأة وقد شحب وجهها .. وتحول صوتها إلى همس يشبه الأنين :

- أنا أفكر فى شىء آخر .

فسألها فى لهفة :

- ما الذى تفكرين فيه ؟

قالت زينب وهى تشيح بوجهها وفى عينيها دموع :

- لن أقول لك ..

فهتف عبد الهادى فى جزع :

- لا تفكرى فى حماقة ..

فقاطعته وعلى شفتيها طيف ابتسامة شاحبة والدموع تبلل خديها ..

- إنها حماقة .. ولكنها ليست كما تظن .. فأنا أحب الحياة .

وكما قلنا ، سنعود إلى تفاصيل هذا الحوار ومناسبته فيما بعد . وسوف نحاول الآن ، أن نتعرف على زينب من البداية .. لعلنا نستطيع أن نستكشف بعض ما فى أعماقها ، حتى يسهل علينا - وبقدر المستطاع - أن نتابع تصرفاتها .. وأن نتفهم ما يدور فى رأسها من أفكار ، وما يجيش فى قلبها من مشاعر .





مدحت الأيوبى

بداية زينب

كان مدحت الأيوبى يحمل طفلته الرضيع بين يديه ويذهب بها إلى حجرته ويغلق الباب ، وهو ما يعنى أن على أهل البيت احترام خلوته . وكان يجلس على مقعد بجوار النافذة ، فيحدق فى وجه زينب . ثم يحدق فى أشجار الكافور والحقول وقطعان الماشية ، والتلال التى تبدو فى الأفق البعيد . ثم يعود بنظراته إلى وجه زينب يتحسس بعينيه بشرتها البيضاء الوردية ، ويتأمل أنفها وعينيها وأذنيها ، ويضع أصبعه بين قبضة يدها الصغيرة الدقيقة ..

ويحس بأصابعها تضغط على أصعبه ، وكان يلمس شعرها الأحمر الخفيف فى حذر .. وقد يتحسس أصابع قدميها .. ويحصيهم أصبعا أصبعا ليتأكد أنهم خمس أصابع فى كل قدم ، حتى إذا ما فرغ من هذا كله ، وقد تعود أن يكرره كل يوم وكأنه طقوس لابد من مراعاتها ، نظر فى عينيها ورآها تنظر فى عينيه ، وكان يحلم فى عينيها وكأنه لا نهاية لما فى قاعهما من حيوات وخيالات ، وكانت تنظر فى عينيه .. فيخيل إليه إنه قد أصبح فرسا أو مهرا ، وإنها تمتطيه .. وتعدو به عبر أنهار وجبال وسهول ووديان ، وكان يرى فرسانا يلعبون بسيوف

مشرعة فى أيديهم فتتساقط من حولهم رقاب رجال ، وكان يرى غابات .. أشجارها عالية كمردة أساطير .. وكان يراها واقفة فوق هضبة عالية وقد التف بها السحاب ، وكان يراها فى سفينة كبيرة تشق عباب البحر والهواء يداعب شعرها الأحمر المتوهج بأشعة الشمس ، وكان يراها تدخل بلاط السلطان فينحنى الجميع فى خشوع ، بينما يهبط السلطان من سريره ويتقدم إليها ويمسك بيدها فى وقار وإجلال . ويساعدها على الصعود لتجلس إلى جواره على سرير الحكم ، وكان يرى أباه كاظم الأيوبى .. وهو يدخل عليها .. ومن ورائه طابور طويل من ألف عبد وكل عبد يحمل صندوقا مليئا بجنيهات ذهبية ..

طبقة فوق طبقة ، ويفصل بين كل طبقة وأخرى من الذهب طبقة من القطن الناصع البياض . وكانت زينب تعرف الجنيهات الذهبية وتبدرها فوق رءوس الراكعين على طول طريق موكبها ، وكان يسمعها تتحدث معه بالتركية .. فلا تنطق إلا شعرا منغما جميلا . وكان يرى الشيخ جمعة قارىء طالعه ، وقد أصبحت ذقنه طويلة بيضاء تصل إلى ركبتيه وقد سجد على سجادة صلاة افترش بها قمة جبل ترتفع فوق السحاب ، ومن حوله صفاء وسكون .. وكان الشيخ جمعة يقول له : « ودعها يا أيوبى وأنت مطمئن .. فهذه البنت سوف تكون أعظم الأيوبيين شأنا ، وسوف يركع لها الرجال .. وسوف تحكمهم ، وسوف يعرفها السلطان ويختارها زوجة له » .

ويظل مدحت جالسا هكذا ساعة أو ساعتين ، عيناه لا تفارقان عينىّ زينب ، وعينا زينب لا تفارقان عينيه ، وكان يراها أحيانا من خلال دموعه وقد سرت قشعريرة باردة فى جسده ، وقد تذكر إنه يودعها باسم جميع الأيوبيين أجدادها .. الذين انتشروا فى ممالك الأرض ، وقطعوا الجبال والهضاب والسهول والوديان فوق ظهور الخيل وعبروا الصحارى والأنهار ، وحاربوا طوال قرون جيلا بعد جيل . وغنموا وأسروا وامتلكوا وانتشرت جثث ضحاياهم من حدود ما وراء النهر وصحراء الصين شرقا إلى جبال جرجارة وأطلس غربا وانتشرت قبورهم من بلاد المغول والتركمان وقرغيز وجرجان إلى

شاطىء المحيط الأطلسى ، وها هى نهايتهم قد دنت .. وسوف تكون آخر مقابرهم ، تلك المقبرة التى يدفنونه فيها بصحراء الخفير . والآن جاء دور هذه الطفلة التى لا تدرى شيئا مما كان ، ولا تدرى شيئا عما سوف يكون ..

لتصبح أماً لقبيلة جديدة ، وأسرة جديدة . ولتبدأ الحياة بعيدا عن الماضى الذى انتهى والذى يحكم عليه الزمن ومن يدرى ربما كان لها حظ جدتها الكبيرة ، جدة أبيه كاظم التى جاءت إلى مصر بعد حرب الأتراك والروس ، وجدت نفسها طفلة تسير فى الجبال مع نساء وأطفال بينما هلك الرجال فى الحرب . وعندما وصلت إلى شاطىء البحر اختطفوها ووضعوها فى سفينة وبكت ، فكانوا يقولون لها ، سوف تعيشين فى قصور وسرايات وسوف تأكلين أشهى الطعام وسوف تلبسين الحرير وتتحلين بالجواهر ورأت بنات معها يسمعن هذا الكلام فى الصباح ويمتن جوعا فى المساء ، فيأتى البحارة ويلقون بجثثهن فى البحر حتى وصلت السفينة إلى الأسكندرية .. وباعوها لعباس باشا الذى أهداها وهى فى الثانية عشرة من عمرها لمدحت باشا الأيوبى فتزوجها وكانت أجمل نساء الأيوبيين وأذكاهم وأقواهم .. لا أحد يعرف شيئا عن ماضيها ، ولا أحد يعرف اسمها الحقيقى .. سموها فى قصر عباس « يلدز عبد الله » فأصبحت سيدة قصر كبير ، كانت له راية خاصة ، وجنود يأتمرون بأوامرها .. من يدرى .. ماذا يكون مصير زينب .

ويبكى مدحت الأيوبى . ويحول عينيه بعيداً عن وجه ابنته وعينيها ولا تنقذه مناظر أشجار الكافور والحقول وقطعان الماشية والتلال فى الأفق البعيد ، من مشاعر اليأس والذل والإهانة . ويرى وجه النحاس باشا يتجه إليه بعينين متنافرتين وصوته يرتفع طالبا إبعاده من طريقه ويرى وجه فهمى أفندى يأمره بأن ينتقل إلى الجاراج ليساعد معاون مجلس الوزراء فى التعامل مع الخدم والسعاه ، ويرى صالح الأخرس بواب عمارة الحاج رمضان يصرخ غاضبا : « إذا كنت بيه فخليك بيه على نفسك » .. ويرى نفسه فقيرا لا يجد ثمن الدواء لأمه ويرى نفسه ضائعا لا يدرى كيف يتصرف ، خائفا مذعورا

يريد أن ينجومن نفسه ، فيلجأ إلى هذه الفلاحة خديجة لعلها تخفيه بحقارتها ووضاعتها عن أنظار الذين يريدون إهانته وإذلاله . لم يبق له شيء فى هذه الحياة ، سوى أمه وسوف يكون مصيرها أسود ، وابنته هذه ، التى قد تفلح فى النجاة ، ولكن كيف .. إنه لا يدرى .. ربما التقت بأمير .. ربما التقت بفاروق فيتزوجها .. إن ظروفها لن تكون أسوأ من ظروف يلدز عبد الله ، من

يدرى من يدرى . وتنقشع بلورات الدموع عن عينيه ، ويعود إلى عينى ابنته ، فيخيل إليه أنها تفهمه ، وإن خيالاته ليست أحلاما ، بل هى الحياة الحقيقية ، تجتاحهما ، هووابنته ، وتهزمشاعرهما . وتجعل الدماء تنبض فى عروقهما ، ونسمات الهواء تزدحم فى صدريهما ، صدرها الصغير ، وصدره الكبير . إن الأيوبيين لم يعرفوا إلا المجد أو الموت . ولاشيء وسط عندهم . هكذا اجتاحت قبائلنا العالم ، الحياة الحقيقية أو الموت الحقيقى ، وهل يعيش البشر إلا بهاتين الحقيقتين .. الحياة والموت . إن الذى لا يضع حياته على كفه ومماته على كفه الثانية ، لا يعيش ولا يموت .

وكانت خديجة تقلق وتستريب فى هذا الذى يجعل الأب يخلو بابنته ، وخشيت أن يكون الرجل قد جن ، مثلما جن أبوه من قبل .. كانت تسمع أن أباه « كاظم » كان يختفى فى البدرون ببيت المبتديان لأيام ليقوم بأعمال السحر .. فما الذى يقوم به ابن كاظم مع ابنتها فى خلوته ، كان كاظم يريد أن يصنع الذهب ، فماذا يريد أن يصنع ابنه مدحت ، وكانت المخاوف تنهش خديجة ، ويخطر لها أن الرجل قد يفتك بابنته فى لحظة جنون ، فإذا ما استولى عليها هذا الخاطر البشع .. تسلحت بشجاعة الأم ، واقتحمت الحجرة ، ولكنه لا يكاد يراها ، فإذا ما انتبه على صوتها كالصراخ ، ارتجف ، وكأنه يرى شبحا ، ومع ذلك يتمالك نفسه ويقول لها فى أدب جم لا يخلو من حسم ،

إنها يجب أن تترك الحجرة فورا . كان يخاطبها وكأنها امرأة غريبة دخيلة لا صلة لها بهذا الكائن البشرى الذي يحمله بين يديه ، وكانت خديجة لا تستسلم له . فتحتج بمواعيد الرضاع .. ولكنه يرفض فى عناد أن يسلمها

ابنتها ، فتتظاهر بالإذعان له ، وتغادر الحجرة ، وهى واثقة أنه سوف يحمل إليها زينب بعد قليل ، فيجلس إلى جوارها وهى ترضعها ، وعيناه مثبتتان فى عينى ابنته ، حتى تعودت زينب أن ترى وجه أبيها كلما رضعت ، فتلتهم حلمة ثدى أمها بشفتيها ورأسها يتلفت ولا يستقر حتى تلتقى عيناها بعينيه ، وتنتهز خديجة الفرصة ، وقد تسمر الرجل إلى جوارها ، فتتحدث عن الجمال الذى ورثته ، وتقول له فى تيه إنها [illegible] الفلاحة بنت الفلاحين [illegible] له ببنت

ليس لجمالها مثل ، ولا فى عائلة الأيوبيين ولا فى غيرها ، فكان يستمع إليها مذعنا ، ويوافقها على كل ما تطلبه . ثم يغدر بها عندما تفرغ من إرضاع زينب ، فيكاد يختطفها ، ويحملها إلى أمه دودو هانم ، فتكتم خديجة مشاعرها . كانت تغضب لأن حماتها تتولى بنفسها كل شئون زينب ، من تغيير ملابسها إلى الاطمئنان على نظافتها ، ولكن خديجة كانت تشعر فى نفس الوقت بشىء من الزهو لأن حماتها تبالغ فى الاهتمام بابنتها . وأحياناً كانت تشعر بأنها غير جديرة بخدمة ابنتها وأنها تستمد زهوها وفخارها من هذه الصلة بين البنت وأبيها وجدتها ، وهو شعور كان لا يريح خديجة ، ويسعدها ويشقيها فى نفس الوقت وكانت أحياناً تفكر فى أنها تفقد أحلامها فى السيطرة على البيت رغم عملها الدءوب وخدمتها المرهقة وأن منافسها الحقيقى الذى جاء ليحطم أحلامها هو ابنتها . إنها عندما دخلت هذا البيت لأول مرة .. كانت مبهورة متقطعة الأنفاس لا تكاد تميز شيئاً مما حولها حتى الكلاب كانت تثير الرهبة فى نفسها ، ووجه جيلان كان يقهرها بترفعه وكبريائه وغموضه ، ونظرات داده حكمت والمرضعة العجوز حليمة كانت تقتحمها .. وعندما حاولت أن تتفاهم مع سيد الطباخ كفلاح مثلها وابن عرب ، فوجئت به يتعالى هو الآخر عليها ولا ينفذ إلا أوامر الست الكبيرة . ولكنها مع ذلك كانت تشعر فى ذلك الوقت وكأنها دخلت الجنة ، وأن الغربة والرهبة أمور عارضة سوف تزول ، وأنها قادرة على أن تتحداهم جميعاً وأن تصل إلى ما تريد ، إن مدحت بك بكل أبهته مجرد طفل ، وهو بلا رهبة أو هيبة عندما يلهث بجوارها فى السرير ، وأمه دودو هانم عجرفة فارغة ، وخديجة قادرة على أن تجعلها تصرخ وتتألم وهى تدلك

لها جسدها فى الحمام ، وحتى عندما رفضوا أن تنجب لهم الولد قبلت التحدى ، وتفوقت عليهم بهذه البنت الجميلة ، وأثبتت لنفسها قبل أن تثبت لهم أنها قادرة على أن تأتى بنسل كالمعجزات . إنهم مهما قالوا إنها فلاحة فلن ينكروا أنها أم هذه الأيوبية الصغيرة ، وغداً سوف تحمل من مدحت وتنجب له ولها الرجل الأيوبى الحقيقى ، الذى يعرف كيف يحكم هذا البيت ، ويدير شئونه ، ولكن ها هو مدحت لا يريد أن يواصل سعيه لأحلامه ، وإنما توقف عند زينب وكأنها نهاية المطاف ، وأصبح انشغاله هو وأمه بهذه البنت معطلاً للحياة وللأمانى والرغبات ، وكأنهما يريدان منها أن تتحول إلى مرضعة أخرى فى البيت تنتظر موتها كما تفعل حليمة وحكمت . إنهم يريدون لها أن تظل خادمة لهذه المرأة العجوز وأن تضيف إلى أسيادها سيداً جديداً ، هو ابنتها زينب . وتتذكر خديجة ما كان يقوله أخوها الحاج رمضان ، وما كانت تقوله زوجتاه عن هذا الزواج ، فتشعر بآلام ممضة ، وإذا بها تثرثر فى عصبية أمام مدحت ودودو هانم ، بأنها ليست أكثر من خادمة لزينب ، وأنها لا تتمنى لنفسها شيئاً فى الحياة سوى أن تخدمها ، وأن تأكل من فتات مائدتها . كانت تثرثر بمخاوفها لتمتحنهم بكلماتها . فتجدهم يسمعونها بغير اكتراث وربما كانوا لا يعنون بسماعها على الإطلاق ، وكأنها تتحدث فى أمر لا يعنيهم ، فتقلق ، ويزداد توتر أعصابها ، فإذا بها تثرثر بنفس الكلام أمام حكمت وحليمة وسيد الطباخ .. فينصتون إليها ، وكأنها تتحدث فى أمور بديهية فتكاد تجن ، وزاد من ذلك أن علاقتها بمدحت أصبحت أكثر أدباً وجفاء حتى تجاهل تماماً ذلك القليل الذى كان بينهما فى الفراش ، ورغم محاولاتها وإلحاحها ، كان يزداد بلادة وعزوفاً وظهرت عليه علامات غريبة ، فكان يتحدث إلى نفسه ويبتسم لخيالات لا يراها أحد غيره ، بينما اعتكفت دودو هانم فى حجرتها وقد اشتد عليها التهاب المفاصل ، فكانت تفضل البقاء فى سريرها ، وجذبت إلى جوار السرير صناديق قديمة ملونة وكانت تجلس زينب إلى جوارها ، وتخرج لها من الصناديق ثياباً مزركشة ، بعضها ثياب مدحت وهو طفل صغير ، وبعضها ثياب زوجها كاظم وهو طفل صغير ، وبعضها ثياب لدودو هانم وهى فى

ريعان شبابها ، وكانت ثياباً موشاة بخيوط ذهبية ومطرزة بالخرز والترتر .

وكانت تخرج من صناديقها شرائط حريرية تزين بها شعر زينب ، وتخرج أمشاطاً من الأبانوس والعاج المحلى بالصدف وتمشط لزينب شعرها ، وكانت تحتفظ بجوار وسائدها المزركشة بصندوق مجوهراتها ، فتخرج أقراطاً وعقوداً وتشغل نفسها بتزيين زينب ، فترى خديجة ابنتها فتبهرها حلاوتها وما هى فيه من أبهة وعز ، فتفرح ويملؤها الزهو وتحس فى نفس الوقت بمرارة وتعاسة ، وكأن ابنتها تنفصل عنها وتتنكر لأمومتها ، وصباح يوم كانت خديجة تنظف حجرة دودو هانم وهى جالسة على سريرها ترقبها وإلى جوارها زينب ، وفجأة قالت دودو هانم لخديجة .

- لا تقتربى من هذه الصناديق .. وإذا مت قبلك فلا تفتحيها ولا تأخذى شيئاً مما بها .. إن كل ما فى هذه الصناديق لابنة مدحت ..

هكذا أكدت لها حماتها فى لهجة آمرة .. أنها لا تثق فيها وأنها تخشى أن تسطو على صناديقها التى هى ملك لابنة مدحت . وكأن زينب ليست ابنتها من لحمها ودمها . وفى ذلك اليوم خرجت خديجة من حجرة حماتها ، وهى تكتم غضباً جامحاً . وفكرت فى أن تأخذ ابنتها وتعود بها إلى بيت شقيقها الحاج رمضان . ولكن سرعان ما فزعت من هذا الخاطر المدمر ، وتذكرت يوم أرادت أن تلقى بنفسها من السطوح ، وتذكرت صوت صالح الأخرس وهو يقول للحاج « حرام عليك ترميها رمية الكلاب » وتذكرت أنها هى التى اختارت هذه الحياة ، وأنها حياتها وقدرها ، وأنها رغم كل شىء صاحبة المخلوق الجميل الذي يهتمون به . وأنها سوف تحقق فى زينب كل آمالها وأحلامها .. وأنها لابد أن تصبر وتصبر ولسوف يكون لها ما تريد .

إن زينب لا تذكر بالطبع شيئاً من كل هذا ، ولكن علينا أن نجازف ونقول إنها رضعت من عيون أبيها وجدتها شعوراً مفرطاً بالاهتمام والرعاية والتبجيل ، وأنها لابد وقد اكتسبت من نظراتهم ثقة واطمئناناً وشعوراً بالاستقرار لا حدود له ، كما أنها رضعت من أمها مشاعر ثورة وإحساس

بالظلم وعدم الاعتراف بالوجود ، وقلق لا حدود له ، فهل هذه المشـاعر والأحاسيس المتناقضة ، رسبت فى أعماق زينب منذ كانت طفلة صغيرة ، لو قلنا نعم لكانت إجابتنا مجرد تخمين ، فما يدرينا بحقيقة ما شعرت به طفلة فى مثل عمرها ، إنها ما كانت لتدرك ماتحس به ، وبديهى أنها لا تستطيع أن تفصح عن هذا الذى لم تدركه ، ولكن لعل هذا هو بعض سر زينب ، الذى يفسر لنا تصرفاتها اللاحقة ، فإذا لم نقبل هذا التفسير ، وهذا حقنا المشروع ، فعلينا أن نتقبل زينب كما هى وأن نقول إنها خلقت هكذا ، فمن يشاء أن يقبلها بغير تفسير أو تحليل ، فليفعل بلا أدنى حرج ، فعليهم أن يربطوا بين هذه المعلومات .. وما سوف نرويه لهم من تصرفات زينب .



نهـــاية
مدحت الأيـوبى

اختفى مدحت طوال أحد الأيام ولا أحد يدرى أين ذهب . وأيقنت دودو هانم أنه مات أو قتل ، كانت تقولها ببساطة وقسوة وهى تكبت آلامهـا وأحزانها ، أما خديجة فقد فقدت قدرتها على التفكير .. وكانت تنظر إلى زينب وتسألها وكأنها وحدها هى التى تعرف أين ذهبْ أبوها . وكانت زينب تجيب فى ثقة إنه سوف يجىء .. وسوف يأتى لها بعروسة كبيرة ، ولما هبط الليل ولم يظهر مدحت .. دخلت خديجة على دودو هانم . فوجدتها تبكى مستسلمة ليقينها بأن ولدها لقى مصرعه ، وذهبت خديجة إلى سيد الطباخ وطلبت منه أن يخرج ويبحث عن سيده ، وأيقظت زينب من نومها ، وجذبتها من يدها إلى باب البيت ، ووقفت تحدق أمامها فى الظلام ، وشعور بالتحدى والغضب يجتاحها أن هذا الظلام لن يأخذ منها رجلها ، لن تسمح له أن يغدر بها وينهى حياتها ، وهى لن تفعل مثل تلك العجوز الحمقاء التى استسلمت لليأس والبكاء . هاهى تمسك بابنة مدحت فى يدها وهو لن يترك ابنته هكذا تواجه البرد والعراء والظلام ، لابد أن يأتى ليختطف زينب من يدها ، ويحتضنها ويسرع بها

داخل البيت ليدفئها ويحميها .. تعال يا مدحت وإلا أوقفت ابنتك هكذا حتى الصباح ، أنت لا تهجرنى . أنت تهجر ابنتك ، أنت لا تضرنى ، أنت تضر بابنتك . وسمعت خديجة صوت ابنتها تبكى ، كانت خائفة وكانت لا تفهم ماذا يحدث حولها ، فصاحت خديجة فى زينب « اخرسى » وكانت فى قرارة نفسها تريد منها أن تواصل البكاء ، وأن ترفع صوتها الصغير ، حتى يخترق الظلام ويصل إلى أسماع مدحت . وظهر شبح قادم من جوف الظلمة . كان سيد الطباخ . الذى قال وهو يلهث إن مدحت ركب القطار هذا الصباح وسافر إلى القاهرة . شاهده الفلاحون وقالوا إنه لابد أن أمرا خطيرا قد اضطره إلى السفر وقضاء ليلة فى القاهرة التى تقذفها طائرات هتلر كل ليلة بالقنابل المدمرة . ورفضت خديجة تلك الليلة أن تقول كلمة واحدة لدودو هانم . تركتها لبكائها ، ونامت زينب فى أحضانها حتى الصباح ، ومضت أيام ومدحت لا يعود ، وسمعت دودو هانم أن ابنها سافر إلى القاهـرة ، فلم تصدق ما سمعته ، لأنه لا يستطيع أن يسافر قبل أن يستأذنها وتمسح على رأسه ، وتقرأ له كلمات تضمن له السلامة فى الذهاب والعودة .. إنها تصدق أن ابنها مات ، ولا تصدق أنه يتجاهل استئذانها فى سفره ، وفكرت خديجة فى السفر إلى القاهرة ومعها ابنتها ، ولكنها خشيت غضب مدحت ، ربما طردهـا وطلقها . ستصبر لعدة أيام ، فإذا لم يجىء فستسافر إليه وليكن ما يكون ، سوف تلقى بزينب بين يديه ، وتقول له افعل بابنتك ما تشاء وعليه أن يختار ، إما أن يرضخ لبقائها بجواره أو يتحمل وحده مسئولية ابنته ، ويتحمل وحده مسئولية أمه . وكان قد مضى أسبوع على اختفاء مدحت ، عندما فوجئوا بظهور الحاج رمضان يدخل البيت قادماً من القاهرة . كان الرجل مكتئباً متهجم الوجه ، فانخلع قلب خديجة ، وتوقعت الشر . ولكن الرجل كان يقول كلاماً غامضاً . فقد زعم أن مدحت أرسله ليسافر معهم إلى القاهرة حيث ينتظرهم هناك فى بيت المبتديان ..

وصرخت خديجة محتجة ، والشكوك تنهشها . ولماذا لم يحضر بنفسه ،

ولماذا يريد منا أن ننتقل إلى القاهرة ، والحرب هناك ، والناس تبحث لأولادهم على أماكن نائية يحتمون بها ، ويجيب الحاج رمضان ، إنه غير مسئول عن تصرفات مدحت ، وأن عليهم جميعاً أن ينفذوا أوامره ، وأن يتبعوه حيث يكون حتى ولو كان قد جن ، ورفضت دودو هانم أن تصدق الحاج رمضان . واتهمته بأنه يخدعها وقالت إن انتقالها إلى القاهرة مستحيل وأنها مريضة لن تتحمل مثل السفر ، وإذا كان مدحت حياً كما يقول ، فهى غاضبة عليه ، وهى لا تريد أن تراه ، وما كادت خديجة تسمع احتجاج دودو هانم ، حتى تحمست فجأة إلى السفر ، ونسيت كل ما كانت تقوله عن القنابل التى تسقط على القاهرة ، وزوجها المجنون الذى يريد قتلهم فى الغارات . وهكذا حملوا دودو هانم قسرا كما يحملون الحقائب إلى المحطة . وكانت تصيح فى رعب أنهم يريدون قتلها كما قتلوا ابنها . وسمعها ركاب القطار وهى تسب وتلعن بالتركية . فظنوا أنها مجنونة ، وكانوا يبتسمون ويتغامزون ، والحاج رمضان جالس جامد الوجه ، فى عينيه اكتئاب وحزن ، وزينب صامتة ساهمة ، تتلفت حولها فى فزع ، لا تكاد تصدق أن جدتها تصرخ وتولول ، فإذا ما بكت ، لطمتها خديجة على وجهها وأسكتتها ، فتنظر إليها بعينيها البريئتين الواسعتين ، فى غضب وتتوه فى عالمها الذى لا يعرفه أحد .

قبل أن يصل القطار محطة القاهرة ، تململ الحاج رمضان فى جلسته ، ونظر إلى خديجة ، فأدركت أنه يريد أن يبوح لها بذلك الشر الذى تتوقعه . وهمس الحاج فى أذنها ، أن مدحت مريض ، وقد ذهب إلى بيت المبتديان دون أن يخبر أحداً . وعرف الحاج رمضان من صالح البواب ، أن مدحت قضى ليلته فى بيته وحده ، وأنه لم يخرج منه فى الصباح ، فغضب أول الأمر . ولم يفهم سر تصرفه الغريب ، إذ كيف لا يتصل بالحاج ولا يخبره بوجوده .

وسأل (صالح) ، ألم يقل له مدحت شيئاً فإذا بصالح يقول كلاماً غريباً . إن الرجل رآه فلم يلتفت إليه ، فجرى إليه ليرحب بم ، فأشاح بوجهه وأعطاه ظهره ودخل البيت دون أن ينبس بكلمة ، وانتظر ا ج رمضان حتى صلاة

العشاء ، ونادى (صالح) وسأله ، ألم يخرج مدحت من البيت ، قال لا .. فسأله ، هل أنت واثق مما تقول ، قال صالح نعم .. قال الحاج : ربما يكون قد سافر إلى أهله ، قال صالح إن نافذة فى البيت ما زالت مفتوحة ولكن الأمر الغريب أن البيت مظلم وليس فيه حجرة واحدة مضاءة ، قال الحاج رمضان إن القلق راوده فلم يطق صبراً ، وذهب إلى بيت مدحت ، وطرق الباب وظل

يطرقه بشدة حتى فتح . وإذا بمدحت واقف أمامه فى الظلام ، فسأل ماذا به ، وما الذى يجعله يحبس نفسه فى هذا البيت المهجور ومدحت صامت مطرق برأسه ، وأضاء الحاج النور ، ونظر إلى مدحت وإذا بالدموع فى عينيه ، وقبل أن يفهم الحاج سر الرجل ، كان مدحت يقول له ، إن كل شىء قد انتهى . وأنه سوف يموت . فسأله الحاج ما هذا الكلام الغريب ؟ والموت ليس فى علم البشر إنه فى علم الله . فقال مدحت .

إنه ذهب إلى الطبيب فى الصباح فأخبره بنتيجة تحليل أجراه له وأنه مريض والعياذ بالله ، بالسرطان ، كلام أطباء ما أدرانا بأنه صحيح . كم قالوا ، وكم كذبوا وكم حكموا على مرضى بالموت فمات الطبيب وظل المريض حياً إلى يومنا هذا . ولكن مدحت صدقهم ، وإذا به يقرر أن يعود إلى بيت المبتديان ، ويدخل حجرة نومه ، ويرقد على سريره ، بلا طعام أو شراب . ويظل هكذا لا يتصل بأحد حتى يموت .

قال له الحاج رمضان ، هناك غير الطبيب ألف طبيب وطبيب ، وقبل الأطباء وبعدهم الله موجود ، والإيمان بالله موجود ، ولا أحد يجرؤ أن يقول إن المرض هو الذى يميت . ولكن مدحت واثق من موته ، ويقول إنه عرف طالعه من شيخ اسمه جمعه وقال إنه ودع ابنته وهذا يكفيه من الدنيا . ولا يريد أن يرى أحداً لا أمه ولا أنت ولا زينب . إنه ليس مريضاً بالعياذ بالله . إنه مريض بعقله .

ولعله لم يذهب إلى طبيب ، ولم يجر تحليلاً ، فمتى أجراه ، وهذه أول مرة نراه يأتى إلى البيت ، قال الحاج رمضان لمدحت أن حراماً عليه أن يهجر أهله ، فهم أولى به ، ثم أن البقاء هنا خطر ، والغارات لا تنقطع كل ليلة ، حتى أن الحاج

يفكر فى أن يرسل عياله إلى عزبة خالهم مصطفى بهنس بالفيوم . فإذا بمدحت يقول كلاماً غريباً ، عن الحرب التى قامت ليموت فيها مثلما مات أجداده ، وأن هتلر لم يعلن الحرب إلا للقضاء على آخر الأيوبيين . قال الحاج لنفسه ، لابد أن يتأكد من زعم مدحت بأنه مريض بهذا المرض الخبيث قبل أن يتصرف فى الأمر . فجاء له بطبيب ، وطبيب ، واستدعى كونصلتو من أكبر الأطباء .

وقالوا يا [illegible] إنه [illegible] الحاج [illegible] بمرض المسكين . وقال الحاج له . لابد أن يأتى أهلك .. ولابد أن تسهر خديجة بنفسها على خدمتك .. فرفض .. ولكن الحاج لم يهتم برفضه ، وتركه تحت رعاية صالح ، وجاء ليأخذهم إلى رجلهم ليؤدوا له الواجب كما تقضى الأصول .

عندما دخلت خديجة على مدحت وهو راقد فى سريره ، ارتمت على يديه تقبلهما وتغسلهما بدموعها وقد استسلم لها مدحت وفى وجهه الشاحب وداعة وفى عينيه صفاء حزين ، وقفزت زينب إلى جواره فى السرير .. وسألته فى غضب ، أين عروستها ، فقال لها سوف تأتى لك فى الحال ، فابتسمت راضية ، وقالت له محذرة :

ـ ماما وحشة .

أما دودو هانم فقد رفضت الدخول على مدحت ، وصممت أن يذهب إليها معتذراً . فنهض من فراشه ، ودخل على أمه ، وقبل يديها ، واستمع إلى شكواها من زوجته الفلاحة . وطلبت منه أن يطردها من البيت .. واستمع مدحت إلى أمه ، وعلى وجهه تضىء بشاشة شاحبة ، وقال لها فجأة :

ـ لا أستطيع أن أطردها . فأنت فى حاجة إليها .

صاحت دودو هانم :

ـ لست فى حاجة إلى أحد .. أفضل أن أموت ولا أحتاج إليها ..

قال مدحت وهو ينهض مغادراً الحجرة وكأنه يخاطب نفسه :

ـ نحن فى حاجة إليها لأننا نموت .. لولا الموت لطردتها .

ولم يسمع ما قالته أمه . كان يشعر بطلائع الألم تهاجم أمعاءه فأسرع لاهثا إلى فراشه . وفى تلك الليلة احتفل هتلر بمقدمهم إلى القاهرة ، فاستمرت الغارات طوال الليل . وصرخت زينب كما لم تصرخ فى حياتها وصرخت دودو هانم تسب ابنها الذى جاء بها إلى ميدان قتال ، وأحست خديجة وهى تسمع صفير القنابل ودوى طلقات المدافع ، أن الموت الذى يحوم من حولها ، لايفزعها كما كانت تتوقع ، وأدهشتها تلك الفرحة الخفية التى تتسلل إلى صدرها رغم كل هذه المخاوف ، فهاهى لأول مرة سيدة بيت المبتديان الذى كانت تحلم به ، وهى ترقب مدحت وهو يخرج ويدخل وتراه أجمل شاب فى الدنيا ، وتحولت أصوات القنابل ، إلى ضجة موتسيكل يركبه مدحت أو يهبط منه . وكأن ضجة الدمار هى ضجة احتفال بامتلاكها بيت المبتـديان . واحتضنت زينب إلى صدرها وذهبت بها إلى فراش زوجها . ورقدت إلى جواره ، بينهما زينب ، ولكن جسدها الصغير لم يمنع التصاق ساقيها بساقيه وارسلت إلى مدحت عبر الظلام أنفاسا ونظرات مفعمة بالحب .

ولكن آلام مدحت فرضت على البيت شبح الموت ، وكان مدحت يفيق من حقن الأفيون فيطلب زينب ، ويجلسها بجواره ومعها عروستها الكبيرة ، فيتأمل ابنته ويداعبها ، ثم يصيح مناديا خديجة أن تحمل زينب بعيدا ، لأنه لم يعد يحتمل بقاءها بجواره ، ويقول لخديجة :

- كنت أفضل أن أموت بعيدا عنكم .

فترفض خديجة أن تصدق أنه سوف يموت ، وتتحدث عن استجابة الله واوليائه الصالحين لدعواتها له بالشفاء ، فيغتاظ ويصيح غاضبا :

- ولكنى سوف أموت ياهانم ..وكل ما يؤلمنى ..هو التفكير فى مصير ابنتى .

فتصرخ خديجة يائسة منه ، وتتهمه بأنه هو الذى يريد أن يموت وأن حديثه هذا هو الذى يجلب الشؤم . فيردد مدحت :

- لافائدة منك .

وذات مرة ، قال مدحت لخديجة :

ـ ما من ضرر سوف يلحق بابنتى بعد موتى إلا منك .

وفزعت خديجة من اتهامه ، اذ كيف يتوهم أنها سوف تضر بابنتها ، ولكنه قاطعها ، قائلا كلماته وكأنها تأوهات :

ـ ابعدى عنها ياهانم .. فهى لن تتعلم منك إلا الإهانة والذل .

صاحت خديجة غاضبة :

ـ إذا كنت فلاحة .. فهى فلاحة مثلى .. وأنا لا أقبل الذل والإهانة من أحد .. أنا زوجة مدحت بك الأيوبى .

وضربت خديجة على بطنها قائلة فى حرقة :

ـ ألم تخرج ابنتك من بطنى .

فتأوه مدحت هامساً :

ـ لا فائدة من الحديث معك .

وأغلق عينيه فيما يشبه الغيبوبة وفتحها فرأى خديجة تحدق فى وجهه وقال :

ـ ولكن مهما فعلت .. فسوف تحقق كل ما تريد .

وحدث أن صرخ مدحت فجأة ، فهرعت إليه خديجة . فطلب منها أن تنادى على صالح البواب . وجاء صالح ودخل على مدحت وهو فى فراشه ..

وقال مدحت :

ـ اقترب منى يا صالح .

فتقدم صالح إلى حافة السرير .. فمد مدحت يده فى اتجاه رأس صالح . وطلب منه أن يقترب منه ، وكأنه يريد أن يهمس فى أذنه . وأمسك مدحت برأس صالح وفجأة انهال عليها تقبيلاً .

وتراجع صالح فزعاً من المفاجأة ، وهو يردد :

ـ استغفر الله . استغفر الله .

قال مدحت فى هدوء وكأنه حسم أمره :

ـ أنا سوف أموت ياصالح وأريد أن اعتذر لك .

قال صالح وقد غلبته الرهبة :

- تعتذر عن أى شىء ياسعادة البك ؟!

وانحنى صالح على يد مدحت يقبلها ، فإذا بمدحت يمسك بيد صالح هو الآخر . ويقول :

- يوما ما .. قلت لى إذا كنت أظن نفسى بيه .. فأنا بيه على نفسى وأنه لا عظيم إلا الله .. وغضبت منك .. وأنا الآن ذاهب للقائه .. وأخشى أن يكون غضبك قد وصل إليه .. فاقبل اعتذارى .. وقل له فى صلاتك إنى ذاهب إليه كعبد من عباده .

فتلعثم صالح وقال :

- إن قلبك كبير يا مدحت بك .. وأنا خادمك .

قال مدحت فى هدوء :

- اسمع يا صالح .. لقد ناديتك .. لأنى خشيت أن أموت وأنت غاضب منى .. وقلت إن غضبك قد يجعلك تسىء إلى ابنتى .. فهل أطمئن الآن عليها .. أنت لن تخدمنى يا صالح إلا فى زينب .

فتفجرت الدموع فى عينى صالح وقال :

- إنها ابنتى .. وسأضعها فى عيونى .. ولن يمسها أحد بسوء ..

ولم يستطع صالح أن يصمد للموقف .. فأجهش بالبكاء ، ولطم جبهته فجأة وأسرع بالخروج .

وقالت خديجة لمدحت وقد فاجأها المشهد ورفضته بكل مشاعرها :

- مدحت بك يقبل رأس صالح البواب .. ويقبل يده ..

قال مدحت شارداً :

- نعم .. من أجل ابنتى ..

قالت خديجة :

- وتوصى هذا البواب فى عمارة شقيقى بابنتك .. وتقول إنى سوف أجلب لها الضرر :

قال مدحت :

- نعم .

قالت خديجة :

- أنت تظلمنى .. ولن يرضى الله بظلمك لى .

قال مدحت :

- أنت تظلمين نفسك .. [illegible]

وسكت . ولم تفهم خديجة ماذا يعنى . وفى اليوم التالى ، نهض مدحت من سريره ، وفاجأ زينب وهى تلعب ، وأخذها من يدها وذهب بها إلى أمه الراقدة فى حجرتها ، ورأته خديجة ، فقالت إنه شفى ، وأسرعت إلى المطبخ تعد له كوب ليمون ، ولما فرغت من إعداده ذهبت إلى حجرة حماتها ، فوجدت زينب معها وحدها . فبحثت عن مدحت فى حجرته . فوجدته راقداً فى سريره . ولما اقتربت منه ، وفى يدها كوب الليمون .. كان قد مات ...





خديجة السبع

صممت خديجة على أن تملأ الفراغ الذى تركه موت زوجها . فهذه هى فرصتها لأن تكون لها كلمة وإرادة ولأن تعطى لحياتها المعنى الذى تريده .

ولقد أرادت خديجة أن تجعل من موت « البك » حدثاً ضخماً ، فبالغت فى مظاهر الحداد حتى أصبح كل ما فى البيت من مقاعد ومناضد وأسرة يكسوها اللون الأسود . ونصحت لها زوجتا شقيقها الحاج رمضان بألا تفرط فى إحاطة نفسها بهذا السواد ، فغضبت لما تصورته إهانة توجه إليها وإلى ذكرى الراحل العظيم . وقال لها الحاج رمضان وقد جاءته شاكية ، إن ما سمعته هو الحق ، فالبيت أصبح كئيباً ، وزينب الصغيرة لن تتحمل هذه الكآبة ، فاتهمت شقيقها بأنه واقع تحت تأثير زوجتيه ، وأنه مثلهما لا يقدر فداحة المصيبة ، ولا يعرف مدى عمق الجرح الذى لن يندمل ، فالرجل الذى مات ليس ككل الرجال إنه مدحت بك الأيوبى ، السيد العظيم ، ابن الباشوات وحفيد الأمراء ، وهى زوجته التى لم يتزوج غيرها ، وأم ابنته التى لم ينجب غيرها ، وهى لن تقصر فى حق ذكراه ، ولو نفذت ما تفكر فيه ، لأمرت بطلاء جدران

حجرات البيت بطلاء أسود ، ولقد نادت النقاش فعلاً ، وسألته عن التكاليف ، فوجدت أنها فوق قدرتها المالية . كانت خديجة تتحدث عن موت مدحت ، وكأنه لم يعد فى العالم رجال ، وكانت تقضى أوقاتاً كثيرة وهى تتحدث عن المرحوم ، وكأنها شاعرة من شاعرات الجاهلية . الخنساء ترثى صخراً .

وكانت تحكى عن كبريائه وتعاليه .. وأدبه الرفيع .. وتتحدث عن حنانه وحبه الكبير لها .. وكانت تتحدث عن العز الذى كان يعيش فيه معها ، وكيف كان يتمتع بكل لحظة من لحظات حياته .. يتمتع بطعامه وملبسه .. يتمتع بجلوسه فى حجرته .. وهو ينتظر فنجان القهوة الذى تصنعه له بيديها ، وكان لا يشرب إلا البن اليمنى المحروق ، ويشربه فى فنجان خاص عليه نقوش وردية .. وكانت له مواعيد صارمة ودقيقة ، لابد من المحافظة عليها . فهو يعود إلى البيت وساعة الحائط تدق الثانية بعد الظهر ، وقبل أن يجىء لابد من أن يسود البيت صمت رهيب ، إذا كان المذياع مفتوحاً فلابد من إسكاته ، وإذا كانت مواقد الجاز مازالت مشتعلة فى المطبخ فمن المحتم إطفاؤها .

والنوافذ تغلق ، والستائر تسدل .. والطعام يعد على المائدة ، والجارية تمسك بالمنشة وتقف وراء مقعده لتهش عنه « الطير » ، كان دخوله البيت له هيبته ، وإذا اختل شىء فى النظام فلن ينجو أحد من غضبه . كان « البك » جباراً قاسياً ، يخشاه الجميع حتى أمه . وهكذا تستمر خديجة فى رواية تفاصيل حياتها مع مدحت ، وكأنها تروى قصصاً عجيبة من قصص ألف ليلة . وكانت لا تكتفى بأهل بيت شقيقها كمستمعين لقصتها ، فكانت تزور الجيران ، وتزور أقاربها الذين انقطعت صلتها بهم منذ سنوات لتجعل منهم مستمعين لأساطيرها التى ترويها وهى ترقب أثر كلماتها عليهم ، وتتابع كل خلجة من خلجات وجوههم ، وتحاول أن تسيطر عليهم بصوت قوى حزين لا يخلو من مرارة وأسى ، فإذا ما شعرت أن اهتمام السامعين يوشك أن يفتر ، ارتفع صوتها وقالت فى لهجة متحدية ، إن أحداً لن يفهم حقيقة ما تقوله ، لأنهم لم يعرفوا الأتراك كما عرفتهم ، ولم يعاشروهم كما عاشرتهم . إن الرجل التركى

لغز محير ، ومدحت بك من بين الأتراك ، كان أشدهم إثارة للحيرة ، وهى لا تدرى كيف ارتبط بها وأحبها وهى الفلاحة بنت الفلاحين . وهنا تصمت خديجة برهة وتدير عينيها فى المستمعين إلى تساؤلها ، فهم جميعاً من الذين تلصق بهم صفة فلاحين فى نظر مدحت بك . وبعد أن تتأكد خديجة من لهفتهم إلى سماع إجابتها ، تخفض صوتها وتلونه بحزن رقيق ، وقد تفيض من عينيها العبرات ، وتقول إنه كان يدللها وكأنها أعجوبة ، وكأنها فاكهة نادرة ، وكان يقهقه كطفل وهى تخاطبه بالكلام البلدى وكيف كان يضحك حتى تدمع عيناه ، وهو يراها لا تعرف كيف تأكل بالشوكة والسكين ، وكان يسمعها تقول « يالهوى » فيضحك وكأنه سمع نكتة .

وتنطلق خديجة فى حكاياتها حتى يضحك السامعون ، فتضحك معهم ويختفى من صوتها ومن وجهها كل مظهر من مظاهر الحزن ولكنها سرعان ما تتنبه إلى ما يجب أن تكون عليه . وعندئذ تختتم قصصها بما يشبه قصيدة رثاء ، تبدأها بالفخر بنفسها .. فهى اليوم مسئولة عن ذكرى مدحت الأيوبى وهى مسئولة عن استمرار حياة هذا الرجل فى حياة ابنتها زينب وحياة حماتها دودو هانم .. وتنطلق خديجة فى الحديث عن حماتها التى أصبحت مشلولة تماماً فى فراشها .. وتتباهى بأنها تخدمها الآن وتعطيها من نفسها أكثر مما كانت تعطيها فى حياة ابنها ، لقد تغاضت عن كل سخافات هذه السيدة العجوز ، هى تركية مجنونة ، لم ترض أبداً بزواج ابنها من فلاحة ، وكانت تغير من خديجة ، فعندما دخلت عليها البيت أصبحت هى السيدة زوجة البك . وكان الجوارى والخدم يلقبونها « الست الصغيرة » وأصبحوا يقولون عن دودو هانم « الست الكبيرة » ولكنها غضبت ، فجمعت الجوارى والخدم وكان لم يمض أسبوع على وصول خديجة إلى البيت .. وقالت لهم إنها وحدها هى الست الصغيرة أو الكبيرة فى البيت . المسكينة .. كانت تشعر بالغيرة من زوجة ابنها ، ولما روت خديجة ما فعلته حماتها لمدحت بك ، قال لها ضاحكاً إنها الكبيرة بمقامها كزوجة له .. وهى فعلاً تتصرف اليوم بعد موته كسيدة

كبيرة ومسئولة عن كل من فى البيت وأولهم دودو هانم أم البك .. ولاتسكت خديجة حتى تتأكد من أنها قد قامت بالدعاية المؤثرة عن تضحيتها بنفسها .. وتصميمها علَى أن تبذل جهوداً مضنية من أجل أن تجعل الأيام الأخيرة فى حياة دودو هانم أياماً هادئة سعيدة ..

وكانت زينب تستمع فى أغلب الأحيان إلى حكايات أمها ، إذ كانت تصحبها معها فى جولاتها .وكانت تستمع إليها مع السامعين بشعور غامض بالإعجاب

المختلط بالخوف ينتابها ..كانت تستريح وهى تسمع أمها تتحدث عن أبيها ، وعن جدتها .. وكانت فى نفس الوقت تشاهد فى مخيلتها صوراً كئيبة للبيت الذى تعيش فيه ، السرير الذى تنام عليه إلى جوار أمها وأغطيته ووسائده كلها سوداء وأغطية المقاعد من القماش الأسود وملابسها وملابس أمها سواء الخارجية أو الداخلية سوداء ، وكأن الدنيا مظلمة ، وكل شىء فيها معتم ، حتى خيل إليها أن هذه هى الحياة ، سواد فى سواد ، وكانت زينب تسمع أمها ، وهى تشاهد فى مخيلتها صورة ذلك المقرىء الذى يأتى إلى بيتهم كل مساء ويجلس فى العتمة ويقرأ بصوت كئيب يبعث الرهبة والخوف فى نفسها ..

وقد تضاعف هذا الخوف فى صدر زينب ، عندما فاجأها شبح الرجل وهو يخرج فى الظلام من المطبخ ، فظنته عفريتاً أو شيئاً مفزعاً لا تدرى ما هو .. فصرخت وجـرت وهى تصرخ حتى اصطدمت بحضن أمهـا ولم يتوقف ما يتفجر فى صدرها من صرخات ..وكانت زينب تسمع شكوى دودو هانم من تردد المقرىء وتصميمها على منع هذا الغريب من دخول البيت .. فترفض خديجة فى حدة ، لأن القرآن سوف يتلى كل ليلة فى بيت مدحت الأيوبى إلى آخر يوم فى حياتها ، وسمعت زينب جدتها وهى تشكو للحاج رمضان من هذا الرجل الغريب .. وتصف له الفزع الذى أصاب البنت الصغيرة ، وعندئذ قالت زينب لخالها .. إنها لا تريد هذا الرجل فى البيت .. ودخلت عليهم خديجة تحمل القهوة لشقيقها وعرفت ما يتحدثون فيه ، فهتفت وكـأنها تزأر .. إن أحداً لا يستطيع أن يمنعها من ترتيب تلاوة القرآن على روح

المرحوم .. ولم تدرك زينب معنى ما تبادلوه من كلام .. كل ما عرفته ، أن أمها مصممة على مجىء هذا العفريت كل مساء إلى البيت . وفزعت زينب ، وتسللت خارج البيت . ووقفت تتلفت حولها فى الشارع وطنين المخاوف يدوى فى رأسها الصغير ، وجرت إلى بيت الحاج رمضان ، ووقفت تبكى ووجدت نفسها تصعد السلم حتى وصلت إلى السطح فدخلته . ورأت حجرة بابها مفتوح وقفت عنده ، وكان عم صالح داخل الحجرة يصلى .. وكان بالحجرة دكة فجلست عليها ترقب الرجل وهو يركع ويسجد ، فلما فرغ من صلاته ، مسح على وجهه وجعل يتمتم بكلمات وزينب تحدق فى وجهه ، ونهض صالح ، وطوى الحصير الذى كان يصلى عليه ، ونظر إلى زينب وقال متهللاً :

ـ أهلاً بالأميرة بنت الأمرا .

فسألته زينب :

ـ ماذا كنت تقول ؟

قال صالح باسما :

ـ كنت أصلى وأقرأ القرآن وأدعو لك

قالت زينب غاضبة :

ـ أنا لا أحب القرآن .

قال الرجل فى دهشة وقد تصلبت يده الممسكة ببراد الشاى .

ـ أعوذ بالله .. لا تقولى هذا يابنتى .. من علمك هذا الكلام .

قالت زينب :

ـ إنه كلام عفاريت .

فاقترب منها صالح ، وجلس إلى جوارها ، وربت على كتفها ، وقال :

ـ القرآن كلام الله .. وإذا سمعته العفاريت أو الشياطين هربت خائفة . القرآن يحمينا يابنتى .

قالت زينب فى عناد :

ـ العفريت يأتى كل ليلة عندنا ويقول القرآن .. وهو يخيفنى ..

فضحك صالح وقد أدرك سرها وقال :

- معك حق ياابنتى .. إن شكله كالعفريت .. وصوته قبيح .. ولكن هذا شىء آخر غير كلام الله .

فسألته زينب :

- من هو الله .

قال صالح :

- إنه فى كل مكان .. إن الله فى قلبك ياابنتى .. أكثر مما هو فى قلوبنا نحن الكبار .

قالت زينب :

- أنا لا أريد هذا العفريت فى بيتنا .

فقال صالح فى هدوء وعيناه تنظران فى عينيها :

- هذا الرجل الذى يجعلك تخافين من كلام الله يجب ألا يدخل بيتكم بعد الآن .

وذهب صالح إلى خديجة وأخبرها بما سمعه من ابنتها وطلب منها طرد المقرىء ، ويكفيها أن تسمع القرآن فى المذياع . ولكن خديجة رفضت أن تسمع منه .. وقالت إنها لن تفتح المذياع فى حياتها . ولن تحتمل أن تفتحه فتنطلق منه بالصدفة أنغام موسيقى وطرب .. وثار صالح ، وذكرها بأن مدحت بك قد أوصاه قبل موته بابنته ، ولم يدرك صالح أنه يستفزها بهذه الذكرى ، فإذا بخديجة تصيح فيه ، إن مدحت بك الأيوبى لا يوصى البوابين بابنته وطردت « صالح » .. فخرج الرجل متذمراً .. ولكنه لم يسكت . فانتظر مجىء المقرىء فى المساء .. واعترض طريقه ، وهدده بالضرب إذا ما دخل البيت .. وحاول المقرىء أن يتصل بخديجة لعدة أيام .. ولكن صالح كان له بالمرصاد .. ولم تعرف خديجة بسر تغيب المقرىء ، حتى كان قد مضى أكثر من أسبوع .. عندما قابلها الرجل وهى خارجة فى إحدى زياراتها وكانت معها زينب التى صرخت باكية عندما رأته أمامها يخاطب أمها ، وأذعنت خديجة

لبكاء زينب ، فصرفت المقرىء وكانت تفكر فى أنها سوف تتخلص من أجره وهى فى حاجة إلى كل قرش ..ولكنها اعتزمت أن تعاقب « صالح » على فعلته ، فتطلب من شقيقها طرده . ثم ترددت فى أن تحدث الحاج فيما تريد ، فقد خطر لها أن الحاج ربما هو الذى حرض صالح على فعلته ..وكانت تنظر إلى زينب فى دهشة وتتساءل ، كيف استطاعت هذه الطفلة أن تصل إلى ما تريد ، أتكون قد ورثت شيئاً من أبيها جعلها قادرة على أن تطلب فتجاب . إنها على أية حال ابنتها ، وهى مفخرتها ورأسمالها الذى تتباهى به ، وتستطيع أن تستثمره لتحقق من ورائه كل ما لم يخطر ببال . إن ابنتها بجمالها وأصلها .. ستكون قادرة على أن تطلب وأن تأمر ..فتعوضها عن عجزها وعدم مقدرتها على الأمر والطلب . إن كل ما حدث لخديجة فى الحياة كان قضاء وقدراً ، هكذا وجدت نفسها تعيش مقهورة فى بيت شقيقها . وهكذا وجدت نفسها تتزوج بمن لم تجرؤ على الحلم بالزواج به ، وهكذا وجدت نفسها مسئولة عن هذا البيت .

إنها لم تطلب شيئاً من هذا كله ، وما كانت لتجرؤ على طلبه ، حتى وجدت نفسها فيما هى فيه . أما ابنتها فسيكون لها شأن آخر ، وهى سوف تتبع ابنتها القادرة على أن تطلب الحياة ويكون لها ما تريد . وفكرت خديجة فى أنها تستطيع أن تقهر دودو هانم بابنتها زينب ، إن دودو هانم ليست أيوبية .

وابنتها زينب أيوبية . فهى أعظم شأناً وأرفع مقاماً من دودو هانم . وهكذا أصبحت خديجة تتحين الفرص عندما تجد زينب مع جدتها فتختطفها منها .

وكانت زينب تشعر بحنين جارف إلى جدتها وسريرها ووسائدها المزركشة وصناديقها التى تخرج منها تلك الأشياء الساحرة الجميلة .. كانت حجرة دودو هانم هى المكان البهيج الوحيد فى البيت الأسود ، فقد رفضت بل وقاومت بشراسة محاولات خديجة لإدخال اللون الأسود حجرتها ، ورفضت ملابس الحداد ، وصممت على أن تحتفظ حولها بالألوان الزاهية التى تحبها ، وكانت زينب تستريح لحجرة جدتها ، وتستريح لوجهها الأبيض المضىء ، وشعرها

الفضي الذى تشع منه ضياء مرحة . وكانت تشعر بفرحة ودفء وهى بين أحضان جدتها تدغدغها وتتحسس جسدها بأناملها وتعبث بشعرها .

وعندما كانت خديجة تنتزعها من جدتها كانت تختلس كل فرصة لتعود متسللة إلى الحجرة ، فتفتح بابها فى حذر ، وتطل برأسها وتجرى صاعدة السرير إلى أحضان جدتها ، وما من مرة دخلت فيها خديجة المطبخ إلا واكتشفت بعد قليل أن زينب ليست معها فتصيح منادية عليها ، وتسمع زينب النداء فتنكمش وتغطي وجهها بالوسائد ، حتى تأتى أمها فتأخذها معها إلى المطبخ وتغريها بالبقاء معها بما تقدمه لها من طعام ، ولكن الإغراء لا يفيد فقد كانت تخاف أمها ولا تشعر بجوارها بالدفء الذى تشعر به وهى بجوار جدتها ، ولا تحس بالطمأنينة التى تستكين إليها وهى فى سرير جدتها تستمع إلى حكاياتها وحواديتها ، وكانت كلتا المرأتين ، دودو وخديجة تحدثان زينب عن أبيها ، ولكن الكلام له تأثير مختلف فى نفسها ، إن خديجة تتحدث عن أب عظيم رهيب ، ليس أفضل وأقوى وأعظم منه فى هذه الدنيا ، وهو رجل متكبر ، كل الناس من حوله ضعفاء ، وهو من أصل رفيع ، فلم يحتمل معاشرة الفلاحين . حتى أولئك الذين كانوا فى رئاسة مجلس الوزراء وفى أيديهم السلطة والحكم ، كان يأنف منهم ويحتقرهم . وكانت لآبائه وأجداده ثروات طائلة كانوا يلعبون بالذهب ، ولم يتعودوا إلا على حياة الترف والعز وتستمع زينب إلى حديث الأم عن أبيها فتقلق وتثور فى نفسها أحزان غامضة ، فصورة أبيها ترهقها وكأنها تجثم فوق صدرها وهى تنظر إلى أمها فى ملابسها السوداء ، وشعرها الأشعث ويديها المتسختين ، وقدميها الحافيتين فلا تحتمل ما تسمعه عن الذهب والعز والحكام ، وتلجأ إلى جدتها لتسمع منها كلاماً آخر عن أبيها . وهى تخرج لها من صناديقها ملابسه وهو طفل صغير ، فتتحسسها وتتخيل أباها طفلاً أصغر منها تلاعبه وتحلم بأنها تتحدث إليه وتخرج معه فى رحلات بعيدة إلى أماكن مجهولة فيها راحة ودفء ولعب وحنان وأحياناً كانت تخرج لها جدتها صوراً قديمة ، لرجال لهم وجوه كبيرة وشوارب

ضخمة وعيون لها نظرات نافذة . ملابسهم غريبة ، مزركشة ، على صدورهم نياشين وأوسمة ، وعلى رءوسهم عمائم ضخمة ، أو أغطية من الفرو ، كانوا يحدقون فى وجه زينب ، فيخيل إليها أنهم يبتسمون لها ، وكانت ترى صوراً لنساء لهن وجوه مستديرة وعيون مشروطة شعرهن مقصوص ، وعلى صدورهن عقود وجواهر وكن يحدقن فى وجه زينب فيخيل إليها أنهن يبتسمن لها . وتحكى الجدة عن الأعمام والعمات والأجداد والجدات بصوت يفيض حناناً ، وكانت تتذكر لحظات فرح ، أيام الزواج ، وحكايات ولادة الأولاد والبنات ، وحكايات السفر والعودة أو السفر بلا عودة وزينب تسمع وقد نشط خيالها وملأها حيوية ودفئاً وكانت زينب تسأل جدتها فى حذر :

- هل كان الناس يخافون أبى ياجدتى ؟

فلا تفهم الجدة سر السؤال أو مغزاه . وتجيب حفيدتها باسمه :

- لماذا يخافون منه ، كان طيب القلب وكان كل الناس يحبونه .

وتقنع زينب بهذه الإجابة . وتتذكر ما تقوله أمها عن أبيها ، فتطرده من خاطرها كأنها تتخلص من شيء مخيف .

ولاحظ عم صالح وحدة زينب ، وأنها لا تجد أطفالا تلعب معهم ولا تتحدث إلا مع نفسها ، وأحياناً كانت تدخل عليه حجرته بالسطوح وتجلس على الدكة وتظل تحدق فيه أو تحدق فى لا شيء . فإذا ما حاول أن يكلمها أو يداعبها لم تستجب له ، فكان يتركها لشأنها فتظل قابعة مكانها ترقبه وهو يحوم حولها هنا وهناك . فإذا هبط إلى مكانه عند باب العمارة سارت خلفه ، وجلست بجواره أو تتفرج عليه وهو يرش أسفلت الرصيف أمام البيت بالماء . كانت زينب تجد فى عالم عم صالح حياة أخرى غير تلك الحياة القلقة الكئيبة التى تثيرها أمها ، وغير تلك الحياة الدافئة الحالمة التى تخرجها جدتها من صناديقها وكانت تطمئن إلى عم صالح وصوته القوى .. ونظراته الحنونة ، كما كانت تجد راحة غريبة عندما يتركها وشأنها بالقرب منه لا يكلمها ولا يطلب منها شيئاً وهى ترقب الشارع وكل ما فيه من مشاهد ، تكاد تتمنى

أن تقضى وقتها هكذا ولا تأتى لحظة يضطرونها فيها إلى دخول ذلك البيت الكئيب . وزادت صلة زينب بعم صالح عندما ذهبت إلى المدرسة القريبة من البيت ، فكان يأخذها كل صباح إلى باب المدرسة ، وكانت تبحث عنه وهى خارجة بعد انتهاء الدراسة ، فتجده واقفاً ما يكاد يراها حتى تلتمع عيناه بفرح وترحيب ، ويظل يحدثها وهما عائدان إلى البيت عن دراستها ، وعن صديقاتها فى المدرسة ومدرستها ، وهى تنظر إليه بابتسامة مطمئنة ولا تجيب : وهو واثق أنها تستمع إليه ، كما أنه واثق أنها لن تبادله الحديث حتى إذا وصلا إلى باب البيت التفتت إليه وعلى وجهها بشاشة ، ودخلت متباطئة ، ورأسها يتلفت إلى الوراء ، كأنها تقول لعم صالح خذنى معك ، ودعنى أجلس بجوارك بقية يومى أرقب الشارع .. وحدث ذات مرة أن جرت زينب ، وسبقت عم صالح فى طريقها إلى المدرسة ، وكانت تفعل هذا أحياناً لتؤكد له أو لنفسها أنها قادرة على أن تسير فى الطريق وحدها . وسار عم صالح وراءها بخطواته العادية يرقبها من بعيد . وفوجئت زينب بشاب طويل يهجم عليها ويمسك بخناقها ويزعق فيها والشر فى عينيه .

- يالصة .. هات محفظتى يانشالة .

ارتاعت زينب ، ولكنها وجدت نفسها تفكر بسرعة ، واختلست نظرة سريعة إلى صدرها فوجدت أن سلسلتها الذهبية قد اختفت ، وأيقنت أن هذا الشاب سرق سلسلتها ، وأنه لص . كان عقلها يعمل بسرعة غريبة ، وفى لحظة كانت قد قررت أن تعطل الشاب لأن عم صالح سوف يكون معها خلال ثوان ، وقالت زينب متظاهرة بالخوف ، بينما كان الخوف قد زال عنها تماماً ، فهى تتظاهر به لتصل إلى هدفها . قالت :

- سوف أعطيك كل نقودى .. واتركنى .

قال الشاب فى حده .. وقد رفع يده عن كتفها ليمدها حتى تضع فيها النقود وقد اطمأن تماماً إلى أنه ظفر بغنيمته .

- إنها نقودى .. أخرجيها وإلا أخذتك إلى القسم ..

وهنا رأت زينب عم صالح واقفاً معهما ، وجهه صارم .. وقبل أن يتبين الشاب وجود عم صالح كانت زينب قد امسكت به صارخة :

- أمسكه ياعم صالح .

وانقض صالح على الشاب منفذاً الأمر . بينما قالت زينب فى صوت قوى حاد :

- سرق منى سلسلتى الذهبية .. إنها معه . ابحث عنها فى جيبه .

اصفر وجه الشاب الذى ظن أن البنت الصغيرة لم تنتبه إلى شىء . وهاهى تفاجئه فى اللحظة المناسبة بعد أن وقع فى قبضة صالح ، الذى لم يتردد فى تنفيذ أوامر زينب فدس يده فى جيوبه حتى أخرج السلسلة ،وما كاد يراها هو والجمع الذى بدأ يلتف حولهم ،حتى انهالوا على الشاب بالصفع والركلات ، والشاب يحنى رأسه ويثنى جسمه ، حتى تكوم أمامهم على الأرض . ودار كلام حول تسليمه للبوليس ، أو الاكتفاء بضربه ، وارتفعت أصوات ممن يعرفون صالح يشيرون إلى زينب سائلين : أهذه بنت الأيوبى ..وقال صوت .. إنها تقف كالأسد .. وقال صوت إنها أخطأت بوضع سلسلة ذهبية حول رقبتها فى الطريق ..وكان الشاب قد رفع رأسه يبكى متوسلاً أن يتركوه ،كان وجهه نحيلاً صغيراً .. وكانت ملابسه ممزقة . وكان يقول إنه تلميذ يتيم فقير لا أهل له ..والتفت إلى زينب وهى واقفة ترقب من بعيد وقال صارخاً فى يأس :

- أنا جوعان ياست هانم ولى يومان لم أذق فيهما الطعام .. أحرام أن آكل رغيفاً .

وجعل يردد فى هوس .

- خذونى إلى السجن اقتلونى .

وجلس القرفصاء أمام الجمع ، وكان خيط من الدماء بدأ يسيل من جبهته . وارتفع صوت يقول فى تأثر :

- ارحموه يا ناس .. كفى ما تحمله من ضرب .. واتركوه لشأنه .

وسمعت زينب صوتا يقول لعم صالح :

ـ خذ البنت .. واذهب بها إلى المدرسة
وتحرك صالح نحوها مترددا فقالت له زينب :
ـ هيا بنا يا عم صالح .. حتى لا نتأخر عن المدرسة .

وقذف عم صالح الشاب بسباب .. وهو ما زال جالسا القرفصاء محنى الرأس ، يردد :

ـ اقتلونى .. اذهبوا بى إلى السجن .. أو اعطونى رغيف خبز .
وسمعت زينب صوتا يقول هازئا :
ـ السلسلة التى سرقتها .. كانت تجعلك تأكل خروفا لا رغيف خبز ..
وقال صوت :
ـ بنت الأيوبى من الأغنياء ، كان شارع المبتديان ملكا لهم .
وقال صوت :
ـ ولكنهم مجانين .. كلهم ماتوا مجانين .

سمعت زينب هذه الكلمات الأخيرة بعد أن تحركت مع عم صالح مبتعدة ، ولم تستطع أن تلتفت إلى الوراء ، واكتفت بأن نظرت إلى عم صالح فوجدته متجهم الوجه ، ولكنه ما كاد يراها تنظر اليه حتى ابتسم ، وقال لها :
ـ السلسلة معى .. سأعيدها إلى البيت .
قال عم صالح مترددا :
ـ الأفضل ألا يراها الأشرار .
قالت زينب فى حسم :
ـ هاتها .

وأخذتها منه ، وقبل أن تدخل المدرسة كانت قد أعادتها إلى مكانها حول رقبتها ، مدلاة على صدرها .

وقضت زينب يوما غير عادى فى المدرسة ، وجدت نفسها تتحدث مع زميلاتها وتحاول أن تلعب معهن وتعرفت على كثيرات ،وسمعتهن يتصايحن باسمها ، وسمعت نفسها تنادى بأسمائهن . وكأنها نسيت تماما ما حدث لها

فى الصباح .. وعندما دق ناقوس الانصراف ، تباطأت فى حوش المدرسة ، وهى التى كانت تسمع دقات الجرس فتسرع إلى الباب باحثة فى لهفة عن عم صالح .كانت كمن فقدت ذاكرتها ونسيت أن هناك من ينتظرها ، ونسيت أن لها بيتاً تعود له .حتى وجدت طفلة كانت تلعب معها وتعرفت بها فى ذلك اليوم ، تجرى إليها منادية ، وقالت الطفلة لزينب إن خادمتها تنتظرها عند بوابة المدرسة ، ومشت زينب فهى لا تتذكر أن لها خادمة ، ووقفت ذاهلة ، والبنت تصيح فيها ، إن الخادمة قلقة وتلح فى أن تذهب إليها فى الحال ، ومشت زينب كالمنومة ، وكانت خائفة ، لا تدرى ما الذى ينتظرها ، ولكنه لابد أن يكون شيئاً غريباً غير متوقع ، حتى وصلت إلى الباب ، فرأت أمها ، وشعرت زينب برجفة غضب ، وتقدمت نحو أمها التى أسرعت إليها ملهوفة جزعة ، تريد أن تحتضنها ، وما كادت يدا الأم تلمسان زينب ، حتى انتفضت وأدارات ظهرها لأمها وعادت تجرى فى حوش المدرسة ، غير مكترثة بصيحات الأم ، ولم تتوقف زينب عن الجرى حتى وجدت الطفلة التى كلمتها ، فأمسكت بها ، وقالت لها لاهثة :

ـ هذه ليست خادمتى إنها أمى .

ورأت زينب الدهشة فى عينى الطفلة ، وابتسامة ترتسم على شفتيها ، وعادت زينب تجرى إلى أمها وسارت معها إلى البيت ..وهى تسمع حديثها عن جزعها مما رواه لها عم صالح ،كانت تسمع ولا تسمع وترفض أن تجيب أمها بكلمة حتى دخلتا البيت .. وفى المطبخ قالت زينب لأمها فى غضب :

ـ لن أذهب إلى المدرسة .

وانفجرت فى البكاء .

سألتها أمها فى خوف :

ـ لماذا تبكين .. أتخفين عنى شيئاً .. أفعل ذلك الشاب شيئاً آخر غير الذى قاله عم صالح ؟؟.

قالت زينب فى حدة :

- لماذا جئت إلى المدرسة .. قالوا عنك إنك خادمة .

قالت خديجة فى بساطة قاسية :

- ولكنى خادمتك حقاً .

فصاحت زينب بصوت يخنقه الغضب والعبرات :

- لست خادمتى .. أنت أمى .

قالت خديجة ، وهى تنظر إليها فى ريبة ، غير مصدقة أن هذا هو سر غضب ابنتها وبكائها .

- قولى لهم إنى لست أمك .. لا يهمنى أن تقولى هذا .. وعندما تكبرين لن أقول لأحد إنى أمك ، حتى لا أخجلك .. أنا لا أعيش إلا لأراك سيدة عظيمة تسكنين السرايات والقصور .. ولا أطلب من الدنيا شيئاً إلا أن أكون خادمتك حيث تكونين . أنا حياتى قد انتهت بموت أبيك وليست لى الآن حياة أعيشها إلا لخدمتك .

واضطربت زينب ، وسيطر عليها شعور صارم برفض ما تسمعه من أمها ، ولم تستطع أن تسيطر على مشاعرها ، فاندفعت خارجة من المطبخ وجرت إلى جدتها وارتمت بجوارها فى السرير وبكت وحاولت دودو هانم أن تعرف منها سر بكائها . وجعلت تمسح على رأسها . كانت زينب حائرة أمام هذه المشاعر المتناقضة التى تجتاحها .. وفجأة سألت جدتها :

- هل كان أبى مجنوناً ياجدتى ..

قالت لها الجدة ضاحكة :

- أبوك وأعمامك وأجدادك وكل الأيوبيين كانوا مجانين .. لو كانوا عقلاء لما تركونى هنا وحدى مع أمك الفلاحة .. التى تعذبك وتعذبنى .. كاظم زوجى أضاع كل ما معه من ذهب وأرض .. ولم يبق إلا هذه الصناديق وكل يوم تأتى أمك وتبيع لى قرطاً أو خاتماً مما كنت أريد أن أتركه لك .. وابنى مدحت مات من الحسرة على كل ما ضاع .

وسكتت الجدة فجأة ، لا تريد أن تواصل الحديث ، فقالت لها زينب فى قلق :

- إن أمى تقول إن أبى كان أعظم الناس .

قالت جدتها بسرعة وهى تحتضنها :

- نعم ياابنتى .

ثم قالت الجدة وهى تربت على ظهرها :

- أنا غاضبة لأنك تبكين ولا أحتمل بكاءك .

قالت زينب وهى تمسك بسلسلتها :

- اليوم هجم على لص واختطف سلسلتى .

قالت الجدة فى ذعر :

- كيف .. ماذا حدث ؟

قالت زينب :

- ضربه عم صالح وأخرج السلسلة من جيبه .. وقال اللص إنه فقير يريد رغيف خبز .

صاحت دودو هانم فى شراسة .. منادية خديجة وما كادت تدخل عليها ، حتى صرخت فيها :

- كيف تتركين البنت فى الشارع للصوص ؟!

قالت خديجة بصوت قوى تدفع الاتهام الموجه إليها :

- لقد ذهبت بنفسى إلى المدرسة لأكون معها عند عودتها .

هتفت الجدة فى ألم :

- أهكذا تتركنى ياكاظم أهكذا تتركنى يامدحت وتترك ابنتك وحدها للصوص .

وتحولت الجدة إلى جسد خائف مرتجف . وفزعت زينب ، وقد أصبحت عاجزة تماماً عن فهم حقيقة ما يدور حولها ، أو ما يقولونه لها ، وزاد إحساسها بالوحدة والتعاسة فى ذلك البيت ، ورآها عم صالح أكثر من مرة

تدخل عليه حجرته وقد دمعت عيناها ، ولا فائدة من أن تبوح له بسر دموعها . وكانت تذكر وجه الشاب الذى هجم عليها فى الطريق ، وترى يده الممتدة إلى صدرها ، وتسمع صوته يتهمها بأنها لصة ، وكانت تسمع ذلك الصوت الذى يقول .. كلهم ماتوا مجانين .. وتسمع صوت أمها تقول عن أبيها إنه العظيم .. وإنه سيد أسيادهم .. وتذكر الوجوه فى تلك الصور التى تخرجها جدتها من صندوقها . وتسمع صوت جدتها وهى تقول إن أباها مات من الحسرة على ما ضاع وتشعر بأن الدنيا من حولها غريبة غامضة تخفى قسوة وظلماً لا معنى لهما .. وكانت تحدق فى وجه عم صالح ، وكأنه الرجل الوحيد فى هذه الدنيا القادر على حمايتها .



الروح والجسد

جاء يوم أعلنت فيه خديجة أنها سوف تنادى أم إسماعيل لتقوم بعملية ختان لزينب ، وسمعت دودو هانم بالخبر فاحتجت معترضة على ما تصورته جريمة ترتكبها خديجة فى جسد زينب ، وكانت دودو هانم تبذل جهداً خارقاً لتحاول النهوض من سريرها ، كأنها لو استطاعت أن تنتصر على الشلل الذى يسرى فى جسدها ، ستكون قادرة على حماية زينب من أم إسماعيل . ولكنها كانت تعجز عن النهوض ، فتغضب وتصيح :

- يا فلاحين ياولاد الكلب .. إن واحدة من عائلة الأيوبى لم يلحق بجسدها مثل هذه الإهانة .

وشهدت زينب صراعاً مريراً بين جدتها وأمها ، فالجدة تهاجم الأم وتتهمها بالجهل والتأخر . والأم مصممة فى عناد أن تقوم أم إسماعيل بمهمتها ، وأدركت زينب أنه لابد أن يكون شيئاً خطيراً ذلك الذى تقاومه جدتها وهى يائسة مشلولة فى سريرها . فخافت . وبلغ خوفها ذروته عندما دخلت البيت أم إسماعيل بملابسها السوداء ووجهها الأسمر القاسى ، وعينيها القويتين .

وجرت زينب إلى حجرة جدتها باكية . وجاءت وراءها خديجة . فإذا بدودو هانم تبتسم .. وتتوسل إليها أن تمنع أم إسماعيل من أداء مهمتها . قالت دودو هانم لخديجة . إنها فى حماها ، وإنها أم مدحت .. فلترحمها ولترحم ابنة مدحت .. فقالت خديجة فى حزم إنها تفعل ما هو فى صالح البنت ، وجذبت زينب التى انهارت مستسلمة لأمها ووجدت نفسها تجلس القرفصاء أمام أم إسماعيل . وعندما دخلت زينب على جدتها بعد أن أتمت أم إسماعيل عملية الختان بيوم كانت تمشى وقد انفرجت ساقاها وكانت أمها هى التى أصرت على أن تأخذها إلى جدتها ، أما زينب فكانت لاتريد أن تراها ، وقد انتابتها مشاعر مضطربة نحو هذه المرأة المشلولة التى لم تستطع أن تنقذها مما جرى لها . فهى غاضبة منها .. وهى فى نفس الوقت لا تريد أن تدخل عليها لتواجهها بهزيمتها بعد أن حدث الذى حدث رغم أنفها .. وكأن ذلك الذى قطعته أم إسماعيل من جسد زينب قد فصلها عن جدتها .

كانت هذه المشاعر واضحة فى نفس زينب ، ولكنها تفور داخلها غامضة مضطربة ، ولما رأت دودو هانم زينب منفرجة الساقين منكسة الرأس طلبت منها أن تتقدم إليها ، ولكن زينب وقفت حائرة . وضحكت خديجة وقالت إنها مكسوفة ، وكان السرور يلمع فى عينى خديجة التى حاولت أن تنقل سرورها إلى حماتها . فجعلت تقول لها إنها الخير والبركة فى البيت ، وأنها لم تفعل ما فعلت إلا ليقينها أن أنوثة زينب لن تكتمل إلا بالختان .. وهى لن تتزوج تركياً . إن زوجها سيكون مصرياً . وهو لن يرضى بزوجة بغير ختان . وجعلت خديجة تثرثر بحكايات عن رجال اكتشفوا أن زوجاتهن بغير ختان ، فكانوا يطلقونهن ، أوكما حدث لحكمت الألفى وهى من عائلة تركية تسكن فى المنيرة فقد صمم زوجها على أن تجرى لها أم إسماعيل عملية الختان . وهى عروس جاوزت العشرين . فنزف منها دم غزير . وكادت أن تموت .

وهزت دودو هانم رأسها مستسلمة لكلام خديجة وقالت وهى تتنهد إن زمن الرجال الذين كانوا رجالاً قد مضى . ولم يبق إلا الفلاحون .

ومنذ ذلك الوقت ، بدأت زينب تتنبه إلى أن أمها تعدها لشيء ما له صلة بالرجال .. ولم تعرف كنه هذا الشيء . ولكنها حدست أنه يتصل بتلك المنطقة من جسدها التى اقتطعت منها أم إسماعيل قطعة من اللحم . وكانت خديجة تتولى تنظيف جسد دودو هانم أمام زينب . التى كانت ترقب المشهد وهى تفحص جسد جدتها . وتتأمل هذا الاختلاف عن جسد أمها كما تعرفه عندما تدخل معها الحمام ، وكانت خديجة تقول لزينب وهما تستحمان معاً :

ـ انظرى .. إننا نختلف عن جدتك .. فأنا أيضاً أجروا لى عملية ختان . وهذا شيء قد توارثناه ولا نستطيع أن نتخلى عنه .. ولو كنت تركتك مثل جدتك لقالوا إن بنت خديجة ليست نظيفة ، إن هذا الذي ترينه عند جدتك يجلب لها القذارة وهو يجعل رائحة المرأة كريهة ينفر منها الرجال . إن الرجال فى بلدنا يريدون المرأة هكذا ، مثلى ومثلك .. وهم لا يحبون المرأة بلا ختان .. لأن هذا الذى قطعته أم إسماعيل هو لحم شرير فاسد . وقد تركه الشيطان فى جسد المرأة . فلابد أن تتخلص منه .

وكانت زينب تستمع إلى كلامها وهى تسأل نفسها ، ولماذا رضى جدى أبو والدى بزوجته هكذا . ولماذا تركت هى لحم الشيطان فى جسدها ، ولماذا لا أجد رائحتها كريهة . بل هى دائماً معطرة ونظيفة . بينما الرائحة الكريهة تنبعث منك أنت . فعندما تنامين بجوارى فى السرير تزكم أنفى رائحة البصل فى يديك وجلدك . ورائحة العرق تفوح منك .. إن جدتى تحب الألوان الزاهية .. وتحتفظ بالأشياء الجميلة فى صناديقها . وأنت تكرهين الألوان الزاهية . ولا تحبين إلا اللون الأسود ، فكيف أصدقك .

وتحتفظ زينب بتساؤلاتها .. وترقب أمها وهى تقذف الماء بين فخديها وتدفع بيدها إلى الداخل فيخيل لزينب أن أمها تفعل شيئاً عجيباً خارقاً . فتقلق .. وتتوزع الصور فى مخيلتها بين جسد أمها العارى وجسد جدتها العارى .. حتى تجد نفسها وحدها فى الحمام وقد أغلقت على نفسها الباب تتعرى وتتفرج على جسدها .. وتظل تنظر فى تفاصيله حتى يصيبها دوار .

وكرهت ما سمعته من أمها ، ولكنها لا تستطيع أن تكره أمها ، فهى لا تحتمى الآن بأحد غيرها فى هذا البيت ، إن جدتها تزداد ضعفاً ووهناً ، ومنذ حادث الختان ، وهى تجد نفسها قلقة .. غير مستريحة ، عندما تجلس إلى جدتها . فقدت هذا الاطمئنان الذى كانت تشعر به وهى معها . إن جدتها نفسها غير مطمئنة . وأصبح غضبها أقل من استسلامها ومهادنتها لأمها أكبر من شجارها معها . فما من سبيل أمام زينب الآن إلا أن تخضع لمشيئة الأم رغم أنها تكره هذه المشيئة .

بلغت زينب مرحلة المراهقة وقد أصبحت فتاة حادة الطباع عصبية المزاج .. وكانت تسمعهم فى بيت الحاج رمضان يرددون إنها مثل أبيها . وسمعتهم يقولون فى مناسبات عديدة إنها مشكلة عويصة ، وأن تربيتها تحتاج إلى مصاريف ، وأن مرض دودو هانم التى لا تريد أن تموت وقد كادت أن تبلغ المائة ، يحتاج إلى مصاريف ، وكان لا ينعقد مجلس فيه خديجة ، إلا ويدور حديث عن أهمية زواج زينب بسرعة ، وكانت تسمعهم زينب فيخيل إليها أنهم يتمنون زواجها ، كما يتمنون موت جدتها .. فهاتان هما المشكلتان ، ولا مشكلة ثالثة لهما . وذات ليلة كانوا يجلسون فى بيت الحاج رمضان ، وزينب تستمع إليهم صامتة حزينة ، وكأن لا شأن لها بما يروونه من حكايات وما يثيرونه من ضحكات ، وقالت لها أمها :

- اذهبى يا زينب إلى البيت وطلى على جدتك .. واعطيها الدواء .

نهضت زينب متباطئة ، وذهبت إلى البيت ، وسارت إلى حجرة جدتها كالمنومة ، لقد كانت هذه الحجرة هى ملاذها فيما مضى .. فتحولت الآن ، إلى حجرة الجسد المهزوم ، وسط الصناديق المزركشة ، والوسائد الملونة .. كانت حجرة الحكايات والأساطير فأصبحت الآن حجرة الصمت .. والنظرات المتوسلة ، والأنفاس اللاهثة التى تخرج من صدر جدتها هاربة مذعورة من الجسد المهزوم . وفتحت زينب باب الحجرة .. فوجدت النور مضاء ، وجدتها راقدة تحدق فى اتجاه المصباح فى سقف الحجرة .

وهمست زينب :

- جدتى .. الدواء ياجدتى ..

كان جسد دودو هانم بلا حراك وعيناها تحدقان فى جمود وجحوظ ..

ورفعت زينب صوتها فى قلق :

- الدواء ياجدتى ..

كان وجه الجدة مصفراً وصدرها صامتاً ، وما زالت تحدق فى المصباح المضىء فى سقف الحجرة كأنها مصممة على أن تظل تنظر إليه إلى الأبد .

وانتاب زينب فزع مفاجىء وكأن عفريتاً أو شيطاناً يحوم حولها فى الحجرة ، فجرت لاهثة ، حتى اصطدمت بعم صالح فى الشارع ، وقالت له وقد انقطعت أنفاسها :

- جدتى .. جدتى ياعم صالح ..

سأل الرجل فى جزع :

- ما الخبر ؟! .

قالت زينب فى ألم :

- إنها لا ترد علىّ .

قال صالح فى اهتمام :

- متى ؟

قالت زينب ، وقد تأكد فزعها وهى ترى الاهتمام فى وجه عم صالح :

- الآن .

وذهب معها عم صالح ، ودخل حجرة دودو هانم بعد أن طرق الباب ، وسعل مستئذناً . وما كاد يراها حتى امتقع وجهه ، وأمسك بزينب وقال وهو يجذبها من يدها خارجاً من الحجرة ، ومن البيت :

- تعالى معى .

صرخت زينب :

- ماذا حدث لجدتى يا عم صالح ؟ .

لم يجبها ، واستمر يجذبها ، حتى صعدا إلى مسكن الحاج رمضان ..

وسمعته زينب يقول لخالها عند الباب :

- البقية فى حياتك .. الست الكبيرة تعيش انت ..

لم تفهم زينب ، أو لعلها خشيت أن تفهم ما كانت تفهمه وتستره بصرخاتها . وأسئلتها الملهوفة . ودخلت الحجرة وراء خالها ، وكانت أمها تتحدث .. فقطعت حديثها عندما ارتفع صوت الحاج رمضان يقول :

- عم صالح جاء يقول إن دودو هانم تعيشوا انتم .

هتفت خديجة بصوت قوى جرىء :

- ماتت ؟..

لم تسمع زينب غير هذه الكلمة .. الآن فهمت الإجابة على أسئلتها ..

الآن انزاح القناع الذى كانت تخفى به مخاوفها . قالت خديجة فى وضوح لا لبس فيه . كان صوتها حاسماً .. ماتت .. لقد ظلت زينب لسنوات طويلة تختزن هذه اللحظة بكل قسوتها وحيويتها . كان وجه أمها يقفز فى رأسها يصرخ فى قسوة كأنها قسوة انتصار ، ماتت .

وتركتهم زينب يتدافعون خارجين من الحجرة ، ومشت وحدها حتى وجدت نفسها تقف فى الشارع أمام البيت غير مكترثة بالظلام الذى كانت تحدق فيه وهى تفكر فى أن تذهب وحدها فى هذا الظلام .. ولا تعود مبتعدة عن هذا البيت الكئيب .

وعندما أطلقوا الصرخات وهم يحملون جسد جدتها داخل النعش خارجين من البيت ، كانت زينب تحدث نفسها ، إن جدتها أخطأت بتركها البيت كما أخطأ أبوها من قبل .. فلابد أنه خرج هكذا مثلما تخرج جدتها الآن . ولابد أنهم مشوا به فى هذا الطريق كما يمشون الآن . وذهبوا به إلى هناك ، حيث لم تذهب أبداً .. ووجدت صورة ذلك الشاب الذى انتزع منها السلسلة الذهبية فى الشارع تقفز إلى رأسها . ورأته مكوماً على الأرض . ثم يرفع وجهه باكياً ويقول إنه يتيم ، وخيل إليها أن الحياة كلها مقبضة ، وأن آخر ما فيها من

بهجة ، قد حمله ذلك النعش ومضى به ، وأنهم منذ الآن سوف يتركونها للون الأسود ، وللكآبة . ولذلك الخطر الذى يتحدثون عنه وهو زواجها . فقد ماتت الجدة ولم يبق إلا زواجها . كانت دوامة الأفكار تعتصرها ، فتلوم الموتى على موتهم ، وكانت تسمعهم يرددون .. « لا إله إلا الله .. لا دايم إلا الله .. إنا لله وإنا إليه راجعون » فتخاف من كلمة الله . تسمعها فكأن مطرقة تحطم قلبها ، ويخيل إليها أنهم يذكرون هذه الكلمة ليؤكدوا لها أن قوة جبارة تطبق

عليها . وأن هذه القوة تنتزع الناس من بيوتهم . تنتزع الآباء والجدات من أولادهم وأحفادهم . وتلقى بهم فى التراب وفكرت فى أن تغضب من هذه القوة الرهيبة ، ولكنها لم تجسر على أن تشعر بالغضب الذى ظل مجرد خاطر فى رأسها . لقد هجم عليها الذعر وشل قدرتها على الغضب ، من هذا الجبار الذى دبر كل ما حدث وحرمها من أبيها ومن جدتها وتركها لمخاوف أكبر من أن تحتملها .. وتضخم الخوف فى قلبها فلم تعد تحتمله ، وتحولت إلى جسد أصم ، يذكر الله ، فكأنه يذكر شيئاً لا معنى له . وكانت تجلس وحدها فى الظلام فتخاف أن تضيء مصباح الحجرة كأن ضوء المصباح سوف يجذبها إلى الموت ، ويجعلها تحدق فيه بعينيها كما رأت عينى جدتها تحدقان فيه ، وخافت من الظلام . وخافت من النور ولم تجد لها خلاصاً من الخوف . ولكنها وجدت لحظات تتجاهل فيها الخوف ، فتؤكد لنفسها أن المسئول عن الموت ، هو الذى يموت ، إن أباها مسئول عن موته وهو الذى تخلى عنها . وجدتها التى لحقت به .. هى المسئولة عن موتها وهى التى تخلت عنها . لماذا تتركينى ياجدتى ؟ أنت إنسانة ضعيفة ، مثل أبى ، لا خير فيكما ، تتركانى وحدى مع أمى ، هى وحدها التى لم تتخل عنى ولسوف أخضع لها ، فهى كل ما بقى لى وهكذا استسلمت زينب لأمها ، لتتجاهل المخاوف التى تنهشها : مخاوفها من الظلام ومخاوفها من النور . ورأت أمها تفتح صناديق جدتها وتفتشها ، وتجمع ما تبقى بها من حلى ، وذكرت كلام جدتها ، وهى تقول لأمها إن هذه الصناديق لزينب بعد موتى ، ولكن ما قيمة هذه الصناديق بعد موتك

ياجدتى ، هاهى أمى تنبشها . وتخرج ما فيها من ملابس وشرائط ملونة . وهاهى صور أولئك الرجال ذوى الشوارب والنياشين والعيون النفاذة .. وتلك النساء بعيونهن المشروطة وجواهرهن على الصدور .. إنهم جميعاً أوراق ملقاة مبعثرة على أرض الحجرة تدوسها أقدام أمى وهى تروح وتجىء . فهل صحيح أن جدتى قالت لأمى لا تقربى هذه الصناديق وأنها لزينب وحدها . لو كان هذا صحيحاً لما فعلت أمى ما فعلته . إن جدتى لم تقل شيئاً ، والصحيح أن جدتى كانت مجرد حكاية أو أسطورة من تلك الحكايات والأساطير التى كنت أستمع إليها وأنا طفلة صغيرة .

كان هذا الاستسلام الذى ارتضته زينب لنفسها ، يخنقها ، ولكن لا مهرب منه فهى بغير الاستسلام سوف تواجه الخوف والفزع .. لقد ماتت الفرحة والبهجة ، وهى لا تستطيع أن تفكر فى الخلاص ، فماذا تفعل لو أنها لم تستسلم لما تريده لها أمها ، إن الموت الذى رأته وجها لوجه فى عينى جدتها وهما تحدقان فى المصباح فى سقف الحجرة قد جعل كل شىء قالته جدتها عن نفسها ، وعن أبيها ، وكأن لا أهمية له ، لقد ضاع ومات ، أو على الأصح كان وهما وانكشف عنه القناع .

ووجدت خديجة وقد تخلصت أخيراً من دودو هانم .. أن لديها كل الوقت الآن لتحقق مشروع حياتها الكبير ، وهو مشروع زينب الأيوبى البنت الباهرة الجمال التى تؤكد قسمات وجهها كما يؤكد قوامها ، أنها جاءت من دنيا أخرى وأنها تنتمى إلى أروع ينابيع الجمال .. وأنها سليلة مجد وحفيدة حكام . وأنها الكنز الذى تجد فيه خديجة كل ما تشتهيه وتتمناه . إنها تستطيع الآن أن تستثمر هذا الكنز . وتطلق به رغباتها بل ونزواتها المكبوتة .

فإذا كانت الحياة بالنسبة لها خضوعاً واستسلاماً وقبولاً بالقسمة والنصيب فإن الحياة بالنسبة لزينب سوف تكون طلباً للثروة ولتحقيق الجاه والعز . وإذا كان جسد خديجة كان محروماً من الإحساس بمتعة الرجل ، فإن جسد زينب سوف يكون أمنية يحلم بها أى رجل . هكذا كانت تردد خديجة فى

حكاياتها وقد تحولت بدعايتها إلى الحديث عن جمال زينب وفتنتها وسحرها ، ولهفة العيون عليها . كانت تتحدث وكأنها هى التى تشعر بالمتعة . وهى التى تحظى بآيات الإعجاب . وأصبحت حكايات خديجة عن المرحوم مدحت بك وأمه التركية مجرد مقدمات للحديث عن جمال زينب الأسطورى . وكانت زينب المستسلمة لأمها تشعر بفرحة ، وتشعر أحياناً بالانبهار ، عندما تصف أمها جمالها وتتحدث عنه وتتغزل فيه . فتمتلىء حماساً وحيوية . ولكن سرعان ما ينطفىء هذا الحماس ، وتخبو حيويتها . وينتابها القلق ، وتنهشها المخاوف الغامضة ، بل كانت تنفر أحياناً من كلمة جميلة . تسمعها فى اكتئاب ، وكأنها تهمة توجه إليها وتعزلها عما حولها . وتدفعها إلى الإحساس بأنها مخلوقة غريبة قادمة من دنيا أخرى غير هذه الدنيا التى يعيش فيها البشر .. وأنها تنتمى إلى آخرين ماتوا أو ضاعوا أو كانوا وهماً من الأوهام ..

أما هؤلاء الذين يحيطون بها فهم يتفرجون عليها ، وهى تقف على مبعدة منهم ، يحاصرونها ويصوبون إليها نظراتهم ، ويقذفونها بكلماتهم . وعليها أن تؤدى لهم دوراً تفرضه عليها أمها . إنها تستسلم لدعاية الأم لجمالها ، ولكنها فى نفس الوقت تشعر أنها مطالبة دائماً وفى كل لحظة أن تبدو جميلة ، وأن تبدو رائعة ، وأن تبدو باهرة ، فهكذا تدفعها كلمات الأم فى طريق محموم من التظاهر والاستعراض وهى لا تجد لحظة راحة ، ولا تجد فرصة لأن تخلو فيها لنفسها ، إنها دائماً محط الأنظار ، دائماً موضوع الحديث .. تلاحقها الكلمات التى تفيض كشلال من الانفعالات من جسد الأم .. انفعالات كانت مكبوتة . وخيالات جامحة كانت محبوسة ، تفجرها الأم من خلال حديثها عن زينب ، فتبهر بها زينب أحياناً وتنفر أو تكتئب أحياناً . ولكنها وجدت بين صديقاتها فى المدرسة مخرجاً لهذه المشاعر المتناقضة ، لقد أصبحت لها شلتها الخاصة ، وهى لا تدرى كيف جمعتهن من حولها ، ولكنها بينهن أجمل بنات المدرسة .

إن هذه البنت الصامتة الحزينة فى بيتها ، ما تكاد تدخل فناء المدرسة

حتى تتحول إلى شخصية أخرى ، ملكة لها رعايا ، سبع أو عشر بنات يمشين معها ، ومن حولها ، وهى بينهن متألقة بجذوة غير عادية من النشاط وحيوية الذهن . إنها تخطط وتدبر لهن كيف يعاكسن أبلة نفيسة مدرسة التدبير ، أو كيف يهربن من حصة العربى ، أو كيف يدخلن قاعة الرسم ويحولنها إلى مرقص ، وتقف زينب على منضدة الرسم وترقص لهن . وكانت زينب تحتفظ بعلاقاتها بصديقاتها وكأنها سر نفسى لا تبوح به لأحد . ولكنها كانت فى نفس الوقت تشعر بأن من واجبها أن تؤدى فريضة هذه الزعامة بتصرف باهر مثير تقدم عليه بين وقت وآخر . يوما ما رفضت أن ترسم خريطة أوروبا وجلست تنظر إلى مدرسة الجغرافيا نظرات متحدية . وسألتها المدرسة لماذا لا ترسمين الخريطة يازينب . فقالت لها فى هدوء ولماذا أرسمها . وأخرجتها المدرسة من الفصل عقابا لها على إجابتها الوقحة . ولكن زينب تحولت فى نظر الفتيات إلى بطلة لها جرأة غير عادية . وكانت تأتى أحياناً إلى المدرسة وقد وضعت على خديها شيئاً خفيفاً من البودرة والأحمر ، وتنبهت ناظرة المدرسة إلى ما تفعله زينب ، فكانت تناديها فى طابور الصباح وتقرصها من خدها ، فإذا وجدت الأحمر فى أصابعها أمرتها أن تغسل وجهها وعاقبتها بالوقوف أمام باب مكتبها أثناء الفسحة ، فترى البنات أنها شهيدة . وكثيراً ما كانت تناديها الناظرة وتقرصها فى خدها فلا تجد الأحمر فتصرفها . وهنا تثور البنات لهذا الظلم الذى يقع على زينب ، ويجعل الناظرة تطاردها وتضطهدها لمجرد أنها جميلة . وجاء يوم دخلت فيه زينب المدرسة واختفت مع شلتها ، وأخرجت من حقيبتها أدوات ماكياج وعقداً من اللؤلؤ كان لجدتها ، وتزينت وتجملت ، ومشت فى فناء المدرسة والبنات مبهورات بجمالها ، كان هذا الجمال بالنسبة لهن ، قدرة على التصرف ، وثورة على القيود الظالمة ، وحلماً بالنضج والحرية والحب والحياة العريضة الباهرة ، وسرى ضجيج بين البنات . والتفت المدرسة بأسرها حول الجميلة أو الجريئة أو البطلة الثائرة لتحقيق الأحلام والرغبات . ولم تمض دقائق حتى كانت الناظرة تقتحم

أجساد البنات لتصل إلى زينب بؤرة الحشد ومركزه ، وسحبتها الناظرة من يدها ، فمشت معها وسط البنات كالشهيدة التى تتحمل العذاب من أجلهن ، وتحارب الظلم والعنف لتمنحهن لحظات من الفرح والشعور بالجرأة ، وانهمرت دموع بعضِ البنات ، وتصايحن محتجات على الظلم ، غاضبات من تلك القسوة التى تفتك بأحلامهن ، رافضات لتلك الأوضاع التى تحرمهن من التنزه والتجوال . ودخلت زينب مكتب الناظرة ومشاعر التحدى تجيش فى صدرها ، إنها الآن أكبر وأهم من كل كلام سوف تقوله الناظرة . إنها تحقق ذاتها ، وهى جديرة بهذه الضجة ، وكل هذا الاهتمام الذى يحيط بها .

وسمعت الناظرة تقول لها :

ـ اخلعى هذا العقد .

قالت زينب فى تحد :

ـ لماذا أخلعه .

قالت الناظرة فى حسم :

ـ ستخلعينه فى الحال .

نظرت إليها زينب فى جمود وقد طارت من رأسها كل الأفكار وتخلت عن لسانها كل الكلمات ، وكأنها فى موقف أصم لا معنى له .. وظلت الناظرة تحدق فى وجه زينب برهة ثم جلست إلى مكتبها وأمسكت بقلم وسألتها وهى تستعد للكتابة .

ـ ما اسمك .. بالكامل ..

أجابت زينب بصوت آلى :

ـ زينب هانم مدحت كاظم الأيوبى .

ـ وما اسم والدك .

ـ مدحت كاظم الأيوبى .

كانت الناظرة تكتب ، وزينب تشعر بأنفاسها تضيق ، وطنين فى أذنيها ، وفكرت فى أن تجرى هاربة من الحجرة ، ولكنها عجزت عن الحركة ، وفارقها

تماماً ذلك الشعور بالأهمية الذى كان يملأها منذ لحظات ، وتمنت لو أنها أغمضت عينيها وفتحتها فوجدت نفسها مختفية عن الأنظار .. ولكن صوت الناظرة كان يسألها فى إلحاح :

- ما عمل والدك ؟!

قالت زينب بنفس الصوت الآلى :

- متوفى ..

وجاء صوت الناظرة من بعيد :

- ومن هو ولى أمرك ..

- خالى ..

- ما اسمه ..

- رمضان السبع .

- وما عمله ..

- مقاول ..

كانت الكلمات تخرج منها صماء جافة ، تصاحبها صور حادة لأمها ولخالها .. صور تكاد تمزقها . وكانت الناظرة مستمرة فى الكتابة .. وضغطت على جرس .. فدخل سكرتير المدرسة .. وناولته الناظرة الورقة ، وهى تقول له :

- هذه البنت مفصولة من المدرسة لمدة أسبوع .. وتعود ومعها ولى أمرها .

ومدت يدها عبر المكتب الذى تجلس عليه .. وقالت :

- والآن اعطنى هذا العقد .

فى هذه اللحظة كانت زينب زعيمة الشلة قد اختفت من الحجرة ، ولم تعد تدرى ما هى وماذا تكون ، كانت تشعر بعزلة موحشة ، بلا حماية ولا طمأنينة ولا صديقات ولا بيت . وكأنها سوف تخرج من المدرسة فلا تجد مكاناً تذهب إليه ، ومع ذلك كانت تشعر أيضاً بأن كل هذا الذى يحدث لا أهمية له ، ولا صلة له بوجودها ، وخلعت زينب العقد وناولته للناظرة التى قالت لها :

- سأعطيه لولى أمرك عندما يجىء .. والآن اخرجى .

وتحركت زينب نحو الباب .. وقبل أن تعبره ، سمعت صوت الناظرة يناديها فوقفت وسمعتها تطلب منها أن تجلس ، فجلست وسمعتها تسألها :

مالك ؟ ..

رفعت زينب عينيها فالتقت بعيني الناظرة .. ورغم الابتسامة الخفيفة المرتسمة الآن على وجه الناظرة ورغم سؤالها بصوت هادىء حنون إلا أن زينب كانت تراها امرأة غريبة عنها ، لا صلة لها بها ، وتريد أن تقحم نفسها عليها ، ولم تجب زينب على سؤال الناظرة التى كانت تقول :

- يجب أن تعلمى أن كل ما أفعله لمصلحتك .

وأمسكت الناظرة بالعقد .. وقالت محاولة التودد لزينب .

- هذا عقد جميل .. ولكن لا يصح أن تأتى به إلى المدرسة .

هتفت زينب فجأة :

- لا شأن لأحد بى .

قالت الناظرة فى هدوء :

- أنت مشكلة .. وأريد أن أتحدث مع خالك بشأنك .. أم لعلك تريدين أن أتحدث مع والدتك .

وفزعت زينب . أمها التى قالت عنها طفلة فى الروضة إنها خادمة لن تأتى إلى هذا المكان .

وعادت زينب تقول فى عصبية :

- لا شأن لأحد بى .

ونظرت إليها الناظرة فى دهشة لا تخلو من قلق وصرفتها . ولما عادت زينب إلى البيت لم تقل شيئاً عما حدث . حتى جاء الليل فقالت لأمها إنها لن تذهب إلى المدرسة فى الصباح ، وسألتها أمها عن السبب فقالت لها زينب فى وجوم ، إنها مفصولة لمدة أسبوع . وأن الناظرة أرسلت خطاباً لخالها ، وجاء الحاج رمضان من المدرسة ليروى لخديجة ما حدث ، وليفاجئها بعقد اللؤلؤ يخرجه

من جيبه قائلاً :

ـ بنتك هذه مجنونة مثل أبيها .

فإذا بزينب تصرخ فيه :

ـ أبي ليس مجنوناً ، وأنت قليل الأدب لأن الذى يشتم أبى يجب أن أربيه .

كانت تصرخ فى عصبية ، وبصوت حاد مفعم بيقين مطلق بصدق كلماتها ، وارتبك الأب ونظر إلى شقيقه مستنجداً ، الذى قام أماما البنت ففزعت وخافت وارتج عليها ، وقال الحاج رمضان رافعاً صوته فى غضب .

ـ هذا هو الذى جلب النحس والنكد على أبيك وجدك .. مثل هذا الخلق الأخرق الذى أفسد عليهم حياتهم وصلاتهم بالناس . كلامكم كالرصاص ينفر خلق الله منكم ، ويجعلنى أعانى من تحصيل حقكم من أرضكم .. أقول لهم هذا مال أرملة وبنت يتيمة .. ما ذنبهما .. ولكنهم لا يعرفون أرملة ولا يتيمة .. كل ما يذكرونه غطرسة الذين ماتوا .. وأنهم أولى بالأرض منهم ومن عيالهم .. الدنيا ليست بالشخط .. والكلام العصبى .. والذى يريد أن يعيش عليه أن يكون لينا مجاملاً . أما هذه التصرفات فهى لن تجلب لك ولأمك إلا التعاسة ..

كانت خديجة تستمع إلى كلمات شقيقها ، وهى تبكى وتلطم خديها ، وكأنها على شفا هوة مميتة توشك أن تسقط فيها . كانت تولول .. ياخرابى .. ياخرابى .. وكانت زينب تنظر إليها غاضبة غير مكترثة بما يتظاهران به .

وتنهد الحاج رمضان قائلاً لخديجة :

ـ ماذا أقول لك يا خديجة .. إنها رغم كل شىء ابنتنا .. والعيب الذى يخرج منها هو عيب فينا .. سامحها الله .. ولكنى أقول لك إنى لست مسئولاً عنها منذ اليوم .. وافعلى بها ما يحلو لك ..

ونهض يريد مغادرة البيت ، فارتمت عليه خديجة تمنعه بالقوة ، وتوسلت إليه أن يصفح عنها وعن ابنتها ، وانحنت على يديه تقبلهما ، وصرخات مكتومة فى صدر زينب ، أن كفى أيتها المرأة الخرقاء عن هذه التصرفات

المهينة .. من يكون هذا الرجل حتى تتذلل أمامه على هذا النحو .. إنه ليس أبى ، ولا صلة لى به ، فليخرج وليذهب بعيداً عنا . أنا أهم وأعظم بكثير من هذا الرجل الغريب الذى تفرضينه على ، ولكن الكلمات لم تخرج من فم زينب ، حتى انصرف الحاج وقد أرضته خديجة بقدر ما تستطيع ، وما كاد يخرج حتى التفتت الأم إلى ابنتها متوسلة فى جزع :

ـ ماذا فعلت .. ماذا يبقى لنا لو تركنا خالك .

صاحت زينب :

ـ لا أريده .. إنه ليس أبى ، وليس ولى أمرى ، لا سلطان له على .

قالت خديجة مولولة :

ـ وماذا أفعل يابنتى .. لا رجل لنا غيره .

صاحت زينب غاضبة :

ـ إنه ليس رجلى .

وتركت أمها ، وأغلقت على نفسها حجرتها . وبعد قليل دخلت عليها أمها ، شاحبة الوجه ، وجلست إلى جوارها وجعلت تتكلم وكأنها تخاطب نفسها :

ـ وهل هناك من هو خير من أبيك .. وهل أنا راضية بحالنا هذا .. إنه يسرقنا .. ويأخذ إيراد الأرض ولا يحاسبنى .. هذا هو ما فعله بأبيك وجدك .. وما يفعله اليوم بنا .. وكان جدك يملك الذهب والأرض وما كان يهمه ما يأخذه منه . وكان أبوك ابن عز لا يكترث بهذه الأمور . أما أنا وأنت فماذا بقى لنا .. لا ذهب ولا أرض ولا عز .. الله أعلم بحالى يابنتى لمن أشكو .. غيره .. هل أقول للناس شقيقى يحرم ابنتى من حقها .

قالت زينب فى دهشة لما تسمعه من أمها :

ـ ولماذا تعيشين معه ؟

قالت الأم فى إذعان :

ـ مكتوب علينا .

ونظرت خديجة إلى ابنتها فى انفعال ومضت تقول :

ـ ولكن البركة فيك أنت .. فستتزوجين رجلاً جديراً بك وبجمالك وسوف يخلصك من هذا كله .

وسكتت زينب وهواجس غامضة تقلقها ، هاهى أمها تعود وتتحدث عن جمالها والرجل الذى سوف يحقق لها الحياة الكريمة ويمنحها ما تستحقه من عدل ، وهاهى تشعر بعزلتها وانصرافها عن الرغبة فى مبادلة أمها الحديث ، وحاولت أن تتذكر أباها ، إن ذكراه مقيدة ، مجرد لحظات خاطفة لعينين تبتسمان فى عينيها ، التفاتة برأسه فى وقت ما فى مكان ما لا تذكرهما ، أو حركة بعيدة فى مناسبة لا تدرى ما هى ، صور لا يمكن أن تساعدها على المضى فى التذكر ، بل هى فى الحقيقة ليست صوراً ، إنها انفعالات تصاحبها صور مختلطة مشوشة ، كانت صديقاتها فى المدرسة يتحدثن عن آبائهن ويروين قصصاً كثيرة عنهم ، قصصاً فيها فرح وغضب . واعتزاز ومباهاة وثورة ، فتحاول أن تشاركهن بقصة واحدة أو مشهد واحد تستطيع أن تحدد معالمه وترويه .. فتعجز .. وتواجه تلك الانفعالات بصورها المشتتة ، فلا تقول شيئاً لصديقاتها .

وعادت زينب إلى المدرسة .. وناديها الناظرة ، وقرصتها من خدها ، وتأوهت بنات محتجات على هذا الظلم والاضطهاد المتعمد . وفى ذلك اليوم قالت زينب للبنات إنها لم تهتم بفصلها .. وبمجىء ولى أمرها للقاء الناظرة ، واندفعت فى كلام ثائر باهر عن تحررها من أى قيد فى البيت . لا أحد يستطيع أن يحاسبها أو يناقشها فيما تفعل ...

عم صالح يتحدث عن الشيطـان

مرض عم صالح . واختفى فى حجرته بالسطوح . ولم يعد قادراً على اتخاذ مكانه المعتاد أمام باب عمارة الحاج رمضان . وافتقد الشارع صوته ونشاطه وما كان يقوم به .. من رش الطريق أمام العمارة عصر كل يوم . وسمعت زينب أمها تتحدث عن نوبات السعال التى تفتك بصدر صالح . وإنه يوشك أن يموت .

وسمعت الحاج رمضان يتحدث عن ضيقه بمرض الرجل . وإنه أصبح عبئاً لا فائدة من ورائه .. وإنه لا يدرى ماذا يفعل به . وإنه يفكر فى إرساله إلى بلده فى قرية « ق » بقنا ، حيث يموت بين أهله ويدفن فى قبورهم . واستقبلت زينب ما سمعته وكأنهم يتحدثون عن رجل آخر غير عم صالح الذى تعرفه .. وكانت صلتها به قد انقطعت ، فقد كبرت وزادت عزلتها عما حولها فى البيت ، وانشغلت بأحلامها وحياتها الخاصة .. حتى وجدت نفسها تقضى أياماً وهى لا تراه . وإذا رأته لا تكاد تلتفت إلى وجوده .

ولكن هاهى تذكره من جديد .. وتذكر صوراً واضحة المعالم ومشاهد حية

فى ذاكرتها عما كان بينها وبينه . واستيقظت زينب صباح يوم ، فكان عم صالح هو أول ما خطر على بالها وكأنها تسمع لأول مرة إنه سوف يموت .

وذهبت إلى المدرسة بعد أن ألقت بنظرة إلى مكان عم صالح من باب عمارة خالها وتمنت لو رآته . ولاحقتها صورة عم صالح وألحت عليها وهى جالسة بين صديقاتها ، أو وهى فى الفصل تتابع الدروس .. وسمعتهن يقلن لها إنها ليست اليوم كعادتها وأن هناك ما يشغلها ، فكانت تبتسم وتنفى أن بها شيئاً . وهى تشعر بتأثر يكاد يتحول إلى دموع تترقرق فى عينيها . وعند عودتها من المدرسة ، وقفت أمام باب العمارة فى محاولة للبحث عن عم صالح .

وتلفتت فى شارع المبتديان لعلها تراه قادماً من هنا أو هناك . لعله يسير على هذا الرصيف أو ذاك الرصيف . فلما لم تجده وكانت تعرف إنها لن تجده أقدمت على الخطوة التى لابد منها . فصعدت السلم إلى حجرته فى السطوح . ودخلت عليه . كان راقداً على دكته الخشبية .. جسده نحيل كأنه انكمش إلى نصف حجمه الطبيعى . مكوم فوق الدكة .. وفى طرف جسده رأس شاحب الوجه ، عيناه غائرتان .. تنظران فى جمود وذبول ناحية زينب ، محرومتان من حيوية الرؤية وحيوية التذكر ..

وكان قلب زينب يدق بعنف . وكانت تشم رائحة غريبة نفاذة .. رائحة هواء مختنق ، رائحة مرض . ورغم العينين الذابلتين ورغم هذه الرائحة الخانقة شعرت بأنها تريد أن تحتضنه وتقبله . وأن تبكى وأن تقول له إنها تحبه . ولكن نظراته غير الواعية كانت تصدها وتحرمها مما تتمناه . فلما ومضت عيناه ببريق خافت من المعرفة وتمتمت شفتاه بابتسامة وكلمات غير مسموعة ، وتحركت يداه نحوها . هجمت عليه مندفعة .. وألقت برأسها على صدره وقالت بلهفة .

- مالك ياعم صالح .. أنا أحبك ياعم صالح .

وانهمرت الدموع من عينيها . وأحسست أن بكاءها يمنحها قوة عارمة .

وأن هذه القوة تفيض منها فتمنح عم صالح القوة فبدا وكأنه يفيق . وامتدت يده تربت على ظهرها ، وهو يردد :

ـ أنت ابنة أبيك .. أنت ابنة مدحت بك ..

وأغمض عم صالح عينيه .. ثم انتابته نوبة سعال حادة . فدفعها بيديه الضعيفتين عن صدره .. وانحنى على إناء من صفيح أسفل الدكة . وبصق فيه [illegible] احمرت عيناه وارتعش جسده وكأنه [illegible] وقاومت زينب الهلع الذى هاجمها . رفضته فى عناد . وظلت يدها متشبثة بذراع عم صالح حتى هدأ السعال ، وهمد جسده . وبدا أن الغيبوبة عاودته . وهى تدعوه بعينيها وقلبها أن يفيق ، حتى فتح الرجل عينيه فرآها وابتسم هامساً :

ـ ما زلت هنا .

قالت :

ـ لن أتركك يا عم صالح .

فقال بصوت غريب :

ـ لست خائفاً يا زينب .. أنه يأتى لزيارتى فى الليل .. ويقف هناك فى ركن الحجرة ولكنى لا أخاف منه .

سألته زينب فى دهشة :

ـ من هو يا عم صالح ؟

همس الرجل فى وقار :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

ألحت زينب فى السؤال .

ـ من هو ؟

قال عم صالح :

ـ الشيطان .

كان صوته الهادىء الوقور يمنع زينب من الخوف . وأدركت أنه يهذى . ومع ذلك فهو يتكلم جاداً وكأن ما يذكره أمر حقيقى . وسكتت زينب ، فهى

لا تدرى كيف تجيب على هذيانه ، وتوقعت أن يتحدث عن شيء آخر وينسى ما كان يقوله منذ لحظة . ولكنه مضى قائلاً :

- كنت أظن عندما رأيته لأول مرة أنه طبيب أرسله لى الحاج .. وكان واقفاً أمامى يرتدى ملابس سوداء وفى يده حقيبة سوداء .. وكان يبتسم وقال لى أنت صالح عبد التواب الأخرس وسأشفيك لأن عندى الدواء لك .

ووضع يده على جبينى فلسعتنى برودتها . وصاح بصوت كالرعد : قم ياأخرس . فنهضت من فراشي وأنا أشعر بعافية وقوة . وقال لى الآن أنت صحيح سليم وعليك أن تدفع لى أجرى . قلت له : ألم يرسلك الحاج فضحك وقال : الحاج لا يفكر فيك .. وكل همه أن يرسلك إلى بلدك لتموت وتدفن فيها ، أما أنا فقد جئت لأمنحك الحياة بشرط أن تدفع الأجر . وإذا لم تدفعه فسأتركك لمرضك حتى تموت . قلت له : وكم تطلب منى إن نقودى قليلة .

فقال : ومن قال إنى أطلب نقوداً ، إن ما أطلبه منك شيء بسيط وسوف يدخل على قلبك السرور . قلت له : وما هذا الذى تطلبه منى ؟ قال : لا تصلى ولا تصوم . قلت له : أنا لا أغضب الله .. وأدركت فى الحال أنه بسم الله الرحمن الرحيم .. فجعلت أردد آية الكرسى . فإذا بملابسه السوداء تتحول إلى جلد جاموسة . ووجهه أصبح وجه كلب شرس . وعيناه تقدحان شرراً . وظل يطول ويقصر ويطول ويقصر وأنا أردد الآية ثم لم يطق البقاء فى مواجهة كلام الله فأطلق صرخة فزع واختفى . وعاد لى مرضى أشد من الأول ، وظهر لى فى الليلة التالية فى ركن الحجرة . وقال لى : أتريد منى أن أشفيك لتعبد الله ؟ قلت له : أنا لا أريد منك شيئاً . فقال وماذا فعل لك الله .. ألقى بك فى هذه الحجرة كالكلب .. وجعلك تترك زوجتك وعيالك ، وتعيش فى غربة عن أهلك لا تسمع إلا بأخبار موتهم لو طاوعتنى لجعلتك سلطان زمانك ، وجعلتك تحكم على ذهب لاعد له . وتأمر فى الناس فتجاب .. قلت له : أنا لا أترك الله .. ولا أعبد سواه . وهو الذى أرسلك لى ليمتحننى فغضب ، وطال وقصر .. ولكنى لم أخف .. فهو لا يستطيع أن يقبض روحى لأنه ليس عزرائيل . وهو

لا يريدنى أن أموت مؤمناً فيفقدنى . إنه يحاربنى وأنا أحاربه وسأنتصر عليه بإذن الله .

كان صالح يلهث وقد أجهده الحديث . وكانت زينب تنصت إليه ولا يمنعها من الخوف سوى وجود عم صالح . وهى تدرك أن الخوف سوف يداهمها إذا ما حاولت أن تخرج الآن من الحجرة .. أوحتى إذا ما حاولت أن تبعد عينيها عن وجه عم صالح . هل الحديث [illegible] الشجاعة فى مواجهة هذا الفزع الذى يحكى عنه .

وهمست زينب وهى تضع يدها على جبينه الملتهب :

- ألم يأت لك طبيب ياعم صالح ؟

قال الرجل لاهثاً :

- الطبيب هو الله يا ابنتى .. وقد ذهبت إلى قصر العينى عندما كنت أستطيع المشى .. وأعطونى دواء .. وعندما تفرغ الزجاجة يرسل الحاج من يكررها ..

قالت زينب فى ألم :

- يجب أن تشفى يا عم صالح ..

قال باسماً :

- الآن سأشفى .. إن مجيئك هذه الساعة هو العلامة التى كنت أنتظرها . وعندما رأيتك جالسة بجوارى تذكرت آخر لقاء لى بالمرحوم مدحت بك وهو يوصينى بك قبل أن يلقى ربه بأيام .. لقد جاءنى هذا الصباح فى المنام .. ثم رأيت ملكاً جميلاً مثلك ملابسه بيضاء فى بيضاء . وقال لى : قم يا صالح .. وأذهب إلى عملك .. قلت له أذهب إلى باب عمارة الحاج . فقال لى لا ياصالح .. عملك هناك واذهب إليه .. قلت له : أذهب إلى الجامع وأصلى قال لى : لا ياصالح .. عملك هناك اذهب إليه .. إنه ينتظرك ، وستكون النقود كثيرة بين يديك .. وستقابل الحكام فتقول لهم كل ما تريده والذى لا يعجبك منهم أطرده من بيتك . قلت له : أين أذهب .. فغضب الملاك وقال لى : لا تسأل فأنت تعرف الجواب .. وفتحت عينى الآن فرأيتك أمامى . وقلت أنت الملاك

الذى رأيته فى المنام . وهأنت قد جئت لأنك الوحيدة التى يجب أن أستأذنها قبل أن أبحث عن عمل فما يبقينى هنا إلا انت ووصية المرحوم مدحت بك ووعدى له بأن أخدمك طوال حياتى .

همست زينب :

- أتتركنا ياعم صالح ؟!

قال :

- لا يابنتى .. لكنى سأبحث عن عمل آخر .. وأسألك أن تتركى فى هذه الحجرة اسكنها وأظل بجوارك دائماً .

فرحت زينب بكلمات عم صالح .. ولعل فرحها كان أكثر منه شعوراً بالقوة .. فهاهو الرجل الذى تحبه كما لم تحب رجلاً آخر فى حياتها يريد أن يخرج عن طاعة خالها .. وأنها لتشجعه على ذلك .. وتجد فى مطلبه مثلاً أعلى لما يجب أن تفعله هى .. أن تبحث عن الحياة فى مكان آخر .. هذا هو الذى تحلم به وتتمناه .. وهذا هو الذى يجعلها تفرح بعم صالح .. وكأنه واحد من الشلة فى مدرستها يثور ويحلم وهى ستقف إلى جواره وستساندە ، ولن يجرؤ خالها على طرده من هذه الحجرة ، هاهى أمامها خطة تدبرها مثل تلك الخطط التى تدبرها لصديقاتها فى المدرسة . ولكن هذه الخطة التى تشترك فيها مع عم صالح أروع بكثير .. إن الدنيا كلها مسرح لخطتها ، الدنيا بما فيها من شياطين ، وذهب وحكام .

قال فى انفعال :

- أنا معك ياعم صالح .. سوف أساعدك وسوف أنتصر معك على هذا الشيطان .

ووجدت نفسها تسأله ضاحكة فى طفولة ومرح :

- أريد أن أراه ياعم صالح . أتعرف ؟ يخيل إلى أن دمه خفيف ! انه ذكى ولكنه أيضاً عبيط .

نظر إليها صالح بعينين مفعمتين بالحب والامتنان وقال :

- إنه لا يجرؤ على الظهور أمامك .. إنه يخاف الملائكة ويخاف كلمات الله .

قالت زينب :

ـ خسارة .. كنت أريد أن أتحدث معه

قال صالح محتجاً :

ـ لا يابنتى .

قالت :

ـ أريد أن أسأله عن رأيه فى النشرة .. وخالى .

وترددت وقد أوشكت أن تقول « وأمى » ثم أكملت قائلة :

ـ وأسأله عن الذهب .. إنى أريد ذهباً كثيراً ياعم صالح .

قال وقد رفع صوته الأبوي وإن لم تفارق عينيه فرحته بهذه الطفلة التى تملأ حجرته بحيويتها المتدفقة .

ـ ومن لا يريد الذهب يا ابنتى ؟ .. ولكن ليس على حساب الله . أنت طيبة وقلبك لا يعرف الشر .. ولذلك تتحدثين بهذه السهولة عن الشيطان . لأنك لا تعرفينه . ولا تستطيعين معرفته .

فسألته زينب فى حيرة :

ـ ولكنى لا أصلى مثلك ياعم صالح .

قال فى هدوء :

ـ سوف تصلين عندما يأذن الله .

قالت غير راضية بإجابته :

ـ خالى يصلى .. وجدتى كانت تصلى أحياناً .. ولكن أمى لا تصلى .

قال صالح :

ـ إنها حكمته ..

قالت زينب :

ـ ألا تطلب منى أن أصلى ياعم صالح .

قال فى خشوع :

ـ الله وحده هو الذى يطلب من عباده .. وهذا أمر بينك وبينه .. وهو أعلم بك منى .

قالت زينب :

ـ إنه يعلم أنى خائفة منه .. لأنه أخذ منى أبى وجدتى ..

قال صالح :

ـ أنت مؤمنة ياابنتى .

قالت زينب :

ـ ما الإيمان ياعم صالح .

قال :

ـ ألّا تخسرى نفسك .. ألّا يكسبك الشيطان .

نهضت زينب قافزة متجهة إلى ذلك الركن من الحجرة حيث يظهر الشيطان وهتفت :

ـ أنا لا أخاف الشر ..ولا أخاف الشيطان .ولورأيته واقفاً هنا يطول ويقصر لضحكت وكأنه أراجوز .. هيا اظهر يا شيطان لأتفرج على لعبتك .

كانت تحرك يديها فى الهواء ..صبية مرحة ليس لمرحها وحيويتها حدود .

ورأت عم صالح يعتدل جالساً على الدكة ، والحيوية تتدفق إلى وجهه وعينيه . وصوته يرتفع قوياً .

إنه لن يعود بعد الآن .

وشفى عم صالح .. أو على الأصح تحسنت صحته كثيراً .. وطلب من الحاج رمضان أن يساعده فى البحث عن عمل آخر . وجاءت الفرصة عندما سمع الحاج أن نور الدين بهنس ابن مصطفى بك بهنس شقيق زوجته الثانية ،له صديق اسمه عبد الهادى النجار أنشأ داراً صحفية جديدة ، بها وظائف كثيرة شاغرة للخدم والسعاة ..كان الحاج يرى أنها صفقة رابحة إذ يتخلص من عم صالح العجوز الذى أنهكه المرض ولم يعد يفيده .. ولما تم تعيين عم صالح فى جريدة العصر الجديد ، رضى الحاج بأن يحتفظ صالح بحجرته فى السطوح ولكنه اشترط عليه أن يدفع جنيهاً كل شهر .

انتهاز فرصة ذهبية

كانت أخبار عائلة بهنس موضوعاً رئيسياً تلوكه الألسنة كل يوم فى بيت الحاج رمضان . وكانت منيرة بهنس وهى الزوجة الثانية للحاج ، تواجه فخر خديجة بالمرحوم مدحت بك الأيوبى . بحديث مضاد عن الثراء الفاحش الذى يعيش فيه شقيقها مصطفى بهنس ، وهو ثراء هبط عليه مع الحرب ، بعد ارتباطه مع الجيش الإنجليزى بعقود توريد لمواد التموين . وكان الحاج رمضان يغار من صهره ، ولكنه قاوم هذه الغيرة بالتقرب إليه ، واتخاذه مظهر الرجل الذى يريد أن يقدم المشورة والنصح لمصطفى بهنس حتى يستثمر أمواله على أحسن وجه . وكان إذا اشترى مصطفى أرضا ، أو أضاف إلى رصيده فى البنك أرباح صفقة ، أعلن الحاج أنه هو الذى أشار وهو الذى قدم النصح ، وكانت زينب تسمع أمها وهما على انفراد ، تسخر من عائلة بهنس ، وتقسم أنها رأت مصطفى بهنس هذا وهو يرتدى الجاكتة فوق الجلباب وفى قدمه شبشب وأنه كان يريد أن يتزوجها مقابل زواج شقيقها رمضان من منيرة ولكنها رفضته لأنه رجل قليل القيمة ، وكانت تتحدث عن زوجة مصطفى بهنس والغرور الذى ركب رأسها ، وأنها قطعت زياراتها لهم منذ سنوات ،

وتذكر خديجة أن مصطفى بهنس كان يهاب المرحوم مدحت بك ، وأنه كان يقف أمامه كخادم ذليل ، حتى بعد أن سدد ديونه وامتلك عزبة كبيرة فى الفيوم . وكانت زينب تسمعهم يتحدثون عن نور الدين وعز الدين ولدى مصطفى بهنس ، فتذكر مجيئهما كل عيد صغير وعيد كبير مع أبيهما ، إلى بيت خالها ، أحياناً كانت تراهما وأحياناً تسمع بمجيئهما وكانت لا تهتم بهما ، ولا تذكرتهما فى تأثر عندما قالوا إن مصطفى بهنس مات .. أنصتت إلى ما يقال عن حال الولدين .. وأن الابن الكبير نور الدين لم يحضر جنازة والده لأنه يعمل فى المفوضية المصرية بأثينا ، وأن الابن الثانى عز الدين جاء فى أجازة قصيرة من العريش حيث يعمل ضابطاً فى الجيش . وكان الحاج رمضان يكثر فى ذلك الوقت من التردد على أرملة مصطفى بهنس ، وقد طمع فى أن يدير لها التركة فى غياب ولديها . وكانت زينب فى حوالى الثانية عشرة من عمرها عندما غضبت من نور الدين بهنس لأول مرة ، ويومها أخذ الحاج رمضان عياله ومعهم زينب وعم صالح إلى بيت كان يطل على شارع كبير مزدحم بالناس المحتشدين على جانبى الرصيف ، ووقفوا فى شرفة البيت يطلون على الشارع وكانوا يقولون إنهم سيشاهدون الجنود العائدون من حرب فلسطين . وكان نور الدين يقف مع الحاج رمضان يتحدثان عن عز الدين الذى سوف يظهر فى الموكب ، ويتحدثان عن الحرب واليهود ، وشعرت زينب برهبة وسمعت عم صالح يهمس مردداً لنفسه :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

وكان موكب الجنود قد أقبل . والضجة والصخب يشتدان فى الشارع ، واقتربت زينب من حاجز الشرفة . ولكنها فوجئت بجسد نور الدين الضخم يدفعها غير ملتفت إليها ، وهو يصيح فى الحاج وقد غلبه الانفعال :

- أنظر .. هاهو عز .. هاهو .. ألا تراه ..

لم تر زينب فى تلك اللحظة سوى ظهر نور الدين يسد عليها المشهد ، فوقفت مبتعدة ، وشعرت بكبرياء وغضب ، وتنبه إليها عم صالح فأفسح لها مكانه ،

ولكنها رفضت ان تتقدم ، وقالت لصالح إنها تريد كوب ماء ، فذهب وعاد ومعه كوب الماء ، وهنا ارتفعت أصوات عيال الحاج تريد أن تشرب مثل زينب ، والتفت نور الدين إليهم ، وقال بصوت لم تسترح له أذن زينب :

ـ خدهم ياصالح ليشربوا من الصنبور فى المطبخ .

وعندما عادوا إلى البيت حكى الحاج لأمها عما شاهده .. وفجأة قال لها :

ـ أعوذ بالله من نور الدين هذا .. العيال عطشوا .. ونحن ضيوفه ولم يقدم لنا شيئاً .. لا زجاجة كازوزة .. ولا كوب شربات .. وعندما أراد العيال أن يشربوا خاف على الأكواب وجعلهم يشربون من الصنبور .. إنه نتن .. بخيل ونتن .

سمعت زينب هذه الكلمات ، وهى لا تدرى أنها سوف تكون زوجة نور الدين بعد أربع سنوات . وبعد ذلك المشهد بحوالى العام مات عز الدين فى حادث تصادم سيارة أثناء عودته من عزبة الفيوم ، وظهرت صورته فى جريدة العصر الجديد ، وكان عم صالح يعمل فى العصر الجديد .. ويحضر معه الجريدة ليقرأها الحاج كل صباح ، كانوا يتبادلون الجريدة بين أيديهم بينما يردد الحاج رمضان :

ـ أخذ الله الصالح .. وأبقى على شر البقر .

ولم يمض عام آخر على هذا الحادث ، حتى فوجئت زينب بحديث الحاج مع أمها عن زواجها بنور الدين . كان الحاج قد استشعر أن أمامه فرصة لابد من انتهازها لاصطياد نور الدين زوجاً لزينب ، وكان نور الدين قد فشل فى إتمام تعليمه .. إذ كان لا يميل إلى الدراسة ، وحصل على شهادة البكالوريا بصعوبة ، ثم قضى ثلاثة أعوام بكلية التجارة وهو يرسب كل عام فى سنة أولى ولم يهتم الأب أول الأمر برسوب ابنه ، حتى تخرج عز الدين من الكلية الحربية وأصبح ضابطاً عندئذ شعر الأب بالقلق حتى حسم أمره يوم اكتشف أن النقود التى تختفى من محفظته يسرقها نور الدين ، وأن أمه كانت تعرف بسرقات ابنها وتتكتم عليها . كانت تدلله وكان طبيعياً أن تؤمن بأنه أحسن

إنسان فى العالم وأفرطت فى تدليله فكانت تعطيه مالاً كثيراً . ويقال إنها كانت تضع له الطعام فى كل مكان وأنها كانت تضع له حلة محشى تحت سريره فإذا استيقظ من النوم . مد يده تحت السرير وأكل المحشى وهو يتثاءب ثم يواصل نومه ، وعندما استراب الأب فى أن ابنه هو الذى يسرق اقتحم عليه حجرته وفتشها . فضبط فى أحد الأدراج أكثر من مائة جنيه ، وهو مبلغ أكثر بكثير من الجنيهات الذهبية التى افتقدها الأب . فانهال على نور الدين بالأسئلة

فعلم أن ما معه من نقود كسبها من لعب القمار ، ولكن بهره فى نفس الوقت أن الولد استطاع أن يجمع هذا المبلغ الضخم . وبلغ به الاضطراب ذروته فصفع نور الدين على وجهه عدة صفعات ، ثم وجه غضبه إلى زوجته .. فشتمها وأعلن أنها المسئولة عن تصرفات ابنها متخلصاً من الموقف الذى أربكه . ومع ذلك فقد حسم أمره ، وسعى إلى تعيين نور الدين بوظيفة فى الخارجية ، لعله يسافر إلى الخارج وينصلح حاله ، ويتخذ مظهراً اجتماعياً يليق بالثراء الذى يعيش فيه الأب .. ولم يسترح نور الدين للوظيفة لما فيها من حرج . إذ أن كثيرين من معارفه كانوا فى السلك الدبلوماسى ، وشتان بين أن يكون موظفاً إدارياً فى مفوضية ، وأن يكون موظفاً دبلوماسياً . إن الإداريين يعاملون من الدبلوماسيين فى الخارجية كأنهم من طبقة أدنى والصلة بينهم وبين الدبلوماسيين تكاد تكون مقطوعة . ولكنه أذعن لما أراده أبوه .. وما كاد يحصل على الوظيفة حتى نقل سهرات القمار إلى بيته . وفكرت أمه فى زواجه وسعت إلى ذلك . واختارت له فتاة من أسرة غنية ، ولكنه صدم بالرفض لأن تعليمه غير جامعى . فأحس بحرج شديد ، واعتبر هذا الرفض إهانة ..

وسافر بعد ذلك إلى عمله بمفوضية أثينا ، وهو يعلن أنه لن يتزوج مصرية ، وأنه سيتزوج أجمل بنت فى أوروبا ، ونسى كل شىء عن الزواج وهو فى الخارج ، وعندما عاد إلى القاهرة بعد وفاة والده .. حاولت أمه مرة أخرى أن تزوجه ، وكان قد أصبح وارثاً ، ولن تتأخر بنت عن الزواج به ، وخطبت له ابنة سعيد باشا حجازى الوزير المفوض المحال على المعاش . وحدث أن ذهب نور الدين

بعد إعلان الخطبة لزيارة خطيبته ، وجلس فى الصالون . وكانت مع الخطيبة إحدى صديقاتها التى أرادت أن ترى العريس خلسة . ووقفتا ، الخطيبة وصديقتها خلف باب الصالون ، وأطلت الصديقة على العريس من ثقب الباب . فاحمر وجهها وتراجعت مذعورة وهى تهمس ياخبر أسود . وأسرعت الخطيبة تطل من ثقب الباب فرأت نور الدين يمد يده إلى علبة شيكولاته وملبس يقرب منها ويملأ جيوبه ، كان منظره بشعاً . فصرخت البنت من هول الفضيحة ورفضت الدخول لاستقباله ، وفسخ حجازى باشا الخطبة وسافر نور الدين ، وعاد بعد ذلك فى الأجازات ليرفض أية فكرة عن زواجه ، حتى سمعه الحاج رمضان يقول لـه بعد حادث وفاة شقيقه إنه مريض بأعصابه وأن الطبيب نصحه بالزواج وهنا خطر للحاج أن الفرصة مواتية لأن تتزوج زينب من هذا الرجل الثرى ، إنها فرصة ذهبية لن يتركها تفلت من يديه .

أكثر الحاج رمضان من دعوة نور الدين بهنس إلى بيته .. وكان فى أجازته السنوية من عمله فى سفارة باريس التى انتقل إليها . ولبى نور الدين الدعوات وهو لا يعرف شيئاً عن الخطة أو المكيدة التى يدبرونها له .. وكانت خديجة تظهر أثناء وجوده وتدعوه إلى بيتها .. وكانت تتعمد أن تتركه مع زينب وحده ، وتغيب فى المطبخ ، بعد أن توصيها بالترحيب بالضيف العزيز ، وكانت تتجسس عليه وهو يحاول أن يقترب من زينب ، أو يمد يده ليتحسس فخذها أو يلمس صدرها ، فإذا نفرت زينب منه وهى لا تكاد تفهم ماذا يفعله ، ذهبت إلى أمها ، فما تكاد تراها حتى تنهرها ، وتقول لها كيف تتركين ضيفنا ، اذهبى واجلسى معه . فتقول لها زينب إنها لا تستريح له ، وأنه سمج وسخيف فتتجاهل الأم ما تسمعه . وقالت لزينب بعد أن خرج نور الدين ذات ليلة .

- إنه معجب بك .. فكونى لطيفة معه ، فهو خير عريس لك .

وغضبت زينب ، وقالت : إنها لا تتصور أن تتزوج رجلاً مثله ، حتى يئست الأم ، وإذا بالحاج رمضان ينادى زينب ويحدثها منفرداً بصوت هامس متآمر ، عن أنوثة المرأة ، وكيف أنها لا تبدو أنثى ، بل هى أشبه بولد

جاف الطباع ، ولم يقف الحاج عند التلميح ، فقال لها بصراحة إن المرأة يجب أن تعد جسدها للرجل .. وأن تغريه به ، انظرى إلى صدرك أين ثدياك إنى لا أراهما ، كانت النساء فى أيامى يحشون صدورهن بالكور ليفتن الرجال . أين دلالك . أنت تستطيعين أن تكسبى الرجل بنظرة ، بابتسامة .. إنه يضع كل شىء يملكه تحت قدميك وتصبحين سلطانة عليه عندما تعرفين كيف تحلبينه [illegible] لصدرك ، أو باحتكاكة ناعمة بساقك ، أنت لا تفهمين الدنيا ، وعقلك مقفول ، ولو طار منك هذا العريس فلن تجدى طوال حياتك مثله ، وسوف تندمين . أتتركين عزبة فى الفيوم وعشرات الألوف من الجنيهات فى البنك ، والوارث الوحيد لأبيه وأخيه وسوف يرث أمه .. أى أن الثروة كلها ستكون ملكه . ولو كان لا يعجبك .. فعلى الأقل تعجبك باريس والعيشة فى أوروبا . إن ألف بنت تتمنى الزواج منه .

صاحت زينب مقاطعة :

- فليتزوج ألف بنت ولكنى لا أريده .

وأمسكت بها أمها وأغلقت عليها الحجرة ، وزأرت كلبؤة مفترسة :

- والله لو فتحت فمك بكلمة واحدة عن عدم زواجك بنور الدين لأمسك بنعلى هذا وأمزقه على جسدك حتى لا تبقى منه نثيرة واحدة لم تمتزج بلحمك ودمك .. هل تريدين منى أن أشحت فى الشوارع لتأكلى ، أم أواصل دفع مصاريفك فى المدرسة ونحن لا نجد قرشاً نأكل به .. تزوجى نور الدين وسوف تسكنين فى سرايه ، ولن أطلب منك بعد ذلك شيئاً لنفسى .. سأكون خادمتك أو غسالة تعمل عندك .

نظرت إليها زينب فى فزع .. ولم تنطق بكلمة ، إنها الآن خاضعة خضوعاً تاماً يائساً ، لكلام يخرج من فم الأم مع نظراتها الملتهبة ، وهى لا تدرى معنى هذا الكلام . وعليها أن تلجأ إلى صمتها وعزلتها وليكن ما يكون .

وظلت الأم تردد فى أذن زينب أهمية زواجها من نور الدين .

وانتهزت زينب فرصة وسألت أمها :

- كيف أتزوجه ، وأنا سمعتكم تقولون عنه إنه بخيل ونتن ؟! .

صاحت الأم محتجة :

ـ متى قلنا هذا .. أنت تخترعين هذا الكلام .

قالت زينب ثائرة :

ـ أنا لا أكذب . سمعتك تتحدثين مع خالى أكثر من مرة .. عنه وعن أبيه قليل القيمة .. الذى رفضت أن تتزوجيه .

قالت الأم متحدية :

ـ هذا لم يحدث وهو كلام فارغ .. وإياك أن ترددية مرة أخرى .. أما أن أباه أراد الزواج منى وأنى رفضته فهذا شيء ندمت عليه وأنا أعانى من هذا الغلب الذى أعيش فيه ، ماذا جنيته من زواجى بأبيك ، غير هذه الغطرسة والنفخة الكاذبة منه ، ومن جدتك .. ومنك أنت أيضاً .. لقد زهقت روحى منكم ولو كنت تزوجت مصطفى بهنس لكنت الآن أعيش حياة أخرى غير هذه الحياة !

كانت خديجة تتكلم بقوة وقسوة ، وتحارب ابنتها وهى واثقة من انتصارها عليها . ولعلها كانت تشعر على نحو ما فى تلك اللحظة أنها تنتصر على هؤلاء الأبوبيين الذين أرادوا يوماً أن يجعلوها خادمة فى بيتهم . هاهم قد انتهوا بغرورهم وغطرستهم وعزلتهم ، ولم يبق منهم إلا هذه البنت . تفعل بها خديجة ما تشاء .. الفرصة قد جاءتها لتنتقم منهم فى ابنتهم التى هى ابنتها أو على الأصح أهم ممتلكاتها فى الحياة ، إن خديجة تريد أن تحكم ، وأن تكون هى صاحبة السلطة لتحقق مشروعها الكبير ، ولن تقف قوة أمامها لتحقيق زواج زينب بنور الدين . إنها قادرة الآن على أن تقول ، وأن تنفذ ما تقول . ولقد قطعت فى حياتها رحلة طويلة ، كلها انتظار وعذاب وذل وخضوع ورهبة وخوف ، وتظاهر وإدعاء حتى وصلت أخيراً إلى شيء حقيقى تستطيع أن تتكلم وتعبر عنه ، وأن تتصرف فيه ، وأن تكون هى نفسها ، التى تتعرف عليها كما يتعرف الإنسان على كل شيء فقده .. وسط كومة أنقاض وأشلاء من بقايا دمار كبير ..



نور الدين بهنس

أنجريد برجمان
ونعيمة عاكف

استطاعت خديجة أن تفتح موضوع الزواج مع نور الدين وكأنها تبيع له تحفة ثمينة تمتلكها ، إنها لا تبيع له الجمال وحده ، بل تبيع له مع الجمال حكايات أسطورية عن آباء البنت وأجدادها وقد بحثت عن صورهم القديمة ، وجلست إلى جوار نورالدين تستعرض معه نياشينهم وأوسمتهم وسيوفهم . وماذا يريد نور الدين أكثر من هذا ، سيتزوج سليلة المجد . وهى فى نفس الوقت بنت خام طيعة منكسرة لن تتكبر عليه .. إن زينب ستكون كالخاتم الثمين فى أصبعه ، وهى صغيرة يستطيع أن يشكلها كما يشاء ، ثم أن زواجه بها لن يكلفه شيئاً ، لا مهر ولا نفقات فرح ، سيتزوجها كما تزوج المرحوم مدحت بك أمها ، بضعة ملابس اشترتها ووضعتها فى حقيبة وسافرت معه ، كذلك سيفعل مع زينب يأخذها بملابسها وحقيبتها ويسافران إلى باريس .

وبدأ نورالدين يستسلم للصفقة . كان إلحاح خديجة يبدد مقاومته وكأنه زوجها هى ، فكانت تحاسبه على تغيبه .. وتسأله لماذا تأخر .. وتجد لذة غريبة فى محاولاتها لتهيئة الفرصة لنور الدين ليخلو بزينب ، وكأنها هى التى

سوف تخلو مع رجل يطفىء لهيب غرائزها المكبوته الجامحة . وكان جسدها يتألم عندما تصد زينب نور الدين ، فتغضب منها دون أن تستطيع مواجهتها بالسبب الحقيقى لغضبها ، وكان الحاج رمضان يهدىء من غضب خديجة فيقول لها :

– هذه البنت من صلب خائن غادر وانت تشقين من أجل إسعادها ولكن ثقى أنها بعد أن تتزوج سوف تتنكر لك ولن أدهش إذا ما طردتك من بيتها يوما ما

فتقول خديجة :

– تطردنى .. تفعل ماتشاء . كل ما اطلبه هو أن ترضى بهذا الزواج .

أصبح زواج زينب رغبة غريزية محمومة تنهش جسد خديجة ، وتحرق أعصابها ، ولكن زينب لم تهتم بانفعالات الأم ، ولم تعد تجادلها . واحتمت بيأسها وعزلتها .. حتى بدت بليدة غريبة ، تصرخ فيها أمها بين وقت وآخر :

– مالك تجلسين هكذا كالعجل .

وحدث ذات مرة أن تحدثت البنات فى المدرسة عن فيلم جديد لانجريد برجمان ، وقالوا لزينب هذه الممثلة تشبهها . وقالت زينب لأمها إنها تريد مشاهدة الفيلم فطلبت خديجة من نور الدين أن يقطع لهم التذاكر وذهبوا ثلاثتهم وفوجئت زينب بأن الفيلم ليس فيه حب أوزواج ، وإنه عن جان دارك قديسة اللورين التى حاربت الانجليز وطردتهم من فرنسا ، ولا تدرى زينب ما الذى حدث لها ، فقد غلبها انفعال شديد بمشاهدة الفيلم ، وقضت الليل وهى تتخيل نفسها بطلة مثل جان دارك يلتف من حولها الناس تقودهم وتحركهم وهم من حولها يأتمرون بأمرها ويستجيبون لقيادتها لإصلاح ما فى الدنيا من خطأ وظلم . كانت هذه الانفعالات وما يصاحبها من أحلام يقظة جديدة فى حدتها وعنفها .. وكأن باباً مسحوراً انفتح على دنيا مسحورة مليئة بمشاعر ورؤى .. كانت تبحث عنها ولم تتحدث زينب أمام صديقاتها بما شعرت به ، واخفت انفعالاتها ، وجعلت منها سرها الخاص الذى لاتبوح به لأحد . وعندما كان نور الدين يذكر الفيلم ويبدى استياءه لضياع الوقت والنقود ، رفضت فى إباء أن تناقشه .. وصوبت إليه نظرة طويلة غريبة ، حتى

اذا سألها مرتبكا :

ـ لماذا تنظرين إلىّ هكذا ؟ !

فقالت زينب فى اقتضاب :

ـ أنا لا أنظر اليك ..

وقالت خديجة ضاحكة :

ـ هكذا لن يجلس البرهما [illegible] وتنزل عليه سهم الله

وقالت زينب للبنات فى المدرسة إنها رأت الفيلم ، فسألنها فى لهفة ، ألم تجد إنها تشبه أنجريد برجمان ؟ صمتت وهزت كتفها . وأحست لأول مرة أنها بعيدة عن صديقاتها ، وأنهن لا يمثلن لها كل عالمها .. وأنهن مشغولات بأشياء لا ترغب فى المشاركة فيها ، وكانت إحدى البنات تقول فى حماس :

ـ لك حق .. فأنت أجمل منها بكثير .

وابتسمت لها زينب ، وهى تشعر بعزلتها بين صديقاتها .. كما تشعر فى بيتها . إنها لاتريد أن تقول لأحد .. أنها ليست انجريد برجمان ولكنها جان دارك البطلة العذراء التى لم تتزوج أبدا وانتهى بها الأمر إلى أن أحرقوها فوق كومة من القش والحطب . إنها تنظر فى مستقبلها فترى أنها لاتريد بيتا ولا زوجا ولا أطفالا . إنها لاتريد أن تسمع عن حديث زواجها بنور الدين . إن واحدةً من البنات لاتعرف عما تعانيه زينب ، وأنها قد تضطر بعد قليل إلى ترك صديقاتها والذهاب مع ذلك الرجل الكريه إلى بعيد .. لو تذهب إلى بعيد وحدها ، وضاق صدر زينب فانتفضت فجأة وقالت للبنات :

ـ هيا بنا نرقص .. أنا لا أحب أنجريد برجمان .. أنا أريد أن أكون مثل نعيمة عاكف ..

كانت زينب تحب نعيمة عاكف منذ رأتها فى دور فتاة متمردة تشتغل راقصة فى سيرك ، وتغنى فى الموالد والأفراح ، أعجبت بها وبهذا الجو المثير الصاخب بما فيه من أسود وفيلة وبهلوانات وأقزام وكانت تقف فى غرفتها أمام المرآة ترقص وتتثنى وتنظر إلى جسدها وتتأمل شعرها ووجهها وقوامها حتى تنتشى

بما تراه وتقتنع بأن هذا الذى تملكه ليس لأحد .. وليس لنور الدين بالذات .. ولكنه للدنيا كلها .

ولا تنسى زينب تلك الفترة القصيرة التى لم تدم أكثر من شهرين ، عندما جاءت إلى المدرسة طالبة جديدة ومن حولها ضجة وهالة ، وقالوا إنها أميرة مغربية . وكانت رائعة الجمال لها عينان سوداوان تومضان فتشق القلوب بوميضهما . ولم تنكر زينب بينها وبين نفسها أن البنت جميلة .. ولكنها شعرت بغيرة شديدة نحوها حاولت أن تكتمها ، وكانت تراها .. وتسمع البنات يرددن لقب أميرة فتصيبها آلام حادة فى بطنها ورأسها ، ووقفت الأميرة ذات يوم فى فناء المدرسة وقد تأخرت عربتها والتفت من حولها البنات ، وهى بينهن وكأنها تمثال من الجمال والكبرياء والأناقة .. لم تستطع زينب الاقتراب منها أو الابتعاد عنها ، وكانت معها صديقتان تشتمان الأميرة والبنات الملتفات حولها ، وتؤكدان فى حماس حقيقى لزينب أنها أجمل منها . وزينب تقول يائسة :

- مالنا ومالها .

ودخل فناء المدرسة ، سائق يرتدى ملابس موشاه .. واقترب من الأميرة ، وانحنى أمامها .. فمشت أمامه فى رشاقة ، متجهة إلى سيارة سوداء كبيرة تقف عند باب الفناء ، وهرول السائق مسرعاً وفتح باب السيارة ، وانحنى لتدخل الأميرة .. وتحركت السيارة وفى نفس الوقت شحب وجه زينب وصرخت من ألم حاد فى بطنها .. ولم ينتبه أحد إلى سرها .. ولعلها كانت لا تدرى بوضوح سر آلامها .. وقاومت حتى وصلت إلى البيت . فأفرغت ما فى جوفها .. وظلت مريضة عدة أيام لا تذهب إلى المدرسة ، وحمى من الصور فى رأسها لمنظر الأميرة وهى بين البنات فى الفناء ومنظر البنات وهن ملتفات حول زينب والآلام تنهشها وعادت زينب إلى المدرسة وقد تغيرت ، ولكن أحداً لم يلحظ هذا التغيير ، حتى هى لم تلحظ أنها تغيرت .. وأن فترات صمتها عادت تطول ، وأن فترات جموحها وشقاوتها أصبحت أكثر حدة واندفاعاً فضمت إلى

شلتها طالبة اسمها سوسن كانت البنات يتهامسن بأن أمها راقصة ويتعمدن الابتعاد عنها .. وكانت البنت تبدو خجولة وديعة ، تفزعها جرأة زينب التى صممت على أن تصادقها وأن تأخذها فى حضنها غير مكترثة بأن مصاحبتها لسوسن قد أدت إلى خروج بعض البنات من شلتها ، وسرعان ما أصبحت بين زينب وسوسن علاقة خاصة ، فدعت سوسن إلى بيتها ، ورقدا معا على السرير . وحكت زينب لصديقتها عن ذلك الرجل الذى رأته يجلس معهما على الغذاء وقالت لها إنه يريد أن يتزوجها . وأنها لا تريده رغم أنه سوف يسافر بها إلى باريس .. وقالت لها سوسن إنها مجنونة إذ ترفض مثل هذا الزواج فقالت زينب فى وجوم :

ـ ولكنى سأتزوجه لأن أمى تفرضه علىّ .

وذهبت زينب مع سوسن إلى بيتها ، ورأت أمها . امرأة كثيرة الأصباغ ، تضحك بصوت مجلجل وقلبها فياض بالحنان . وقالت زينب لسوسن :

ـ لو كانت لى أم مثل أمك .

وحكت لها سوسن عن افتقادها لأبيها الذى طلق أمها منذ سنوات وأنها أحياناً تراه فى الأعياد ، وأحياناً تمر سنوات ولا تراه .. ولم تذكر سوسن أى شىء عن أمها ، واكتفت بأن تقول إنها طيبة .. وإنها تصوم وتصلى وأوشكت زينب أن تصارحها بأنها تعلم أن أمها راقصة . ولكنى عينى سوسن كانتا تتوسلان إليها أن تسكت .. أو هكذا خيل إلى زينب .. فسكتت وهى تقول لنفسها إن سوسن عاجزة ضعيفة .. وأنها لابد أن تساعدها على أن تقوى وتمتلىء شجاعة وثقة بالنفس .. وفى ذلك اليوم تحدثت زينب عن فيلم جان دارك ، واستمعت إليها سوسن مبهورة .. وإن لم تفهم تلك المشاعر الغامضة التى تعبر عنها زينب بكل هذا الانفعال .

كان كلا الحلمين ، جان دارك ونعيمة عاكف .. لا مجال فيهما للزواج ، وخاصة إذا كان الزوج رجلاً مثل نور الدين .. ولم تصدق زينب أنها سوف تضطر إلى الزواج منه ، رغم استسلامها لما تقوله أمها . ورغم ما كان يجلبه

نور الدين من عزبة الفيوم لأمها ، ورغم أن الواقع الذى يحيط بها يؤكد أنها تتورط كل يوم أكثر فأكثر مع نور الدين ، ولكنها رفضتّ هذا الواقع ، أو أرجأته حتى جاء اليوم الذى بدأ يستعد فيه نور الدين للسفر وأصبح من المحتم أن يتم الزواج . وخرجت زينب مع أمها لشراء ملابس وحقائب سفر ، ومع ذلك ظلت فى قرارة نفسها تعتقد أن هذا الزواج مستحيل وأنه لن يتم ، حتى حددوا موعداً لمجىء المأذون . عندئذ اجتاحها الفزع فى هجمة قاسية ، وزاد من قسوتها ما واجهته من أحداث . عرفت البنات أنها سوف تترك المدرسة وتتزوج وتسافر إلى باريس . سمعوا الخبر من سوسن فقابلوه كعمل باهر خارق آخر من أعمال زينب . مفاجأة عظمى وذروة لمعجزاتها السابقة .. وكانت زينب تستمع إلى صيحاتهن وهى مشتتة النفس ، لا تجد صلة بين الفزع فى أعماقها ومظاهرات التهليل والفرح من حولها .. ودهشت من نفسها ، وهى تخفى حقيقة ما بها ، وتقبل فرحتهن .. وتقدم لهن نفسها الممزقة ينهشن فيها حتى يشبعن من السرور والسعادة . ونادتها الناظرة إلى حجرتها ، وصاحت البنات فى اشمئزاز :

ـ ما لها ومالك الآن .. لقد أصبحت سيدة مثلها مثلك . ولك الحق فى أن تفعلى ما تشائين ..

وقالتَ الناظرة لزينب وقد أغلقت عليها الحجرة :

ـ اسمعى ياابنتى .. هذا آخر يوم لك فى المدرسة .. وكل ما أريده هو أن أقبلك .

وقبلتها الناظرة وضمتها إلى صدرها فى حنان ، وفوجئت زينب بدموع فى عينى السيدة العجوز التى كانت تقول فى تأثر :

ـ أعترف لك ياابنتى أنك حيرتنى .. لقد قسوت عليك .. وكنت أظن أنك تستحقين هذه القسوة .. ولكن ما من مرة ناديتك وتحدثت معك إلا وشعرت بالندم .. إن بك شيئاً يأخذ القلب .. وأنت رغم كل شىء كنت من أذكى البنات ودرجاتك متفوقة .. ولعلك تستطيعين مواصلة التعليم بعد الزواج .. فمثلك فيه نبوغ .. وخسارة أن تقطعى تعليمك ..

ومسحت الناظرة دموعها ، بحركة صريحة بيدها وهى تقول :

- هأنت ترين دموعى .. لأنى أحببتك يازينب .. ولسوف أفتقدك وأفتقد شقاوتك .. فلا تنسينى ولا تنسى مدرستك .. وتذكرى أن يوماً ما سوف تكون لك بنت حلوة مثلك .. وعندئذ سوف تفهمين الكثير مما أشعر به نحوك ..

واجهت زينب الموقف فى ذهول وقد ارتج عليها . وقابلت انفعالات الناظرة بجمود لا يخلو من قسوة لم تنتبه إليها السيدة العجوز فى غمرة انفعالاتها ، وكانت قد ذهبت إلى مكتبها وفتحت أحد الأدراج ، وأخرجت منه لفافة ورق وطلبت من زينب أن تفتحها . ورأت زينب داخل اللفافة مجموعة من الأقراط والخواتم الرخيصة ، كانت تنتزعها الناظرة منها خلال الأعوام الثلاثة الماضية . هاهو ما ينتزع منها يعود إليها . وعجزت زينب عن الكلام ..

واستمعت إلى وداع الناظرة ، وهى لا تفهم ما تسمع .. وخرجت كالمنومة إلى زميلاتها فى الفناء وطلبن منها أن تروى لهن ما حدث فى حجرة الناظرة .

فاكتفت بأن تمد لهن يدها بما فيها من حلى ولم تسمع ما قلن . وتركتهن يتخاطفن الخواتم والأقراط وغادرت المدرسة ، وهى لا تدرى ما الذى يحدث فى هذه الدنيا ، وواجهت زينب فى البيت أحداثاً قاسية من نوع آخر ، إن أمها تتحدث عن موعد الزواج وكأنها سترتكب جريمة فى الخفاء . إن أم نور الدين لا تعلم بأن ابنها سوف يتزوج الليلة . وخديجة مذعورة لأنها تتوقع أن يعدل نور الدين فى آخر لحظة عن الزواج تحت ضغط أمه . كانت خديجة تلطم خدها وتبكى وتذهب إلى الحاج رمضان تسأل العون ليمنع الكارثة المتوقعة ، فيطمئنها الرجل . ولكن مخاوف الأم أشاعت فى قلب زينب أحزاناً وكآبة جعلتها تختنق بهذا الجو المشئوم الذى يحيط بزواجها وتذكرت جدتها ورأتها وهى تصرخ مدافعة عنها يوم جاءت أم إسماعيل لتتم عملية ختانها . رأتها وهى تصيح « ياولاد الكلب .. عايزين تعملوا إيه فى بنت مدحت » .. وتذكرت وجه نور الدين وهو يستمع لأمها تروى له عما اشترته من ملابس وكم دفعت ثمناً لها . وكم تبقى معها من نقود ورأته وهو يمد يده إلى ملابسها الداخلية

الجديدة يمسك بها وينفرج فمه عن ابتسامة بشعة ويقول بصوت أشبه بالصرير مخاطباً أمها :

- لماذا هذه الملابس .. بعد أن أتزوجها لن ترتدى هذه الأشياء . لأنى لن أتركها تغادر السرير .

وضحكت الأم .. واحتفظت زينب ببلادتها وكأنها لا ترى ولا تسمع ولا تصدق أنها يوماً ما ستكون فى سرير واحد مع هذا الرجل . وخطر لزينب وهى تتذكر هذا أنها مقهورة ولكن إحساساً ما جعلها ترفض هذا الخاطر . إن كل ما يحدث ، لا يحدث لها . إنه يحدث لبنت أخرى غيرها .. إن الألم فوق ما تطيق أن تحتمله ، ومن يدرى .. فربما لا يجىء نور الدين .. وربما كان نور الدين هذا مجرد اختراع .. كذلك جدتها التى تذكرتها ، إنها مجرد خيال ووهم لم تكن لديها جدة ، ولم يكن لها أب اسمه مدحت بك . ولو كان أبوها إنساناً حقيقياً لكان موجوداً الآن ولاستطاع أن يبدد هذه الدوامة التى تطحن رأسها . إنه أسطورة ، حكاية اخترعوها .. ومع ذلك فلن يحدث لها شىء ، إنها واثقة من ذلك .. ستظل كما هى ، جان دارك أو نعيمة عاكف ، أو جان دارك ونعيمة عاكف معاً ، هذه هى الروعة سترقص وتغنى وتمرح وتعيش مع الطبيعة بين الورود ، والأزهار والأشجار ، ستجرى فى الجبال والوديان والصحارى وتعبر الأنهار وتصادق الطيور والأسود والفيلة والدببة والبهلوانات والأقزام ستقابل الشيطان الذى ظهر لعم صالح ، وستلعب معه وهو يطول ويقصر سوف تقود الناس وستجمع من حولها الرجال وسوف تأمرهم أن يصلحوا الدنيا فتنصلح الدنيا إنها أفضل من تلك الأميرة المغربية التى جاءت المدرسة لشهرين وذهبت إلى بلادها ولم تفعل شيئاً . مجرد صنم .

إنها أفضل من كل النساء وهى لا تريد أن تحترق مثلما احترقت جان دارك . إنها تريد أن تعيش فى دنيا ليس فيها حريق . تريد أن تحيا ، ولكنها ستخوض معارك وتواجه جيوشاً . وستضع على صدرها الأوسمة والنياشين وسيكون فى

يدها سيف تقضى به على أعدائها .. نور الدين .. والحاج رمضان . لن يكون أعداؤها أكثر من كومة من القش .

وأفاقت زينب لتجد وجه أمها ووجه خالها يطلان عليها ، ومضى بعض الوقت قبل أن تعلم أنه كان قد أغمى عليها .

وصاح الحاج غاضباً فى خديجة :

ـ كل هذا بسببك .. لقد قلبت الفرح إلى جنازة

قالت خديجة فى هلع :

ـ قلبى خائف ياأخى .

فقال الحاج وهو يضرب كفا على كف :

ـ كلنا خائفون .. ولكن يجب أن نتوقع الخير :

والتفت إلى زينب وقال متصنعاً الرقة :

ـ قومى ياعروسة .. واستعدى .

والتفت إلى خديجة وقال لها فى حسم :

ـ أما أنت .. فاطلقى الزغاريد واطردى هذا النحس الذى تستدعينه فأطلقت خديجة زغرودة اغتصبتها اغتصاباً . وارتجف لها جسد زينب .

وجاء المأذون ، وجاء نور الدين وجاء الطعام من بيت الحاج ، وبينما هم جالسون إلى الطعام وجدت زينب نفسها تنهض وكأن قوة آمرة تحركها ، وأخذت أطباقاً غرفت فيها الطعام .. وحملتها رغم احتجاج الجميع ودهشتهم إلى عم صالح وكان جالساً عند الباب ، ما كاد يراها حتى أجهش بالبكاء قائلاً :

ـ كنت أريد أن يكون مدحت بك حاضراً اليوم .

فقالت فى جرأة :

ـ لو كان أبى موجوداً لما تزوجت هذا الزواج .

فنظر إليها متردداً ثم قال بصوت خفيض :

ـ لا تقطعى قلبى ياابنتى .

قالت زينب فجأة :

- لو قلت لى تعال نهرب منهم لذهبت معك الآن .

قال عم صالح :

- هذا كلام لا يقال الآن ياابنتى .

قالت زينب :

- لن يقال

قال صالح فى حزم :

- ادخلى ..

وجذبها من يدها إلى الداخل وهو يتمتم :

- ربنا يقويك ياابنتى .

قالت زينب وهى تتحرك معه :

- أتتخلى عنى ياعم صالح .

قال الرجل بصوت عصبى :

- لا تقولى هذا .. ويوما ما ستفهميننى .

وعادت إليهم . وكان الحاج يتعجل انفضاضهم حتى تنتهى الليلة على خير ، فأخذها نور الدين إلى حجرة دودو هانم التى أعدوها لليلة الدخلة ، وأغلقوا عليهما الباب ، وهجم نور الدين عليها وقد أرقدها على السرير ، فاستسلمت له ، وهى تحدق فى المصباح بسقف الحجرة ، تتذكر جدتها وهى تفعل نفس الشيء لحظة موتها . وتذكرت العذاب الذى شعرت به وأم إسماعيل تجرى لها عملية الختان .. وظلت تحدق فى السقف والمصباح ، ونور الدين يجثم على صدرها ، ويعبث بجسدها ويلهث فوقها وقد خنقها بأنفاسه وهى تواجه هذا الكابوس بذكرى عينين محدقتين غاضت منهما الحياة وبإحساس غامض بالشجاعة والكبرياء والاحتقار ، حتى همد نور الدين وانزاح عنها ، وهى ما زالت تحدق فى السقف ولم تسمع ما يقوله . كانت عارية . ولا يهمها أن تستر جسدها ، وكانت تشعر بالبلل ، ولا يعنيها أن تجففه . ولا تدرى

متى نامت أو غابت عن وعيها فى تلك الليلة ، وكان أول معنى خطر لها عندما استيقظت فى الصباح أن هذا الذى يحدث لها ، هو ما كانوا يبغونه ليتخلصوا من مشكلتها . كما كانوا يبغون الموت ليتخلصوا من جدتها . واعتبرت نفسها فى حكم الميتة . فهى لا تريد أن تخاطب أحداً . ولا تريد أن تجيب على أسئلة نور الدين وثرثرته .. وهو ماكان ليلح عليها فى الحديث وأمامه خديجة تحدثه كما [illegible] أذنه [illegible] حتى أن يسمعه كل ما يريده [illegible] زينب ، هو جسدها الذى تقدمه له فى صمت واستسلام .

وكان أهم ما يشغل نور الدين قبل السفر ، هو أن ترضى أمه بلقاء زينب التى كانت تلاحظ اهتمام أمها وخالها بهذا اللقاء . فلا تجد فى نفسها صدى لاهتمامهما . بل تشعر ببعض الراحة لأنها لن تضطر إلى مواجهة هذه المرأة الغريبة عنها . حتى لم يبق على موعد السفر إلا يومين ، فدخل نور الدين البيت وأعلن أنه سيأخذ معه زينب إلى بيت أمه ، كان صوته آمراً . وكان يتعجل زينب فى خشونة ، وانتابها شعور أنها ذاهبة إلى مكتب الناظرة وكانت يائسة ، قابلت وداع أمها ببرود ، واستمعت إليها وهى تنصحها بكسب قلب حماتها وكأن لا شأن لها بما تسمعه . وجاء عم صالح يودعها فوقف معها وحدها فى صالة البيت وقال :

- أنا أعرف ما فى قلبك يابنتى ..

فنظرت إليه نظرة جامدة لم يتحملها .. فقال :

- أستغفر الله وأتوب إليه . نحن لا نعرف حكمته .. ولكن لو مس أحد لك طرفاً بسوء فلن ينجو منى .

قالت زينب هامسة وكأن صوتها آت من بعيد :

- أنا مسافرة ياعم صالح .

فنفرت عروق الرجل من اليأس واتسعت عيناه كأنه عاجز عن التنفس وقال فى حرقة :

- الله يحفظك من كل سوء .

ورثت زينب لحاله فقالت فجأة :

- لا تخف يا عم صالح .. فهى أيام طالت أو قصرت .. سوف تنتهى .

قال صالح فى ألم وحيرة :

- أنت لست سعيدة ياابنتى ;

قالت باسمة يائسة :

- إنك [illegible] يا عم صالح [illegible]

كانت لا تدرى كيف تخاطبه . وهو لا يدرى كيف يخاطبها . يشعر بعجز مشاعره عن أن يجعلها سعيدة ، بينما هى لا تكاد أن تفهم كيف تخلى عنها هذا الرجل الوحيد الذى أحبته ، وكيف لم ينقذها مما هى فيه . وهو الذى كان يطرد العفاريت ويحارب الشيطان وهو يطول ويقصر فى حجرته . ما جدوى أن ينتصر على الشيطان ثم لا يستطيع أن يفعل شيئاً بعد ذلك . وحمل عم صالح الحقائب ، إلى سيارة نور الدين . ووقف ينظر إليها نظرة وداع ، وهى مشغولة عنه بذلك الشىء الجامد البليد الذى يجثم داخلها . لا تدرى إذا ما كان يضايقها ويكتم مشاعرها أم يحميها مما حولها . واستقبلتها أم نور الدين بترحاب شديد . وأخذتها بين أحضانها وقبلتها ، وكأنها لم تعترض أبداً على هذا الزواج . وكانت امرأة طويلة بدينة ، لها وجه سمين مستدير ، وعينان كبيرتان . فيهما جرأة وقسوة . وكانت تغطى رأسها بطرحة سوداء ، وتفوح من جسدها رائحة عطر نفاذ . واجهتها زينب بصمت ، فسره نور الدين بصفاقة وهو يقول لأمه :

- إنها خائفة منك .

فقالت الأم بصوت قوى :

- ولماذا تخاف منى .. وهل فعلت شيئاً يخيفها .

كانت الأم تخاطب ابنها ، وقد تجاهلت زينب تماماً بعد أن فرغت من كلمات الترحيب ، وهى تسأله إذا كان قد أكل ، وتقول إنها أعدت له كل أنواع الطعام التى يحبها . ويواصل نور الدين حديثه السمج فيقول مازحاً إن زينب لا تعرف الطهى ولكنه سوف يعلمها .

ومصمصت الأم شفتيها وقالت له :

ـ هل توجد واحدة لا تعرف الطهى .. ربما كانت تتدلل عليك .

قال نور الدين :

ـ ربما تستطيعين تعليمها طريقتك فى صنع المحشى .. والملوخية وطواجن الحمام بالفريك .

قالت الأم بصوت محتج :

ـ أنا أعلمها .. إنها ولاشك تعلمت من أمها كل أصناف المطبخ التركى .

وأحست زينب رغم جمودها وبلادتها . أن هذه المرأة تسخر منها ومن أمها ، ولكنها لاذت بصمتها البليد ، واحتفظت بوجهها الجامد حتى نهضت الأم بدعوى الذهاب إلى المطبخ .. وسمعت زينب صوت نور الدين يدعوها للذهاب مع أمه فلم تجب ، حتى قالت له أمه :

ـ لا .. إنها عروسة .. ولا يصح أن تدخل المطبخ .. ابق أنت معها وسأذهب أنا .

ولكن نور الدين تركها وحدها فى حجرة نوم كئيبة . جلست على مقعد فيها . لا تدرى ماذا تفعل . بينما ذهب هو للقاء أصدقائه الذين جاءوا لوداعه فنسيها ، وتجاهلتها أمه . وأرسلوا لها الطعام على صينية تحملها خادمة وكأنها سجينة فى زنزانة . وفى الساعات الأولى من الصباح ، كانت مازالت جالسة على مقعدها تغفو وتصحو وهى تعانى من إرهاق نفسى ، وانتبهت ونور الدين يقتحم الحجرة ، ويخلع ملابسه ، ويأخذها إلى السرير لينقض عليها ، وقد تحول إرهاقها إلى كابوس .





هذا هو رجل أحلامى

سافرت زينب إلى باريس .. وعاشت فى شقة صغيرة مكونة من حجرتين فى الحى اللاتينى .. بسان ميشيل .. ولم تشعر برهبة الغربة .. ولا بخوف من اختلاف البيئة .. ولم تضطرب لضعف فرنسيتها . كل هذه عقبات هينة . بل هى ليست عقبات . إنها مشاغل تصرفها عن هذا الحيوان الذى تعيش معه .. كان نفورها منه يزداد .. وتحول استسلامها له فى الفراش إلى فزع يومى . نوع من القهر ترضخ له . ولا تدرى كيف فرضوه عليها . ولا تدرى متى يكون الخلاص منه . وكان نور الدين يتهمها بالبرود .. فلا تهتم .. وأحياناً كانت تمنى نفسها بأن هذا البرود الذى يشكو منه سوف يؤدى إلى ابتعاده عنها . واكتفت بممارسة استسلامها الذى يعزلها فى نفس الوقت عنه .

ولكن الشعور بالفزع يطغى على الشعور بالاستسلام .

فكانت تكثر من الخروج .. وتتعامل مع الشارع فى حدود عمليات الشراء أو المشى لساعات فى الشوارع المحيطة بالبيت .. واشترت مظلة ومعطف مطر .. وكانت تهيم على وجهها . تسير مندفعة بخطوات سريعة . كأنها تلحق بموعد هام ، أو مقبلة على لقاء تتلهف عليه ، وكثيراً ما كانت تنتهى بها خطواتها إلى

كوبرى أو شاطىء السين أو فترينة محل كبير . فتفرح وكأنها وصلت إلى موعدها الهام . ثم سرعان ما يزول فرحها . وتهاجمها الحيرة .. فتعاود السير فى نشاط ..

وكانت إحدى فرحاتها الكبرى عندما انتهت بها خطواتها فى سان ميشيل إلى منحنى كشف لها عن حدائق لكسمبورج . فأصبحت تتردد على الحديقة وتجلس فيها لساعات . ترقب الطلبة والطالبات . وترقب الساعة أعلى المبنى الكبير يتحرك مؤشرها من ساعة إلى ساعة .. وترقب المرأة العجوز فى ردائها اللبنى وهى تجمع الأوراق المهملة من أرض الحديقة ، كانت وحيدة . ولكنها لا تشعر بالوحدة .. فهى تتخلص أثناء سيرها فى الشوارع ، أو جلوسها فى الحديقة من انفعالات الفزع .. وتذكر صديقاتها فى المدرسة .. ويخيل إليها أحياناً أنهن يسرن معها .. وأنها تقودهن إلى هنا وهناك .. وكانت أنغام أغنيات تجيش فى صدرها وتسمع نفسها وهى تغنى بلا صوت ، وأحياناً يرتفع صوتها فجأة بغناء حقيقى . ويخيل إليها أن الدنيا كلها ستنصت لغنائها .. وأنهم سيعجبون بها . وعندما التفت إليها بعض الشبان والبنات وهى تغنى فى الحديقة ثم مضوا فى طريقهم ، فكرت فى أن تتعلم الأغانى الفرنسية وأن تغنيها .. فربما يلتفون حولها ولا يمضون فى حالهم لأنهم لا يفهمون أغانيها العربية . إنها بحاجة إلى جمهور يفهمها . ويعجب بها . ولو كانوا وقفوا ، لقامت ورقصت لهم .. ولبهرتهم برقصاتها . ومرت بها ذات يوم المرأة العجوز حارسة الحديقة . فوقفت وسألتها عن الوقت .. والتفتت المرأة إلى الساعة الكبيرة وقالت :

ـ إنها اليوم معطلة . وأنا أتعجل انصرافى ..

كانت زينب تجيب المرأة .. وفى عينيها ابتسامة مرحة .. فإذا بالعجوز تتشجع وتقول لها :

ـ لعلى أسألك .. لأنى مثلك أقضى الساعات هنا ولا أكلم أحداً .. هل أنت طالبة ؟..

قالت زينب :

- لا ..

فسألتها العجوز :

- من أى بلد أنت ؟..

قالت زينب :

- من مصر

فصاحت العجوز :

- بلاد الأهرام « وأبو الهول » ؟! هل أنت سائحة ؟

قالت زينب :

- زوجى يعمل هنا فى السفارة .

فبدت الدهشة على المرأة وقالت وهى لا تخفى دهشتها :

- ولكنك صغيرة جداً .. كم عمرك ؟!

قالت زينب :

- ستة عشر عاماً .

قالت العجوز :

- أوه .. هذا زواج حب ولاشك .. من يتزوج فى هذا السن غير العاشقين مثل روميو وجولييت .. هيه ؟!

وتلفتت العجوز حولها وقالت مازحة :

- ولكن .. أين هو .. إنى لم أره أبداً ؟..

قالت زينب :

- إنه يعمل .

وقالت العجوز وهى تغمز بعينها :

- ولكنه لا يجب أن يتركك وحدك كل هذه الساعات .

ومنذ ذلك اليوم أصبحتا صديقتين . هى ومدام برنار حارسة الحديقة وهى التى دلت زينب على الطريق إلى برج إيفيل واللوفر وكنسية نوتردام والشانزليزيه .. وكانت مدام برنار تعجب كيف لم تشاهد زينب هذه الأماكن

مع زوجها أو عاشقها .. ثم تشككت فى نوع العلاقة بين صديقتها وزوجها ..

وكان ذلك عندما سألتها :

- هل يتزوج الرجل عندكم أربعاً ؟.. هل لزوجك زوجة أخرى ؟

قالت زينب وهى تتذكر زوجتى خالها :

- لا .. ولكن أحياناً يحدث هذا !..

قالت مدام برنار :

- أيحتمل أن يتزوج زوجك امرأة أخرى ؟

قالت زينب :

- مستحيل ..

قالت مدام برنار مستريبة :

- إن هذه جريمة فى بلدنا ..

وأرادت زينب أن تتحدث .. وأن تعبر عن أفكار غامضة فى رأسها قد تتضح لو أنها انطلقت فى الحديث . ولكن لغتها الفرنسية لا تسعفها ، وإذا بها تقول فجأة :

- أنا معجبة بجان دارك .

قالتها .. وكأنها تعبر عن معانى كثيرة .. تدافع بها عن نفسها فى مواجهة شكوك هذه الصديقة الطيبة .

وقالت مدام برنار فى حماس :

- إنها قديسة .. إنها قديسة شارل ديجول .

وشعرت زينب من حماس المرأة ، أنها استطاعت فعلاً أن تعبر عن شىء هام . وإن كانت لا تدرى ما هو على وجه التحديد .

وكانت زينب تزور مع نور الدين بعض بيوت رجال السفارة . ولكن أحداً لم يكن يزورها من السيدات .. ولم تهتم بذلك . ولم تدرك أنهم يعاملونها على أنها زوجة موظف إدارة من درجة أدنى .. فهى التى تسعى إليهم . وهم لا يسعون إليها . وهى تذهب مع نور الدين ، فيجلس مع الرجال فى الحديقة يتحدثون ، بينما تجلس هى مع السيدات المصريات فى حلقة مجاورة . لا تكاد تفتح فمها

بكلمة . وما من واحدة منهن تبادلها الحديث . وهى مستريحة تماماً إلى هذا الوضع .. حتى قالت لها زوجة الملحق الثقافى ذات يوم .. إنها تريد أن تتحدث معها على انفراد .. كانت امرأة قصيرة نشيطة .. كثيرة الحركة ، كثيرة الكلام والضحك مع الجميع . وكانوا ينادونها رجالاً ونساء بغير كلفة باسم « ميرا » .

وعجبت زينب من طلب ميرا . ولكنها كانت ترتاح إليها وإلى حيويتها .

وتشعر بغيرة مبهمة نحوها . وتفكر أحياناً لو كانت تستطيع أن تفرض على هذه المجالس شخصيتها بنفس المرح والبهجة اللذين يشعان من ميرا .. ثم تعود وتنكمش فى وحدتها . ومظهرها البليد الذى تتقوقع داخله وتحتمى به .. وهى تدرك إدراكاً خفياً أن أى مظهر للحيوية ، سوف يورطها أكثر مع نور الدين .. وأنه إذا كان لها أن تمرح .. وأن تسمع من ينادونها يازوزو .. فالأفضل أن يكون هذا بعيداً عن نور الدين ومسامعه .. فى عالم آخر غير هذه الدنيا .

وذهبت زينب لتزور ميرا فى بيتها حسب الموعد الذى اتفقتا عليه . ولم تتركها ميرا لحيرة طويلة . فقد دخلت فى الموضوع مباشرة . وقالت لزينب إنها فكرت فيها طويلاً ، رغم قلة المناسبات التى جمعتهما . وأنها آخر مرة قابلتها فى بيت مستشار السفارة ، وجدت نفسها مضطرة إلى الحديث معها ، ومصارحتها بما ستقوله لها . وعلى زينب أن تسمعها كما تسمع من شقيقتها الكبيرة التى تحبها وتريد لها كل خير .. وهى واثقة أن زينب ستفعل ذلك لأنها لو كانت تشك لحظة فى عدم فهم زينب لدوافعها ما كانت لتتورط فى مثل هذا اللقاء وهذا الحديث . إنها ببساطة تريد أن تنصح زينب حول مسائل قد تبدو بسيطة . ولكنها هامة للغاية « وأنت لا تعرفين يا زينب ألسنة الناس .. فأنت صغيرة .. وأنا أعلم من مصطفى زوجى .. أنك تزوجت ولم تبلغى بعد السادسة عشرة . فقد حسبوا السنوات بالهجرية . فلا ذنب لك .. ولكن مثلك يجب أن تكون لها صديقة تساعدها . وتقول لها أشياء ضرورية عن الحياة . خاصة إذا ما كانت تعيش فى غربة عن أهلها . وتختلط بمجتمعات يحضرها دبلوماسيون . وأين . فى باريس .. بلد الصالونات والحياة الاجتماعية

العريقة . وأنت يا زينب لا ينقصك شيء . فجمالك تحسدين عليه .. ولكن هذا الجمال نفسه يكون مصدر متاعب كثيرة ، لأن السيدات تغرن من الجمال . ويبحثن بأظافرهن وأسنانهن عن شيء يوجهن إليه النقد فى المرأة الجميلة .. هل يضايقك يا زينب أن أمضى فى هذا الحديث ؟» ..

قالت زينب فى دهشة حقيقية أخفتها وراء وجوم يطبق عليها :

ـ أبداً .

فنظرت إليها ميرا محاولة أن تنفذ إلى أعماقها . وعادت تسألها :

ـ صحيح ..

ابتسمت زينب ابتسامة فاترة وهمست :

ـ صحيح .

فمضت ميرا تقول لزينب ، إنها يجب أن تتغير . أولاً يجب أن تبدو وكأنها كبيرة « لا أعنى أن تتصرفى كامرأة عجوز .. ولكن يجب أن تتخلصى من مظهر التلميذة الهادئة . المطيعة . يجب أن تدخلى فى الحديث وتشاركى فيه . والأمر ليس صعباً كما تتصورين .. دردشة . وأى كلام . وكل واحدة تريد أن تثبت وجودها واهميتها .. وكل واحدة تريد أن توطد علاقاتها بالأخريات . وأنت بينهن صغيرة . فيجب أن تكونى البادئة بالاهتمام بهن . تصورى أنك دخلت بيت فوزية زوجة المستشار وخرجت منه دون أن تقولى كلمة واحدة .. حتى وأنت تنصرفين .. مددت يدك تصافحينها دون أن تقولى أى شيء .. حتى ولا بنسوار .. هذا لا يصح أبداً ياحبيبتى .. على الأقل ، كلمة شكر أو تحية . اسمحى لى أن أكلمك بصراحة . ما دمت تقبليننى كشقيقة لك . أليست لك شقيقات يا زينب ؟

أجابت زينب :

ـ لا ..

فسألت ميرا :

ـ أنت وحيدة .

أجابت زينب :

ـ نعم .

فهتفت ميرا :

ـ إذن فأنا شقيقتك .. التى تحتاجين إليها حتى تخرجى من وحدتك . إن أحداً لن يفهم هذه الوحدة .. إنهم يفسرونها بعدم فهم .. أتدرين أنك أحدثت أزمة فى أول حفلة ذهبت إليها فى بيت السكرتير الأول . دخلت إلى حجرة البوفيه قبل فوزية .. وغضبت واضطرت سميرة صاحبة البيت أن تعتذر لها بأنك جديدة .. إنها مسائل سخيفة . ولو حدثت لى لما اهتممت بها . ولكن زوجة المستشار لها وضع خاص . فالسفير كما تعلمين أعزب . وهى تعتبر السيدة الأولى فى السفارة .. لأن منصب زوجها هو التالى لمنصب السفير .. وهى لا تمثل فى هذا الوضع نفسها . إنها تمثل الدولة . ولذلك يجب أن تتقدم على جميع السيدات . ولكنى أعرف أنك كنت بجوار باب البوفيه .. وكانوا وقفين متجهين نحوك .. ولعلك أسرعت بالدخول خوفاً منهم . أنا أفهم ذلك .

وإذا بزينب تقاطعها وقد رفعت صوتها فى عصبية :

ـ ولماذا لا أدخل قبلهم ؟.. أنا لست خائفة من أحد .

وارتبكت ميرا .. ورسمت على شفتيها ابتسامة هادئة وقالت فى حنان :

ـ قواعد إتيكيت سخيفة . ولكن يجب مراعاتها .

قالت زينب فى حدة :

ـ ولماذا أراعيها ؟!

قالت ميرا :

ـ من أجل الدولة التى نمثلها يا حبيبتى .

سألت زينب فى تحدٍ :

ـ أية دولة ؟

قالت ميرا فى صبر وهى تتشبث بابتسامة دبلوماسية :

ـ مصر .. دولتنا .

قالت زينب وقد تحول صوتها إلى غضب :

- مالى أنا ومصر .. والدولة ؟

قالت ميرا :

- كلنا هنا لنمثلها .

قالت زينب :

- أنا لا أمثل أحداً !

فأمسكت ميرا بها . واحتضنتها .. وقالت بحنان صنعته بخبرتها :

- أنت حبوبة يازينب .. إن هدوءك الظاهر يخفى تحته بركاناً متقداً .. إن زوجك لم يخبرنا بحقيقتك .. إنك مليئة بكل هذه الثورة والحيوية .. أرجو ألا تغضبى يا زينب .. فأنا أشعر الآن وكأنى عجوز شمطاء .. من جيل آخر انتهت أيامه ..

كانت عينا ميرا تتوسلان إليها .. ويداها تحتضنان زينب .. لعلها تستطيع أن تقنعها بهذا الحنان الجسدى .. بعد أن عجزت عن إقناعها بكلامها . وكانت ميرا محقة فى لجوئها إلى هذا الحنان بالعناق والقبلات . فقد تراخت زينب وانحسر عنها الغضب . واستسلمت لها فى وداعة لا يمكن توقعها من هذه التى كانت ثائرة غاضبة منذ لحظات . وهمست ميرا :

- إنك ستحضرين أول حفلاتك فى السفارة . وسترين السفير فى الأسبوع القادم مع احتفالات الثورة .. ولن يكون فى الحفل المصريون وحدهم . سيمتلىء حفل الاستقبال برجال السلك الدبلوماسى فى العالم كله .. ومعهم زوجاتهم . وسيأتى رئيس وزراء فرنسا . والوزراء .. وثقى أنك ستدخلين هذه الحفلة كأميرة . سأذهب معك إلى الكوافير .. وسأختار معك ما ترتدينه من اكسسوار مع فستان السهرة .. وسنضحك معا .. وسأجعلك تشربين الكوكتيل .. وأقسم لك أنى لن أقابل فرنسياً واحداً فى الحفل لن يسألنى عنك .

وابتسمت زينب وهى منكمشة فى حضنها . واشتد بها التأثر .. فبللت خديها بالدموع واعتبرت ميرا أن هذه الدموع اعتراف من زينب بأنها مطمئنة

إليها مقتنعة بها ، ودخلت زينب حفل السفارة وهى واثقة من نفسها ، تسريحتها جديدة . وفستانها جديد . وحول جيدها عقد جدتها . وفى يدها أساور جدتها . وكانت قد تذكرتها وهى تلقى بنظرة أخيرة على المرآة .. وتذكرت صور جداتها وعماتها وجدتها تروى لها الحكايات عنهن .. وكأنها ذاهبة إلى ذلك العالم الذى كن يعشن فيه .

وعندما هبطت إلى الشارع لتركب السيارة بجوار نور الدين ، تذكرت مدام برنار ، وأنها انشغلت عنها منذ أيام . وتمنت لو كانت تراها الآن . وتذكرت عم صالح وحجرته التى يظهر فيها الشيطان ، وهى واقفة تلوح بيديها تقول له إنها تريد أن تراه . وعادت تفكر فى مدام برنار . وفى نظراتها الحنونة .. وهى تحدثها عن ابنها الذى دخل الدير ، والرؤى التى كانت تظهر له وهو صبى عند أشجار هذه الحديقة ، وكيف أنه كان يخاطب الكلاب والقطط والطيور . وتذكرت تلك الأميرة المغربية التى جاءت إلى المدرسة ، وكأنها تتوقع أن تراها فى الحفل . كانت تشعر بتحفز وتوقع لشىء هام ، سوف يحدث بمجرد أن تهبط من السيارة وتدخل الحفل ، وقابلهما رجال يقفون فى مدخل قاعة الاحتفال . وكان نور الدين قد قال لها إن السفير سيكون واقفاً بين هؤلاء الرجال . وأنها ستتقدم إليه وتصافحه ، فرفعت رأسها . ومشت متجهة نحو الرجال . تبحث بعينيها عن العيون التى تنظر إليها .. وتلتقى عيناها بعيونهم .

ورأته واقفاً بقامته الطويلة .. ورأسه الكبير قد تخلل شعره الأسود خطوط من الشعر الأبيض .. وكان يتحدث ثم قطع حديثه .. واتجه بنظراته إليها .. واتجهت إليه : وأحست بيده القوية تصافح يدها وهو يرحب بها قائلاً بصوت حار :

ـ أهلاً .. أهلاً ..

وسمعته يخاطب نور الدين :

ـ عروستك يابهنس ؟

وقال نور الدين :

- نعم ياسعادة السفير .

والتقت عيناها بعينيه مرة أخرى .. وأيقنت أنه ينظر إليها بإعجاب .. وتوقفت لا تريد أن تتحرك حتى دفعها نور الدين ليفسح المكان للقادمين ودخلت القاعة الكبيرة .. وقد خيل إليها أنها دخلت هذا المكان من قبل بأضوائه . وبهذه الجماعات من الرجال والنساء .. والسقاة يسعون بينهم يحملون صوانى الشراب .. ورأت ميرا تقبل عليها .. وتهمس ضاحكة :

- أنت جنان يا زينب .. حلوة حلوة حلوة . لا أستطيع أن أصف لك مقدار حلاوتك .

وأخذتها ميرا من يدها . وطافت بها على سيدات رجال السفارة . فصافحتهن زينب وهى تبتسم فى عيونهن . تكاد تقول . أنا إنسانة مرحة أستطيع أن أملأ هذا المكان طرباً ورقصاً ، وشاركت فى الحديث بالضحك وبابتسامات العين ، وبكلمة عابرة . وجاء سفير الهند على رأسه عمامة وتتدلى من ذقنه لحية كثة . واتجه مباشرة إليهن وقال وهو يحنى رأسه بالتحية لمدام فوزية وبقية السيدات .

- إن رجلاً عجوزاً مثلى له الحق فى أن يتحدث مع سيدات مصر الجميلات .

قالها وهو يصوب عينيه إلى زينب التى كانت تبتسم له .

وقال السفير :

- أنت من جيل الثورة ولاشك .. لابد أنك سعيدة اليوم ؟!

قالت زينب بصوت قوى :

- طبعاً أنا سعيدة .

والتف حولهن رجال كثيرون من السفارة ، جاءوا ليتتبعوا ما يقول سفير الهند . الذى كان يسأل زينب :

- وأين كنت عندما قامت الثورة عام ١٩٥٢ ؟!

قال زينب :

- فى المدرسة .

قال السفير باهتمام :

ـ أنا أريد أن أتحدث معك .. فهذه أول مرة أقابل فيها جيل عبد الناصر الجديد أريد أن أسألك .. ماذا فعلت يوم الثورة ؟!

قال زينب بسرعة :

ـ قدت مظاهرة .

وهكذا أرادت أن تصور نفسها وأجابت بصدق من كانت تشعر دائماً أنها زعيمة فى مدرستها . إنها لم تفعل شيئاً فى ذلك اليوم ولعلها لم تنتبه إلى أهميته .. ولم يخطر ببالها أن تهتم بالثورة . ولماذا تهتم . ولكنها على يقين من أن هذا الجواب هو الوحيد الذى يجب أن تقوله للسفير . وأنها صادقة تماماً فيما تقول .

وكان السفير يهز رأسه فى إعجاب ، وهو يردد :

ـ الآن أعرف لماذا انتصر عبد الناصر فى ثورته .. فأنت تقودين ثورة صغيرة فى مدرستك الصغيرة ، لتساندى ثورتكم الكبيرة ، هذه هى الروح التى تصنع الثورة ، وتصنع عظمة الأمة .

وكان السفير المصرى قد انضم إلى الحشد .. ولعلهم نادوه ليواجه هذا الاختبار المفاجىء الذى قرر أن يجريه سفير الهند لشعبية الثورة . وبدا الارتياح على وجهه لما التقطته أذناه من كلمات أخيرة للسفير الهندى .. ووجه نظرة شكر وامتنان لزينب . بينما مد سفير الهند يده ليصافحها قائلاً :

ـ إنه ليشرفنى أن أصافح ثورية مثلك .

وقالت إحدى السيدات المصريات هامسة لأخرى بجوارها والسفير الهندى يبتعد مع السفير المصرى .

ـ الرجل معجب بها .

قالت الأخرى :

ـ إن زوجته لم تحضر معه .

وخطر لزينب ، أن السفير المصرى غير متزوج . وتبعته بنظراتها وهو

يتحدث مع مجموعة أخرى من الرجال والسيدات . وأحست أنها تريد أن تلحق به . وسرت فى جسدها نشوة لم تعرفها من قبل . وظلت تنظر إليه ، حتى رأته يرفع رأسه ، ويلتفت ناحيتها .. والتقت عيناه بعينيها وابتسم ابتسامة سريعة واتجه إلى آخرين يتحدث معهم ، فغضبت منه ، ولكنها ما زالت تحتفظ بنشوتها . كيف أبعد عينيه عن عينيها . لماذا لم يتجه إليها . وهل هناك ما هو أهم منها لينشغل به . وسمعت ميرا تسألها :

- مالك ؟

فابتسمت فى تأثر . فقالت ميرا :

- احذرى الكوكتيل لا تشربى أكثر من اثنين .

قالت زينب فى مرح :

- سأشرب كما أريد .

وضحكت ميرا قائلة :

- لقد تغيرت تماماً يا زينب .

وأقبل عليهما رجل قصير ، يتكلم بسرعة وقال لميرا معاتباً :

- سعاد غاضبة منك . فهى مريضة ولم تسألى عنها ؟

فاعتذرت له ميرا وقد انطلق يحدثها عن همومه ومشاكله . وإذا به يقول فجأة :

- ألن تخلصونى من مشكلتى مع نور الدين بهنس .. الرجل سرقنى .. والكل يعرف هذا .

ولم ترتبك ميرا . وخيل إلى زينب أن ما يذكره الرجل لا يعنيها .

وقالت ميرا ضاحكة :

- لا تقل هذا يادكتور .. اسمح لى أعرفك بمدام نور الدين بهنس .

نظر الرجل فى قلق إلى زينب وهمس بصوت متحشرج :

- آسف يا مدام .. أنا لا أقصد ما أقول ..

وضحك فى عصبية وأضاف :

ـ ولكن نور الدين بهنس .. أشطر من اللازم .

وانحنى وأسرع بالانصراف .

قالت ميرا معتذرة لزينب :

ـ هم الذين يجرون وراء زوجك ليأخذوا منه العملة الصعبة .. ثم يشكون .. فى أول الأمر يتوسلون . ثم ينتهون بالاتهامات ووجع الدماغ .

استمعت إليها زينب . وعيناها مازالتا تسعيان وراء السفير . وخاطر يهمس لها . ما هذا الحديث عن نور الدين . إنها لا تعرفه . ولا صلة لها به .. إنه ليس رجلها . وإذا كان هناك رجل تعجب به ، فهو هذا السفير المصرى . صاحب هذا المكان .. إنه رجل ، وعظيم ، وهو يتحرك فى شموخ ، وكأنه واحد من أولئك الرجال الذين كانت تحتفظ جدتها بصورهم .

وسمعت ميرا تسألها :

ـ هل ضايقك هذا الرجل ؟!

قالت زينب :

ـ لا .. من هذه المرأة التى يتحدث معها السفير ؟

قالت ميرا :

ـ إنها زوجة رئيس الوزراء .

قالت زينب باهتمام :

ـ إنها جميلة .

قالت ميرا ضاحكة :

ـ أصغر من زوجها بعشرين عاماً .. إن رجال السياسة يعجبون بالبنات الصغيرات . ألم ترى كيف انجذب إليك السفير الهندى ؟

قالت زينب :

ـ هيا بنا نتحرك ..

وفوجئت ميرا بها وهى تجذبها من يدها . فسارت معها . حتى اقتربتا من السفير المصرى .. ورآهما وكان قد فرغ من حديثه مع زوجة رئيس الوزراء .

فابتسم لزينب :: ووقف يقول لها :

- إن سفير الهند معجب بك .. كانت إجاباتك مدهشة .. ويجب أن تفخرى بأنك ساعدت على توطيد العلاقات المصرية الهندية .

ثم أردف قائلاً وهو يبتسم :

- إن نور الدين لا يهتم بالسياسة ولكننى دائماً أجد معه من يفهم فى السياسة . أنت طبعاً تعرفين صديقه عبد الهادى النجار .. رجل سياسى من الطراز الأول . وهأنت زوجته .. كنت تقودين المظاهرات .. هذا غريب حقاً .

وارتبكت زينب .. كان من المستحيل أن تنطق بحرف مما تريد أن تقول . ولو قالت شيئاً آخر لأفقدت هذه اللحظة روعتها .. كانت تريد أن تقول له : أنا معجبة بك .. وأنت وسيم . ورجل حقيقى بمعنى الكلمة . فأنت تملأ المكان بوجودك . والكل يريد أن يتحدث معك . الرجال فى هذه السفارة رجالك وأنت غير متزوج . فلماذا لم تكن زوجى لأقف إلى جوارك . وأصبح سيدة هذا القصر . ولا مانع عندى أن أمثل مصر والدولة كما تقول ميرا عن فوزية تلك المرأة الغبية التى لا تفهم شيئاً عن نفوس الناس .

وقبل أن تنتهى الكلمات فى قلبها . كان قد انصرف . وانقض عليها نور الدين لاهثاً يسألها هى وميرا ماذا كان السفير يقول لهما . صمتت زينب وكأنها لا تراه ولا تسمعه وقالت ميرا :

- كان يتحدث عن صديقك عبد الهادى النجار .. وأنه سياسى كبير . وأن زوجتك أيضاً سياسية كبيرة وطدت العلاقات المصرية الهندية بحديثها مع سفير الهند بينما أنت لا تهتم بالسياسة .

وفوجئت بزينب تبتعد وحدها ، كانت تسير بين المدعوين فى ثقة ونشوة ، ومدت يدها إلى كأس كوكتيل ، فرأت رجلاً يتقدم منها .. كان طويلاً أنيقاً . أشقر الشعر . كأنه ممثل من هوليود . والتفتت بالرغم منها فى اتجاه السفير ، وكان مشغولاً بالحديث مع رجل يابانى . وسمعت ممثل هوليود يسألها بالإنجليزية :

ـ أنت فرنسية ؟

قالت .. أنا مصرية .

قال لها :

ـ أنا القائم بالأعمال بسفارة ألمانيا الاتحادية .. هل زرت ألمانيا ؟

وتبادلت مع الرجل حديثاً طويلاً . حكى لها عن بلاده . والحرب ومصر

التى لم يزرها ومعلوماته المدرسية عنها . وأجابت باقتضاب عن أسئلته عن النيل والطعام المصرى حتى أقبلت عليها فوزية .. واشتركت فى الحديث .. وهى تقول لها بالعربية :

ـ رأيتك وحدك .. فقلت أسعفك .

ومر بهم السفير .. وقال وهو يبتعد :

ـ أنا معجب بنشاطك يا مدام بهنس .

لم تطق سماع اللقب . وودت لو تصرخ فيه . لا صلة لى ببهنس .

قف . فأنت لا تدرى كم أنا معجبة بك . وشعرت بإرهاق .. وتمنت لو تستطيع الجلوس وحدها حتى يجىء لها ويتحدثان على انفراد . ولكنه لم يتحدث معها بعد ذلك حتى نهاية الحفل .

ومنذ تلك الليلة ، وهى لا تستطيع أن تتخلص من عواطفها نحو السفير . ورأته بعد ذلك فى أكثر من حفلة . وكانت قد أيقنت أنها تحبه . وأنها لا تتمنى شيئاً آخر فى الوجود غير الحياة معه .. حتى أنها قالت لمدام برنار فى الحديقة ذات مرة :

ـ أنا أحب رجلاً آخر .

فنظرت إليها المرأة طويلاً قبل أن تقول فى أسى :

ـ منذ البداية .. وأنا أستريب فى علاقتك مع زوجك .. كنت أشعر بأنك وحيدة . وأنك محرومة من عواطف ضرورية لفتاة جميلة فى مثل سنك . ماذا سوف تفعلين ؟

قالت زينب يائسة :

- لا أدرى .. إنه لا يعرف أنى أحبه .

قالت مدام برنار :

- هناك ألف وسيلة ليعرف .. هل هناك عقبة .. أهو متزوج ؟

قالت زينب :

- لا .

قالت مدام برنار :

- وماذا تنتظرين إذن ؟

قالت زينب :

- إنى خائفة .

قالت مدام برنار مداعبة :

- تخافين الحب .. أم تحبين الخوف .. يقولون إن المرأة التى تخاف الحب .. تحب أن تخاف .

قالت زينب وهى تضحك لتقهر أشجانها ولو للحظات :

- الاثنان معاً .

ولم تستطع زينب أن تتخلص من حبها ومن خوفها ، ولم يعرف السفير أبداً ، أن هذه الفتاة الجميلة قد وقعت فى غرامه . ولكنه تأثر بها ولاشك ، فعندما كثرت فضائح نور الدين وتوالت الشكاوى على السفارة تتهمه بالسرقة والاحتيال أشفق السفير على زينب ، أو لعله فكر فيها وهو يكتفى بإبعاد نور الدين إلى القاهرة ولعله كان يفكر أيضاً فى صلة الصداقة بين نور الدين وعبد الهادى النجار ، وما قد تجلبه هذه الصداقة من مشاكل لو أنه اتخذ إجراء أكثر عنفاً مع نور الدين .

وسمعت زينب ميرا تقول لها قبل عودتها إلى القاهرة :

- قلبى معك يا زينب .

وهمست زينب باكية :

- سوف أترك قلبى فى باريس .

الكاتب يقفز
قفزة خطرة

سبق أن قال الكاتب ، إننا قد نملأ صفحات بعد صفحات بحواديت وحكايات عن نشأة زينب وحياتها فلا نصل إلى شيء من أعماقها ولا نقترب من سرها . وهذا هو شعور الكاتب الآن . بعد أن قطع ذلك الشوط الطويل بين مولد زينب ، حتى تزوجت نور الدين بهنسٍ وسافرت إلى باريس . فما هى حقيقة زينب وما سرها . إنها ما زالت غامضة أشد الغموض وهانحن نراها تقع فى حب السفير المصرى فى باريس ، وترى فيه الرجل الحاكم الباهر الذى تتمناه . ولكن هذا الحب كان مجرد أحلام وخيال ، فقد عجزت عن التصرف ، واكتفت بأن تعترف لمدام برنار أنها أحبت رجلاً غير زوجها ، وكان اعترافاً ساذجاً ، خاصة وهى تقول إنها خائفة من هذا الحب مثل أية حبيبة مراهقة يجمح خيالها ويذهب بها أينما شاء ، ولكنها تظل أسيرة مخاوفها وعجزها . إما لأن أحلامها ساذجة . أو لأن قدراتها عاجزة وغير ناضجة .

ولقد قالت زينب لصديقتها ميرا تلك الجملة المؤثرة « سوف أترك قلبى فى باريس » وهى جملة مؤثرة فى الروايات فقط ، لأنها مجرد جملة إنشائية قد

يكون لها وقع جميل ، وقد تكون زينب استمعت إليها من قبل فى حوار أحد الأفلام ، ولكنها فى الحقيقة لا تعنى شيئاً ، فما معنى أن تترك قلبها فى باريس أو تدفنه فى باريس . إلى آخر هذه التعبيرات التى قد تدل على أن زينب كانت تعانى من لحظة تأثر وشجن ، ولكنها لا تدل على أنها ترى مشكلتها ، أو هى قادرة على مواجهتها والكشف عن حقيقة أعماقها . والكاتب يدرك الآن ، أنه فى مفترق طرق ، فإما أن يواصل السير فى طريق سرد الحواديت عن زينب ، وما أكثرها ، وبعضها فيه من الإثارة والتشويق ما يكفى ليكون وحده مبرراً للسرد والكتابة . ولكن الكاتب يشفق على زينب ، أو لعله فى الحقيقة يشفق على نفسه ، ويريد أن يسلك طريقاً آخر ويغير اتجاهه فى حرية لا يمنحها الكتاب لأنفسهم فى منتصف الحكاية ، فيقطع تتابع السرد ، ويقفز سنوات من حياة زينب ليحكى مباشرة والآن عن لقائها بعبد الهادى النجار . وهى قفزة واسعة لأن زينب التى عرفت عبد الهادى النجار ، ليست هى زينب كما عرفناها حتى آخر لقاء لنا بها فى باريس . إنها ليست زينب الخائفة من التصرف والمغامرة ، إنها زينب التى عرفت الرجال .. ولها معهم تصرفات قد تكون شاذة أو غريبة فى نظرهم ، ولكنها على أية حال تصرفات . ولاشك أن القارىء العزيز سوف يحتج ، لأن من حقه أن يعرف كيف تغيرت زينب ، وهو حق مشروع لا جدال فيه .. فضلاً عما فى هذه الفترة من حياة زينب من مواقف تثير الفضول ..

ولاشك أن النقاد سوف يعترضون ، وسوف يقولون إن الكاتب قفز قفزة واسعة .. أكبر بكثير من أن يحتملها . فسقط وتحطمت رقبته ، أو تحطمت روايته . فهذه الحرية التى يدعيها الكاتب لنفسه ، هى فى جوهرها عجز وفشل ، وهى فى القليل وقاحة ما بعدها وقاحة . ومثل هذا الاعتراض هو أيضاً حق مشروع للنقاد ولا جدال فيه . ولكن مهلاً قبل أن تصدر حكمك أيها القارىء العزيز .. ومهلاً ثم مهلاً قبل أن تصدر حكمك أيها الناقد المبجل ، فكل ما تريد أن تعرفه سوف تعرفه .

سؤال أخير يوجهه الكاتب لنفسه ، لماذا أقدم على هذا الاعتراف الآن ،

ولقد كان يستطيع أن يتجاهله ، دون أن يحس القارىء بشىء . وحتى إذا ما اعترض النقاد فكان الأضمن أن يعلن متظاهراً بالثقة ، أنه يجدد فى أسلوب القص . الجواب أن الكاتب لا يدرى لماذا أقدم على هذا الذى أقدم عليه ، وما فائدته ؟ إنه لا يعرف له فائدة . ربما لأن قلقاً يجتاحه ويربكه قبل أن يواصل حكايته ، فمعذرة ، وهيا نقفز قفزتنا الخطرة وليكن ما يكون !





لماذا قابلته ؟

ترددت زينب طويلاً قبل أن تتصل بعبد الهادى النجار ، كانت تشك فى الأسباب التى تقولها لنفسها لتبرر رغبتها فى أن تدخل فى علاقة معه . هل هى تريد أن تشكو له نور الدين . كلام فارغ ، فمم تشكو ، إن الرجل قد انهار تماماً أمامها . وهى تشعر أنها أقوى من أن تشكو منه . لقد مضى وقت طويل منذ أن واجهته بكل ما تريد أن تواجهه به ، قالت له إنه لص حقير ، حتى سئمت أن تقولها بعد ذلك . كان فى وقت ما إذا تلكأ فى إعطائها ما تريد من نقود تقول له ساخرة :

ـ لماذا أنت حريص على هذه النقود .. وكأنها نقودك .. ألم تسرقها . اصرفها وأتركنا نتمتع بها . وإذا لم تعطنى ما أريد فثق أن الدنيا مليئة بلصوص أشطر منك ينفقون ما يسرقونه ويعيشون فى بذخ ويتمتعون بحياتهم .

ثم أصبحت تقول له وهى تهزكتفها فى امتعاض وقد نكس رأسه . وكل همه ألا يخرج نقوداً من محفظته :

ـ عندى من يعطينى ما أريد .. لا أريد نقودك هذه التى تفوح منها رائحة

النتن .

وكانت تصرفاتها ، تواجهه كل يوم وكل ليلة ، بأنها تعرف غيره من الرجال ، فهى تعود إلى البيت فى الساعات الأولى من الصباح ، سكرانة مشعثة الشعر . أحياناً تغنى . وأحياناً مجهدة لا تكاد تقوى على تغيير ملابسها . وكان أول الأمر يسألها :

- أين كنت ؟

وكان جوابها الوحيد :

- لا شأن لك ..

فإذا زاد فى الكلام بحرف .. قالت فى هدوء :

- إذا لم يعجبك فطلقنى .

وكان ينكس رأسه ويسكت . ويصبح كل همه أن يتسلل إلى فراشها ، ليحصل على حقه من جسدها . كل ليلة ، كل ليلة ، وكانت قد تعودت الاستسلام له ، بغير حس أو شعور ، وكانت أحياناً تثور عليه وترفضه لتفاجأ به وقد تركها لتنام ، ليتمسح بجسدها وقد تستيقظ فزعة وهو على هذه الحال ، فتصرخ وتشتم وتقرف ، وكأنه لا يسمع ولا يشعر ، أو كأنه كما كانت تصوره ، بقة فى الفراش ، مصممة فى غبائها على أن تمتص فى شراهة دماء النائمة فى الفراش .

وكانت خديجة تأتى لزيارتها ، وتقول لها إن نور الدين يشكو منها ، ومن برودها ، وأنه يعقد الاجتماعات مع خالها يتباحثان فى هذا الأمر . وأحياناً يتهمه الحاج بأنه لا يعرف كيف يتصرف مع النساء ، وأحياناً يتعلل بجنون زينب ، وتقاطعها زينب فى هدوء :

- أنا هكذا .. وإذا لم يعجبه فليطلقنى .

وتفزع الأم فتهاجمها زينب :

- أتريدين لى الحياة مع لص !!

كانت تعلم أن نور الدين يحتفظ فى بيت أمها بحقائب مليئة بالنقود . خبأها

فى مكان هناك . ولعله مكان فى البدرون حيث كان جدها كاظم الأيوبى يقوم بتجاربه السحرية لتحويل المعادن إلى ذهب . فهناك تختفى النقود عن العيون ، وتنجو من احتمالات التفتيش لو وقع المحظور . وعندما همست لها أمها لأول مرة بالسر قالت لها زينب :

ـ هذه نقود مسروقة ياأمى .

فاحتجت خديجة وقالت :

ـ لا تقولى هذا الكلام عن زوجك يامجنونة .. هذا المال يحتفظ به لك . ولقد أخطأت ، لأنى لم أسمع تحذيره من أن أقول لك شيئاً عنه ، غيرك كانت تفرح بزوجها وتحبه . ولا تقول هذا الكلام الأبله .

فقالت زينب تتحداها :

ـ ومن أين يأتى بهذه النقود .

قالت خديجة وكأنها تخاطب طفلة ساذجة :

ـ انه يدخر مرتبه .

فصاحت زينب غاضبة :

ـ قولى إنه يسرق الناس .. ألم نترك باريس بفضيحة .. سيأتى يوم تدخل فيه الشرطة بيتك ويضعون الحديد فى يدك .. ويدخلونك معه السجن ...

كانت خديجة لا تصدق غضب ابنتها .. ولا تفهمه ، وكانت تجد ألا فائدة فى مثل هذا الحديث العقيم ، فتحاول أن تتودد إلى ابنتها ، وقد تنطلق فى حديث ذكريات عن أبيها وجدتها .. ولكن زينب لا تسمع ولا تفهم . وما من مرة جاءت فيها أمها لزيارتها . إلا وجدتها قد خرجت ، أو تستعد للخروج فتبادلها حديثاً مقتضباً جافاً .. وهى تعد شعرها ، وتضع الماكياج على وجهها . وتختار فستانها ، وتسألها خديجة :

ـ أتخرجين كل يوم يا زينب ؟

فتهز زينب كتفها .

ـ ولم لا أخرج ..

تقول خديجة :

- وزوجك ..

تقول زينب :

- إنه يلعب القمار مع أصحابه .. وأنا لا أحب لعب القمار .. ولا أحب أصحابه ..

وتسألها خديجة :

- وإلى أين تذهبين :

فيتجهم وجه زينب وتقول فى حسم .

- لا شأن لك ..

فتتوسل إليها أمها :

- قولى كلمة حلوة واحدة .. قولى إنك ذاهبة لزيارة صديقة .. أو إنك خارجة لشراء شيء .

وتدرك زينب أن أمها تريد منها أن تتستر على تصرفاتها ، فيضيق صدرها قائلة :

- أنا خارجة لأ تسلى .. ولن أقابل صديقة .. ولن أشترى شيئاً ..

وذات مرة انفجرت خديجة ، وقالت لنور الدين :

- طلقها واسترح .

فقال لها فى بلادة :

- لا .. لن أطلقها .

وكانت زينب تعرف أنه لا يريد أن يطلقها ، فهو أغبى من أن يخرج من نطاق حيوانيته ، واقترابه الغريزى الجشع منها فى الفراش ، كما تتسلل البقة إلى الجسد ، وهى تعرف أن جشعه أكبر من غبائه ، وأن جشعه يصنع له ذكاء من نوع غريب ، مثل ذلك الذى اكتشفته يوم قابلت ميرا صدفة وهى تشترى قطعة قماش من هانو ، وكانت ميرا فى أجازة بالقاهرة ، وقد ارتبكت لمرأى زينب ، إذ شعرت بأنها قصرت فى الاتصال بها . وقالت ميرا بغير تفكير :

- هأنت تختارين فساتينك بنفسك .. إن ذوقك رائع يازينب .

ولم تسترح زينب لكلمات ميرا ، التى ربما لم تحسن صياغتها كما يجب بسبب ارتباكها ، كأنها تقول لزينب ، إنها كانت لا تعرف كيف تختار عندما كانت تعرفها فى باريس .

قالت زينب متخابثة تخفى استياءها :

- زمان كنت صغيرة .

فاندفعت ميرا قائلة :

- هل تذكرين .. إنى لا أنسى حفلة السفارة .. وزوجك خائف يسألنى أن أساعدك .. ولكنك الآن أصبحت خبيرة فى الملابس والماكياج .. وأنا التى يجب أن تستشيرك .

وصمتت زينب ، وهى تفكر بسرعة محمومة فيما تسمع ، نور الدين هو الذى طلب من ميرا .. لابد أن كان له غرض من وراء ذلك .. نعم كيف لم تفكر فى هذا من قبل ، يالحماقتها ، وهل كان يرضى أن يشترى لها فستان سواريه وأن تذهب إلى الحلاق وأن تدفع كل هذه المصاريف بلا غرض نعم .. كان يريد أن يجعلها تجذب أنظار الرجال .. تجذب أنظار السفير نعم السفير بالذات .. ليترفق به .. إن مثله لا يمانع فى أن تنام مع السفير لينقذه من الفضيحة .. نعم نعم .. إنها تذكر ما كان يردده فى ذلك الوقت وفى أكثر من مناسبة .. السفير معجب بك .. أنت أجمل امرأة مصرية فى نظر السفير .. لم يقل أبداً فى نظرى أنا .. سنذهب الأسبوع القادم إلى حفل يحضره السفير .. هل تريدين فستاناً جديداً .. ما أغبانى . كيف لم أنتبه إلى معانى هذه التلميحات .. ولكنى وكأنى أشعر بمعناها ، فلم أشكر له أبداً أنه اشترى لى فستاناً جديداً .. ولم أشعر أبداً ناحيته باعتراف بجميل .

قالت زينب بجرأة ، ورأسها المحموم يدور بهذه الخواطر .

- زوجى لم يكن خائفاً .. كان يريد أن يغازلنى السفير .. لينقذ نفسه .

وضحكت ميرا لما اعتبرته نكتة لاذعة جريئة .. وقالت وهى ما تزال

تضحك :

- أنت تغيرت تماماً يازينب .. أصبحت واحدة أخرى .. كيف حالك مع زوجك ..

قالت زينب فى عدم اكتراث :

- كما هو ..

قالت ميرا :

- ولكن يبدو عليك أنك سعيدة الآن ..

قالت زينب ضاحكة :

- لأنى لا أراه كثيراً ..

ولم تهتم زينب بما تقوله ميرا عنها ، سواء قالت إن دمها خفيف أو أنها تغيرت .. أو قالت لنفسها إنها مجنونة . كان كل ما يهمها أن تجتاز بسرعة ذلك الشعور بالغضب الذى انتابها ، وهى تكتشف شيئاً آخر من تلك الأشياء التى تكتشفها ، وكأنها كانت تدبر لها وهى لا تدرى .

وعلى أية حال لقد انتهت تلك الأيام التى كانوا يدبرون فيها لحسابهم .. إنها اليوم هى التى تقوم بالتدبير لحسابها . ولقد أنتهى بها المطاف فى التدبير إلى رغبتها فى أن تلتقى بعبد الهادى النجار . لا أستطيع أن أقول له أريد أن أقابلك من أجل نور الدين ، سيضعفنى هذا القول ، لماذا سيضعفنى .

لا أدرى ، ولكنى لا أريد أن أدخل نور الدين بينى وبينه ، لن أضيع وقتى معه فى إدعاء أنى أريد أن أستمع إلى نصائحه ، حول طلاقى من نور الدين ، ولن أضيع وقتى فى الشكوى من فشل زواجى .. كأنى أريد أن أستدر عطفه وشفقته .. وأنا لا أريد أن أستدر عطف أحد ولا شفقة أحد . ماذا أقول له ؟ أتحدث عن السأم الذى أشعر به ، وكيف أنه سأم قاتل .. يأكل حياتى .. ولكنى لا أشعر بسأم ولا ملل . بالعكس أنا أشعر بالإرهاق .. وكم أريد أن أقضى فترات محدودة من الراحة .. وعبد الهادى النجار رجل عجوز ، وعلاقتى به ستكون مريحة للغاية ، كأنى أستجم بعد كثرة مالهوت وعبثت .

ولكن هل صحيح أنى أريده لأستريح ..وما أدرانى أنه مريح ..وما أدرانى أنى سأريحه عندما أعرفه .

وهكذا ظلت زينب تبحث لنفسها عن مبرر لتلك النزوة التى تمتلكها ، أو ذلك الخاطر الذى بدأ يلح عليها منذ ذلك اليوم الذى اقتحمت فيه مجلس زوجها ، لتسأل صديقه المخرج سليمان بكر إذا ما كان يستطيع أن يجد لها عملاً كممثلة فى السينما . كانت ليلتها [illegible] هائلة ، وب[illegible] يائس من كل شىء حولها . وكانت تقضى سهرتها مع شلة من الرجال والسيدات عندما سمعت صوت ماجد الذى كانت تعرفه فى ذلك الوقت ، وهو يقول فى بلاهة وكأنه يقول حكمة ذهبية :

ـ كل من هنا .. ضيع فى الأوهام عمره .

وإذا بزينب تثور فجأة عليه ، وبلا مبرر ، إلا إذا كان إفراطها فى شرب النبيذ هو السبب :

ـ لا تقل كلاماً فارغاً .. أنا لم أضيع حياتى فى الأوهام .

قال ماجد وكان شاباً مدللاً . يستمد ثقته بنفسه وشعوره برجولته ، من سيارة فارهة يقودها بسرعة جنونية .

ـ أنت تقولين هذا .. أنت شيخة الضائعين .

وإذا بزينب تقف واضعة يدها فى خصرها ، وكأنها تستعد للرقص أو للوثوب ، أو للردح ، وتقول غاضبة :

ـ اخرس .. أنا لست ضائعة ..

وتصايح أكثر من صوت ، يهدئها ، هذه تقول لها أنا الضائعة ياأختى . وهذا يقول لها وهل نستطيع أن نحصل على ميزة الضياع .. بينما زينب قد تملكتها حمى ، وبدت كمن يريد أن يخطب ، وصاحت فيهم :

ـ أنتم ضائعون .. هذا شأنكم .. أما أنا فلست ضائعة .. ولا أسمح لأحد أن يقول لى هذا الكلام .

والتفتت إلى ماجد صديقها وقالت :

- أنت قليل الأدب .. ولا أريد منك اعتذارا .. لأنى منذ هذه اللحظة لا أعرفك ولا أعرف أمثالك .

كان ماجد فى دهشة كاملة ، فهكذا تطورت الأمور فجأة بلا مقدمات ، وكلمة عابرة لا يعنى من ورائها شيئاً ، ولعله قالها من قبل أو سمعها عشرات المرات ، ولعل زينب نفسها قالتها فى أكثر من مناسبة . ولكنها فجأة ، تحرن وتريد أن تهدم كل شىء .

صاح ماجد غاضباً :

- إن شاء الله .. حضرتك تعملين فى عمل هام .. أم أنت زوجة مخلصة .. أو أنت أم لأولاد تربينهم ولا تجهضينهم كل شهر .

صاحت زينب غير مكترثة بهجماته ولعلها لا تسمعها :

- أنا أستطيع أن أفعل ما أشاء .

صاح ماجد هازئاً :

- فى السرير ..

قالت زينب متجاهلة سخريته أو لعلها لم تسمعها :

- أنا أستطيع أن أكون من الغد أكبر ممثلة سينما فى مصر .

وهكذا ، عندما أخطأ المخرج سليمان بكر وقال لها إنه سيمتحنها شتمته وشتمتهم جميعاً . وتركت الحجرة غاضبة . ولكنها تذكرت فجأة ، أن هناك بالداخل عبد الهادى النجار ، الصحفى الكبير ، الذى كان يتحدث عنه السفير باهتمام .. السياسى من الطراز الأول .. أنت سياسية كبيرة مثله قمت بتوطيد العلاقات بين مصر والهند . آه من الأغبياء الضائعين الذين يتصورون أنى ضائعة مثلهم ، وأنى أفعل ما أفعله لأنى ضائعة . إن الغباء والحقارة يلاحقاننى حيثما أذهب ، حتى وأنا فى جلسة مع شلة من الأصدقاء تشرب الحشيش ، هذه الحقارة تطاردنى .. ولكنى يجب أن أعتذر لعبد الهادى . لم أظلمه ، فسفيرى ورجل أحلامى الذى أحببته يوماً فى باريس كان معجباً به وفتحت الباب ، وأطلت عليهم وقالت وهى تنظر فى عينيه :

ـ ياأستاذ عبد الهادى .. أنا أعرفك .. وأعرف أنك رجل محترم . وأنا أعرفك منذ كنت طفلة صغيرة .. وأسمع عنك ..

وكادت تقول كنت أسمع عنك من عم صالح . ولكنها لم تستطع أن تتذكر بوضوح عم صالح ، واسمه ، رغم أنه كان فى قلبها وفى ذاكرتها بقوة . ومضت تقول :

ـ أنا آسفة .. ولم أكن أوجه كلامى لك .

ورفعت صوتها فى غضب :

ـ ولكنك تستحق أن تسمعه لأنك تجلس معهم .. كيف تضيع وقتك هنا .. أنا لا أفهم لماذا تضيع وقتك معهم . هل يعجبونك .. هل ترتاح لهم ؟! ..

ولم تسمع ما قاله عبد الهادى . كانت تنظر إليه والمعانى والمشاعر تختلط وتزداد غموضاً واضطراباً فى نفسها ، وأغلقت الباب ، ومضت تترنح إلى حجرتها . ومنذ ذلك الوقت بدأت تفكر فى الاتصال به . ما الذى يجعلها تفكر على هذا النحو ! ، إنها مهما ذكرت لنفسها من أسباب ، ومهما بحثت عن مبررات فهى لا تصدق سبباً واحداً منها . هناك بكل تأكيد شىء آخر يدفعها ويلح ، إنه شىء غريب أشبه بالجنون . وهى تكاد تجزم أن هذا الجنون هو أصدق ما تشعر به ، وما تستطيع أن تبرر به سعيها وراء عبد الهادى . إن جنونها هذا يهمس لها ، أنه لا أهمية على الإطلاق فى نصيحة تسمعها . أو فى طلاق يتم ، أو فى حل يقدمه عبد الهادى لإنقاذها من سأم .. فكل هذا لا صلة له بالجنون ، وهى قادرة على أن تقدم عليه دون حاجة إلى عبد الهادى النجار .

إن كل ما تريده هو أن تقف أمام هذا الرجل الذى يقولون عنه إنه عظيم ، وصحفى خطير ، وأن تواجهه مواجهة الند للند . كيف تكون المواجهة . إنها لا تعرف . ما الذى تريده بالضبط من وراء مواجهة عبد الهادى . إنها لا تعرف ما معنى مواجهة عبد الهادى .. أيضاً هذا أمر مجهول تماماً بالنسبة لها . ولكن هذا الذى يشبه الجنون يهمس لها ، أن تتعرف عليه وتلتقى بـه ، لقد سمعتهم يـرددون فى سهراتهم فى بـاريس أن مقالات

عبد الهادى ، تحدد سياسة البلد ، سمعتهم يقولون إن للرجل نفوذاً خطيراً ومسيطراً على الجميع . سمعتهم يرددون لها ، لا تخافى لن يمس زوجك شيء من هذه الشكاوى لأنه يستطيع أن يلجأ لعبد الهادى وينقذه ، كأنه الرجل المنقذ . وكأنه الملجأ والملاذ للخائفين والمظلومين . هل هى تريد أن تواجه كل هذه المعانى فى الرجل ، ولكنها لا تشعر بأهمية السياسة والنفوذ وهى لا تريد أن تطلب منه أن يحقق لها شيئاً بالذات . إنها تريد فقط أن تثبت لنفسها أنها قادرة علي مواجهته ، تلك المواجهة التى لا تعرف لها مغزى ، ولا شكلاً ولا مضموناً . ولقد ترددت زينب طويلاً قبل أن تتصل بعبد الهادى ، لا عن خوف أو خجل ولكن لأنها ظلت حتى آخر لحظة ، وهى تتمنى أن تكون قادرة على أن تحدد بوضوح هذه المشاعر الغريبة التى تراودها . كما أنها ترددت . لأنها كانت تفكر فى خطة دقيقة ترسمها للاتصال به . فإذا كانت مشاعرها غامضة ، وتكاد تفسرها لنفسها بأنها همس جنون . إلا أنها تعوض هذا الغموض ، بدراستها لكل تفاصيل اللقاء الذى تعده . لن تفاجئها هذه التفاصيل ، لتوفر لنفسها كل الجهد .. لمفاجآت ما سوف يخرج من هذا اللقاء .. وكان أول ما قررته هو أن تجعل مقابلتها به تأخذ طابعاً عادياً ..

بحيث تأخذ وقتها لتدرسه عن كثب ، وتتعرف عليه دون أن يشعر بما تدبره له من مواجهة . وفكرت أن تستغل تردده على بيتها ، وتحضر سهرات القمار وتشارك بما قد يدور فيها من حديث ، متحملة وجود لطفى مكى وسماجته ، وما يحاول أن يقوم به ، من دور العاشق القديم ، ذى الذكريات .. وكأنه يتصور ما كان بينها وبينه من تأليف رامي وغناء أم كلثوم . قد تتحمل هذا كله ، ولو لقاء أو لقاءين ، قبل أن تقدم على الاتصال بعبد الهادى ، وذهبت بالفعل إلى الحجرة التى يجلسون فيها . وقبل أن تمد يدها وتفتح الباب ، إذا بالباب يفتح .. وتجد أمامها ذلك الشاب الذى لاشك أنها رأته من قبل .. وهو ينظر إليها فى دهشة وارتباك . وكان واضحاً أنه يريد أن يخرج فى نفس اللحظة التى أرادت أن تدخل فيها . والتقت عيونهما ، كانت عيناه فى ذروة الاضطراب

كأنه مصاب بذعر هائل . لم تتحمل زينب نظراته ، ووجدت نفسها تتمتم بكلمات اعتذار ، وتفر هاربة إلى حجرتها . وقررت ألا تكرر المحاولة فعدلت عنها ، وهى تجد أن هذا هو الأفضل لتحقيق هدفها ، إنه لا يرضيها مثل هذا اللقاء العادى .. ولا يرضيها أن تتجسس عليه وتتفحصه ، إنها لن تشتريه . إنها تفكر فى الهجوم عليه ، ولكن هجوماً أكثر جسارة وتحدياً .

وهكذا ، أمسكت زينب بالتليفون .. واتصلت بعبد الهادى فى مكتبه ، وقالت له ، بعد أن عرفته بنفسها ، إنها تريد أن تلتقى به وحدهما ودون أن يعرف أحد .





لماذا أنت ساكت ؟

كان عبد الهادى النجار معتاداً بحكم منصبه ووضعه الاجتماعى على المكالمات التليفونية التى تبادره بها نساء من كل لون . ولم يكن يندفع وراء هذه المكالمات ، أو يرحب بها . ولكنه لا يرفضها ، فقد علمته التجارب أن كثيراً من هذه المكالمات يكون وراءه هدف مستتر ، ومن مصلحته أن يكشف عن هذا الهدف بمواجهة المرأة التى تتصل به ، وإعطائها الفرصة لتكشف عما وراء اتصالها . وهو يعرف أن من بين حيل رجال المخابرات وضع بعض النساء فى طريقه ، وكان يقول لنفسه ساخراً ، إنى مدين للمخابرات بأجمل مغامراتى النسائية ، إذ لا أستطيع أن أرفض امرأة يبعثون بها إلىّ ، وذلك لعدة أسباب . أولاً ، يجب أن أعترف بأن ذوقهم فى اختيار النساء ، ذوق رفيع ولاشك . ثانياً لأنى لا أستطيع أن أرفض الطعم الجميل وكأنى قديس والعياذ بالله ، لن يصدقونى وسوف يستفزهم رفضى ويستثيرهم وكأنى أتحداهم ، وقد يدفعهم هذا إلى أن يكونوا أكثر شراسة وتربصاً بى ، لذلك فمن الأفضل

أن أتظاهر وكأنى أبتلع الطعم وأقع فى شراكهم ، وأجعلهم يهنئون أنفسهم بأنهم قادرون على اصطيادى بسهولة فلا يشتدوا ولا يحقدوا علىّ ، ثم هناك ميزة أخرى لهذا التظاهر ، فأنا أستطيع أن أنقل كل ما أريد أن يعرفوه عنى عن طريق هذه الصلة اللذيذة بينى وبينهم ، ولكنها على أية حال صلة خطرة ، ولعبة غادرة ، ولا مفر من ممارستها .

وعندما سمع عبد الهادى صوت زينب وهى تقدم إليه نفسها فى التليفون، ظن أول الأمر أنها تتصل به فى أمر من أمور زوجها ، ولكنها فاجأته بطلب مقابلته ، وكانت حاسمة فى رفض لقائه بمكتبه بالجريدة . كانت تريد أن تلقاه فى مكان تخلو فيه به ، وبدا عليه التردد ، فليس من عادته أن يحدد موعد لقاء فى مكان عام ، حتى لو كان هذا المكان منعزلاً ، وقبل أن يتخلص من تردده ، جاءه صوتها يسأله فى بساطة لا تكاد تخلو من تهكم :

ـ لماذا أنت حائر .. أليس لك بيت ؟

أذهلته جرأتها وقال مرتبكاً :

ـ طبعاً .. أهلاً وسهلاً .

وسمع صوت زينب واضحاً واثقاً :

ـ هل يناسبك اليوم بعد الظهر ؟

أجاب بغير وعى :

ـ طبعاً .. طبعاً .

وسمع صوتها يسأله :

ـ الساعة الخامسة ..

قال وقد تحول ارتباكه إلى اضطراب داخلى :

ـ بكل تأكيد .

وسمعها تقول :

ـ اتفقنا .

فأسرع يسألها :

ـ هل حدث شيء بينك وبين نور الدين ؟

ولكنها كانت قد أغلقت السماعة .. وتركته يعاني من هذا الاضطراب الذي لم يتعوده من قبل .. حتى شعر بضيق سرعان ما تحول إلى غضب من نفسه ، لأنه أدرك ما به من اضطراب . يشبه ذلك الذي يستشعره في أولئك الرجال الذين يحاصرهم بسخريته . ورؤيته النفاذة لأعماق نفوسهم . إنهم يضطربون أمامه ، كما هو مضطرب الآن . يحسون بأن هناك من يرتبهم ويحاصرهم بنظراته وكأنه يفترسهم ، ويشعرهم بأنه يفهم عنهم أكثر مما يفهمون أنفسهم . إن هذه المرأة المجنونة ، قد فاجأته بموقف غريب ، وحاصرته برغبتها المفاجئة في لقائه وحده في بيته ، كأنها تعرف تماماً ماذا تريد منه ، واثقة تماماً من تصرفها الذي يجهل الغرض منه . وها هو يخمن ويضرب أخماساً في أسداس ولا يفهم شيئاً . وعندئذ خطر له ذلك الخاطر الروتيني . في أنها تتحدث معه بمثل هذه الثقة . لأن هناك من أرسلها إليه .. ومن غيرهم .. من غير رجال المخابرات .. وحاول أن ينفي هذا الخاطر ، ويتصور أنه بعيد الاحتمال ، وهمس لنفسه .. يجب أن أتخلص من المرض النفسي . الذي يجعلني أتوهم أن كل امرأة تتصل بي هي مبعوثة المخابرات ، ولكن من يدري .. إن حيلهم غريبة تفوق أي خيال .. ولقد كانت في باريس مع زوجها نور الدين ، ولعلهم جندوها لتكون في خدمتهم أثناء وجودها هناك .. وسلوكها يجعلها صالحة لمثل هذا التجنيد ، فهي من النوع الذي لا يتورع عن شيء ..

ونور الدين سمعته معروفة ، وهو وزوجته يصلحان دائماً للقيام بأية مهام قذرة للمخابرات ، لعله كمين يعدونه له ، إن نور الدين لا يكترث بتصرفات زوجته وعلاقاتها ، إنه بهيم بلا مشاعر ولا أحاسيس .. ولكنه قد يتحرك فجأة بتدبير مع المخابرات ليمثل دور الزوج المخدوع الذي فاجأ زوجته في أحضان عشيقها وفي بيته ، وتكون الفضيحة والضربة التي يدبرونها للقضاء عليه ، أيكون هذا ما يعدونه له .. إن المعلومات التي تتجمع لديه ، تؤكد له أن شيئاً ما سوف يحدث للصحافة المصرية .. هناك ناس تسأل ، ورجال يكتبون التقارير ..

والنشاط أوسع من أن يكون مجرد رقابة عادية على الوسط الصحفى ، وعندما ذهب ليزور أحمد عبد السلام دياب ذات مرة وكان مريضاً فى بيته ، لاحظ بجوار سريره حقيبة أوراق وملفات وسأله عبد الهادى :

- لابد أن هذه أوراق خطيرة جداً ، حتى لا تتركها وأنت فى سرير المرض .

فنظر إليه دياب نظرة جُامدة وقال بصوت غير مقنع :

- إنها مجرد شيء أتسلى به .

فقال عبد الهادى ضاحكاً :

- أرجو ألا تكون حياتنا هى موضوع تسليتك .

فاحمر وجه دياب وقال :

- لا تحاول أن تمارس ذكاءك معى يا أستاذ عبد الهادى .

ولكن ما صلة زينب بكل هذا ، هل أصبح فعلاً مريضاً يتوهم المخاوف بغير مناسبة ، لماذا لا تكون مجرد نزوة لزينب ، أن تلتقى به لتشكو له حالها مع زوجها ، أو لعلها وقعت فى مشكلة مع أحد عشاقها ، وتريد مشورته ، نعم هذا هو الأقرب إلى العقل ، هناك شيء ما حدث لهذه المرأة ، ومن الطبيعى أن تفكر فى اللجوء إليه والحصول على مساعدته .. ولكن ما هو هذا الشيء .. ولماذا لم تحدثه فى التليفون بتفاصيل أكثر ، وتذكر عبد الهادى صديقه لطفى مكى ، الذى كان على علاقة بزينب بعد عودتها من باريس .. كان لطفى يقول له إنها امرأة رائعة ، وأنه ظل حتى آخر لحظة فى علاقتهما يلح عليها أن تتزوجه ، ولكنها كانت تقول له .. لم أجد فيك الرجل الذى أريده .. هل تكون قد وجدت هذا الرجل .. وتريد منه أن يساعدها فى مفاتحة نور الدين فى الطلاق . لا فائدة من الجرى وراء هذه الخواطر ، لابد له أن ينتظر اللقاء ، وأن يترك جميع الاحتمالات مفتوحة .. ومن بينها هذا الاحتمال المخيف ، بأن كمينا يدبر له من الآن . واتصل عبد الهادى بيوسف منصور وحسن زيدان وطلبهما للاجتماع به .. وتحدث معهما فى العمل بعض الوقت .. ثم بدا وكأنه يريد أن

يستريح من الحديث فى العمل ، فاسترخى فى مقعده .. وقال لهما فجأة :

- اليوم حدث لى فصل غريب .

ونقل بصره بينهما ، وهو يتخيلهما شاهدين فى المحكمة عندما تلصق به زورا وغدراً تهمة الزنا وكان مهتماً بأن يعرف رد فعل حكايته على حسن زيدان . فمن يدرى ، لعله مشترك فى مؤامرة المخابرات ضده ، وهم عندما يهاجمونه .. لابد أن يستعينوا بأمثال حسن زيدان ، هذا أمر مؤكد وكأنه قانون علمى . فحتى لو لم يفطنوا لأهميته فى أول الأمر .. فلابد أن يلجأوا إليه عندما تحتدم المعركة . ومضى عبد الهادى يقول :

- اتصلت بى منذ ساعة زوجة صديق لى .

ثم التفت إلى يوسف وقال :

- زوجة نور الدين بهنس .. أنت تعرفها .. تلك المرأة المجنونة .. لعلك كنت معنا يوم دخلت علينا الصالون وطلبت من سليمان بكر أن يجعل منها ممثلة فى السينما ..

كان يوسف ينصت فى استسلام .. والتفت عبد الهادى إلى حسن زيدان .. وكأنه يخصه الآن بالحديث وقال :

- نوع غريب من النساء ياحسن .

فقاطعه حسن سائلاً :

- أهى جميلة ؟

قال عبد الهادى :

- جميلة جداً .. وصغيرة ..

فأكمل حسن ساخراً :

- ومخلصة جداً .

فقال عبد الهادى بصوت وقور :

- ليس هذا هو المهم .. إننى فى الحقيقة لا أعرفها .. ولكنها طلبت منى اليوم طلباً غريباً .. وهو أن تلتقى بى وحدى فى بيتى .. عرضت عليها أن تأتى إلى

مكتبى .. ولكنها رفضت .. وحددت بنفسها الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم لتزورنى فى بيتى .. ترى ماذا تريد ؟

ظل يوسف صامتاً ، ولم يحاول عبد الهادى أن يسمع منه كلمة أو رأياً .. كان اهتمامه مركزاً على حسن زيدان ، الذى قال ضاحكاً :

- هذه مغامرة جديدة ياأستاذ .. هل تدعونا معك لنكون فى استقبالها .

قال عبد الهادى فى برود :

- لا مانع عندى .

قال حسن :

- وهل لا مانع عندها ؟

قال عبد الهادى :

- لا أدرى شيئاً عن رغبتها فى لقائى على هذا النحو .

سأله حسن فجأة :

- هل تشعر بأن هناك شيئاً مريباً فى طلبها ؟ .

قال عبد الهادى بصوت قوى :

- نعم .. ولهذا وجدتنى أتحدث معكما .

قال حسن متخابثاً :

- ولهذا أيضاً دعوتنا لهذا الاجتماع .

قال عبد الهادى وهو ينظر فى عينيه ببرود قاتل :

- نعم .. لأنى أسألك الآن وأمام يوسف ماذا تتوقع ؟ .

فارتبك حسن لصراحة عبد الهادى ، وقال فيما يشبه الاعتذار :

- آسف .. لقد فهمت الآن سبب مصارحتك لنا .. ولك كل الحق .. فإن هجومها عليك على هذا النحو أمر يدعو إلى الريبة .

ما أن سمع عبد الهادى هذه الكلمات الأخيرة يتفوه بها حسن زيدان ، حتى تغيرت نفسيته ، وحدث له تحول مفاجىء ، وكأنه كان ينتظر أن يستريب حسن زيدان ليطمئن هو ، وأن يعلن حسن زيدان عن مخاوفه . ليعلن هو عن

عدم اكتراثه بهذه المخاوف .. فقال ضاحكاً :

- هذا هو ما يجعل هذا اللقاء مثيراً وجديداً .. إنها ليست أول ولا آخر امرأة تدخل بيتى .. وأنا لست قديساً .. كما أنها ليست غريبة تماماً عنى فأنا أعرف عن علاقاتها الكثير .

قال حسن بصوت جاد :

- ولكن الظروف الآن توجب الاحتياط .. فمن يدرى .

فقاطعه عبد الهادى بقوة وتهكم :

- لعلها تريد أن تستشيرنى فى ورطة وقعت فيها .. أو لعلها ستقترض منى نقوداً .. فهى مبذرة وزوجها بخيل .. من يدرى .. أو لعلها وقعت فى غرامى .. وهنا سوف تكون المشكلة أكثر تعقيداً .. إذ سيكون على أن أعانى من متاعب التخلص منها .

قاطعه حسن :

- إذا لم يكن وراءها خطر .. ولابد أنك ستعرف هذا بمجرد لقائها .. فلماذا تتخلص منها .. وهى كما تقول جميلة وصغيرة .. حولها على فأنا فى أزمة فى هذه الأيام ..

قال عبد الهادى :

- لابد أن يأتى يوم تتخلص فيه منها .. حتى ولو كانت جميلة وصغيرة كان الريحانى يقول فى أيامنا .. إن الرجل يمل أكل التفاح كل يوم .. ولابد أن يشتهى خيارة .. أو فجلة .

والتفت عبد الهادى إلى يوسف ، وقد تذكر أنه تجاهله لفترة طويلة .. وسأله :

- لماذا أنت ساكت .. ما رأيك ؟

فانفجر يوسف غاضباً :

- كيف تتحدثون عنها بهذه الطريقة ؟! .

فسأله عبد الهادى متحدياً :

- وكيف تريد أن نتحدث عنها .

قال يوسف مواجهاً التحدى :

- على الأقل تحترمها كما تحترمك هى .

قال عبد الهادى :

- ومن قال إنى لا أحترمها .

قال يوسف :

- أنت تتحدث عنها كأنها ليست إنسانة .

صاح عبد الهادى متعجباً :

- أنا .. أم أنت .. أقسم لك أنك لو سألتها هى .. من الذى يحترمها أكثر .. أنا .. أم أنت .. لقالت لك أنت الذى لا يحترمها ولا يعاملها كإنسانة .. أنت يايوسف لا تعرف البشر ولا تعرف كيف تتعامل معهم .. أنت لا تفهمهم .. ولا تعرف كيف تواجه مشاعرهم .. لأنك تفرض عليهم صورة فى خيالك ترهقهم بها .

وجم يوسف . كان يتذكر مختار زاده . وهو يلومه لأنه وقف وحده لزينب ، عندما دخلت عليهم الصالون . كان يراه وهو يقول له وعيناه تبتسمان فى خبث .. لقد أهنتها ياأستاذ يوسف بتصرفك .. أحرجتها عندما وقفت لها وحدك .. كأنك تقول لها إن الآخرين لا يحترمونها ، وبدا على يوسف الشرود ، بينما انقض عليه حسن زيدان منتهزاً الفرصة قائلاً :

- لقد أصبحت مملة هذه المواقف الأخلاقية المزيفة التى تتخذها من حين لآخر .. يجب أن تعلم أنها غير مفهومة .. وغير حقيقية .. كما أنها ليست مواقف على الإطلاق .. إنها مجرد لعبة .. وأنا أستطيع أن أفسرها لك .. بسهولة .. إنها ببساطة نوع من الاستسهال .. فأنت تتصور أنك تستطيع أن تكون لك شخصيتك المميزة بمثل هذه المواقف الأخلاقية أو المثالية .. ولكنك فى الحقيقة تلغى بها تماماً شخصيتك وتتحول إلى مجرد كلام نظرى .. لا يمكن

أن يقوله إنسان من لحم ودم .. إنه كلام لا ينفع فى شيء .. وصدقنى أنه يثير الغيظ ...

استمع يوسف إليه مطرقاً ، لا يعنيه ما يسمع ، كان يشعر بألم غريب ، لأنه مضطر لأن يتذكر كلمات مختار زاده ، ولأنه مضطر لأن يصدقها ، وما أكثر ما هجمت عليه كلمات زاده ، ورأى عينيه الخبيثتين فارتجف وقد

طغى عليه شعور بالذنب . وهو يتألم الآن لأنه لا يستطيع أيضاً أن ينفى ما يؤكده عبد الهادى بأن زينب ترفض معنى الاحترام كما يفهمه هو .. إنه لا يتألم لها ، ولا يتألم بسببها .. إن ألمه غريب .. إنه نوع من العجز عن الفهم كما يفهمون ، والرؤية كما يرون والتعامل كما يتعاملون ..

وقال عبد الهادى مدافعاً عن يوسف ، وقد لاحظ أنه يعانى من هموم تفيض من عينيه الحزينتين :

ـ اسكت ياحسن .. ولا تقل هذا الكلام الفارغ .. فيوسف لا يستسهل ولا يتاجر بالمواقف المزيفة .. إنه شخصية لا يفهمها أمثالك ولو عاشوا ألف عام .. إنه كما أقول دائماً ملاك ضل طريقه فى غابة الشياطين . ولكن للحقيقة هو الذى دخل الغابة بقدميه .

صاح حسن زيدان ساخراً :

ـ وبوساطة وتوصية من مدكور باشا .

قال عبد الهادى :

ـ كف ياحسن عن هذا .

فقال حسن واثقاً :

ـ إنه صديقى .. ومن حقى أن أقول له رأيى وأنا مطمئن تماماً إلى أنه لن يغضب منى .. ومع ذلك يجب أن أعترف بأنه يستفزنى .. وأنا أفضل اتهامى بالشر الحقيقى .. وهو اتهام أرحب به لأنه يؤكد إنسانيتى .. وأرفض أن أتخذ مظهر الملاك البرىء .. هذا فوق ما أحتمله ياأستاذ عبد الهادى .. أنا بصراحة لست شريراً إلى هذه الدرجة .

قال عبد الهادى ساخراً :

– أنت لا تحتمل طبيعة يوسف .. ولكنك تعرف أنها ليست مزيفة .. وهذا هو ما يفزعك .. إنه يفزعنى أنا أيضاً .. وأنا الذى قلت له .. إنه لو أراد .. لأصبح أكثرنا شراً .. انظر إليه كيف لا يكترث بكلامنا ..

صاح حسن :

– بل [illegible] فقد تحول الاجتماع إلى مناقشة لشخصه الكريم .

ونهض حسن ، وأقبل على يوسف يقبله ويحتضنه ويهزه من كتفه :

– فك ياأخى .. وأترك هذا التعالى .

فابتسم يوسف ، بينما هتف عبد الهادى :

– لقد أسرفنا فى الدردشة .. هيا إلى عملكما .

قال حسن :

– ولكننا سنسمع بقية القصة .

قال عبد الهادى :

– طبعاً .. وإن كان يوسف لن يرحب بسماع ما سوف أرويه .

قال يوسف وكان قد نهض يهم بالإنصراف :

– أنا أشعر بضيق شديد .. وقد أكون غبياً .. ولكن صدقنى .. هناك شيء أريد أن أعبر عنه ولا أستطيع .. أريد أن أقول إن الحياة بهذه الصورة التى تتحدثون عنها تبدو حياة بشعة مفروض علينا أن نحياها ولابد أن هناك طريقة أخرى نصنع بها حياتنا .

قال عبد الهادى باسماً فى حنان :

– فلتصفها أنت .. ولنر كيف تكون .

فهتف حسن زيدان ، وهو يتأبط ذراع يوسف :

– إنه الآن يتحدث كالميكروفونات عن صناعة الحياة .

وتبادل حسن مع عبد الهادى نظرات رثاء .. عبد الهادى يرثى فى حنان ، وحسن يرثى فى شماتة .

اللقــاء الأول

ذهبت زينب إلى بيت عبد الهادى .. تفوح بالعطر ، وعلى وجهها الجميل مسحة حزن ولا مبالاة ، واستمع إليها تتحدث معه عن الأقمشة التى كانت تتفرج عليها فى المحلات قبل أن تأتى إليه ، وحدثته عن حذاء ذهبى رأته فى محل بشارع قصر النيل وفكرت فى شرائه ، وحدثته عن سائق التاكسى الذى أوصلها إلى بيته ، وكيف كان يتحدث إليها وهو يلتفت إليها ، حتى كاد يصطدم بأوتوبيس . كانت تتكلم فى ثقة واستقرار ، وكأنها دخلت البيت عشرات المرات وجلست على نفس المقعد لسنوات ، أحياناً كانت تبدو منها التفاتة إلى أحد المفارش ، أو إناء زهر ، وينتظر عبد الهادى أن تعلق بكلمة أو تبدى رأياً فى بيته أو فيما رأته ، ولكنها تمضى فى حديثها النسائى ، وهو يستمع إليها ، وقد امتلأت عيناه بجمالها ، وتلك الطفولة الواضحة فى حركات يدها ، ونشاط جسدها الذى يجعلها تبدو وكأنها تتوثب أثناء الحديث من فوق مقعدها . وكان عبد الهادى يصد نفسه عن الاستسلام لها ، فيقول لنفسه

إنها ممثلة بارعة ، وإنها تلعب الآن لعبتها ، ولكن مع قليل من الصبر .. سوف تضطر إلى الكشف عن أمرها ، وفجأة وجدها تقول له فى مرح :

- لقد رأيتك من قبل ولكن صورتك مختلفة الآن .

سألها باسماً :

- ماذا حدث لى ؟

قالت ضاحكة :

- كأنك قصرت قليلاً .. كنت أظنك أطول من هذا .

قال عبد الهادى ساخراً من نفسه :

- لعلى انكمشت ..

فاسترسلت قائلة :

- كما أنك لست جميلاً .

قال عبد الهادى بسرعة :

- بالنسبة لجمالك .. كل من فى الدنيا من نساء ورجال فى غاية القبح .

قالت وقد اكتسى وجهها بحزن مفاجىء :

- لا تقل هذا لتجاملنى .. أنا أعبر لك عن دهشتى .. فرغم أنى رأيتك فى بيتنا .. وأعرف شكلك جيداً .. إلا أنى أراك الآن بصورة مختلفة .

رفع عبد الهادى يديه فى الهواء علامة استسلام وقال :

- ماذا أقول لك .

ولاحظ أن مسحة الحزن فى وجهها ، عميقة ، وعجب أنه لم ينتبه إليها من قبل .. وكانت تسأله فى رقة :

- هل ضايقتك ؟

قال فى غير فهم :

- أبداً .. أبداً ..

قالت :

- هناك رجال فى غاية الجمال ولكن ما أن تعرفهم حتى تجدهم حيوانات أو

مجرد تماثيل . على العموم أنا لا أحب الرجل ذا العضلات الذى يعتنى بتربية جسمه ويدخل بطولة كمال الأجسام .. شىء مضحك .. الرجل الجميل هو الرجل الذكى .. ولاشك أنك رجل ذكى .. أنا واثقة من ذلك .

اضطربت مشاعره لهذا الإطراء ، وقاوم نفسه فقال ساخراً :

ـ الحمد لله أنك وجدت شيئاً حسناً تقولينه عنى .

فسألته وهى تحدق فيه وكانت عيناها توهصان بجمال حزين :

ـ هل تحب أن تسمع من يقول لك أشياء حسنة عن نفسك ؟

قال بسرعة متخلصاً من محاولة فهم مغزى ما تقول :

ـ طبعاً .

قالت فى ثقة :

ـ لا أصدقك .. لأن هذا لا يتفق مع الذكاء .. الرجل الذى يحب المديح يحب أن يخدع نفسه .. وأنت لست من هذا النوع .

قال عبد الهادى فى تأثر :

ـ أنت ذكية جداً .. فى الحقيقة أنا لا أصدق المديح .. واستريب فيه .. الحياة عودتنى على ذلك .

ثم رفع صوته ليتخلص من هذا التأثر الذى يغالبه :

ـ أمامك .. أنا على استعداد لأن أنخدع وأخدع نفسى .

فقاطعته معترضة :

ـ لا تقل هذا الكلام الذى يشبه كلام روايات السينما .

وجد نفسه يقول صادقاً :

ـ أعترف لك .. أنى فى حيرة معك .

فابتسمت ، ونظرت إليه طويلاً متفحصة ، فاضطر إلى أن يعتدل فى جلسته ، واتخذ وضع الرجل الذى يستعد لإعطاء المشورة والنصح ، وسألها :

ـ هل لديك مشكلة ما ؟

واصلت النظر إليه ، وخفق قلبه ، أدرك أنه قال كلاماً لا يعجبها ومضى فى عناد :

ـ طبعاً هناك شىء يشغلك .. ويخيل إلى أنه أمر هام .. لأنك تتحاشين الكلام عنه . إن الواحد منا يجد صعوبة فى البوح لصديق بما يضايقه أو يقلقه .

وابتسم مطمئناً لاكتشافه الذكى وقال :

ـ ولكن ثقى أنى أستطيع مساعدتك .

قالت بصوت جاد وكأنها تخاطب نفسها :

ـ ليتك تستطيع مساعدتى .

قال بلهفة :

ـ أنا تحت أمرك ، كل ما فى الأمر ، هو أن تتحدثى معى وأنت واثقة بى .

قالت بأسى :

ـ ولكنى لست واثقة تماماً .

سألها فى دهشة :

ـ لماذا ؟

قالت :

ـ لا أدرى .

قال ضاحكاً فى انفعال :

ـ سماعك بالمعيدى خير من أن تراه .. هل خيبت ظنك .

قالت فى رقة غريبة :

ـ لا .. لا أريد أن يخيب ظنى فيك .

قالتها وكأنها تدافع عن نفسها ثم قالت بصوت عصبى :

ـ كل ماكنت أريده هو أن أتعرف عليك ..

وحولت عينيها عنه ، وأخرجت من حقيبتها سيجارة فأسرع إليها يشعلها ، وهو لا يفهم ماذا تعنيه بالتعرف عليه ، وكأنها تتحدث بالألغاز ، وهو لا يصدق حديث الألغاز ، ويستريب فيه ، وعاد إلى مقعده وقد هجم عليه

من جديد ذلك الخاطر الغريب ، بأنها قد تكون مبعوثة المخابرات ، ولعلها دست الآن آلة تسجيل فى مكان ما فى هذه الحجرة ، يجب أن يطرد هذا الخاطر المزعج ، ولكن ما حيلته ، وهى تقول له كلاماً خرافياً ، ما معنى أنها تريد التعرف عليه ، أى نوع من المعرفة ، ولماذا ، ولماذا الآن بالذات ، وإذا لم تكن مبعوثة المخابرات ، فهى مجنونة ، ولكنها أيضاً باهرة الجمال ، وجسدها ممتلىء بالحيوية والنضارة ، وحديثها بعيد تماماً عن الجنون بل إن فى كلامها وقاحة وثقة لا حدود لهما ، ثم ذلك الحزن الذى يراه فى وجهها ، إنه عميق عميق كأنه ألم حاد ، تجمد .. إنه مهما حاول أن يتجاهله يجد نفسه يخضع لتأثيره ، ويفقد مقاومته لما يحدثه فى نفسه من مشاعر نحوها ماذا يقول الآن ، ماذا يفعل . فكر فى أن ينهض ويذهب إليها ويقبلها . وفى نفس الوقت ما زال يلح عليه ذلك الخاطر المرعب . بأن الباب سوف يدق فى أية لحظة ويدخل عليه نور الدين ورجال الشرطة . لو كانت تفصح بما تريد . إنها تعتمد على وجودها ، على مجرد وجودها ، واندفع صوته منفعلاً :

ـ أنا أيضاً أجدك مختلفة .. لم أتوقع أن أجد فيك كل هذا الحزن .

كانت تدخن صامته ، ونظراتها لا تعنى شيئاً ، كأنها لا تحس بوجوده ، وسألها :

ـ فيم تفكرين ؟

وبدا وكأنها لم تسمع سؤاله . فصمتت برهة ، وعاد يكرر سؤاله . فومضت عيناها بابتسامة .. وتوثب جسدها من جديد ، وامتدت يدها إلى حقيبتها ونهضت .

وفوجىء بقيامها ، وفزع كأنها أهانته ، وهتف :

ـ لماذا نهضت ؟

قالت باسمة فى طيبة ورقة :

ـ سأذهب الآن .

صاح :

ـ مستحيل .

قالت فى هدوء وكأنها لم تنتبه إلى لهفته :

ـ أريد أن ألحق بالمحل لأشترى الحذاء الذهبى .

قال متوسلاً :

ـ يمكنك ترتيب الظروف معى .. لم نقل شيئاً بعد .

قالت وهى تتحرك نحو الباب :

ـ مرة أخرى .

غلبه إحساس قوى .. بأنها ندمت على المجىء إليه ألم تقل إنها وجدته يختلف عما كانت تظنه . كان يشعر بهزيمة فى معركة لم تبدأ بعد . قال يائساً :

ـ اجلسى ولو خمس دقائق .

ولكنها مضت وهو يسير خلفها . لا تكاد تلتفت إليه . ووجد نفسه يسألها فى لهفة :

ـ متى أراك ؟

قالت فى هدوء :

ـ سوف أتصل بك .

سألها مستريباً :

ـ هل أصدقك ؟

فنظرت إليه نظرة جامدة ، كأنها بعيدة عنه ، لا تجد وسيلة للاتصال به . وهمست :

ـ طبعاً سأتصل بك .

وودعها . وعاد إلى حيث كانا يجلسان . وجلس على مقعده يتأمل مقعدها الخالى . وهو لا يدرى ما الذى حدث بينهما . وما الذى حدث له .

لا تتخـل عنى

انتهى تأثير المفاجأة ، واستعـاد عبد الهـادى النجار سيطـرته عـلى مشاعره ، وفكر فيما حدث في هذا اللقاء الغريب بينه وبين زينب ، على أنه نوع من الحماقة ليس مسئولاً عنها ، ولكنه تورط فيها .. كما قد يتورط أى إنسان صدفة وبغير قصد في موقف سخيف .. وهو يلوم نفسه لأنه سمح لمشاعره أن تضطرب بسبب هذا الحادث التافه . وعليه الآن أن يتجاهله ، ولا يضيع وقته في التفكير فيه ، وفى هذه المرأة الشعنونة وتصرفاتها الصبيانية ، ومع ذلك يجب أن يعترف بأنه لم يحدث له طوال حياته شيء مثل هذا ، حتى فى أيام صباه ومراهقته .. لقد حرمته الظروف من التعرف على مثل هذه المرأة ، وهو عموماً لم يضع في حسابه أن ينشغل بالمرأة ، أو بما يسمى بعواطف الحب ، بكل أنواعه ، العذرى وغير العذرى ، كانت حياته عاقلة دائماً جافة أبدا ، وكان مشغولا بحساب المواقف والتصرفات واتخاذ القرارات التى يصنع بها حياته ، كل ما عرفه عن المرأة كان من خلال غرائزه ، أو من خلال غرائز

أصدقائه في تلك الأيام التى عاشها في طنطا أيام صباه ، ولم يكن يوماً ما عبداً لهذه الغرائز ، بل إنها صدمته وروعته عندما كان يرى صديقه لطفى مكى يمارس غرائزه مع الفلاحات الفقيرات ، وكأنه يتعامل مع بضاعة . أحياناً كان يتقدم له شيخ الخفر بعروض معقولة ، أن يدفع خمسين جنيهاً لأهل العروس حتى يستطيعوا تجهيزها مقابل أن يتمتع بها أسبوعاً قبل زواجها ، وأحياناً

كانت تأتيه فقيرات يكون همهن الأول أنهن يطمئن إلى أن ابنهن جاء من صلب الأسياد ، كان كل ما يطلبنه هو الكسوة والطعام وقبلهما حماية وأماناً ، كن يعتبرن أجسادهن ملكاً لأسيادهن ، والسيد مسئول عن تصرفاته ، فإذا كانت المرأة التى تمتع بها بكرا ، فعليه أن يزوجها بعد ذلك من أحد اتباعه وإذا كانت زوجة فعليه أن يرسل إليها فى المواسم والأعياد ما يجود به ، ولا أحد فى القرية يجسر على الكلام . وأكبر محظور يقع فيه السيد ، أن يتحدث عن النساء اللاتى عرفهن فى قريته . كل شيء يحدث وكأنه لم يحدث والعرف صارم والتقاليد قاسية ، فإذا تجاسر رجل في القرية على أن يتهم امرأة بأنها فعلت كذا أو كيت مع سيد القرية ، فهو مارق مصيره القتل ، إن العيب له جغرافيا خاصة به ، وله حدوده داخل الطبقة ، فالفلاح الفقير يقتل ابنته إذا ما تهاونت فى شرفها مع فلاح فقير مثله ، أما إذا أصبحت محظية لدى السيد ، فلا عيب في الأمر ، لأن السيد من طبقة أخرى ومن عالم آخر خارج حدود العيب والشرف . هكذا تعلم عبد الهادى دروسه الأولى عن العلاقة بين الرجل والمرأة . وهى دروس لها صلة بغريزة الجنس ، وغريزة التملك وغريزة السيطرة ، ولا صلة لها بذلك الذى يسمونه فى الأشعار والروايات بالحب .

هناك حب وعشق ولكنه يعتبر مثل هذه العاطفة نوعاً من الترف لا مجال لأن يشتت جهوده فيه ، كان عليه أن يقتصد وأن يركز فى استخدام طاقته ، من أجل السلطة والنفوذ ، فعاش راهباً بلا حب ولا زواج ولا أسرة ، ولا شك أنه يفتقد أحياناً هذه العلاقات ، ويشعر بأنه ضحى بها ، ولكنه غير نادم على قراره ، وهو واثق أن حياته كما اختارها هى الوضع السليم الوحيد الذى يتيح

له أن يخوض معركته في غابة البشر ، متخففاً من كل هذه الأعباء ، متخلصاً من كل هذه الثغرات التى لا تتصل بأهدافه ، والتى ينفذ منها الضعف ويتسرب اللين وطراوة الإرادة إلى النفس ، إن العالم الذى يعيش فيه ، لا يسمح للإنسان أن يقف على قدميه ، أو أن يخوض معركة وهو مكبل بقيود عاطفة حب لامرأة ، أو وهو حبيس مسئوليات نحو زوجة وأولاد . لقد شهد بعينيه وبقلبه الدامى ، كيف ضحى أبوه بنفسه ليتحول إلى مهرج رخيص من أجل أن يربيه ، ولو كانت له زوجة وولد ، فأغلب الظن أنه كان اضطر إلى أن يفعل مثلما فعل والده . لا ضمان فى هذه الحياة القاسية التى لا يهدأ فيها الصراع للحظة واحدة . ولكن لقاءه بزينب أتاح له أن يرى لمحة من تلك الحياة التى فاتته . رأى فيها المرأة في صورة مختلفة عن تلك التى عود نفسه عليها ، إنه يعرف المرأة التى يدفع لها الثمن لتطيع ، أو المرأة التى تخضع له لتحصل منه على فائدة فى صورة دعاية وشهرة أو نفوذ . إن زينب تختلف تماماً عن مهجة مراد التى تطارده وتقيم في شقته فى مناسبات محددة ومعروفة مقدماً ، وهى الفترة بين انتهائها من تمثيل الفيلم حتى تطمئن إلى نجاح العرض الأول ، وعندئذ تختفى ، ويعلم أن دورتها اكتملت ، فهى الآن تبدأ دورة جديدة ، مع منتج جديد ومخرج جديد ، لفيلم جديد ، ويكاد يحدد بنفسه الموعد الذى سوف يشتعل فيه غرامهما مرة أخرى ، من مجرد تتبعه لأخبار الفيلم ومواعيد التصوير . وزينب ليست مثل سعاد حرب التى كافحت

وحاربت بجسدها معه اكثر مما كافحت وحاربت فى كتابة المقالات وإعداد التحقيقات حتى تصبح محررة باب المرأة والطفل . وحتى تستطيع أن تفرض على الرجال الخوف منها بل التذلل لها ، لما يشاع عنها ، وتشارك هى فى إشاعته عن صلتها بالمخابرات ، وعلاقاتها الغرامية بهذا أو ذاك من طبقة الحاكم ، هنا علاقات واضحة ، أو على الأصح صفقات محددة لا مجال فيها للعواطف الغامضة أو الجامحة ، ولا صلة له بما رآه في زينب من اندفاع وأهواء ونزوات ، لم يحدث له أبدا أن عرف امرأة تقول له إنها تريد أن تتعرف

عليه ، ثم تقفز بعد دقيقة هاربة من أمامه وكأنها لم تقل شيئاً ، ولم تقدم بزيارتها له على تصرف له معنى ، وذلك لأنها تحمست فجأة لشراء الحذاء الذهبي الذى رأته في دكان الأحذية ، هذا الإسراف في ممارسة أهواء النفس وتدليلها ، هذه الثقة المفرطة باللحظة التى يعيشها المرء دون التفات إلى ما قبلها وما بعدها وأنه لا شىء أهم مما يخطر على البال ، أيا كان هذا الذى يخطر على البال ، هذه الحرية التى هى الفوضى ، هذا التبذير السخيف للطاقة والمشاعر ، إنه لم يعرفه أبدا . كان دائماً أفقر من أن يملك كل هذا الفيض من المشاعر والرغبات واقتصد وركز طاقته ليقوى على الآخرين فى الغاب ..

وليكون قادراً على مصارعتهم ، ربما لو كان أميراً يملك القصور والسرايات فى عالم مستقر لا تحدث فيه ثورات تضيع فيها الإمارة وما يتبعها من القصور والسرايات لحاول أن يحيا هذه الحياة ، ولو لفترة ، كأنها حلم ، أوكأنه يقرأ قصيدة شعر ، ولكن مثل هذا الحلم فى أيامنا هذه ، وواقعها المرير ، هو حلم قاتل ، ومحاولة التورطفيه ، هى محاولة للانتحار .. ثم أنه لا يعرف حتى الآن ماذا تريد زينب منه . كل ما قالته ، إنها تريد أن تتعرف عليه ، هل تفهم ما قالته ، هل تعنى حقاً ما تطلبه ، أما أن تعرفه على حقيقته فهذا محال ، إن مثلها لن يفهم أبدا ما يعيش من أجله وما يجيش في صدره من مشاعر ، وما يدور فى رأسه من أفكار ، ولابد أنها أدركت بغريزتها أنها لن تستطيع معرفته ، فقد بدا له ، وكأنه خاب ظنها بمجرد أن حاول اتخاذ مظهر القادر على تقديم المشورة ، والنصح ، تغيرت فجأة ، وهربت منه ، لعلها تقول لنفسها إنه بخيل بالحياة ، لا يعرف كيف يمارسها ويتعامل بها ، المجنونة تريد أن يبدد حياته كما تبددها هى ، ومع ذلك لابد أن يواجه نفسه بحقيقة مخيفة ، وهى أنه قضى اللحظات الأخيرة من لقائه بها فى تعاسة ، وأنه انهار أمامها ، وتحول ـ لدهشته ـ إلى ذلك الصبى المراهق الذى لم يكنه يوماً ما ، أهكذا تنهار الحصون ببساطة أمام الهجمات المباغتة من القوى الغريبة .. نعم لقد انهزم أمامها ، وبغير معركة وقد جاءته وكأنها جنية من عالم مسحور تطرق بابه ،

وهو الرجل الذى لا يؤمن بالجنيات ولا بالعالم المسحور ، وسألته عن نفسه .

وهو الرجل الذى لم يسأله أحد عن نفسه منذ زمن بعيد .. سألته عن نفسه وكأنها تريد أن تخرجه من نفسه ، إنه لم يعرف طوال حياته امرأة لا تطلب منه شيئاً سوى نفسه ، ولكن هل هذا صحيح ، إن اضطرابه يقول له نعم إنه صحيح وتلك الساعة التى قضاها جالساً على مقعده يرقب مقعدها الخالى فور خروجها تقول [illegible] إنه صحيح ، ولكن [illegible] ، وهو الذى شاب شعره بتجارب الحياة ومعاركها ، إنه يرفض ما شعر به .. ويعتبره سقطة أعصاب ، وليست زينب هى السبب فيما أصابه ، فمن تكون هذه المرأة التافهة حتى تؤثر فيه ، إن أعصابه متوترة بسبب تلك الأخبار الكئيبة التى تتجمع لديه ، بأنهم يدبرون له مكيدة قريبة ، وأنهم يفكرون فى الاستيلاء على الصحف ووضعها تحت سيطرتهم ، هذا هو ما يقلقه حقاً ، وهذا هو الذى جعله يضعف فى ذلك اللقاء العابر ، فتتحرك فيه الخواطر والانفعالات مراجعاً نفسه على هذا النحو العريض ذى الآفاق البعيدة المترامية ، كانت زينب هى القشة التى أوشكت أن تقصم ظهره المحمل بتلك الأعباء المرهقة . جاءت فى وقت لا يحتمل فيه أن يتحول لحظة عما يواجهه ، جاءت وهو فى أشد الحاجة لأن تكون معنوياته عالية ، وإرادته صلبة ، استعداداً للمعارك التى تتجمع غيومها فى الأفق ، معارك رجال ، ومعارك إرادات ، ومعارك رؤية للحياة وللمجتمع ، لا معارك بين رجل وامرأة ، فإذا بهذه المرأة تهبط بمعنوياته إلى الحضيض ، وتشعره فى لحظات ومن حيث كان لا يتوقع بأنه من الممكن أن ينهزم وينهار ، لقد فتحت له فجأة نافذة مغلقة فى حياته ، فتحتها على مصراعيها ، ونقلته بغتة إلى موقف لا يفهمه ، فبدا كسمكة خرجت من الماء وأوشكت على الاختناق . على أية حال لقد انتهى كل هذا ، وهو يسلك الآن الطريق الوحيد الذي يطمئن إليه ، وهو أن يتجاهل ما كان ، وأن يتنبه إلى أعصابه فيتناول أقراصاً أكثر من فيتامين « ب » كومبلكس ، وقد يمر على الطبيب ليجرى له كشفاً عاماً ليطمئن على صحته وأعصابه بالذات .

وذهب عبد الهادى إلى الجريدة فى مساء ذلك اليوم الذى تم فيه لقاؤه الأول بزينب ، وباشر عمله ، وقد حدد مواقفه ، وصفى مشاكل نفسه ، أو هكذا خيل إليه ، حتى دخل عليه حسن زيدان وسأله عما حدث ، فقال له باقتضاب متعمد ، إنه لم يحدث شىء ذو بال ، وأنها زارته لأنها فى مشكلة كما كان يتوقع ، وأنه عرض عليها مساعدته ، ولم يسمح لحسن أن يتمادى في السؤال عن المشكلة ، ومع ذلك أحس برعشة خفيفة فى أعصاب يديه عندما قال حسن :

- أنا سعيد على أية حال بأنك لم تجد في زيارتها ما يريب .. فعلينا أن نتوقع أى شىء في هذه الأيام التى كثرت فيها الشائعات ..

قال عبد الهادى متفلسفاً فى محاولة للسيطرة على نفسه :

- يا سيدى حياتى كلها محاطة بما هو مريب ، فإذا كانت تريد أن تدبر لى شيئاً .. فهى لن تزيد ولن تنقص مما أواجهه .

كان يتحدث في ملل ظاهر ، وبدا وهو يحاول السيطرة على نفسه وكأنه فقد حيويته .

قال حسن وهو ينظر إليه نظرة طويلة متسائلة :

- ولكنك غير مسرور .

أجابه عبد الهادى بسرعة :

- ومن أين يأتى السرور ؟ !

قال حســـــن :

- لا تقل هذا فأنت تعرف ما يحدث للمحررين عندما يرونك متجهم الوجه .. إن صالة التحرير تتحول إلى شىء أشبه بسرادق عزاء .. إنهم محتاجون إلى معنوياتك العالية ..

دق قلب عبد الهادى بعنف وقد هجم عليه غضب مفاجىء ، وقال فى محاولة يائسة للتخلص من هذا الغضب :

- أشعر بارهاق .. لعلى فى حاجة إلى أجازة .

قال حسن فى إصرار :

ـ هناك شيء تخفيه .. ما الذى حدث مع هذه المرأة .. لقد كنت غير مستريح للقائها هذا الصباح .

قال عبد الهادى وهو يفتعل ضحكة :

ـ إذا كانت تركت شيئاً فى نفسى .. فهو إحساسى بأنى رجل عجوز ولكن لا شأن لها بما أنا فيه .

قال حسن :

ـ أنت .. مستحيل .. أنت صورة مجسمة لدوريان جراى .. الذى احتفظ بوسامته وحيويته مهما تقدم به العمر .

قال عبد الهادى وقد غلبته انفعالات شتى :

ـ ولكنى عجوز .. وصورتى الحقيقية أخفيها فيكم أنتم .. أنظر إلى وجهك فى المرآة يا حسن .. ستجد الكهولة أكلت وجهك .. أنت مازلت في الخامسة والثلاثين .. ولك وجه عجوز فى الستين .. هذا الشعر الأشيب .. هذه التجاعيد فى وجهك .. هذا التهدل فى جفونك .. وهذا الصوت المتحشرج أنت لم تكن هكذا عندما دخلت مكتبي كأحد جنود الصاعقة في جيش هتلر خطواتك تكاد تهدم الحجرة بسقفها وجدرانها .. أما مازلت أراك كما كنت .. وأرى فيما حدث لك شيخوختى أنا ..

قال حسن وهو يغالب ابتسامة ترتسم على شفتيه :

ـ هل هى صغيرة إلى هذا الحد ؟

قال عبد الهادى فى ضيق واندفاع :

ـ نعم .. ومشاكلها مشاكل أطفال .. استمعت إليها فى سأم وكأنها ابنتى التى رفضت أن أتزوج حتى لا أنجبها وتنغص على حياتى بثرثرتها ومشاكلها الصبيانية .

قال حســـن :

ـ ليتك اعتبرتها لوليتا .. لا أظن أنها كانت تمانع .

قال عبد الهادى بقسوة تعبر عن احتدام انفعالاته :

. لأموت فى أحضانها .. إنك تتمنى موتى بلا شـك .. عندئـذ تسترد حيويتك .. وتسترد حريتك .. ألست تريد أن ترثنى وتجلس هنا مكانى لتكون الأول فى مدرسة العصر الجديد ..

قاطعه حسـن :

ـ لو كنت تخفف من كراهيتك لى .

صاح عبد الهادى :

ـ أنا أكرهك . أكره تلميذى . أكره ابنى . مستحيل أن أكرهك يا حسن زيدان ، إلا إذا كرهت نفسى . وأنا بكل تأكيد لا أكره نفسى . ولكنك أنت الذى يكـرهنى أنت الذى يحمـل عنى عبء الكراهيـة كما تحمـل عنى عبء الشيخوخة .. لا تنس أنى أحارب بك .. أنت سلاح في يدى .. والصفقة التى عقدتها معى تسمح لى أن أطلب منك أن تكنس هذه الحجرة بالمقشة كل صباح حتى ولو احتج صالح الأخرس على ذلك .. وأنت تتمنى اليوم الذى تستطيع أن تقضى فيه علىَّ .. فهل جاءت الفرصة يا حسن .. أم هى ليست مواتية بعد ؟

أجاب حسن بصوته المتحشرج وفي عينيه نظرة جامدة :

ـ ما دمت تتحدث معى هكذا .. فلا جواب عندى إلا أن الفرصة ليست مواتية بعد .

قال عبد الهادى :

ـ أنت أذكى من أن تتجاهل هذه الحقيقة .. حتى ولو لاح لك الأمل في دياب .

قال حسن محتجاً :

ـ أنا أومن بما تقوله عنه من أن دياب اسمه الحقيقي دبة .. وأنه دبة من ذلك النوع الذى يقتل صاحبه . إن قسوتك معى لا حدود لها .

قال عبد الهادى وقد تحولت انفعالاته إلى حيوية عارمة :

ـ وهل أتركك تتحدث معى عن لوليتا .. وأنت تعلم حقيقة ما بى .. إن

قسوتى أرحم بكثير من تمثيلياتك .. ليس بيننا قناع يا حسن .. أنا أخاطبك كما أخاطب نفسى .. وأنا لا أتنبأ بالغيب ولكنى واثق أن الوقت قد أزف ، وما هو إلا شهر أوشهران ، وسترى الدب يحكمنا هنا . لا تقل لى كيف علمت هذا .. ولكن هذا المكان سيمتلئ بالدببة .. ويومها لابد أن تراودك نفسك لأن توجه إلى أول طعنة .. وأقول لك من الآن لا تتوهم إنى لن أقاتلك .. لن

انسحب .. وإذا استطعت أن تصمد فأنت جدير بأن تكمل من بعدى :

همس حسن وقد تحولت حشرجته إلى فحيح :

- من يسمعنا يقسم بأننا مجانين .

فهتف عبد الهادى مازحاً :

- ولكنها الحياة .. وأنا سعيد بها ، ولا أرضى بغيرها ، وصدقنى أن الذي يفهمنا لن يتهمنا بالجنون ولكنه سوف يخر ساجداً أمام روعة وعظمة سفالتنا ..

وهكذا استطاع عبد الهادى أن يتخلص من زينب ، بهذه الحمى التى انتابته أثناء حديثه مع حسن زيدان . ترك ميكروب همومه ومعاركه الخاصة يشغله بل ينتزعه نهائياً من كل أثر تركته في نفسه زينب الأيوبي .

وخرج حسن زيدان من الحجرة وهو يقول لعبد الهادى :

- مهما حدث ومهما فعلت الدببة ، فأنا مدين لك .. والحياة مع رجل عظيم مثلك لا تتكرر مرتين .

وهتف عبد الهادى فى مرح :

- وأنا أيضاً لن أتكرر مرتين حتى لو أخذت مكانى يوماً ما .. فستكون قد اختلفت .. إنى أقولها لك بصراحة وبغير غرور .. إننى ضرورى لكى تبقى الظروف على ما هى عليه .. أما من بعدى فالطوفان .

واتصل المطرب هانى حمادة ، يسأل عبد الهادى متى يذهب إلى بيت نور الدين بهنس ، وإذا به يفكر فى الاعتذار . وتردد لحظة ، ثم غضب من تردده ، فقال لهانى إنه سوف يلحق بهم بعد ساعة . وطلب يوسف منصور

ليستعد للذهاب معه . فجاءه يوسف .. وقال له إنه يريد إعفاءه من صحبته .. وفهم عبد الهادى ما يدور فى رأس يوسف ، وضاق به ، إنه فى هذه اللحظة بالذات لا يريد من يوسف أن يثير له مشاكل من أى نوع ، وهو مصمم على التشبث به ، على أن يعتمد على استسلامه له ، وإلا سحقه في غير تردد .

سأله عبد الهادى فى غضب :

- لماذا تعتذر ؟

قال يوسف بصوت خفيض :

- لا أستريح للذهاب إليهم .

فانطلق السؤال من عبد الهادى كالقذيفة :

- وما السبب ؟

قال يوسف فى وجوم :

- أنت .

جاءت إجابة يوسف كقذيفة مضادة .

قال عبد الهادى فى ترفع وكبرياء :

ولكنى أنا الذى يدعوك .

قال يوسف كالمخاطب نفسه :

- بعد الذى سمعته منك هذا الصباح .. كنت أتمنى ألا أراك تذهب إلى بيتهم ..

وواجهه يوسف بعينين صافيتين وسأله :

- ألا تتردد في الذهاب ؟

وانفجر عبد الهادى :

- وما الذى سمعته .. وما الذى تظن أنه حدث .. أنا مصمم الآن أكثر من أى وقت آخر على أن تصحبنى إلى هناك .. أتريد أن أروى لك ما حدث ؟

قال يوسف فيما يشبه الذعر :

- لا .. لا أريد .

قال عبد الهادى مهاجماً :

- إذن لماذا تتخلى عنى ؟

قال يوسف فى غير فهم :

- أنا لا أتخلى عنك .. أنا أريد حمايتك من الموقف كله .

صاح عبد الهادى

- حمايتى .. ممن تحمينى .. من امرأة لها مشكلة .. أو من زوج يعلم كل شيء عن تصرفات زوجته ، أو تحمينى من اتهاماتك التى لا أقبلها .

قال يوسـف فى حيرة :

- هذا الجو كله يضايقنى .

قال عبد الهادى ومشاعر كالدموع تنبثق من كل ذرة في جسده :

- هذا الجو ليس بالجديد .. فلماذا يضايقك الآن .. وأنت لا تذهب إليهم من أجلهم .. أنت تذهب معى ومن أجلى .. اسمع يا يوسف منصور .. إن بيننا صداقة .. هل تفهم معنى الصداقة أم لا تفهمها .. أريد إجابتك فوراً .. لأنه يتوقف عليها كل ما بينى وبينك .. أنا لا أحتمل أن يتخلى عنى من اعتبره جزءاً من نفسى .. أنت الوحيد الذى أحببته في هذه الدنيا .. وأطمئن إليه .. معك ألقى سلاحى .. منذ رأيتك لأول مرة وتفاعلت بك .. قلت لك إن حياتى كلها سجن مغلق هواؤه فاسد .. وأنت نسمة الهواء النقية الوحيدة التى استنشقها . قلت لك إنى أحارب في غاب .. وأنى أقاتل بلا ضمير .. لم أخف عنك شيئاً .. كنت تتحمل عنى أحزانى ووخز ضميري .. كنت تتألم نيابة عنى .. تتقبل كل ما بى .. لأنى تعريت أمامك وكشفت لك عن عيوبي لتقول لى أنت إنها عيوب ، ألم تفكر في العلاقة بيننا .. ألم تفكر في هذه الصلة التى تربطنا .. صلة رجل برجل .. أفضل بما لا يقارن بأى مقياس بصلة أخرى .. حتى لو كانت بين امرأة ورجل عاشقين .. يجب أن تواجه هذا .. يجب أن تكون ناضجاً لمعرفة حقيقة المشاعر التى تتعامل بها وتتبادلها ، لا تحتمى وراء ما تدعيه من غباء ، أنت تعرف أنى لا أعتمد عليك في العمل مثلما اعتمد

على حسن زيدان ، لأن حسن سافل ، والعمل يحتاج إلى سافل من الدرجة الممتازة ، ولكنك شيء آخر . أنا أعرف حقيقة ما فى نفسك أكثر مما تعرفه أنت .. أنت لا تريد أن تكون مثلى .. ولكنك تحبنى .. وأنا في حاجة إليك .. لأنك تبقى على عبد الهادى النجار الذي يتفرج على عبد الهادى النجار .. وصدقنى أنا فى حاجة إليك الآن أكثر من أى وقت آخر .. فلا تهزمني .. أنت

الوحيد الذى لا أستطيع أن أحاربه .. ولو تخليت عنى الآن فالله وحده يعلم ماذا سيكون لى ولك .

اغرورقت عينا يوسف ، وذهب مستسلماً مع عبد الهادى إلى بيت نور الدين ، وكان عبد الهادى عصبياً على غير عادته ، وكان يلعب البوكر بعنف وجسارة ، ويكسب ويخسر بجنون كأنه يحارب ويلعب بحياته .

وقال مختار زادة :

- أنا لا أحتمل هذا التهور يا أستاذ عبد الهادى .. إن ضغطى مرتفع فرفقا بنا .

وردد هانى حمادة أكثر من مرة :

- هدىء أعصابك يا أستاذ .. لقد شعرت أنك تنوى الليلة على الشر من صوتك في التليفون .

وكان يوسف يجلس خائفاً ، وهو يرى عبد الهادى يقذف بكل نقوده على الجوخ الأخضر مغامراً بكل ما فى جيبه ، وفجأة التفت عبد الهادى إليه وهمس :

- كم معك من نقود ؟

قال يوسف والعرق يتصبب على جبهته ويشعر به فى ظهره :

- عشرة جنيهات .

- هاتهـــــــا ..

وأخذها عبد الهادى منه ووضعها أمامه . كان وجهه صارماً ، لا يفرح بمكاسبه ، وكانت كبيرة ، ولا يهتز لخسارته وكانت كبيرة ، كانت أعصابه من

فولاذ ، أو كأنه بلا أعصاب ، وكان لا يوجه الحديث إلى نور الدين الذى انكمش في مقعده وبدا عليه الحذر والتربص ، متراجعاً عن المجازفة بنقوده ، حتى هاج فيه عبد الهادى :

- لماذا تجلس معنا وأنت لا تلعب ؟

قال نور الدين في بلادة :

- هذا ليس لعباً يا عبد الهادى .. هذه مذبحة .

صاح عبد الهادى :

- نعم مذبحة الخنازير أمثالك .

قال نور الدين وقد زادت بلادته :

- أنت فى حالة غير طبيعية .. الأفضل أن نؤجل اللعب اليوم .

وهتف هانى حمادة :

- نعم .. لأنى اتصلت بك يا أستاذ لتسمع أغنيتى الجديدة .. والعود معى ..

فضرب عبد الهادى بقبضته على المائدة :

- بل ستلعبون .

ووجموا ، وأذعنوا فما كانوا يستطيعون مواجهة غضبه ، وواصلوا اللعب ، وبينما هم صامتون ، ارتفع صوت ضجيج في الخارج يعلن عن دخول زينب البيت ، ووجف قلب يوسف ، ها هى تعود ولعلها تدخل عليهم ، ولكنها لم تدخل ، وسمعوا صوتها يغنى . ومنذ تلك اللحظة ، خسر عبد الهادى كل نقوده بتهور غير معقول . وطلب منهم أن يقرضوه . كان يطلب وكأنه يأمر خدمه فاعتذروا بدعوى أنهم لا يريدون سرقته .. وكانوا خائفين من تأرجح الحظ ، ويفضلون التمسك بما كسبوه . ولكن لطفى مكى أقرضه خمسين جنيهاً ، وما هى إلا دقائق حتى كان خسرها فقذف بأوراق اللعب وقال بصوت حزين فيه ألم :

- الليلة ليست ليلتى ..

وجذب يوسف من يده وخرجا إلى الشارع ، وطلب عبد الهادى من يوسف أن يقود له سيارته إلى مكان هادىء ، ووصلا إلى كورنيش النيل فى طريق المعادى ، وأوقفا السيارة وسارا جنباً إلى جنب في ليل بلا نجوم حتي توقف عبد الهادى وأمسك بيد يوسف وقال وهو ينظر فى عينيه :

- يجب أن أعترف لك أنى فى غير حالتى الطبيعية بسببها .. والأمر تافه .. بل أتفه مما تتصور .. ولكنى لا أدرى كيف يتضخم فى نفسى رغماً عنى .. وأفقد سيطرتى على مشاعرى بصورة قاسية وغير متوقعة . هناك شيء غريب يحدث لى ، لقد جاءتنى في الموعد ، لم تكن لديها مشكلة .. ولا أى شيء ولم أعرف سبباً لزيارتها .. صدقنى أنى حتى هذه اللحظة لا أعرف لماذا جاءت لتتعرف علىَّ .. تريد أن تعرفنى .. هكذا فقط .. ولا أدرى كيف قالت هذه الكلمات ، أو ماذا قالته بالضبط .. لقد نسيت كل شيء .. كل ما أذكر الآن أنها تغيرت فجأة لمجرد أنى سألتها إذا كانت لديها مشكلة .. وحتى هذا لست واثقاً منه .. فربما لم تتغير لهذا السبب .. وربما لم تتغير على الإطلاق .. كان وجهها حزيناً .. لم ألحظ هذا من قبل ولكنه حزن حقيقي .. وفجأة نهضت .. لا تريد مواصلة الحديث .. واعتذرت بأنها تريد شراء حذاء وتوسلت إليها أن تبقى ، ولو خمس دقائق . تصور أنى أتوسل إليها .. شعرت بعدها بإهانة أو هزيمة .. جلست على مقعدى بصورة لم أفعلها في حياتى أرقب مقعدها الخالى وكأنى في كابوس .. أأكون قد جننت .. يخيل إلىّ أنى مرهق إلى أقصى حد .. ولكن ما رأيك في هذا ؟

قال يوسف بصوت قوى غلبه الانفعال :

- إنها سيدة عظيمة .

فنظر إليه عبد الهادى فى حدة وخوف وردد في عصبية :

- ماذا .. عظيمة .. ماذا تعنى ؟

قال يوسف :

- إنى أصدقها .. إن كل ما تريده هو أن تعرفك .. ولو عرفتك فربما

تخلصت من مشاكلها مع زوجها .. ربما هى تبحث بصدق عن حياة حقيقية لها .

صاح عبد الهادى :

ـ هذا هو يوسف الساذج يتكلم .. أنت تتكلم وكأنك تلميذ في ابتدائى يكتب موضوع إنشاء في فوائد الحديد .

وجذبه عبد الهادى من يده قائلاً :

ـ على أية حال .. لقد انعشنى السير .. واسترحت لأنى تحدثت معك .. والموضوع كله كما قلت لك تافه .. إن أعصابى في الحقيقة متوترة ، وغدا سوف أذهب لاستشارة الطبيب .





اللقاء الثانى

مضى حوالى شهر قبل أن تتصل زينب بعبد الهادى مرة ثانية ، وكان قد تخلص تماماً من تلك الأشجان التى ثارت فى نفسه ، بل أصبح يسخر منها إذا ما تذكرها ، كما أنه كان قد أقنع نفسه بأنها لن تعود للاتصال به ، وتقبل هذه القناعة بغير شعور بالهزيمة أو الانهيار ، بل إنه رضى بتفسير آخر استراح له ، وهى أنها تركته لأنها وجدت فيه الرجل الذى لا يستطيع أن يشغل نفسه بأهوائها ونزواتها وأمورها الصبيانية ، ولعلها هابته فانسحبت بسرعة ، واستراح عبد الهادى لهذا التفسير ، واستقر بينه وبين نفسه عليه ، ولكنه ما كاد يسمع صوتها ، حتى تحركت فى نفسه تلك الانفعالات الغريبة ، ووجد نفسه مندفعاً فى بثها أشواقه وعواطفه رغم أنه لم يكن بينهما ما يبرر هذه العواطف التى يعبر عنها ، أو ما يبرر أن يحاسبها على تأخرها فى الاتصال به ، وقلقه ، بسبب هذا التأخير . واتفق معها على اللقاء . ومرة أخرى وجد نفسه يتورط أكثر من المعتاد ، فيحدد لها الموعد فى مسكنه بشارع عدلى ، لا فى

شقته بغمرة حيث يقابل النساء عادة ، وعندما سألها عن الوقت الذى يناسبها ، قالت له إنها ستذهب إلى السينما فى حفلة الماتينيه ، وأنها تستطيع أن تلقاه فى التاسعة ، فوافق فى الحال ، رغم أنه يعلم أن هذه الساعة مقدسة بالنسبة للعمل الذى يصل فيها إلى ذروته فى الجريدة ، عندما تتدفق الأنباء وتجرى الاتصالات ولكن ما من شيء مهما بلغت خطورته أو قداسته كان يستطيع أن يبعده عن موقفه على أى موعد تحدده بلا مناقشة . وتقبل فى وعى كامل تورطه ، وخروجه عن تقاليده التى رسمها لنفسه ، وتدرب على الانضباط تحت لوائها ، ليؤكد رئاسته للعمل فى صرامة رهيبة . لقد بهره أنها حددت ذلك الوقت المتأخر للقاء ، وتذكر أن نور الدين مسافر فى الاسكندرية ،

ولكنه سخر من فكرة عقد صلة بين سفر نور الدين وغيابها عن بيتها وهى التى تعود فى الساعات الأولى من الصباح ، على مشهد من الجميع ، وتراجع عبد الهادى فى مقعده وعقله يفكر بسرعة ، إن الشهر الذى مضى قد أفاده ولا شك ، فالآن لن تكون هناك مباغتة ، بل عليه أن يدبر منذ هذه اللحظة كل شيء ، وهو يميل إلى أن يجعل هذه الليلة فاصلة فى علاقته بها ، لا داعى للتفكير الطويل ، إن التصرف فى مثل هذه المواقف أقوى بكثير من أى تفكير . ببساطة ، عليه أن يجذبها من يدها إلى السرير ويتعرف على جسدها فى هذه الليلة بالذات وبذلك يتخلص نهائياً من كل تلك المشاعر البلهاء التى أزعجته لبعض الوقت ، نعم لقد حانت الفرصة لأن ينتقم من كل ما شعر به ، ويتخلص بحق من تأثيرها عليه ، يكفيه أن يحدد بنفسه نوع علاقته بها ، وأن يرغمها بتصرفه على هذا التحديد وشاعت موجة من الانشراح فى صدر عبد الهادى وهو يتفرج على نفسه ، فى كل خطوة سوف يقدم عليها مع زينب عندما يلتقيان هذا المساء . سيقهرها بقوته التى لا تعرف العواطف الساذجة . سيثبت لها ببساطة شديدة ، أنها صغيرة ساذجة بالنسبة لعجوز ذى تجارب وخبرات مثله . سيبهرها . إن ما تتوهم أنها تعيش فيه من فوضى وتحرر من القيم وانطلاق مع الأهواء ، إنما هى إنفعال الصغار فى روضة الأطفال بالنسبة له .

إن التحرر من القيم ليس فوضى ومغامرات صبيانية ، إنه مدرسة لها نظامها وتقاليدها ، إنه طريقة هو شيخها ومعلمها ، إن حدود فهمها للخروج على القيم هو خيانة زوجها ولعلها لا تفهم ما هى القيم ، وما هو الخـروج عليها ، وما أهمية ذلك وماذا تكسب من ورائه ، سيقدم لها درساً تستفيد منه عندما تراه يقوم ببساطة متناهية بدور الصديق الذى يخون صديقه ، ولكن من أجل شىء أهم ، من أجل أن تكتشف أن هذا الصديق الخائن ، له الحق فى أن يخون لأنه الأقوى ، ولأنه القادر على أن يقدم لها شيئاً لم تعرفه من قبل . ولن يضيع معها لحظة واحدة فى مناقشة الاعتبارات والأحكام الخلقية فما دامت قد رضيت أن تدخل بيته فهى قد أفهمته أنها ترضى بكل شىء ، وهو ليس بحاجة إلى مقدمات ومناورات ولف ودوران كـل ما هو فى حاجة إليه ، هو أن يقترب منها ويقبلها ويجذبها من يدها إلى السرير . وهكذا تتعرف عليه ، تتعرف من خلال تصرفه على قوته التى تعلو فوق كل الاعتبارات وتعلو فوق كل القيم . وأى تصرف من المحتمل أن تقدم عليه فى مواجهة تصرفه ، مفيد . لو قاومته ودفعته بيديها وخرجت هاربة من البيت ، فهى تهرب من قوته وجسارته ، ومن إصراره على أن يراها مجرد جسد جميل يشتهيه . ولن تخرج عندئذ لتشترى حذاء ، بل ستكون مشعثة الشعر لاهثة الانفاس ، شديدة الاضطراب ، مختلطة المشاعر ، خائفة منه ، أو خائفة من نفسها وهذا انتصار له . ولو

قاومت بعض الشيء ، ثم بكت وانهارت ، وأسلمته جسدها ، فقد هزمها ، وفرض عليها رجولته ، وحدد معها نوع صلته بها ، إنه فى كل الأحوال سيخرج منتصراً ، لأنه لن يفكر ، ولكن سوف يتصرف ولأن تصرفه صحيح ومعبر أشد التعبير عنه ، حتى أنه لا يمكن وصفه بأنه تصرف خطأ أو تصرف صواب ، إنه تصرف حقيقى يؤدى إلى أن تعرف أنها ليست وحدها صاحبة النزوات ، وإنها إذا كانت تجرى وراء نزوة تخطر لها فهو أيضاً يفرض أية نزوة تخطر له . وإذا كان من بين نزواتها أن تتركه لشراء حذاء من السوق ، فهو من بين نزواته أن تكون له فى فراشه الليلة ، نعم تكون له وهى تعلم أنه

لا يحبها ، وليس بينه وبينها عاطفة من أى نوع . ملتهبة أو هادئة ، رومانتيكية أو غير رومانتيكية ، لا عواطف على الإطلاق . مجرد رغبة فى نفسه يفرضها بقوته ، وخضوع واستسلام من جانبها إن أرادت أو فرار مذعور من قوته ورغبته فى السيطرة عليها إذا شاءت . طبعاً سيقول لها كلمات غزل .. أنت جميلة ، أنت حلوة ، أنت رائعة ، كل هذا ممكن . ولكنه لن يقول لها أبدا أنا أحبك ، أو لن أستطيع أن أعيش بدونك . ولن يركع تحت قدميها ويقول يامعبودتى ياآلهتى .. لا لن يكون بينهما موقف عاطفى ركيك من هذا النوع ،

الذى يخلق أوهاما كاذبة بالعواطف والحب ، إنها المرأة وهو الرجل وكلاهما أمامه الفرصة لممارسة أنوثته أو رجولته . هكذا فى حرية كاملة بغير قيود أخلاق أو قيم أو عواطف أو ضوابط سلوك إلى آخر هذا الكلام الفارغ .

سيفرض عليها واقعه ، واقع الغاب والحيوانات المفترسة ، حيث يفرض القوى سلطانه على الأنثى وينتزعها من الذكر الضعيف . فإذا كانت هذه المرأة مزهوة بجموحها وانطلاقها على حل شعرها ، فعليها أن تراه أستاذاً رائعاً فى عالم الانحلال ، وعليها أن تواجه حقيقته الصريحة الواضحة وتستفيد منها . إنه ليس رجلاً هيناً ولا صغيراً فى مجتمعه ، إنه رجل هام له نفوذه وسطوته ، إن أتباعه كثيرون ، وهم يتعلمون منه كيف يتفوقون على بقية البشر . ويمتلكون قوتهم من خضوعهم له ، وارتباطهم به كأستاذ ورائد . ومن يدرى فربما تتحول إلى إحدى مريداته ، وتتخرج من تحت يديه لتكون يوماً ما امرأة متوهجة بحق ، تشتعل بحرارة هائلة من الحيوية والانطلاق ، اللذين لا يتبددان هباء بل يتحولان فى نفسها إلى قدرة على أن تفرض نفسها على المجتمع والرجال ، وتصبح سيدة لها صيت ذائع ، ومسموعة الكلمة تحرك من تشاء من الرجال بحركة من أصبعها ، من أصبع قدمها ، ويهتز المجتمع لطرفة رمش من عينيها . هذا هو ما سوف تستفيد منه زينب عندما تصبح عشيقته ، ستتحول من المرأة الشعنونة الخام إلى مؤسسة أنثوية تستطيع أن

تجمع ثروة هائلة ، تستطيع أن تكون لها كلمة ، مثل تلك المؤسسات التى قامت بها نساء فى عالم الفن ، أو عالم السياسة ، أو عالم الجمعيات الخيرية . تستطيع أن ترفع من شأن هذا الحيوان نور الدين بهنس ، أو لعلها تتخلص منه ، وتتزوج آخر أفضل منه . لابد أنها ستفكر فى الزواج منه . طبعاً هذا احتمال قائم إن خضوعها له ، له عواقبه واحتمالاته ، عندئذ عليه أن يقول لها بوضوح : إن أمثالنا لا يستطيعون احتمال الحياة تحت سقف بيت واحد . إن الفراش الذى جمعنا ليس هدفنا ، وليس نهاية مطافنا ، لقد كان مجرد ممر يفضى بنا إلى ما هو أهم ، وهو شركة العمل ، خاصة عندما تتحولين إلى سيدة ذات نفوذ ، عندئذ تكونين قادرة على أن تشاركى فى صناعة امبراطورية القوة والنفوذ . هذا هو ما يجب أن تعمليه ، وتتمسكى به ، ولا تؤمنى بغيره ، ولا ترغبى فى سواه ، حتى استطيع أن أطمئن إلى أن لمسة عبقريتى قد مستك .

جاشت هذه الخواطر فى رأس عبد الهادى النجار ، فاشتعل حماسا وحيوية للقاء المقبل ، وقرر أن يكتم الخبر عن يوسف وحسن . فلا داعى للتورط معهما بالكلام عن مشروعه الخاص ، الكتمان الآن أصبح مفضلاً بعد أن ثبت لديه أن زينب لا يمكن أن تكون لها صلة بمكيدة تدبر له . صحيح أنه لا يوجد دليل واحد يؤكد هذا أو ينفيه ، ولكن ثقته بأنها امرأة ذات نزوات ، لا ريب فيها ، كما أنه لن ينسى أبداً تلك الكلمات التى نطق بها يوسف وهو يحكى له عنها « إنها سيدة عظيمة » لقد أحس هذا الرجل الخام بما فيها من صبيانية وطفولة . إحساسه صادق ، إذ يستحيل أن تتعامل امرأة مع المخابرات وتحتفظ بهذه اللمسة من الطفولة فى حركاتها وكلامها . إنها لعبة جديدة سوف يتسلى بها . وسيحاول تجنيدها لمؤسسته ، ويجعلها تابعة فى طريقته ، وقد يكون كل هذا مجرد مبالغة منه فى التصور ، ولكن لا بأس من أن يضع خطته ، وأن يرسم اتجاها عاما لحركته معها ، ثم يمضى فى اللعبة ، ليرى إلى أى مدى تستطيع أن تشاركه فيها ، وقد تسقط منه فى الطريق ، وقد تمضى

معه حتى نهاية الشوط ، فتصبح مجندة فى مملكته ، ولعله يراها يوماً ما زوجة وزير أو أحد كبار المسئولين . ويومها سوف تكون نشوته كاملة ، ومتعته بلا حدود .

واعتذر عبد الهادى عن عمل المساء ، بدعوى ارتباطه بموعد هام ، وغادر الجريدة وقد ترك أثرا خطيراً فى نفوس المحررين بأنه ذاهب إلى الرئاسة فى مهمة صحفية بالغة السرية والخطورة . وأسرع إلى بيته ، وطلب بالتليفون عشاء خاصا ، وأخذ حماما ساخنا ، وتعطر وليس فى رأسه ذرة شك أو تردد حول ما اعتزم أن يقدم عليه ، بل كان يشعر بلهفة إلى اللقاء ليتعجل بدء تنفيذ خططه . وبينما هو يرتدى البنطلون لبدلة سوداء أنيقة فوجىء بجرس الباب يدق ونظر فى ساعته فوجد أنه مازال باقياً على موعدها أكثر من نصف ساعة وتردد فى أن يفتح الباب حتى لا يزعجه قادم طارىء . ولكن الجرس كان يدق فى إلحاح غريب انزعج له كأن من بالباب مصمم على اقتحامه . وذهب بالقميص والبنطلون وفتح الباب فرآها أمامه . وكانت تسأله فى شبه غضب :

- لماذا تأخرت فى فتح الباب ؟

قال مرتبكاً :

- لم أتصور أنه أنت .. بل كدت لا أفتح الباب .

قاطعته فى عصبية تلومه :

- كنت سأذهب ولن ترانى .

قال فى دهشة وهو يشير إلى ساعة معصمه :

- ولكن موعدنا التاسعة .

قالت فى غير اكتراث :

- الفيلم سخيف فتركته . وقلت الأفضل أن أذهب إليك .

قال :

- حسنا فعلت .. ولكن لا تقولى إنك كنت ستذهبين لمجرد أنك لم تجدينى فى غير الموعد الذى اتفقنا عليه ، فى الحقيقة جئت مبكراً على غير العادة وكان قلبى

يحدثنى أنك ستأتين مبكرة .. أنت تعرفين نوع العمل فى الجريـدة وهو يضطرنى إلى أن ألحق بمواعيدى فى آخر لحظة .

لم تكن مهتمة بما يقوله . ولعلها لم تنصت إلى اعتذاره الطويل ، كانت تتلفت حولها كما فعلت عندما دخلت مسكنه الآخر فى غمرة ، حتى وجدت مرآة فوقفت تصلح شعرها ، وتدعك بأصبعها طرف حاجبها . فوقف وراءهـا

ـ أيا .. ثم قال :

ـ سنتعشى سوياً .

قالت فى هدوء وهى مشغولة بشعرها :

ـ ليس الآن .

قال :

ـ طبعاً .. فى الحقيقة أنا أصرف عباس خادمى بعد الظهر .. ولذلك طلبت بالتليفون طعاماً خفيفاً .. لم يصل بعد .

قالت زينب وهى تتجه إلى مقعد :

ـ هل لديك ما نشربه .

قال بلهفة :

ـ كل ما تطلبينه .. ويسكى . كونياك . نبيذ .

قالت وكأنها قررت من زمن طويل :

ـ جن .

قال :

ـ وعندى جن .. وعصير ليمون . سأعده لك فـوراً .. ولكن اسمحى له بدقيقة .. حتى أكمل ملابسى .

قالت فى عصبية ، كأنها تتهمه بالتلكؤ :

ـ ولماذا ترتدى الجاكتة وأنت فى البيت .. أين تضع الجن .. سوف أعده أنا .. أين المطبخ ..

قال معتذراً :

– معك حق .

ولم تكن منتبهة إليه ، كانت تتكلم وتتصرف وكأنها فى بيتها ، كأنها تعرفه منذ سنوات ، واتجهت إلى ممر يفضى إلى المطبخ وهى واثقة من موقعه ، ووصلت إلى الثلاجة وأخرجت منها قطع الثلج وأمسكت بليمونة وقطعتها قطعاً رقيقة ، وكان يراقبها وقد اختطفت أبصاره ، فهو غير قادر على متابعة حركتها وحيويتها ، ومنذ دخلت بيته وهو يلاحقها ، حتى مطبخه ، وهز رأسه متخلصاً من الارتباك الذى هاجمه ، وجعل يطمئن نفسه ويهنئها بأنها تبدو مستعدة تماماً لتنفيذ مشروعاته ، ولكنه ارتجف فجأة لهذا الذى هنأ نفسه عليه ، إن هذا الاستعداد يضايقه ويحيره لسبب غير واضح فى نفسه ، إنها لا تبدو وكأنها مستسلمة له ، بالعكس إنها كمن يجرى معه فى سباق ، بل أنها بدأت السباق مبكرة عنه ، وجعلته الآن يلاحقها لاهثا . ورآها قد انتهت من إعداد شراب الجن ، ودهش لأنها أعدته لها وحدها ولم تهتم بأن تقدم له كأساً :

قال مازحاً :

– أنت أنانية .. لماذا لم تعدى لى كأسى .

قالت وكأنها لا تفهمه :

– لماذا .. وكيف أعرف مزاجك الخاص . ربما تريد أن تشرب شيئاً آخر .

قال وقد عاد إليه ذلك الشعور بأنه يلاحقها :

– بل سأشرب نفس الشىء .. هكذا تقضى الأصول .

لم ترد عليه . ومضت بكوبها فى يدها وجلست على المقعد الذى اختارته وكان أمام المرآة . وتركته يعد شرابه ، وهو يردد بينه وبين نفسه فى حنق . إنها تتصرف معه بوقاحة لا نظير لها . كانت تنظر إليه صامتة ، وكأنها بدأت تكتشف وجوده فى البيت الآن فقط . وقد أشعلت لنفسها سيجارة تنفث دخانها فى ملل . وقرر ألا يكرر خطأه فى اللقاء الأول ، لن يسألها لماذا جاءت ، ولن يدعى أنه قادر على أن يقدم لها نصيحة ، سوف يستسلم للثرثرة بعض

الوقت ، وبعد كأسين أو ثلاث ، سيبدأ فى مغازلتها ، حتى بدء الثرثرة لن يكون من جانبه ، سوف يلتزم الصمت ، حتى تبدأ هى بالكلام ، ولكن الوقت مر ولعلها بضع ثوان ، ولكنه لم يحتملها . فسألها :

ـ لماذا لم يعجبك الفيلم ؟

قالت :

ـ كئيب .. كله موت وضرب رصاص .. ليس فيه مرح .

قال :

ـ هل تحبين الأفلام الكوميدى .

قالت :

ـ بعضها .. المهم .. هو المرح .. البهجة .

وحدقت فيه بعينيها كأنها تسأله هل تفهمنى .

قال مترددا :

ـ فى الحقيقة أنا لا أذهب إلى السينما إلا نادراً .. لعلى لم أذهب إليها منذ خمس سنوات .. وإن كنت أعرف جميع الممثلين والممثلات .. وكل الوسط الفنى .

قالت باهتمام :

ـ ولكنك لا تعيش فى جو مرح .

قال :

ـ هذه حقيقة .

قالت :

ـ تقضى كل ليلة فى لعب البوكر .. هل هذه حياة .. لماذا لا تخرج وترقص .. أو تقيم حفلات تدعو إليها مطربات من صديقاتك للغناء والرقص .

قال ضاحكاً :

ـ هذه مشكلة سن .

نظرت إليه فى فضول وسألته :

- هل أنت عجوز .. لا أظن .. كم عمرك ؟

قال باسماً :

- قولى أنا شاب فى الخمسين من عمره .

قالت :

- لا يبدو عليك أنك عجوز .

قال فى زهو مصطنع :

- طبعاً .. أنا أكثر شبابا من أولاد هذه الأيام .

سألته فجأة :

- هل تخرج معى لترقص .

ارتبك . وقال معتذراً :

- طبعاً لا أستطيع .. القاهرة كلها سوف تتحدث عن هذا .

قالت :

- وماذا يهمك .. دعهم يتحدثون ..

كاد يقول لها .. إن مركزه لا يسمح له بالظهور وهو يرقص فى مكان عام . ولكنه أيقن أن مثل هذه المعانى سوف تضايقها ، فهى من المحظورات التى لو تفوه بها فربما هربت منه كما فعلت من قبل .

قال بعد تفكير مرهق سريع :

- فى الحقيقة أنا لا يهمنى أحد .. ولكن عندما أريد أن أثير ضجة من حولى فلابد أن أستعد لها .. أنت تعلمين أن لى أعداء كثيرين يتربصون بى .. وهذه حقيقة لا تزعجنى .. ولكنها تضطرنى إلى التفكير فى مواجهتها .. فلا معنى لأن أكون كالنعام وأدفن رأسى فى التراب حتى لا أراها وكم يكون مفرحا أن أرقص معك فى مكان عام .. ولعل هذا يحدث يوماً ما .. لا فى القاهرة .. ولكن فى باريس .. فى زيورخ . فى نيويورك .. أما هنا ، فيجب أن أتأكد أولًا أن صورتك وصورتى لن تظهرا فى الأسبوع القادم فى مجلات بيروت ، وقد كتبوا عنوانا كبيرا على صفحتين .. عبد الهادى النجار على علاقة بسيدة متزوجة .. هل

يتزوجها . وبالطبع سوف ينشرون لك صورة كبيرة وجميلة بالألوان وسيجعلون منها صورة الغلاف . وتحت اسمك زينب بهنس بالبنط الكبير .

اعترضت باسمة :

ـ اسمى زينب الأيوبى .

صاح :

ـ الأيوبى أفضل من بهنس من ناحية الوقع فى الأذن . طبعاً أنا أعرف اسمك وأعرف عائلتك من نور الدين .. سمعت عنكم من قبل زواجكما .

سألته زينب فجأة :

ـ هل يأتى عم صالح إلى هنا ؟

ردد الاسم فى دهشة ..

ـ عم صالح .. من ؟

قالت زينب :

ـ إنه يعمل معك ..

قال فى دهشة :

معى ..

قالت :

ـ نعم .. لقد كان بواب عمارة خالى فى المبتديان .

وهنا فهم عبد الهادى ما تقوله .. وقال ضاحكاً :

ـ ظننت أنه يعمل فى التحرير .. نعم .. نعم . صالح الأخرس .. إنه ساعى مكتبى .

قالت فى اقتضاب

ـ هل يأتى إلى هنا ؟

قال عبد الهادى :

ـ لا .. إلا إذا استدعيته .. نعم تذكرت .. إن نور الدين هو الذى أوصى بتعيينه . فهمت الآن صلة نور الدين به .. حقا إنها لصدفة غريبة أن أكتشف

هذه الحقيقة الآن فقط .. إن صالح هذا رجل غريب .. إنه تحفة وشخصية لها نفوذها .. إن كل وزراء البلد يعرفونه .. وهو كثير الكلام معهم فى سياسة البلد وأحوالها .. لا يهمه شيء .. هل ترينه حتى الآن .

قالت زينب :

- أحياناً ..

وأفرغت كأسها ، ونهضت لتعد كأساً أخرى ، كانت تشرب بسرعة وكأنها تقوم بعمل عليها أن تؤديه وقال عبد الهادى متهللا وقد اكتشف شيئاً هاما :

- أتعلمين .. أن صالح يتحدث باهتمام كبير عن امرأة كابنته .. أتكونين هى ؟

قالت زينب فى وجوم وكأنها لا ترحب بالحديث :

- لا أعرف .

ثم رفعت صوتها لتغير الحديث وقالت :

- لماذا لا نخرج الآن ؟

سألها فى دهشة :

- إلى أين !

قالت :

- إلى أى مكان . حتى لو ركبنا السيارة .. وطافت بنا الشوارع .

قال مستسلما :

- أمرك ...

ونهض متجها إليها . وقد استبد به الغيظ من أهوائها المفاجئة .. وقرر أن ينفذ خطته فى الحال وليكن ما يكون .. فإما أن تذهب معه إلى الفراش وينتهى كل هذا الموقف المائع بينهما ، وإما أن تخرج وحدها إلى الشوارع لتفكر فيه بطريقة أخرى ، لابد أن يجعلها تفيق من غرورها ومن ثقتها المفرطة بنفسها ، التى تجعلها تتصرف .. كأن الآخرين تابعون لها .. انحنى عليها وقبلها ، فوجدها مستسلمة لقبلاته ، وقد انكمشت كقطة وديعة تحصل على حقها من

التدليل والملاطفة . لا مقاومة ، ولا دهشة ولا أى شىء مما توقعه . وارتفعت حرارة قبلاته ، وجذبها من يدها إلى حجرة النوم ، وعندما امتدت يده تخلع ملابسها ، ساعدته ، وجمعهما الفراش ، وهو مندفع إلى احتوائها بجسده ، وفى نفس الوقت يلح عليه ذلك الخاطر المقلق ، بأن استسلامها بهذه السرعة ، وعلى هذا النحو ليس طبيعيا ، وأنه عاجز تماما عن فهمها وهو لا يستطيع أن يقول إنها تتصرف كبغى محترفة . إنه يعرف المحترفات وكيف يتصرفن ، بل إنه استسلام يتحداه إنه ليس استسلاما على الإطلاق ، كأن ما يفعله لا يعنى شيئا بالنسبة لها ، أو يعنى شيئا آخر يختلف تماما عما فكر فيه أو تعود عليه مع أية امرأة أخرى عرفها فى الفراش . إنه يحس بغربتها وهى عارية بين أحضانه . إنه يحس بموقف غريب يمنعه من التمتع بتلك اللحظات التى أراد أن يتمتع بها . إنه لا يملكها ولا يسيطر عليها ويكاد يشعر أنه لا يخضعها ..

بل هى باستسلامها الغريب تخضعه لها . كانت أنفاسه تلهث وخواطر محمومة تتعجل الفهم فى رأسه فى ذلك الموقف البعيد تماما عن مشاكل الفهم وخواطر الرأس أراد أن يطرد التفكير بالتصرف .. وها هو يقدم على التصرف فينفجر فى رأسه التفكير . وخانته أعصابه فلم يفلح فيما هم به . وشعر بألم حاد فى صدره ، وسقط بجوارها على السرير ، بينما نهضت هى ، وشرعت ترتدى ملابسها .. ثم عادت وجلست بجواره ، ومسحت بيدها على جبينه فى رقة وحنان . وفاجأه مرة أخرى تصرفها غير المتوقع ، وخاف من دموع توشك أن تتسرب من مآقيه .

وهمس :

- سامحينى ..

فهمست :

- على أى شىء .. أنت لطيف جداً .

همس ..

- أضايقتك ..

قالت بصوت بالغ العذوبة :

- أبداً .. كيف تقول هذا ..

كانت كلماتها الرقيقة ، وصوتها الحنون ، أشبه بأظافر وحشية حادة تخدش شغاف قلبه .

همس :

- لماذا ارتديت ملابسك ..

كان خاطر مبهم يدور فى رأسه ، أنه من الممكن أن يعاود ما كان . بصورة مختلفة . وبغير أفكار وهواجس فى رأسه ، ولكن بدموع غزيرة تفيض من عينيه .

همست :

- قم أنت أيضا .

همس :

- لماذ لا نبقى هنا ؟

همست :

- أنا لا أحب العتمة .. هيا نخرج إلى الغرفة الأخرى .

كان ماۏال جالسا على حافة السرير يرتدى سرواله ، عندما انفجر فجأة .

- أية مخلوقة أنت .. ما الذى جاء بك إلىَّ .

قالت فى وداعة :

- جئت لك بنفسى .

قال غير مكترث بوقاحته :

- لماذا .. حقا أريد أن أعرف .. لماذا ؟

قالت ضاحكة :

- سوف تعرف فيما بعد .

قال بقسوة :

- هل تفعلين هذا مع كل الرجال ؟

نظرت إليه فى عتاب رقيق .. وابتسمت ووضعت أصبعها على شفتيه ..
وقالت له كأنه طفل أخطأ :

- عيب .. لا تقل هذا .

قال حانقا من نفسه :

- أنت تحيريننى .

فاقتربت برأسها من رأسه ، وعادت تمسح بيدها على شعره ، وقالت :

- لماذا أنت غاضب منى ؟

قال فى انفعال صادق ..

- لأنك تسيطرين على مشاعرى .

ابتسمت قائلة :

- وهل يغضبك هذا .. كان لابد أن تفرح .. أى إنسان يفرح بذلك بل ويتمناه .. أحيانا أشعر أنى أريد أن أعطى نفسى لمن يستحقها .. وأن أسعده .. وأن أقول له افرح معى .. ودعنا لا نتألم .. ولا نشعر بأى شىء فيه حزن أو كآبة .. لا تنظر إلى هكذا .. كأنى مجنونة .. أنا أقول الحقيقة .

خفق قلبه لكلامها ، وقال وهو يتأملها وكأنه يراها لأول مرة :

- أنت طموحة .. طموحة جداً يازينب .. أنت طموحة أكثر منى ألف مرة .. وأقوى منى ألف مرة .

وقهقه فى عصبية وقال كأنه يخاطب نفسه :

- أردت أن أبيع الماء فى حارة السقايين .

سألته فى دهشة :

- ما هذا الذى تقوله ..

قال :

- لا أستطيع أن أفسر لك ما أشعر به .. ولكن يخيل إلى أنى أفهمك الآن .. أرجو أن أكون محقا .

سألته :

- ما الذى فهمته .

قال وهو يقبل يدها :

- أنت طيبة إلى أقصىٰ حد .. أنت رائعة حنونة .. ليتك تسمحين لى أن أحبك .. فأنا فى حاجة إليك ، كيف أعبر لك عن مشاعرى .

وتوقف فجأة عن الكلام . كان وجه يوسف قد قفز إلى رأسه . ورأى صورته واضحة تماما فى عينيه .

وأكمل قائلا لزينب :

- كأنى أعرفك وأحبك منذ سنوات .

ونهض مفزوعا من ذلك الذى يراه الآن ، فقد كان يرى عم صالح يوم دخل عليه مكتبه أثناء لقائه بيوسف لأول مرة كان المنظر واضحا تماما فى مخيلته بكل تفاصيله .. وكان يسمع صوت عم صالح وهو يقول متفحصا وجه يوسف بارتياح .. هذا الوجه الجميل سوف يجلب السعد علينا إنه يذكرنى بابنة لى .. وقال له عبد الهادى .. أنا لا أعرف أن لك بنات يارجل . وها هو يسمع من جديد صوت عم صالح يردد وهو يخرج من الباب .. إنها ابنتى وأكثرمن ابنتى .

وسمع صوت زينب تسأله فى قلق :

ماذا بك .. هل أنت متعب ؟

قال هامسا :

- لا .. ولكن هذه الانفعالات الشديدة أصابتنى بدوار .

وابتسم قائلا فى حنان :

- ولكنه زال الآن .

وكان يردد لنفسه .. يا إلهى كأنه قد كشف عنى حجاب .. ولكن مصيبتى أنى لا أعرف قراءته .. وهل كنت أتصور أنه من الممكن يوما أن يكشف عنى حجاب .

الاتصال ممنوع

صباح يوم تنفيذ قرار تنظيم الصحافة المصرية ، استيقظ عبد الهادى على رنين ملح صادر من التليفون ، وسمع وهو مازال يفيق من نومه ، صوت رجل فى الرئاسة يدعوه إلى اجتماع عاجل بمصر الجديدة على أن يصل إلى هناك فى أسرع وقت ، وفى كل الأحوال قبل الثامنة والنصف . ولما سأل عبد الهادى عن السبب فى الدعوة إلى هذا الاجتماع ، لم يتلق غير كلمات باردة غامضة انتهت « بلا أحد يعلم » ولكنه لم يقلق ، ولم يخطر بباله أن مخاوفه التى ينتظرها قد بدأت تتحقق ، فدعوته للاجتماع تعنى أنه مطلوب وأنهم يريدون الاجتماع به ، وغلب على ظنه أن حادثا ما قد وقع ، وفكر بسرعة فى طريقة لمعرفة هذا الحادث وجمع أية معلومات عنه قبل وصوله للاجتماع .. حتى يبدو أمامهم كما يريد أن يبدو دائما ، الرجل الذى يعرف أكثر من غيره ولا يخفى عنه شىء . ومد يده إلى التليفون ليطلب الجريدة ويسأل فى القسم الخارجى عن أية أنباء لها أهميتها تكون قد جاءت بها وكالات الأنباء فى الصباح المبكر .

وفوجىء بصوت غريب يرد عليه من الجريدة . واشتدت المفاجأة عندما سمع

الصوت يسأله « من أنت » . فقال له عبد الهادى فى غضب « أنا الذى أريد أن أسألك من أنت » فإذا بالصوت يجيبه فى وقاحة : « لا شأن لك » . وصاح عبد الهادى ثائرا : « أنا عبد الهادى النجار » وإذا بالصوت الغريب يسأله فى وقاحة مذهلة : « وماذا تريد » صاح عبد الهادى « الا تعلم من أنا .. أنا رئيس التحرير » فإذا بالصوت يقول له : « ممنوع الاتصال » وتجمدت يد عبد الهادى على السماعة برهة . ثم أغلقها وقد أدرك كل شىء . وشرع يرتدى ملابسه ، حتى سمع رنين التليفون ، وكان المتحدث حسن زيدان يقول مهتاجا :

ـ ألا تدرى ياأستاذ ماذا حدث ؟!

أجابه عبد الهادى فى هدوء شديد :

ـ نعم أعرف ..

صاح حسن :

ـ الجريدة ..

فقاطعه عبد الهادى الذى كان لا يريد منه أن يتورط فى حديث لابد أن أجهزة كثيرة تسجله :

ـ نعم .. أعرف .. هل ذهبت إلى هناك .

قال حسن :

ـ اتصل بى عزمى .. الذى ذهب ليراجع أخبار الوكالات فوجد الشرطة تحاصر الجريدة وتمنع الدخول . وقالوا له عد بعد الساعة العاشرة .

قال عبد الهادى :

ـ نعم أعرف .. سأشرح لك كل شىء فيما بعد . أنا ذاهب الآن إلى الرئاسة ، وسوف أعود إلى الجريدة فى حوالى ذلك الوقت .

قال حسن قلقا :

ـ لا أدرى ماذا أفعل .. هل انتظر فى البيت .. أم أذهب إلى الجريدة فى العاشرة ..

قال عبد الهادى :

- اذهب بالطبع .

فسأل حسن فى حيرة :

- ولكن ما الذى حدث ؟ ..

أجاب عبد الهادى

- لا تتعجل .. كل شىء كما هو « اطمئن » .

عاد حسن يلح سائلا :

- وماذا تفعل الشرطة فى الجريدة ؟ ..

فرفع عبد الهادى صوته :

- لا تتعجل ياحسن .. أنا لا أحب دردشة التليفونات .. قلت لك اطمئن وهذا يكفى ..

وعاد عبد الهادى يكمل ارتداء ملابسه وهو يشعر ببعض الرضا لأن قدراً من المعلومات قد وصل إليه . لن يلمحوا فى وجهه أثرا للمفاجأة .. وهو مستعد لكل الاحتمالات ، حتى لو كانت احتمالات قاسية ، مثل أن يحددوا إقامته فى البيت ، أو يعزلوه من منصب رئيس التحرير . ومع ذلك فهو يشعر أن دعوته للاجتماع تعنى أنهم لن يتخذوا معه مثل هذا الاجراء العنيف . على أية حال لا داعى لتقليب الاحتمالات والقلق حولها . كلها نصف ساعة ويكون فى مصر الجديدة ، ويعرف كل شىء ودخل عبد الهادى قاعة انتظار ، فوجد صحفيين كبارا ، كلهم أصحاب صحف ورؤساء تحرير ، جالسين فى حلقة . وكأنهم جالسون فى سرادق عزاء . رحبوا به فى لهفة ، وهمس أكثر من صوت « ما الحكاية ياعبد الهادى » .

قال ضاحكا :

- كل ما أعرفه أنهم حاصروا العصر الجديد برجال الشرطة ، وقطعوا عنها أى اتصال تليفونى ، على أن تفتح أبوابها فى الساعة العاشرة بعد اجتماعنا هذا . وطبعا الموضوع معروف ومتوقع . وهو الاستيلاء على الصحف .

وساد وجوم . ولم يجرؤ أحد على التعليق . حتى جاء من يدعوهم إلى قاعة الاجتماع ، وسمعوا من يتلو عليهم قرار تنظيم الصحافة . وعرف عبد الهادى النجار ، أن ما سبق أن تسرب إليه من معلومات أصبح حقيقة واقعة . أصبح أحمد عبد السلام دياب رئيسا لمؤسسة العصر الجديد . وهو الآن هناك فى مبنى الصحيفة يمارس عمله بالفعل ، وعلى الأستاذ عبد الهادى النجار أن يتوجه فورا إليه ، ويتلقى الأوامر الخاصة بالعمل .



الدوافع والنوايا

تعرضت جريدة العصر الجديد منذ قيام الثورة إلى محاولات عديدة لإغلاقها .. أو هكذا كانت تردد الشائعات التى لم تكن عارية تماما من الصحة لأنها كانت فى أغلب الأحيان تعكس رغبات أو أفكار تبادلها رجال لهم أهميتهم وهم يناقشون أمور الصحافة وأحوالها وكانت الدوافع وراء إغلاق العصر الجديد مختلفة .. من بينها القضاء على الفساد الفكرى والثقافى ومن بينها التخلص من وكر الجواسيس عملاء الاستعمار والرجعية .. ومن بينها .. إقامة صحافة اشتراكية نظيفة وملتزمة ، إلى آخر هذه الدعاوى الكبرى الخطيرة التى كانت تتفجر بين وقت وآخر فى صورة تيار جارف من الشائعات يحدث جلبة ولغطا بين الصحفيين حتى يخيل للمحررين فى الجريدة أن نهايتها محققة بين يوم وليلة فتتملكهم مشاعر شتى بين يأس سافر .. أو غضب مبهم .. أو شماتة فى أصحاب الجريدة . وعلى رأسهم أرملة مدكور باشا وعبد الهادى النجار الذى أصبح شريكا مساهما فى رأس المال بما حصل عليه من أسهم مقابل خدماته التى لا تقدر بثمن من أجل حماية الجريدة طوال

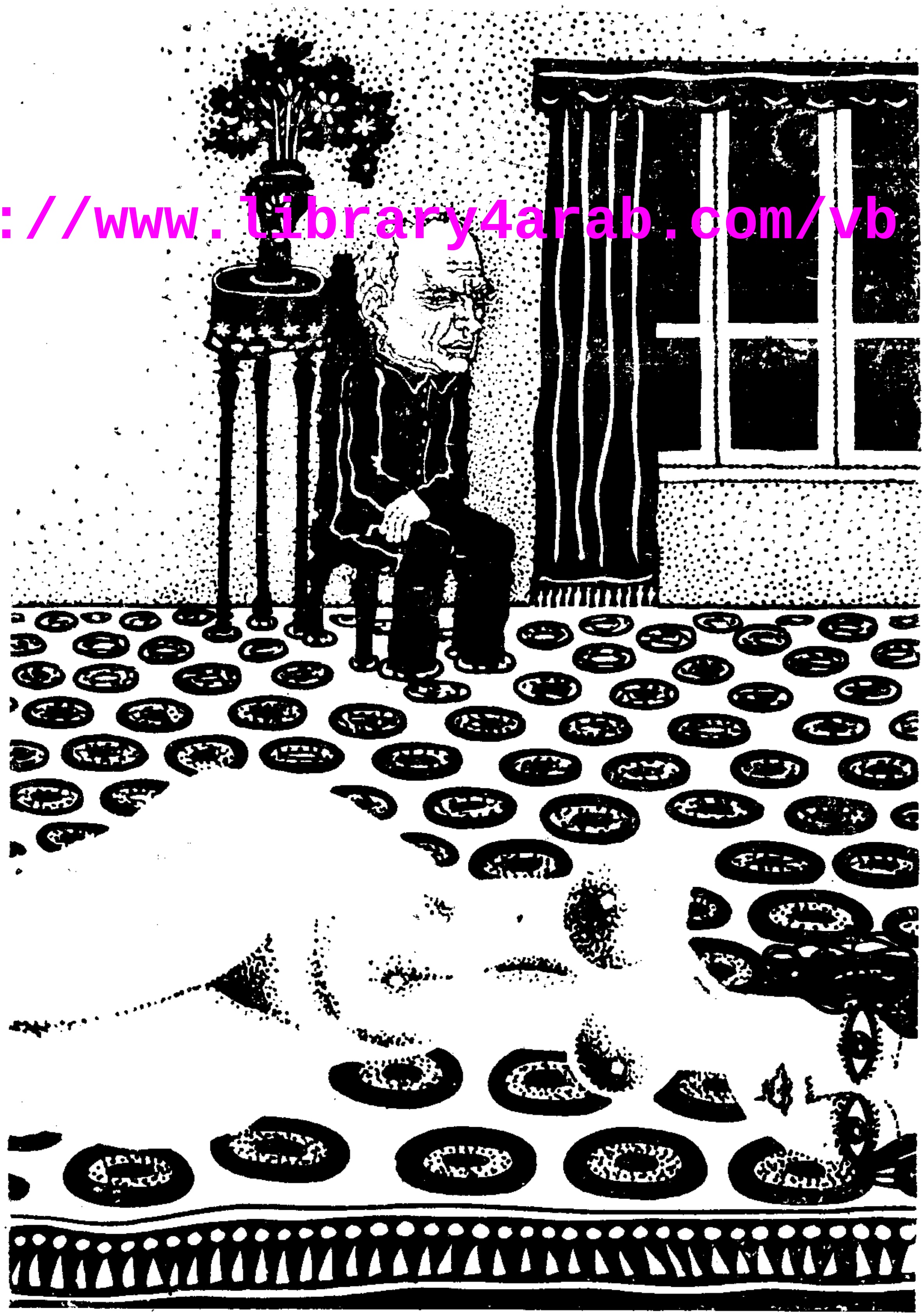
أزمتها الكبرى .. تلك الأزمة المزمنة التى بدأت مع قيام الثورة . ومع ذلك كانت الشائعات تنحسر .. وتتشتت ما تحمله من دعاوى وتخمد الجلبة .. ويتحول اللغط الكبير إلى لا شىء .. وتبقى الأوضاع كما هى . والجريدة كما هى . ويبقى عبد الهادى النجار رئيسا للتحرير كما كان دائما . والكاتب لا يريد أن يتورط فى حكم يفصل به فى صحة الدوافع أو صدق النوايا التى

كانت تدعو إلى إغلاق العصر الجديد لكنها على أية حال ليست بالضرورة دوافع سليمة أو نوايا صادقة .. وحتى لو كانت كذلك . فليس هناك ما يجزم بأن القضاء على جريدة « العصر الجديد » كان سيقضى على ما يسميه البعض بالفساد الفكرى .. أو كان سيؤدى حتما وبصورة آلية إلى إصلاح ثقافى .. أو إقامة منبر للرأى لا يصدر عنه إلا ما هو وطنى وشريف ، أو ما هو اشتراكى ملتزم . لأن كل هذه الكلمات لها أكثر من معنى ومن مدلول . وقد يشترك اثنان فى استخدام الكلمة الواحدة وهما يقصدان معنيين مختلفين بل متعارضين .. أشد الاختلاف والتعارض . والذى كان يعرفه الكاتب عن الصحافة قبل انشغاله بجمع معلومات هذه القصة التى يرويها .. قليل .. بل أقل من القليل وخبرته بالصحف والصحفيين عابرة ولا تعدو قراءة « العصر الجديد » كل صباح دون أن تترك فى نفسه أدنى شعور بأن هناك ما هو شاذ أو غير مألوف أو أن بها ما يدعو إلى الريبة أو الخوف من خطر يدهم الأمة بسبب صدور مثل هذه الجريدة ووصولها إلى القراء كل صباح . إن هذه الصحيفة بالذات لا تترك فى نفس الكاتب شعورا خاصا .. ولا تدفعه إلى اتجاه ما .. بقدر ما تشعره بروتين الحياة .. وأنه مهما تفاقمت الأحداث أو اشتدت الأزمات فى هذا العالم المضطرب .. فلا شىء فى « العصر الجديد » يدعو إلى الانزعاج .. وإنما هى الحياة تمضى بنا يوما بعد يوم .. وعلينا أن نتقبلها كما هى .. ونستقبل غدنا وقد نسينا أمسنا ..

فلكل يوم حياته المختلفة وأخباره المختلفة فى نسخة مختلفة من العصر الجديد . ولقد قرأ الكاتب عن صحف كانت تصدر فى مصر منذ القرن التاسع

عشر .. وكان ما ينشر بها من مقالات يحدث ثوراتٍ واضطرابات وقلاقل وتقلبات سياسية عنيفة . مثل « العروة الوثقى » بما كان ينشره على صفحاتها جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده . أو « التنكيت والتبكيت » التى كان يحررها عبد الله النديم .. أو صحيفة « اللواء » التى حملت رسالة مصطفى كامل .. والقراء يعلمون أن عبد الهادى النجار قد ذكرهم بكل هذه

الصحف الشهيرة فى تاريخ الصحافة المصرية .. وحدثهم عن هذه الأسماء اللامعة فى سلسلة مقالاته الأسبوعية التى نشرها قبل صدور قرار تنظيم الصحافة بشهر واحد . وقد كتبها تحت ضغط الشعور بأنه يجب أن يشارك التيار الذى يندد بالصحف وبصحيفته بالذات . لأنه أدرك أن هذا التيار بما يثيره من شائعات له مصادره فى السلطة .. وأنها توجهه وتشجعه لتمهد عن طريقه المناخ المناسب لإصدار قرارها .. فقرر أن يشارك التيار .. وأن يكون سباقا فى ركوب موجته قبل أن تهجم عليه وتغرقه وحتى يبدو أمام قرائه وكأنه هو الذى ساهم فى صنع قرار تنظيم الصحافة بمقالاته التى نشرها قبل صدور القرار . هذا فضلا عن ذلك الشعور الخاص الذى لا يفصح عنه عبد الهادى النجار .. وإن كان يؤمن به ويعتز به ويجعل منه سره الخاص وكنزه الدفين . وهو أنه لا يقل أهمية فى تاريخ الصحافة المصرية عن جمال الدين الأفغانى أو محمد عبده أو عبد الله النديم أو أمين الرافعى .. وغير هذه الأسماء المعروفة .. وإن اختلف معها فى غاياته ووسائله ، وهو اختلاف طبيعى يبرره العصر الذى يعيش فيه والبشر الذين يكونون مجتمعه القارىء .. فإذا كان جمال الدين الأفغانى قد نادى بالثورة الإسلامية الكبرى ومصطفى كامل قد نادى بمصر للمصريين ، فإن عبد الهادى النجار ينادى بنفس الإيمان والحماس والحرارة .. بمبدأ الحياة من أجل اليوم الذى نعيشه ، وأن لكل يوم حياته وقصته وحكايته المثيرة . ولقد كان هذا الإيمان هو الذى عجل معركته مع أحمد عبد السلام دياب .



أنت لاتثقين بـــى

ولقد شعر عبد الهادى بأنه قادر على البدء فى المعركة فورا .. وهو جالس مع زينب الأيوبى فى شقته عصر ذلك اليوم الذى أعلنوا فيه الاستيلاء على العصر الجديد . كانت علاقته بها قد تعقدت .. فقد حملت منه .. وجاءته ذات يوم وأعلنته النبأ .. قالت فجأة بصوت شارد :

ـ أنا حامل منك ..

ولم تترك له فرصة لأن يقول شيئا .. ومضت تقول بصوتها الشارد . وكأنها تخاطب نفسها :

ـ وفكرت فى أن نتزوج .

قالتها وكأنها واثقة من أنه سيتزوجها لو أرادت .. وخفق قلبه . إذ كان واثقا أنها تعنى ما تقول .. وأنها قادرة على تحقيق ما تقول . كان واثقا من أنها لن تكترث لاضطراب بيديه .. أو ارتباك يظهر عليه ، إنها تعلم أن مثل هذا الارتباك .. ليس أكثر من علامة على خوفه من نفسه .. خوفه من ضعفه أمامها .. إنه أذكى من أن يناورها .. ولعل كل ما يطمع فيه الآن هو أن تعطيه

فرصة ، بعض الوقت ليتدبر نفسه . ليقرر بإرادته تنفيذ ما تريده هى .

قال بسرعة :

- طبعا .. هذا أمر مفروغ منه .. ولكن علينا أن نفكر فى الوقت المناسب .

ونظر إليها .. يرى رد فعل كلماته .. فرآها لا تنظر إليه .. وكأنها غير مهتمة بسماعه .. كانت تحدق فى أظافرها غير مستريحة فيما يبدو للون المانيكير .

واستمر يقول :

- الظروف التى أمر بها الآن فى غاية الصعوبة .. وهناك احتمال مصادرة الجريدة .. أو اعتقالى .

ورفع صوته :

- صدقينى .. أنا أقول الحقيقة ولا أريد أن أورطك فى إثارة فضيحة .. حول طلاقك وزواجنا فى هذه الأيام .

نظرت إليه .. والتقت عيونهما ، كانت عيناها جادتين كما لم يعهدهما من قبل . فيهما ذلك الحزن كأنه الألم . وكانت على شفتيها ابتسامة عذبة مليئة بالحيوية وقالت :

- لقد حددت موعداً مع الطبيب لا يشغلك موضوع الحمل .

صاح وكأنها أهانته .

- كيف ؟

قالت فى حسم أشبه بذلك الذى يصدر عن طفل عنيد :

- طبعا .. لن أتزوجك .. لقد قلت لك هذا .. لأنى فكرت فيه فى وقت ما .. ولكنى واثقة تماما من أن هذا الزواج لن يؤدى إلى شىء ..

قال مدافعا عن نفسه :

- ولكنك واثقة تماما من أنى أحبك ..

قالت باسمة وكأنها تقول نكتة

- طبعا .. وهل تجرؤ على غير ذلك ..

قال :

- وهل هناك غير الزواج بعد هذا الحب .

قالت وهى تعاود فحص ما نيكير أصابعها .

- هناك أن ننتهى من هذه العلاقة .

صاح منفعلا :

- مستحيل ..

صاحت فى غضب :

- لا أحب هذه الكلمة .. أنا لست مقيدة بك ..

صاح :

- أنت غير واثقة بى .

صاحت :

- وماذا يهمنى أن أثق بك أو لا أثق ..

وتشاجرا .. ثم تصالحا وقد تجاهلا هذه المناقشة . أو هو الذى تجاهلها .. متمسكا فيما بينه وبين نفسه .. بأنه لم يصل مع زينب إلى موقف نهائى .. وأن فكرة زواجهما مازالت قائمة ولكنها مؤجلة بسبب ظروفه الخاصة . وعندما تخلصت زينب من حملها ، قالت له وكانت تحدثه فى التليفون :

- كيف خطر لك أن تطلب منى تأجيل الزواج ..

كانت تتحدث بلهجة من يناقش موضوعا نظريا .. فليس فى صوتها أثر لغضب أو انفعال . بل مجرد اعتراض على خطأ وقع فيه تذكرت فجأة أن من واجبها أن تصححه .

قال لها :

- أنت تعلمين ظروفى وقد شرحتها لك .. والمشكلة أنك لا تثقين بى .

صاحت محتجة :

- أنت لا تفهمنى .. أنا أريد أن أقول لك .. إنه لا توجد ظروف مهما كانت تجعلك تقول لى .. نؤجل الزواج .. هل تفهم هذا . أنا لا يهمنى أى شىء ..

وأرفض أن تقول إنك لا تريد توريطى .. وأرفض أن أتصورك تظن أنك تتورط إذا أردت الزواج منى ..

قال معترضا :

- يجب أن تفهمينى ياحبيبتى .

فقاطعته :

- أفهم أى شىء .. أنت الذى يجب أن يفهم .. لست أدرى كيف سكت عليك .. ولم أنبهك إلى خطئك .. ولكنى تذكرت كلماتك فجأة هذا الصباح وأنا أغسل وجهى . ووجدت أنها غريبة ..

قال منفعلا :

- اسمعى .. أنا على استعداد لأن أتزوجك فى الحال ..

قالت غاضبة :

- مازلت لا تفهمنى .. ألم أقل لك لن أتزوجك .

صاح :

- ولكنك غاضبة .

صرخت

- غاضبة من نظرتك لموضوع الزواج .. من كلامك السخيف عن الظروف .. كنت أظن أنك أكثر حرية من ذلك .

ويومها توهم أنها مازالت تفكر فى الزواج به .. وأن ما تعلنه من رفض للزواج .. هو مجرد غضب طفلة تريد أن تحصل على ما تريد فى الحال .. فلما وجدته مترددا بسبب هذه الظروف التى تجعله يؤجل تلبية رغبتها .. رفضت اللعبة فى عناد وغضب . وهكذا وجد الفرصة مواتية ليؤكد لها أنه كان على حق .. وأنه كان صادقا عندما توقع المشاكل .. فى نفس اليوم الذى دخل فيه دياب العصر الجديد .

قال لها :

- هأنت ترين أنى كنت على حق .. اليوم استولوا على كل شىء .. ومن

الصباح الباكر وهم يفتشون ويجردون مكتبى وكل أوراقى .. ولا هم لهم إلا أن يكتشفوا شيئا يدينونى به ..

قالت فى تأثر :

- هل ضايقوك ؟!

قال بصوت حزين :

- لا يهم . فأنا كفيل بمواجهتهم المهم أن تتقى بى .. وأن تعرفى أنى لم أكذب عليك ..

قالت فى براءة :

- ولماذا تكذب ؟

قال مرتبكا :

- خيل إلى أنك لم تصدقى ما قلته عن تأجيل زواجنا ..

قالت فى دهشة :

- ولكنى صدقتك ..

قال :

ولكنك تغيرت منذ ذلك الوقت أصبحت تتعللين بأعذار كثيرة حتى لا نلتقى .. أصبحت مشغولة عنى كأنك تعملين فعلا على إنهاء كل ما بيننا .. إنك لم تأت اليوم إلا لأنى توسلت لك لأراك بعد هذه الكارثة التى وقعت ..

قالت فى برود مفاجىء :

- لم تحدث كارثة .. أنت نفسك قلت هذا ..

قال محتجا :

- ولكنى أخوض معركة مصيرى .

نظرت إليه فى غير فهم .. وبدا عليه الارتباك لأول مرة .. وهمست :

- ألم تقل إنك كفيل بهم ..

قال وقد تحفزت فى نفسه رغبات محمومة للاشتباك فى صراع عاجل :

- ولكن الأمر لن يكون سهلا .

وتمسك قلبه بتلك النظرة الأخيرة المرتبكة على وجهها . أخيرا استطاع أن يثير انشغالها به . وهو الآن يشعر برغبة فى أن يتصرف بجرأة .. وأن ينتصر .. وأن يلقاها بعد انتصاره وهو أكثر ثقة بنفسه وأكثر قدرة على الوصول معها إلى علاقة يكون فيها أكثر وضوحا وفهما لنفسه .



اجتماع هام في العصر الجديد

ولكن عبد الهادى لم يدخل المعركة من أجل زينب .. فغير صحيح أنه يندفع وراء عواطفه .. قبل أن يستعد لكل الاحتمالات .. بل إنه قدر أنه يستطيع أن يخوض معركته بنجاح كلما أسرع بها .. وقبل أن يتمكن دياب من النفاذ والتغلغل بين محررى الجريدة .. وإفسادهم . فهو لا يمثل حتى الآن أكثر من خطر محدود عليه أن يواجهه وأن يحصره .. وأن يضع له الحدود ويكبله بالقيود وإلا استشرى مع الوقت وأفلت الزمام .

وهكذا انتهز عبد الهادى فرصة الاجتماع الذى دعا دياب المحررين إليه .. وتركهم ينصتون فى دهشة لا تخلو من خوف إلى صرخات دياب المدوية .. وهو يظن نفسه يخاطب الجماهير المتحمسة فى ميدان عابدين متحدثاً عن عدم رضائه عن صحافة العصر الجديد .. ورغبته فى النهوض بها وأن الثورة لا يعنيها كدولة أن تحصل على مبنى العصر الجديد . فهى تستطيع أن تبنى المئات مثل هذا المبنى وأكبر منه . وإنها لا تسعى وراء

المطابع أو الأموال لأن قدراتها تستطيع أن توفر لـدور الصحف أحدث المطابع .. وتستطيع أن تمدها بما تشاء من أموالها . هذه ليست المشكلة .. ولكنها مشكلة الرسالة والهدف .. والمسئولية فى مخاطبة الجماهير لصناعة أجيال جديدة من المواطنين الصالحين ..

وما كاد دياب يفرغ من خطبته حتى تكلم عبد الهادى وهو جالس على مقعده . لم يحاول أن يقف ويصرخ فى الميكروفون .. وتحدث كما هو وكأنه فى اجتماع تحرير عادى .. يحضره دياب . وقال :

ـ اسمعوا .. لندخل فى الكلام المفيد .. السيد دياب تحدث إليكم عن الالتزام بالمبادىء وقال لنا أفكاراً محددة .. فكرة صفحة دينية كل يوم مثلاً .. فكرة أن تتحدث الجريدة عن أمجاد الوطن ومعاركه التاريخية .. فكرة أن نهتم بإبراز المثل العليا وأن نقدم المواعظ الحسنة للشباب .. وطبعاً أنا معه وأنتم معه .. كلنا نرحب بهذه الأفكار .. هل يوجد أحد يختلف حولها . لو سألنا عم صالح الذى يقف على باب هذه القاعة .. لقال لنا أنا موافق فى الحقيقة لا أحد يختلف فى هذا .. ولذلك فهذا ليس المهم .. المهم هو كيف يتحقق ؟ وما هو المطلوب الآن ؟.. المطلوب هو أن نعرف الوسائل لتحقيق الأهداف هل تكون الوسيلة بالفلسفة .. بكتابة منشورات ومقالات طويلة على طريقة المشايخ وكتب الشرح على المتون .. هل يتحقق بالكلام المعقد الذى لا يفهمه القارىء وربما لا يفهمه كاتبه .. لو فعلنا هذا لحكمنا على أنفسنا بالإعدام .. وبصراحة .. أهون علينا أن نشعل فى هذا المبنى عود ثقاب ونترك النيران تلتهمه .. من أن نرتكب مثل هذا الخطأ الذى يجعل نهايتنا أسوأ من نهاية الحريق .. نحن لسنا فلاسفة .. ولا فقهاء دين ولا مؤرخين عظاما .. نحن صحفيون . زميلكم حسن زيدان كان أول دفعته فى كلية الآداب .. وكان من الممكن أن يكون الآن أستاذاً عالماً فى التاريخ بكلية الآداب .. ولكنه لا يكتب مقالات عن حتشبسوت .. إنه يعرف معنى الصحافة .. ويعرف أننا قبل أى شىء صحفيون .. ما معنى صحفيين . معناه أننا بشر عاديون .. مهمتهم العمل

على الوصول بأخبار الحكام وأخبار البشر غير العاديين إلى الناس العاديين .. ومعناه العمل على أن ننقل رغبات ومطالب وشكاوى وأفكار أمثالنا من البشر العاديين إلى الحكام والبشر غير العاديين .. إننا نعيش بنبض الحياة اليومية .. كل يوم مواليد جدد وموتى جدد .. وحوادث جديدة واختراعات جديدة وأمراض جديدة ونحن مع الجديد .. مع الخبر الجديد مع الفكرة الجديدة . وهذا لا يعنى أننا لا نهتم بالدين أو الفلسفة أو العلوم أو حتى الفلك وعلوم الفضاء .. بالعكس إننا نهتم بأخبار الدين .. ماذا فعل شيخ الأزهر .. هل قال محاضرة .. لا بأس من ملخص لها فى الصفحة الثامنة على عامود .. هل قابل وفداً من أندونيسيا .. إذن ننشر صورة المقابلة على عامودين وتحتها ملخص لما دار فى اللقاء .. وماذا شربوا . هل قدم لهم شيخ الأزهر القهوة أم القرفة أم الينسون .. أنا شخصياً أعرف أنه يقدم لضيوفه الينسون . ولكن من يدرى ربما غير رأيه وفضل عليه الشاى أو الجنزبيل .. وهذا خبر مهم .. لأنه يحول العلاقات الدينية إلى حياة .. مجلس محلى قرر بناء

مسجد فى قرية كذا ننشر الخبر .. بناء كنيسة فى قرية كذا .. ننشر الخبر .. هذا هو الاهتمام الحقيقى بالدين . كما أفهمه . وكما يجب أن يكون فى الصحافة . ولكنى لم أسمع عن صحيفة يومية فى العالم توهمت أن من مهامها إقناع قارىء ملحد بأن يؤمن . هذا موضوع له رسل وأنبياء وكتب سماوية وأولياء صالحون ورجال دين ووعاظ فى مساجد وكنائس ومدارس عالم آخر لا نستطيع أن ندعى أنه عالمنا نحن .. وإلا اختلطت الأمور .

والتفت عبد الهادى فجأة وقال موجهاً الكلام لدياب . الذى التفت بحدة نحو عبد الهادى وقد بدا عليه اهتمام غير عادى :

ـ لا مؤاخذة .. أنا لا أريد أن تتصور أنى أنحرف بكلامك .. بالعكس .. أنا أحاول أن أحققه بطريقة عملية ناجحة ومضمونة .. فلاشك أن الاهتمام بالأخبار الدينية له أثره فى تأكيد المناخ الدينى المطلوب لتربية الشباب .. ولكن

دون أن تنسى أن المواطن يحصل على عقيدته من بيته وأسرته لا من سطور يقرؤها فى صحيفة يومية .. أليس كذلك ..

اعتبر دياب أن سؤاله نوع من التحدى الصارخ له .. إن هذه المحاضرة الطويلة التى ألقاها عبد الهادى ليست موجهة إلى المحررين .. إنها موجهة إليه .. وكأنه اختار أن يلقنه درساً علنياً فى الصحافة أمام هذا الجمع من الصحفيين . وهذا أمر غير مقبول .. لأنه يمس سلطته التى لابد أن يؤكدها . إن ما فعله عبد الهادى هو استفزاز صارخ لهذه السلطة . ولكنه لن يقع فى الفخ .. سيبدو متواضعاً إلى أقصى حد .. وابتسم دياب . وبدأ يتكلم .. ولكنه انفعل .. وصرخ مواجهاً مئات العيون التى ترقبه .

- فى الحقيقة ياأخوانى .. أنا لا أستطيع مناقشة الأخ عبد الهادى فى مهنته .. فهو بالطبع أدرى منى . وخبرته لاشك فيها .

وفجأة انفجر دياب قائلاً :

- خاصة وقد لاحظتم أنه هددنا بحرق مبنى الجريدة .. وحدد الوسيلة . وهى عود ثقاب . وأريد أن أطمئن الأخ عبد الهادى إلى أننا قد اتخذنا كل التدابير اللازمة للمحافظة على هذا المبنى الذى هو ملك للشعب . وهو ملك للصحفيين وللعمال .. الذين لن يسمحوا أبدا لأية يد تعبث بممتلكاتهم . لأنهم عيون الثورة الساهرة .

أحدثت كلمات دياب همهمة بين المحررين .. أعقبها وجوم . بينما ارتفع صوت عبد الهادى مقهقهاً :

- أنا لا أهدد .. أرجوك .. فلا أريد أن ينتهى اجتماعنا .. باعتقالى .

وتعالت صيحات . واشرأبت أعناق .. واتسعت حدقات العيون .. بينما يصرخ دياب وقد نفرت عروقه مخاطباً جماهير المحررين :

- لا . أنت لم تهدد ياأستاذ . وإن كنت أشتم من ذكرك لكلمة اعتقال تهديداً من نوع آخر .. على أية حال الأمر متروك لكم .. وكما قلت فى أول كلامى معكم . إن كل شىء باق على ما هو عليه .. وأننا سنضع أيدينا فى قبضة

واحدة . ونمضى معا لتحقيق أهدافنا فى الصحافة الوطنية الشريفة .. بغير تهديد .. وبغير حريق أو اعتقال .. السلام عليكم .

واندفع دياب فجأة مغادراً قاعة الاجتماع .. وقبل أن يعبر الباب توقف والتفت وراءه باحثاً بعينيه حتى وقع بصره على يوسف منصور .. فأشار إليه .. وانتظر حتى لحق به .. وأمسك دياب بذراع يوسف وخرجا بينما أسرع عبد الهادى إلى مكتبه من باب آخر فى القاعة .. مخلفاً وراءه ضجيجاً عالياً . وقد التف المحررون حول حسن زيدان الذى كان محتقن الوجه . تلمع عيناه بحيوية . وعلى شفتيه ابتسامة عريضة . وكان حسن يقول لأحد المحررين :

- أنتم تريدون تحويل الصحف إلى نشرات لا يقرؤها غير كوادر الحزب . ولكنك نسيت أن ثمانين فى المائة من الفلاحين والعمال أميون لا يقرأون ولا يكتبون .. ولا صلة لهم بالصحف ولا يحزنون .

وصاح محرر :

- ولكن موضوع الدين ..

فقاطعه حسن :

- لا داعى للمناقشات الآن .. هيا للعمل .

صاح أكثر من صوت ..

- أى عمل .. ما الذى نفعله ..

قال حسن :

- ما كنتم تفعلونه من قبل .

فاعترض أحدهم :

- ولكن رئيس مجلس الإدارة طالب بتغيير كل شىء .

قال حسن فى ثقة :

- وأنا أقول لك .. هذا الكلام ليس معناه انقلاب فى الصحيفة .. اذهب وقم

بنفس ما كنت تقوم به .. إن أخبار الأهلى والزمالك .. لا صلة لها بموضوع الدين ..

فانطلق صوت آخر :

ـ ولو فعلنا ما كنا نفعله .. فلماذا كان هذا الاجتماع .

قال حسن متظاهراً بالبراءة :

ـ لنلتقى برئيس مجلس الإدارة ونستمع إلى توجيهاته .

قال صاحب السؤال :

ـ وما هذه التوجيهات ؟

قال حسن :

ـ لقد حددها لكم الأستاذ عبد الهادى .. المطلوب منكم أخباراً أكثر وصوراً أكثر .. ومجهوداً أكبر .

انطلق أكثر من صوت يحتج .

ـ ولكننا نسمع هذا الكلام كل يوم .

قال حسن :

ـ واليوم سمعتموه من رئيس مجلس الإدارة .

تصايحوا ..

ـ لا .. ليس هذا كل شيء ..

أجاب حسن مؤكداً :

ـ نعم .. هذا هو كل شيء .

فارتفع صوت أحد المحررين فى هياج عصبى :

ـ إن هناك شيئاً يحدث نريد أن نفهمه .

قال حسن باسماً :

ـ أنت صحفى .. وتستطيع أن تعرف الخبر .. وتفهمه .

قال المحرر الذى غلبه الانفعال :

ـ كلنا نعرف .. وأنت أولنا يا أستاذ حسن .. والكلام الذى قاله رئيس مجلس

الإدارة كان موجهاً للأستاذ عبد الهادى .. والكلام الذى قاله الأستاذ كان موجهاً لرئيس مجلس الإدارة .. ومن حقنا أن نعرف ماذا يراد بنا على وجه التحديد . حتى لا نضيع بينهما .. هذه مسألة خطيرة وتمسنا جميعاً .

قال حسن فى هدوء :

- هل طلب منك الأستاذ عبد الهادى أن تتدخل .. هل قال لك إنه اعتبر ما قيل موجهاً ضده .. ألم تسمع السيد رئيس مجلس الإدارة يقول إن رئيس التحرير يعرف مهنته .

ارتبك المحرر .. ولعله صدم بهذا الأسلوب الذى يتبعه حسن زيدان فى الالتفاف حول الصراع الذى نشب .

وسألهم حسن فجأة :

- ألا تثقون فى الأستاذ عبد الهادى ؟

صاحوا :

- نعم نثق فيه .

قال حسن :

- إذن انصرفوا إلى عملكم واطمئنوا .

ثم ابتسم ابتسامة أراد أن يكون لها مغزى وقال :

- أؤكد لكم .. أن كل شىء باق على ما هو عليه .



يوسف يتفق
على كتمان السر

عندما نادى دياب على يوسف وخرج معه متأبطا ذراعه من قاعة الاجتماع كان يشعر بالاختناق .. ويكاد لو ترك نفسه على سجيتها أن يهجم على عبد الهادى يضربه بقسوة حتى يسيل دمه . فلاشىء يشفى غليله مثل هذا التصرف الرجولى أمام هذا الالتواء والخبث فى تصرفات عبد الهادى .. ولكنه للأسف لا يستطيع أن يحقق ما فى نفسه .. فليس هكذا تدار المؤسسات .. هكذا يقولون .. وهكذا يجب أن يقنع نفسه رغم أنه غيرواثق تماماً مما يقال .. فأحياناً يصبح من الضرورى أن يخلع المرء حذاءه وينهال به على حشرة مثل هذا الحقير عبد الهادى . على أية حال .. لقد كبح جماح عواطفه .. وهاهو يتأبط ذراع يوسف أمام الجميع ، معلناً لهم أنه رجل متواضع .. وأنه بعيد عن التمسك بمظاهر الرئاسة .. وأنه يتعامل معهم كواحد منهم .. وهوصادق فى شعوره .. وصادق فى كل كلمة قالها لهم .. فلو التفوا من حوله ووضعوا أيديهم فى يده .. وجعلوا منها قبضة واحدة قوية .. فلابد أن ينصلح الحال .. ولن تقف آمالهم أمام أية عقبة وسينهار عبد الهادى فى الحال .. وستتحول

جريدة العصر الجديد إلى منبر ثورى حقيقى يخدم جماهير الثورة ويعبر عنها ، وإذا كان عبد الهادى النجار قد تحداه .. فعليه أن يعمل بسرعة . وأن يثبت للجميع وفى الحال أن السلطة فى يده .. وليست فى يد عبد الهادى . وأن هذه السلطة هى سلطتهم أيضاً .. إنها سلطة جميع المحررين والعمال فى المؤسسة . ولسوف يبدأ بيوسف .. لأنه يعلم أنه صديق عبد الهادى الذى يلازمه كظله فى سهراته .. وإذا انحاز يوسف إليه .. فسيكون هذا إيذانا بانحياز الآخرين إلى جانبه .. انحيازهم إلى المبادىء والحق .. ضد الانتهازية والفجور والدعارة التى يمثلها عبد الهادى النجار .. كان دياب يسرع فى خطاه عبر ممرات مبنى الجريدة .. ويوسف يلاحقه .. وكان دياب يجذبه . وكان السعاة ينفضون واقفين متسمرين وقد رفعوا أيديهم بالتحية . وفى نظراتهم فضول ورهبة . وقد أحسوا بأن اندفاع دياب فى حركته يعنى بأن شيئاً ما له خطورته يحدث بين جدران الجريدة .. ووصلا إلى مكتب دياب .. الذى أمر موظفاً جديداً لم يره يوسف من قبل أن يغلق الباب عليهما ولا يسمح لأحد بالدخول .

واستقر دياب على مقعده .. وجلس يوسف قبالته .. يرقب دياب وهو يتمتم بصوت خافت بما يشبه الدعاء أو الصلوات .. ثم مسح بيده على وجهه .

وفتح عينيه كأنه يفيق من كابوس . ودق بقبضة يده على المكتب وقال منفجراً :

ـ الأمر أصبح الآن واضحاً تماماً .. هذا الحقير عبد الهادى النجار يجب أن يذهب وإلا أفلت الزمام . هل شهدت ما فعله فى الاجتماع .

قال يوسف فى هدوء غريب :

ـ يذهب إلى اين ؟

قال دياب بصوت جهير وهو يزفر هواء عاصفا من صدره .

ـ يذهب إلى بيته .. إن هذا الـ .. لا مكان له بين الرجال .

كان دياب قد نطق بكلمة نابية ملصقا تهمة الشذوذ الجنسى بعد الهادى النجار .

وهمس يوسف فى ارتباك :

ـ وهل هذا صحيح .

صاح دياب :

ـ نعم صحيح .. إنه « .. » وله حادثة مشهورة أيام كان تلميذا فى مدرسة طنطا الثانوية .. إنه ذليل مكسور العين أمام كل أولاد الأعيان .. الذين عرفوه على حقيقته .. لا كما يريد أن يبدو هو .. إنى أعرف كل شىء عنه .. أعرف تفاصيل سهراته فى بيت نور الدين بهنس .. بل أعرف كم يخسر أو يكسب فى القمار كل ليلة ..

ونظر دياب محدقا فى وجه يوسف وقال :

ـ حيث تذهب معه .. أنا أعرف كل التفاصيل .. وأنا أتحدث الآن معك لأنى أعرفك منذ زمن بعيد .. وأعرف أنك إنسان طيب القلب .. وأنك الآن منذ صدور قرار تنظيم الصحافة ، وأنت تعمل وتبذل جهداً مضاعفاً لإصدار الجريدة فى موعدها .. ولكنك كنت مخدوعا دائما فى هذا الـ .. إنى مازلت أذكر مناقشاتنا القديمة أيام كنت أعمل رقيباً وكيف كنت تدافع عنه .. ولم أجد تفسيراً لهذا الدفاع سوى طيبة قلبك .. ولكنك تعلم الآن إنه رجل شرير بلا أخلاق .. أنت تعلم بعلاقته المشينة بزوجة نور الدين بهنس .. هل ترضى لنفسك هذا الموقف المشين .. هل من الخلق الطيب ، أن تدخل بيتاً مع من يخون صاحب البيت فى زوجته .

قال يوسف وقد زاد ارتباكه :

ـ كل ما حدث بينهما كان أمراً تافهاً .. هكذا أكد لى بنفسه .. وكان خائفاً من زيارتها .. قال لى هذا .. وقاله لحسن زيدان .. وكان يظن إنها تريد أن تحدثه فى مشكلة .. ولما قابلته وجدها حزينة .. وكل ما قالته له إنها تريد أن تتعرف عليه ثم تركته فجأة .. لقد صارحنى بكل هذا .. وسألنى رأيى .. ولست أدرى

لماذا تأثرت لكلماته عنها .. شعرت أنها تحاول أن تجد مخرجاً لها من مشاكلها .. ولجأت إليه لأنه صحفى معروف .. وهذا طبيعى . أن تلجأ امرأة إلى رجل معروف تحاول استشارته فى حل مشاكلها .. وقد أعجبنى إنها قالت له إنها تريد أن تعرفه .. شعرت أنها تبحث جادة عن الصدق وأنها تبحث بجرأة وكأنها تقوم بمحاولة يائسة .. ووجدتنى أقول إنها سيدة عظيمة ..

فقاطعه دياب ساخراً :

- هل أصدقك .. هل من الممكن أن تكون ساذجاً إلى هذا الحد .. أن تتصور إنها امرأة صادقة يائسة تريد أن تبحث عن حل لمشاكلها فى شجاعة وجرأة .. من أين أتيت بهذه التصورات هه .. وتقول إنها عظيمة .. ما هذه الكلمة الضخمة التى لا يستطيع أن يهضمها أحد .. أنت لست مخدوعاً فقط .. أنت تخدع نفسك ، بعد أن خدعك صديقك السافل .

صاح يوسف منفعلاً :

- أنا لا أخدع نفسى ..

فقاطعه دياب :

- انتظر حتى تسمع ما أقوله .. لأنك يجب أن تجيبنى عن هذا السؤال هل تعلم أن هناك علاقة بين عبد الهادى وهذه المرأة .. هل تعلم إنها حملت منه .. وإنها أجهضت نفسها بعد أن رفض الزواج منها .. هل تعلم هذا أم لا تعلمه ؟؟

شحب وجه يوسف ، ونظر إلى دياب فزعاً .. بينما مضى دياب يتحدث بلهجة المنتصر :

- لقد تورطت يايوسف أكثر من اللازم مع هذا الرجل الشرير .. نعم تورطت .. ومن حسن حظك إنى جئت إلى هنا فى الوقت المناسب لأخلصك من هذه الورطة ..

قال يوسف بصوت جريح :

- هل فعل هذا ..

صاح دياب :

ـ تسألني هل فعل .. نعم .. وقد استغلك بسفالة منقطعة النظير .. هل كنت تظن أنك تستطيع أن تخالط مثل هذا الشر .. ثم تخرج منه كما تخرج الشعرة من العجين ..

قال يوسف فجأة بصوت غاضب :

ـ سأذهب إليه وأسأله ..

فصاح دياب محتجاً :

ـ لا .. إن ما بيننا سر ..

قال يوسف فى عناد وقد اشتد به الألم ..

ـ لا أستطيع .. لابد أن أسأله ..

قال دياب ..

ـ إذا أردت .. اذهب واسأله .. ولكن بشرط واحد .. لا تقل له إنى الذى أخبرك بهذه المعلومات .. واجهه إذا أردت .. قل له .. أليس صحيحاً أنك تأخذنى إلى ذلك البيت لأتستر على علاقتك بزوجة صاحب البيت .. اسأله .. أليس صحيحاً إنها حملت منك وأجهضها الدكتور سامى عباس .. وبعد أن تسأله أضف سؤالاً آخر لابد منه .. وهو كيف تكون مسئولاً ياأستاذ عن صحيفة كبرى تخاطب الجماهير الصالحة المؤمنة وتؤثر بقلمك فى المجتمع وتقوده فكرياً وإعلامياً بينما أنت على هذا الخلق الفاسد .. ولا تتركه يتلاعب بك .. كما حاول الآن أن يتلاعب بعقول المحررين فى الاجتماع .. لا تجعله يلعب لعبته .. هل رأيت كيف حول الاهتمام بالدين إلى اهتمام بالقرفة أو الينسون الذى يقدمه شيخ الأزهر لضيوفه .. إن هذا الـ .. لاهم له إلا تحطيم القيم والمقدسات ، لأنه منحل ، مخوخ ، لا تعرف أبداً ما فى جوفه القذر .

قال يوسف فجأة فى عناد أقوى منه :

ـ ولكنه إنسان ..

قال دياب ..

ـ اسمع .. أنا لى تجاربى فى الحياة .. ولقد كنت يوماً ما .. مثلك .. أنا أفهمك تماماً .. كنت أتصور إنى أستطيع إنقاذ البشر من الشر الذى يعيشون فيه .. ولكن الدنيا علمتنى .. الشر شر .. والخير خير .. والشيطان موجود أبداً بيننا . لا نستطيع أن ننكره أو نتخلص منه .. وهو يحاربنا ونحن نحاربه ، وسنظل هكذا إلى يوم القيامة .. ولكن لن ننتصر عليه فى هذه الدنيا .. لو فعلنا وتخلصنا منه ، فمعنى هذا أننا سنحول هذه الدنيا إلى جنة .. وهذا مستحيل ..

إن كل ما نستطيع أن نفعله هو أن ننحاز إلى الخير وندافع عنه ، وأن نجعله مسيطراً على الشر .. أن تكون للخير اليد الأقوى والأعلى .. وهأنذا أدعوك إلى أن تضع يدك فى يدى ضد الشر .. وطبعاً لا أقول لك اتفق معى على سفك دم عبد الهادى .. وإن كنت شخصياً أرى أن أقل ما يجب أن نفعله هو إعدامه أمام مبنى هذا الدار .. كل ما أريده هو أن نتعاون معا على محاصرة شروره .. أن نتركه يمارس هذه الشرور وحده فى بيته .. لا أن ندعه يبث سمومه ويؤثر على الآخرين .. أو نتركه يورط الطيبين أمثالك فى جرائمه الخلقية وفضائحه ..

ثم ابتسم دياب وقال :

ـ ربما رويت لك يوماً ما .. بعض تجاربى التى تعلمت منها .. أيام شبابى كانت لى تجارب مذهلة .. ستعجب لها .. خاصة عندما كنت ضابطاً فى السويس ..

قال يوسف :

ـ أنت تتركنى لحيرة شديدة :

قال دياب :

ـ ومن قال إنى سوف أتركك لهذه الحيرة .. لقد فاتحتك فى هذا الموضوع لنتخلص منه ، ونصفيه تماماً بيننا .. قبل أن ندخل فى الموضوع المهم ..

ودق دياب على المكتب وقال فى ثقة :

ـ نحن مستعدون لكل شىء .. وما زال أمامنا حديث طويل أهم بكثير من عبد الهادى النجار .. إنه مجرد عقبة تافهة .. ذبابة سوف نهشها .. حتى

لاتضايقنا .. ولكن بعد ذلك .. لن أتركك فى فراغ .. ولسوف تخرج بعد حديثنا من هذا المكتب ، وأنت إنسان آخر كأنما ولدت من جديد .. وستشعر أنك تنتمى إلى عائلة كبيرة .. ستكون واحداً منها ..

نظر إليه يوسف فى دهشة .. بينما امتدت يد دياب إلى مصحف كبير يضعه على مكتبه وقدم المصحف إلى يوسف وهو يسأله :

ـ هل أنت طاهر

قال يوسف مرتبكاً :

ـ لقد استحممت هذا الصباح .

فابتسم دياب قائلاً فى انفعال :

ـ ضع يدك على المصحف .. سيكون سراً لاتبوح به لأحد حتى تموت ..

احمر وجه يوسف ، وتردد برهة ، ثم مد يده ووضع كفه على المصحف ، وردد وراء دياب القسم بأن يحفظ السر .

وتنهد دياب فى ارتياح وقال :

ـ هذا سر تسمعه ثم كأنك لم تسمعه أبداً .. ولقد أقسمت على ذلك .. لو سألك أى إنسان مهما كان اسمه .. ومهما كان منصبه فى الدولة .. ومهما كانت سلطته فلا تبوح له بالسر .. لأنه ليس بالضرورة أن يكون على علم به .

كان يوسف ينصت فى ذهول ، وكأنه يسمع إلى صوت قادم من بعيد ، من مكان مجهول ، وكاد يصيح فيه ، لا تقل لى شيئاً على هذا النحو الذى يقيدنى .. ولكنه ظل عاجزاً عن الكلام .. بينما مضى دياب يقول :

ـ الآن أستطيع أن أتحدث معك حديثاً جاداً ـ لن تحتار معه أبداً .. وكما قلت لك .. بعد أن تعرف ما سأقوله لك ستشعر وكأنك ولدت من جديد .. هكذا كان شعورى يوم انضممت إلى الضباط الأحرار .. لقد تخلصت من الحيرة .. ومن مشاكل نفسية كثيرة .. وأنت لا تعلم عن الثورة شيئاً .. ولكن يجب أن تعلم الآن أنها لم تبق ولم تستقر ولم تحقق انتصاراتها بالصدفة .. كان وراء كل هذا بناء وتخطيط مدروس .. كان هناك بناء قوى وهو تنظيم الضباط

الأحرار .. تنظيم استطاع أن يحتفظ بسريته .. وأن يوجه ضربته إلى الملك وإلى قيادات الجيش التى تأمر بأمره .. واستطاع أن يفاجىء الإنجليز وهم يحتلون مصر .. بسبب احتفاظه بالسرية الكاملة .. ولقد بدأت الثورة الآن مرحلة جديدة .. تبدأ أول مقدماتها بتنظيم الصحافة .. ونحن الآن فى مايو ٦٠ ولكن خلال عام .. سوف تقدم الثورة على خطوات هائلة وحاسمة لضرب الفساد والقضاء على مراكز الظلم والاستغلال والرجعية فى البلاد .. وهذا يحتاج إلى توسيع دائرة تنظيم الضباط الأحرار .. فالأمر لم يعد مهمة الجيش وحده ، أصبح علينا الآن أن يكون لنا تنظيم سياسى يضم المدنيين .. ويمتد جغرافيا فى كل المحافظات .. فى القرى وفى المصانع .. وأن يمتد نوعياً فى كل المواقع الاستراتيجية الهامة فى المؤسسات الكبرى .. فى مواقع العمل الهامة .. ومن أهمها المؤسسات الإعلامية .. لأنها فى أهميتها الاستراتيجية من ناحية الأمن القومى تأتى بعد القوات المسلحة مباشرة .. ولذلك فقد تقرر أن يبدأ تنظيم سياسى سرى داخل هذه المؤسسات ..

ورفع دياب صوته ملوحاً بيده ناحية يوسف ..

- وأنت مرشح للانضمام إلى هذا التنظيم .. لتشارك معنا فى صنع الثورة إن ماضيك فى التعاون معى يرشحك .. ومركزك داخل الجريدة يرشحك وليس هناك عيب فيك سوى صداقتك بعبد الهادى .. وهو عدونا .. وأعترف لك بأن هذه الصداقة جعلتنى أتردد طويلاً أمام اسمك .. ولكنى صدقت شعورى .. وصدقت ما أراه فى تصرفاتك فى العمل .. ولذلك تحملت مسئولية ترشيحك .. لأنى واثق من وطنيتك وواثق من أخلاقك .. وعليك أن تعتبر نفسك منذ هذه اللحظة جندياً مسئولاً فى تنظيم الثورة .. وعليك واجبات ومسئوليات .. ولا أقول إنه سيكون لك حقوق .. لأن جنود الثورة لا يبحثون عن مزايا أو حقوق لأنفسهم .. وأحد أسباب السرية ، هو ألا يتحول أعضاء التنظيم إلى أشخاص مميزين .. يمارسون النفوذ على الآخرين .. عليك أن تكون قدوة للآخرين فى العمل والتضحية .. وفى المستقبل سوف تحضر اجتماعات مع

حلقة التنظيم التى ستتبعها ، وستتعرف على زملائك فى هذه الحلقة وستتعرف على مسئول الاتصال بها ، وهو الذى سوف يربطكم بالحلقات الرئاسية الأعلى .. ولكنك لن تعلم أى شىء عن أى فرد من التنظيم خارج حلقتك .. إنه قد يكون أى إنسان .. ولكنه سيظل مجهولاً تماماً عنك .. ولو عرف أحد أنك فى التنظيم فسيجرى تحقيق صارم وحاسم معك .. ولو ثبت أنك أدليت بمعلومات عن التنظيم وأفراده ، أو تسريب سر معلومات بقصد أو بغير قصد نتيجة إهمال فستعاقب عقاباً شديداً .. ستعامل كخائن للثورة والوطن .. وهذا لا سمح الله احتمال بعيد .. بل إنى أنفيه من خاطرى تماماً .. إن صلتك بالتنظيم ستعتمد على ثلاثة أشياء ، أولاً الاجتماعات الدورية التى تتم سراً وتكتب لها محاضر ترفع لرئاسة التنظيم .. وثانياً نشرات سرية سوف توزع عليكم ، وهى مسجلة ولها أرقام مثقوبة حتى نضمن ألا تتسرب أية نشرة ، وإذا تسربت فسنعرف صاحبها فى الحال ، وفى هذه النشرات ستحصل على معلومات وتوجيهات سياسية ، عليك أن تقف إلى جانبها وتؤيدها وتدافع عنها فى كل مكان .. أما الصلة الثالثة بالتنظيم فهى نشرات ثقافية للدراسة والتعرف على المشاكل الخاصة بالعمل والمؤسسة والعاملين فيها وترشيح من تثبت صلاحيتهم للانضمام إلى التنظيم .

ونهض دياب فجأة ومد يده إلى يوسف الذى وقف ذاهلاً ، وتصافحا ودياب يهتف فى حماس بصوته القوى :

ـ مبروك ..

قال يوسف فجأة :

ـ هناك شىء يجب أن أقوله لك .. لأنى فى حيرة حقيقية بالنسبة له ..

قال دياب مرحباً ، وقد توقع أن يدلى له يوسف الآن بمعلومات جديدة عن صلته بعبد الهادى النجار ..

ـ ماذا .. تكلم بصراحة .. نحن الآن أعضاء تنظيم واحد ..

قال يوسف متردداً :

ـ هذا القسم الذى أقسمته ..

وسكت يوسف كأنه عاجز عن التعبير ، حتى سأله دياب فى دهشة ..

ـ ماذا ..

قال يوسف بصعوبة :

ـ أريد أن أكون صادقاً .. لأنى لا أعرف الكذب .. ولا أحتمل الموقف الذى وجدت نفسى فيه .. ولست أدرى كيف ستتقبل ما أقول .. ولعلك تغضب منى .. ولكن أرجو أن تفهمنى ..

كان دياب ينصت إليه وكأنه يستمع إلى ألغاز .. وهو ما أشعره بالضيق فقال فى عصبية :

ـ ما الذى تريد أن تقوله ..

قال يوسف وهو يواجهه بنظراته الصافية ، وقد استجمع إرادته أخيراً :

ـ لقد تحدثت معى فى أمر خطير .. وكان أهم ما يشغلك هو أن أكتم السر ..

صاح دياب مقاطعاً :

ـ طبعاً .. هذه مسألة حياة أو موت ..

قال يوسف بلا توقف :

ـ لكنك تعتمد على أنى أقسمت أمامك على المصحف الشريف .. وطبعاً هذا كتاب مقدس .. هكذا علمنى أبى .. وهكذا تربيت على احترامه .. ولكن هذا شىء .. وما فى قرارة نفسى شىء آخر .. فى الحقيقة .. لقد قرأت منذ زمن بعيد كلاماً للشيخ محمد عبده أثر فى نفسى تأثيراً شديداً لم أتخلص منه حتى الآن ..

قاطعه دياب وقد بدت عليه أخيراً علامات ارتياح .. إن يوسف يريد أن يفتح مناقشة دينية .. وهو يرحب بهذه المناقشات .. ولكن هل هذا الوقت بالذات هو أوانها .. كاد يقول ليوسف ، فلنؤجل هذه المناقشات الدينية لجلسة أخرى لأنى مشغول الآن بمعركتى مع عبد الهادى النجار .. ولكن يوسف كان قد قال :

- إن الأمر يتعلق بإيمانى بوجود الله ..

وهنا صاح دياب فى فزع حقيقى ..

- هل أنت ملحد .

قال يوسف فى وجوم :

- لا ..

صاح دياب فى ارتياب :

- إذن ما المشكلة ..

قال يوسف بصوت جاد :

- ولست مؤمناً .. كما يجب أن يكون الإيمان .. فى الحقيقة .. إن الشكوك فى وجود الله تساورنى .. وأضيق بها .. ولكنى لا أستطيع أن أتخلص منها ..

صاح دياب ..

- هذا طبيعى .. إنها وسوسة الشيطان .. لقد جاء هذا فى القرآن .. اقرأه وستزول الوسوسة فوراً .

قال يوسف فى هدوء :

- إن الإيمان بالكتاب لا يأتى قبل الإيمان بصاحب الكتاب .. والإيمان بالرسول .. لا يأتى قبل الإيمان بالذى أرسل الرسول ..

صاح دياب :

- من قال هذا الكفر ؟!

قال يوسف بسرعة :

- إنه ليس كفراً .. هذا كلام الشيخ محمد عبده .. وهو كلام فقهاء المسلمين الذين يرون فيه أمراً طبيعياً .. وهم يرون أننا نظل مسلمين بفطرتنا حتى ولو ساورنا الشك .. حتى نقطع الشك باليقين ..

صاح دياب غاضباً :

هذه فلسفة سوف تنتهى بك إلى الإلحاد .. فاحذر منها .. ولا تنس أن

الشيخ محمد عبده كان صديقاً للورد كرومر الذى حكم مصر باسم الاحتلال الإنجليزى . احذر هذا يايوسف ..

قال يوسف جاداً :

ـ يجب أن تتحمل ما أقوله فى صدق .. فإنه يثير مشكلة حادة فى نفسى ويجب أن تعلم أنى سأحفظ الذى ائتمنتنى عليه .. ولكنى لست واثقاً من أنى سأحفظه لأنى أقسمت على المصحف الشريف .. أنا لا أستطيع أن أخفى عنك هذه الحقيقة ..

صاح دياب منكراً ..

ـ لو كنت أعلم هذا لما حدثتك بشىء .

قال يوسف فى هدوء :

ـ كأنك لم تحدثنى ..

فأطرق دياب برهة .. ثم رفع رأسه وهو يضحك فجأة :

ـ لماذا تعقد الأمور على هذا النحو .. أنت نفسك تقول المصحف الشريف .. لو كنت لا تؤمن لما قلت إنه شريف ..

قال يوسف :

ـ لا أجرؤ أن أصفه بغير ذلك .. حتى لا أقع فى خطأ لم أتبين مداه بعد ..

صاح دياب :

ـ أى أنه مازال هناك أمل .. المسألة أبسط بكثير من هذه التعقيدات التى ورطت نفسك فيها اسمع .. اتركها لى .. سوف أقنعك أنا ..

قال يوسف :

ـ ليتك تفعل ..

قال دياب باسما محاولا التخلص من هذا الارتباك الغريب الذى وضعه فيه يوسف :

ـ إنك ماكنت تصل إلى الإيمان وأنت تخالط أمثال عبد الهادى النجار ..

قال يوسف :

ـ وأنا فى السابعة ..جاء لى أبى بمدرس كان طالباً فى عالية الأزهر .وطلب منه أن يجعلنى أحفظ القرآن .. وكنت يوما أقرأ معه سورة يوسف . وكنت مهتما بها لأن اسمى يوسف .. وكانت مشاعرى تضطرب مع كل ما يحدث ليوسف .. كأنى هو .. عندما ألقاه أخوته فى الجب .. وعندما قالوا إنه مات وبكاه أبوه حتى فقد بصره . وعندما جاء إلى مصر .. وأخلوه السجن . وفسر الأحلام .. العلم الذى موضوع بدراسة كل شئ عن الأحلام حتى الآن .. ثم كيف أصبح يوسف وزيراً .. والتقى باخوته وكان مدرسى الشيخ رمضان يعبر تلك القصة عن امرأة العزيز وكيف راودت يوسف عن نفسه .. كان لا يشرحها ..

ويجعلنى أقرؤها بسرعة .. ودخل علينا أبى .. وجرى بينه وبين الشيخ رمضان حوار عن تلك الآيات الخاصة بإغراء يوسف . وهل يصح أن يشرحها لى أم لا .. وقال أبى للشيخ رمضان .. لا .. لا تشرحها له وقال الشيخ رمضان لأبى هذا ما فعلته .. كانا يتحدثان وكأنى لا أفهم . وما زلت أذكر الشيخ رمضان وهو يقول لأبى .. إن الذى أنقذ يوسف من الغواية أن جاء برهان ربه .. ونحن لا نملك أن نهدى يوسفنا .. يقصدنى أنا حتى يجيئه برهان ربه .. وكل ما فى يدنا أن نهيئه لاستقبال البرهان .. وقال أبى ضاحكا : نعم . وإن كنت أشك فى أن برهان ربه سوف يجيئه فى هذه الأيام التى امتلأت بالفساد .. ومنذ ذلك الوقت وأنا أشعر فيما يشبه العناد أن على أن أنتظر ما قاله أبى والشيخ رمضان .. كأن أبى قال إنى فى هذه الأيام محروم من شئ لن أحصل عليه .. ولكنى أريد أن أحصل عليه .. فلم أرض بالإيمان قضية مفروضة أو تقليدا لما تربيت عليه .. سأظل أنتظر برهان ربى .. حتى يجيء كما جاء لسيدنا يوسف .

ضحك دياب قائلا :

ـ إنه لن يجيء مع فساد عبد الهادى .. ومن يدرى .. لعل أباك كان على حق .. ولعل ما قامت به الثورة ومجيئى إلى هنا وهذا الحديث الذى أعترف لك بغرابته .. هو علامة على أن برهان ربك سوف يجيء إليك .. وإنك سوف

تتخلص من هذه الشكوك وهذا الكلام الفارغ الذى قرأته للشيخ محمد عبده .. إنها كما قلت لك وسوسة الشيطان .. وهى تأتيك لقربك منه فى شخص عبد الهادى النجار .

قال يوسف :

- أنا أشك أيضاً فى وجود الشيطان .. على أية حال أنا آسف إذ أزعجتك بكل هذا .. ولكن أردت أن أوضح لك حقيقة مشاعرى عندما جعلتنى أقسم على المصحف الشريف ..

قال دياب فجأة :

- طبعاً .. أنت لا تصلى ..

قال يوسف :

- نعم .. لا أصلى ..

قال دياب :

- ولا تصوم ..

قال يوسف :

- ولا أصوم ..

قال دياب :

- هناك شىء يجب أن تبدأ به .. قبل أى شىء آخر .. وهو أن تصوم وتصلى .. وأن تمارس هذه الرياضة الروحية .. حتى لا تندم على مافاتك عندما يهديك الله إلى ما يجب أن يهديك إليه من إيمان ..

قال يوسف :

- لا أظن أنى أستطيع أن أفعل هذا .. لأنى أضع نفسى فى مركز حرج لا أرضاه لنفسى ولا لإيمانى كما يجب أن يكون .. لا أريد أن أشعر بأنى أتحايل على عقلى .. كما لا أريد أن أتحايل على عظمة الدين وكرامته التى هى كما يقول الشيخ محمد عبده فى احترامه المطلق للعقل ورفضه الإيمان عن طريق المعجزات .. ولكن باعتماده على عقل المؤمن وحده .. ولكنى مع ذلك

أفهم ما تعنيه .. ولقد فكرت فيه من قبل وانتهيت إلى شيء لا أتردد فيه .. وهو أنى أقول .. لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. وأنا لا أخسر عقلى عندما أردد الشهادة .. بل أفخر بها لأنها تجعلنى أنتمى إلى تراث عظيم للمسلمين .. ولكنى أبدأ بعد ذلك رحلة مرهقة مضنية من الشكوك التى تعذبنى ..

قاطعه دياب محتجاً :

ـ لماذا تقول متعبة .. هل تعذيب نفسك هواية تحب ممارستها ؟

قال يوسف فى عصبية غير معتادة :

ـ لأنى أخاف الموت .. أخافه إلى درجة أنى أرفضه .. وأرفض الإيمان الذى هو هرب من الخوف . إنه يكون إيماناً أخدع به نفسى .. أنا أخاف الموت .. ولكنى أفضل مواجهته كل لحظة فى حياتى عن الهرب منه .. وإذا كان لابد أن أموت وأتحول إلى تراب .. فلابد أن أعلم هذا قبل أن أموت حتى أعرف حقيقة حياتى .. كما أعرف حقيقة موتى وأعلم أنى لن أعيش حياة أخرى .. ولا أخدع نفسى بأمانى زائفة .. لا أريد هذا الزيف حتى لا أزيف حياتى .. أما إذا كانت هناك حياة أخرى ـ وطبعاً هذا أفضل بكثير من التراب ـ فأريد أن أعلم بصدق .. حتى أكون مؤمناً كما يجب أن يكون الإيمان . لا أريد الخوف .. ولا إيمان التهرب من الحقيقة ولا إيمان الاستسلام لتقاليد المجتمع .. ولا إيمان المظاهر التى تختفى وراءها مصالح لا تنتهى .. أريد الإيمان الطبيعى .. بأنى جزء من هذا الكون الذى ينتمى كله إلى خالق واحد .. وأننا جميعاً أخيار وأشرار .. حيوانات أو طيور أو حتى حشرات .. جبال أو صحارى أو أنهار أو بحار .. ونجوم وأفلاك كلنا عائلة واحدة ومخلوقات واحدة ننتمى إلى خالق واحد .

قال دياب بصوت غلبه الانفعال :

ـ تقول هذا .. ثم تدعى أنك لست مؤمناً ..

قال يوسف :

ـ ليتنى أعرف ..

قال دياب :

ـ عرفت أم لم تعرف .. فأنت مؤمن .. وكما قلت لك .. عندما تزول عنك غشاوة عبد الهادى .. سوف ترى بوضوح ..

فقال يوسف فجأة :

ـ سأنصرف الآن .. وسأذهب إليه وأحدثه ..

وخرج يوسف من مكتب دياب ودخل على عبد الهادى .. وفوجىء به يقرأ أوراقاً وينصت إليه حسن زيدان ..

ومضى عبد الهادى فى القراءة .. ثم قذف بالأوراق على المكتب وصاح ساخراً :

ـ هذا هو ما يوزعونه على أعضاء التنظيم السرى ..

وصاح حسن زيدان :

ـ عندما استلمته .. قلت إنى أعرف كيف أكتب أحسن منه ..

والتفت عبد الهادى سائلاً يوسف فى مرح :

ـ طبعاً .. أدخلوك فى التنظيم ..



لقاء في بيت عبد الهادى

وقع سؤال عبد الهادى على يوسف وقع الصاعقة ، بل إن الصاعقة كانت قد انقضت عليه قبل هذا السؤال ، عندما سمع ما دار بين عبد الهادى وحسن زيدان عن التنظيم السرى . ورغم شدة الصدمة تماسك يوسف ، وأنقذته براءته ، وهو يجيب بسرعة آلية :

- تنظيم .. لا علم لى بهذا الموضوع .

وصدقه عبد الهادى فى الحال . أما حسن زيدان فقد ابتسم وقال ساخراً :

- إذن يجب أن تكتم السر .. فهذا هو المطلوب .

قال يوسف فى برود ظاهر ، بينما صدره يغلى بمشاعر محتدمة .

- حقيقة لا أدرى ماذا أكتمه .

قال حسن :

- هذا عظيم .

بينما احتج عبد الهادى .

- كان يجب أن تكون فى التنظيم .. فوضعك فى الجريدة كنائب لرئيس التحرير

يقتضى هذا .

سأل يوسف فى ضيق :

ـ أى شىء تتحدثون عنه ؟!

قال عبد الهادى :

ـ جهاز مخابرات جديد .

قال حسن معترضاً :

ـ لا أظن هذا ياأستاذ .

قال عبد الهادى ساخراً :

ـ لا تظن .. إذن لماذا أدخلوك فيه .. بل قل لماذا أدخلونى فيه !

وتلفت حوله . ثم قال :

ـ لن نتحدث هنا .. تعالوا معى إلى الغداء فى البيت .. بعد هـذا اليوم العاصف .

كان يريد أن يكونا معه بعد معركته التى أعلنها هذا الصباح . وكان واثقاً أنهما سوف يتبعانه ، كما كان واثقاً أن أخبار وجودهما معه فى بيته ستصل إلى دياب وستربكه ولعلها تدفعه إلى ارتكاب حماقة ضدهما .

وعندما دخلا مسكن عبد الهادى فى شارع عدلى ، التفت إلى يوسف فجأة وسأله :

ـ ماذا فعلت مع صاحبنا ؟ .

قال يوسف مرتبكاً :

ـ لا شىء ..

فحدق فيه ضاحكاً وقال :

ـ هل الأمر خطير إلى هذه الدرجة .

ولم يستطع يوسف أن يمضى فى تكتمه . فقال :

ـ سوف أتحدث إليك فيما بعد .

ونظر عبد الهادى إلى حسن . وعاد ينظر إلى يوسف . كانت نظراته

تقول .. لقد فهمت .. سوف تتحدث إلى وحدى وبعد انصراف حسن وأدرك حسن ما قاله عبد الهادى بنظراته . فضحك قائلاً :

- هل أترككما الآن .

صاح عبد الهادى :

- لا .. ولكنك ستفعل هذا بعد الغداء .

قال حسن :

- إن أحداث اليوم جعلتنا قلقين بغير مبرر .

فلم يجب عبد الهادى . كان قد غاب فى إحدى الحجرات وعاد ومعه مفكرة يقلب صفحاتها ، وهو يقول :

- سأقرأ لكما عن مناقشة تمت بيني وبينهم حول جدوى هذا التنظيم السرى .. قلت لهم إن هذا الموضوع خطر حقيقي .. لأنه يجمع الناس فى حلقات سرية .. ومن يدرى فقد يتوهمون أنهم يقومون بعمل سياسى خطير . وقد يتحولون فى أية لحظة إلى خطر على السلطة .. فمن يضمن ما يدور فى رءوسهم من أفكار أثناء هذه الاجتماعات التى تتم فى الخفاء .. إن بعضهم قد يخيل إليه أنه زعيم وأنه من قادة البلد .. ولكنى ما كدت أقول هذه الكلمة « قادة البلد » حتى انفعل رجل كبير لا داعي لذكر إسمه قائلاً فى غضب : ومن قال لك إن هذا تنظيم لقادة البلد .. إن اليوم الذى يتوهم فيه أعضاء التنظيم أنهم زعماء ، هو نفس اليوم الذى سوف يقضون فيه على أنفسهم .. وقال لى بالحرف الواحد ، وهو ما كتبته بنصه .. لأنها كلمات هامة .. اسمعوا :

وقرأ عبد الهادى « إن أعضاء التنظيم مجرد شبكة من الأسلاك للاتصال بين القاعدة والقيادة .. ويجب أن يكونوا أسلاكاً جيدة التوصيل .. تنقل جميع المعلومات من القاعدة وما يدور فيها من مشاكل وأزمات .. بسرعة وأمانة وكفاءة .. حتى لا يصبح هناك شيء يجرى فى القاعدة خافيا عن القيادة أما إذا توهموا أنهم قادة فهذا أكبر خطأ يقعون فيه .. لأنهم سينعزلون عن القيادة الحقيقية وسوف ترفضهم جماهير القاعدة » .

ولوح عبد الهادى بالمفكرة فى يده قائلاً :

- ما معنى هذا .. معناه ببساطة .. إنشاء جهاز مخابرات جديد .. لنقل المعلومات .. كأن البلد تنقصها أجهزة المخابرات ..

والتفت عبد الهادى إلى يوسف قائلاً :

- لا أظن أنهم يضمونك إلى هذا العمل .. ولكن الابتعاد عنه فى نفس الوقت خطر .. فأكثر الاتهامات التى ستوجه إليك من خلال تقرير أعضاء التنظيم .

ثم ضحك قائلاً :

- لكن اطمئن سأدافع عنك .. ولن أسمح لهم بأن يطردوك ..

كان يوسف يستمع إلى حديث عبد الهادى ، وكأنه فى كابوس ، فهو لا يكاد يفهم كيف يستقبل هذا الكلام .. بنفس الحواس التى استقبلت منذ ساعة واحدة كلام دياب عن التنظيم .. دياب يتحدث عن السرية والعقاب إذا ما أفشى أحد هذه السرية .. وجعله يقسم على القرآن .. فيثير فى نفسه كل هذه المشاعر الحادة الصادقة عن الإيمان وسلامته .. وعن الصدق والحقيقة . ثم يحدثه دياب عن التنظيم الذى يبدأ مرحلة جديدة للثورة وما يمهد له تنظيم الصحافة من إجراءات ثورية حاسمة خلال عام .. ويحدثه عن عبد الهادى عدو الثورة .. وبعد هذا كله .. هاهو يجد عبد الهادى نفسه عضواً فى التنظيم وكان له رأى فى قيامه .. وهاهى فى يده أوراق دون فيها مناقشاته يقرأها علنا .. وكأنه هو وحسن زيدان لم يقسما على الاحتفاظ بسرية شىء . هل خدعه دياب .. أم أن دياب مخدوع مثله .. أم أن هناك شيئاً غريباً شاذاً لا يفهمه .. إن نفسه تهتز بعنف أمام هذا الموقف غير الطبيعى ، وهو لا يعرف كيف يتصرف ، ولا ماذا يقول ، ولابد أن عبد الهادى لاحظ ذلك فهاهو يقول له :

- هل ضايقك أنهم لم يتحدثوا معك عن هذا التنظيم .

همس يوسف :

- أبداً . ولكنى خائف من كلامكم عن أسرار لا أريد أن أتحمل مسئولية إفشائها ..

فضحك عبد الهادى قائلاً :

- حسن على حق .. فكلنا قلقون اليوم بغير مبرر .. ولكن لا تحدثنى عن الأسرار . فهذا البلد ليس فيه أسرار .. لقد زارنى بالأمس صحفى أمريكى وتحدث معى عن هذا التنظيم السرى .. إن كل شيء معروف ولا أشك فى أنهم متعمدون إذاعته فى الخارج للإيهام بأن فى مصر عملاً سياسياً ضخماً .

قال حسن زيدان :

- إن أفضل طريقة لإذاعة أخبار تجعل الناس يصدقونها .. هو أن تقول إنها أخبار سرية للغاية .. لقد جربت هذه الطريقة أكثر من مرة ووجدتها ناجحة تماماً .. يكفى أن أهمس فى أذن واحد أو اثنين بأى كلام فارغ على أنه سر خطير استحلفه عدم إذاعته حتى أجده يتردد بعد ساعة واحدة على كل لسان ، ويأتى من يهمس فى أذنى فأضحك فى سرى وأنا أرى المسرحية تتم فصولاً .

وكانا على مائدة الغداء عندما نظر يوسف إلى حسن فى ألم وسأله فجأة :

- هل تذكر أول تنظيم سرى انضممنا إليه ؟

قال حسن ضاحكاً :

- طبعاً .. عندما كنا فى الجامعة .

فسأله عبد الهادى فى فضول :

- أنت يايوسف كنت فى تنظيم سرى .

قال يوسف :

- نعم .. وبسبب حسن زيدان .

قال عبد الهادى وهو يضع فى طبقه شريحة لحم أخرى :

- هذا ما أحب أن أسمعه حقاً .

وبدأ يوسف يروى القصة .. كان حسن وهو فى السنة الثانية بكلية الآداب قد تعرف على مجموعة من الطلبة أغلبهم من كلية الحقوق .. اجتمعوا لتكوين جمعية سياسية .. وكانوا يلتقون فى بيت طالب والده محام مشهور من أقطاب الحزب السعدى .. وكانوا يستعرضون الأفكار التى يتبنونها فيتشاجرون

وكان حسن يقول إنهم جميعاً أغبياء .. وأن أهم ما يشغلهم هو من الذى يرأس الجماعة .. وأن عزمى ابن المحامى السعدى يتصور أنه الأجدر بالرئاسة لمجرد أنهم يجتمعون فى بيته .. وذات يوم اتصل حسن بيوسف وهو جالس فى بوفيه الكلية وكان بينهما تعارف بسيط .

وهنا قاطعه حسن قائلاً :

ـ كنت ألاحظ هدوءه وعزلته عن بقية الطلبة .. ولم يكن له صديق إلا واحداً أو اثنين .. فنادراً ما يجلس معه أحد .. وكان يثير انتباهى بكثرة طلباته من البوفيه .. فى الحقيقة كان يستفزنى .. ذات مرة رأيته يخرج جنيها من جيبه ورجل البوفيه يحتج لأنه ليس معه فكة .

والتفت حسن إلى يوسف قائلاً وهو يضحك فى عصبية :

ـ هذه الحكاية تعرفها الآن لأول مرة .. ولكنى أقول لك والسلام . فاليوم يوم الاعترافات ..

والتفت حسن إلى عبد الهادى كأنه يخصه بالحديث ومضى يقول :

ـ بصراحة اكتشفت فيه أنه سريع التصديق لكل ما يقال .. وكانت تبدو عليه طيبة شديدة .. أنا شخصياً قلت إنها بلاهة .

قال يوسف باسماً :

ـ نعم .. هكذا استدرجتنى إلى هذه الجماعة .. ولكنى لم أكن عبيطاً كما كنت تتصور .. فقد كنت أعلم أنك تريد منى أن أقف إلى جانبك ضد الآخرين ..

صاح حسن :

ـ ووقفت جانبى .

قال يوسف فى بساطة :

ـ نعم .. ولم لا .. مادمت تريد هذا ..

فقاطعهما عبد الهادى :

ـ المهم .. ماذا حدث ..

قال يوسف :

ـ كان عزمى هذا يريد أن يقلد والده .. ويلعب معنا لعبة السياسة ولكنى لم أعترض .. وقلت لنفسى .. قد نستطيع أن نفعل شيئاً لمصر .. وكنت متأثراً أنا أيضاً بأبى .. كان ذات يوم يسير مع أصحابه على الكورنيش فى الأسكندرية .. وكنت معه وأنا ما زلت أرتدى البنطلون القصير .. ومروا أمام معسكر مصطفى باشا . إن المنظر ما زال فى عينى .. كأنى أراه الآن .. كان الوقت عصراً والشمس تميل إلى الأفق وترسل أشعتها . ونسيم العلم الإنجليزى فوق الثكنات متألقاً . وكان الحرس الإنجليز يطوفون فى داورية بوجوههم الحمراء وفى أيديهم البنادق تعلوها « السونكى » ووقف أبى ينظر إليهم ، وقال بصوت يفيض بالألم ، صوت لن أنساه أبداً .. ترى هل أعيش حتى أرى اليوم الذى يرتفع فيه علمنا فوق هذه الثكنات .. وأرى الجنود المصريين يحرسونها .. كان يخاطب أصحابه .. ولكنه وضع يده على كتفى وكنت أقف إلى جواره ضائعاً بين قاماتهم الطويلة .. وشعرت بأصابعه ترتجف فوق كتفى وسمعته يقول .. لو مت قبل هذا اليوم .. فعلى يوسف أن يعمل شيئاً لتحقيق أمنيتى ولأستريح فى قبرى .. لم يلتفت إلى أبداً ، ولكن كلماته كانت عنيفة قاسية . كان حديثه عن الموت والقبر يهزنى ومع ذلك أحسست أنه كان يتحدث وهو واثق تماماً أننى سوف أفعل ما يريد .. وأنه ليس بحاجة إلى أن يلتفت إلى أو يوجه إلى الحديث .. كانت تكفيه أصابعه على كتفى لتنقل إلى ثقته بى .. ولتمسنى وكأنها تيار كهرباء .. جعلنى أنظر إلى الجنود الإنجليز وإلى رايتهم فى أعلى الثكنات بكراهية ودموع غيظ .. وتمنيت لو أفلت من بين قدميه وأقدام أصحابه وأعبر الشارع وأهجم على جنود الداورية .. هذا شىء لن أنساه أبداً .

وهدأ صوت يوسف هو يخرج من ذكرياته وقال :

ـ كيف لى بعد هذا أن أرفض دعوة لعمل سياسى .. وكيف لا أصدق من يقول لى اعمل معنا لإنقاذ البلد .

صاح عبد الهادى :

ـ هذا على أيام المرحوم والدك . أما على أيامنا .. فإنهم لا يقولون لك تعال وانقذ البلد .. إنهم يقولون لك تعال وأنقذنا نحن .

قال يوسف باسماً :

ـ هذا ما فعله حسن بالضبط . فقد كان يريدنى فى تلك الجماعة لينقذ نفسه .. وهاهو أمامك لا ينكر ذلك .

نظر إليه حسن فى سرور وقال :

ـ هل ما زلت تذكر ؟!

ثم التفت إلى عبد الهادى قائلاً :

ـ كان ذلك الوغد عزمى يثير أعصابى .. وكان كل همه أن ننتخبه رئيساً لنا .. فأنقذت الموقف .. بإثارة موضوع هدف الجماعة بدعوى أن نتفق أولاً على الأهداف .. ثم نفكر فيمن يكون الرئيس .

قال يوسف :

ـ وكانت المناقشات صدمة حقيقية لى :

فقاطعه حسن :

ـ وكتبت لهم مشروعاً بأهداف الجماعة يستحق أن يوضع فى متحف لأنه مثل حجر رشيد الذى ضم ثلاث لغات .. كذلك مشروعى كان يضم أهدافاً متناقضة .. لأضمن بها موافقة الجميع .. فقلت إننا نريد طرد الملك ومحاربة الفقر والفساد .. ونريد إعادة نشر الإسلام وإعادة أمجاد الامبراطورية الإسلامية .. ونريد إعادة مجد الفراعنة وإعادة أمجاد الامبراطورية الفرعونية ثم وضعت كلمتين عن الاشتراكية وعن الشيوعية .. من نوع إعطاء كل واحد بقدر عمله .. وإعطاء كل محتاج على قدر حاجته .. كان منشوراً من .. سمك لبن تمر هندى .

صاح عبد الهادى :

ـ هذه الأيام يقولون سمك لبن فقط .. واختصروا التمر هندى .. فقد منعوا استيراده ..

قال حسن :

- المهم .. أن عزمى أخذ المنشور الذى كتبته إلى صاحب مطبعة صديق لوالده .. ولست أدرى كيف وافق الرجل وطبع له المنشور بالفعل .. وهذا آخر شيء كنت أتوقعه وإذا بنا نفاجأ فى الاجتماع التالى .. وعزمى قد وضع أمامنا حقيبة مليئة بالمنشورات المطبوعة .. نفس الكلام الذى كتبته والمصيبة .. أن الجامعة كانت تضج بالمظاهرات التى تطورت إلى اشتباكات حادة مع الشرطة .. واعتقلوا مئات من الطلبة .. فصحت فيهم : أنتم مجانين سوف يقبض علينا رجال الشرطة .. وأعلنت استقالتى من الجمعية ..

قال يوسف :

- هذا موقف لم أفهمه أبدا .. كان بلا أى تمهيد .. أو تفسير .

قال حسن منفعلاً .. وكأن ما حدث كان بالأمس :

- وهل أنا مجنون .. أضيع حياتى فى لعب عيال .

قال يوسف :

- لن أنسى الوجوم الذى ساد الجميع عندما خرجت ياحسن .. كان أول ما فكروا فيه .. أنك سوف تخونهم وتبلغ الشرطة .. وبمجرد أن استقر هذا الرأى بينهم .. قرروا أن يحرقوا المنشورات وأحرقوها ورأيت ألسنة اللهب ترتفع من الأوراق المحترقة وهى تتفحم .. وكأنها تحرقنى وجاء عزمى إلى وقال .. هل يرضيك ما فعله صديقك .. فقلت له .. لقد خاف . فقال .. لا إنه خائن وربما قبض علينا رجال الشرطة بعد ساعات فهل أنت مستعد لهذا .. قلت له نعم مستعد .. كنت لا أفكر .. ثم وجدتنى اندفع إلى النيران ومددت يدى أحاول انقاذ المنشورات .. فهجموا علىَّ وأبعدونى واحترقت يداى .

كان يوسف يتحسس يديه وكأنها احترقت منذ لحظات .

وقال حسن وقد لاحظ ذلك :

- أما زالت يدك تلسعك .

قال عبد الهادى مخاطباً يوسف :

- كل هذا بسبب المرحوم والدك .. أنا والدى كان لا يهتم بحكم الإنجليز .. لقد انتهى اهتمامه بما يجرى فى السلطة بعد أن استولى هولاكو على بغداد .. وبعدها أصبح لا شيء يهمه فى الوجود من أمر هذه السلطة .

قال حسن وهو يعاود افتعاله للضحك :

- أما أبى فكان لا يهتم بى .

ونهضنا من المائدة .. ونظر عبد الهادى فى ساعته . ولكن حسن أصر على مواصلة الحديث عن ذكرياته .. وكأنه نسى وعده بتركهما وحدهما بعد الغداء . كان فى قرارة نفسه لا يريد أن يتركهما وقد انتابه فضول شديد فى أن يعرف ماذا سوف يقوله يوسف لعبد الهادى . ولعله يفعل ذلك أثناء وجوده . ومضى يقول :

- أبى عاش فى أسيوط مع زوجته الثانية .. أو على الأصح الأولى .. فأمى كانت الزوجة الثانية .. كان أبى تاجرا فلما اغتنى تزوجها ولما أفلس تركنا وعاد إلى الأولى .. وهجر القاهرة .. وكانت عائلة أمى غنية فيها مستشارون ولواءات جيش وملاك عزب وعقارات .. ولكننا لم نحصل على شيء فاضطرت أمى إلى استغلال نجاحى .. فتأخذنى لزيارة أقاربها وتقول لهم ها هو قد نجح وكان ترتيبه الأول .. وهكذا تستدر عطفهم وتشحذ بعض النقود .

ونظر حسن إلى يوسف متحديا :

- أنت لم تعرف مثل هذه الحياة أبدا .. لم تعشها .

فقاطعه عبد الهادى فيما يشبه الغضب :

- وهل هذه حياة .. تلك التى تتحدث عنها بفخر .. أنا شخصيا مصائبى كانت أكبر وأفدح .. ولكنى لا أفخر بها .

صاح حسن متراجعا :

- أفخر أنا لا أفخر .. ولكن حقيقة إن أحداث اليوم جعلتنا جميعا فى قمة التأثر .. وها هى الذكريات تنهال علينا كأن اجتماع هذا الصباح قد فتح دملا خرج منه صديد الذكريات .

وساد الصمت برهة حتى قطعه حسن مستأنفا قصته فى عناد :

- ولكنى لا أنسى أيام الماضى كان أبى يلعب بالذهب .. وفى إحدى الليالى قضى سهرته فى دهبية منيرة المهدية وبلغ من فرط إعجابه بها أنه أعطاها صرة مليئة بالجنيهات الذهب .. ولكن أيام الفقر كانت شيئا آخر . تصوروا إن أمى كانت تشحذ وهى ترتدى بالطو من الفراء الثمين من مخلفات أيام العز .. كانت تعنى به عناية فائقة ولذا كانت تهتم به أكثر من اهتمامها بنا نحن أولادها .. وحدث ذات مرة أن بلغ بى الغيظ من ولد عبيط فى عائلتها كانت معه ساعة ذهبية فضحكت عليه واقنعته بأن يهديها إلى .. وفعلا أعطاها لى . ورأت أمه الساعة معى .. فغضبت . وطلبت من أمى فى جفاء أن تعيد إليها الساعة .. ولم أفهم أبدا تصرف أمى وهى تختطف الساعة منى وتسلمها لهم .. وكان لى أخ غير شقيق من زوجة أبى الأسيوطية .. كان أكبر منى بكثير وهو صعيدى قح يضع على رأسه عمامة ضخمة ويتكلم بالصعيدى .. كنت أحتقره وأحبه .. وكان يتصرف بشهامة .. ويعطينى كلما زارنى مصروفاً خمسين قرشاً .. وكنت عندئذ أشترى بسبوسة وآكلها فى بئر السلم قبل أن أصعد إلى مسكننا .

وعاد يلتفت إلى يوسف قائلاً بلهجة التحدى :

- هل حدث أن اشتريت بسبوسة وأكلتها فى بير السلم خوفاً من أن يخطفوها منك .. أو تضطر إلى إعطاء أمك قطعة منها .

فاحمر وجه يوسف وقال فى حنق :

- ولكنك كنت تدعى أنك غنى .. ولقد صدقتك ..

صاح حسن :

- طبعاً .. حتى لا تسخروا منى .

قال يوسف :

- أنا لم أسخر منك أبداً .

قال حسن :

- لأنى لم أسمح لك بذلك ..

قال يوسف :

- لقد ادعيت أنك غنى .. أمام الشيخ مهنا ..

قال حسن فى دهشة :

- أنــــــا ..

قال يوسف :

- نعم .. ألا تذكر يوم أخذتنى إليه .

وحاول حسن أن يتذكر .. ثم هز رأسه قائلاً :

- الغريب .. أنى نسيت ما حدث تماماً .

قال يوسف :

- أذكرك ..

والتفت يروى لعبد الهادى :

- كان ذلك بعد حادث الجماعة إياها .. وجاءنى . وقال إنه قرر أن ينضم إلى حزب إسلامى حقيقى يمتد تاريخه إلى أيام جمال الدين الأفغانى .. حزب العروة الوثقى .. وقال إنه سيذهب الليلة إلى دار الحزب ليقابل الشيخ مصطفى مهنا .. ولست أدرى كيف وافقته .. وقابلنا فى مدخل البيت .. وهو فيلا بها حديقة كبيرة .. رجل عرف حسن وأدخلنا قاعة كبيرة تتصدرها أريكة جلس عليها الشيخ مهنا متربعاً فى ملابسه البيضاء وفى يده مسبحة .. وكانت له نظرات حادة غير مريحة .. وكانت المقاعد مرصوصة بجوار جدران القاعة يجلس عليها رجال كثيرون .. أغلبهم مثل الشيخ له ذقن مدببة صغيرة .. وتقدم حسن وأنا من ورائه إلى الشيخ . وكان حسن متصلب القامة متجهم الوجه ، وانحنى على يد الشيخ وقبلها .. أما أنا فلم أقبل يده .. فنظر إلى بعينيه اللتين لم أسترح لهما ، وكأنه يحاول تنويمى مغناطيسياً ، لأقبل يده .. ووقفنا أمامه وإلى جوارنا الرجل الذى أدخلنا القاعة .. يقدمنا إلى الشيخ الذى التفت إلى حسن وسأله . هل أنت قريب اللواء الجندى باشا ؟ .. فقال له

حسن نعم فسأله الشيخ .. إذن أنت قريب أيضاً لعبد القادر بك رياض المستشار فى الاستئناف ؟ فقال حسن نعم .. فقال الشيخ ، وأنتم من المنصورة . فقال حسن نعم .. فسأله الشيخ من ناحية الأب أم الأم ؟ . فقال حسن من ناحية الأم فسأله وماذا يكون عمل الوالد .. فقال حسن تاجر قطن . فهز الشيخ رأسه وردد .. ما شاء الله ، أنت جمعت بين رجولة الصعيد وإرادته القوية وبين عقل بحرى [illegible] .. [illegible] فى المنصورة .

وابتسم الشيخ ، وهو يسمع أصوات همهمة ، من رجال ينتمون إلى بلاد أخرى غير المنصورة .. وقال وهو يهز رأسه فى إعجاب بما يقوله .. لا يغضب أحدكم منى .. فلكل بلد مزاياه وخصاله ونحن فى حاجة إليها جميعاً .. ولكن علينا أن نرحب بالضيف وبعائلته وأن نجعله يثق فى أصله وحسبه ونسبه .

وسأل يوسف حسن :

ـ ألا زلت لا تذكر هذا .. إنى أذكره بكل تفاصيله ..

قال حسن فى ضيق :

ـ لا .. لا أذكره .. ويخيل إلى أنك تخترعه .

هتف يوسف فى طفولة :

ـ بل هذا هو ما حدث بالفعل .. انتظر حتى أذكرك بما حدث لى مع هذا الشيخ .. فقد التفت إلى وسألنى .. وأنت من أى البلاد .. قلت فى عناد .. أنا من مصر .. فاحتار وكأنه لم يفهمنى وعاد يسألنى من أى بلد فى مصر .. فقلت له من القاهرة .. فقال وهو يتفحصنى مستريبا : ولكن لابد أن يكون أصلك من بلد ما قلت وقد زاد عنادى واشتدت رغبتى فى مقاومة أسئلته التى يلقيها بلهجة اختلط فيها التعالى بادعاء الظرف .. نحن من القاهرة فبدا وكأن إجابتى لم تعجبه ، وسألنى .. وماذا يعمل أبوك ؟ وغضبت لسؤاله واعتبرته تطفلاً وقحاً .. ماله وأبى .. وعمله قلت له : يعمل بالقانون وكنت أعرف أن إجابتى ستضايقه .. ولكنه كان لحوحاً ، فعاد يسألنى فى أية ناحية من نواحى القانون .. المحاماة أم القضاء أم النيابة أم الإدارة ؟ . كان يردد هذه

الوظائف ..وكأنه يوبخني ..فإذا بي أسكت ولا أجيب .ولعله ظن أني كذبت عليه ، فارتج على القول . وقال . لعلك لا تدرى ماذا يعمل .. فإذا بى أقول له .. نعم لا أدرى .. وضجت القاعة بالضحك .. بينما قال الشيخ تفضلا بالجلوس .. ولم أعد أسمع ما يدور ، حتى خرجنا ، وحسن يحدثنى عن عظمة الشيخ مهنا وروعته .. فقلت له .. أنا لم أسترح لهذا الرجل منذ أحسست بقلق نظراته لأنى لم أقبل يده .. فغضب حسن منى وقال هذا خطأ كبير وقعت فيه ..وكان من الواجب أن تقبل يده فهو مثل والدك ..بل هو أكبر منه وكثيرون يضحون بحياتهم من أجل الشيخ .. فقلت .. لا أريد الشيخ .. ولا أريد أن أعود إليه ..

والتفت يوسف إلى حسن وقال :

- ولعل صلتنا انقطعت منذ ذلك الوقت .. حتى التقينا فى جريدة العصر الجديد .

قال حسن فى إصرار :

- مازلت لا أذكر .

قال عبد الهادى :

- هذه الحكايات المسلية عن الآباء تجعلنى أفكر فى تلك النظرية التى قد تكون صحيحة .. أننا نتعلم معنى السلطة من آبائنا .. إن أبى رأى السلطة ماتت وشبعت من الموت منذ قرون .. فعاملها على أنها تهريج .. وأنا أنظر إليها بالمثل ، وحسن رأى فى أبيه السلطة للمال فإذا وجد فعل ما شاء وإذا ذهب انكمش على نفسه وتخلى عن مسئولياته حتى ولو كانت زوجته وأبناءه وهكذا ستفعل دائماً ياحسن .. أما أنت يايوسف فقد منحك والدك ثقة فى المستقبل فصدقت كل ما يقال لك عن المستقبل .. حتى ولو احترقت يداك .

وسكت عبد الهادى برهة ثم أضاف مفكراً :

- لقد عرفت امرأة لا تهتم بالسلطة إطلاقاً .. ولما سألتها عن أبيها قالت لدهشتى .. إنها لا تصدق أنه كان لها أب فى يوم من الأيام .. وأنه أكذوبة من

تلك الأكاذيب التى أطلقوها .. كانت تعنى ما تقول .. بل وتصدقه كأنها ولدت من غير أب .. وهى لا تكترث لأى شىء .. ولكنى أعلم أن لها أباً .. وأنه من أصل تركى .. وهذا منطقى تماماً . فقد اختفت من حياتنا سلطة الأتراك وأصبحت فى ذمة التاريخ .. فلا سلطة لهم .. ولا أب بالنسبة لابنتهم ..

قال حسن فجأة :

ـ لماذا تتهمنى بأنى أتخلى عن مسئولياتى .

فنظر عبد الهادى فى ساعته وقال فى جفاء واضح :

ـ ألم تعدنا بأن تتركنا بعد الغداء .

قال حسن فى إصرار :

ـ يجب أن أعرف منك سبب هذا الاتهام .

قال عبد الهادى باسماً :

ـ أنا لا أتهمك بشىء .. ولكنها مجرد نظرية أحاول أن أتبينها لنفسى .

قال حسن فى انفعال :

ـ هذه نظرية خاطئة .. ولم أسمع بها من قبل .

قال عبد الهادى :

ـ ربما .. ولكن أتركنى الآن مع يوسف .. فقد مضى الوقت .. وأريد أن أفرغ من حديثى مع يوسف لأنام ..

وخرج حسن غاضباً .. وما كاد يغلق الباب وراءه ، حتى قال عبد الهادى :

ـ هذه الذكريات التى فاضت بحسن زيدان لها مغزاها .. لقد شعر فجأة بأنه يتحرر من كل ارتباط يقيده بى . إنه يتخلى عنى . ويتمتع بقدرته على أن يغضب ويثور ويحاسبنى على اتهامى له .. سوف نسمع منه الكثير فى هذه الأيام المقبلة .. هيه .. ما علينا .. هاهو قد انصرف وأصبحنا وحدنا فما الذى تريد أن تقوله لى يايوسف .



سأتكلم يا حضرة المستشار

فوجئ يوسف بأن عليه أن يقول شيئاً لعبد الهادى .. ولكن ما الذى كان يريد أن يقوله ، لقد نسيه . وعليه أن يستعيد ذاكرته ، لقد أراد مواجهة عبد الهادى فى أمر ما ، ويخيل إليه إنه كان متحمساً لهذه المواجهة . بل كان مصراً عليها ، ولكنه لا يذكر الآن ما الذى كان مصراً عليه . بل إنه فقد تماماً حماسه لأن يبذل جهداً فى التذكر .. إنه يشعر بحيرة ، وكلما مضت لحظة وهو صامت ، وعبد الهادى ينظر إليه فى انتظار كلماته ، تشتد حيرته ، بسرعة مضاعفة ، حتى تحولت الحيرة إلى ألم فى صدره ، وأدرك عبد الهادى أن يوسف قد وقع فى ورطة نفسية .. وكان واثقاً أن هذه المعاناة التى تبدو عليه ولا يستطيع أن يخفيها إنما هى نتيجة ما حدث فى لقائه بدياب .. وكان عبد الهادى مصمماً على أن يعرف ما الذى حدث فى ذلك اللقاء . وقرر أن يحاصر يوسف وأن يضغط عليه ويعتصره حتى يفضى إليه بما يريد كتمانه .

واتخذ عبد الهادى وجهاً بشوشاً باسماً وقال بصوت هادئ .

- أتذكر يايوسف يوم لقائنا الأول .. يومها دخلت مكتبى .. شاباً منطوياً

خجولاً له وجه طفل .. لا تشرب السجاير ولا القهوة . هل تذكر كيف فزعت عندما قلت لك لابد أنك لا تعرف أيضاً البنات .. كنت وقتها مثل عذراء فوجئت بأنها دخلت بيتاً مريباً وهى لا تدرى عنه شيئاً .. هه .. لقد مضى زمن طويل على ذلك .. وكنت أقول لك ستتغير .. وأن غابة العصر الجديد كفيلة بأن تغير طبائع البشر .. ولكنك قاومت .. أو لعلك لم تقاوم على الإطلاق .. كنت تتوغل فى الغابة .. بين حيواناتها المفترسة ثم تنجو من أنيابها بمعجزة .. لم يمسك سوء .. بقيت محتفظاً بعذريتك .. ولكنى أشعر اليوم أن هناك تغييراً ما بدأ يطرأ عليك ..

كان يوسف يستمع إليه فى غير فهم .. وبدا إنه يريد أن يقول شيئاً ولكنه فتح فمه ببطء ثم عجز عن الكلام . ومضى عبد الهادى يقول :

ـ ما زلت أذكر صوتك المنفعل كالأطفال وأنت تقول لى فى ذلك اليوم الذى التقينا فيه لأول مرة ، أنا لست خائفاً منك .. قلتها ببراءة من لا يعرف فعلاً معنى الخوف لأنه لم يواجه ما يخفيه أبداً . ولكنك الآن فى هذه اللحظة تضطرنى أن أتساءل .. هل تغيرت .. وكيف حدث هذا .. أنت تبدو قلقاً ... بل أكاد أجزم أن هناك ما يخيفك .. فما هو .. هل أنت خائف منى .. عيناك تفضحانك .. هناك شىء ما يزعجك .. ودعنى أساعدك فأقول لك .. هناك شىء قاله لك دياب هذا الصباح ولا تريد أن تتحدث عنه معى .

كان وجه يوسف يحمر ، ويزداد فضحاً له بينما استمر عبد الهادى واثقاً من خطته فقال :

ـ سأوفر عليك متاعبك .. وأقول لك إنى أعرف ما الذى قاله لك دياب .. وسأثبت لك أنك تعرف منذ زمن بعيد إنى كنت أعرفه وسأعود مرة أخرى بذاكرتك إلى تلك الأيام التى كان يعمل فيها دياب رقيباً فى العصر الجديد .. أتذكر يوم عينوه مشرفاً عاماً على أجهزة الإعلام فى المخابرات وترك الرقابة .. يومها قلت لك إنه عين فى منصبه هذا بعد أن درس أحوالنا ليستعد لجولة جديدة يوجه فيها ضربته لنا .. يومها قلت أنت يايوسف وببساطة شديدة وبلا

تردد أو خوف .. نعم إنه سيوجه ضربة قاصمة .. وسألتك :

- ألا تذكر .. سألتك من الذى قال لك هذا .. فقلت بنفس البساطة وبغير تردد إن دياب نفسه هو الذى قال لك هذا الكلام .. وقتها ، كانت عيناك صافيتين ووجهك مرتاح .. ولاتبدو عليك كل هذه المعاناة .. فبالله عليك ما الذى حدث .. حتى تضطرب الآن .. لمجرد أن دياب قال ما قاله .. ولماذا تجد نفسك متردداً فى أن تتحدث ببساطة كما تعودنا منك دائماً .

وابتسمت عينا عبد الهادى .. وهو يصيح فى يوسف كأنه يوقظه من كابوس :

- يوسف .. هل تسمعنى .. هل حقاً تغيرت ..

أجاب يوسف ببطء وبصوت مضطرب :

- لا أدرى .. ولكنى حائر .. وأشعر بآلام حادة فى صدرى .. لا أدرى كيف أتخلص منها .

ثم رفع يوسف صوته وقال فى حدة :

- لم أعد أدرى من أصدق أنت أم هو .

صاح عبد الهادى مقهقهاً فى خبث :

- هل تخاف منه إلى هذه الدرجة .. فتقول .. هو .. ولا تريد أن تذكر اسمه .. هل تخشاه .. قل دياب .. أحمد عبد السلام دياب انطق باسمه فهو ليس عفريتاً حتى تتحاشى النطق به .

قال يوسف فى ارتباك :

- ليس هذا هو المهم .. إن كلا منكما يصارع الآخر .. وكلاكما له هدف من وراء هذا الصراع .. فما هو هذا الهدف .. أعنى الهدف الحقيقى .. أنا لا أفكر فى انتصار دياب على عبد الهادى .. ولا فى انتصار عبد الهادى على دياب .. لن أفرح لأحد منكما ينتصر على الآخر .. كل ما يهمنى وأفكر فيه .. هو أن يكون هناك عمل حقيقى من أجل مصلحة البلد .

جلجلت قهقهة عبد الهادى حتى كادت تدمع عيناه :

ـ مصلحة البلد .. مصلحة البلد .. هل تعنى حقاً ما تقول .

قال يوسف وقد زاد ارتباكه :

ـ ما الذى يضحكك .. أن تدفعنى إلى اتهام نفسى بذلك الاتهام الذى تعودته .. وهو أننى غبى .. بطىء الفهم .

فقاطعه عبد الهادى :

ـ لا .. لست غبياً .. ولكنك انتهيت من هذا الموضوع .. ولكنك خبيث وخبثك مكشوف .. خبث أطفال .. أنت أيضاً لك مصلحتك فى أن تكون بطىء الفهم حتى ينتهى الصراع بينى وبين دياب ، حتى لا تتورط .. وتنجو من اتخاذ موقف معى أو معه ..

صاح يوسف فى ألم :

ـ ولماذا اتخذ موقفاً .. ليتك تصدقنى .. ليت أحدا فى هذا الوجود يصدقنى .. أنا لا أفهم هذا الصراع الشخصى .. قل لى هيا نفعل كذا أوكذا من أجل بلدنا .. وستجدنى مستعداً لأن أفعل ما دمت قد اقتنعت به .. ولو قال لى دياب نفس الشىء فلن أتردد ما دمت أقتنع به .. ولكنى لن أحارب من أجل نفسى .. لم أتعود أن أدافع عن نفسى .. بل لم أتعود أن أطلب شيئاً لنفسى .. حتى تعيينى فى العصر الجديد .. وأنت تذكر .. لم أسع وراء هذه الوظيفة .. ولم أبحث عنها .. كنت فى بيتنا .. كنت نائماً فى السرير .. عندما أيقظتنى والدتى وقالت لى إن عبد اللطيف بك مسعود صديق المرحوم والدى جاء يسأل عنى .. هو الذى أخذنى إلى مدكور باشا بعد أن سألنى هل قدمت للتعيين فى النيابة قلت لا .. قال .. هل قدمت فى الخارجية قلت لا .. قال أين قدمت إذن .. قلت لم أقدم أى طلب .. فانزعج وقال إن موسم التعيينات قد انتهى .. حتى إنه صاح فى أمى .. هل ترك المرحوم ثروة ونحن لا ندرى .. قالت له مستسلمة : أبوه كان يوصينى ألا أدفعه إلى عمل أى شىء لا يريده هو فسأل وما الذى فعله .. قالت له : لا شىء سوى النوم فى السرير وهكذا جذبنى من يدى إلى مدكور باشا وطلب منه تعيينى .. وإنى أتساءل حتى الآن لو كان

مسعود بك لم يأت لزيارتنا فهل كنت أقدم على خطوة واحدة لأطلب شيئاً لنفسي .. أحياناً يخطر لى إنه لو كان تركنى وشأنى .. لتشردت وحدى حتى أموت من الجوع .. ولكن هذا الخاطر يبدو لى إنه غير صحيح .. لست أدرى لماذا .. فلو إنى لم أطلب شيئاً .. فسوف يحدث دائماً أن أجد طريقاً لحياتى .. هذا شعور لم يخذلنى أبداً طوال حياتى ..

فقاطعه عبد الهادى :

- أعرف .. فهذه هى أوهامك الأبدية عن نفسك .. أنت لم تطلب أبداً علاوة .. ويوم تعيينك نائباً لرئيس التحرير .. سألتك .. من ترشح يايوسف لهذا المنصب .. فجعلت تردد اسماً بعد اسم .. ولا تحاول أن تذكر اسمك .. ولكنك كنت تعلم فى قرارة نفسك .. أنك ستعين فى هذا المنصب .. هل تنكر هذا .

قال يوسف باسماً :

- لا أنكر .

قال عبد الهادى :

- أنت لم تواجه فى حياتك تحد قاس .. عشت مدللاً إلى درجة لا تطاق حتى أصبحت تتوهم أن مصلحتك سوف تتحقق حتماً ، وأنك ستحصل على ما تريد دون أن تطلبه .. دون أن تريق ماء وجهك .. دون أن تتذلل لأحد ، دون أن تقبل الإهانة .. دون أن تكذب وتنافق .. دون أن تفسد أخلاقك .. دون أن تستعمل الشر الكامن داخلك .. ولكن إلى متى .. أنت تتوهم أنك تعيش من أجل مصلحة البلد .. مصلحة عليا .. مصلحة الإنسانية .. لامثلنا ننهش لحم بعضنا البعض من أجل لقمة أو قرش .. هل تظن نفسك نبياً .. أم زعيماً .. ولكنه تصور أخرق .. لأنك لست نبياً .. ولست زعيماً .. لقد كنت مجرد عذراء .. وأصبحت بمضى الوقت عانساً .. ومن السهل جداً فى هذه الأيام أن تجد نفسك فى الشارع لا تملك مليماً .. ولا أحد يهتم بأمرك .. تدوسك الأقدام .. وليست لك خبرة بالصراع من أجل الحياة .. أنت ..

وقطع عبد الهادى كلامه وقال فى تأثر مفاجىء :

- يوسف .. لماذا تضطرنى إلى أن أقول لك هذا الكلام .. إنى لا أستطيع المضى فيه .. يجب أن أعترف لك بأنى أحبك .. وإنى ضعيف أمامك .. أنت تعرف هذا بل إنى أتمنى فى قرارة نفسى أن تكون حقاً ذلك الوهم الذى تدعيه لنفسك .. مصيبتى إنى أعرف إنه وهم .. وإنه مستحيل .. بل أرفض أن أتعلل به حتى لا أخسر كل شىء .. ومع ذلك أتمنى لو كان هذا كله حقيقياً .. ماذا أقول .. هل أعترف لك بأنى أحب تخريفك هذا .. وأحب أن أراك تتدلل به .. وتقول إنى أعيش لمصلحة البلد .. ولا أطلب لنفسى شيئاً .. وإنه مهما يكن من أمر فسأجد لى طريقاً للحياة .. دون أن أتذلل أو أفسد .. نعم إنى أحب هذا التخريف .. ولكنى أخشى عليك منه .. أخشى أن تخذلنى يوماً .. فأراك تتحول إلى واحد مثل حسن زيدان .. ولكن أعجز منه بكثير لأنه سبقك بخبرات واسعة حصل عليها فى سنوات طويلة ضاعت من عمرك .. أنت تقامر بحياتك كلها .. بغير تحفظ .. ولعل المقامر الذى فى داخلى هو الذى يحبك .. تضع كل ما تملك على المائدة .. وأنت واثق أنك لن تفلس أبداً .. ولن تطرد فى الشارع لتجوع يوماً ما .. إن صاحبك حسن زيدان يتآمر ضدى فى هذه اللحظة .. بينما تحدثنى عن نومك فى السرير ..

وزفر عبد الهادى الهواء من صدره وقال :

- آه .. أنت تخلق لى مشكلة غريبة .. ليس هذا وقتها .. على أية حال كل ما أريد أن أقوله لك .. هو إنى أعرف ما قاله دياب .. وإنى أعفيك من أن تشعر بأنك تفشى سراً ائتمنك عليه .. وسأتولى أنا بالنيابة عنك أن أقول ما حدث بينكما .. لقد قال لك إنه قرر إبعادى عن العصر الجديد ..

وضحك عبد الهادى منفعلاً وقال :

- هأنت ترى إنه ليس هناك أسرار .. وأريد أن أضيف بعد ذلك .. نفس ما قلته لك عندما حدثتنى منذ سنوات عن الضربة القاصمة التى سيوجهها دياب .. لابد أنك نسيت ما قلته لك وقتها ..

همس يوسف :

- لا .. لم أنس ..

سأله عبد الهادى ممتحناً :

- ماذا قلت ؟

همس يوسف :

- قلت إن دياب لن يستطيع أن يفعل بى شيئاً .

هتف عبد الهادى فى ارتياح :

- فعلاً .. أنت لم تنس .. وأنا أكرر لك نفس الكلام الآن .. لأؤكد لك إنه ليس هناك مشكلة ، وليست هناك أسرار تدعوك إلى هذا الاضطراب .. حتى تفقد صفاء عينيك .. إن كل ما قاله لك دياب كان متوقعاً منذ سنوات .. وأنا مستعد له .. وسوف ترى إنه لن يلحق بى أى ضرر .. إنه لا يستطيع .. فى الحقيقة .. إنه مجرد ذبابة تحاول أن تضايقنى .. أستطيع أن أهشها هكذا .

ولوح عبد الهادى بيده يهش الذبابة :

فانفجر يوسف :

- هذا الوضع لا يريحنى بالمرة .. كلاكما يقول عن الآخر نفس الكلمات هو أيضاً يرى أنك مجرد ذبابة سوف يهشها ..

فضحك عبد الهادى محاولاً إخفاء شعوره بالانتصار ، فهاهو يوسف يبوح له لأول مرة بحقيقة ما قال دياب . وقال :

- لا تقل لى إن هذا هو الذى ضايقك .

فصاح يوسف :

- إن الذى ضايقنى شىء آخر .

كان يوسف قد تذكر فجأة .. ذلك الذى كان يريد أن يواجه عبد الهادى به .. واندفع بغير روية :

- لقد تصرفت مع سيدة تذهب إلى بيتها تصرفات مشينة .

فوجىء عبد الهادى بكلمات يوسف الغاضبة . فاختفت الضحكة وردد

بلهجة احتجاج :

- مشينة .. هكذا تقول مشينة .

ولم يتوقف اندفاع يوسف .. كان يقول :

- لم أتصور أبداً .. أن تكون على علاقة بها .. تصل إلى أن تحمل منك وتجهض نفسها عند الدكتور سامى عباس .

صاح عبد الهادى :

- دياب هو الذى قال لك هذا .

صاح يوسف فى ألم :

- لا شأن لى الآن بدياب .. ولكن أصحيح ما سمعته ؟

فأطرق عبد الهادى لحظة ثم رفع رأسه محدقاً فى وجه يوسف .. وقال فى جفاء :

- أفضل ألا أتحدث معك فى هذا الموضوع .

وسادت فترة من الصمت الثقيل جثمت عليهما ، وبدا أن عبد الهادى حاسم فى قطع الحديث ، ودوى طنين فى رأس يوسف وقد أدرك الآن فقط ، إنه أثار الموضوع بطريقة فجة .. ولكنه فى نفس الوقت كان غير مطمئن إلى اتهام نفسه بأنه ارتكب خطأ ما ، ولم يعد يدرى ماذا يفعل ، هل يقوم ويخرج أم يظل جالساً هكذا على مقعده أمام رجل غاضب منه ، ولكن شيئاً لابد أن يحدث ، ولابد أن يجد مخرجاً .. وفجأة سمع عبد الهادى يقول بصوت بطىء :

- فى العادة أنا أعامل من يوجه لى مثل هذا الكلام معاملة قاسية .. لاكما أتصرف معك الآن .. سوف أتكلم .. وأنا لا أعرف إلا شخصاً واحداً أتقبل منه هذه الكلمات فى هدوء .. وهو أنت .. لا أستطيع أن أكون وقحاً معك .. سأتكلم حتى ترضى ياحضرة المستشار ..

رفع يوسف عينيه فى دهشة وقد ارتجف لسماعه عبد الهادى يلقبه بلقب المستشار ، وكان لا يفهم سر مخاطبته بهذا اللقب الذى هزه هزاً عنيفاً . حتى

كاد ينهض من مقعده ويهجم على عبد الهادى .. لا يدرى أيعانقه ويعتذر له .. أم يخنقه بكلتا يديه بينما مضى عبد الهادى قائلاً :

ـ أناديك بحضرة المستشار لأنك لست وحدك .. لست الطفل الكبير .. ولست نائب رئيس تحرير العصر الجديد .. لو كنت هذا فقط لعرفت كيف أعاملك كما يجب أن يعامل رئيس العمل مرءوسيه .. ولكنك تجلس أمامى ومعك أبوك المستشار .. إنه لا يتركك أبداً .. رغم إنه مات ومضى من الموت .. إلا إننى أشعر به .. وأراه يرهقك بركوبه فوق كتفيك أينما ذهبت .. وأينما كنت .. يطل على كذلك الرجل العجوز فى قصص السندباد البحرى الذى ركب فوق كتفى السندباد فلم يستطع أن يتخلص منه فكان يحمله أينما ذهب بل كان يحمله حتى عندما يذهب إلى سريره لينام .. لقد شتمت كل الناس ولم أشتمك أنت مرة واحدة .. سخرت من كل الناس ، ولم أسخر منك أنت مرة واحدة .. لأنى لو فعلت فسوف أشتم أباك الذى لم أعرفه .. والذى تفرضه على .. وأسمعه يتحدث فوق كتفيك حديث الأموات الذين لا مصلحة خاصة لهم .. فيطالبوننا بالعمل لمصلحة البلد .. وكل ما يهمهم هو المحافظة على التراب الذى دفنوا فيه .. الآن حضرة المستشار يريد أكثر من التراب إنه يريد أن يرأس هيئة المحكمة ويحقق معى .. جلس على المنصة ليفصل فى قضية عبد الهادى النجار .. بعد أن ترافع أمامه الأخ دياب ممثل الإدعاء .. وقدم شهود الإثبات .. الدكتور سامى عباس .. أليس هذا هو ما تفعله الآن ياحضرة المستشار ...

قفز يوسف ناهضاً من مقعده هاجماً على عبد الهادى .. الذى تراجع فزعاً . ولكن يوسف عبره . وهو لا يرى ما أمامه مسرعاً إلى باب الخروج .. ولحق به عبد الهادى وأمسك به وهو يصيح فيما يشبه التوسل :

ـ لا .. لا تذهب هكذا ..

قال يوسف بصوت مجنون :

- لا تتحدث معى ..

ردد عبد الهادى فى إلحاح :

- آسف يايوسف ..

قال يوسف وقد اختنقت دموعه :

- لا أسمح لك أن تتحدث عن أبى ..

ردد عبد الهادى :

- قلت لك آسف ..

قال يوسف والكلمات ترتطم فى خروجها من صوته المختنق :

- أنت لا تعرف .. أنت لا تعرفه .. لا تعرف ما بيننا ..

عاد عبد الهادى يردد وهو يجذبه فى رفق لا يخلو من حذر عائدا به إلى مقعده ..

- قلت لك آسف .. صدقنى أنى آسف .. أرجوك اجلس واهدأ ..

وافتعل عبد الهادى ضحكة .. فى محاولة يائسة لعلها تشع جواً من المرح وقال :

- لست أدرى .. ما الذى يحدث لى فى هذه الأيام .. كل من أحبهم يقفزون فجأة من أمامى .. يريدون الهرب منى .. كأن هناك لعنة تطاردنى وتحكم على بالعزلة عنهم ، لابد أن أحطم هذا الشعور .. ولابد أن نصفى الآن كل ما بيننا .. لن أتركك تخرج من هنا وأنت غاضب ..

اسمع يايوسف .. فلنترك ماكنا نتحدث فيه .. وسأحكى لك حكاية عن أبى .. لعلك تفهمنى أكثر جاءنى أبى ذات يوم من طنطا وكنت وقتها طالباً فى كلية الحقوق .. وقال لى إنى كنت السبب فى فضيحة سياسية كبيرة تحدثت عنها طنطا كلها .. لأنى أطلقت شائعة عن صديقنا لطفى مكى ابن عبد الرحمن باشا مكى .. أنه اتصل بخطيبته قبل أن يتزوجها وحملت منه ، ثم رفض الزواج منها .. وأن الخطيبة ابنة أستاذ فى كلية

الآداب وأنه رفع قضية تعويض على الباشا .. كان أبى مهموماً وكأن مصيبة وقعت .. وسألنى ما الخبر .. قلت له وما شأنى . فقال لى : إن موقفى حرج .. ولابد أن تأتى معى إلى الباشا وتقنعه ببراءتك .

لم يكن لى شأن بالشائعة . ولم أكن أنا مصدرها ، ومع ذلك سافرت مع أبى إلى طنطا .. ودخلت سراى الباشا .. وتذللت له .. وقدمت له فروض الطاعة والولاء .. وكأنى لست أكثر من ابن خادمه الذى جاء يركع أمامه ويهيل التراب على رأسه طلباً للرحمة والغفران على خطأ لم يرتكبه فى حق سيد والده . كان موقفاً حقيراً مهيناً ، ولكنى رضيت به من أجل أبى .. لأنى تعلمت منه أننا لا نستطيع أن نحيا بغير التذلل وقبول الإعانة .. يومها صدقنى مكى باشا ، أو لعله تظاهر بذلك ، وقال إن السياسة قاسية وكل شىء فيها مستباح .. ثم نظر إلى فى استخفاف وقال : نحن نظلم هذا الشاب إذا تصورنا أنه ذلك الشيطان الرجيم الذى يستطيع أن يروج هذه الشائعة .. إن مروجها هو صدقى باشا الداهية .. لحظتها غضبت . نعم غضبت رغم أن الذى يقبل الذل والإهانة لا يغضب من شىء .. ودق قلبى بعنف .. وقلت لنفسى .. ولم لا أكون شيطاناً رجيماً .. حتى أسحق كل البشر الذين يفرضون علىّ وعلى أبى الذل والمهانة ، ودق قلبى بعنف . وقلت لصوت الشر يتردد فى أعماقى .. إنى أحكى لك هذه الحكاية حتى تعاملنى بصبر .. ولتفهم إنى عندما سمعتك تتهمنى .. وجدت الموقف الذى حدث منذ أكثر من ثلاثين عاماً يتكرر .. خيل إلى أنك تريد منى أن أذهب معك إلى الباشا دياب لأقنعه ببرءاتى وأتذلل له ..

خيل إلى وكأن الذى يخاطبنى هو أبى .. عاد من قبره يطلب منى أن أهين نفسى .. رأيت أبى .. وعندئذ قلت ما قلته عن أبيك .. إنى فى الحقيقة لم أرسوى نفسى .. لم أرسوى أبى .. أنت أيضاً لا تعرف أبى .. وأقول لك إنه كان مهرجاً رخيصاً .. كان يعيش على فتات موائد أعيان الغربية .. كانوا يسمونه الشيخ إبليس .. ولا أستبعد أنهم كانوا يتسلون فى

سهراتهم بصفعه على قفاه .. نعم هذه هى الحقيقة .. أقولها لك حتى تفهمنى وتعذرنى .. وحتى لا تخلط بين ظروفك وظروفى .. إن حياتى كانت قاسية .. ولم يكن لى أب أتحمس للدفاع عنه كما تفعل أنت .. إنى أحسدك على طفولتك .. أمثالنا لم يعرفوا هذه الطفولة أبداً ، ويجب أن تقدر أنى رغم ذلك حريص على صداقتنا . حريص على مشاعرك . حريص على علاقتى بك . أنت توافقنى على أن صداقتنا ليست فيها مصلحة شخصية من أى نوع .. وليس هناك مكسب أسعى للحصول عليه من ورائها .

وسكت عبد الهادى وقد شعر بإرهاق .

وهمس يوسف :

ـ أنا آسف ..

قال عبد الهادى فى أسى :

ـ كلانا آسف ..

قال يوسف والكلام يخرج مندفعاً على الرغم منه ..

ـ لو عرفت حقيقة ما كان بينى وبين أبى لما حسدتنى . ذات يوم اتهمته أمى بأنه يريد أن يتزوج أرملة صديق له .. وسمعتهما يتشاجران .. فهجمت عليه أريد أن أخنقه بيدى كنت أحبه وأكرهه .. وعندما مات كنت أشقى مخلوق فى الدنيا . وكنت أسعد مخلوق .. حزنت عليه ولكننى لم أبكه .. كنت أقول لنفسى لقد تخلصت منه .. تخلصت من محاسبته لى .. من ملاحقته لكل هفوة .. لاتهامه المستمر لى بالغباء .. كان يحاكمنى فى كل لحظة .. ويتهمنى فى كل لحظة .. وأنت على حق .. إنه ما زال يركب فوق كتفى .. نعم إنى أشعر الآن بثقله فوق كتفى كيف لم أتنبه لذلك من قبل .. إن هذه اللحظة هامة فى حياتى .. ولابد أنى سأتغير بعدها .. سأفعل شيئاً .. لا أدرى الآن ما هو ولكنى سأتخلص من هذا الحمل .. أما ما ظننته أنى أريد منك أن تذهب وتعتذر لدياب فهذا غير صحيح ..

لم يخطر ببالى أبداً ..

تجاهل عبد الهادى حديث يوسف عن أبيه .. ولم يفطن إلى خطورته .. كان مهتماً بالنتيجة العملية التى وصل إليها ، وهى أن يوسف قد هدأ واعتذر له .. فواصل هجومه وقال معاتباً :

ـ أنت الذى كنت ترفض أن تحكم على أحد بخير أو شر .. اتهمتنى فجأة وحكمت على ..

قال يوسف منكراً :

ـ لا .. أنا لم أفعل هذا ..

قال عبد الهادى :

ـ بل فعلت ..

وارتفع صوت يوسف سائلاً :

ـ كيف ؟ ..

فارتفع صوت عبد الهادى فوراً :

ـ ألم تقل إنى تصرفت تصرفات مشينة ..

ثم عاد عبد الهادى يكرر ..

ـ مشينة .. هذه هى الكلمة التى قلتها .. مشينة .. أليس هذا اتهام أليس هذا حكم .

فارتبك يوسف وقال بلهجة اعتذار :

ـ لم أقصد هذا .

فهتف عبد الهادى :

ـ لابد أنك لم تقصده .. إن ما بيننا يسمح لى بطلب أن تكف فى الحال عن مثل هذه الاتهامات ..

ونهض عبد الهادى قائلاً :

ـ اسمع .. لن نستمر فى هذا أنا متعب الآن .. ولكن بينى وبينك حديثاً طويلاً .. سأقابلك فى المساء بالجريدة .. ولسوف تذهب معى إلى بيت نور

الدين .. سنكون معاً كما كنا دائماً . أما دياب فكما قلت لك .. لا شأن لك بما بينى وبينه .. فأنا كفيل به ..

وخرج يوسف من بيت عبد الهادى وقد ألح عليه خاطر يهمس له .. أنه لابد فاعل شيئاً .. ليتخلص من حيرته ومن تلك الآلام التى تمزق نفسه ..

وفى المساء دخل يوسف مكتب عبد الهادى فرآه قلقاً على غير ما كان يتوقع . ولم يحاول عبد الهادى أن يخفى قلقه .. وأشار بيده إلى الحجرة الخالية . وقال ليوسف :

ـ أنظر .. هذه الحجرة التى لم تخل أبداً فى هذه الساعة من زوار .. ومن داخلين وخارجين .. أصبحت كقبر .. ثلاجة فى مشرحة .. وأنا داخلها حتى التليفون لا يدق .. لم أقابل منذ ساعة سوى عم صالح .. كدت أطلب منه أن يجلس معى ، ليؤنسنى فى وحدتى .. أما المحررين فقد هربوا .. الفئران تهرب من السفينة الغارقة .. وطلبت حسن زيدان مرتين .. فكان يتهرب منى .. ثم علمت أنه فى اجتماع طويل مع دياب .. لعلهم يناقشون أمر ترتيب جنازتى وتشييعى إلى مقرى الأخير . لابد أنه يستعد لإبلاغى قراره الليلة ، إنهم مولعون بتبليغ هذه القرارات بعد منتصف الليل .. أو ربما فى الفجر .

قاطعه يوسف وقد انتقلت إليه عدوى القلق ..

ـ وماذا ستفعل ؟

قال عبد الهادى فى تهكم لا يخلو من مرارة ..

ـ لا شىء .. الجريدة ستصدر بأخبار ومقالات لا أعرف عنها شيئاً ، المانشتات أعدوها فى غيبة عنى .. الأستاذ همام نشط فجأة .. وجاء إلى مكتبه لأول مرة فى الليل .. لعله يفكر فى أن يكون رئيساً للتحرير مكانى .. كل شىء معد للمشهد قبل الأخير ..

قال يوسف متسائلاً :

ـ قبل الأخير ؟ ..

هتف عبد الهادى ضاحكاً :

ـ نعم .. قبل الأخير .. لأن الأخير سيكون من ترتيبى أنا .

ـ وتفرس فى يوسف باسماً وقال :

ـ يبدو عليك أنك لا تصدقنى ..

قال يوسف فى هدوء :

ـ فى الحقيقة لا .. إن الموقف خطير فعلاً ..

وسكت عبد الهادى ، وقد صدمته كلمات يوسف .. ثم قال بصوت ضعيف :

ـ على أية حال .. سوف نذهب إلى بيت نور الدين ..

ولم يستطع مواصلة حديثه . فقطعه فجأة سائلاً :

ـ هل طلب منك أن تقطع صلتك بى ؟

تجهم وجه يوسف وقال :

ـ لا أحد يستطيع أن يطلب منى هذا الطلب .

فقال عبد الهادى :

ـ ولو طلب منك أن تمتنع عن رؤيتى .

فقال يوسف بسرعة :

ـ إن صداقتى بك لن تنقطع أبداً .

فقال عبد الهادى :

ـ لا داعى لأن تندفع معى إلى حد الحماقة .. انظر كيف يتصرف حسن !

قال يوسف :

ـ لا شأن لى بتصرفاته ..

قال عبد الهادى :

ـ إنه أعقل منك ..

قال يوسف :

ـ أعرف هذا ..

ودق جرس التليفون .. وكان لرنينه صدى كئيب فى الحجرة .. كأنه نحيب .. ورفع عبد الهادى السماعة . وإذا بالمتكلم دياب .. كان حديثه سريعاً خاطفاً .. وأعاد عبد الهادى السماعة مكانها .. وقال ليوسف بصوت غلبه القلق :

ـ إنه قادم .. يريد أن يزورنى فى مكتبى ..

ونهض يوسف لمجرد سماعه النبأ ..

فصاح عبد الهادى بلهجة آمرة :

ـ اجلس .. ستحضر هذا اللقاء ..

جلس يوسف على الفور .. كانت لهجة عبد الهادى الآمرة لابد أن تطاع ولكنه لم يكد يجلس حتى دق جرس التليفون من جديد ، وأسلمه عبد الهادى السماعة فهناك من يطلبه .

وسمع يوسف صوت دياب يسأله هاتفاً :

ـ أين أنت .. إننا نبحث عنك فى كل مكان .. تعال إلى مكتبى فوراً .

وضع يوسف السماعة .. وقال لعبد الهادى :

ـ إنه يطلبنى .

قال عبد الهادى ساخراً :

ـ إذاً « الوداع » .

وغادر يوسف الحجرة ، ذاهباً إلى دياب ..

ديـــاب

طال انتظارنا للمعركة التى خاضها عبد الهادى النجار .. عندما صدر قرار تنظيم الصحافة المصرية ، وتحولت جريدة العصر الجديد إلى مؤسسة صحفية يملكها الاتحاد القومى ويرأس مجلس إدارتها ضابط الثورة أحمد عبد السلام دياب ، ولابد لنا الآن من وقفة سريعة نتعرف بها على جوانب من شخصية دياب .. لقد عرفه الكثيرون وتحدثوا عنه بقصص مختلفة ، وتضاربت وجهات النظر فيه . ولكن الكاتب يسجل أن الجميع اتفقوا على حقيقة واحدة ، وهى أنه ابن بلد ، وعلى الرغم من أن أحداً منا لا يعرف ما المقصود على وجه الدقة بهذا الوصف .. ابن البلد .. لأنه وصف شائع ودارج إلى درجة الغموض إلا أن بعض الخصال تخطر على البال عند ذكر أن فلان ابن بلد . منها أنه شهم وطيب القلب إلى أقصى درجة . وأن الكلمة الحلوة تأسره . وأنه مجامل وعاطفى . ولكن لا يعنى هذا أن الذين عرفوا دياب لا يقولون عنه إنه مندفع إلى درجة التهور أو الحمق وأنه يتصرف أحياناً كما لو كان معجباً بنفسه ، وأنه إذا غضب أصبح شريراً أسود القلب ، وأنه سريع

الغضب من كل ما لا يفهمه فى تصرفات الناس أو أقوالهم . ولاشك أن كل هذه الأحكام على شخصية دياب ، سواء ما كان ضده ، مبالغ فيها لأن الناس فى العادة يميلون إلى المبالغة لتوضيح أحكامهم أو تأكيدها دون أن يهتموا كثيراً بدقة الوصف وانطباقه على الواقع الذى يصفونه . فضلاً عن أن أهمية شخص مثل دياب تدفع الناس لا شعورياً إلى استخدام صيغة المبالغة فى الحديث عنه أو الحكم عليه .

فالرجل الهام فى نظرهم لابد أن يكون هاماً فى طيبته أو هاماً فى قسوته أو شره .. وعلى أية حال لا يبقى فى أذهان الناس ومشاعرهم من هذه الأحكام عن دياب إلا أنه شخصية هامة لها سلطة وقوة .. فهو خير عظيم .. وإذا جاء منها شر . فهو شر عظيم .

وينبه الكاتب إلى أن دياب لا صلة له بأية عائلة مشهورة تحمل هذا اللقب . وهو تنبيه ضرورى لأن كثيرين قد خيل إليهم أن الرجل لابد أن ينتمى إلى عائلة كبيرة لأنهم ما زالوا فى قرارة أنفسهم لا يتصورون أن شخصاً ما يكون له نفوذ أو سلطة فى هذا البلد دون أن ينتمى إلى عائلة كبيرة .

وكم عانى دياب من هذا السؤال التقليدى :

- ألست قريباً لعائلة دياب فى الصعيد . أو عائلة دياب فى بحرى ؟

فكان يرد فى عصبية إنه لا ينتمى إلى هؤلاء . وكانت حالته العصبية ترجع إلى ما كان يدور فى نفسه من همس . بأنه كان يتمنى لو كان رده بالإيجاب وأنه فعلاً من عائلة كبيرة .

وكان هذا الهمس يضايقه لأنه يتنافى مع ما يجب أن تكون عليه أفكار ومشاعر رجل ثورة تحارب إقطاع العائلات الكبيرة . وهناك لحظات قلق يمر بها دياب . وذلك عندما ينفى صلته بأية عائلة كبيرة . فيصمم محدثه على أنه لابد أن تكون له صلة بإحدى عائلات دياب المعروفة .. صلة ولو من بعيد . عندئذ يفقد دياب قدرته على المقاومة . ويجيب محدثه « ربما .. الله أعلم » ثم يشعر بعد هذه الإجابة بما يشبه وخز الضمير ولكنه يسكت وقد تحول قلقه إلى

شعور بالضيق . ولقد كان عبد السلام دياب .. والد أحمد موظفاً بإدارة المستخدمين بوزارة الزراعة .. مات وهو فى الدرجة السادسة . بعد أن كافح كفاحاً مريراً من أجل أن يكمل تعليم ابنه أحمد أصغر أولاده الثلاثة . أما الشقيقان الآخران فلم يكملا تعليمهما وأكبرهما كان يعمل كاتباً فى إدارة الجنايات بوزارة الداخلية .. ثم اشتغل فى وظيفة إدارية بالمخابرات باعتباره شخصاً موثوقاً به لأنه شقيق أحمد .. ثم أصبح عضواً بارزاً فى هيئة التحرير ومن بعدها الاتحاد القومى . أما الشقيق الثانى فكان قبل الثورة عازفاً محترفاً للكمان فى صالات عماد الدين .. وكان يعمل فى الصباح كاتباً على الآلة الكاتبة فى شركة أمريكية للبترول .. ثم سافر إلى الكويت وعاد منها ومعه مال وفير وعربة مرسيدس وعقود استيراد وتصدير . وهو ما زال يقضى أغلب وقته فى الخارج وقد شاع عنه أيضاً ، أن أعماله الواسعة وثراءه المفاجىء سببه أنه بنشاطه التجارى يقوم بدور الساتر لأعمال المخابرات فى الخارج . أما أحمد دياب وهو الشقيق الأصغر الذى أكمل تعليمه فقد دخل الكلية الحربية بوساطة النائب الوفدى حسن بك كامل .. الذى كان يعطف على عبد السلام والد أحمد لإعجابه بكفاحه الفريد من أجل صنع حياته . فقد خرج عبد السلام من قرية « ب .. » فى الدقهلية معدماً لا يملك شيئاً غير ساعديه ..

وانتهى به الحال فى القاهرة إلى اشتغاله ساعياً فى البنك السويسرى .. وكان من أهم مميزاته قدرته على ركوب الدراجة لتوصيل مراسلات البنك ، وقد أصيب صدره بالربو لركوبه الدراجة فى الصباح الباكر فى أيام الشتاء الباردة ، ولازمه الربو طوال حياته حتى مات به .. وقد اهتم مدير البنك وهو رجل سويسرى بعبد السلام .. عندما وجده مهتماً بتعليم نفسه .. واستطاعته التقاط اللغة الفرنسية بذكاء نادر .. فعطف عليه وشجعه حتى حصل على شهادة الكفاءة .. ثم تقرر نقل المدير السويسرى إلى جنيف .. وقبل أن يغادر القاهرة سأل عبد السلام عما يريد أن يقدمه له من خدمة .. فطلب منه أن يساعده ليلتحق بوظيفة فى الحكومة . وكان النائب الوفدى حسن بك

كامل يزور المدير السويسرى ليودعه فسمع منه قصة عبد السلام ابن دائرته الانتخابية فى الدقهلية .. فتحمس لتلبية رغبة عبد السلام أو على الأصح لتلبية رغبة صديقه المدير السويسرى .. فتوسط له وعينه فى وزارة الزراعة . وعندما حصل أحمد على التوجيهية كاد الأب أن يجن من الفرح . وذهب إلى حسن بك وطلب منه مساعدته على إدخال ابنه الكلية الحربية .. وهكذا أتيحت الفرصة لأحمد عبد السلام دياب أن يشترك فى ثورة ٢٣ يوليو .. ويعود الكاتب إلى تنبيه القارىء إلى أن هذه المعلومات قد سمعها من حسن بك كامل وهو المسئول عن صحتها . ولاشك أن هذا الرجل الوفدى القديم لا يستريح إلى الثورة ولا إلى رجالها . ولقد سمع عبد الهادى النجار نفس هذه المعلومات من حسن كامل .. أثناء سعيه لجمع أكبر قدر من المعلومات يستطيع أن يتحصل عليه عن دياب وعائلته وطفولته وخباياه النفسية والحوادث الطريفة التى وقعت له ، وذلك حتى يحيط بخصمه إحاطة كاملة قبل أن ينازله ، فلاشىء أهم من جمع المعلومات عن الخصم واستغلال هذه المعلومات للتوصل إلى ثغرة

ضعيفة فى شخصه يسدد إليها ضرباته فى الوقت المناسب . فالصراع كما يراه عبد الهادى ليس صراع مبادىء أو شعارات . إنه صراع أشخاص .. وقتال بين شخصيات .. والحديث عن المبادىء فى ظاهره مجرد قنابل دخان لتغطية المعركة الحقيقية بين إرادات الرجال . إن مناقشة المبادىء سفسطة .. ولا تنتهى إلى شىء .. فلا أحد ينهزم أو ينتصر فى مناقشة .. ولا أحد يقتنع أو يغير رأيه بعد جدل وحوار .. المهم هو أن يكون الرجل قادراً على إذلال خصمه . أن يكون قادراً على كسره وتحطيم معنوياته ، وسحق نفسيته ، هذه هى المعركة الحقيقية . وهى فى نفس الوقت المتعة والنشوة الحقيقية ، ومن بين المعلومات التى يرددها بعض زملاء دياب الذين عرفوه فى المرحلة الثانوية أو فى الكلية الحربية ، أنه كان رياضياً ، وكان ظهيراً لفريق الكرة ، وروى سعد الدين كرامى المدير العام بوزارة التموين فى سهراته ببيت نور الدين ، ما يعرفه عن دياب أيام زمالتهما فى الخديوية ، ومن بين القصص التى رواها .

أن فريق كرة القدم فى مدرسة الخديوية .. دخل المباراة النهائية على الكأس ضد السعيدية .. فانهزم وجاء دياب إلى المدرسة فى اليوم التالى ، وقال مفاخراً .. إنه انتقم لشرف فريقه بأن كسر ساق « حودة » لاعب السعيدية بعد أن سجل هدف الفوز .. وعلق كرامى على القصة التى رواها بأن هذا هو ما نحن فالحون فيه ، فليس المهم أن نسجل أهدافاً وننتصر . إنما يكفينا أن

نرتكب الفاولات . ونتباهى فى هزيمتنا بأننا كسرنا ساق لاعب ممتاز مثل حودة .. الذى كان من الممكن أن يكون بطلاً من أبطال كرة القدم فى العالم .. فاضطر إلى اعتزال اللعب بعد أن تهشمت ساقه بفضل عبقرية الأخ دياب وغيرته على شرف فريقه .. وهذه القصة بالذات استغلها عبد الهادى أوسع استغلال .. عندما أشاع أن دياب أشبه بالدبة التى تقتل صاحبها .. محذراً من عواقب التعامل مع رجل مثله .. ويروى أحد لواءات الجيش المتقاعدين قصة دياب فى طابور الكلية الحربية .. وكان الطلبة يخرجون فى الساعة السادسة صباحاً وحتى الساعة السادسة مساء دون أن يسمح لهم بفترة راحة قصيرة .. يذهبون فيها إلى دورة المياه .. والذى حدث أن دياب تبول على نفسه ذات مرة وهو واقف فى الطابور قبل الانصراف بدقيقة واحدة ولقد كان لهذا الحادث أثره فى نفسية دياب .. إذ جعله يتأرجح فى علاقاته بزملائه بين نقيضين .. فهو أحياناً حاد عصبى مهاجم .. وهو أحياناً لين هادىء وديع ومجامل . ولقد اهتم الكاتب بمناقشة هذا اللواء العجوز فى حكمة تعذيب الطلبة على هذا النحو الشاذ بمنعهم عن قضاء حاجاتهم لاثنتى عشرة ساعة كاملة .. فسخر منه الضابط الكبير واتهمه بأنه بعيد تماماً عن فهم العسكرية بمعناها الصحيح . وقال له إن هذا الذى يتوهمه الكاتب على أنه تعذيب هو فى حقيقته رحمة بالأولاد وحرص حقيقى على حياتهم .. فما قيمة مثل هذا العذاب أمام أهوال الحرب الحقيقية .. إن الجندى الذى يعرض حياته للموت عليه أن يتحمل كل أنواع العذاب .. عليه أن يواجه كل ألوان المضايقات .. ليس فقط الحرمان من التبول .. بل القدرة على أن يأكل طعاماً مليئاً

بالصراصير والحشرات والقدرة على تنفيذ الأوامر بغير تردد مهما كان هذا الأمر وبغير تفكير .. لأنه لو لم يتدرب على تحمل العذاب .. ولو لم يتدرب على تنفيذ الأوامر بغير مناقشة أو تفكير ، سيتعرض أثناء القتال للحظة يواجه فيها الموت ، يتقدم فيها إلى مواقع تنطلق منها نيران القنابل والرشاشات . وعندئذ لو فكر وتردد لحظة واحدة .. سيصاب بالشلل وسيعجز عن التصرف .. وهذا

هو أسرع طريق للموت . وليته يكون موته وحده .. فقد يؤدى عجزه أو تردده إلى إشاعة العجز فى آخرين وبذلك تباد سرية بأكملها أو كتيبة بأكملها إن الموت الذى يحير الناس ويرهبهم .. لا يقاوم بين العسكريين بالفلسفة والمناقشة .

إنه يقاوم بإلغائه تماماً من العقل .. وبإحلال الأمر الصادر من القيادة محل أى منطق أو تفكير واستطرد اللواء شارحاً .. أنه كان يسأل طلبته فى الكلية الحربية أسئلة سخيفة . ويطلب منهم أن يجيبوا عليها إجابات أسخف حتى يعتادوا على تنفيذ الأوامر فى مواجهة الموت . إنه موقف يصعب على المدنيين فهمه ، لأنهم لا يواجهون الموت ويقضون حياتهم فى البحث عن الأمان منه حتى تجىء ساعتهم .. أما الجندى فهو لا يسعى وراء الأمان إنه يعيش فى مواجهة الخطر .. وهكذا تعود العسكريون على تنفيذ الأوامر واعتبارها شيئاً مقدساً .. لأنه يتوقف على قداستها الحياة أو الموت بالنسبة لهم كأفراد والحياة أو الموت .. أى النصر أو الهزيمة بالنسبة للوطن والأمة .. ولأنهم يعلمون أن هدم الانضباط العسكرى .. هو هدم للعسكرية وللقدرة القتالية ..

وأضاف الرجل العسكرى المخضرم قائلاً إنه عرف بين طلبته من الضباط نوعين : نوعاً هادئاً ونوعاً آخر صاخباً شرساً ومشاكساً له مغامرات ونزوات ، فأما النوع الأول فهو شخصياً لا يطمئن إليه .. لأنه لا يعرف ماذا يخفى وراء هدوئه الظاهر كما أنه يعرف ذلك بخبرته العملية وقد شارك فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . أما النوع الثانى من الضباط الذى يستريح له ، فهو النوع المشاكس المشاغب بخبرته الذى لا يتردد أمام المغامرات من أى نوع وتراه يغزو الصالات والكباريهات وقد يتورط مع راقصات .. وقد تكون مظاهره

سيئة .. ولكنه فى أعماقه جندى مقاتل حقيقى .. قلبه مفتوح . وليس فيه ما يخفيه ، لأنه يعيش وقلبه على كفه .. يعيش لساعته وهو على استعداد لأن يموت غداً أو فى اللحظة القادمة .. إن نفسيته وتصرفاته تؤكد لك أنه مستعد لأن يفعل أى شىء .. لأنه لا يضمن حياته ولا يهمه أن يضمنها ولو ساعة واحدة . إن المدنيين يلومون مثل هذا النوع من الضباط . وهم مخطئون لأن هؤلاء هم القادرون على اقتحام النيران . وأحمد عبد السلام دياب فى رأى الضابط صاحب هذه الآراء ينتمى بطبيعته للنوع الأول . إذ به ميل إلى الدروشة والإفراط فى التعبد .. ولكنه يقاوم نفسه ، وله قصة معروفة أيام خدمته فى السويس قبل الثورة .. فقد كان يذهب بصحبة بعض زملائه إلى كباريه هناك .. ووقع فى غرام راقصة اسمها نزهة كانت مشهورة ومر بها عشرات من الضباط وكانت لهم معها صولات وجولات ، وأطلق أحدهم النار بسببها فى الكباريه مما اضطر إلى منع الضباط من دخوله لفترة طويلة . ولكنهم عادوا إليه وكان معهم دياب الذى وقع فى الغرام .. ولم يحاول أن يقربها ، وكل ما فكر فيه هو أن ينقذها من حياة الدعارة .. وكان يصدق « نزهة » وهى تقول له إن ما تفعله هو وعد ومكتوب عليها ، والمكتوب على الجبين لابد أن تراه العين إلى آخر هذا الكلام الذى تعودت ترديده لزبائنها الذين تكتشف فيهم الطيبة والميل إلى الدروشة .. واستطاعت أن تسيطر تماماً على دياب .. وكانت تتمتع معه بلحظات نادرة تملأها بهجة نفسية نادرة . فهى تتحدث معه عن وعدها .. فترى فى عينيه الطيبتين حناناً وشهامة واستعداداً معجزاً لتصديقها ولبذل نفسه من أجلها . كانت ترى مشاعره تفور كما يفور اللبن وهو يغلى .. فيتهدج صوته .. ويرتعش طرف أنفه وتقلق أنفاسه . وتكاد تجزم أنه يوشك أن يعرض عليها الزواج بعد أن تعلن توبتها ويعيش معها فى التبات وينجب منها صبيان وبنات . وكانت أحياناً تصدقه أو على الأقل تصدق تلك الرغبة العنيفة التى تجتاحه لإنقاذها ، ولكنها فى الأغلب لا تحتمل مواصلة التفكير فيها .. فتقسو عليه ، وتلقبه بسيدنا الشيخ .. ومع ذلك كانت

تدافع عنه بضراوة إذا ما رأت أصحابه يشاركونها فى السخرية منه . فتحيط كتفه بذراعيها وهى واقفة خلفه .. وتشب على قدميها لتقبله فى رأسه وهى تردد فى حرارة أنه أفضلهم جميعاً .. وأنه لولا وجود أمثاله لا نهدمت الدنيا على من فيها وتحولت إلى أنقاض . ولقد أسقط فى يد زملاء دياب الذين عرفوا جميعاً نزهة .. وكانت لهم بها علاقات لم يعرف مثلها دياب ، وخشوا أن يتورط معها وقد يتزوجها .

ولم يكن يعنيهم أن يتزوج راقصة .. فغيره قد فعلها . كان الذى يعنيهم ألا تخدعه نزهة وهو واحد منهم .. فقد تتزوجه وتحوله إلى شخشيخة فى يدها ، وقد تقضى عليه وتصيبه بصدمة تؤدى به إلى الجنون ، وخاصة أنه بدأ يكثر من شجاره مع أصحابه ، ويحاسبهم على تصرفاتهم معها فى الكباريه .. فتدخل ذلك النوع الثانى من الضباط ، النوع المغامر الجرىء ، وقرر أن يحسموا هذه المشكلة على طريقتهم .. فكل هذا الذى بين دياب ونزهة مضيعة للوقت وتبديد للجهد .. وميوعة غير مقبولة .. وهذه الهموم التى ركبت دياب مصدرها شعور بالكبت يحاول أن يقاومه فينغص حياته كما ينغص حياة أصحابه .. والحل بسيط . وهو أنْ يجمعوا نزهة ودياب فى غرفة بها سرير ..

وهكذا تنتهى المشكلة ، فيهدأ دياب وتبرد أعصابه .. ويكف عن هذه السفسطة التى يلوكها . كما تلزم نزهة حدودها .. فتكف عن هوايتها باللعب بأعصاب دياب والتمتع بتلك المشاعر الخرافية التى يغدقها عليها . والتى لا تجسر على أن تطلبها من أحد غيره . وهكذا دبروا خطة فانتهزوا فرصة غياب دياب فى القاهرة وأقنعوا نزهة بأن تشاركهم فى حفل يقيمونه فى مسكن واحد منهم .. وحددوا موعد الحفل فى نفس الليلة التى سيعود فيها دياب إلى السويس واستقبلوا نزهة بالترحاب الكبير .. وأسرفوا فى الشراب .. ولم يتركوها حتى ثملت .. وهو أمر ليس من السهل تحقيقه . فنزهة تبتلع ما تشاء من الخمر .. دون أن يهتز لها رمش ، ولكنهم خلطوا لها الخمر ، وأسرفوا فى مديحها ومجاملتها حتى امتلأ رأسها ودار بالإطراء والنشوة .. وبدءوا فى

إقناعها بأن ترقص رقصتها المشهورة وهى تتجرد من ثيابها قطعة قطعة ووافقت نزهة.. فلم تكن تجد غضاضة فى ذلك بل هى تمتلىء بالسرور وهى تراقب نظرات الإعجاب تزداد اتساعا ونهما وقد أسرها جمالها . وهى تنتشى كلما اشتدت صيحات الانبهار .. وتـأججت تأوهـات النشوة والانبهـار بمفاتنها .. وهكذا تزداد ثقة بنفسها .. وتزداد شعورا بأهميتها وسلطانها

وبدأت ترقص .. وكان ذلك إيذانا ببدء المرحلة الثانيـة من الخطة التى دبروها . فقد كان هناك من ذهب لاستقبال دياب فى عودته .. ليحضره إلى الحفل فى الوقت المناسب وكان هذا الوقت المناسب هو أن يدخل دياب ليرى نزهة ترقص عارية تماما بين زملائه .. ونجح التوقيت بصورة مثيرة .. ووقف دياب مذهولاً خارج باب الحجرة .. يرى نزهة كما لم يرها من قبل .. وقد أحاطوا بها ، يطلقون صرخات وحشية ويعوون كحيوانات مفترسة جائعة .. بينما هى ترقص مترنحة وقد دارت رأسها . وانتشت تماماً بهذه الضجة العنيفة التى أصبحت مركزها المسيطر .. كانوا يصفقون ويطبلون ويصرخون وبعضهم يتشقلب على رأسه ليرى نزهة من تحت إلى فوق . ودياب مسمر مكانه عاجز عن التقدم خطوة واحدة ولكنهم لمحوه .. فهللوا فى صيحة كبيرة . وهجموا عليه وجذبوه من يده وهو كالمنوم ودفعوا به إلى أحضان نزهة .. وأحاطوا بهما حتى دخلا حجرة النوم وأغلقوا عليهما الباب وتصورت نزهة أن هذه هى الطريقة التى اختارها دياب ليعلن بين زملائه بدء علاقته بها ، ولم تكن قادرة على التفكير فيما هو أبعد من ذلك . ولكنها استرابت عندما رأته واقفاً أمامها وقد اغرورقت عيناه بالدموع .. وحاولت أن تتذكر بصعوبة سر هذه الدموع فى هذا الوقت بالذات فحارت .. وتخلصت من حيرتها بأن طوقته بذراعيها لتقبله وقد قررت أن تمنحه كل ما يشتهى مقابل هذا الاهتمام الكبير الذى تمتعت به ، سوف تعطيه أكثر مما أعطوها ، وستكون كريمة معه من أجل هذا الانبهار الذى أحاطوها به . ولكنها فوجئت بدياب يبعدها بيده بقسوة زادتها حيرة ، وكان دياب يشعر بنفسه تتمزق ، كان مشغولاً تماماً

بنفسه لا يكاد يفسر ما يراه وما يسمعه أكثر من إنه حلم أو كابوس ، كان لا يدرى كيف يفيق منه ، ولا يدرى ماذا يفعل بنفسه ، وما الخطأ وما الصواب أحس أن شيئاً ما يحدث له ، بينما هو عاجز عن أن يقدم على أى فعل ، كأنه محروم من أهلية التصرف ، أو محروم من أن يفعل ما هو صحيح كما يرى إنه صحيح . كانت مفاهيمه الأخلاقية لا تسعفه . بينما تطن فى رأسه معان كالأشباح ، عن الأخلاق والدين والغرائز والشهوات ، وأدرك يائساً أن هذه الأشباح الغامضة لا تستطيع أن تساعده على مواجهة هذا المأزق ، رغم إنه استطاع أن يدفعها بيده فى ثبات ، وفيما يشبه الموقف الحازم المستقر الذى تقضى به الأصول والتقاليد ، وهاهى تبتسم له وتعاود إغراءه ،

وتهمس بكلمات لا يسمعها ، لأن عاطفته نحو هذه المرأة أصبحت فى هذه اللحظة طنيناً خبيثاً فى أذنيه ، وهناك صور أخبث لذكريات تتداعى من بينها وهو واقف فى الطابور وقد تبول على نفسه ، وسخرية زملائه به ، ونبضات قلبه تشتد . ومع كل دقة ينتفض وكأنها تردد فى أعماقه الأخلاق محددة ، والقيم محددة ومسالك التصرف محددة ومعدة من قبل ورسمتها أجيال وأجيال من الآباء والأجداد . لم تكن هذه المعانى واضحة تماماً ، ولكن حصيلتها هى

التى كانت تصبغ مشاعره وهواجسه بينما يشعر فى نفس الوقت بفراغ مخيف لأنه لا يستطيع أن يواجه ذلك الموقف الحقيقى الذى يهاجمه فى شخص هذه المرأة العارية ، وفى وجود هذا السرير وهذه الحجرة وبابها المغلق ، وتلك الصيحات الماجنة الساخرة التى تترامى إليه من خلف الباب فتجرده من القدرة على المواجهة ، وكأن كل ما يردده لنفسه عن الأخلاق والدين أسلحة علاها الصدأ لا تصلح ولا تصمد فى هذه الحرب ضد الضياع ، ولكن إلى متى إنه لن يستسلم ، بل إنه لا يستطيع أن يتحمل دقيقة أخرى هذا الموقف . لقد ألقوا به فى جهنم .. وعليه أن ينجو بنفسه من عذاب الاحتراق ، عليه أن ينجو من هذه المرأة التى كان واثقاً من قدرته على إنقاذها ، عليه أن يتركها هكذا عارية فى السرير ، بين زملائه الذين لن يتورعوا عن افتراسها ، وهو الذى كان

يحاربهم من أجل حمايتها ، ومن أجل انتشالها من براثنهم . لا مفر من الابتعاد رغم ما فى هذا الابتعاد من حسرة ومرارة قد لا ينجو من آثارهما أبداً . إنه لم يعد يدرى ما الذى يتجه إليه وهو يبتعد . هل ينقذ الأخلاق أم ينقذ نفسه هل ينقذ الدين أم ينقذ نفسه .. ولكن هاهو يفتح الباب ، ويقتحم أجساد أصحابه ، يقتحم وجوههم الضاحكة وعيونهم الحمرة الساخرة ، يقتحم الصيحات والضجيج والسواعد والأيدى المتشابكة يكاد يقتحم ملابسه وجلده ، حتى يخرج من هذا المكان .. ورأى نفسه فى الشارع وأحدهم يلازمه ويذهب .. إلى بيته ، لا يريد أن يتركه . وهو لا يريد منه أن يتركه فالفراغ فى أعماقه مخيف .. مخيف .. ولا مجال لكلمة ، أو فكرة ، أو تبرير لتصرفه ..

ولقد عرف عبد الهادى النجار شيئاً عن علاقة دياب القديمة بنزهة وإنه فكر فى الزواج منها يوماً ما ، وعرف أن هناك أغواراً فى نفس دياب ، لن يكون من السهل عليه أن يتعامل معها لأنها غامضة . فما الذى يدفع برجل إلى الاندفاع فى غرام حقيقى براقصة كباريه ، وما تلك النفس التى تصدق إنه من الممكن إنقاذ عاهرة .. وما تلك المشاعر التى تجعل الإنسان قابلاً للدروشة .. إنها قد تكون مشاعر عجز .. ولكنه نوع غامض من العجز لا يستطيع أن يفهمه أو ينفذ إليه ، إنه عجز يكاد يحمى صاحبه ، لقد كان الشخص المجذوب صاحب قوة رهيبة دائماً ، رغم عجزه الظاهر ، ربما لأنه عجز يمنع صاحبه من التعامل مع الآخرين بوسائلهم المتعارف عليها ، ويدفعه إلى الانطواء على نفسه ، مما يجعل أعماقه مبهمة لا يعرفها أحد ، ولا يتوقعها أحد بل إن صاحبها لا يكاد يعرف ماذا سوف يسلكه من تصرفات ، فهى تنطلق منه فجأة ، ولا تكاد تتبينها حتى تراها قد وقعت بالفعل ، إن رجلاً مثل دياب قد يعامل عبد الهادى النجار باحترام بالغ ، وقد يهجم عليه ويصفعه على وجهه فى لحظة مجنونة ، وموقف عصبى مثير ، كل شىء متوقع ، وأى شىء متوقع . فلا ضمان معه ولا أمان . وهو فى نفس الوقت محصن ضد الشكوى من

تصرفاته ، لأنه ما من أحد يعرفه بين رؤسائه سوف يسمع ما فعله دياب ، حتى يهز رأسه باسماً ، وقائلاً : هذا هو دياب ، له أحوال مفاجئة وتصرفات تبدو شاذة ، ولكنه فى قرارة نفسه رجل أصيل طيب القلب ، نزيه أخلاقه عالية ونادرة فى هذا العصر . فإذا كان عصبياً ، أو تصرف بحماقة وتهور فذلك لأن النذالة تستفزه . والنفاق يثير نفوره ، وهو ثائر مخلص لمبادئه ، ومثله لابد أن تتحمله ، وكان عبد الهادى يكاد يجزم أن هذه هى الكلمات التى سوف يسمعها إذا ما حاول أن يشكو دياب ، أو يثير رؤساءه ضده . ولذلك كان من الأفضل أن يتظاهر بأنه يتحمله ، بل إنه يبذل جهوداً جبارة من أجل تحمله ،

ولكن هذا لا يكفى لابد أن يعمل فى نفس الوقت على مد الحبل لدياب ليشنق به نفسه ، عليه أن يمهد له كل السبل لكى يتورط ويتهور معه ومع غيره ، عليه أن يستثيره خفية وبطريقة غير ملموسة ، حتى يجعله يرتكب الحماقات بعد الحماقات ، وحتى يجد رؤساؤه ألا فائدة فى مواصلة الاعتماد عليه ، وعندئذ يسقط دياب ويلجأون من جديد إلى عبد الهادى وعليه فى نفس الوقت أن يؤكد لرجال الثورة إنه لا يسعى إلى عودة الإقطاع ، وإن كان لا يرحب بنظام حكمهم ، وهذا يتفق تماماً مع رؤيته وتفسيره الذى يرضى به ، وهو أن الثورة قلبت نظاماً ليحل محله نظام هو فى حقيقته لا نظام ، تختلط فيه القيم ، وتختلط الطبقات كما يختلط الحابل بالنابل ، وهذا الاختلاط يناسبه تماماً . ويتيح له فرصاً أكبر من غيره فى الحركة والتفوق والنفوذ . ولذلك فهو لا يريد القضاء على هذا اللا نظام ، حتى ولو كان يهاجم أفراده أمثال دياب ، إنه يهاجم أفراد الثورة بقصد الإبقاء على الوضع كما هو عليه ، لأن هذا الوضع إذا ما تغير فإن وظيفته تنتهى وأهدافه تصبح غير قائمة . إنه عدو لأية محاولة لخلق نظام جديد حقيقى يخرج من هذا اللا نظام القائم . إنه عدو لأية محاولة للوصول بالثورة إلى نظام مستقر ، حتى تظل المعركة التى يخوضها بلا نهاية وبلا نتيجة ، وبهذا يمنع نهايته ، ويمنع النتائج التى قد تحدث لـه ، والتى لا يطمئن إليها بكل تأكيد . إن بقاء الفوضى ، وبقاء معارك الأفراد ، هو دعامة

بقائه وعدم انكساره . من أجل هذا .. لابد أن تكون معركته مع دياب ، عملية جراحية دقيقة ، مثل العملية التى يجريها الجراح فى إنسان العين . إنها معركة تحتاج إلى فن كبير وهى رغم خطورتها لا تخلو من الطرافة .



أسـرار يعرفها

حسـن زيـدان

ما كاد يخرج يوسف من مكتب عبد الهادى فى طريقه إلى دياب ، حتى انقض عليه عم صالح الأخرس ، متجهم الوجه ، صارم النظرات ، وأمسك بذراع يوسف بقوة ، وعيناه تفتشان فى عينى يوسف ، قائلاً :

- هل صحيح ما سمعته ياأستاذ .. أنا لم أصدقهم .. ولكنى أريد أن أسمع منك .. فهل هو صحيح ؟

كان يوسف يواجه نظراته فى دهشة وارتباك .. فضاقت عينا صالح ، وضغطت أصابعه على ذراع يوسف قائلاً :

- إذن فقد فعلتها .

همس يوسف :

- ماذا فعلت يا عم صالح .

صاح عم صالح :

- تسألنى أنا .. اسأل نفسك .. إن الجميع يعرفون .

كان يوسف قد بدأ يسترد نفسه فسأل :

ـ ما الذى يعرفونه ؟ .

قال عم صالح وهو يهز رأسه مستنكراً :

ـ أنت الرجل الطيب .. تقبل أن تجلس مكان الأستاذ عبد الهادى صديقك وحبيبك .. وأخوك الكبير .

صاح يوسف منكراً :

ـ من قال هذا !؟ .

فقال عم صالح :

ـ أنا عجوز .. ولكنى لا أخرف .. كل المحررين يقولون إن رئيس مجلس الإدارة أخذك معه هذا الصباح إلى مكتبه وعينك مكان الأستاذ عبد الهادى .. وأنك قبلت ..

وهز عم صالح ذراع يوسف بعنف وهو يسأله :

ـ هل ترضى أن تجلس على مقعده ؟ .. لو رضيت .. فأنا لن أرضى أن أدخل عليك هذه الحجرة .. لا أستطيع أن أرى شخصاً آخر غير الأستاذ عبد الهادى جالساً على مقعده .. أقدم له قهوته ..

هتف يوسف وهو يبتسم ، وقد زال عنه ارتباكه .. وتحول الموقف إلى نكتة سخيفة :

ـ هذا غير صحيح ياعم صالح .. كذبوا عليك .. لا تصدقهم .

فتفحصه عم صالح من جديد ، يريد أن يستوثق من إنه لا يخفى عنه الحقيقة .. وبدا إنه يوشك أن يصدق يوسف ، ولكن وجهه تجهم من جديد وقال محتداً :

ـ أتسخر منى .. لقد سألت الأستاذ عبد الهادى نفسه قبل دخولك عليه ، فلم ينكر الخبر .

صاح يوسف فى غضب :

ـ هل قال لك إنى عينت مكانه .

قال صالح متردداً :

ـ قال إن كل شيء جائز فى هذه الأيام .

قال يوسف :

ـ كل شيء جائز إلا أن يحدث هذا .

قطع يوسف كلامه ، فقد لمح بعض المحررين قادمين نحوه ، ولعلهم سمعوا صياح عم صالح ، كانت وجوههم مكفهرة ، وفى نظراتهم تحد واضح ، وبادر أحدهم بسؤال يوسف :

ـ هل الخبر صحيح ؟

أجاب يوسف بسرعة لا تخلو من حدة :

ـ لا .. غير صحيح ..

فقال له الذى كان يسأله :

ـ هذا خير لك .. لأننا نسمع شائعات كثيرة .

وصاح صوت آخر :

ـ لن نرضى بأن يكون أحد رئيساً للتحرير غير الأستاذ عبد الهادى .

قال يوسف بسرعة :

ـ وأنا أيضاً .. ولكن من قال لكم هذا .. ؟

قال أحد المحررين :

ـ الأستاذ حسن .

صاح يوسف مبتسماً فى عصبية .

ـ كان يسخر منكم .

هتف عم صالح .

ـ والله لو حدث شيء للأستاذ عبد الهادى .. فسأترك هذا العمل .. وأذهب إلى بلدى ..

قال أحد المحررين فى حماس :

ـ خذنا معك يا عم صالح .

وسأل آخر وهو ينظر إلى يوسف فى اتهام .

– ولكن لماذا أخذك رئيس مجلس الإدارة معه بعد اجتماع الصباح ؟

وصاح صوت آخر :

– وما الذى قاله لك .. نريد أن نعرف ..

لم يجب يوسف على السؤال .. وتحرك مقتحماً طريقه خارج الحلقة التى أحاطت به ، لم يعد يراهم . ولا يسمعهم ، وكان يسأل نفسه فى حيرة ، لماذا يلاحقونه بالسؤال عما حدث بينه وبين دياب .. وكأنهم استشعروا أن بينهما سرا مطلوب من يوسف ألا يفشيه هل إحساسه بثقل السر فى صدره ، هو الذى يجعله يستشعر هذه المطاردة أم أن الأسرار مهما خفيت ، لها وجود وإشعاع يستثير فضول الناس ويجذبهم على نحو غامض لكشف السر وفضه وفوجىء يوسف بأن عم صالح بعد أن شخط فى المحررين ليتركوا يوسف لحاله ، قد أسرع وراءه ، حتى لحق به قبل أن يدخل مكتب دياب ، وقال له :

– إنى اعتمد عليك بعد الله فى أن تصلح ما بين الأستاذ والسيد رئيس مجلس الإدارة .

نظر إليه يوسف فى أسى وقال :

– سأحاول .

قال عم صالح بإصرار :

– لابد أن تحاول .. فلن يقف أحد معه سواك .. لا تتركه .. هل أعجبك منظره وهو جالس فى مكتبه وقد فقد حماسه للعمل .. إذا لم تستطع أن تفعل شيئاً فقل دياب إنى أريد أن أدخل عليه وأخاطبه .. ليعرف منى من هو عبد الهادى النجار .

ودخل يوسف مكتب دياب ، فوجد الأستاذ على همام جالساً ومعه حسن بدران أمام مكتب دياب ، وكانوا يتحدثون بأصوات صاخبة غلبها الانفعال ، لكنهم صمتوا فجأة وقد رأوا يوسف ، ونظر على همام إلى يوسف فى استعلاء . وقد بدا عليه الضيق لوجود شاب غريب عنه فى مثل هذا الاجتماع

الضيق ، ولم ينهض لتحية يوسف ، حتى اضطر دياب إلى أن يسأله :

- ألا تعرف يوسف منصور .. إنه نائب رئيس تحرير الجريدة .. مثل حسن زيدان ..

قال همام بترفع وهو ينظر أمامه متجاهلاً يوسف :

- لا أعرفه .. إنهم كثيرون فى هذا المكان .. ومن الصعب على رجل مشغول أن يتعرف عليهم جميعاً .

فهتف دياب محاولاً تخفيف وطأة وقاحة همام .

- لكن يوسف ليس مثل الآخرين ..

قال همام مصراً على وقاحته ..

- إذن فهو ليس مثل البقر الذى تشابه علينا ..

قال دياب محتجاً وهو يلف ذراعه على كتف يوسف .

- لا ياأستاذ .. إنه واحد منا .

عندئذ تنازل همام وسمح لعينيه أن تقعا على يوسف ، وقال بصوت اختفت منه الوقاحة ، وغلب عليه التفكير والتردد :

- إذن فأنت زميل لحسن .

قال يوسف بأدب شديد :

- نعم .

فقال همام :

- حسن تلميذنا العاق .

فهتف حسن فى مرح وتألق غير مكترث بالهالة الوقورة التى يحيط بها همام نفسه :

- لست عاقاً ياأستاذ .. وأنا مصمم على أنى ابنك وتلميذك ..

بينما اجتاح صدر يوسف غضب ، كاد يدفعه إلى أن يصرخ فى همام إنه ليس تلميذاً له .. وليس عاقاً لأحد .. ولكنه عدل عن الكلام ، وقد استطاع أن يكبح جماح غضبه . وكان دياب قد عاد إلى مقعده خلف المكتب واستقر عليه .

فقال :

ـ إننا نستطيع أن نواصل حديثنا .

ونظر دياب إلى همام يستحثه على الكلام .. ولكن همام وجه نظراته إلى يوسف ، ثم عاد وأطرق برأسه ، ولاذ بالصمت .. وفهم دياب معنى نظرات همام ، فقال :

ـ ذلك يا أستاذ إن الأخ يوسف مؤتمن على أسرارنا .. أنا واثق من هذا .

فصاح همام :

ـ تعنى أنه باق فى منصبه .

قال دياب :

ـ طبعاً .

فنظر همام إلى يوسف وقال :

ـ إذن فأنت ستعمل معى .. وكل ما سمعته عنك أنك صديق لعبد الهادى .. وأنا لا أثق فى عبد الهادى .. ولا أثق فيمن يصاحبه أو يخالطه .. ولكن السيد دياب يضمنك . فليكن ..

قاطعه دياب :

ـ هذا أكيد ياأستاذ همام .

قال همام :

ـ إنى حريص ألا تذاع أسرارنا قبل الأوان .. فعبد الهادى ثعبان .. ونحن متفقون على أنه سيقاوم طرده ، والمهمة التى أقبلها شاقة ..

فقاطعه دياب وقد بدا عليه نفاد الصبر .

ـ هذا الموضوع تتركه لى .. المهم .. أنك تتعرف الآن على من أسميهم أركان حربك .. هاهما أمامك .. وأنا معكم سنقود العمل .. ونعمل على النهوض بالجريدة كما يجب أن تكون . وعلينا أن نضع الآن خطة التنفيذ ونعد جدولاً يحدد كل خطوة وما يليها .

وأمسك دياب بقلم وكتب على ورقة أمامه .. خطة إعادة تنظيم العصر

الجديد ..كان ينطق بصوت قوى ، الكلمات التى يكتبها ..ثم التفت إلى همام وقال :

ـ أنا مصغ لك الآن .

قال همام محتجاً :

ـ لا .. لا ياسيد دياب .. لا تتعجل معى الأمور .. اترك هذه الورقة الآن .. وهناك ورقة أخرى أمليتها على حسن . قدمها لك . وأنا أراها أمامك .. وعليك أولاً أن تبت فيما جاء بها .

قال دياب وهو يمسك بالورقة الأخرى :

ـ نعم .. ولقد قرأتها .. ولكن الحديث فيها لا يحتاج إلى هذا الاجتماع .

صاح همام :

ـ إنها لا تحتاج ياسيد دياب إلى أى حديث من أى نوع فإما تقبلها ونمضى فيما نحن مقبلون عليه .. وإما أن ترفضها .. فتبحثون عن شخص آخر .. يتولى هذه المهمة .

قال دياب فى ضيق ظاهر :

ـ طبعاً .. أنا موافق من ناحية المبدأ .. ولكن هناك تفاصيل لابد من مناقشتها .

صاح همام :

ـ قلت .. لا مناقشة .. أية مناقشة فى هذا الموضوع تمس كرامتى .

قال دياب بسرعة :

ـ لم أفكر فى شىء يمس كرامة أستاذنا الكبير .. ولكن الأمر يتعلق بالإمكانات ..

صاح همام :

ـ الإمكانات التى كانت متوافرة لهذا المأفون عبد الهادى يجب أن تكون متوافرة أضعافاً مضاعفة لعلى همام .

ونقل همام بصره بين حسن ويوسف ثم صاح :

فليخرج هذان الولدان من الحجرة .. حتى ننتهى من هذا الموضوع ..

فقفز حسن من مقعده وقال بلهجة مرحة :

- سنخرج فى الحال .

ولم يتحرك يوسف ، حتى جذبه حسن من يده ودخل به إلى حجرة مجاورة لمكتب دياب . كان يستخدمها كقاعة لاجتماعات مجلس الإدارة ، حجرة كبيرة

تتوسطها منضدة مستطيلة ضخمة تحوطها مقاعد مكسوة بالجلد الأخضر ، واتجه حسن إلى مقعد رئيس مجلس الإدارة الذى يتصدر المائدة ، وأمامه الأجراس والتليفونات ، وجلس عليه ، مسترخياً ، يتحسس مسنديه ، قائلاً ليوسف :

- إن الجلوس على هذا المقعد يشعر الإنسان بأنه فعلاً رئيس مجلس إدارة ..

قال يوسف وهو يجلس بجواره وقد انتابه قلق شديد :

- هل تقرر أن يكون همام رئيس التحرير ؟

قال حسن فى مرح :

- ولكن بشروط ..

فأطرق يوسف برأسه مفكراً .. أومحاولاً أن يفكر ، فلا يذكر سوى جلسته مع عبد الهادى فى بيته وهو يقول له . إنك تحمل أباك على كتفيك ، وشعوره الحاد بأنه لابد أن يفعل شيئاً ما لا يدرى ما هو . قال لنفسه .. لن أجلس على المنصة مثل أبى وكأنى أحكم فى قضية .. لابد أن أتصرف .. أفعل شيئاً ما .. وشعر بقبضة عم صالح القوية على ذراعه ، وعيناه تنفذان فى عينيه ثم عجز عن التفكير .. وانتبه إلى حسن يصيح محتفظاً بمرحه :

- ألا تسأل عن الشروط ؟

نظر إليه يوسف وكأنه لا يفهم ما يتحدث عنه حسن بينما مضى حسن مسترسلاً :

- أفق من غيبوبتك ياأستاذ .. وانظر كيف يتحين الناس الفرص .. الأستاذ همام يضرب الآن ضربته الكبرى .. إنه يطالب بالحد الأقصى للمرتب خمسة

آلاف جنيه .. ويطالب بعربة كبيرة خاصة .. عربة جديدة غير عربة الأستاذ عبد الهادى .. وسائق جديد .. لقد حدد ماركة العربة .. لابد أن تكون شيفروليه .. لقد أملانى قائمة الشروط وكتبتها بخط يدى فى بيته .. إنه يطالب بمكافأة سنوية تساوى مرتب شهرين .. ويطالب بالقيام برحلة إلى الخارج يزور فيها أوروبا وأمريكا .. ليستجم ويعرض نفسه على الأطباء ويعد خطط العمل قبل أن يبدأ مهام منصبه .. إن ذهنه لن ينشط حتى يستجم أسبوعاً فى جبال سويسرا .. ويشاهد شلالات نياجرا فى أمريكا .. إنه ببساطة يريد أن يذبح بلا رحمة ولا هوادة .. فرصة العمر .. رغم أنه غنى وعنده عزبة وعمارتان .. كان يجب أن ترى دياب وهو يقرأ ورقة الشروط .. امتقع وجهه .. وسألنى .. ما هذا ؟..

قلت له : هذا ما أملاه على الأستاذ همام .. فألقى بالورقة فى سلة المهملات .. وهو يدمدم .. ابن الكلب .. ولكن عندما دخلت عليه بعد ذلك ومعى الأستاذ همام .. كانت الورقة قد قفزت بقدرة قادر من سلة المهملات وعادت إلى مكتبه .. إنه سيوافق .. المسألة منتهية .. ما رأيك أن نكتب نحن أيضاً قائمة بطلباتنا ..

ودق حسن بيده على المنضدة هاتفاً فى حماس :

- لابد أن نفعل .. هذه فرصتنا ..

قال يوسف بصوت ضعيف .. كأن الكلام يرهقه :

- المهم .. هو ما الذى سيفعله بالجريدة .

قال حسن فى غضب :

- ملعون أبوها .. إنه لن يفعل شيئاً .. أنت وأنا سنعمل كالعبيد ليل نهار لتصدر فى موعدها .. بينما يمارس همام جبروته .. إنى أعرفه .. إنه شديد التسلط .. مغرور .. سوف يقتلنا .. لابد أن نحصل على تعويض مقابل تحمله ..

قال يوسف وكأنه لا يسمع ما يقوله حسن :

ـ منذ متى تقرر هذا ؟

قال حسن :

ـ منذ كلفنى دياب بمقابلة همام .. كان ذلك بالأمس ..

فسأل يوسف :

ـ ومتى سيعلن القرار ؟

قال حسن ضاحكاً :

ـ عندما يضع دياب الجرس فى رقبة القط .

قال يوسف :

ـ الأستاذ عبد الهادى يتوقع أنه سيفصل .. ويتوقع أيضاً تعيين الأستاذ همام مكانه .

قال حسن ساخراً :

ـ ولكن المفاجأة سوف تصعق المحررين .. سنشاهد كوميديا من الطراز الأول .. وهأنت ترى بنفسك همام لا يعرف أحداً من المحررين .. كما أنه .. صدقنى .. رجل مجنون .. لا يعرف كيف يتفاهم مع أحد .. ولكن دياب لن يعتمد عليه .. سيعتمد علينا نحن الاثنين ..

فسأله يوسف :

ـ ولماذا اختاره أول الأمر ؟

قال حسن :

ـ إنه فى حاجة إلى اسم كبير يستخدمه « كبارفان » أمام القراء وأغلب الظن أن الموضوع كله مؤقت .. فأنا أراهنك على أنه لن تمضى شهور .. ربما سنة بالكثير .. وتستطيع يايوسف أن تكون رئيساً للتحرير ..

قال يوسف وهو يحدق فى حسن :

ـ ولهذا قلت للمحررين إن دياب قرر تعيينى رئيساً للتحرير ؟

صاح حسن مقهقهاً :

ـ هل وصلتك الشائعة .. ألم أقل لك ونحن فى بيت عبد الهادى اليوم .. إننى

أفعل هذا .. لأسخر منهم .. سألونى لماذا أخذك دياب معه وهو خارج من الاجتماع .. فقلت لا أعلم .. ثم همست فى أذن اثنين فقط .. أن دياب قرر تعيينك رئيساً للتحرير .. وطلبت منهما كتمان السر .. عندما عدت إلى الجريدة فى المساء .. كان الخبر يدوى كقنبلة شديدة الانفجار .. يجب أن تشكر لى هذه الشائعة .. فكثير من الناس يصلون إلى المناصب الكبيرة بإطلاق الشائعات حول أنفسهم [illegible] الدكتور [illegible] ظل [illegible] نفسه للوزارة عشر سنوات متتالية .. حتى أصبح فعلاً وزيراً .. هل تريد أن أرشحك فى الشائعة القادمة للوزارة ؟

قال يوسف فى هدوء متعمد :

- ولماذا لا تتحدث عن نفسك .

قال حسن :

- دياب يميل لك أكثر .. هذا شعورى الخاص .

قال يوسف :

- شعورك الخاص ياحسن .. هو أنك أنت الذى يفكر فى رئاسة التحرير ..

قال حسن وقد تغير وجهه فأصبح حانقاً يتحدث بلهجة فيها مرارة :

- وهل أنكر هذا .. وهل تنكر أنت هذا .. هذا شىء طبيعى جداً .. إن العقبة الوحيدة فى نفسى .. هى عاطفتى نحو الأستاذ عبد الهادى .. ولست مسئولاً عما يحدث له .. ولا أنت .. إننا أمام ظروف فرضت نفسها علينا .. ولا شأن لنا بها .. هل فعلنا شيئاً يمس الأستاذ عبد الهادى من بعيد أو من قريب ؟.. إنى أتألم كلما فكرت فى أمره .. وأشفق عليه .. إنه لا يدرى ما الذى ينتظره .. وهأنذا أنصحك بالابتعاد عنه .. حتى لا تتورط أكثر من اللازم .

قال يوسف محتجاً :

- أنا لا أقول إن صداقتى بعبد الهادى تورط .. وهى على أية حال من شئونى الخاصة .

قال حسن محاولاً أن يبدو مقتنعاً بما يسمعه :

- طبعاً .. هذا لاشك فيه .. ولكن هناك أشياء لابد أن تعلمها .. وخاصة أننا الآن فى مركب واحد .. وعلينا أن نساعد بعضنا .. إننا نمر بأزمة .. وإذا لم أساعدك وتساعدنى ، فقد نتعرض لأخطار شديدة .. إن من واجبى أن أنبهك إلى أشياء خطيرة فاتت عليك .. فلقد كان عبد الهادى طوال الفترة الماضية تحت مراقبة شديدة .. وعرفوا كل شىء عن حياته الخاصة .. وللأسف هناك

فضيحة أكبر قد يكتمونها عنه إلا حاول أن يقاوم قرار فصله ، لقد انتهى أمره تماماً وأصبح مقضياً عليه .. بسبب علاقته بتلك المرأة التى كان يتحدث معنا عنها .. أنت تعرفها .. اسمها زينب الأيوبى أليس كذلك ؟

قال يوسف فى انفعال :

- صدقنى .. أنا لا أعرف اسمها .. ولكنى بالطبع رأيتها فى بيتها .

قال حسن وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة شريرة :

- نعم .. فأنت تتردد مع عبد الهادى على بيتها .. ولكن من المؤكد أنك لم تتورط معها فى شىء .. أنا واثق من هذا .. فأخلاقك كما أعرفها لا تسمح لك بأن تتعامل مع امرأة مثلها .

قال يوسف فى ضيق :

- كيف نقحم هذا الموضوع فيما نحن فيه .

قال حسن وقد اتسعت ابتسامته :

- عبد الهادى هو الذى أقحمه .. هو الذى أخطأ .. وأنت شاهد على أنى حذرته يوم قال لنا إنه سيقابلها .. إنها امرأة خطرة .. أنا أعرف هذا .

فسأل يوسف فى دهشة :

- تعرف .. كيف ؟

قال حسن وعيناه تلمعان بنشوة شرهة :

- أنا أعرفها يا أستاذ .. صح النوم .. أنا أعرفها .. من قبل أن يتحدث معنا الأستاذ عبد الهادى عنها .. ولقد حاولت أن ألمح له .. قلت له : أهى مخلصة جداً يا أستاذ .. أهى مغامرة جديدة يا أستاذ .. ونصحته بالاحتياط .. ولكنك

تدخلت .. وقلت متشنجا : إننا يجب أن نحترمها .. هنا كدت أصيح فيكما صح النوم .. اسمعا ما سأرويه لكما .. وما كدت أبدأ حديثى وأقول لك إنك تتخذ مواقف أخلاقية مزيفة .. حتى سخر منى عبد الهادى .. ألم يسخر .. ألم يقل لى إنى أقول كلاماً فارغاً .. ألم يقل إنك شخص لا يفهمه أمثالى ولو عشت ألف عام . قلت لنفسى .. مادمت أقول الكلام الفارغ .. فلأتركهما لكلامهما العظيم .. إن عبد الهادى رفض فى إصرار أن يستمع إلى .. مع أنى قلت له بوضوح إنه لو عاملها كلوليتا لما وجد لديها مانعاً .. من أين كنت أعرف هذا .. ولكنه لم يسألنى .. كل ما فعله هو أنه سارع باتهامى بأنى أنصحه بالدخول معها فى مغامرة لأقضى عليه وليموت هو وأسترد حريتى .. اتهمنى بأنى أريد أن أرثه .. وبعد أن اتهمنى ذهب إليها ودخل فى علاقة معها .. لقد رفض أن يستمع إلى .. ظن نفسه أنه فوق البشر .. مع أنه لو كان تواضع .. واستمع إلى .. لكان عرف منى الكثير .. ولوفر على نفسه الفضيحة بجلاجلها ..

واندفع سؤال من صدر يوسف كنصل حاد ينبثق من قلبه :

– ما الذى تعرفه ؟

هتف حسن :

– الآن فقط تسألنى .. بعد فوات الأوان .. وبعد أن جمع دياب كل التفاصيل .. ولكن إذا كان الأوان قد فات على عبد الهادى .. فما زالت أمامك الفرصة لتنجو بنفسك من الفضيحة ..

صرخ صوت داخل يوسف .. أنا لا أريد أن أنجو .. أريد فقط أن أعرف ما الذى فى داخلك ياحسن زيدان .. ولكنه سكت ، حتى سمع حسن يروى له تلك الحكاية الغريبة عن زينب الأيوبى .

قال حسن إنه تعرف عليها بطريق الصدفة التى تساوى مليون جنيه ، وكان ذلك فى بيت الراقصة إلهام كمال التى اعتزلت الرقص منذ سنتين .. وكانت زينب تزور إلهام عندما دخل عليها ، وهى للحقيقة رائعة الجمال ،

جمالها صاعق ، يخطف القلب ، عيناها المشروطتان القوقازيتان لهما وهج ناري ، وجسمها رغم نحافته طرى كالملبن .. ولم يجلس معها حسن ، فقد دخل وهى خارجة ، وما كادت تذهب .. حتى سأل إلهام هل هى واحدة من إياهن . فإلهام موردة عظيمة للبنات ، منذ اعتزلت الرقص ، وقد زاد نشاطها بصورة حادة ومنتظمة بعد أن انتحرت ابنتها سوسن وربما لا ينكر يوسف ذلك الحادث الذى نشرته الجريدة فى حينه ، فقد ثار كلام كثير حول هل انتحرت أم ماتت محترقة فى الحمام ؟ ، وكان هذا الحادث هو أول مناسبة يعقد فيها حسن صلته بإلهام .. ومن وقتها أصبحا صديقين ، وكان يتردد عليها ليواسيها ، ولتواسيه هى الأخرى بطريقتها الخاصة ، يتعرف على واحدة من صديقاتها ، فإذا لم يجد واحدة ، فلا مانع من أن تواسيه إلهام بنفسها ، امرأة محترفة وفنانة فى أمور الجسد ، المهم أنه سألها عن هذا الجمال الصاروخى ، فقالت له إنها كانت صديقة لابنتها سوسن . وإنها كانت زميلة لها فى المدرسة ، ولم تعلم بخبر موتها لأنها كانت فى باريس .. ولما عادت إلى القاهرة وعرفت الخبر ، أصبحت تتردد عليها ، وتقضى معها بعض الوقت ، فقال لها حسن ، إنه يريدها ، وأنه لن يتزحزح عن مطلبه ، فقالت له إلهام إنها امرأة بمزاج ، ومهما ألحت عليها فلا فائدة . ولكن حسن لم يكترث بهذا الكلام ، كان واثقاً إن إلهام تتهرب منه ، وبالطبع أنها لا تحمى زينب بدعوى إنها تذكرها بابنتها فهذا خارج الموضوع ، لأن حسن واثق إن إلهام تريد أن تفسد كل البنات خاصة بعد موت ابنتها . إنها أحياناً تتحول إلى امرأة عصبية متوترة ، كلبؤة هائجة وعندئذ يدرك حسن أن هناك امرأة شريفة تقاومها ، وترفض إغراءها ، حتى تستسلم المرأة ، وعندئذ تجد إلهام هادئة وديعة مسترخية الأعصاب ..

وقال حسن لإلهام إنه لا يصدقها .. فلو كانت زينب مستعصية لكانت أعصابك متوترة الآن . ولما رأيتك تتحدثين معها وتضحكين وبينكما ألفة ومودة فأقسمت إلهام أن ما تقوله صحيح ، وأنه كان هناك رجل واسع الثراء معجب بزينب ورآها ذات مرة كما رآها حسن ، وأنه قال لإلهام إنه مستعد أن

يدفع لها ما تطلبه ، مقابل أن تأتى له بزينب ، وتحركت إلهام ، بذلت كل فنونها لترضى زينب ، وأخيراً رضيت عندما قالت لها إلهام : وافقى يا حبيبتى فنحن داخلون على عيد ونريد أن نقبض العيدية ونعيد ..وأعجبت زينب بهذا المنطق فوافقت .. وجاءت إلى بيت إلهام حيث كان ينتظرها الرجل ، وجلس ومن حوله مائدة حافلة بالويسكى والمزات التى جاء بها ، وجلست زينب أمامه

تضحك وكأنها تتفرج عليه ، وسألتها إلهام همساً : ما رأيك فيه ؟ فأجابت وهى تضحك بصوت مرتفع لا بأس به ، أى أن كل شىء على ما يرام والصفقة قد تمت ، سوف تقبض إلهام العيدية ، وستعطى زينب نصيبها ، وسمع الرجل زينب وهى تضحك قائلة إنه لا بأس به ، فجن جنونه ، وقد توهم أنها وقعت فى غرامه ، فقفز من مقعده ، وكان قد شرب كأسين .. وهجم على قدم زينب راكعاً يُقبل حذاءها .. وخلع الحذاء من قدمها وسكب فيه الويسكى يشرب منه لهذا الجمال وروعته .. فإذا بزينب تدفعه بقدمها فى صدره وتأخذ حذاءها وتجرى هاربة من البيت ..وغرقت إلهام فى عرق الخجل والكسوف ..

وأقسمت لى أنه منذ ذلك اليوم وهى لا تضمنها ، وتخشى أن تتعامل معها حتى لا تغضب زبائنها .. رغم إنها فى مرة أخرى وافقت ولم تهرب من الرجل ، ولم ييأس حسن زيدان ، ودبر أن يلتقى بها فى بيت إلهام مرة أخرى ، ولكنها لم تهتم به ، وعرف كل شىء عنها ، وعرف أن عبد الهادى ويوسف يترددان على بيتها ، حتى جاء ذلك اليوم الذى سمع فيه من عبد الهادى أنها تريد أن تلقاه . ثم تكتم عبد الهادى صلته بها ، ولكن حسن كان يعرف كل شىء ، إلهام تعرف ، وكل الناس تعرف إن عبد الهادى يوشك أن يتزوج هذه المرأة ، ودياب عنده كل التفاصيل وعنده أحاديث مسجلة فى التليفون بينهما ، وهو قادر الآن أن يخرب بيت عبد الهادى إذا فتح فمه بكلمة ، عنده وثائق وربما عنده صور لعبد الهادى وزينب الأيوبى فى أوضاع فاضحة ..

واختتم حسن حكايته قائلاً :

– صدقنى .. إننا مقبلون على أيام غريبة .. ولا تغرك طيبة دياب .. فهو قبل كل شىء رجل يعرف كيف يضرب خصمه ، وهو يستعد ويخطط لمعاركه ..

وسأل حسن فجأة وهو ما زال يبتسم تلك الابتسامة الكريهة :

– هل كنت تعرف هذه التفاصيل ؟

قال يوسف وقد شحب وجهه :

– وهل يعرفها عبد الهادى ؟

قال حسن :

– من يدرى .. ولكن أغلب ظنى أنه آخر من يعلم .. إن موقفه فظيع على أية حال .. فإن كان لا يعلم ثم يريد أن يتزوجها فهذه مصيبة ، أما إذا كان يعلم ثم يريد أن يتزوجها . فالمصيبة أعظم كما يقولون .. على أية حال الرجل تقدم فى السن ، ودخل فى دور التخريف ، أنا لا أنكر فضله على .. بالعكس . إنه أستاذى .. وصاحب فضل على .. ولكن لا يجب أن نتجاهل أنه يمر بمرحلة الانحدار .. وأنه يرتكب تصرفات تورطنا جميعاً .. وعلينا نحن الاثنين بالذات .. أنا وأنت يايوسف أن ننبهه لما قد يصيبنا من تصرفاته ..

قال يوسف بصعوبة :

– لا أدرى ..

فقاطعه حسن منفعلاً :

– إذا كنت تريد أن تدافع عنه فأنا مستعد ، المهم أن نتفق الآن على موقف واحد .. إن بعض المحررين قرروا كتابة برقيات وإرسالها للرئاسة يطالبون ببقاء عبد الهادى رئيساً للتحرير .. وأنا أعلنها أمامك بكل صراحة إننا إذا اتفقنا الآن على أن نوقع معهم على هذه البرقيات .. فلن أتردد .. المهم أن يكون تصرفنا أنا وأنت بالذات تصرفاً واحداً .. يجب أن نتفق على شىء واحد نقوله للجميع .. تصرف واحد فى مواجهة الأزمة ..

قال يوسف :

– لا أستطيع أن أقول لك شيئاً الآن .

فسأله حسن فى ريبة :

- ولكن يجب أن تفعل شيئاً ..

فابتسم يوسف ابتسامة غريبة قائلاً :

- نعم .. هذا ما أقوله لنفسى .. أنا واثق أنى سأفعل شيئاً ..

فصاح حسن محتجاً

- وما هو ؟ .. يجب أن نتفق عليه ..

وفتح الباب ، وظهر دياب .. الذى سألهما :

- وما هذا الذى يجب أن تتفقا عليه ؟

سكت حسن زيدان .. أما يوسف فقد اندفع يقول :

- إنه ينصحنى أن أبتعد عن الأستاذ عبد الهادى .. ولكنى سأذهب معه الليلة إلى البيت الذى نسهر فيه ..

نظر دياب إلى يوسف نظرة طويلة .. ثم التفت إلى حسن وطلب منه أن يلحق بالأستاذ همام ، وينتظراه حتى يفرغ من كلمة سريعة مع يوسف .. لكنه عاد ونادى حسن قبل أن يغلق الباب .. وقال له وهو ينظر فى ساعته ..

- الأفضل أن تذهب إلى عبد الهادى الآن .. وتنفذ ما اتفقنا عليه .

انتهى الجزء الأول

والى أن نلتقى فى

الجزء الثانى

زينب والعرش

كتاب زينب والعرش جزء ثانى
رقم الايداع ٨٨/٢١١٥
الترقيم الدولى ٦ — ٠٠٥٢ — ١٢ — ٩٧٧

مطابع روزاليوسف

مكتبة روز اليوسف
يناير ١٩٨٨



هذا الكتاب

شخصيات « زينب والعرش » تتصارع على سلم النفوذ والسلطة والشهرة . بعضها يدوس بأقدامه البعض الآخر فى معارك لاهوادة ولا رحمة فيها . إنه التنافس المميت يخوضه أفراد اهتزت أفكارهم وتقاليدهم والقيم التى كانوا يعيشون بها . فتحولوا من بشر إلى حيوانات فى غاب !

هل استطاعت زينب الأيوبى أن تحقق أحلامها . وأن تجلس على عرشها فى مجتمع الغاب ؟ إن أحلام الطفولة تواجه فى كل خطوة فخاً من فخاخ الحياة القاسية . التى تغلف قسوتها بمظاهر البذخ والمتعة والرفاهية . إن البراءة تختنق فى جو الخداع . والطهارة تسقط فى شرك الضياع . وأحلام المجد والشرف تتحول إلى كابوس مخيف . ومع ذلك . هناك بارقة أمل . وإصرار على التشبث ببهجة الحياة وفرحها الحقيقى وإصرار على أن تجلس زينب على العرش .

لقد فرضت شخصيات « زينب والعرش » على الروائى فتحى غانم أن يكتب أضخم أعماله الأدبية ـ بعد « الرجل الذى فقد ظله » ليسجل بقلمه أعماق مجتمع . أعماق البشر فيه . ليلقى ضوءاً كاشفاً . يصعب على المؤرخ لحياتنا المعاصرة أن يسجله بهذا الوضوح والجرأة والصراحة .

« الناشر »

مطابع روز اليوسف

الأعمال الكاملة

فتحي غانم



الجزء الثاني

زينب والعرش

فتحي غانم

زينب و العرش

الجزء الثانى

مكتبة
روزاليوسف
يناير ١٩٨٨

مكتبة روز اليوسف

المدير الفنى

عدلى فهيم

●

الغلاف والرسوم الداخلية للفنان

أحمد حجازى

الى أحلام ناشد

بيان هام
ولا مفر منه

يرجو مؤلف هذه الرواية ، رجاء حاراً ، الا يتورط القارىء العزيز فى محاولة البحث عن صلة أو أوجه شبه بين شخصيات هذه الرواية وشخصيات فى الواقع سواء كانت معروفة ، أو غير معروفة ، من الأحياء أو الأموات ..

إن كل ما جاء فى هذه الرواية من أحداث وشخصيات إنما هى محض خيال ، ويؤكد المؤلف هذه الحقيقة ، ويلح فى تاكيدها منذ البداية ، حتى يوفر على القارىء العزيز جهداً ضائعاً قد يبذله فى عقد مقارنة أو فى البحث عن صلة ، أو أوجه شبه بين وقائع جرت فى مجتمعنا وبين خيال مؤلف ، يفرض عليه فنه أن يصوغ حكايته وكانها واقع قد حدث فعلاً !

مفاجأة فى مكتب عبد الهـادى

قال دياب ليوسف :

ـ ليس لدينا وقت نضيعه .. سأدخل فى الموضوع مباشرة .. هل تغير موقفك عما اتفقنا عليه هذا الصباح ..

قال يوسف منفعلاً :

ـ لقد اتفقنا على أن نعمل لمصلحة البلد .. وفى هذا لا تسألنى أبداً عن موقفى .. فسارع دياب يقول فى شهامة :

ـ وأنا أصدقك .. ولن أستمع إلى وشايات أحد .

قال يوسف :

ـ ولكن هناك شيئاً لا يجب أن يتدخل فيه أحد .. وهو صلتى بالأستاذ عبد الهادى ..

قال دياب بسرعة :

ـ لا .. لن أتدخل فى هذا .. إنى أعرف أنك كنت معه فى بيته .. ولابد أنك واجهته بما عرفته عنه .. وأنا واثق من قرارك

قال يوسف :

ـ إن بينى وبينه حديث لم ينته بعد ..

قال دياب :

ـ حذار أن يخدعك

قال يوسف فى حزم :

ـ أنا الذى أريد أن أسألك .. لقد جعلتنى أقسم على الاحتفاظ بسرية التنظيم .. وقلت إن عبد الهادى عدو للثورة .. فإذا به يحدثنى عن التنظيم .. ويحرجنى بسؤالى إذا ما كنت عضواً فيه .

فوجىء دياب بما قاله يوسف ، وكان الاضطراب واضحاً فى عينيه وقسمات وجهه تلفت بسرعة يمنة ويسرة وكأنه يبحث عن شىء .. واندفع إلى مقعده الذى كان يجلس عليه حسن منذ لحظات ، ووضع يده على التليفون يريد أن يتحدث فيه . ولكن يده جمدت وقد استغرق فى تفكير طويل .. ثم سأل يوسف :

ـ وهل قلت له شيئاً ؟

قال يوسف :

ـ قلت له لا أعرف .. ولقد صدقنى .. وقال إنه سيطلب ضمى إلى التنظيم .

ردد دياب كأنه يخاطب نفسه :

ـ هذا غير مفهوم .. غير مفهوم ثم رفع صوته وقال :

ـ ولكن ما الذى قاله لك بالضبط واستمع إلى يوسف وهو جالس على مقعده شاحب الوجه ، لا يخفى دهشته وقلقه . ولما فرغ يوسف من حديثه ، ظل دياب مطرق الرأس . ثم رفع رأسه وواجه يوسف بعينين ، تكادان تبكيان من شدة التأثر وقال ساخطاً :

ـ فى الحقيقة ياأخ يوسف .. هذه فوضى لم نستطع أن نتخلص منها .. ما من

شيء نقدم عليه ، ونقرر أن نختار له أصح الناس .. إلا وتسرب له طوفان من الأعداء من كل نوع .. شيوعيين على إخوان على إقطاعيين على انتهازيين .. الواحد يكاد يجن .. يقولون لك .. لا نريد أن نكثر من الأعداء .. يجب أن نهادن .. السياسة تقتضى هذا ..

ولوح دياب بيده يائساً وقال :

ـ نفس الشيء حدث لي هنا .. قالوا لي اقبل رئاسة هذه المؤسسة واعمل مع هذا الداعر عبد الهادى ـ ولكنى قاومت واستطعت أن أحصل على موافقة بحقى فى التخلص منه إذا ما وقف عقبة فى طريقى .

ونظر دياب إلى التليفون متردداً وقال :

ـ كنت أريد أن أستفسر عن هذا الموضوع فهو خطير .. ولكنى أشعر أنى سأسمع نفس الإجابة التى قلتها لك الآن .. ما علينا .. المهم الآن أن نتصرف فى حدود مؤسستنا .. أما هذا الموضوع فسأتحدث فيه معك فيما بعد .

ونهض دياب . وتبعه يوسف إلى مكتبه . حيث كان ينتظر همام .. الذى ما كاد يراهما حتى نظر فى ساعته وقال شاكياً :

ـ الساعة قاربت التاسعة .. يجب أن أنصرف الآن .

قال دياب :

ـ لماذا العجلة يا أستاذ .. ألن تسهر معنا الليلة لنتعرف على المحررين .

قال همام فى انزعاج :

ـ اعفنى .. أرجوك .. لقد اتفقنا .. وسأنتظر فى بيتى .. لن أعود إلى هنا .. حتى يخرج هو .

وابتسم همام فجأة ليوسف ، ووضع يده على كتفه وقال فى بشاشة :

ـ وأنت ستكتم السر .

فأطرق يوسف ولم يجب .

قال همام ضاحكاً :

ـ أنت لست مثل حسن .. فهو ليس خجولاً مثلك .

وانصرف همام ، وتأبط ديـاب ذراع يوسف ، وذهبـا معا إلى مكتب عبد الهادى . وفتح لهما عم صالح الباب ، وهم يبتسم ليوسف .. وكأنه واثق أن شيئاً ما قد تغير لصالح عبد الهادى ، وفوجىء يوسف بالحجرة مكتظة بالمحررين . وعبد الهادى جالس على مكتبه يضحك ، وجو من المرح يسود المكان ، ووقفوا لدياب ، واستقبله عبد الهادى وهو يضحك ، وطلب منه أن يجلس مكانه ، بينما كان دياب يطلب من المحررين ألا ينصرفوا لدخوله .. كان يوسف يرقب المشهد فى ذهول فما يراه يجرى أمام عينيه لا صلة له بما يدبر فى الخفاء . والبسمات والضحكات والمجاملات المتبادلة . تتدفق وتتقابل . فتغطى ما فى النفوس من مشاعر ، وما فى الضمير من أحكام وقرارات . وعبد الهادى متألق كعهده دائماً . سيد المجلس البارع فى إدارة الحديث وتوجيهه ، ودياب مسالم وديع لا أثر للقلق على وجهه ، وعم صالح فى حركة دائبة يدخل ويخرج ، ومعه أكواب الشاى وفناجين القهوة وعلب السجائر .. ولا شىء ينبىء عن الانفجار الذى سيحدث بعد قليل ، والذى كان يوسف يتوقعه دون أن يدرى ما هو بعد أن سمع دياب وهو يقول لحسن « اذهب لعبد الهادى ونفذ ما اتفقنا عليه بل إن يوسف بدأ يقتنع بأن هذا الجو المرح هو .. كل ما اتفق عليه دياب مع حسن . لعله أراد أن يجعل من هذه الليلة ، ليلة وداع كريمة لعبد الهادى ولكن أى كرم هذا الذى تغدقه على من سوف تصرعه بعد قليل . كان يوسف يقول لنفسه . إنها محاولة لتهدئة المحررين حتى لا يندفعوا فى كتابة البرقيات محتجين على فصل عبد الهادى ، عندما سمع عبد الهادى يخاطبه :

- مالك سرحان يايوسف .. ألا يعجبك ما نتحدث فيه .

نظر إليه يوسف واجماً ، كان واثقاً أنه سيفهم نظراته ، كأنه يقول له ، أنت تضحك والموقف خطير ، ولست أدرى ماذا سيفعلون بك الآن ، كما لا أدرى ماذا ستفعل بهم ، ولكنك أنت الذى قلت لى ألا شأن لى بما سيفعله دياب ، وأنك كفيل بمواجهته .

كان عبد الهادى يتحدث عن الجريدة التى سيصدرونها الليلة .. وكان يثنى على المحررين الذين استطاعوا أن ينتهوا من الصفحات الداخلية بهذه السرعة ـ رغم انشغال نائبى رئيس التحرير فى اجتماعات متصلة ـ كان يهز رأسه راضياً حتى قال :

أعترف بأن العمل تم اليوم بسرعة وكفاءة .. رغم أنى لم أتدخل فيه .

وهنا قال حسن فجأة :

ـ حتى الصفحة الأولى أوشكت أن تنتهى .. ولقد راجعتها وحذفت منها خبر انتشار الشذوذ الجنسى فى انجلترا وحولته إلى الصفحة الثانية .. وإن كنت أرى أن نحذفه .. نظر إليه عبد الهادى طويلاً ، مما جعل الجميع يصمتون فجأة .. وقد داخلهم إحساس بأن شيئاً غير عادى قد وقع ، كانت نظرات عبد الهادى هى السبب ، وارتفع صوت عبد الهادى وكأنه اتخذ قراراً . قال فى حسم :

ـ كيف تحذفه .. هل من مصلحتك أن تدافع عن الأخلاق فى انجلترا ..

قال حسن فى حدة غير متوقعة :

ـ وما الذى يهم القارىء المصرى عن الشذوذ الإنجليزى .. هذا الخبر لا يهم إلا الشواذ أمثالهم .

وضحك حسن وقال وهو يتظاهر بأنه على استعداد للقيام .

ـ على أية حال .. لو أردت فسأعيده إلى الصفحة الأولى .

ولوح حسن بيده ، كأنه يقول أنا عبد المأمور . وقال فى جفاء :

أنت رئيسى .. ومعنا رئيس مجلس الإدارة .. فليس لى أن أتكلم .. علىّ فقط أن أنفذ المطلوب .

والتفت حسن إلى دياب ، كأنه يسأله المشورة ..

فقال دياب فى هدوء حاسم :

ـ أنا هنا فى زيارة مجاملة .. وليس لى شأن بما تقررونه .. الأمر متروك لكم .

وهنا حدث تطور مفاجىء .. فقد ارتفع صوت أحد المحررين ممن يعملون فى قسم الرياضة :

- ما هذا الكلام .. إن اجتماع هذا الصباح كان واضحاً .. وعيب على جريدة تصدر فى عهد الثورة أن ينشر فيها هذا الكلام الذى يقرؤه شبان وبنات وسيدات شريفات فى البيوت .. وأنا أحتج على رئيس مجلس الإدارة لأنه لا يريد أن يتدخل .

قال دياب مبتسماً :

- الموضوع لا يحتاج إلى الصراخ .. فصاح المحرر وقد زادت شراسته :

- اسمحوا لى أن أتكلم بصراحة ووضوح .. إن نشر مثل هذا الخبر يسىء إلى سمعتنا جميعاً .

صاح أكثر من صوت متسائلاً :

- لماذا .. لماذا يسىء إلى سمعتنا ؟..

صرخ المحرر فى هياج :

- لأنكم تعلمون أن هناك من هم متهمون بهذا الاتهام فى رئاسة التحرير .

فقاطعه دياب مستنكراً :

- أعوذ بالله ..

كان المحرر قد وصل إلى ذروة هياجه .. وإذا به يشير إلى عبد الهادى قائلاً :

- إن الشائعات كثيرة حول الأستاذ عبد الهادى شخصياً .

فزعق دياب :

- لا أسمح لك بهذا .. اعتبر نفسك مفصولاً من العمل .

صاح المحرر وهو يشد رباط عنقه كأنه يريد أن يمزق صدره .

- تفصلنى لأنى أقول الحقيقة .. ليس من حقك أن تفصلنى .. حقق معى أولاً .. فإذا كنت كاذباً فى كلمة واحدة .. فأنا لست على استعداد للفصل .. إنما على استعداد لأن تشنقنى هنا .

فانتفض دياب واقفاً .. وقال فى حدة :

ـ سأحقق معك . وسأفصلك .

والتفت إلى عبد الهادى . الذى كان يرقب المشهد باسماً . واستأذن منه فى الانصراف ، فنهض عبد الهادى وودعه حتى الباب .. وعاد إلى المحرر المهتاج وقال له وفى عينيه سرور لا يتفق بالمرة مع الموقف كله ، وقال له فى هدوء قاتل :

ـ يابنى .. إنه لا ذنب لك .. فقد كنت محتاجاً [illegible] تقوم بهذا الدور .. فقمت به .. طلب العيش يدفع الناس إلى فعل أى شىء ..

واختلطت ضحكات المحررين .. باختلاجات القلق والخوف .. وهجم بعضهم على المحرر يريد أن يفتك به .. لولا أن دفعهم عبد الهادى خارج الغرفة .. يساعده عم صالح الذى لم يفهم بعد سر هذا التحول الغريب الذى بدأ باندفاع دياب خارج الغرفة .. ثم خروج حسن السريع ليلحق به ، وهذه الضجة والصيحات والأيدى التى تكاد تتشابك .. وعبد الهادى وسط المحررين يدفعهم بيديه .. وفى عينيه وعلى شفتيه تلك الابتسامة التى لا تتناسب مع الموقف كله .

بعد دقائق .. كان عبد الهادى يخرج من مبنى الجريدة مع يوسف .. ولما وصلا إلى سيارة عبد الهادى .. تمهل لحظة . وقال ليوسف :

ـ سأركب سيارتك .

وسارا إلى سيارة يوسف « الفولكس فاجن » وانطلقا إلى بيت نور الدين .

مضى بعض الوقت قبل أن يسترد يوسف أنفاسه .. وكان عبد الهادى يدخن سيجارة . وهو يرقب الطريق .. وأحياناً كان يتلفت وراءه . وأدرك يوسف أنه يبحث عن أحد يتتبعه . ولعل هذا هو السبب فى عدوله عن ركوب سيارته . وخطر ليوسف ، أن عبد الهادى يتوقع اعتداء عليه .. وأنه خائف .. ثم عاد وقرر لنفسه أنه هو الذى يشعر بالخوف .. فالمشاهد التى توالت منذ صباح هذا اليوم الطويل . جعلته يرى صراع الرجال ، وحشيا قاسياً . ماكراً خبيثاً . يفيض بالشرور .. والقذارة .. إنه عندما يتخيل

الحيوانات المفترسة تتصارع وتفتك ببعضها البعض ، لا يمكن أن تصل وحشيتها وافتراسها إلى هذه القذارات . حتى الأفاعى التى تلدغ ضحيتها بالسم ، صراعها أنظف وأرقى من مثل هذا الصراع الدنىء .

وانفجر يوسف :

ـ هذا شىء بشع .. كريه .. لا يحتمل ..

التفت إليه عبد الهادى يرقبه .. ورأى يوسف بطرف عينه التى ترقب الطريق .. ابتسامة عبد الهادى لا تفارق شفتيه .. وقال عبد الهادى بصوت ملىء بالحيوية والحماس .

ـ وماذا كنت تنتظر .

قال يوسف :

ـ كل شىء إلا هذا .

قال عبد الهادى :

ـ لقد فوجئت .. هه .. هذا ما كان ينقصك لتفهم الحياة .

صاح يوسف :

ـ أهذه حياة .. إن عم صالح على حق .. وهو يقول إنه سيترك الجريدة ويعود إلى بلده .

قال عبد الهادى :

ـ لا أحد سيترك مكانه لا عم صالح ولا عبد الهادى .. ولا دياب .. حتى ذلك الأهبل شوقى الذى اختاروه ليقوم بتمثيلية .. سوف يبقى مكانه .. كل شىء سيظل كما هو .. هذا هو قانون اللعبة التى هى حياتنا .. لو تخلى واحد منا عن مكانه ، فسوف ينهار الجميع .. وستكون حياة أخرى غير هذه الحياة .. ربما أنت الوحيد يايوسف .. الذى قد يفعل شيئاً ..

اهتزت عجلة القيادة بين يدى يوسف .. فصاح عبد الهادى ساخراً .

ـ لا .. أرجوك .. أنا لا أتحدث عن انتقالك إلى الحياة الأخرى ..

تمتم يوسف :

ـ آسف .. ولكن ما حدث اليوم يكاد يدفعنى إلى الجنون .. نفسى تحدثنى بأنى لابد أن أفعل شيئاً .. والمصيبة أنى لا أدرى ما الذى أفعله .

ومرة أخرى .. كادت العربة تقفز فوق الرصيف .. وصاح عبد الهادى .

ـ لا .. كف عن الكلام .. أو أوقف العربة .

ومضى يوسف ببطء .. وقال عبد الهادى :

ـ أنت لا تدرى ما الذى تفعله .. ولأن ما تطلبه صعب .. وأنا شخصياً لا أستطيع أن أحدده .. لو كنت أعرفه .. لما اتهمتك بأن أفكارك وأحلامك تخريف .. أما أنا فأعرف ما أفعله .. وأعرف أن دياب قد ارتكب حماقة سوف يندم عليها .. إنه مسكين .. لا يستطيع أن يفهم أن الثورة فى حاجة إلىَّ أكثر من حاجتها إلى مئات من أمثاله .

قال يوسف فى دهشة :

ـ هل ممكن هذا ..

صاح عبد الهادى :

ـ طبعاً الثورة أحرص على نفسها من أن تعتمد على دياب .. ليكن رئيساً لمجلس الإدارة .. ليكن صاحب السلطة والأمر والنهى .. ولكن عندما يصل الأمر إلى ضرورة كسب الجماهير ، وجذب انتباههم واهتمامهم .. فلن يتركوا الأمر لدياب ، أو الأستاذ الكبير همام .. هذا تهريج .. إنى أحترم تخريفك .. أو فلنقل أحلامك المستحيلة .. ولكنى لا أستطيع أن أحترم هذا العبث ولعب العيال .

وضحك عبد الهادى مسترسلاً :

ـ كل ما يضايقنى شىء لا يخطر ببالك أبداً . أتدرى ما هو .. إن هذا المغفل حسن .. قد خيب ظنى .. كنت أظنه أبرع من ذلك بكثير .

قال يوسف وقد برق فى رأسه خاطر مفاجىء :

إنه هو الذى أقنع دياب بأن يتولى همام رئاسة التحرير .

قال عبد الهادى :

ـ طبعاً .. لأنه يعمل لمصلحتك .. ولأنه واثق إن همام لن يستمر مكانه أكثر من شهرين أو ثلاثة .. ولكنه أخطأ الحساب فى ذلك .. إن همام لن يرى رئاسة التحرير إلا فى منامه .. لست منجماً أو قارىء كف .. ولكنى أقوم بتشخيص موضوعى للموقف .. لا أحد تكرهه الثورة مثلى .. أنا الرجل الذى عاش وسط الأحزاب ورجال العهد الذى يقولون إنه بائد .. أنا فى نظرهم واحد من الأعداء .. من قادة الفساد .. لقد قلت لك هذا من قبل .. ومع ذلك فليس أمامهم مفر من الاعتماد على .. أنا أقدم لهم الصحافة .. ودياب لن يستطيع بكل نواياه وثوريته إلا أن يغلق لهم أبواب الصحافة .

ووصلا إلى بيت نور الدين ، فنسى عبد الهادى كل شىء أو هكذا بدا ، وقد انغمس فى اللعب ، حتى الثالثة صباحاً ، وانصرف الجميع ، بينما تلكأ عبد الهادى لا يريد أن يغادر مكانه تحت عامود النور أمام البيت الذى تسكنه زينب ، كان الشارع خالياً .. والصمت مخيماً .. والليل ثقيلاً حاراً ، وهناك كلب يتجول بعيداً بين الأشجار ، تتابعه عينا يوسف فى حذر ، وقال عبد الهادى وهو يستنشق الهواء بملء رئتيه :

ـ سوف تعلم يايوسف فى يوم من الأيام أن نقطة الضعف فى الإنسان .. هى نفسها مصدر قوته .. ألا نقول إن كل ذى عاهة جبار .. الضعف .. كالعاهة هو الذى يتحدى الواحد منا فإما أن يقتله أو يقويه .. وأنا نقطة ضعفى هنا .. فى هذا البيت .. هنا مصرعى .. الذى وعدتك أن أتحدث عنه معك .. بلا محاكمة أو تحقيق .. ولكن كما يتحدث الإنسان إلى الإنسان .. هنا فى هذا البيت المرأة التى أحببتها كما لم أحب فى حياتى تعيش حبيسة هذا البيت .. هى أفضل ما فى حياة عبد الهادى النجار .. بعيداً عنها وبعيداً عنك .. أنا أعيش كما رأيت بنفسك هذه الليلة .. صراعاً لا ينتهى ، لا حدود لقدراته .. ولا حدود لما يضفون عليه من معان سامية ونبيلة .. أحقر صورها وأدناها .. من طراز ما فعله هذا الحيوان شوقى الذى دافع عن أخلاق القراء المصريين ليقبض رشوة ويؤدى عملاً قذراً فى مؤامرة لفصلى .. إنهم فرحون بتدبير هذه

الأفعال .. والبحث عن المعانى والأهداف المثالية التى تغطيها .. وهم فى نفس الوقت يعيشون فى دوامة هذا التدبير لا يستطيعون الخروج منها .. صدقنى .. هذا شأن الذين يتحمسون لإصلاح الفساد .. إنهم فى نفس الوقت يعيشون بوجوده .. إنه يصبح مبرر وجودهم ولولاه لما كانت لهم رسالة مقدسة يؤدونها ، أو هدف يتشدقون به ويدعون أنه يؤرقهم بالليل ويشغلهم بالنهار .. ثق أن فسادى يطمئن دياب على نفسه بل ويمنحه الثقة بوجوده وأهميته ويبرر له سلطته .

وقطع عبد الهادى كلامه ، ونظر فى عينى يوسف وسأله :

ـ أتفهمنى ؟

همس يوسف :

ـ أظن ذلك .

قال عبد الهادى :

ـ تصور رجل الشرطة فى مجتمع ليس فيه جريمة .. إنه يفقد وظيفته فى الحال .. إنه ضد الجريمة .. يفخر بأن يقبض على اللصوص والقتلة .. يتباهى أنه يطاردهم .. يكسب رزقه وعيشه من وجودها ووجود من يرتكبونها . إنه سيكون أشقى إنسان لو انتهت الجريمة .. سيفقد مصدر فخره .. سيفقد إحساسه بأهميته .. سيفقد رزقه .. لهذا .. يجب أن تتفق معى .. أنهم لا يحاربوننى .. لأنى أحببت امرأة متزوجة .. فلو كان هذا الذى يحاربوننى من أجله .. لكان لهم موقف آخر .. كانوا قد سألوا عن مشاعرى .. كانوا قد اهتموا بأمر إصرارى على الزواج منها .. كانوا اهتموا بمعرفة حقيقة علاقة هذه السيدة بزوجها .. وكيف تزوجته .. والظروف التى قهرتها حتى تزوجت منه .. هذا كله لا يعنيهم .. الدموع التى فى قلوبنا .. أو الأفراح التى نتشوق إليها كبشر .. كل هذا الكلام الذى يهم البشر كما يجب أن يكون البشر لا يعنيهم فى شىء .. الذى يعنيهم .. هو التمسك بوجود جريمة ..

بوجود فساد .. إنهم يحبونه لأنه وقود سلطتهم .. إنهم ينقبون عنه كما ينقب الأمريكان عن البترول فى الصحراء .. لا ليستفيدوا به فى عمل يفيد الناس .. ولكن لإشعال حريق مدمر يرضى غرورهم ؛

وهز عبد الهادى رأسه فى أسى ، وعاد ينظر خلف يوسف إلى البيت وقال :

- لا أدرى .. ما الذى بى .. لا أريد أن أفارق هذا المكان .. إن المعارك التى خضتها قاسية .. وكنت لا أنتبه إلى قسوتها قبل أن يعرف قلبى حب هذه السيدة .. من يدرى .. قلبى يحدثنى .. أن الصراع سوف يشدنى بعيدا عنها .. إنى أفهم الآن فقط .. ما يفعله شعراء العرب وهم يبكون على الأطلال .. ومنازل العشاق .. ليتنى أبكى .. وتسيل منى الدموع .. وأشعر بإنسانيتى لحظة واحدة .. قبل أن أندفع فى صراعى المحتوم .. وأعيش حياتى التى لم أعرف غيرها .. اشهد يايوسف أنى عشت هذه اللحظات تذكرها ولا تنساها .. حتى وأنا أرتكب أفظع الآثام .. حتى لو جاء يوم رأيتنى فيه حيواناً قذراً .. أدوسك أنت تحت أقدامى .. تذكر أنى كنت صاحب قلب أحب .. وأنى تشبثت لحظة بسور بيت من أحب .. أتمنى لو توقف العالم .. وجمدت اللحظة ونجوت من الماضى والمستقبل .. نجوت من ولادتى من أبى وأمى .. ونجوت من مماتى .. لأخلد ما فى من إنسان .. تذكر يايوسف .

قال يوسف فى تأثر :

- سأبكى أنا .

قال عبد الهادى :

- هذه نعمة اختصصت بها .

قال يوسف :

- لا أحتمل أكثر من هذا .

وتلفت إلى السماء .. وقال فى دهشة :

- سوف يطلع الفجر .

قال عبد الهادى :

ـ وأنا لا أستطيع أن أبتعد .. ليس من السهل أن تغادر نفسك .. وتخطو بقدميك إلى الجحيم .

قال يوسف محاولاً أن يهدئه :

ـ لن نذهب إلى الجحيم .. سنذهب إلى بيوتنا ..

قال عبد الهادى :

ـ هذا هو بيتى .. هاهى تطل علينا .. فكيف أتركها .

قال يوسف فى دهشة :

ـ من .. من الذى يطل علينا ..

قال عبد الهادى محذراً :

ـ لا تلتفت .. لا تنظر خلفك .

ولكن يوسف قد التفت ، ورأى شبحاً واقفاً خلف الشرفة .. شبح أبيض له شعر مسترسل ووجه يضوى فى الليل .

همس عبد الهادى :

قلت لك لا تنظر .

قال يوسف مرتبكاً :

آسف .. هل أذهب ..

قال عبد الهادى غير مستمع إليه :

ـ لعلها سمعت .. فالليل ينقل الصوت واضحاً إلى آخر الدنيا .

قال يوسف وقد زاد ارتباكه :

ـ وهل نظل واقفين هكذا .

قال عبد الهادى متشبثاً بيده :

ـ ولم لا .. إن الشارع ملك للجميع .. ألا يعجبك هذا الحلم . وتغير وجهه فجأة وهمس فى أسى .

ـ لقد دخلت .

قال يوسف متنهداً :

- إذن نذهب .

كان يريد التخلص من هذا الموقف الذى يحاصره .. والذى عجز عن إدراك أبعاده ، ودوره فيه .. ولكن عبد الهادى يمسك به ويقول فى لهفة :

- قلبى يحدثنى .. أنها ستعود .

خيل إلى يوسف إن عبد الهادى قد جن .. وأنه فقد سيطرته على نفسه .. فلم يعد يدرى كيف يتصرف .. كان الموقف بالنسبة ليوسف أشبه بكابوس ..

فحاول أن يجذب عبد الهادى إلى السيارة .. ولكنه تشبث بوقفته .. وعيناه لا تفارقان الشرفة التى كانت تطل منها .. وقد استطالت رقبته .. واتسعت عيناه .. وأسرعت أنفاسه .. وهو يردد :

- كم أحبها .. كم أحبها ..

وفجأة ارتاع وجه عبد الهادى .. أو هكذا خيل ليوسف .. وارتعشت شفتاه .. وكان ينظر فى حدة خلف يوسف ، كأنه يرى شيئاً مخيفاً .. جعل يوسف كالمشلول .. عاجزاً عن التلفت وراءه ، ولكن عينى عبد الهادى كانتا تبتسمان فى نهم ولهفة ، والروع تحول إلى بشاشة ونور يشع من وجهه .. وحنان يندفع إلى قسماته ويرتعش فى بشرته ، عيونه ورموشه .. وتخلت يدا عبد الهادى عن يوسف وانزاح الشلل عن رأس يوسف .. فاستدار وراءه .. ورآها قادمة .. ودق قلبه ، كانت زينب قادمة نحوهما .. كشبح أو طيف فى رواية غامضة .. أقبلت وجهها يضىء أكثر فأكثر . بخطوات رشيقة ، كأنها راقصة باليه تخرج من ديكور ، واقتربت أكثر ، وجهها جاد .. عيناها يقظتان ، وفى خطواتها ثقة وكانت ترتدى معطفاً طويلاً أسود ، وفى قدميها شبشب منزلى من القطيفة الحمراء .. كانت تبدو أطول مما تعود أن يراها يوسف ، وكانت أجمل ، وكانت أكثر يقظة وحيوية من هدوء الليل .. وكأن دوامة من الضياء تحيط بها وتندفع من ورائها وكان عبد الهادى واقفاً متسمراً مكانه وقد فقد تماماً قدرته على الكلام .. ويوسف يرى زينب مقبلة ، وكأنها تمشى داخله .. فلا قترابها وقع حاسم فى صدره .. وقلبه يخفق فيتألم

وقد ضاقت أنفاسه عن ملاحقة تدفق الدم من قلبه ، حتى فكر فى الخلاص متمنياً لو أغمى عليه ، ليفيق وقد انتهى هذا المشهد كله .. كانت مقبلة وكأنه ينجذب إليها ، وكأنها تشدهما حيث تقف بينما هى تتحرك نحوهما ، وكأنها تشد معهما الدنيا بأسرها ، وكأن الشارع سوف يزدحم بعد لحظات ، فى نفس اللحظة التى يصلان فيها إليها ، أو تصل هى إليهم ، سيصل أيضاً دياب وحسن وبدران وعصام والمدعوون معهم وشوقى والراقصة إلهام وكمال ونور الدين وسيعود كل من تركوهم وكانوا يلعبون البوكر .. وستمتلىء الدنيا بضجيج وعجيج .. وسيطلع الفجر وينتشر الضياء .. وأقبلت زينب ، وتجاهلت يوسف كأنها لم تره ، مع أنه واثق أنها رأته ، وأنها جذبته إليها ، فهى ما تزال تسير بقدميها داخل قلبه الذى يدق بعنف .. كانت قد اتجهت مباشرة إلى عبد الهادى .. وقالت بصوت هادىء لا يخفى عصبية وانفعالاً شديدين ..

ـ لم أستطع النوم .. الحر مستحيل .. وأعجبتنى هذه الوقفة على الرصيف .. قلت أهبط وأقف معكما ..

قالت معكما .. لا معك .. هكذا أصر يوسف أن يفسر لنفسه كلماتها .. وكان عبد الهادى قد استرد حياته ، فهتف مرحباً ..

ـ أهلاً .. بك فى الشارع .. لقد كنت أقول ليوسف منذ لحظة .. إنه ملك لكل الناس .. ولكن لا بأس أن نستولى عليه وحدنا .. وخاصة أنك قد جئت .. الآن أستطيع أن أموت ياحبيبتى ..

بدا وكأن زينب لم تسمع كلماته أو على الأقل خيل ليوسف ، إنها لم تنتبه لحماسه وحديثه عن موته وقالت تشير إلى العربة ملتفتة إلى يوسف :

ـ أليست هذه عربتك .

أجاب عبد الهادى وقد تأخر يوسف باحثاً عن صوته .

ـ نعم ..

قالت زينب :

ـ هيا نركبها ..

ولم تنتظر زينب ، فقد اتجهت إلى السيارة ، ودب النشاط فى يوسف وقد لسعته حركتها المفاجئة ، فأسرع يفتح لها الباب ، ولكنها توقفت ، والتفتت إلى عبد الهادى قائلة وهى تبتسم :

ـ أدخل أنت .. فسأجلس فى المقعد الأمامى ..

ولم يدر يوسف .. ماذا يقول .. أو ماذا يفعل .. ولكنه وجد السيارة تسير به فى شوارع خالية .. وإلى جواره زينب الأيوبى .. وخلفه يجلس عبد الهادى النجار .



زينب في سيارة يوسف

كان يوم اجتماع ثلاثتهم ، زينب وعبد الهادى ويوسف ، فى السيارة الفولكس فاجن ، يقودها يوسف فى شوارع القاهرة قبيل مطلع الفجر ، نوعاً غريباً من اللقاء ، ما كان أحدهم ينتظره أو يتوقعه ، ولكنهم وجدوا أنفسهم فيه ، تنطلق بهم السيارة فى اتجاه غير معروف ، لتصل بهم إلى مكان غير محدد ، وقد تولدت بينهم علاقة غامضة لفتهم ثلاثتهم بغموضها ، علاقة وليدة جديدة تماماً ، هى مثل اجتماعهم لم ينتظرها أحد ، ولم يتوقعها واحد منهم ، فزينب عندما هبطت إلى الشارع لم تكن تعرف إنها بعد لحظات سوف تركب سيارة يوسف ، ولكنها نزوة خطرت لها ، بعد تلك النزوة الأولى التى دفعت بها إلى الشارع ، إن زينب تهتم بنزواتها ، وهى لا تكبتها ، أو تسيطر عليها بالعكس إنها تفرح لها ، وتستقبلها وكأنها هدايا ثمينة يغدقها المجهول عليها ، وهى لا تكاد تتمتع فى حياتها بشىء .. مثل تمتعها بتلك النزوات المفاجئة التى تزدهر فى صدرها ، كرغبة ملحة ، لا يعدل تحقيقها أى شىء آخر فى الوجود .. إن النزوة عندما تتملكها تفتح أمامها مسالك جديد للتصرف

وللحركة وتندفع فيها لتنجو من هذا المأزق الذى تعيش فيه ، مأزق هذا البيت ، ومأزق هذا الزوج .. وهذه الحياة التى فرضوها عليها يوما ما . كان كل ما يهم زينب الآن ، هو أن السيارة منطلقة ، وأنها تبتعد عن البيت ، وعن نور الدين ، وأنها أصبحت قادرة على الحركة التى تشق الظلام ، وهى لا تحب الظلام وتكره أن ترقبه وهو يحاصرها فى بيتها أو فى حجرتها أو حتى فى سريرها وعندما خطر لها أن تترك البيت ، كانت واقفة فى الشرفة ترقب الليل ، وتتناهى إلى أذنيها أصوات عبد الهادى ويوسف ، وشعرت وهى تسمع تلك الأصوات أن هناك خارج البيت حياة ، وهاجمها ذلك الإحساس الثقيل بأنها محاصرة ، وبأنها لابد أن تنطلق مقتحمة هذا الحصار لتنجو منه ، وكان أول ما شعرت به ، أنها تريد أن تقفز من فوق سور الشرفة ، وكانت تعلم أن هذا الفعل سوف تكون نتيجته الموت ، وأنه انتحار ، ولكنها كلمات ، مجرد كلمات ، لا تساوى شيئاً مقابل أن تكون قادرة على القفز من فوق سور الشرفة ، طائرة لبضع لحظات فى هذا الفضاء وعندما استدارت لتبحث عن معطف ترتديه وقد صممت على الخروج غير مكترثة بنور الدين الذى قد يصحو ويفزع من تصرفها ، كانت تتحرك بنفس المشاعر الانتحارية التى كادت تجعلها تقفز من الشرفة لقد قويت هذه المشاعر داخلها لأنها الحقيقة الوحيدة التى تربط بين حاضرها وماضيها ، بين طفولتها وشبابها ، إنها تستطيع أن تتذكر نفسها الآن فقط .. تتذكر أيام كانت طفلة تهرب من بيت أمها الذى يكسوه اللون الأسود ، تهرب من حجرات أمها إلى حجرة جدتها بألوانها المزركشة تهرب من البيت كله إلى الشارع وعم صالح البواب . إن هذه اللحظة التى تخرج فيها من البيت ومن الضيق ، ومن العتمة . هى اللحظة الوحيدة التى تعرف فيها نفسها ، وتتأكد من أنها فعلاً زينب الأيوبى ، كما عرفتها منذ استطاعت أن تعرف أنها زينب الأيوبى . وهاهى الآن مندفعة فى طرقات لا تعرف إلى أين تؤدى ، تتحرك نحو مجهول ، فتملأها الحركة وتحس أن لها قدرات تفرح بأنها تمتلكها ، رغم أنها لا تعرف ماذا تفعل بهذه القدرات أو ماذا تحققه

نفسها بها ، وهى الآن لا تبتعد فقط عن البيت وعن نور الدين ، بل تشعر أنها تبتعد أيضاً عن عبد الهادى وهو جالس وراءها فى المقعد الخلفى ، وكأن السيارة قد انقسمت إلى قسمين ، ونصفها الأمامى يبتعد عن نصفها الخلفى تاركاً وراءه عبد الهادى ، وكأنها ستجد نفسها بعد قليل وهى مندفعة فى طرقات الدنيا بلا سيارة وبلا أحد يحوط بها ، وكأنها سوف تتخلص بعد قليل من كل هذا الذى كانت فيه ، وكل هذا الذى عرفته ، لتخلص إلى مشاعر غامضة مبهمة كامنة فى قلبها . ولعل القارىء يدرك شيئاً عن هذه المشاعر التى لا تدريها زينب وما زالت تشعر بها غامضة ، فلو تحدث ما يكمن فى قلب زينب .. لسمعناه يحكى لنا عن تلك الأحلام التى كانت تطوف بقلب أبيها مدحت الأيوبى ، عندما كان يجلسها على حجره وهى طفلة رضيعة ، ويطل من نافذة بيته فى الريف بجوار الزقازيق ، ويحلم بأنها تنطلق به فى وديان وسهول وهضاب وجبال ، وتتداعى إلى مخيلته صور الأجداد عبر الزمان فى أسفارهم وحروبهم وحيواتهم ومماتهم عبر سهول آسيا حتى جبال أطلس والمحيط الأطلسى .. ثم يشعر أنه الأسير المهزوم . أنه السلطة التى قهرت والإرادة التى تحطمت ، أنه ذكرى ليأس البشر المرير عبر أجيال وسنوات .. وبعد انتصارات باهرة عبر قرون وأجيال وسنوات . ولكن زينب لا تعرف شيئاً عن هذا كله ، وهى لا تذكر ، أوما كان لها يوما ما أب حتى تتخلص بلا وعى ، من حمل ذكراه الثقيل ، إنها لا تحمل أباها على كتفيها . وهى لا تعرف شيئاً عن سهول آسيا ، ولا تخطر ببالها جبال أطلس ، كل ما بقى لديها ، هو هذه الرغبة أو النزوة فى الانطلاق فى الدنيا بأسرها ، إن تلك النزوة تهاجمها فتتشبث بها ، وتقدم عليها بهذا الشعور الانتحارى ، وقد خيل إليها أنها تقتحم العالم بأسره ، لتعيش فى الدنيا كلها ، وللدنيا كلها . إنه شعور ساذج .

تحركه رغبة طفلة وتنفذه إرادة فجة ، تحاول أن تكسب لنفسها سلطة وليدة . الشىء الوحيد الذى كانت زينب تذكره أحياناً ، مثلما تفعل الآن هو ذكريات مبهمة تتداعى إلى رأسها ، حكايات جدتها دودو هانم .. عن السفر ، وركوب

البحار ، والبلاد النائية التى جاءت منها ، والتى عاش فيها أجداد زينب ، ثم تلك الصور لرجال ونساء بملابسهم الغريبة الفخمة وشواربهم وسيوفهم أو جواهرهن وعيونهن المشروطة وخدودهن المنفخة . فلقد كانت زينب تشعر الآن فيما يشبه الغيبوبة أنها تمزق الحصار المضروب حولها ، وأن ما فى نفسها من أحاسيس تمتد إلى أراض وأماكن بعيدة ، وبشر من رجال ونساء يعيشون هناك عند حدود ذلك المجهول حيث لا أحد يستطيع الوصول إليه ، وأنها عندما تحقق المستحيل وتصل إليه فستقابل أشياء عجيبة غريبة وهى لا تدرك بوضوح أنها ستكون مثل تلك العوالم العجيبة الغريبة التى كانت تشرف عليها وهى تستمع إلى حكايات جدتها . إنها تبتعد عن الحرمان الذى حاصرتها به أمها وفرضه عليها زوجها ، إنها الآن ، تكاد تتعرف مرة أخرى ولبضع لحظات نادرة على زينب الأيوبى . ولا يضايقها إلا صوت عبد الهادى الذى كان يتحدث فيربك حريتها ، ولقد سمعته يسألها ويكرر السؤال عن المكان الذى تريد أن تذهب إليه . هل تذهب إلى الأهرام . إلى القناطر الخيرية ، إلى المعادى أو حلوان . كان السؤال . يرهقها ، وتحديد الأماكن يرهقها ، ويكاد يفسد محاولتها لفك الحصار ، يكاد يفسد النزوة ، تلك الهدية التى أقبلت عليها . وهى لا تستطيع أن تجيب عن أسئلته . إن إجاباتها مضيعة للوقت ،

أى كلام تقوله لن يكون له صلة بما فى نفسها ، أى صوت يخرج منها ، يعود بها إلى الوراء ، ويمنعها من الانطلاق ، ويقيد حريتها بقسوة لن تحتملها ، ولا مهرب من هذا الصوت إلا الصمت ، وإلا أن تتجاهله ، وهكذا أخرجت زينب رأسها من نافذة السيارة ، واستقبلت الهواء القادم من هذه الدنيا ، تحمله نسمات طافت بأماكن بعيدة ، لا نهاية لها .. فتعانق وجهها ، وتتسلل بين خصلات شعرها ، وتشعر بها كأنامل رقيقة حساسة قوية رائعة تداعب خديها وجفونها ورموشها وأطراف أذنيها ، وتحس بها تقبل طرف أنفها ، وتسرى برعشة خفيفة فى شفتيها ، إنها نسمات عاشق نسمات حب تريده وتتمناه ، ولم تعرف مثله أبداً ، ولكنه يؤكد لها إنه هناك وأنها تستطيع

الوصول إليه فيملأ مشاعرها وينعش جسدها مثلما يفعل هذا الهواء فى هذه اللحظة وهو يندفع إليها بقوة ونشوة . ولعل هذا الرجل الذى يقود السيارة لو كان غير موجود لكانت حركتها أسرع وأكمل ، ولكنه على أية حال له ميزة الصمت لولا هذا الهجوم الغادر الذى ارتكبه ، عندما حاولت أن تشعل سيجارتها ، فقد رأت فجأة ولاعة السيارة أمام عينيها . وقد امتدت بها يده ،

ففزعت ، ولم تجد مبرراً لأن يشن عليها هذا الهجوم ، وأن يقتحم . عليها حريتها ، ليشعل سيجارتها ، ولكنه سحب يده بسرعة وصمت ، وتركها تشعل سيجارتها لنفسها ، وكانت فى عينيه نظرة حزينة صافية ، استطاعت أن تقتحمها وأن تعبرها بلا مشقة أو إرهاق . وهو أيضاً لم يجب عن أسئلة عبد الهادى عن المكان الذى يذهب إليه . إنه لم يتكلم على الإطلاق ، وهذا حسن ، والآن لم يبق لها إلا أن تتمتع بعشق الهواء . والانطلاق مقتحمة الظلام إلى حيث يكون الانطلاق .

وكان يوسف قد صدمته زينب بصمتها ، بعد أن فاجأته بهبوطها من البيت وركوبها لسيارته . وزاد من دهشته أنها لم تجب عن أسئلة عبد الهادى ، وكان يعرف أن هناك أصولاً يجب أن يتبعها عندما يجلس مع سيدة ، خاصة وهو يستضيفها فى سيارته ، وأول هذه الأصول ألا يتجاهلها أو يلتزم الصمت مثل « البجم » كما كان يقول له أبوه أحياناً عندما يجسده خجولاً غير قادر على النطق أمام أصدقاء أبيه ، وكان يوسف يتوقع موقفاً مرهقاً بالإضافة إلى ما فيه من إحراج .. سيرهق نفسه بما يجب أن يتخذه من مظاهر مرح ومجاملة أو سيرهق نفسه وهو يبحث عن التصرف المناسب ، فهو لن يكرر الخطأ الذى نبهه إليه مختار زاده يوماً من الأيام ، ولابد أن يراقب نفسه ويحاسبها فى كل كلمة وكل حركة ، ولكن هاهى زينب قد وفرت عليه هذا الإرهاق ، ومع ذلك لم يهدأ بل زاد ارتباكه منذ أن أقدم على ذلك التصرف البديهى محاولاً أن يقدم لها ولاعة السجائر فلم تنتبه إليه ، وظلت يده ممتدة إليها . وهو عاجز عن النطق ، ثم إذا بها تتراجع برأسها فى حدة ، وأشعلت

سيجارتها بعود ثقاب . مرة أخرى اندفع يوسف مفكراً فى نفسه ، ترى ماذا تتصوره هذه المرأة ، رجلاً آخر مثل بقية الرجال إنها مخطئة ، فهى لا تعرف أن عبد الهادى يقول عنه إنه ملاك ، ومع ذلك فلا أهمية لأن تعرف ما يقوله عنه عبد الهادى ، أو أن تعرف ما يقوله عنه الآخرون ، إنهم فى الأغلب يتصورونه وصوليا من نوع جديد ، نوع يخفى وصوليته تحت شعار البراءة اتهام لا يستطيع أن ينفيه أو يقطع بصحته ، إنه لم يعرف نفسه أبداً لعل

أول مرة يواجه فيها نفسه بجدية ، هى تلك اللحظة التى قال لـه فيها عبد الهادى إنه يحمل أباه فوق كتفيه ، ثم ما شعر به بعد ذلك فى إلحاح من أنه لابد أن يفعل شيئاً . إنه يكاد يصدق أى إتهام يوجه إليه . ومع ذلك فهو لا يؤمن إيماناً حقيقياً بأنه متهم ، إنه يستسلم لأحكام الناس ، كما استسلم منذ لحظات لهذه الحدة التى قابلته بها زينب وهو يريد أن يشعل سيجارتها ، لابد أنه ضايقها ، أو لعلها ترفضه ، ولا تريد وجوده ، رغم أنه يقود لها سيارته وتلبية لطلبها ، ولكن على أية حال ، إنه ليس مثل الآخرين وعليها أن تعرف هذا ، إنه لا يرغب فيما يرغب فيه الآخرون . وهو لا يرغب فيها كما رغب حسن زيدان ، إنه لا يحارب حربهم ، ولا يتذوق ما يتذوقون ، ولا يهتم بما يهتمون به ، وهو لا يرهق نفسه سعياً وراء ما يرهقون أنفسهم سعياً وراءه ، إنه لا يعرف تلك المشاعر التى تتأجج فى صدورهم ، وقد يقلدهم أحياناً ، أو يستسلم للموقف الذى يورطونه فيه ، ومع ذلك فهو لا يتورط ، ويخرج من بينهم كما تخرج الشعرة من العجين ، ويظل هو كما هو . بعيداً عنهم . يخيل إليه أنهم هاربون من شىء يطاردهم بينما يكاد يرى نفسه يطارد شيئاً ما ، يشعر أنه موجود فى مكان ما فى هذا البلد ، وأنه سيلتقى به وعندئذ ينصلح الحال ، ويخيل إليه أنه سوف ينجح فى الوصول إلى هذا الشىء ، وسوف يصل إلى ما يريد . وأن هذا هو سره الذى لا يعرفه أحد ، وهو سر عظيم ، لولا أنه لا يعرف بالضبط ما هو هذا الذى يريده وهو رغم عزلته يكاد يجزم أنها عزلة ظاهرية لأن داخله يجعله يتعامل مع الجميع وكأنه يعرفهم منذ

سنوات كأنه يعرفهم من قبل أن يولد . وهو لا يتقارب ولا يتشاجر ولا يتصالح ، لأنه يقبلهم جميعاً ، ولا يحكم عليهم ، وإذا كان يبدو خجلاً فى تعامله معهم ، فليس ذلك بسبب عزلته أو شعوره بالوحدة ، بل لأنه يشعر بهم مهما كانوا غرباء . إنه يريد فى كل لحظة أن يصونهم وأن يحافظ عليهم ويحرص ألا يبدو منه ما يحرجهم إنه لا يريد أن يثقل عليهم ، وهذا ما يجب أن تعرفه [illegible] . إنه لم يثقل عليها أبداً ، ولن .. إنه لن يطلب منها شيئاً ، وهو فى نفس الوقت يثقل على نفسه ويحاسبها ويراقبها ويتابع تصرفاتها والويل له من نفسه عند أية هفوة تبدو منه ، هكذا تعلم من أبيه ، إنها لا تعرف نوع الصلب الذى خرج منه ، وتتذكر يوسف على الرغم منه ذلك الوشم الذى كان على يد أبيه .. ورأى نفسه وهو طفل وقد دخل مع أبيه حجرة فى عيادة طبيب . وقد أمسك بآلات وإبر حادة وسكاكين ، ومقصات وهو يزيل الوشم من يد أبيه .. الذى كان وجهه يتألم ويوسف ينظر إليه وقد انتقل الألم إلى صدره ويديه وجسده كله ، كيف تخلص أبوه من هذا الوشم كيف تخلص من تلك الأشكال الجميلة التى كان يتفحصها ويطيل فيها النظر ويتحسسها ، ويبحث عن مثلها فى يديه ، لماذا يتحمل أبوه العذاب ليتخلص منها ، ما هذا الوحش المخيف الذى فرض على أبيه أن يترك يده لسكاكين الجراح تشق جلد يده ، ومقصاته تقص جلده ، لما تبرأ أبوه من هذا الجمال ، لماذا هرب منه ، إنه يعلم الآن ، إن أباه كان يفر من سخرية الناس بوشم الفلاحين . يهرب من أن يقولوا عنه إنه دق عصافير ، ولكن هل كان أبوه فى حاجة إلى هذا الفرار ، هاهو قد اقتحم طريقه فى هذا المجتمع الذى أراد أبوه أن ينجو من سخريته ، دون أن يحتاج إلى الفرار من شىء ، ودون أن يفقد شيئاً يتصور أنه صادق أو حقيقى أو جميل ، لماذا يتذكر الآن هذا الحادث ، ربما لأنه شعر بالألم فى كف يده وهى ممسكة بالولاعة يقدمها إليها ، نفس الألم الذى أحس به مع أبيه فى عيادة الطبيب ، وربما أشد . إنه لن يتحدث معها بكلمة واحدة . ولن يجيب فى نفس الوقت عن أسئلة عبد الهادى ، لن يخرج صوته أبداً فى هذا اللقاء . ولن

يهتم بأن تعرفه ، وسيتمسك بعزلته الظاهرية ، سيخفى عنها طيبتـه ، واستعداده لأن يلبى ما تطلبه . لقد كانت صلاته بالمرأة تحمل دائماً نفس هذا الشعور بالعزلة ، حتى عندما يتعرف على جسدها ، كان يعاملها بكل ما يطيقه من طيبة وحنان ، ولكن طيبته وحنانه لا يصلان إليها أبداً ، أو هكذا يبدو أنهما لا يصلان إليها .. إنه لا يعامل المرأة التى يعرفها كما يفعل الآخرون .

الذين يبحثون عن المغامرة والمتعة والاشتهاء ، ويحققون فى علاقاتهم رغبات ملحة تفور بها دماؤهم . إن رجلاً مثل حسن زيدان عندما يتحدث عن المرأة يتحدث عن شهوة تهمه ، نحو امرأة بعينها بقسمات وجهها وقوامها وسيقانها وصدرها وعجزها يكاد يتحسسها بعينيه وهو يتحدث عنها ، كل الآخرين يفعلون ذلك ، يتحدثون فى جوع ، ويبذلون جهداً لا حدود لـه ليحصلوا على تلك التى يشعرون بالجوع نحوها . إنهم يندفعون أحياناً بلا وعى ، مثل عبد الهادى الذى لم يتوقف لحظة ليسأل نفسه عن مشروعية علاقته ، أوصلتها بالخطأ أو الصواب .. بالحلال أو الحرام ، إنهم لا يفكرون على الإطلاق ، وإذا جاءتهم الأفكار فهى تأتيهم من تلك النشوة التى يحصلون عليها ، ومن قدر التسلط الذى حققوه ، ومن التملك الذى استولوا عليه ، لا شىء يفكرون فيه له صلة بمنطق أو اقتناع عقلى ، إنه منطق ملاحة الوجه ، ومياسة القد ، وبروز النهدين ، هكذا رأهم ، وهكذا سمعهم ، أما هو فلم يعرف هذا الشعور أبداً ، إنه لم يشعر مرة واحدة بما يتحدثون عنه لم يشعر بأهمية الساقين، أو خطر بروز النهدين ، الشىء الذى جعله يعرف المرأة ، هو أن تطلبه هى ، إنه يقاوم ، لا يكاد يعترف بوجودها ، حتى تضحك له ، وتهمس له ، وعندئذ يستسلم لها فيما يشبه الانهيار .. كانت علاقاته دائما من هذا النوع .. المرأة التى تريده يريدها ، وإلى آخر المدى ، يعترف لها بالحب ، يقدم لها كل ما تريد ، ويتألم ويتعذب لحظات الفراق أو القطيعة ، ليس لأنها حرمته مما يشتهى ، ولا لأن الدماء تفور فى عروقه ، ولا لأنه تعود على متعة ، أو كان يحقق نشوة . ولكن لأن الفراق يمزق ، ويقطع ما بين البشر ، ولأن الذى

يعطى بلا مقابل يتألم عندما يحرم من هذا العطاء ، أكثر من ذلك الذى يعطى بمقابل ..وها هى هذه المرأة التى تجلس بجواره تتجاهله ، وترفض عطاءه ، لولا إنها مازالت تركب سيارته ، وقد طلبت منه أن يقودها ومن أجلها . إنه لم يعد الآن يشعر برغبة فى التخلص من هذا الموقف الحرج ، لم يعد يقلقه وجودها ، ولا يقلقه ذلك الخاطر الذى طاف برأسه عن نور الدين الذى تركته فى البيت وماذا يقول ، وماذا يفعل بعد هذا الذى يحدث الآن وهى جالسة فى سيارته بقميص النوم تحت المعطف والشبشب فى قدميها . لم يعد يقلقه أنه سمع من دياب إنها على علاقة مشينة بعبد الهادى . أو ما سمعه من حسن زيدان عن أفعالها فى بيت الراقصة إلهام كمال . كل هذا اختفى تماماً ، ولم يعد يهتم به ، وكل ما يقلقه الآن ولدهشته ، هو أنه يحاول أن يحدد لنفسه كلمات يقولها عنها ، لو سأله عبد الهادى ، هل يقول إنها جميلة ، لو قالها فلن يكون صادقاً ، سيقولها لأنهم يقولون عن مثلها إنها جميلة ، لأنه سيبدو مخرفاً إذا قال غير ذلك ، ومع ذلك فلو سأله عبد الهادى عن رأيه فى جمالها فلابد أن يجيبه فى هدوء .. لا أدرى .. وسيسخر عبد الهادى منه ، وسيرفض هذه الإجابة وبالتأكيد لن يصدقه ، ولعله يتصور أنه يصف مشاعره الحقيقية نحوها ، خجلاً أو أدباً ، ولكن هذه هى الحقيقة ، إنه لا يشعر بهذا الجمال لأنه لا صلة له به ، إنه ليس مثل الآخرين ، يفقد عقله أمام صورة جميلة ، أو لمرأى ممثلة على شاشة السينما ، إنه لا يعرف هذا النوع من التورط مع الجمال ، ولابد أن الخطأ فيه هو ، هكذا يجب أن الخطأ فيه هو ، هكذا يجب أن يسلم ولا يعاند ، ربما سأله عبد الهادى عن شكلها ، سيقول له إنه لا يعرف شكلها بالضبط ، هذا حقيقى حتى هذه اللحظة ، ولكن سواء سأله عبد الهادى أم لم يسأله ، لابد أن يراها ، وأن يتذكر وجهها ويتعرف عليه ، إنه لا يريد أن ينظر إليها ، ولكن ها هو يلتفت بالرغم منه ناحيتها ، من حسن الحظ أنها لم تره يلتفت إليها ، كان رأسها خارج النافذة يتلقى الهواء ، لم ير غير شعرها يتطاير فى الهواء . وبشرة بيضاء وعنق أبيض وجزء من عينها

اليسرى ورموش جفن مغمض ، الهواء يعبث بوجهها . ما شكل هذا الوجه .

إنهم يقولون عن مثله إنه جميل .. ما معنى إنه جميل ؟ إنه وجه كبير فى جسم قليل ، وجه نائم مستسلم للهواء ، وأنف حاد ، وشفتان رقيقتان ممتلئتان قليلاً فى منتصفهما ، وجه فيه طفولة ، شفتاها منفرجتان . قليلاً . رجهها حاد . رغم هذا المسطح الهادىء ، إلا أن الحدة تكمن فيه ، وجه ملىء بالحيوية ، يذكره بلاشك بصورة البوهيمية لفرانس هاتز . إلا إنها لا تشبهها على الإطلاق ، فالبوهيمية ليس فى وجهها مسحة حزن ، ولا هذا الكبرياء ، ولكن الروح واحدة ، نعم إنها تشبه البوهيمية فى روحها ، ربما خروج هذا الوجه من النافذة ، ومواجهته للهواء ، فى تحد وهاتان الشفتان فى انفراجتهما كأنها بالبوهيمية ، على أية حال لا فائدة من الاستطراد وراء هذا الوصف ، إنه لن يكتب مقالاً عن وجهها ، وهو لن يجسر على أن يقول لعبد الهادى إنها ذكرته ببوهيمية فرانس هاتز ، إلا إذا أراد أن يتيح له الفرصة لأن يسخر منه لأسبوعين قادمين على الأقل . وجهها مضىء رغم أن عينيها مغمضتان ، لاشك أن منظرها هكذا مسل وطريف .. كأنه يعرفها منذ سنوات ، كأنه لعب معها وهما أطفال ، سوف يواصل اللعبة ، سيسرع بالعربة ليهاجمها الهواء بشدة ، سوف يسرع أكثر ، يشتد ، وابتسامتها تزداد قربا من ابتسامة البوهيمية ، وعيناها المغمضتان تقولان إنها راضية تماماً ، وأنها ترحب بهذه الموجات المتدافعة من الهواء التى يرسلها إليها وهو يضغط على بنزين سيارته ، إنه يذكر أن عينيها كبيرتان واسعتان ، هكذا عرفهما وهى تنظر إليه ، لعل هذا حدث مرة أو مرتين ، إنه لا يذكر أنها نظرت إليه أكثر من ذلك ، كانت مناسبات نادرة ، ذات مرة فى الحجرة التى يلعبون فيها ، وكانت توشك أن تدخل وهو خارج ، فكاد يصطدم بها ، ونظرت إليه ، وخيل إليه أن عينيها واسعتان أكثر من المعتاد ، أو أنهما تتسعان وتحتويانه ، ولكنها جرت مبتعدة ، وليلتها فكر فيها طويلاً ، أو جعل يكرر المشهد فى مخيلته عشرات المرات أو مئات المرات ولما استوقفه هذا التكرار ، وتساءل عن سره ،

أجاب لنفسه ، بأنه يفكر فى أن يقول لعبد الهادى إنه رآها ، ولكنه لم يقل له شيئاً ، كاد أن يقول له ثم عدل ، أولعله عجز عن البوح بشىء عنها إذ أحس أن أى كلام لن يعبر عن حقيقة ما رآه ، كان لو نطق بحرف واحد ، سيكذب .. لو قال له إنه رآها عند الباب ، فلن يكون هذا هو ما حدث بالضبط ، لقد رآها :

ماذا كان شعوره .. إنه لا يعرف .. كل ما يستطيع أن يحدده بوضوح هو أنه شعر بمشاعر غير محددة ولا واضحة .. بمشاعر تشغله ، ولا يستطيع أن يفصح عنها ، ولكنه الآن يراها لأول مرة ، كأن عينيه لم تقع عليها من قبل ، هل هذه هى المرأة التى يقولون عنها إنها شعنونة ومجنونة .. ما أحلى هذا الجنون .. إنه جنون مرح ، كلعب الأطفال . كان يسمعها وهى تغنى ، كما سمعها الآخرون . وهم يلعبون البوكر ، وكان يقيم فى مشاعره حاجزاً يمنعه من الاستماع إلى غنائها ، المفروض ألا يصل صوت سيدة فى البيت إلى آذان الضيوف . خاصة إذا كانت تغنى وهكذا منع نفسه من أن يتمتع بصوتها ، أو يدهش له ، أو حتى يتساءل عن سره ، أو يحاول أن ينتقده ، وكان يسمعهم يتحادثون خارج البيت بعد انتهاء اللعب ، كلهم كانوا يتهامسون بكلمات عنها . عبد الهادى .. والمطرب هانى حمادة ولطفى مكى وسليمان بدر ومختار زاده .. جميعهم ، وكانوا يتحدثون عنها ، فى فضول أو محاولة لمعرفة ما يدور فى رءوس بعضهم بعضا من خواطر نحوها ، وكان يبتعد عن هذا الحديث ، ولا يشارك فيه ، ولا ينتظر أحد منهم مشاركته فيه . ومع ذلك كان هو الوحيد الذى اتهمه مختار زاده بأنه أساء التصرف عندما وقف لها وحده عندما دخلت عليه ، هو الوحيد الذى تحول احترامه لها إلى إهانة ، ترى هل تذكر هذه الإهانة ، هل تركت فى نفسها أثرا ، أو شعوراً بالضيق ولو لحظة واحدة ، لعل مختار زاده كان مبالغاً فى تصوره . إنها لا يمكن أن تكون من اللاتى يكترثن بقواعد الاتيكيت ، إنها بكل تأكيد لا تفهمه وإلا كانت أدركت أن من واجب الرجل أن يسرع بإشعال سيجارة السيدة التى تجلس بجواره ، ولا يتركها تقوم بهذه المحاولة على أية حال . الأفضل أن يستمر فى سكوته ، وألا يتدخل

فيما لا يعنيه لا مجاملة ، ولا احترام ، ولا قلة أدب ، ولا شيء على الإطلاق ، وهى نفسها لا تنتظر شيئاً منه ، إن السيارة وصاحبها لا يعنيان بالنسبة لها أكثر من نافذة متحركة تطل منها برأسها وتستقبل الهواء ولكن هاهو جسدها ما زال داخل العربة ، وهو باق بجواره ، ابتداء من رقبتها وكتفيها وصدرها وخصرها حتى فخذيها وساقيها وقدميها .. كل جسمها هنا بجواره . ملفوف بهذا المعطف الأسود . الذى استسلم تماماً لجسدها فانثنى معه ، وأصبحت له مساحات وخطوط وثنايا وزوايا ، إنه ينظر أمامه ، والسيارة تطوف بشوارع وتعبر كباري ، وعيناه على الطريق وعيناه على جسدها ، بل إن جسده يتشكل مع جسدها ، ففى صدره إحساس حاد بالتقوس مبتعداً عنها ، ولكن إحساساً آخر فى رأسه عند أذنيه وفى ساقيه ، أعلا القوس وأسفله ، يميلان نحوها ، وكأنها تجذبه من رأسه ومن أذنيه بالذات . وكأنها تجذبه من ساقيه ، فتتشبث قدماه حتى لا يندفع جسده نحوها ، وتشتد قبضته على عجلة القيادة ، حتى لا يفلت منه الزمام ، إنها قريبة منه أكثر من اللازم ، فكلما انحنت برأسها خارج العربة انزاح جسدها ناحيته ، وهو لا يدرى لهذا القرب أى معنى ، وهو يكاد يلمسها فى أية لحظة ، وبالطبع إنه لن يفكر فى التمرغ عند قدميها كما فعل ذلك الرجل الذى حكى عنه حسن زيدان ، إنه لم يعرف هذا الحب ولا مثل هذا الانبهار .. كان أبوه يقول للشيخ رمضان إن يوسف لا يجب أن يعرف شيئاً عن قصة امرأة العزيز . وهو متمسك بما قال أبوه لا لأنه راض عنه ، ولكن لأنه يريد أن يتحدى أباه . إذا كنت تريد هذا ياأبى فلك ماشئت ، وواجه كيف أصبح ابنك غريباً ، يشعر بهذه الأحاسيس المتناقضة التى لا يعرفها غيره من الناس ، تحمل هذا الطنين الدائم الذى أودعته فى رأس ابنك لتغذيه به ، تحمل أنك جعلت منه إنساناً لا يعرف الحب كما يعرفه الآخرون ، لا يعرف كيف يتوه فيه ، وينسى نفسه ويغرق فى بحاره حتى شوشته . إن ابنك محروم من النشوة ، سخيف ، هكذا تركته ، أو هكذا بقيت معه فوق كتفيه ، تفرض عليه أفكار الموتى ، وتحرمه من طعم الحياة .

هاهو طعم الحياة بجوار ابنك ، ولكنه لا يريد أن يتذوقه أو هو لا يفكر فى تذوقه ، إن الرجال يتحركون فى مثل هذه المواقف ، ويكتسبون مهارات عبقرية للوصول إلى مثل هذه المرأة .. نظرة فابتسامة فلقاء فكلام .. المشاعر تتداعى ، والانفعالات تتوالد ، والنظرات والكلمات تتدفق ، والرغبات تنتعش .. وابنك محروم من كل هذا .. مع أنك أنت يا أبى لم تحرم نفسك ، ألم تتهمك أمى بمحاولتك الزواج من أرملة صديقك بعد غيابك الطويل فى الأسكندريه من يدرى ما الذى كان بينك وبين تلك الأرملة التى كنت تزعم أنك تقضى لها مصالحها .. ترى إلى أى مدى وصلت فى علاقتك بها ، وما هو المقابل ، وما هى الظروف التى نجمت من اتصالك بها ، حتى جعلت أمى توجه لك الاتهام . وتذكر يوسف جلسته مع والده فى مقهى التريانوى بمحطة الرمل .. وأمامه كوب الدندورمة بينما انشغل أبوه بالحديث مع صديق له عن العشق ، وكيف يموت الناس من العشق ، وكان يتحدث بطلاقة .. وبصوت عال مرح ، وكان يضحك وقد ترك حذاءه لماسح الأحذية يمسحه .. وفجأة قطع حديثه وقال لصاحبه :

- كفى .. الولد معنا ..

قال صاحبه :

- أيفهم هذا الكلام .

قال أبوه :

- لا أظن .. ولكن الواجب ..

هاهو يوسف محتاط تماماً ، لا عشق ، ولا مرض بالعشق .. وهو لا يتصل بامرأة حتى تورطه هى معها .. ثم تدرك أنها هى التى تورطت ، مثل تلك التى صرخت فيه ، أنت وحش . وفزع . كيف يكون وحشاً وهو الذى فعل كل شىء من أجلها .. ولكنها تؤكد له أنه ليس إنساناً .. وأنه لا يعرف الحب ، ولا يعرف الحنان ، بل لا يعرف ما هى المرأة ..

وخرج يوسف من أفكاره وخواطره على صياح عبد الهادى :

ـ لقد طلع النهار .. هيا بنا نعود ..

وسمع زينب تقول :

ـ الهواء جميل ..

صاح عبد الهادى :

ـ يجب أن أستعد لأشياء كثيرة .. وبعد ساعة سأعود إلى العمل ..

قالت زينب ضاحكة فى مرح :

ـ أى عمل أجمل من هذا .

والتفتت فجأة إلى يوسف وسألته :

ـ أتريد أن تعود أنت أيضاً ؟ ..

قال يوسف فى مرح أدهشه أنه اكتشفه فى نفسه :

ـ لا .. لا أريد أن أعود ..

صاح عبد الهادى :

ـ افعلا ما تريدان .. ولكن اتركانى أذهب إلى بيتى ..

وكان لصيحته أثرها .. فعاد يوسف إلى بيت زينب الأيوبى .. وقد عادوا ثلاثتهم إلى صمتهم .. وعند البيت ، هبطت مسرعة ، واندفعت إلى البيت ..

وهتف عبد الهادى فى يوسف ضاحكاً :

ـ اسرع ياأسطى إلى بيتى .. ولا تطلب منى أن أترك مقعدى الخلفى لأنى سأنام .. حتى توقظنى أمام البيت ..

دياب يتخذ قراراً

تطورت الأحداث بسرعة مضاعفة ، بعد ذلك اليوم الحافل نهاراً وليلاً ، والذى بدأ باجتماع دياب بالمحررين فى « العصر الجديد » وانتهى بشروق شمس يوم جديد وزينب الأيوبى تغادر سيارة يوسف منصور بينما جلس عبد الهادى النجار فى المقعد الخلفى يختلس لحظات يغفو فيها ، قبل أن يواجه هجوم الأحداث .. ولقد وصل عبد الهادى إلى الجريدة فى حوالى الساعة العاشرة صباحاً ، وقد تخلص تماماً من أى شعور بالإجهاد ، بل كان يشعر بيقظة وحيوية ، تمنحانه ثقة عظيمة بالنفس ، وتحررانـه من أى إحساس بالخوف أو الخطر .. وقبل أن يجلس عبد الهادى إلى مكتبه دق جرس التليفون .. وسمع من يعلنه أن السيد دياب فى طريقه إليه .. كان الصوت يتحدث بلهجة رسمية ، سريعة .. جافة ، لابد أنها تعكس اللهجة الحادة التى أصدر بها دياب أوامره لإبلاغ عبد الهادى النبأ أنه قادم إليه ..

واستقبل عبد الهادى النبأ بترحاب ، ونظر فى اتجاه الباب باسماً ، وهو يفكر بسرعة ، ما أروع أن يقتحم دياب هذا الباب ، يقتحمه بعنف ، يدفعه بقدمه

ويدخل منه كالثور الهائج ، يزعق ويشخط ، ويمثل دور صاحب السلطة المطلقة القادر على أن يتصرف كما يشاء .. إن انتصار عبد الهادى سوف يكمل إذا ما بلغ هذا المشهد ذروته .. لأنه سيكون على دياب أن يتراجع عنه ، وبقدر اندفاعه الآن سيكون تراجعه .. مشهد أكثر روعة وأكثر إذلالاً له .. كان الشيء الوحيد الذى يقلق عبد الهادى ، هو أن يندفع دياب فى هياجه أكثر مما ينبغى .. فيفلت منه الزمام ، ويرتكب حماقات من نوع إثارة العمال أو الموظفين ضد عبد الهادى ، بدعوى أنه يخلصهم من رأس الأفعى عميل الاستعمار والرجعية ، وأنه احتفالاً بهذه المناسبة الثورية لا بأس من الهجوم على عبد الهادى وضربه وإسالة دمائه ، حتى تحدث القطيعة الكاملة والنهائية بينه وبين الذين يعملون فى هذه الجريدة .. إن مثل هذا التصرف العنيف سوف يضر كليهما .. سوف يضر عبد الهادى .. كما يضر دياب ..

وعليه أن يقنع دياب بذلك ، أو على الأقل يمنعه من الاندفاع وراء مثل هذا التصرف ، الذى سيؤدى حتماً إلى تغيير دياب وإبعاده عن رئاسة مجلس الإدارة .. ولكنه فى نفس الوقت سوف يؤدى إلى حرج كبير فى عودة عبد الهادى إلى الجريدة .. لابد أن يصون عبد الهادى نفسه من مثل هذه المواقف المتطرفة ، كما أنه فى كل الأحوال لا يريد أن يفقد صلته بدياب .. كل ما يسعى إليه هو كسر أنفه ، أو على الأقل إقناعه بأنه واهم إذ تصور أنه صاحب سلطة حقيقية وأنه قادر على فصله ثم يصل بعد ذلك إلى موقف مثالى يكتشف فيه دياب أنه لا يستطيع أن يعمل أو يتصرف أو ينجح فى عمله الذى يقبض منه مرتبه بغير الاعتماد على عبد الهادى والخضوع لمشورته إنه لا يهاجم دياب بقصد القضاء عليه ، إنه يهاجمه ، ليبقى عليه تحت سيطرته ، إنه يعرف أن دياب طيب القلب وعاطفى ، وهو أحياناً يتحول إلى عاصفة هوجاء ، ولكن لا خطر حقيقى منها إذا ما انحنى عبد الهادى أمامها فى الوقت المناسب ، وهو دائماً قادر على الانحناء والتمايل حتى تمر العاصفة ، لا لأنه يخشاها ولكن لأنه يريد أن يحافظ عليها ، لأن عاصفة تستطيع أن

تنحنى أمامها وتنجو منها ، خير ألف مرة من عاصفة تجتاحك وتقضى عليك حتى لو انحنيت أمامها ولم تقاومها . إن عليه فى اللحظات القادمة أن يتصرف بدهاء معاوية ، لو كان بينه وبين دياب شعرة ، فلن يقطعها ، لو شد فسوف يرخى ، ولو أرخى فسوف يشد ، ولن يسمح للمشهد القادم ، أن يحدث قطيعة بينه وبين دياب .. سيستمع إليه وهو يعلنه بنبأ فصله ، وهو يفكر فى المشهد التالى عندما يأتيه دياب ليعتذر له عن فصله .. سوف يترك له منفذاً يخرج منه ، ليمارس عواطفه فى الندم على ما فعل ، ويستخدم طيبته وهو يقول لعبد الهادى هيا نعود صديقين ، واغفر لى ما ارتكبت فى حقك من أخطاء .

وفتح الباب ، ودخل دياب ، ولم يسترح عبد الهادى للطريقة التى فتح بها الباب ، كانت عادية ، وهاهو عم صالح يغلق الباب من الخارج فى هدوء .. وهاهو دياب وحده ، الشىء الوحيد المريح ، هو أن وجهه متجهم .

وقال دياب وهو واقف فى مواجهة عبد الهادى :

ـ لقد جئت إليك .. ولم أطلبك إلى حجرتى ..

هكذا بدأت الكلمات الأولى للمشهد كلمات مجاملة ، يقولها دياب فى لهجة اعتذار ، إنه يرخى أكثر من اللازم ، فلابد أن يشد عبد الهادى لتسير الأمور كما يجب أن تكون . لابد أن يجعله يندفع ، ويهاجم ويتورط إلى حد معين .. يكفى لأن يجعل من تراجعه بعد ذلك صدمة حقيقية كفيلة بأن تكسر أنفه .. قاطعه عبد الهادى وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة :

ـ أنت هنا فى حجرتك .. تفضل بالجلوس .. إلا إذا كنت معتاداً على إصدار أوامرك وأنت واقف .. على أية حال ، هل تسمح لنا بالجلوس .. أم سنظل هكذا .. أنا تحت أمرك ..

نظر إليه دياب فى ارتياب ، كان يشم رائحة التهكم فى لهجته ، ولكنه فى نفس الوقت كان يشم رائحة الاستسلام .. وتجاهل تماماً طلب عبد الهادى أن يجلسا . لم يستمع إليه ، كان مشغولاً بالتعرف على نفسيته ، وكان يستعد لإعلان النبأ الخطير .

وقال دياب :

- اسمع يا عبد الهادى .. أنت تعرف لماذا جئت إلى هنا ..

قال عبد الهادى باسماً متظاهراً بالبراءة . وهو يهمس لنفسه ، هأنذا أقلد يوسف ..

- حقيقة لا أدرى .. ولكنه كرم عظيم منك فقد زرتنى بالأمس زيارة مجاملة .. وأرجو أن تكون هذه أيضاً زيارة مجاملة .. ألا تتفضل بالجلوس :

قال دياب بسرعة :

- فى الحقيقة أن هذه الزيارة خاصة بالعمل .. والظروف هى التى فرضتها . وأنت خير من يعلم أن السياسة لها أحكامها .. وأن هناك أشياء لابد أن نواجهها .

قال دياب :

- فى الحقيقة .. لقد تقرر تغيير أوضاع العمل هنا ..

قال عبد الهادى متعجلاً :

- أنا على استعداد لأن أقدم لك أية معاونة تطلبها .

قال دياب فى حسم أراد أن يتخلص به من تردده فى إعلان النبأ .

- المطلوب تغيير أشمل من هذا .. تغيير لن يكون لك فيه دور للأسف الشديد .. تمسك عبد الهادى بتقليد يوسف .. كان يرى وجهه وهو يقول :

- هل تريد منى أن أقوم بعمل آخر .

قال دياب بسرعة :

- لا .. للأسف تقرر فصلك ..

واتسعت ابتسامة عبد الهادى .. أخيراً قالها دياب .. وهاهو يندفع بكلام أعده قبل أن يدخل هذه الحجرة .

- رأيت ياأستاذ عبد الهادى أن أبلغك القرار بنفسى .. أولاً من باب الاحترام لك .. فنحن نحتفظ لك بكل تقدير .. ولكنها أحكام السياسة كما قلت لك .. وثانياً .. لأنك سوف تغادر هذه الحجرة دون أن تمس أية ورقة أو تأخذ من

مكتبك أى شىء .. ولقد فضلت أن أقوم بهذا الإجراء .. حتى لا أحرجك مع أحد الموظفين .. أما كل حاجاتك الخاصة فسوف أرسلها إليك فى بيتك بعد أن ننتهى من إجراءات الفرز ..

قال عبد الهادى فى هدوء :

- أمرك .. ولكنى بالطبع أستطيع أن أخرج من درج مكتبى علب سجائرى .. أظن أنه لا مانع من ذلك ..

فتردد دياب مستريبا . ثم قال :

- لا مانع ..

فأخرج عبد الهادى سيجارة .. وقدمها إلى دياب ضاحكاً وهو يقول :

- تستطيع تفتيشها .. فليس بها شىء ..

فمد دياب يده إلى علب السجائر .. وتفحصها .. بينما امتلأ صدر عبد الهادى بفرح شيطانى ، فلو سارت الأمور كما يتوقع ، فستكون قصة تفتيش دياب لعلب السجائر من القصص الطريفة المثيرة إلى أقصى حد .. تصوروا كان الأخ دياب يبحث عن قنابل وصواريخ داخل علب السجائر .. ويضحكون حتى تسيل الدموع من عيونهم ..

واتجه عبد الهادى إلى مقعد بعيد عن مكتبه ، وهو يقول لدياب فى لهجة شبه آمرة :

- تسمح .. اتفضل اجلس .. سأتحدث إليك بكلمتين ..

قالها فى حسم ، وتبعه دياب ، وجلس قبالته :

قال عبد الهادى وقد اتخذ مظهراً صارماً فيه كبرياء وترفع :

- هأنذا أجلس بعيداً عن المكتب .. وأشعر أننى أصبحت حراً فى أن أقول لك ما أراه ضرورياً .. فهناك أشياء يجب أن تتعلمها .. لأنك تنقصك الخبرة ، ولأنى أحترمك وأحبك .

كان دياب ينظر إليه فى تحد ، وقد احتقن وجهه ، لسماعه أنه شاب تنقصه الخبرة ، ولأن عبد الهادى يقول له إنه يحبه ويحترمه بلهجة من يعطف عليه ،

وكان عبد الهادى يدرك أنه يقدم الآن على المغامرة التى تشبه العملية الجراحية إنه يريد أن يصنع الموقف الذى يثور فيه دياب ويغضب ..ولكن إلى درجة محددة ، حتى لا يتهور ويحطم كل شيء .

ومضى عبد الهادى يقول :

نعم أنت ما زلت شاباً .. والذى يراك لا يتصور أنك جاوزت الخامسة والثلاثين .. وأنا جاوزت الخمسين .. ونحن فى بلد يحترم فيه السن الكبير .. وهذا يسمح لى أن أبدى لك نصيحة مخلصة وسوف يأتى اليوم الذى تشكرلى إبداءها .. لأنى مصرى ووطنى ومخلص لبلدى مثلك تماماً .. ولست إقطاعياً .. كما أنى لست صاحب اتجاهات يسارية مخربة .. أنا وطنى أولاً وأخيراً ولست عميلاً لأحد .. إلا إذا اتهمتنى بأنى عميل لهذا النظام .

وتنهد عبد الهادى ، وكأنه شعر بالألم ، وحدق فى حيرة أمام هذه الكلمات التى ينطق بها رجل محكوم عليه بالإعدام .

أول نصيحة أوجهها لك .. أقولها فى سؤال .. إنى أسألك بينى وبينك .. هل أقدمت على اتخاذ قرارك بفصلى من رئاسة التحرير دون الرجوع إلى المسئولين ..لوكنت قد فعلت ذلك فإنى أنصح بإرجاء تنفيذ القرار حتى ترجع إليهم .. وسأكتم النبأ .. ولن أتحدث به إلى أحد .

وقبل أن يكمل عبد الهادى ، كان دياب قد انتفض وقد تملكه غضب شديد صارخاً :

- مالك أنت .. حتى تسألنى كيف اتخذ قراراتى .. إن المسئولية إلىّ وحدى .. وواجبى محدد بأن أطهر هذه الجريدة من الفساد والدعارة والفوضى التى تشيعها أنت فى كل مكان .. هل تظن أنك تستطيع خداعى بهذا الكلام الناعم المسموم .. اعلم أن الكل سوف يفرحون بفصلك من هنا .. لأنهم يعلمون من أنت .. هل يشك أحد فى أنك عدو للثورة ..

فقاطعه عبد الهادى وعلى شفتيه ابتسامة تحاول تهدئة دياب ..

- أنت تهيننى الآن .. ولكنى فى موقف لا أستطيع أن أفعل فيه شيئاً .. فلا

حول لى ولا قوة .. وأنت صاحب السلطة والأمر والنهى .. ومع ذلك فكل ما قلته .. هو سؤال محدد لا يدعو إلى أن يثير غضبك .. هل استأذنت المسئولين فى قرارك .. صدقنى .. إن الإجابة عن هذا السؤال تهمك أكثر مما تهمنى أنا .. أنا أتحدث معك من أجل مصلحتك أنت ..

ارتجف دياب ، وكأن كلمة « استأذنت » قد أصابته بصدمة .. وفجأة

نهض واقفاً ، وقفز إلى تليفونات مكتب عبد الهادى ، وهو يصيح وقد فقد سيطرته على أعصابه :

ـ هل تريد منى أن استأذن المسئولين .. الأمر بسيط جداً .. ولعلك تذكر هذا الذى أفعله الآن .. حتى تكف عن محاولاتك الفاشلة ..

ورفع دياب سماعة أحد التليفونات .. وهو يصيح فى البوق :

ـ آلو .. وصلنى بالسما .. آلو .. يامسئولين .. يامن فى الحضرة الإلهية .. أنا قررت فصل عبد الهادى النجار من رئاسة التحرير ، ولست مسئولاً أمام أحد غير الله سبحانه وتعالى .. هل سبحانه موافق .

كانت الأفراح تضج فى صخب فى صدر عبد الهادى ، ونشوة جارفة تشيع فى جسده .. هذه نادرة أخرى مذهلة سوف يرويها .. ياله من مشهد تاريخى فكاهى رائع .. لم يخطر بباله أنه سيكون قادراً على وصفه أو مجرد تخيله يوماً من الأيام .

قال عبد الهادى ، وقد وجد أن هذه هى لحظة التراخى .

ـ أنا آسف .. لم أقصد أنك تعمل بغير ضميرك .. وبغير أن تفوض أمرك إلى الله .. كلنا قد فوضنا أمرنا إلى الله سبحانه تعالى .. وأنا أعرف أنه لا يشغلك شىء ، ولا يهمك أحد ، سوى الله وحده لا شريك له ..

قالها وهو يعنى فى قرارة نفسه .. أنه مشغول بنفسه ، وأن معرفته بالله ، معرفة ساذجة ، وأنه يتمسك بالأخلاق والدين كما يتمسك الممثل بالقناع ، مع فارق هام ، هو أن الممثل يعرف أن ما يضعه على وجهه قناع ، أما دياب فلا يعرف هذه الحقيقة ، إنه يمارس الأصول والقيم وكأنها حقيقة ، وكأنها سلاح

فعـال فى يده ، فهكـذا عرف كيف يمـارسها الأجـداد ، ويحققون بهـا الانتصارات .. ولكنه واهم . فليس لديه أصول ولا تقاليد ولا قيم ، كل ما يمارسه أقنعة ، يستخدمها فى ثبات ظاهرى بينما أعماقه فارغة تماماً ، كالأرض الخراب ، وهاهو يعلن عن تدينه ، فيتورط فى هذا الموقف الفكاهى . هاهو يعلن عن تحرره من أية تبعية نحو المسئولين . فيكاد يتحول إلى ريشة فى مهب الريح

وكان عبد الهادى يقول مسترسلاً :

– ما دمت مستريح الضمير .. فهذا هو كل ما يهم .. وأعترف لك أنى أحترمك أضعاف ما كنت أفعل ، لهذا الموقف الذى لا يصدر إلا عن رجل مؤمن بالله .. واثق من نفسه .. وأنا أعلم عن الثقة الكبيرة التى تتمتع بها لدى المسئولين .. أعنى المسئولين هنا .. لا فى السماء .. ولكنك لقنتنى درساً مفيداً فى آخر أيام عمرى .. إن الإنسان ليتعلم حتى وهو يحتضر .. وأنا أعتذر لك .. فمثلى لا ينصح مثلك .. إن وجود رجل له مثل هذا الضمير فى بلدنا .. هو العلامة الحقيقية على أن هناك شيئاً عظيماً يجرى فى هذا البلد ..

قالها ، وهو يعنى فى قرارة نفسه ، أنه عاجز تماماً عن إدراك حقيقة الحياة ، وأن ما يتشدق به من مثالية ، دليل فاضح على طفولته ، وعلى أنه ما زال قاصراً ، ليست لديه أهلية للتصرف السليم .

ومضى عبد الهادى يقول وقد اكتسى صوته بنبرة حزن وتأثر .. وفى صدره أفراح شيطان :

– على أية حال .. كل ما أرجوه .. بل أتوسل إليك أن تفعله .. ودون أن أثير غضبك .. هو أن تؤجل إذاعة تنفيذ القرار حتى أخرج من مبنى الجريدة .. ودعنى أخرج فى هدوء .. دون أن أسمع كلمة جارحة .. ومن يدرى .. فقد يحدث اعتداء على .. مثلما حدث بالأمس أمامك ، أنت نفسك تقول إن الجميع هنا يتمنون هذه اللحظة .. ومن يدرى فقد تتملكهم الشماتة .. فهل أطمع فى أن أعتبر نفسى فى حمايتك .. وما دمت قد اتخذت قرارك بوحى من الله ومن

ضميرك .. فكن مع الله .. وعاملنى بكرم وشهامة .. فى هذه اللحظات الأخيرة من حياتى الصحفية ..

استمع إليه دياب وكأنه لا يفهم .. إنه لا يطيق عبد الهادى ، وهو واثق أنه عنصر فاسد شرير ، لن تصلح الأحوال إلا ببتره ، فما فائدة أن يسمع منه ، أو يفهم ما يقوله ، ومع ذلك فقد هاجمته الآن نوبة من التأثر العاطفى .. وقال فى حماس حقيقى :

ـ هذا حقك .. وأنت فعلاً فى حمايتى .. ولن يمسك أحد بسوء فى هذه المؤسسة .. ولسوف أودعك بنفسى حتى الباب الخارجى .

وجد عبد الهادى أنه لابد أن يشد بعد التراخى .. فقال ساخراً :

ـ وحتى تطمئن بنفسك إلى أنى خرجت بالفعل .. أليس كذلك ؟!

ضحك دياب ، وقد سره أن يعترف عبد الهادى بمكره ودهائه ، وقال :

ـ بصراحة نعم .. أريد أن أطمئن إلى خروجك من هنا .. دون أن تلتقى بأحد .. هكذا أتكلم معك على المكشوف .. ولكن عليك أن تقدر أنى أعاملك بكل احترام .. إذ كان من الممكن أن أترك لغيرى تنفيذ هذه الإجراءات .. وما كان أحد يضمن ما قد يحدث لك أثناء هذا من أشياء لا ترغبها .. لا أنت ولا أنا ..

قال عبد الهادى بلهجة المستسلم لمن هو أقوى منه .. لولا التهكم الواضح فى عينيه وابتسامة شفتيه .

ـ أنتم ياشباب اليوم .. أكثر شطارة ودهاء منا نحن العجائز ..

وسكت برهة .. وقد قرر أن يتحول من التراخى إلى الشد من جديد وقال :

ـ على أية حال هناك سبب آخر يقتضى أن تؤجل إعلان النبأ وهو أن تخطر المسئولين بقرارك .. حتى لا يعلموا به من أحد غيرك .. أرجوك لا تخطىء فى فهم كلامى .. أنا لا أقصد أن تسألهم مشاركتك فى اتخاذ القرار .. لقد صدر القرار بالفعل .. وسأكون بعد دقائق فى بيتى .. وسألزم الصمت .. ولن أفتح الباب لزائر .. ولن أرد على جرس التليفون .. حتى ترسل لى أى واحد .. وليكن يوسف منصور ليخبرنى أنى أستطيع أن أقول لمن يسألنى إنه قد تم فصلى من

العمل .. طبعاً لابد أن أقول .. ولكن بعد صدور القرار بالفعل .. آسف .. أعنى بعد أن تخطر المسئولين بالقرار .

قال دياب : وما زالت نوبة الشهامة تسيطر عليه :

- معك حق .. وأنا أطلب منك ألا تقول لأحد شيئاً حتى أتصل بك رسمياً .

ضحك عبد الهادى قائلاً :

- لا داعى للرسميات .. كل ما أتمناه هو أن تتصل بى اتصال صديق بصديقه .. وسوف أثبت لك كم أنا معجب بك .. رغم أنك قررت فصلى .. أنا واثق أنك لا تتخذ قراراتك بناء على نزوات أو أهواء شخصية .. وأن قراراتك موضوعية تماماً .. ولو كنت شقيقك لفعلت معى نفس الشىء واتخذت نفس القرار .. ثق أن كل همى الآن هو أن أثبت لك أنى لست ذلك الوغد السافل كما تظن .. أنا إنسان قبل كل شىء .. ويهمنى أن أزيل عنك هذه الفكرة السيئة التى تراودك عنى .. إننى فى يوم ما ، لم أفكر فى غير الصحافة .. لم أفكر فى السياسة أبداً .. وأنت تقول إن الظروف السياسية هى التى اقتضت اتخاذ هذا القرار .. ولكن ما صلتى أنا بالسياسة .. هل تتهمنى بأنى أسعى وراء السلطة .. أبداً .. لم أفكر فى هذا يوماً من الأيام ، ليتنى أستطيع أن أكون سلطان نفسى .. إنى خادم للسلطة .. وسأثبت لك فى عناد أنى خادم لسلطة الوطن .. سلطة مصر .. وإذا كانت الثورة للوطن ولمصر .. فإنه شرف كبير لى أن أكون خادماً لها فى أى موقع .. سواء هنا .. أو فى إدارة كنس ورش الشوارع ..

فتفرس دياب فى وجهه وهو يبتسم ابتسامة من يفهم كل شىء وقال :

- ياعبد الهادى لا تلف ولا تدور معى ، إنى أفهمك جيداً .. ومحاولاتك مفضوحة .. الحقيقة .. أنك تكرهنى .. وتكره الثورة .. وعلينا أن نفترق الآن فى هدوء .. هيا خذ علب سجائرك ولنمض إلى الخارج ..

فأمسك عبد الهادى بعلب سجائره .. وهزها فى يده ثم قال :

- سوف يكون وجودها فى يدى مدعاة للتساؤل .. الأفضل أن أتركها هنا .

قال دياب :

ـ سأرسلها لك مع أى أوراق خاصة ..

قال عبد الهادى :

ـ ليس عندى أوراق خاصة .. وضحك وقال وهو يتحرك نحو الباب :

ـ فى الحقيقة أنا لم أنم طوال الليل .. وفى أشد الحاجة إلى بعض الراحة .. هيا بنا .. أنا تحت أمرك ..

وخرج الاثنان ، وعبرا ممرات . وهبطا فى المصعد ، والعيون ترقبهما من بعيد ، لا أحد يقترب ، ولا أحد يسرع إلى عبد الهادى كما هى العادة ليلقى إليه بخبر جديد .. الكل يعلم بما يجرى ، والكل يتجاهل ما يجرى .. إنهم يشهدون الآن فى صمت ما يتوهمون أنه نهاية عبد الهادى النجار ، ولكن أية مفاجأة ستقع عليهم عندما يرون عبد الهادى وهو يعود فى مشهد مختلف تماماً .. فيه يرقص المحررون طرباً فى حجرته .. نعم سوف يجعل من يوم عودته يوم عيد .. وكانا قد وصلا إلى الباب الخارجى .. عندما سمع عبد الهادى وقع أقدام تجرى خلفه ، وقبل أن يلتفت رأى حسن زيدان ، يقبل عليه لاهثاً .. وقد مد ذراعيه . وهجم على عبد الهادى يحتضنه ويقبله فى حرارة وتأثر بالغ .

وهمس عبد الهادى ساخراً :

ـ ولقد اتفقنا ألا نعلن الخبر ..

صاح حسن فى انفعال :

ـ لا أستطيع أن أتركك تخرج هكذا .

ضحك عبد الهادى قائلاً :

ـ على أية حال تستطيع أن تخرج معى .

قال حسن فى جرأة :

ـ نعم .. وسأذهب معك الآن ..

قال عبد الهادى وهو يلتفت إلى دياب :

ـ هذا هو ابنى الحقيقى .. أوصيك به ..

ثم قال لحسن :

ـ إذا أردت أن ترضينى .. فاخدم دياب بكل طاقتك ..

وأطرق حسن برأسه ثم أسرع وفتح باب السيارة ليساعد عبد الهادى على الدخول إليها .. ووقف بجوارُ دياب يشاهدان السيارة وهى تبتعد عن مبنى العصر الجديد ..

وعاد دياب ومعه حسن زيدان إلى داخل المبنى ، وهنا تغير الحال ، فقد اعترض طريقهما أكثر من محرر .. هذا يدعى أنه ينقل أخباراً عاجلة ، وهذا يسأل عن موعد اجتماع ، والكل يريد أن يعرف ، أو يطمئن ، أو يفهم ماذا سوف يحدث بعد خروج عبد الهادى من الجريدة .. ولكن دياب تركهم ، وكان قد همس لحسن زيدان بأن يكتم الخبر ولا يذيعه وأسرع إلى حجرته ، وكلمات عبد الهادى عن ضرورة الاتصال بالمسئولين تدور فى أذنيه ، وتحتل فى نفسه أبعاداً مقلقة .. واتصل بالرئاسة ليبلغ انتصاره .. لقد استطاع أخيراً أن يطرد عبد الهادى من الوكر .. وأن يسيطر تماماً على الموقع ..

وكان أول ما سمعه دياب ..

ـ هل أعلنت القرار .

قال وقلبه يخفق ..

ـ لا ..

وسمع الصوت يقول له ..

ـ الحمد لله .. أرجىء كل شىء .

ووثب قلب دياب من الخوف وصاح :

ـ لماذا ؟..

وسمع دياب الصوت يقول له :

ـ لأن مثل هذا القرار لابد من الرجوع فيه .

صاح دياب :

- إنه من حقى .. ولقد حصلت على موافقة ، قبل أن أتولى هذا المنصب ..

فقاطعه الصوت فى جفاء ..

- بالقطع هذا ليس من حقك .. إن مثل هذا القرار قد يثير مشاكل وأصداء .. لابد من وضع حسابات لها .. هناك مائة موقع على الأقل ستضىء النور الأحمر بمجرد إعلان هذا النبأ .. صحافة وإذاعة الخارج .. مواقع فى البلاد العربية .. قوى داخل البلد ستتصور أنك مقدسون على اتجاه مضاد لمصالحهم .. عشرات سيتصورون أن قرارات مماثلة سوف تلحق بهم ..

- ولكننا اتفقنا على تطهير الجريدة .. وأنا أنفذ خطة متفق عليها ..

قاطعه الصوت :

- كل شىء لابد أن يتم بعد حساب دقيق .

قال دياب :

- ولكن أحداً لم يقل لى ..

فعاد الصوت يقاطعه :

- المهم الآن .. أنك لم تعلن القرار .. ولابد أن تنتظر .. وسوف أتصل بك بعد قليل .

صاح دياب يائساً :

- ولكن عبد الهادى فى بيته الآن ..

صاح الصوت :

- هذا خطأ .. قل له أن يعود ..

صاح دياب ..

- مستحيل ..

صاح الصوت ..

- قل له إنه فى أجازة مؤقتة .. تصرف بسرعة ..

ووضع دياب السماعة ، وقد انهار تماماً ، وجعل يدور فى حجرته وقد أغلقت عليه أبواب الفهم .. وبلغ به الضيق مبلغه ، فأغلق الباب بالمفتاح .. وأخرج

سجادة الصلاة .. وجعل يصلى ، ويبتهل إلى الله أن ينقذه من ورطته ، ثم استغرق فى الصلاة فنسى كل شىء ، حتى دق جرس التليفون ، فأسرع إليه : وسمع صوت المسئول يقول له فى حزم لاشبهة فيه .

- الغى القرار .. هذا خطأ جسيم ارتكبته .. إننا لا نريد أن نكثر من أعدائنا .. وعبد الهادى ليس أكثر من خادم تستطيع استخدامه كما تشاء .. إنك تحيطه بهذا القرار وتجعل له أهمية .. بينما هو فى الحقيقة لا قيمة له .

والتطهير ليس بفصل أمثاله ، المهم هو أن تعرف كيف تسيطر عليه .

همس دياب وألم حاد يوخز صدره .

- سأقدم استقالتى ..

صاح الصوت ..

- لا تقل هذا الكلام الفارغ .. وإذا أردت الاستقالة فافعل .. ولكن بعد أن تنفذ الأوامر الصادرة إليك ..

قال دياب متراجعاً :

- وكيف أتعامل معه بعد هذا الذى حدث .

صاح الصوت ..

- وما الذى حدث .. وما قيمته .. اخبره أنك عدلت عن القرار لصالح العمل .. ولن تواجهك أية مشكلة ..

صاح دياب :

- لن أستطيع أن أصدر له أمراً :

سمع الصوت يقول ساخراً :

- أبداً .. اصدر إليه أوامرك وسوف ينفذها بلا تردد ..

قال دياب يائساً :

- وهل أطمئن إليه ..

قال الصوت :

- لا .. لا تطمئن إليه .. ولكنه أضعف من أن يحرك ساكناً .. أو يلعب

بذيله .. يجب أن تعلم أنك لا تتعامل معه باسمك شخصياً .. أنت تمثل نظاماً ودولة ، وحكماً ثورياً .. لن يؤثر فيه وجود أمثال عبد الهادى .. ونصيحتى لك أن تنسى نفسك .. وأن تعالج المشكلة التى خلقتها فى أسرع وقت .. إياك أن يتسرب عنها خبر واحد ، هذه أوامر لا رجوع فيها .. ولو فشلت فى علاج هذا الخطأ .. فلن تستطيع البقاء حيث أنت .. المسألة ليست مسألة كرامة شخصية .. أو خلافاً .. إنما سياسية عليك أن تنفذها .

قال دياب كالمنوم :

ـ حاضر يافندم ..

وقبل أن يفيق من ذهوله ، كان يمسك بالتليفون ويتصل بعبد الهادى فى بيته ، قال دياب :

ـ سوف أحضر إليك ..

قال عبد الهادى :

ـ مرحباً .. هذا شرف كبير لى .

قال دياب بصوت مفعم بالحرارة :

ـ الشرف لى أنا .. فأنت رجل عاقل .. وأستاذ كبير .

قال عبد الهادى :

ـ العفو .. هذا من أصلك ..

قال دياب :

ـ أما عن الموضوع الذى تحدثنا فيه .. فأرجو أن تكتمه تماماً .. كأنه لم يحدث ..

قال عبد الهادى فى أدب شديد .

ـ نعم .. هذا هو نفس ما اقترحته على سيادتك .

قال دياب فى لهفة :

ـ أرجوك .. لا تخبر أحداً بحرف واحد .

رد عبد الهادى بصوت وقور :

- مفهوم ياافندم .. أوامر سيادتك ستنفذ بالحرف الواحد .

كان أدب عبد الهادى ، ولهجته الوقورة ، أشبه بهاوية سحيقة . يقع فيها دياب .. هاهو عبد الهادى الذى ما زال يظن نفسه مفصولاً ، يزداد أدباً وخضوعاً ترى ما الذى سيفعله عندما يعلم أنه عدل عن قراره ، لابد أن يلمح له .. وقال دياب :

- الموضوع قد يتأجل ..

رد عبد الهادى بلهجة آلية :

- طبعاً .. طبعاً .

قال دياب :

- ربما تأجل إلى أجل غير مسمى ..

قال عبد الهادى بنفس اللهجة الآلية :

- ما تراه سوف أنفذه على الفور ..

قال دياب فى بطء ..

- على أية حال .. انتظر حتى أصل إليك .. ونتحدث فى الموضوع بالتفصيل ..

قال عبد الهادى فجأة :

- متى أنتظر تشريفك ..

قال دياب فى لهفة لم يستطع أن يخفيها :

- فى الحال ..

فصاح عبد الهادى على الفور :

- هل تناولت غداءك .. بالطبع لا .. سنتناول غداءنا معاً .

قال دياب متردداً :

- لا داعى . ياأستاذ عبد الهادى .. لا أريد أن أزعجك ..

قال عبد الهادى :

- بالعكس . وهل أجد صحبة خيراً منك .

قال دياب مستسلماً :

ـ وهو كذلك ..

صاح عبد الهادى فى مرح ..

ـ أنا فى انتظار تشريف سيادتك ..

بعد انتهاء المكالمة ، جلس دياب على مقعده ، متصلباً ، محاولاً أن يحتفظ بكيانه أمام هذه التطورات غير المتوقعة التى هاجمته وأغرقته فيما ليس فى الحسبان .. وانتفض بعد قليل .. كان صوت المسئول يدوى فى أذنيه ، تصرف بسرعة وإلا فقدت عملك .. أصلح خطأك .. لا تدع أحداً يعلم بما ارتكبته من خطأ .. النور الأحمر سيضىء فى مئات المواقع نتيجة تصرفك هذا ..

وأسرع دياب يتصل بالأستاذ همام .. يقول له فى لهجة عصبية .. إن كل شىء قد تأجل .. لا حديث الآن عن رئاسة التحرير .. اعتبر هذا الموضوع وكأنه لم يكن .. انساه تماماً ياأستاذ همام .

وصاح همام محتجاً :

ـ ولكن هناك اتفاقاً ياسيد دياب بيننا .. وهناك شروط وافقت عليها ..

فزعق دياب ..

ـ أنا لا أناقش ياأستاذ همام .. هذه أوامر عليك أن تنفذها .. وإذا لم يعجبك .. فهذا شأنك أنت وحدك ..

صاح همام ..

ـ وهل عبد الهادى باق مكانه ..

فصرخ دياب ..

ـ نعم .. وهل يمكن للعصر الجديد أن تصدر بغير خبرته .. لقد اندفعنا فى تفكير خاطىء .. ولست مسئولاً عنه .. حسن زيدان .. هو الذى كان وراء هذه الفكرة الخاطئة ..

صاح همام غاضباً :

ـ أنا لا أفهم كيف تغير موقفك بهذه السرعة .

قال دياب محتداً :

- غيرت موقفى لأنى تبينت الخطأ .. وجل من لا يخطىء ياأستاذ همام ..

ودخل حسن زيدان ، وكان دياب قد طلبه ، هوويوسف .. واستمع حسن إلى دياب .. وهويطلب منه إلغاء كل ما اتفقا عليه ، فاصفروجهه ، وبدا عليه فزع شديد ، قفز يريد الخروج ، وسأله دياب ..

- إلى أين أنت ذاهب ؟

صاح حسن وقد تملكه الذعر :

- أنا ذاهب إلى الأستاذ عبد الهادى . ثم قال والدموع توشك أن تنهمر من عينيه ..

- كنت صادقاً .. وأنا أقول له إنى أريد أن أخرج معه .. يجب أن يصدقنى ..

قال دياب مهدداً :

- لا تتحرك من مكتبك .. ولا تذهب إليه ..

قال حسن محتجاً :

- لا أستطيع .. لابد أن أذهب إليه ..

صاح دياب :

- لن يذهب إليه أحد .. هو الذى سوف يجىء .. وعليك أن تكون فى انتظاره ..

وخرج حسن زيدان .. وبعد قليل دخل يوسف .. وما كاد دياب يراه .. حتى أقبل عليه وأمسك بذراعه وقال له وهو يجذبه :

- هيا معى .. إلى بيت الأستاذ عبد الهادى ..

انتصــار عبد الهــادى

خرج حسن زيدان من مكتب دياب ، وهو لا يكاد يرى ما أمامه من أشياء أو أشخاص ، كان قد استولى عليه هلع شديد ، حتى لم يبق من كيانه إلا صورة له وهو صبى أمه تجذبه من يده تطوف به على بيوت أقاربها وتتسول قرشاً يأكلون به ، لقد تداعى ما أقامه حول نفسه من هيبة وشطارة وذكاء ، واختلطت عليه الأمور ، ولو أن أحداً استوقفه فى هذه اللحظة ليسأله من يكون .. ؟ لعجز عن الجواب ، ولما عرف أنه حسن زيدان نائب رئيس التحرير ، ولعل بعض المحررين حاولوا مخاطبته ، ولكنه كان مندفعاً بذعره وهلعه ، وقد نسى تماماً ماقاله له دياب عن ضرورة بقائه فى الجريدة ، فلم يسمع لأحد ، حتى وجد نفسه فى الشارع يبحث ملهوفاً عن سيارته ليذهب إلى بيت عبد الهادى فى الحال . لابد أن يسرع إليه . ويسجد أمامه ويتمرغ عند قدميه ، ويقبل حذاءه مقدماً له كل ما يريده من خضوع ومذلة ، هكذا بدأ حياته ، وهكذا يجب أن يواصلها وهذه هى مهمته الأولى الآن . وعليه أن يقوم بها بلا أدنى تردد أو إبطاء ، سيبكى أمام عبد الهادى ، كما كانت تبكى أمه ،

ستفيض منه مشاعر أنثوية ، سيكشفها كاملة ، غير مكترث برجولته لأن فيها الأمل الوحيد فى أن يصفح عنه عبد الهادى ولا يسحقه . إن عبد الهادى لا يريد منه اعتذاراً ، ولا يريد منه تبريراً لمواقفه ، ولن يسأله لماذا تحالف مع الأستاذ همام ، أو لماذا دبر الحديث عن الشذوذ الجنسى فى مجلسه ، إن عبد الهادى لن يعنيه أنه ندل سافل ، إن الشىء الوحيد الذى يهم عبد الهادى الآن فى كل آن ، هو أن يثبت أن حسن زيدان ضعيف ذليل أمامه ، أنه خاضع تابع له ، أنه واقع تماماً تحت سيطرته ، أنه ليس أكثر من امرأة مغتصبة ، وسيكون لعبد الهادى كل ما يريد ، فهذا هو جوهر الصفقة بينهما ، إنه لن يتوه وراء مواقف أخلاقية أو عاطفية من أى نوع ، لقد أصبح من المحتم عليه أن يضع شفتيه على حذاء عبد الهادى ، وأن يقول له هأنا قد عدت إليك ، أكثر مهانة ، أكثر ذلاً وخضوعاً ، وإذا كنت قد تمردت عليك ، وتحالفت ضدك ، فلأنى أحمق ، وما عليك أن تهتم بحماقتى ، بل لعلك ترحب بها ، لأنها فضحتنى ، وضاعفت من عبوديتى لك .

وهكذا استقبله عبد الهادى وهو يقول ساخراً :

- كنت أتوقع مجيئك ..

فانقض حسن على يد عبد الهادى يمسك بها ملهوفاً ويقبلها .

وقال عبد الهادى وهو يتفرج عليه :

- وفر على نفسك كل هذا ياحسن .

ولكن حسن كان مصمماً على اتقان دوره . فلا مجال الآن لهفوة واحدة . فارتمى على الأرض يقبل حذاء عبد الهادى وهو يولول :

- افعل بى ما تشاء .. فأنا أستحق كل ما تفعله وأكثر ..

قال عبد الهادى فى هدوء قاتل :

لن أفعل بك شيئاً ياحسن أكثر مما تفعله أنت بنفسك .. ولكنك خيبت ظنى .. فما كنت أتصور أنك أحمق إلى هذا الحد .

صاح حسن :

ـ أنا أحمق ومغفل وابن كلب ..

فقاطعه عبد الهادى هازئاً :

ـ هذا صحيح لسبب واحد .. وهو أنك فشلت .. ولأن مشروعك الكبير قد انهار . ولأنك توهمت أن بضعة طراطير من أمثال دياب وهمام سوف يساعدونك فى تسلق السلم إلى القوة والنفوذ ..

وأشار عبد الهادى إلى مقعد وقال :

ـ اجلس هنا .. واسمع ما سوف أقوله لك .

وجلس حسن ، وقد اتخذ مظهر التلميذ المستكين أمام أستاذه الكبير . بينما مضى عبد الهادى يقول :

ـ مازالت تنقصك خبرات كثيرة ، لقد أخطأت إذ ركبك الغرور ، وقلت لنفسك . إن لديك من الثقافة ما يجعلك قادراً على التفوق علىّ ، لعلك توهمت أنك ما زلت فى المدرسة أو فى الجامعة ، تستطيع أن تحفظ بضعة دروس ، لتكون الأول على الجميع .. ولكن الحياة شىء آخر غير المدرسة والجامعة . لا يكفى أن تحفظ دروسك ياحسن ، لا يكفى أن تؤمن بنفسك وبقدرتك على التفوق . هناك ما هو أهم من ذلك بكثير . وهو ألا تقف عند نفسك ، وأن تخرج من حدود أطماعك الشخصية ، لترى الحياة على حقيقتها وكما تواجهها فى الواقع الذى يفرض نفسه علينا . أنت لم تر الواقع ياحسن ، فتصرفت كرجل أعمى ، لو كنت ترى الواقع لما جريت وراء كلام دياب ، ولعلك تدهش إذا قلت لك ، إن هذه المعركة التافهة التى شغلتكم كل هذا الوقت ، وأخذت منكم كل هذه الجهود ، لم تتطلب منى أن أحرك ساكناً ، هذه الحقيقة ، أنى لم أفعل شيئاً على الإطلاق ، لأنى كنت أرى من البداية أنكم لا تفعلون أكثر من الاندفاع وراء أوهام .. أنت تندفع وراء وهم أن تصبح رئيساً للتحرير مكانى ، وقد يكون هذا من حقك يوماً ما .. ولكن ليس بهذه الطريقة الساذجة .. ليس بهذه التصرفات البلهاء التى لا يمكن أن تقف على قدميها لحظة واحدة . إن رئاسة العصر الجديد لن تكون لمن يطلبها لنفسه . بل يجب أن يكون لدى من

يطلبها سبب ودافع أهم من هذا . هل تفهم ما أعنيه ياحسن ..

وحدق عبد الهادى فى عينى حسن زيدان ، الذى كان ينظر إليه فى لهفة وذلة ، وهمس حسن :

- لم أعد أفهم شيئاً .. صدقنى أن كل ما أشعر به ، هو أنى حشرة حقيرة تحت حذائك ..

صاح عبد الهادى بقوة :

- نعم أنت حشرة دنيئة .. ولكنك يجب أن تفهم .. أنا لا أحتمل أن تعيش معى كل هذه السنوات ، ثم لا تعرف أنى رئيسك .. وأنى رئيس تحرير العصر الجديد .. هل تظن أنى أحتفظ بهذا المنصب لأنى أريد مرتبى .. هل تظن أنى باق مكانى لأنى أملك سلطة مادية أستطيع أن أهدد بها من يمسنى بسوء .. ما الذى يبقينى مكانى ياحسن زيدان لابد أنك تعرف الإجابة عن هذا السؤال ، فإذا كنت لا تعرف ، فكيف جرؤت على محاولة الوثوب إلى هذا المنصب ، كيف وصل بك الخبل أن تقنع نفسك بأنك قادر على الوصول إليه ..

قال حسن منفعلاً :

- ظننت أن الأمور أصبحت فى يد دياب .. بلغت بى الغفلة أنى صدقته ..

قال عبد الهادى ساخراً :

- صدقت دياب ورغباته .. هل تظن أنها تصلح لأن تكون مبرراً مقنعاً لهذا المنصب الذى تطمع فيه .. ما هى رغبات دياب .. إنه أيضاً اندفع وراء أوهام .. توهم إنه يدافع عن الفضيلة ..

اختار لنفسه دور المدافع عن الأخلاق والدين ، تصور إنه يحقق مصالح عليا للوطن بالقضاء علىّ .. إلا إنه أبعد الناس عن فهم ما يتشدق به لأنه أعمى مثلك لا يرى الواقع ، فأصبح كل هذا الذى يتشدق به مجرد مظاهر جوفاء .. لا صلة لها بما فى قرارة نفسه ، من سذاجة ، وفرح بدائى بأنه قادر على التسلط على عبد الهادى وإذلاله والتشفى فيه ، هتف حسن وقد وجد أخيراً فرصته :

نعم ـ هذا صحيح .. يجب أن أعترف لك بكل شيء .. هو الذى وضع خطط . ونادانى فى مكتبه ، وقال لى إنه قد قرر فصلك ، ولقد أصابنى ذعر .. ولكنه قال لى إن الأمر مفروغ منه .. وطلب منى إن أتأكد أن أحداً لن ف فى صفك .. وقال إن لك فضائح كثيرة تلوث سمعتك ، ولابد من نشرها بين حررين . وأعترف لك بأنى ساهمت معه فى الحديث بين المحررين عن علاقتك ذه السيدة زينب الأيوبى .. وهناك أشياء أنت لا تعلمها .. وسأقولها لك .. تى لو بصقت فى وجهى وطردتنى من عملى فأنا لا أستطيع أن أخفى شيئاً نك بعد الآن .. لقد قلت للجميع إنك ستتزوج امرأة ساقطة تبيع نفسها لنقود ..

رفع عبد الهادى رأسه بحدة . وقد صدمته هذه الكلمات الأخيرة .. ومع ك تمالك نفسه ، واحتفظ بوجه المقامر الذى تعود على إخفاء انفعالاته حتى يكشف أوراقه . بينما استرسل حسن زيدان فى اعترافه ..

كنت حاقداً عليك .. لأنك كنت تفضل يوسف علىّ .. تبين أنك على حق ، فهو فضل منى أو على الأقل أن أمره لم يفتضح حتى الآن .. على أية حال لقد خفيت عنك أنى عرفت زينب الأيوبى .. عرفتها فى بيت الراقصة إلهام كمال ن قبل أن تحدثنى عنها .. وتقول إنها تريد مقابلتك .. وعرفت الكثير عن سمعتها السيئة .. فإلهام تقدمها للرجال فى بيتها وتقبض الثمن وتقول عنها نها صاحبة نزوات أحياناً توافق وأحياناً ترفض .. ولقد ذكرت هذه المعلومات التفاصيل لدياب فاهتم بها ، لأنها كانت جديدة عليه . ولم ترد فى تقاريره لمكتوبة عنك .. والتى جاء فيها إنك كنت متهماً فى واقعة شذوذ جنسى عندما كنت طالباً فى مدرسة طنطا الثانوية .. وأنا الذى أقنع دياب بتدبير الجلسة التى هاجمك فيها شوقى ، وقد وافقنى دياب وقال إنه مستريح الضمير رغم نذارة هذه العملية . لأن هدفها نبيل هكذا قال ، فالتخلص منك هو تخلص من الفساد والدعارة . ومع ذلك فقد كان منتشياً باشتراكه فى هذه العملية ، وكانت عيناه تلمعان برضاء كامل عن نفسه ، ولعله كان يهنىء نفسه بأنه وصل إلى

درجة من الدهاء والعبقرية تقارن بدهاء مكيافيللى . وأنا أيضاً كنت أتوهم أنى أصبحت قادراً على التفوق عليك ..

ولوح حسن بيديه علامة يأس وسكت .. وقال عبد الهادى يحدق فيه مفكراً وقد هاجمته أسئلة كثيرة عن زينب ، وصلتها بالراقصة إلهام كمال ، وكان يقاوم غضباً تزايد فى صدره ، أن هذا الحقير حسن زيدان لا يدرك إنه أصابه إصابة أليمة فى لحظة انتصاره ،لقد سقط أمامه وقبل حذاءه ، ثم وجه

إليه طعنة عليه أن يتلقاها صامتاً رغم جرحه العميق .

وقال عبد الهادى محاولاً أن يخرج من آلامه ولو إلى حين .

- كل هذا لا يهم .. المهم أن تعرف أنى باق مكانى لأنى لم أخدع نفسى لحظة واحدة . بأى وهم من الأوهام .

كان يتحدث وقد اختلطت فى رأسه صورة زينب بصورة يوسف . لقد جعل من علاقته بزينب فى لحظة ما ، أروع ما صادفه فى حياته ، الحب الذى لم يحب مثله فى حياته . إنسانيته الوحيدة فى دنيا الغاب والوحوش المفترسة .. جعل منها الفرح الحقيقى الذى يتشوق له الإنسان وجعل منها الدموع الحقيقية التى تفيض من قلبه البشرى .. وجعل من تلك اللحظة العاشقة لحظة حلوة فى حياته الفانية الهالكة .. وجعل منها نقطة ضعفه التى هى مصدر قوته .. مثلما أحب يوسف كمخلوق خرافى .. يعيش بأحلام مستحيلة ، ما أجملها كأحلام ولكن ما أبعدها عن التحقيق .. وهو الآن فى حيرة أليمة وهو يصارع هذا القلق الذى ينهشه لمجرد إنه سمع من حسن زيدان أن ما كان يتوهمه هو مستحيل بالفعل . وأن ما كان يعتقد إنه لحظة خلود فى حياته ، إنما هى لحظة مغشوشة غير حقيقية .. وأن مشاعره التى أحسها نحو زينب .. كانت موجهة لامرأة لم توجد إلا فى خياله . فهى كانت تعرفه . وتتقبل كلماته العاشقة . فى الوقت الذى تقبل فيه إعطاء جسدها لمن يريده بالثمن . أى تناقض هذا الذى يحتدم داخله ، إنه أشبه بالمجنون .. يؤمن أن الدنيا بلا قيم . ثم يخلق لنفسه عشقاً ويجعل منه قيمة يعتز بها . ثم يفزع لأنه اكتشف أن هذا العشق خرافة ، وإنه

وهم سقط فيه وهو الذى يكافح الأوهام ويسخر منها . وما أدراه أن يوسف هو الآخر ليس ذلك المخلوق الخرافى . الملاك الذى ضل طريقه فى غابة الشياطين ، البراءة التى تنجو من أى تلوث بالفساد .. إنه يشعر الآن وكأنه قد شنق نفسه بفصاحته ، ما كان يجب عليه أن ينطلق فى الحديث عن أفكاره ورسالته فى الحياة بكل هذه الثقة والوضوح .. إن كلماته ما كادت تتضح .. واستقامت فى بناء شخصيته حتى تداعت وتقوضت ، وتركته حائراً لا يدرى الآن حقيقة ما يراه .. وحقيقة ما يجب أن يسلكه من تصرف ..

وانتبه عبد الهادى على صوت حسن زيدان وكان يتحدث منذ برهة .

ولكنه لم يكمل كلامه . فقد دق جرس الباب ، وجاء الخادم يعلن وصول أحمد عبد السلام دياب ، ويوسف منصور . وأسرع عبد الهادى إلى لقاء دياب ، وقد غلبه تواضع شديد ، كان وجهه مهموماً ، وعيناه قلقتين ومخاوفه من نفسه تشتد وارتبك دياب وكان قد رأى حسن زيدان وعرف إنه أسرع إلى عبد الهادى ليعلن له النبأ .. وأيقن أن حسن قال لعبد الهادى ما أغضبه ، فأسرع يقول بلهجة يغلب عليه الاعتذار أكثر من الغضب :

ـ لقد أخطأ حسن بالمجىء إليك .. كنت أريد أن أكون أول من يعلن النبأ ..

والتفت دياب إلى حسن متوعداً :

ـ سوف أحاسبك على مخالفة أوامرى ..

وإذا بعبد الهادى يندفع قائلاً :

ـ لا تظلمه .. إنه مرتبك .. وحالته تستحق العطف ..

فنظر إليه دياب فى دهشة .. غير مصدق أن عبد الهادى يعلن رضاءه عن حسن . ولكنه تشبث بموقفه محولاً انفعالاته من حرج الموقف إلى حسن ، فالتفت إلى يوسف سائلاً :

ـ ألم أقل له أن يبقى فى الجريدة ولا يتدخل فى هذه الأمور ؟ .

وأطرق يوسف ولم يجب .. وإذا بعبد الهادى يصيح فى يوسف وقد تملكه غضب لا مبرر له :

- أنت الوحيد الذى يتفرج علينا .. كلنا فى الهم سواء .. وأنت وحدك تتسلى بنا ..

فتح دياب فمه من الدهشة .. والتمعت عينا حسن باهتمام شديد .. ووجه يوسف نظراته إلى عبد الهادى فى تساؤل برىء . بينما اندفع عبد الهادى موجهاً الحديث لدياب :

- أرجوك ألا تحدثنى فى شىء مما جئت من أجله ، الموضوع انتهى وكأنه لم يكن .. وأنت لم تخطىء فى حقى .. وأنا لم أخطىء فى حقك .. ولكن الظروف التى هى أكبر منا جميعاً هى التى صنعت هذا الموقف . وإذا كنت تعانى منها .. فأنا أيضاً أعانى .. وحسن هذا يعانى .. وكلنا نشعر بالخوف مما قد نواجهه فى مستقبل الأيام .

قال دياب باندفاع عاطفى :

- هذا صحيح تماماً ياأستاذ عبد الهادى - ولذلك فأنا لن أسمع كلامك وسأفتح الموضوع وسأعترف لك أمام هذين الصديقين . أنى أخطأت فى حقك .. ولقد اتخذت بالفعل قراراً سخيفاً .. وكنت أنوى تنفيذه .. لأنى ظننت أنى قادر على ذلك . وأنت الذى نصحتنى بلهجة فى غاية الأدب والرقة أن أتروى فى قرارى .. أنا لا أخشى أن أعترف بهذا أمام أى إنسان .. ولقد كنت كريماً شهماً معى فى وقت لم أتصرف فيه معك إلا بكل نذالة ، وأنا لم أعدل عن القرار ، ولكن الأوامر صدرت لى بأن أعدل عنه . وقالوا لى إن الظروف

لا تسمح الآن لاتخاذ مثل هذا الإجراء .. مع إنه كان موافقاً عليه من قبل أن أتولى منصبى هذا .. وأنا أقولها الآن صريحة .. إنى سأقف معك .. ولن يأتى وقت ما تحت أى ظرف يتخذ فيه أى إجراء ضدك .. لأنى عرفتك وعرفت حقيقة معدنك .. أنت رجل من صلب رجل .. وإنه ليشرفنى أن أعمل معك .. بل وأن أكون تحت رئاستك .. ولا أقول لك هذا فقط .. بل أقول أيضاً إنهم طلبوا منى أن أستمر فى الاحتياط منك ومن تصرفاتك .. ولكنى أقول لك بمنتهى الثقة فلتفعل ما تشاء .. لأنه إذا كان يجب علىّ الاحتياط والحذر فليس منك ..

ولكن من تصرفاتهم وأفكارهم التى لا افهمها واصبح لا يعنينى أن أفهمها ..

قال عبد الهادى فى أسى حقيقى :

ـ هم أيضاً لهم عذرهم ..

والتفت فجأة إلى يوسف وصاح غاضباً :

ـ أما زلت تتفرج علينا ..

قال يوسف متعجباً وقد تقلصت ابتسامة غريبة على شفتيه :

ـ ماَ الذى تعنيه بالضبط ..

صاح عبد الهادى :

ـ لماذا تبتسم .. ؟

قال يوسف معترضاً :

ـ أنا لا أبتسم ..

صاح عبد الهادى :

ـ بل تبتسم ابتسامة وقحة .

قالها وهو يشعر بكراهية مفاجئة نحو يوسف ، الذى صاح :

ـ لا أسمح لك أن تخاطبنى بهذه اللهجة .

وتدخل دياب يسأل فى دهشة :

ـ ما الذى حدث ؟

صاح عبد الهادى :

ـ لم أكن أتوقع مجيئه .

قال دياب فى ارتباك :

ـ أنا الذى طلبت منه المجيء .. ألستما أصدقاء ..

ونهض يوسف ، وأسرع يغادر البيت بينما يصيح دياب :

ـ تعال يايوسف حتى نفهم ما الذى بينكما ..

ولكن يوسف لم يجب ، ولم يكرر دياب السؤال . كان يشعر بجرح فى مخالفة عبد الهادى وقد ترك له زمام التصرف ، واكتفى بأن يسأل

عبد الهادى :

- ما الذى حدث بينكما .. ؟

قال عبد الهادى فى ضيق :

- لم أعد أحتمله ..

- قال دياب فى حيرة :

- ولكن الظاهر أنه خير صديق له .

قال عبد الهادى معترضاً :

- إنه ليس صديقاً لأحد .. إنه مخلوق بغيض .

فسأل دياب وقد زاد على حيرته فضولاً :

- ما الذى فعله ؟.

قال عبد الهادى بلهجة مريرة :

- لا تسألنى عن الذى فعله ، ولكن اسألنى عما سوف يفعله .

صاح دياب متودداً فى محاولة مخلصة لتهدئته :

- حقاً أنا لا أفهمك يا عبد الهادى .. ولقد جئت إليك فى موضوع آخر .

- لابد أن أعرف حقيقة الأمر وأصالحكما ..

قال عبد الهادى بسرعة وكأنه يرى صورة زينب فجأة :

- تصالحنى مع من .. إنه مخلوق لا تتصالح ولا تتفاهم معه .. لقد احتملته لسنوات لعلّى أحصل منه على أية علاقة . أية مشاعر . أية معاملة لكنى فشلت تماماً .. حتى جاء هذا الظرف الأخير .. الذى انتهى بأننا اكتشفنا بعضنا .. وأظن أن من حقى الآن أن أقول إننا أصبحنا أصدقاء .. فكما يقال لا محبة إلا بعد عداوة .. أنا أشعر الآن بصداقتك وإنسانيتك .. وأشعر بصداقة حسن وإنسانيته .. أما هو . فلا أدرى ما هو . مجرد عينين تطلان عليك فى بلاهة .. وابتسامة وقحة وتظاهر سمح بالبراءة .. الله وحده يعلم ماذا وراءه .

هز دياب رأسه فى غير اقتناع وقال :

- لا ياعبد الهادى .. هناك ما تخفيه عنا .

قال عبد الهادى بلهجة غريبة :

ـ اعذرنى .. لعلّى أخرف .. لعلّى مجهد إذ قضيت يومين عصيبين .

قال دياب :

ـ أنت على حق . كلنا متعبون .. ولقد آن لنا أن ننصرف .

فهتف عبد الهادى :

ـ لا .. ليس قبل أن نتناول معا الخبز والملح .

وذهب عبد الهادى إلى حسن وهو جالس على مقعده . ووضع يده على كتفه ، وقال له وهو يبتسم مشجعاً :

ـ هيا يا أبا على .. لابد أنك جوعان ..

ونهض حسن وساروا إلى مائدة الطعام ، وعبد الهادى يتوكأ على كتف حسن ، وقد زاد خوفه من نفسه وخوفه على نفسه .. هاهما ، دياب وحسن فى بيته يعلنان انتصاره التافه . ولكن قلبه ينزف وآلامه تشتد . وما كان ليشعر بهذا لو وقعت به أشنع الهزائم . ولكنها زينب التى خدعته .. لعلها لم تخدعه .. ولكن حسن لم يكذب عليه . إنه واثق من صدقه هذه المرة ، إن المرء لا يقبل حذاءك ويكذب عليك فى نفس اللحظة . ربما يكذب عليك فى اللحظة التالية . فى فرصة أخرى مواتية ، ولكن ليس الآن فى لحظة الخنوع والاستسلام . هاهم أعداؤه يتحولون إلى ملاذ مريح ، بينما أحباؤه يتحولون إلى عقارب للدغ .. ياللمصيبة . من قال إن هناك أحباء . وأن هناك بشراً لا يلدغون .. ما الذى جعله يحب زينب .. ما الذى جعله يحب يوسف . لعله لا يكره يوسف . بل يكره نفسه . كان يقدر أنه سوف ينام بعد انصراف دياب . ولكنه سوف يتصل بها .. لابد أن يلقاها لابد أن يعصف بها كما عصف بيوسف منذ لحظات



بعد الانتصار

ما كاد دياب وحسن ينصرفان من بيت عبد الهادى . حتى أسرع إلى التليفون واتصل بزينب .. وسمع صوتها مرحاً متوهجاً .. ولما سألها أن تأتى إليه .. رحبت فى حماس لم يتوقعه . وقالت إنها ستكون عنده بعد قليل . ولم يستطع أن يطلب منها أن تتأخر بعض الوقت ليستريح .. كانت لهفتها أقوى من أن يعترضها .. كما أنه كان واثقاً أنه لن يستريح قبل أن يواجهها بما فى نفسه . وبما سمعه عنها من حسن زيدان وهكذا انتظرها وهو يقلب فى رأسه كل الاحتمالات .. ليكتشف أنه فى قرارة نفسه يبحث عن موقف يكون فيه قوياً أمامها . مسيطراً على انفعالاته ، واضحاً فى التعبير عن نفسه ، ينتقى كلماته فى عناية .. ثم يكون فى النهاية حاسماً فى قراره .. وهو يعلنها أن كل ما بينهما من علاقة لابد أن ينقطع .. وأنه لا يحمل لها حقداً أو ضغينة ، ولكنه ببساطة لا يستطيع أن يربط شخصه بها .. لن ينفعل أو يغضب كما حدث له مع يوسف ، بالعكس .. يجب أن يبدو هادئاً متواضعاً إلى أقصى حد . ولن يتفوه بكلمة ساخرة أو هازئة بل لابد له أن يحتفظ لنفسه بهالة من الطيبة والوقار المؤثر .. نعم هذا هو ما يجب أن يكون عليه الآن . خاصة بعد انتصار

رخيص .. ولكنه لا يستطيع أن يتجاهله ، إنه يعيد إليه ثقته بنفسه كما عرفها .. أوكما صنعها فى الحقيقة . إنه الآن لابد أن يعود مرة أخرى الرجل الذى لا يشغل نفسه بالحب ، الرجل العاقل الذى يعتمد على عقله البارد فى حساب المواقف واتخاذ القرارات الرجل الذى لا يضعف أمام الحب ونزواته ، إن زينب يجب أن تكون هى الأخرى مجرد امرأة عرفها لبعض الوقت وتمتع بها ك[illegible] ، و[illegible] أن يدمن [illegible]

استهلاكها .. لا لأنها عرفت الراقصة إلهام كمال ، ولا لأنها أخفت عنه ما عرفه حسن زيدان فكل هذا لا يجب أن يعنيه أو يؤلمه إنه يرفضها لأنه لابد أن يمحو من رأسه ومن قلبه ذكريات مواقفه معها ، التى كادت تفقده قدراته .. وأوشكت أن تلقى به فى دوامة من الحيرة والتناقض . إنه أكبر من ذلك بكثير .. ومثله لا يصح أن يشعر بألم أو جرح من تصرف امرأة مثلها لابد أن يعود إلى هيبته ، ويتخل تماماً عن تلك العواطف التى ظن أنها حقيقية وسمح لها أن تغمره وتوشك أن تغرقه فيها .. لقد خدع نفسه خدعة غريبة بهذه العواطف حتى أنه توهم فيها امرأة مختلفة عن الأخريات .. توهم أنها ليست المرأة التى يدفع لها الرجال الثمن وأنها ليست المرأة التى تسعى وراء فائدة من علاقتها .. إن كل ما تتظاهر به من اندفاع وأهواء ونزوات .. هو مجرد قناع لا أكثر ولا أقل .. إنها فى حقيقة جوهرها .. بهيمة همجية تعيش مثل الأخريات فى صميم غابة الحياة .. وقد تكون لها عبقريتها الخاصة .. فى تلك البساطة التى تتعامل بها .. وتلك المشاعر التى تتفنن فى إخراجها .. مثلما قالت له إنها تريد أن تتعرف على نفسه ، أو مثلما قفزت هاربة لأنها مهتمة بشراء حذاء ذهبى .. كان يظن أن جموحها هو نوع من المخاطرة الشجاعة بالنفس .. ولكنه فى حقيقته نهم حيوانى ، لا ضابطله .. إنها شريرة بدائية ..

يجب أن يلزمها حدودها .. وأن يلقنها درساً ينتقم به من لحظات التعاسة التى أشعرته بها .. نعم لابد أن ينتقم من هذا الضعف المشين الذى داهمه ، عندما وجد نفسه أمامها كصبى مراهق .. لابد أن ينتقم من ذلك الإحساس الذى

تركته فى نفسه عندما هبطت بمعنوياته إلى الحضيض وهو يخوض معركته ضد دياب ، لقد خاف منها .. وخيل إليه أنها تدفع به فى وقت ما إلى هاوية الهزيمة والانهيار ، ولكن كل هذا قد انتهى الآن .. وجاءت ساعة الانتصارات السريعة الرخيصة .. ولابد أن يتمتع بها كاملة . حسن زيدان قبل حذاءه . ودياب جاءه معتذراً مستسلماً يعرض عليه صداقته .. ويوسف منصور خرج من بيته مطروداً . ولم تبق إلا هى . وتكمل انتصاراته ويصبح بحق سيد نفسه .. مالك زمام مصيره .. وشيخ طريقته . الذى يتوهج ويتألق برسالته فى الحياة .

الجميع يلقون أسلحتهم أمامه .. وهو لا يلقى سلاحه أمام أحد ، لا يلقى سلاحه أمام زينب ولا أمام يوسف . ويتخلص نهائياً من تلك الأوهام التى تفسد رؤية الواقع . لقد رأى الأوهام تدمر حسن زيدان وتدمر دياب وتدمر همام فلا عذر له إذا لم يتخلص هو من أوهامه قبل أن تدمره .. وهنا فقط يتحول انتصاره الرخيص إلى انتصار كبير .. لأنه سوف ينتصر على نفسه ، عندئذ سوف يتغير الموقف .. سيراها هى التى تلاحقه بعد أن كان يلاحقها .. وهى التى تستسلم له بعد أن كان يستسلم لها . إنه ما زال يذكر فى مرارة أول مرة جمعهما فيها الفراش .. كان قد قدر أن يستولى عليها ، وأن يبهرها وأن يعاملها كأستاذ بارع ساخر ، ويمنحها بركاته ويجعلها تؤمن بأن علاقتها به ستفتح لها أبواب الطموح والحياة العريضة . وأن الفراش الذى جمعهما ليس نهاية المطاف ، ولكنه بداية طريق طويل تسير فيه لتصبح امرأة ذات شأن تجيد التعرف على الرجال ، وتختار من بينهم من تصعد فوقه إلى عرش امبراطورية السلطة والنفوذ . هكذا أراد أن يعرفها ، ولكنها استطاعت أن تجرفه فى تيار آخر من الأوهام ، ووجد نفسه يتورط فى حبها ، ويصل به الأمر إلى طلب الزواج منها ، وهى التى ترفض ، وهى التى تنطلق على هواها ، وإذا بها هى التى تريد أن تصنعه ، وأن تجعله يتشكل بصورة أخرى غير صورته ، وهو الذى كان يريد أن يصنعها ، ويجعلها تتشكل على هواه .

وانتفض عبد الهادى على صوت جرس الباب يدق فى إلحاح ، إنها هى ..

تضغط على الجرس ولا ترفع عنه أصبعها حتى يفتح الباب ، وأسرع إليها ، ولم يتمالك أن يرحب بها بابتسامة عريضة وهو يراها متألقة فى فستان أحمر جديد يضفى عليها بهجة وحيوية ، وأقنع نفسه بأن ابتسامته لا تعنى أكثر من قبول هذا التحدى الجميل القادم عليه ، وقال لها بعد أن جلست أمامه :

ـ هذا فستان جميل ..

قالت فى مرح :

ـ كنت أشعر بضيق شديد وفكرت فى الخروج وإذا بك تتصل بى ..

قال فى هدوء :

ـ ما الذى ضايقك ؟

قالت ضاحكة :

صحوت من النوم .. فتذكرت ما فعلناه فى الفجر .. كانت رحلة لذيذة .. وسألت نفسى ما الذى عاد بى إلى هذا البيت .. ولماذا لم تنطلق بنا السيارة إلى مكان لا نعود منه .

ومضت تحدثه فى فرح صبيانى عن تلك المغامرة التى قاموا بها وهو يستمع إليها وعلى شفتيه ابتسامة وقورة .. بينما يفكر فى الكلمات التى يبدأ بها حديثه .. كان يفكر فى أن يتحدث على مهل . وأن يستعيد علاقته بها ، وكيف نشأت هذه العلاقة . ورؤيته لتطوراتها ؛ ويعترف لها بما عاناه من انفعالات حب ورغبة فى الزواج .. ليصل أخيراً إلى هدفه ، فيعلنها بقراره أنه يقطع علاقته بها .. كان يفكر بسرعة ، ولكنه لا يستقر على جمل جيدة باهرة يصوغ بها معانيه .. حتى خيل إليه أنه أخطأ التقدير ، وأنه فى الحقيقة مجهد مرهق وقد يكون من الأفضل أن يؤجل الموقف كله ، لولا أنه شعر باستحالة التأجيل ، وإذا به يقول فجأة وهو لا يدرى كيف تقفز الكلمات إلى شفتيه فينطق بها .

ـ اسمعى يازينب .. هناك شىء هام أريد أن أتحدث فيه معك .. وسكت متردداً ، وهى تنظر إليه فى انتظار كلماته ، وإذا به يسألها :

ـ هل تعرفين أحداً غيرى فى العصر الجديد ؟

ظهرت الدهشة فى نظراتها وقالت بسرعة :

ـ طبعاً .. ولكن لماذا تسألنى .

قال فى بطء ، وهو يكاد يلوم نفسه على أنه يتورط فى أسئلة كان لا يريد إثارتها .

ـ أريد أن أعرف .

قالت ضاحكة :

ـ عم صالح .. أنت تعرف هذا فقاطعها فى لهجة خشنة ..

ـ لا أسألك عن عم صالح .. أنا أعرف صلتك به تماماً .. إنى أسألك عن الصحفيين ..

قالت بعد تردد وفى عينيها تخابث :

ـ أعرف صاحبك الذى ركبنا سيارته هذا الصباح .

قال فى غيظ :

ولا أسألك عنه أيضاً .. إن سؤالى واضح .. هل تعرفين شخصاً آخر ؟

قالت بسرعة :

ـ طبعاً .. هناك آخر ..

وابتسمت وقالت فى ارتباك لا تخفيه ابتسامتها ..

ـ ولن أقول لك اسمه ..

سألها عبد الهادى فى جفاء :

ـ لماذا ؟

قالت وقد زاد ارتباكها :

ـ لا داعى .. لأنك لو عرفت فقد تتصرف معه تصرفاً سخيفاً لا مبرر له .

قال عبد الهادى فى ارتياح :

ـ ولماذا أتصرف معه تصرفاً سخيفاً :

قالت زينب وقد تجهم وجهها :

ـ لماذا تسألنى هذه الأسئلة ؟

قال عبد الهادى وقد ارتاح لتجهمها ، فاستعاد هدوءه ووقاره :

- اسمعى ياابنتى .. أنا رجل عجوز .. ولا أخفى هذا .. ومثلى لا يحتمل المراوغة من حبيبة صغيرة مثلك .. ثقى أنى أحدثك الآن كما يجب أن يتحدث أب مع ابنته .. ببساطة أريد أنصحك .

كان عبد الهادى يتحدث وهو يهنىء نفسه ، لأنه وصل أخيراً إلى اللهجة الصحيحة التى يجب أن يتكلم بها . وأدهشه أنها انصتت إليه فى اهتمام واستكانة واضحين ، بل إن وجهها قد شحب على نحو لم يشهده من قبل وعيناها تلتقيان بعينيه فى استسلام مدهش ، ومضى يقول :

- يجب أن تقولى لى بنفسك كل شىء .. ويجب أن تثقى فى أنى سوف أساعدك ، وسوف أوجهك إلى الطريق الصحيح .

همست زينب .

- لابد أنك عرفت شيئا .

فقاطعها بلهجته الوقورة .

- ليس المهم ماأعرفه .. المهم هو ما تقولينه أنت .

قالت زينب فى انفعال .

لابد أنه هو الذى قال لك .

فعاد يقاطعها فى وقار .

- أولا من هو .. ثم ماهو الذى قاله لى .. كل هذا لا أهمية له عندى حتى تقولى أنت .

قالت زينب وقد زاد انفعالها .

- إنها حكاية سخيفة .. وسأحكيها لك .

وقال عبد الهادى فى هدوء شديد .

- إنى منصت إليك .

وروت له زينب حكايتها مع حسن زيدان .. كيف قابلته فى بيت صديقة لها ، ولم تذكر اسمها .. أو شيئا عن مهنتها ، وكيف أنه طاردها فى وقاحة ، وذات

يوم فاجأها وهى خارجة من بيت صديقتها ، وكان فى سيارته ، وعرض عليها أن تركب معه ، فرفضت ، فأمسكها من ذراعها بقسوة .. وأراد أن يقسرها على الركوب ، فقاومته ، وهو غير مبال بشىء ، وشاهدهما المارة ، ولعلهم ظنوا أنهما زوجان يتشاجران وأخيرا استطاعت أن تفلت منه ، وعادت إلى بيت صديقتها ، فإذا به يتبعها ويدخل معها المصعد ، ويهجم عليها وهما داخله وقبلها بالقوة ومزق شريطا من الدانتلا كانت تزين به صدرها ، وقال لها مهددا ، إنه سوف يحصل عليها ولو قاومته فسوف يقتلها . ولم يتركها حتى تدخلت صديقتها ، وكانا قد وصلا إليها ، فاستطاعت أن تهدئه ، وصرفته ، ولكنها حذرتها منه ، وقالت لها إنها يجب أن تحتاط لنفسها فهو شخص شرس لا يتورع عن ارتكاب أى شىء .

وسكتت زينب تلتقط أنفاسها فقد غلبها الانفعال ، وعادت تقول بسرعة :

- هذا هو كل شىء .

قال عبد الهادى فى هدوء .

- مستحيل أن يكون هذا هو كل شىء .

قالت :

- منذ ذلك الوقت لم يعد يضايقنى .

قال عبد الهادى دون أن يفقد هدوءه ودون أن يحاول اتخاذ لهجة اتهام .

- لا يا زينب .. يجب أن تحدثينى بصراحة .. وهى لا تنقصك .. إن حسن زيدان لا يصعد معك إلى صديقتك وهو على تلك الحالة .. وأنت ممزقة الثياب كما تقولين إلا إذا كان واثقا من أن صديقتك هذه لا يدهشها أن يقوم رجل بعملية اغتصاب لامرأة أمامها .. وليس هناك تفسير آخر لما تقولين .. وإلا كان حسن قد آثر السلامة ولم يصعد معك إلى ذلك البيت معرضاً نفسه للفضيحة ولما هو أكثر منها .

قالت زينب فى ارتباك وقد اكتسى وجهها بحزن عميق .

- هذا صحيح .

فصاح عبد الهادى على الرغم منه .

- من هى صديقتك هذه .

قالت زينب كالمخاطبة نفسها :

- هى كما تقول .. لا تمانع فى أن يحدث فى بيتها أى شىء .

قال عبد الهادى وهو يحاول أن يعود إلى لهجته الهادئة الوقورة .

- وتقولين إنها صديقتك .

قالت زينب بصوت شارد .

- نعم .. وهى تعطينى من الحنان أكثر مما أحصل عليه من أمى .

قال عبد الهادى فى دهشة .

- أشك كثيرا فى أنك تعرفين ماهو الحنان يا زينب .

قالت زينب فى استسلام حزين :

- هذا أيضا صحيح .. وأنا أعرف أنها امرأة شديدة القسوة . ولكنها شاطرة .. تعرف كيف تتعامل بحنان .

قال عبد الهادى متشبثا بوقاره يخفى أنفعالا يضطرب فى صدره .

- هذه ملاحظة ذكية يا زينب .. لا تتفق مع تصرفاتك فى علاقتك بهذه المرأة .. إنها تخلو تماما من الذكاء .

قالت زينب فى حزن بائس .

- وماذا يهم .

قال عبد الهادى محتفظا بهدوئه الظاهرى ..

- تضيعين نفسك .. وتقولين ماذا يهم .

قالت زينب :

- وهل وجدت شيئا غير الضياع .. ورفضته .

قال عبد الهادى فجأة :

- إن حسن زيدان أراد أن يحصل على نفس ما يحصل عليه الآخرون منك فى بيت هذه المرأة . أطرقت زينب برأسها متحاشية النظر إليه ومضى هو يقول :

- أليس هذا هو ما كان يفكر فيه .

فرفعت زينب رأسها فجأة وقالت فى ألم :

- فليفكر كما يشاء .. ولكنى لست كما يظن .

قال عبد الهادى فى غضب لم يستطع السيطرة عليه .

- وماذا أنت .. إنه يعرف أن صديقتك تقدمك للرجال .

همست زينب :

- هل هذا هو ما قاله لك .

قال عبد الهادى رافعا صوته .

- وماذا تقولين أنت .

قالت زينب بصعوبة :

- لا يهمنى شىء .

قال عبد الهادى فى كبرياء :

- لا يهمك .. لا يهمك .. هذا كل ما تقولينه عن نفسك .. ولكنه يهمنى أنا .. كانت نظراتها تكاد تتوسل إليه . أن يكف عن الكلام ولكنه مضى يقول :

- إنه يهمنى أنا .. أنا ياسيدتى لا أستطيع أن أكون موضع سخرية أحد .. خاصة من أولئك الذين يعملون معى فى عمل واحد ، بل يعملون تحت رئاستى . هناك أشياء يجب أن أحافظ عليها .. هناك وضع يجب أن أحترمه حتى لا أتعرض لموقف جارح أو مهين .. مثل هذا الموقف الذى فوجئت به بسبب علاقتى معك .. أنت لا تعلمين أن هناك تقارير تحتفظ بها الدولة عن كل تصرفاتى وحركاتى .. ومن بينها أن هناك علاقة بينى وبينك .. تقارير مكتوب فيها كل شىء .. مكتوب فيها أنك حملت منى .. وأنك اجهضت نفسك عند الدكتور عباس .. إن كل من فى العصر الجديد يعلم الآن من حسن زيدان إن عبد الهادى أراد أن يتزوج من امرأة تبيع نفسها بالنقود فى بيت الراقصة إلهام كمال .. هل يعجبك هذا .. هل أقول مثلك إنه لا يهمنى شىء .

قالت زينب فى حدة يؤججها الألم :

- لو كنت تحبنى حقا لما قلت هذا الكلام .. والإهانة لم تلحق بك بسببى .. إنما لأنهم يريدون فصلك من العمل ، وتجرى وراءهم تتمسح بهم ، وتخاف على منصبك كأنه أهم شيء فى الوجود .. هل تريد أن تقول لى الآن إن الإهانات التى وجهت إليك كانت بسبب علاقتنا .. هل هذا هو ما وصلت إليه بعد أن فصلوك .

قال عبد الهادى منفعلا :

- أنا لم أفصل من عملى .. ولقد حاولوا ولكنهم فشلوا .. واعتذروا لى .. وكان هنا دياب منذ ساعة يبلع قراره ويتوسل إلىَّ أن أكون صديقا له .. كل ما وجهوه إلىَّ من إهانات رددته إليهم مضاعفا .. ولم يبق إلا ما ارتكبتيه أنت لتلحقى بى الفضيحة .. يجب أن تعلمى أنى أخاطبك بهذه الصراحة لأنى فى يوم ما أحببتك ، وتصورت أن حبى لك هو أحسن شيء حصلت عليه فى الدنيا القذرة التى أعيش فيها ، ولكن ها هى الحقيقة تقول لى إنى كنت مخدوعا .. كنت مغفلا .. لأنك من دنيا أشد قذارة تتعرفين فيها على أحط مخلوق عرفته فى حياتى وهو حسن زيدان وتتعرفين عليه أين .. فى بيت راقصة تدير بيتها للبغاء حيث تقابلين رجالا يدفعون لك الثمن .. إنى أتساءل لماذا لم تطلبى منى أيضا الثمن .. ووفرت على نفسك ووفرت علىّ كل هذه العواطف التى لا أصل لها ولا وجود . ماذا كنت تنتظرين منّى .. أن أترك حياتى القذرة .. لأدخل معك فى حياتك الأشد قذارة .. لو كنت واجهتينى بحقيقتك وكنت صريحة معى .. كنت نصحتك .. كنت رفعتك من مستوى بيوت الدعارة إلى مستوى الممثلات الشهيرات ، أو سيدات المجتمع صاحبات الكلمة والنفوذ .. هكذا كنت أتعامل معك على المكشوف دون أن تضيعى وقتى وأُضيع وقتك فى انفعالات وعواطف فارغة .. انتهت إلى لاشيء .

قالت زينب فيما يشبه صرخة يأس :

- أنت لم تفهمنى أبداً .. ولو عرفتنى لندمت على ما تقوله .. ولكن ما الفائدة .. أنت مثل الآخرين .

صاح عبد الهادى :

- إذا لم أفهمك .. فافهمينى أنت .

كانت الدموع تنهمر من عينى زينب وهى تقول :

- لا فائدة لا فائدة .

صاح عبد الهادى فى حنق .

- ما الذى يبكيك .

قالت زينب وهى تبكى :

- لقد صدقتك وأنت تقول لى لأول مرة إنك تريد أن تتحدث معى كأب .. ولكنك لا تفكر إلا فى نفسك .. ولا يعنيك ما يحدث لى .. ظننت لحظة أنك تريد أن تجعلنى أشعر بالحنان الحقيقى .. ولكنك تريد أن تقضى علىّ .. لقد أخطأت عندما صدقتك .. الآن فقط فهمت ماذا كان يعنيه عم صالح .

سألها عبد الهادى مقاطعا :

- وما دخل عم صالح فى هذا الذى نحن فيه .

قالت زينب :

- إن كل هذه الحكايات حدثت قبل أن أعرفك .. وعندما هددنى حسن زيدان .. خفت .. وزاد خوفى عندما قالت لى إلهام إنى يجب أن أحتاط .. وفكرت فيما أفعله .. وأخيرا لم أجد أحداً ألجأ إليه إلا عم صالح .. وذهبت إليه فى حجرته التى مازال يسكن فيها فى شارع المبتديان .. أردت أن أقول له إن هناك شخصا فى الجريدة التى يعمل بها يريد قتلى .. ولكنى عجزت عن الكلام .. واكتفيت بأن قلت له إنى جئت لزيارته ، وكان فرحا بهذه الزيارة ، ولكنه كان قلقا أيضا .. وشعر أنى أخفى عنه شيئا .. وتركته وأنا يائسة وفكرت فى الانتحار .. إن هذه الفكرة تراودنى بين وقت وآخر .. وصدقنى إنها أحسن شىء أفكر فيه .. ولكنى عدت واتصلت به فى الجريدة .. وقلت له إنى أريد مقابلته فى الحال .. لو كان رفض لأى سبب . أو لو كنت عجزت عن الاتصال به لكنت انتحرت فى الحال .. وذهبت إلى الجريدة وانتظرته حتى

خرج ، جلست معه فى « ايسافتش » وقلت له إن هناك شخصا اسمه حسن زيدان رآنى وعاكسنى وأنى خائفة منه .. اهتم بى وكان ينظر إلىَّ فى حنان ورقة ، وابتسم لى يطمئننى ، وجعل يفكر أمامى .. هل يبلغك .. أو يبلغ الشرطة .. ولكنه كان يرفض كل هذه الأفكار .. ويردد لا داعى لأن نجعل من الحبة قبة .. هذا ولد هايف وسأكلمه وحدى كلمتين ولن يجرؤ على مضايقتك بعد الآن .. وصدق ، فمنذ ذلك الوقت لم تقع عيناى على حسن زيدان .. وجاءنى عم صالح إلى البيت ، وسألنى هل ضايقنى .. قلت له لا .. فابتسم مطمئنا ، وقال لى .. لا تشغلى بالك بعد الآن بهذا الموضوع .

ورفض أن يقول لى ماذا فعل معه . اكتفى بترديده ولد هايف .. وأن الموضوع انتهى تماما .. وكنت أريد أن أعرف هل سمع عم صالح شيئا منه عن صلتى بإلهام كمال وكنت أقول لنفسى .. لن أعرفها بعد الآن .. ولن أدخل بيتها .. وكل ما أريده هو ألا يعلم حتى لا يحزن .. وهذا هو ما فعلته ، رغم أنى أصبحت بعدها أكثر ضياعا ، لا أدرى ماذا أفعل بنفسى . فإذا كنت أرفض الذهاب إلى إلهام ، فلماذا لا أرفض الذهاب إلى نور الدين .. وما الفارق بين إلهام وأمى .. ألم تبعنى أمى إلى نور الدين لتقبض الثمن .. إن علاقتى بإلهام أشرف من علاقتى بأمى .. على الأقل كنت أتصرف بموافقتى وبمزاجى مع إلهام .. بينما فرضت أمى علىَّ هذا الزواج الحقير . وعم صالح يعرف هذا .. وربما عرف أيضا صلتى بإلهام .. فقد قال لى يوم سألته عما فعله مع حسن زيدان ليبتعد عنى ، إن كلامه كثير ، ولكنه لم يسمعه وهو يعرف أنه لا يجرؤ على أن يمسنى بعد الآن بسوء .. وأحسست أنه سمع كلام حسن زيدان ، ولكنه رفض أن يواجهنى به أو يتحدث عنه معى .

ومضت زينب وقد انهمرت الدموع من عينيها .

- هو وحده الذى أحبنى .. ولولاه لا نتحرت .. وبعد أن تركت إلهام ، وجدتنى أفكر فى الاتصال بك .. سمعت عنك وكان سفيرنا فى باريس معجبا بك .. وكنت وقتها أحبه كطفلة مراهقة .. أردت أن أعرفك .. ولست أدرى لماذا

كنت أريد أن أتحداك .. لعلى توهمت أنك أبى الذى حرمت منه .. كنت أسمع عنك من بعيد تحوطك كلمات الإعجاب والاهتمام ، فأقارن بينك وبين هذا الشخص الذى يقولون عنه إنه كان أبى .. كنت أريد أن أتحداك لأنك تركتنى وأنا صغيرة .. وأقول لك هأنذا قد كبرت .. وأستطيع أن أرغمك على الإعجاب بى والاعتذار عن تجاهلك لى وابتعادك عنى طوال هذه السنوات .. وعرفتك ..

ولكنك لم تكن أبى .. إنه خرافة . هكذا قلت لك أحد الأيام عندما أيقنت أنك لست أبى .. وإنك لست الرجل الذى يحمينى . لو كنت اعطيتنى شيئا ولو بسيطا مما أحصل عليه من عم صالح لتمسكت بك .. ولقلت لك إنى أريد أن أحيا معك .. كنت احتفظت بولدنا ، وكنت تركت نور الدين وفرضت عليه أن يطلقنى . ولكنى وأنا معك .. كنت مازلت أفكر فى الانتحار .. وكنت مازلت أفكر فى أن أعود إلى إلهام .. وأسأل نفسى وما المانع ، ولماذا قاطعتها ، ولماذا لا أتسلى بحياتها ، على الأقل إنها تمنحنى معاملة استريح لها ، وأنت لم تعطنى لحظة حب حقيقية .. مع أنك قادر على ذلك .. لقد رأيتها فى عينيك عندما هبطت إليك هذا الفجر ، ورأيتها مرة أخرى الآن وأنت تقول لى إنك تريد أن تتحدث معى كأبى .. عندما ناديتنى يا ابنتى .. ولكنك لا تتحمل أن تمضى فى هذا الحب .. لابد أن تقتله ، وهذا يجعلنى أخاف منك .. ذات يوم قالت لى امرأة فرنسية اسمها مدام برنارد كانت تعمل حارسة فى حدائق لكسمبورج .. أنت لا تخافين الحب ولكنك تحبين الخوف .. أنت أيضا تحب الخوف .. حياتك كلها مخاوف ، ونظرتك للدنيا كلها مخاوف .. تتوقع الشر كل لحظة ، ولا ترى إلا الشر كل لحظة ، ولا ترى إلا الشر فى كل من تعامله .. لو كانت مدام برنارد قابلتك لقالت لك أنت هذا الكلام .. أما أنا فلا أحب الخوف ولم أعد احتمله . فإذا كنت تخافنى فسأتركك الآن ، ولن أراك ثانية .

وإذا بعبد الهادى يهتف بحرقة :

- من قال هذا الكلام .

قالت زينب فى أسى ..

- أنت .

صاح عبد الهادى منفعلا ..

- لن أتركك .. فأنا مسئول عنك .. عن عودة الفرحة إلى قلبك .. مسئول عن أى شيء .

قالت وصوتها يتهدج :

- كنت فرحة هذا الصباح .

صاح عبد الهادى .

- هناك فجر آخر وصباح جديد .. ولسوف أتصل بيوسف سائقنا ليعد سيارته لمغامرة جديدة .

قالت زينب :

- وما ذنبه .

قال عبد الهادى متراجعا فجأة :

- وما دخله .. سنذهب وحدنا .

وأطرقت زينب ، كانت همومها كثيرة ، وأحزانها ثقيلة ، وآلامها أشد مما تطيق ، ومع ذلك فهى لا تملك إلا أن تستسلم لهذه النوبة المفاجئة من المحبة التى شاء أن يغدقها عليها هذه اللحظة ، تستسلم لها ، وهى واثقة أنه لا فائدة . وأن مصير علاقتها إلى نهاية محتومة .. إنه ليس رجلها ، ولكنها لا تجد ملجأ غيره ، وهى فى حاجة إليه ، ولعله يصبر عليها بعض الوقت .. ولعله لا يكثر من تعذيبها .. وفتح جراحها .. كل ما تطلبه أن يكف عن إيلامها ، أما أن يقدم لها حبا حقيقيا ، فكل هذا وهم ، والحصول عليه من المحال .

وسمعته يسألها .

- أم تريدين أن يكون معنا ؟

سألت فى غير فهم .

- من ... ؟

قال بصوت مضطرب :

- يوسف .. يوسف منصور .

وأدركت بحاستها ، أنه مهتم به .. وأنه يتعمد أن يذكر اسمه أمامها ، وخطر لها أنه يغار منه ، أو على الأقل يريد أن يعرف مدى اهتمامها به ، وكادت تبتسم ، ولكنها احتفظت بوجهها الحزين قائلة :

- كما تشاء .

ولعل هذا الرد الغامض لم يشف غليله ، ولم يكشف له ما يريد أن يعرفه ، لابد أن الأمر كذلك ، فها هو يقول بلهجة غريبة :

- إن يوسف هذا يشبهك تماما .

- إذن فحياته مصيبة .

قال وكأنه يخاطب نفسه .

- إنه نوع آخر يختلف تماما عن حسن زيدان .

وجدت نفسها تقول له بغير تفكير .

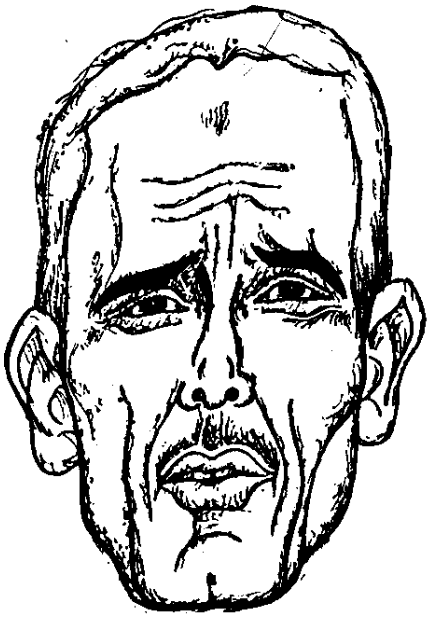
- إن شراسة حسن هذا .. أرحم بكثير من شراستك فى الكلام .. فهجم عليها يقبلها ، ويمد يده إلى فستانها الأحمر الجديد يكاد يمزقه ، فتركته يقبلها .

وعندما تركته كان يردد فى لهفة .

- متى أراك .. متى أراك .

وارتمى عبد الهادى على مقعده بجوار التليفون .. وفى رأسه خاطر يزعجه بل يكاد يفزعه ، هاهو يفشل فى أن ينهى بطريقة حاسمة علاقته بها .. ولعل هذه العلاقة سوف تنقطع عن قريب ، ولكنه لن يكون وحده الذى يقطعها .. فقد تبين له .. وهذا هو المزعج حقا .. لأنه يصل بالأمر إلى سخرية مريرة لاذعة .. أنها تفضل عليه عم صالح الأخرس ساعى مكتبه .





بداية أم نهاية

أعدت الترتيبات لاستقبال عبد الهادى النجار فى جريدة العصر الجديد ، وكان الجميع يسألون حسن زيدان عن موعد حضوره وكان قد أكد لهم أنه زاره فى بيته وأنه رآه واطمأن عليه ، وكان يعنى فى الحقيقة أنه اطمأن إلى صحة النبأ الذى شاع بأنه لم يفصل من رئاسة التحرير ، وأنه باق مكانه وكان حسن زيدان يكرر لسامعيه أنه شهد الجلسة التى اعتذر فيها دياب لعبد الهادى ، وكان يصفها وكأنه مراسل حربى شهد جلسة عقد هدنة بين منتصر ومهزوم ، دون أن يكون فى حاجة لأن يقولها صراحة إن عبد الهادى قد انتصر على دياب ، وكان السامعون ينصتون فى رهبة ، يضاعفها الإحساس بالذنب لأنهم لم يقفوا كما يجب مع عبد الهادى ، ولم يدافعوا عنه كما يجب أن يكون الدفاع ، وكانوا يحسدون حسن على براعته وسرعة حركته ، وحتى أولئك الذين كانوا يعلمون بما دبره حسن فى الأيام الأخيرة ضد عبد الهادى لم يتمالكوا أنفسهم من إبداء الإعجاب به ، حتى شوقى الذى اتهم عبد الهادى بالشذوذ الجنسى ، انقض على حسن يعانقه وهو يهتف :

ـ والله أنا أسعد إنسان بسماع هذا الخبر .. وكل ما يهمنى الآن هو أن

أعتذر له وأثبت له أنى لم أقصد أبداً اتهامه بشيء .. إن هذا الخبر يبرئنى من اتهامى بأنى قبضت من أجل أن أتهمه .. فهاهم الذين اتهمهم بأنهم رشونى يقفون فى صفه .

كانت الكلمات تتدفق منه ، وكأنه يصدقها ، والآخرون ينصتون إليه وكأنهم مقتنعون بصدقه ، وكان حسن زيدان يلقى بالأوامر هنا وهنا ، وكأن عزلة عبد الهادى قد زادت من نفوذه ، وهو واثق الآن أنه كسب على الأقل تفوقا حاسما على يوسف الذى طرده عبد الهادى من بيته ، كان حسن يتصرف وكأنه أعد عدته لمثل هذا اليوم منذ وقت بعيد ، حتى أنه لم ينس التفاصيل فنادى عم صالح وطلب منه إعداد حجرة الأستاذ ، وترتيبها ، حتى يخيل لمن يسمعه ، أن عبد الهادى يعود إلى هذه الحجرة بعد غياب دام سنوات ، وأسرع حسن إلى حجرة عبد الهادى وأشرف بنفسه على تحركات صالح وكل همه أن يقضى فى الحجرة أطول وقت ممكن ، وأخذ يحرك المقاعد ويزحزحها ولو بوصة واحدة من مكانها ، ليؤكد لنفسه وللآخرين أنه يقوم بالواجب ومع ذلك كان مهموما شديد الاضطراب ، وكان ما يفعله لا يقنعه أنه قام بما يجب نحو القادم العظيم ، شيخ الطريقة ، الأستاذ الكبير الذى يتوقع ظهوره كما يظهر ولى الله تحيط به هالات القداسة ، لابد أن تكون تحيته رائعة ، لابد أن تستقبله أمواج من العواطف الحارة المتدفقة ، كانت الساعة قد بلغت السابعة مساء ، وهم مازالوا فى انتظاره وقد علا الضجيج ، واختلطت الأصوات ، والجميع فى حالة من الهستريا ، وحسن زيدان يدرك فى قرارة نفسه أن ما يحاول أن يصنعه فيه شيء من المبالغة ، وأن هذا الحماس قد يخلق موقفا رهيبا يفوق كل ما يريد له أن يتحقق ، ولكنه فى نفس الوقت لا يملك إلا أن يندفع فى صناعة هذا الموقف الرهيب الذى تحركه عواطف طائشة ، سوف يستخدمها عبد الهادى بكل تأكيد فى إخضاع حسن زيدان له بصورة أقسي وأفدح ، ورغم هذا فلا مفر ولابد من أن يتقبل الموقف ويخضع له مهما بلغ فى قسوته إلى درجات غير معقولة ، كان حسن يعترف لنفسه أنه مندفع فى

تصرف يحطم به كيانه ، أوما تبقى من كيانه ومع ذلك فاعترافه غير واضح ، يشوبه غموض كثير ، فهذا الذى يفعله قد يحطم كيانه ، ولكنه أيضا الطريق الوحيد لاستمرار حياته واستمرار الأمل فى أن يرث عبد الهادى ويتحرر منه فى يوم من الأيام ، وكان عشرات من المحررين قد دخلوا على حسن وهو فى حجرة عبد الهادى ، وكان يفرح بأنهم يرونه يمارس وجوده فى الحجرة ، ولكن إحساسا خفيا شغله بأنه قد يكون من بينهم من يدبر مؤامرة ضده ، فكان ينظر بقوة فى عيونهم وكانت أذناه تنصتان لكل همسة أو كلمة ، مهما كان الكلام الذى يقولونه ، وكان وجهه يتقلص بانفعالات قاسية تكاد تتحول إلى هياج وغضب لولا ما يبذله من جهد خارق للسيطرة على مشاعره ، وفى لحظة ما خيل لحسن زيدان أن صالح نفسه يتجسس عليه ، ومن يدرى ، فلعله يتصل بيوسف منصور ويروى له عما فعله حسن زيدان فى حجرة عبد الهادى وكيف تحول إلى فراش يرتب الحجرة بيديه ، ثم أن حسن غير واثق الآن من أن غضب عبد الهادى من يوسف هو إعلان لقطيعة نهائية بينهما .

كانت حجرة عبد الهادى مضاءة بكل مافيها من وسائل إضاءة ، والمحررون يتكاثرون ، والذين يدخلون أكثر من الذين يخرجون ، وأفكار حسن زيدان تتجه أكثر فأكثر إلى يوسف منصور ، ما الذى حدث له بعد أن طرده عبد الهادى ، هل يستقيل هل ينتحر ، هل هذه هى نهايته ، وما كادت الأفكار تزدحم فى رأسه ، حتى حانت منه التفاتة إلى باب الحجرة المفتوح ، وخيل إليه أنه رأى يوسف هناك فى نهاية الممر ، لمحة وكأنه يرى شيئا فى خياله ، فوثب قلبه بين ضلوعه ، وشحب وجهه واندفع خارجا من الحجرة ، ورأى ظهر يوسف ، وهو لا يصدق أنه يوسف الذى كان يسرع الخطى فى اتجاه حجرته ، وأسرع حسن وراءه وقد تأكد أنه يوسف ، وخطر له أنه يجرى هاربا من الناس ، ومن المحررين ، وأنه لا يريد أن يراه أحد ، حتى يصل إلى حجرته خلسة ، وتملك حسن شعور الصائد الذى يطارد صيداً جريحا فدخل على يوسف حجرته ، ورآه يستقبله بعينين حزينتين ، فتوقف برهة ينظر إليه ، وقد

رسم على وجهه علامات تأثر ، كان يتمنى أن تبدو مقنعة ، ثم قال حسن وقد غلبه التأثر :

- لا تغضب يايوسف .. هذا ليس وقت الغضب .. يجب أن تفرح معنا بعودته .. هذا اليوم الذى انتظرته أنت من دوننا .. لا تنس أنك وحدك تقريبا الذى وقف معه .. أنت وحدك الذى لم يخطىء فى حقه مثلما فعلنا نحن .

نظر إليه يوسف وقد احتقن وجهه ، كأنه وجه طفل غاضب .. وربما حزين أكثر منه غاضبا .

ولم ينطق بكلمة واحدة ، وخيل لحسن زيدان أنه عاجز عن الكلام وأنه يائس تماما .

وقال حسن :

- قد تكون محقا فى غضبك .. بعد تصرفه الشاذ معك فى بيته .. ولكن له عذره ، فقد خانته أعصابه المرهقة .. وهو لم يحتملك لأنك إنسان غريب .

كان يوسف قد أطرق برأسه ، ولا أحد يدرى إذا كان ينصت إلى ما يقوله حسن ، أم هو تائه فى عالم آخر ، ومضى حسن يقول :

- أنت إنسان صادق .. وهذا يجعلك غريبا .. لأن الصادق غريب فى زماننا .. هذه مشكلة فلسفية كما تعلم .. لأن صدقك يعزلك عن الآخرين .

وتوقف حسن برهة ، وكان مسرورا بعجز يوسف عن الكلام ، ومرتاحا لأنه لا يواجهه بعينيه ، واسترسل قائلا :

- ولكن أخرج من غضبك وافتح طريقا للتسامح ، هيا ابتسم ابتسامتك الحلوة .. حتى لا تفسد لنا الفرح الذى نقيمه له .

ورضى حسن زيدان عن نفسه تماما بهذه الكلمات التى استطاع أن يصوغها فيصل من خلالها إلى معان هامة . هاهو يتهم يوسف بأنه يعادى عودة عبد الهادى وأنه يتخذ موقفا مضادا لمشاعر الآخرين ، وأنه يريد أن يقلب الفرح إلى غم ، ويتحدى عبد الهادى ويدخل ضده فى معركة .. هاهو يحاصر يوسف ، وهو فى نفس الوقت يشعر نحوه الآن بحقد هائل ، وكراهية

تكاد تفضحه وتفسد هذا المشهد التمثيلى الذى يقوم به .. كفاه الآن ماقاله ، وكفاه عجز يوسف عن الكلام ، فيسرع مبتعدا عن هذا المكان ، هكذا غادر حسن زيدان حجرة يوسف دون أن يضيف إلى ماقاله كلمة واحدة .

وفى ذلك الوقت وقع شيء غريب يصعب تفسيره ، فقد كان هناك من يتهامس بأن عودة عبد الهادى إلى العصر الجديد أمر غير مفهوم ولا يصح قبوله ببساطة ، وأن دلالته خطيرة فى أن أى أمل فى إصلاح الجريدة تبخر فجأة وبغير مبرر . وأن الحال سوف يصبح فوق تحمل أى إنسان مخلص .. يتمنى أن تكون هناك صحافة جديرة بالبلد وآمالها .. ولا أحد يدرى ، كيف انتشر هذا النوع من الهمس وكأن هناك من يدبر إذاعته بين المحررين .. بل إن واحداً من بينهم تجرأ على أن يرفع صوته قائلاً :

- كيف نفلح مادمنا نقدم على خطوة نتخلص فيها مما يقولون عنه إنه سبب الفساد والفوضى ثم يعودون به مرة أخرى ليتحكم فى مصائرنا .

وقد سمع حسن زيدان هذه الصيحة فارتاع ، واندفع متجولا بين المحررين ، وقد فتح أذنيه لكل صوت ولكل همسة ، وقد شعر بخطر داهم لا يدرى من أين سوف يطبق عليه .. كان الهمس قد بدأ قبل ذلك بساعات ، دون أن يتنبه إليه أحد ، أو على الأصح لم يهتم به أحد ، وكان همسا خافتا يأخذ طابع التساؤل .. هذا مأزق كيف نخرج منه .. كيف قبل دياب عودة عبد الهادى ترى ما الذى سوف يحدث بين عبد الهادى ودياب .. ألا تظن أن عودة عبد الهادى سوف توقعنا جميعا فى ورطة .

وكانت الأسئلة تقابل فى أول الأمر بدهشة أو بابتسامة حائرة ولا تقابل بإجابة ، وكأنها مجرد خواطر عابرة ، قد لا يكون من اللائق أن تقال بصوت عال ، وهناك من قابل هذه التساؤلات باحتقار ، واعتبرها نوعا من الحماقة من السائل ، إذ كيف يخطر ببال مخلوق فى عروقه دم أن يتفوه بهذا الكلام وفى هذا الوقت بالذات ، إنها جليطة ، أو غلظة فى القلب ، أو عدم فهم للحياة ، أو تهور قد يؤدى إلى ردود فعل وعواقب وخيمة ، لأن عبد الهادى قد بلغ الآن ذروة

قونه ، ولسوف ينتقم من كل هؤلاء الهامسين ، ومع ذلك فقد زاد الهمس ، وكأن قوة خفية تحركه ، وحتى الذين سمعوه وتجاهلوه أول الأمر ، أو حكموا عليه بالتهور خائفين من عواقبه لسبب من الأسباب التى سبق ذكرها ، بدأ يكرر بنفسه السؤال أو يردده ، أو يخبر غيره بأن هناك من يقول هذا الكلام ، وهكذا تحول الهمس إلى دمدمة ، وإذا به ينشر اضطرابا وقلقا فى النفوس ، وكان أكثر الناس اضطرابا هو حسن زيدان ، الذى أدرك بسرعة أنه أول من

سوف يتهمه عبد الهادى بأنه وراء هذا الهمس ، وأسرع حسن لاهثا إلى حجرة دياب وقال له :

– هناك تيار غريب بين المحررين .. وقد يهاجمون عودة عبد الهادى .

وصعق دياب ، واستولى عليه الخوف ، وأول ما يتبادر إلى ذهنه أنها مؤامرة مدبرة ، ولم يفكر لحظة واحدة فى أنه كان يفعل نفس الشيء الذى أقدم عليه الهامسون منذ ساعات قليلة ، فقد ذاكرته تماما ، وبغير قصد منه ، بل اندفع وراء شعور طغى عليه بأن أصحاب الهمسات أعداء لابد من مواجهتهم ، وبسرعة وحزم ، ونسى أنه بذل جهوداً مضنية لينشر بين الجميع أن عبد الهادى رجل داعر فاسد ، حتى أنه صاح فى حسن زيدان منكرا ما يسمعه .

– كيف يجرؤ أحد على مهاجمة هذا الرجل .. هل فقدوا عقولهم . لابد من إسكات هؤلاء العيال فى الحال .

ولعل هذا الموقف كان من أغرب المواقف التى شهدتها جريدة العصر الجديد فى تاريخها ، بما حدث فيها من اضطرابات وحيوية ونشاط فى المشاعر وانطلاق للانفعالات والخواطر ، وقد اندفع الجميع فى حوار تحمل فيه الكلمات التى تقال كل ما فيها من ثقل للمعانى والانفعالات ، والذين حضروا ذلك المشهد ، لم يدركوا أنها كانت لحظات أقوى من الجميع ، وأنهم وجدوا أنفسهم فى حالة لا تحركهم دوافع أو نوايا ، كدياب أو حسن زيدان أو عبد الهادى النجار بل كان الذى يدور فى رءوسهم وقلوبهم يستمد وجوده من واقع أكبر منهم جميعا ، لا يدرى أحد كيف كشف هذا الواقع عن نفسه ،

ولا كيف فرض وجوده عليهم ، وفى تاريخ العصر الجديد ، كان هناك موقف واحد مشابه ، عندما خرج مدكور باشا من العصر الجديد ، وكان حتى آخر لحظة لوجوده ، الرجل القوى المسيطر صاحب الكلمة المسموعة ، وكانت له هيبة وخشية فى النفوس ، وحدث أن سرت شائعة أنه سوف يعود مالكا للجريدة ، ومع ذلك لم يحدث أن استشرت مثل هذه الهزة فى النفوس فلم يدهش أحد لخروجه ولم يجزع أحد لإشاعة عودته ، وكانوا يتحدثون بلهجة اليائس أو بلهجة المتفرج على ما يجرى أمامهم ، وقد تحدث البعض فى ذلك الوقت عن مخاوفه مما قد تأتى به الإدارة الجديدة ، وهناك من قارن بين مدكور باشا الذى ذهب ، وعبد الهادى الذى بقى ، وهناك من فضل مدكور باشا على عبد الهادى ، وهناك من قال العكس ، ولكن رغم هذا كله ، لم يمروا بهذه الحالة التى هم فيها الآن والتى يصعب تفسيرها ، أو حتى مجرد وصفها وقد تكون هناك رغم ذلك مبررات لما حدث ، فإن أغلب الذين أثاروا هذه التساؤلات كانوا فى البداية من المحررين الجدد الذين لم يشهدوا بداية العصر الجديد ، وكان من بينهم من اقتنع اقتناعا راسخا بضرورة تغيير الأوضاع ورأى فى خروج عبد الهادى علامة على بدء هذا التغيير ، ثم أن هناك مبررات نفسية قد تكون صحيحة أو غير صحيحة . من بينها ، أن الخوف من عودة عبد الهادى وهو قوى حرك النفوس ، وزاد من هذا الخوف ما وصل إليهم عن ضعف دياب ، أو تحوله المفاجىء ، إن جميع المحررين كانوا بوعى مثل حسن زيدان ، أو بغير وعى مثل أغلبيتهم يعانون من حالة خضوع تامة لمشيئة عبد الهادى ، الذى لم يجمعهم على حب ، أو مشاعر أبوة ، أو أستاذية بل جمعهم على الاستسلام والإذعان ، يرفعهم أو يخفضهم ، وفى كل الأحوال يعاملهم بالسخرية حتى وهو يغدق عليهم المكافآت ، أو وهو يجمعهم فى مكتبه حول عشاء أثناء العمل ، وهاهم قد سمعوا بعودته ، وكأنه قدر مفروض عليهم لا يستطيعون الفكاك منه ، مثل هذا الشعور ملأ أنفسهم بالتحدى أو الخوف أو برغبة فى المقاومة ، وخاصة أنهم قد عاشوا ساعات أحسوا فيها وبغير وعى أنهم تحرروا من القوة الكبيرة التى كانت متسلطة عليهم . فكان مجرد أن يقال

عبد الهادى النجار عائد لامحالة .. كافياً لإثارة المقاومة . ولعل هذا التبرير إذا صح . يفسر لنا كيف أن أعداء عبد الهادى قد نسوا كل هذا ، وهم الذين كانوا غارقين فيه . لأنهم كانوا ثائرين ضده منذ زمن طويل ، وكانوا واعين بثورتهم هذه ، وقضوا الأيام والليالى يدبرون له ، وهم الآن أسرع من غيرهم إلى قبول الواقع الذى فرض عليهم عودته ، حتى أنهم أخذوا مايقال ضده الآن على أنه [illegible] فيما [illegible] إلا [illegible] لم يسىء إلى أيهم شخصيا إساءة مباشرة .

ولقد اتخذت تحركات المحررين أشكالا غريبة من التجمعات ، كانوا يندفعون إلى حجرات بعضهم البعض ، وترتفع تساؤلاتهم وتعليقاتهم .. إنه عائد .. لا مستحيل أن يعود .. هذه شائعة .. لا إن حسن زيدان يؤكد أنه عائد .. وينتابهم الضحك ، ثم ينتابهم الوجوم ، وهم يزدادون تورطا فى هذا الموقف الغريب ، وقد شاءت الظروف أن يقضوا هذه الساعات ، بغير قيود وبغير توجيه ، وبغير خضوع لأحد ، فإذا بهذه الحرية المفاجئة تتحول إلى محنة من انفلات الأعصاب ، بينما كان هناك آخرون يتابعون ما يجرى فى فضول ، وكأنهم يشاهدون مباراة كرة قدم مثيرة بين فريقين أجنبيين لا صالح لهم إلا فى انتصار الأكثر مهارة وتفوقا ، ولكنهم عاجزون تماما حتى هذه اللحظة التى تمر بهم على أن يحددوا من هو الأفضل ، وكان حسن زيدان مازال يحاول أن يحتفظ بمظهره الواثق ، ولهجته الواثقة ، كأنه لم يلاحظ شيئا ، رغم أنه عرف وسمع وخاف وأبلغ دياب ، واتفق معه على إسكات الهمسات ، ولكن كيف .. إنه لا يدرى . ويشعر أنه فى كابوس ، عليه أن يمشى فيه نحو عبد الهادى ليقبله ويرحب به ، ويكسب من وراء هذا دعما كبيرا لنفسه ، ومع ذلك تنهار الأرض وتميد به مع كل خطوة يخطوها إلى الإمام ، وهو لا يعرف كيف يتخلص من هذا الكابوس ويفيق منه ، ورغم شكوكه فى أن هناك من يحرك المحررين إلا أنه فى قرارة نفسه يشعر أن أحداً لا يحركهم ، وأن قوى غريبة مجهولة هى التى صنعت هذا الكابوس ، ولعله لو عرف الحقيقة لما

صدقها ، فأول من بدأ الهمس ، وهذه حقيقة تاريخية ، هو رجل عجوز لا صلة له بشيء ، يعمل فى أرشيف الجريدة ، وكان على وشك أن يترك الخدمة بعد إصابة عينة بالمياه الزرقاء ، وأوشك أن يفقد بصره . ولم يزد هذا الرجل على أن يبدى تساؤله فى سذاجة مطلقة ، إذ قال لمن أخبره بأن عبد الهادى عائد :

ـ ولماذا كانت كل هذه الضجة إذن ؟

ـ ولكن هذه البداية الساذجة أخذت الآن طابعا جادا لا صلة له بتلك البداية ، والذى بلغ من حدته أنه اتخذ مسارب متناقضة ، وكان أكبر مظهر لها ، هو إعلان البعض أن عودة عبد الهادى غير صحيحة وأنها خبر مدسوس ، وقال البعض إنها خدعة من دياب وحسن زيدان دبراها ليعرفا أصدقاء عبد الهادى وليبطشا بهم بعد أن يكشفوا عن فرحتهم ، وأنه لا جدال فى أن قرار طرد عبد الهادى هو قرار لا رجعة فيه ، وليس من المعقول ، وباسم أى منطق ، أن تحدث هذه البلبلة إلا إذا كان وراءها ذلك التدبير المرسوم بعناية للإيقاع بأكبر عدد ممكن من أنصار عبد الهادى .

ولم يتحمل عم صالح هذه الشائعة الأخيرة ، فكاد يجن ، وهجم على التليفون فى حجرة عبد الهادى واتصل به ، وسمع صوت عبد الهادى يقول له :

ـ لن أحضر الليلة ، فأنا متعب وأكلمك وأنا راقد فى السرير .. قل لمن يسأل عنى إنى سأحضر فى الغد .

قال عم صالح مستريبا :

ـ لا .. لابد أن تأتى الليلة .

قال عبد الهادى فى دهشة :

ـ مادهاك يارجل ؟

قال عم صالح ملحا :

ـ سوف أحضر إليك .. وآخذك إلى مكتبك ..

فصاح عبد الهادى :

ـ هل جننت ..

قال صالح :

- نعم جننت مما اسمعه .

صاح عبد الهادى :

- لا شأن لك .

وأغلق سماعة التليفون .. وامتلأ قلب صالح بالمخاوف . ولكنه قال لبعض المحررين الذين تجمعوا حوله :

- أنه يقول إنه سيحضر فى الغد .

ولم يقتنع كثيرون بهذه الإجابة وقد لاحظوا أن المكالمة انقطعت فجأة وصاح أكثر من واحد :

- إذا كان سيحضر فى الغد فلماذا قال حسن زيدان إنه سيأتى الآن .

وصاح آخر :

- مادام لن يحضر الآن .. فأقسم لكم أنه لن يحضر لا فى الغد ولا فى أى يوم آخر .

وكان من ينظر إلى عم صالح . يرى بوضوح أنه متردد مضطرب ، فيزداد اقتناعا بأن عبد الهادى قد انتهى أمره . وهكذا انطلق أكثر من لسان يسب ويشتم فى شجاعة مفاجئة عبد الهادى النجار ، وقد ظنوا أنهم فهموا خدعة دياب ، حتى اندفع حسن زيدان مرة أخرى إلى مكتب دياب صائحا :

- لقد تأكدت أن يوسف منصور .. هو الذى يحرض المحررين .. إنه ينتقم فى غضب صبيانى مما حدث اليوم فى بيت عبد الهادى .

وأمسك دياب بالتليفون وطلب من يوسف أن يأتى إليه فى الحال ، ولكن قبل أن يصل يوسف ، كانت الأحداث قد تطورت إلى ذروة جديدة ، فقد ظهر فجأة الأستاذ همام بين المحررين ، وكان معروفا عنه أنه لا يتصل بهم وأنه يمر بهم متجاهلا وجودهم ، كما كان معروفا أنه لا يأتى إلى الجريدة فى المساء وأنه لم يشذ أبداً عن هذه القاعدة إلا فى الأيام الأخيرة ، عندما كان يجتمع فى مكتب دياب ليناقش الاستعداد والتنظيمات الجديدة تمهيدا لتوليه رئاسة التحرير

بعد طرد عبد الهادي . ثم يغادر المكتب ، محتفظا بتعاليه وعزوفه ـ عن لقاء أحد ـ الذى يصون به هيبته كأديب عملاق ، صاحب مدرسة أدبية ، لا يليق به أن يختلط بمن يتعاملون مع المهرج عبد الهادى النجار . ولكن هاهو يظهر فجأة ويقف بين المحررين ، ولا أحد يعرف كيف جاء ، أومن اتصل به إذا كان هناك من اتصل ، ولكنه على أية حال دخل مهتاجا ، وتكاثر حوله المحررون .

وكأنهم كانوا على موعد معه ، وينتشرون وراءه وهو يتجه إلى حسن زيدان حتى وقف أمامه صائحا :

ـ ماذا فعلتم .. هل تريدون عودته .. هل عجزتم عن تطهير هذا المكان الموبوء ولو ليوم واحد .

كان يتكلم بصوت عصبى حاد . وقد اندفع فى سباب ، حتى انشق المجتمعون حوله ، ليظهر بينهم دياب ، الذى تقدم منه شاحب الوجه قائلاً بصوت ضعيف :

ـ أرجوك ياأستاذ همام .

فقاطعه همام محتدا :

ـ وماذا تريد منى ؟

همس دياب مهدئا :

أرجوك تفضل إلى مكتبى ..

صاح همام :

ـ لن أدخل مكتبك .. ولا أى مكتب آخر .. لا صلة لى بكم بعد الآن .. أنا لست صحفيا .. أنا أديب كبير .. إذا كنت مازلت تعرف معنى للأدب .

كان دياب يربت على كتفه مهدئا .. وهو يردد :

ـ لا داعى لهذا يا أستاذ .

بينما يمضى همام غير مصغ إليه صارخا :

لقد جئت لأجمع أوراقى وحاجاتى .. فمنذ الآن لن تطأ قدماى هذا المكان .. لقد أخطأت عندما عدلت عن قرارى السابق ، إن همام لا يدنس

نفسه بالمجىء إلى مكان يدخله عبد الهادى .. أقولها بلا خوف .. وافعل بى ما تشاء .

وانفجر همام بعد قوله .. افعل ما تشاء .. ولعله خاف ، فاندفع فى سباب انتحارى ، إذ كان يزعق فى دياب :

- تريدون العودة إلى الشذوذ الجنسى .. تضعون أيديكم فى يد من تصفونه بأنه راعى [illegible] النسل [illegible] يستحق الإعدام فى ميدان التحرير .

هل تنكر هذا ياسيد دياب .. هل تريد منى أن ألغى عقلى .. لا ألغى عقلى وحده .. بل أفقأ عينى وأخرق أذنى .. لأنسى ما رأيته وما سمعته عن عبد الهادى منك أنت .

صاح دياب منفعلا :

إنى احترمك كأديب وأستاذ عظيم ، ولكنك تضطرنى إلى أن أطلب منك أن تكف عن هذا الكلام فى الحال .

كان صوت دياب مفعما بالألم والحسرة . أو هكذا خيل إلى سامعيه ، كأن حبال صوته تتمزق . مما أشاع فى الجمع موجة من الأسى والإشفاق ولعل همام شعر هو أيضا بما يعانى منه دياب ، لأنه اندفع فى وقاحة قائلاً :

- تقول لى مالم تستطع أن تقوله لعبد الهادى .

فإذا بدياب يصرخ بصوت أفزع الجميع وقد اكفهر وجهه :

- أخرج من هنا .. أنت ..

وسكت فجأة .. بينما سمع الجميع الكلمة التى لم ينطق بها .. سمعوه يقولها وابتسامة مريرة تعبث فى صدورهم ، وتتكتمها شفاههم .. سمعوه يقول : « أنت مفصول » .

ولعل همام سمعها هو أيضا ، ولكنه لم يبتسم فى أعماقه ، بل انهار فجأة ، وهمس :

- أنا آسف ياسيد دياب .. اعذرنى واعذر .. شيخوختى ، وبدا أنه يغالب دموعا فى عينيه . وتحرك مندفعا إلى الخارج ، ولكن دياب أمسك به

واحتضنه ، وجذبه معه إلى مكتبه ، فانقاد إليه ، بينما ارتفعت همسات وهمهمات فى كل مكان .

كان يوسف يرقب هذا المشهد ، ولعل أحداً لم ينتبه إليه ، وكان يعانى من آلام حادة تنهشه . ورآه دياب وهو يتحرك ممسكا بذراع همام ، التقت عيونهما ، وكاد يصيح أن يوقفه ، كان يريد أن يكلمه ، ولكنه نسى كل ما قاله له حسن زيدان ، إنه يريد أن يقول كلاما آخر .. ربما كان يريد أن يسأله ما الذى يفعله ، ربما كان باح له بما يعانيه من حيرة ، ولكن يوسف هو الذى منع دياب من الكلام ، أو جعله عاجزا عنه ، فقد أشاح بعينيه . وابتعد دياب خطوة . ثم عاد ونظر إلى يوسف مترددا ثم تقدم منه . وهمس منفعلا :

ـ ماذا بك أنت أيضا ؟

ولم يجب يوسف ، كان يرفع بصره بصعوبة إلى وجه دياب ، بينما يسأله فى لهفة :

ـ هل أنت غاضب عليه مثلهم ؟ قالها دياب وهو يتذكر بصعوبة ما قاله له حسن زيدان . يتذكره وهو لا يتهم يوسف بشىء ، لا يتهمه بأنه الذى دبر ما يحدث ، ولا يتهمه بأنه يرغب فى الانتقام من عبد الهادى .

وأشاح يوسف بعينيه ، وأطرق إلى الأرض ، وقد صمم على ألا تلتقى عيونهما وكان دياب ينظر إليه متلهفا على سماع كلمة منه متلهفا على نظرة تفصح له عن شىء ، كأنه يتوقع أن يوسف لو تكلم ، وعبر عن نفسه فقد يهديه إلى شىء إلى معنى ، إلى فهم يخلعه من هذه الداومة الغبية التى تدور به . ولكن يوسف أخرس لا يفصح عن شىء . وسأله دياب فى محاولة أخيرة :

ـ ماذا تفعل الآن ؟

ولم يجب يوسف . ولكن صمته كان أشبه بلغة غامضة .

وعاد دياب يسأله :

ـ أمازلت غاضبا منه ؟

وإذا بيوسف يرفع عينيه ، ولدهشة دياب رآه يبتسم ابتسامة عصبية ،

وفى عينيه نظرات غريبة ، لعله كان ينبىء بها عن اعتزامه على أن يقدم على هذا التصرف الذى ينتظره ، ولا يعرف ماكنهه ، لعله كان فى حالة من الحيرة لا تسعفه بمعنى أو شعور ، أو لعله كان خائفا من أن يبدر منه شيء فتنتهى حياته ، أو تبدأ حياته ، وكلا الأمرين مفزع لعله كان يسمع سؤال دياب عن غضبه من عبد الهادى ، فيسمع فى نفس الوقت سؤال عبد الهادى عن غضبه

من دياب ولا يكاد يصل إلى إجابة فلا شيء الآن يهم فى علاقته بأحد .. كل الأشخاص يتساقطون من حوله ومعهم كلماتهم وأفكارهم ودعاواهم . حتى أبيه الذى كان يحمله فوق كتفيه أسقطوه معهم .. كل شيء ذهب وابتعد .. ولعل الشيء الوحيد الذى يستطيعه الآن .. هو أن يردد أرقاما .. واحد .. اثنين ثلاثة . ويظل يتصاعد بالأرقام .. ولا شيء غيرها بينما نفسه محصورة فى جسده ، تضربها سياط تحدث بها آلاما قاسية .. لعله يشعر بالخيبة .. أو الذعر فى القلب .. أو لعل ما يشعر به يوسف لا تستطيع كلمات أن تصفه .. لن يعرف أحد كيف يصوغ ماشعر به يوسف لكن الجميع رأوه وهو يدير ظهره فجأة لدياب ويبتعد مسرعا خارجا من الجريدة .

ولم يدهش دياب .. وهمس لنفسه :

- غداً سألقاك .. وأتحدث معك .

بينما لمعت عينا حسن زيدان . واندفع خارجا وراء يوسف .. وقد ألح عليه خاطر غريب .



أحـزان يوسـف

كان كل مافى العصر الجديد يغلى ويفور ، ودوامة الانفعالات جامحة بينما جذب دياب الأستاذ همام إلى حجرته ، وقد ترك الجميع وقد سيطرت عليهم رعدة باردة . كان البعض يفكر فى طريقة يحصل بها على قرص مهدىء ، والبعض تراوده فكرة أن يذهب إلى أى مكان يسكر فيه وينسى نفسه أو يشارك أصحابه فى جلسة يغيبون فيها عن وعيهم ، وكان البعض يظهر خوفه والبعض الآخر يحاول أن يتماسك ، بينما كان دياب يتساءل بينه وبين نفسه لماذا هو مشغول بالتفكير فى يوسف ، وقد بدا له أن فى هذا الانشغال أمرا شديد الغرابة ، كان منظر يوسف وهو مضطرب أشد الاضطراب ، لا يجيبه بكلمة ، وعلى شفتيه تلك الابتسامة الغريبة . ثم وهو ينصرف فجأة من أمامه ، منظرا أشبه برؤيا فى حلم لا يستطيع لها تفسيرا . وهو الآن يتحدث مع الأستاذ همام ولكن أعصابه مشدودة بهذه الرؤيا الغامضة ، أما حسن زيدان فقد انطلق وراء يوسف وقد أدرك بحاسة خفية أن الوقت الآن مناسب جداً لكى يطرق الحديد وهو ساخن ، سوف ينقض على يوسف فى نهم ، يورطه فى تصرف شريد يفرح به . ويتلذذ من ورائه وهو يرى الآخرين يفجعون فى يوسف ، كان

لا يدرى على وجه التحديد ماذا سوف يفعل ، ولكن حاسته كانت تؤكد له أنه قادر الآن على أن يحتوى يوسف ، ويصنع به ما يريد ، يفضحه ويعريه ، أو يكتشفه ، أو يفض بكارته إلى آخر هذه الأوصاف التى لا تحدد لنا بدقة ما كان يعتمل فى نفس حسن زيدان ، ولكنها تكاد أن تكون أقرب وصف لما تهمس به أعماق نفسه ، ولقد كان للقاء يوسف بحسن زيدان فى تلك اللحظة أهمية خاصة ، فقد كان يوسف يعانى من أحزان كثيفة ، ولو كان سأل نفسه ما الذى يحزنه أو يؤلمه لما استطاع أن يجد لنفسه جوابا شافيا ، هل كان هذا الحزن يتزايد ويشتد ويبلغ به مبلغ الألم الحاد منذ أن خرج من بيت عبد الهادى ، أم أن حزنه زاد وآلامه طغت وقد فاجأته تلك الثورة المفاجئة ضد عبد الهادى ، أغلب الظن أنه لو كان سأل نفسه هذه الأسئلة أو ما يشابهها لما أجاب بأن هذا أو ذاك كان سببا لأحزانه ، ربما كانت هذه الأحداث هى المناسبة التى كشفت عن أحزانه . أما أحزانه الحقيقية فهى كامنة فى نفسه منذ زمن بعيد . ومصدرها الحقيقى هو شعور مخيف بالعجز عن التعامل مع الآخرين ، بالعجز عن فهمهم أو أن يجعلهم يفهمونه .. إنه يعانى من مرارة عزلة تقطع أية صلة فى المشاعر بينه وبينهم ، إنه لا يكاد يفهم كيف حدث ما حدث فى بيت عبد الهادى وهو ليس غاضبا منه ، وهو لا يكاد يصدق أن عبد الهادى نفسه غضب منه ، ولكن ها هو يواجه الموقف الذى تنقطع فيه الصلة بينهما ، فجأة ، وبغير سبب ، وإذا كان يشعر ببعض الغضب فذلك من دياب الذى أخذه معه إلى بيت عبد الهادى ثم تركه فيما يشبه التخلى عنه .

تركه ليبقى مع عدوه ، فكيف يعقل هذا ، الأعداء يتلاقون والأصدقاء يتفرقون ما الذي يصنع هذه المواقف فى الحياة ، أهو خطأ عام فى جوهرها أم أن الخطأ فيه هو ؟

عندما غادر بيت عبد الهادى ، كان يشعر بالعجز وهو يحاول أن يتعرف على ملامح نفسه ، وحقيقة ما يدور فى أعماقها فى تلك اللحظة كان غير قادر على أن يقول إنه تصرف بأخلاق فاضلة أو شريرة ، كان غير قادر على أن يوضح

لنفسه مبررا لتصرفه ، رغم أن الرجل رفضه فى وضوح حاسم ، كان يسير هائما على وجهه ، وهو يتفرج على أعماقه الخاوية ، إن مثله كان جديرا بأن يتحول إلى شخص منحل أو ضائع مثلما يحدث للآخرين وما أكثرهم ، كان جديرا بأن يتمرغ فى الضياع والفساد واللامبالاة ، لو حدث هذا لكان أسعد حالا مما هو فيه الآن . ولكن مصيبته أنه لا يؤمن بضياع أو فساد أو لا مبالاة . إذن ما الذى يؤمن به إيمانا قويا مسيطرا يأخذ عليه عقله وقلبه وجسده ، ما الذى ينهشه نهشا حتى يذوب فيه ، لا شىء لا إيمان كامل ، ولا شك كامل ، ولا اندفاع إلى جنة أو جحيم . صداقة أو كراهية ، مذلة أو مجد ، فقط تلك العزلة وذلك الجسد الخاوى الذى يهتز الآن اهتزازا مجلجلا مفرطا فى قسوته ، حتى يكاد يتحول فى أية لحظة إلى رماد . ثم جاء ذلك المشهد فى العصر الجديد . وجموع المحررين يسقطون فى دوامة الانفعالات ، وهو وحده المتفرج عليهم . بينما نفوسهم تزخر بكل ما هو محروم منه . هنا استولى عليه هلع شديد لا مما يجرى حوله ولكن كان هلعه من نفسه ، وبدا له أن تصرفه الذى يطلبه قد يقتضى منه أن يخرج الآن وفورا ويلقى بنفسه فى أحضان أول غريب يقابله ، ويتشبث به صائحا بقلب مجروح إنه يحبه ، متوسلا إليه أن يحبه هو أيضا .. لأنه فى حاجة إلى عاطفة .. فى حاجة إلى معاملة تملأ أعماق نفسه الخاوية . ولكن لماذا جرى إلى الشارع وكان أمامه العشرات وكان أمامه دياب يحاول أن يخاطبه ، لماذا هجمت عليه هذه المشاعر ، فهرب بها إلى الشارع .. لماذا لم يندفع كما أراد فى عناق لدياب ، أو عناق للأستاذ همام ، أو لأى واحد من المحررين الذين احتشدوا أمامه ، معلنا فى مشهد حقيقى شجاع حاجته إلى من ينقذه من نفسه لماذا لم يفعل هذا ؟ إنه عاجز عن الإجابة ، إنه عاجز عن إرواء ظمأه الشديد إلى أن تسيل من نفسه دماء ، تنزف كما تنزف الدماء الحقيقية من الجروح ، لو شعر بإهانة ، إن ما فعله عبد الهادى لم يشعره بإهانة لقد تفرج عليه ، كما تفرج على نفسه ، يا للعنة هل كان يستطيع أن يفعل مثلما فعل الأستاذ همام . وهو يسب ويشتم أمام الجميع ، لقد سمع يوسف اثنين .. من المحررين يتهامسان أثناء هياج همام كانا يقولان إنه

رائع . وأنه فعلا الرجل الشجاع الذى كان جديرا بأن يكون رئيسا للتحرير ، قالا رأيهما وهما لا يعلمان شيئا عن حقيقة ما كان يريده همام . ولكنه الموقف الذى اتخذه الرجل هو الذى استطاع أن يخلق المشاعر والعواطف ، واستطاع أن يتصل ويتعامل مع نفوس الآخرين . أما هو ، فبلا موقف يتخذه ولا رأى يعلنه . المصيبة أن المواقف كاذبة . والحقائق متوارية ، والصدق غير قائم فى النفوس ، ومع ذلك فالناس يتعاملون ، بالحب والكراهية ، ويعقدون فيما بينهم كل أنواع الصلات : الخوف والنفاق ، أو الكذب والضعف يجمع شملهم ، ويقيم بينهم المحبة والمودة والصداقة ، أما هو بصدقه فلا يستطيع أن يصل إلى شىء .. هل الصدق ضعيف إلى هذا الحد ، هذا هو ما يجعل آلامه أكثر حدة ؟ هذا ما يكاد يلقى به فى حضيض العدم ..

كان هذا هو ما يجيش فى صدر يوسف ، مما قد يسخر منه الكثيرون ، ومع ذلك يجد الكاتب نفسه . مضطرا إلى تسجيله ببعض التفصيل ، قبل أن يلتقى به حسن زيدان الذى هجم على يوسف وأمسك بذراعه وبادره قائلا وهو يلهث :

- أهذا أنت يا يوسف ؟ لقد جريت وراءك . إنى سئمت كل هذا الذى يحدث هناك .. ورأيت أنك أعقلنا إذ خرجت لتستنشق بعض الهواء النقى .. إن البقاء هناك فى هذه اللحظة .. أشبه بالبقاء فى عنبر المجاذيب فى الخانكة .

كان يوسف صامتا ، رغم أنه كان يفكر جادا فى أن ينقض على حسن زيدان ويعانقه ويقدم له نفسه الضعيفة قربانا لهذا اللقاء . لولا أن حسن سأله وهو يهز ذراعه :

- ماذا بك يا يوسف ؟ إن وجهك محتقن .

كانت عينا يوسف تنضحان ألما شديدا ، لا يخلو من غضب ، أو هلع ، غير أنه كان لا ينظر فى عينى حسن ، كانت عيناه تحدقان فى الظلام .

وقال حسن فى لهفة :

- إن من يراك لا يعرفك .. أقسم أنك تنوى على شر . أين يوسف الذى أعرفه ؟ أين وجهك الطيب أين ابتسامتك الحلوة ؟

قال يوسف فجأة بصوت متحشرج :

- اتركنى وشأنى ياحسن .

ابتسم حسن ابتسامة ضعيفة وقال فى إلحاح :

- لن أتركك ..

ثم قال بصوت يتظاهر بالحنان ، وقد زاد نهمه فى التعرف على يوسف وهو فى هذه الحالة الغريبة :

- هل أنت غاضب منى .. هل أتركهم جميعا وألحق بك لتطردنى على هذا النحو المخجل .. إن الجريدة بمن فيها لا تساوى الآن عندى قلامة من ظفرك .

نظر إليه يوسف فى ذهول ، وكأنه لم يسمع كلماته ، أو على الأقل لم يفهمها .. بينما كان حسن يهتف فى انفعال :

- هل جننت يايوسف .. أصابتك الهستريا التى عمت الجميع .. أتريد أن تخاصمنى أنا أيضا .. لقد رأيتك تدير ظهرك لذياب وتريد الآن أن تدير ظهرك لى .. ما الذى نويت أن تفعله بنا ؟

صاح يوسف بصوت حاد :

- أنا لم أخاصم أحداً .. ولا أريد أن أخاصم أحدا .. صدقنى أنى لا أجد من أكلمه ..

هتف حسن فى نشوة :

- أنا هنا .. معك .. الدنيا بخير .. إلى أين كنت ذاهبا ؟

قال يوسف يائسا :

- لا أدرى .

قال حسن ضاحكا :

- منذ تركتنا عند عبد الهادى ماذا فعلت بنفسك ؟

قال يوسف :

- لا أدرى .

فسأله حسن فى رقة :

- هل أكلت ؟

قال يوسف فى استسلام :

- لا ...

قال حسن :

- ألست جوعان الآن ؟

قال يوسف :

- لا ...

ثم أضاف بسرعة :

- فى الحقيقة لا أعرف .

صاح حسن :

- قل يا شيخ إنك جوعان .. اعترف .

ضحك يوسف فى عصبية .. ولعل كلمة اعترف كان لها وقع مبالغ فيه فقد صاح وهو يضحك :

- أنا أموت جوعا .

كان ينظر إلى عينى حسن ، وابتسامته تعود إليه ، وكأن كل ما كان يعانى منه قد تبخر بمعجزة وكان حسن يصيح فى حماس :

- عظيم .. لابد أن أدبر لك عشاء خاصا .

قال يوسف فى طيعة واستسلام :

- نذهب إلى أى مكان .

قال حسن محتجا وقد التمعت عيناه :

- لا يا صديقى .. إن حسن زيدان لا يذهب إلى أى مكان .. لابد أن أختار المكان المناسب للشخص المناسب .. ويوسف منصور الآن فى حاجة إلى بعض الفرفشة .. وحسن زيدان عليه أن يتصرف بسرعة من أجل صديقه .. أليس كذلك ..

- صاح يوسف فى حماس غريب عنه :

- نعم ... أنا فى حاجة إلى أن أفعل أشياء غريبة .

قال حسن وهو يغمز بعينيه وقد اطمأن إلى أن خطته توشك أن تنجح :

- ليست غريبة تماما .

رد يوسف فى اندفاع :

- بل أغرب من الغريبة .

قال حسن منتشيا بما يسمع وبلهجة جادة :

- المهم أنك مستعد لأن تمضى معى إلى آخر الشوط .

قال يوسف بلا تردد :

- هذا ما سوف أفعله بكل تأكيد .

فضغط حسن على ذراع يوسف بقوة وهو يسأله بلهجة غريبة :

- لا تخوننى .. وتتراجع ؟.

قال يوسف وكأنه يتحداه :

- لا تخوننى وتتراجع أنت .

قال حسن منتشيا بما يسمع وبلهجة جادة :

- مهما فعلنا .. وإلى أى مكان نذهب إليه .

قال يوسف فى عناد :

- نعم إلى أى مكان .

فى تلك اللحظة ، تذكر يوسف وجه زينب ، وهى تطل من نافذة سيارته ، وتمنى لوكان يراها الآن ، وخيل إليه أن شيئا غامضا جعله يتذكرها ، وأن هذا الشيء كامن فى نفسه ، ولكنه لم يتوقف عند هذه الخواطر ، كان اندفاعه وراء حسن أهم بالنسبة له من أية فكرة أو خاطرة تهفو إليه ، إنه مستسلم تماما لحسن فهو المعجزة التى هبطت عليه لتأتيه بالخلاص الذى ينشده .

كان حسن زيدان يقول :

ـ منذ كنا فى الجامعة وأنت معى دون مناقشة .. هذا هو يوسف الذى عرفته وأحببته .

ثم أضاف محذرا :

ـ ولا تقل إنى استغلك .

ضحك يوسف قائلا فى لهجة غريبة :

ـ قلت لك سأذهب معك بلا مناقشة وستصدق أننى الذى استغلك

ـ صاح حسن :

ـ عظيم .. وإنى أقبل التحدى .. وسوف نرى من الذى سيتراجع .

قال يوسف فى نفاد صبر :

ـ قلت لك لن أتراجع .

فابتسم حسن ابتسامة عريضة راضية وقال :

ـ إذن ما الذى ننتظره . هيا بنا .

كانا قد سارا أثناء هذا الحوار مسافة لا بأس بها مبتعدين عن مبنى الجريدة ، فتلفت حسن حوله وصاح مناديا على « تاكسى »

فسأله يوسف فى دهشة :

ولماذا لا تأخذ سيارتى .. أو سيارتك ؟

قال حسن وقد غلبه الانفعال :

ـ لا ياسيدى .. ليس لدينا وقت نضيعه .. وأخشى أن تغير رأيك عندما نعود إلى الجريدة .. ومن يدرى فقد يرونا وينادون علينا .. فلنهرب منهم .. فى هذه اللحظة .. ونقذف بأنفسنا فى هذا التاكسى .

وجذب حسن يد يوسف وهو يقول متهللا :

ـ لقد طرأت لى فكرة رائعة .. ودخلا التاكسى ، وأعطى حسن السائق عنوانا فى الزمالك . وقضيا الوقت وحسن يثرثر بكلام لا أهمية له . يخفى به قلقه ، كان قلقه من أن يعدل يوسف فجأة ولعله كان غير واثق من أنه سيرضى بالذهاب معه إلى حيث كان يريد .

وانفجرت مخاوف حسن زيدان ، عندما سأله يوسف فجأة :

ـ إلى أين نذهب ؟

صاح حسن مذعورا :

ـ ألم تترك لى هذا الأمر ؟

قال يوسف مؤكدا وهو يبتسم :

ـ طبعا .. ولكن أسألك فقط .

قال حسن :

ـ لا ... لن أقول لك الآن .. فهز يوسف كتفه قائلاً :

ـ سأذهب معك إلى جهنم إذا أردت .

قال حسن وهو غير مصدق :

ـ لست واثقا يايوسف .. ولكنك ستندم إذا لم تأت معى .

وتشبث مرة أخرى بذراع يوسف كأنه يخشى أن يفلت منه ، أو يقفز فجأة من التاكسى ويهرب . كان قلق حسن زيدان يشتد ، كلما وجد يوسف أكثر دعة واستسلاما له ، ها هو يوسف بين يديه ، وقد أسلم له القياد ، فهل يفلت منه ، مستحيل ، ومع ذلك فهو خائف ، لا يكاد يفهم كيف أصبح كل شىء سهلا ميسورا ، وأن نهاية يوسف وشيكة . يوسف الخرافة الأسطورة التى يتحدث عنها عبد الهادى .

الملاك الذى ضل طريقه فى غابة الشياطين .. وهذه الليلة سوف تقضى على كل هذه الخرافات ، غداً سوف يتلذذ وهو يقول لعبد الهادى ولدياب ، لقد رأيته عريانا فى سرير امرأة كانت تصفعه على قفاه . رأيته يرقص عشرة بلدى وهو سكران .. رأيته حذاء امرأة تسعيرتها جنيه .. أية لذة كبرى أية نشوة عارمة ستجتاحه ، وهو يشاهد يوسف هذا كما يريد أن يشاهده يبادله الشتائم ، يوجه إليه كل ما يريد من ألفاظ يتوهم يوسف أنها جارحة نابية .. يقولها له على سبيل الهزار ويراه يتقبلها منه وهو فى قرارة نفسه يذله ويهينه ويسخر منه ويجعل منه أضحوكة .. سيقول له أمك وأبوك .. سيعرضه للفضيحة والبهدلة .. كان حسن يشعر بفرح خبيث وهو ينقل إلى عبد الهادى ودياب تعليقات سمعها عن يوسف من امرأة يتعرف عليها الليلة . هذه هى

فرصته التى سنحت أخيرا ليكسر عين يوسف ، فكما طرده عبد الهادى ظهر اليوم ، لابد أن يجهز عليه حسن زيدان فى المساء .

ووقف التاكسى أمام عمارة ضخمة فى الزمالك .. وقال حسن :

- هيا .

وهبط يوسف وراءه ، وأسرع يدفع أجرة التاكسى .. فتركه حسن يدفع ، وهو يفرك يديه فى قلق .. ثم جذبه إلى داخل العمارة .. كان مدخلها أشبه بمدخل فندق كبير ، وبها أكثر من مصعد ، والخارجون والداخلون ، خليط من مصريين ، وعرب وأجانب ، ودخلا المصعد ، وضغط حسن على الرقم السابع وكان يوسف ينظر إليه بعينين باسمتين ، وعندما خرجا من المصعد ، واتجه حسن إلى أحد الأبواب .

همس يوسف :

- ألا تخبرنى الآن ؟

قال حسن بلهجة حادة وهو يدق جرس الباب :

- لا ...

وفتحت ألباب خادمة .

وقال لها حسن :

- أخبرى السيدة أنى جئت .

بدا أن الخادمة تعرفه ، ونظرت إلى يوسف فى غير دهشة .. وتقدم حسن إلى داخل الشقة ، وتبعه يوسف ، وهناك فى نهاية صالة كبيرة كانت تجلس امرأة فى قميص نوم .. وكانت تصيح فى لهجة يشوبها الذعر ، أو هكذا خيل ليوسف :

- من بالباب يا فتحية ؟

ونهضت مقبلة عليهما ، وفى نظراتها توجس وحذر .

أليس كذلك
ياحسـونة

انتقلت إلهام كمال إلى تلك الشقة فى الزمالك ، بعد أن جمعت ثروة لا بأس بها ، وأصبحت فى مأمن من الفقر ، وإن كانت مخاوفها ظلت تلازمها من عوادى الزمن ، وقد استأجرت المسكن من تاجر كان يسكن فيه ، ويقال إنه تنازل لها عنه بعد ليلة همست فيها فى أذنه بكلمات ، انتهت بأن أعطاها المسكن بغير خلو رجل ، ولم يكن ما همست به كلمات غرام ، بل معلومات استفاد منها التاجر فى عقد صفقات كسب من ورائها الكثير . والشائع بين سكان العمارة أن التاجر أراد أن يستغل إلهام ، وأنه كان يطمع فى أن يجعل من شقتها مكانا مختارا لسهراته التى يعقد فيها صفقاته فى جو مرح يسيل له لعاب الموظفين الذين فى أيديهم تراخيص الاستيراد والتصدير ولوائح النقد الأجنبى ووسائل التعامل به . والذى حدث هو أن التاجر اختفى ، وبدا أن إلهام تعمل مستقلة تماما ، وقد عقدت صلات بكثير من أصحاب الدكاكين الصغيرة التى تبيع أدوات التجميل ومستحضرات الزينة وغيرها من البضائع النسائية المستوردة أو المهربة وقد تحولت بعض هذه الدكاكين إلى مصايد للبنات

والسيدات ، اللاتى يقعن فى إغراء فستان أو بلوزة وينتهى بهن الأمر إلى قبول هذه المغريات كهدايا مقابل لقاء رجل يدفع ثمن الهدية . ولقد صاحب انتقال إلهام إلى هذه الشقة ، حادث مشئوم ، وهو مصرع ابنتها سوسن فى الحمام وقيل إنها انتحرت ، وقيل إنها لم تكن قد تعودت على استعمال البوتاجاز فى حمام الشقة الجديدة فتركته مفتوحا وقد انطفأت شعلته ثم أرادت إشعاله بعد فترة فانفجرت النار بوجهها ، وكان حسن زيدان أحد الذين استغلوا هذا الحادث لعقد صلة وثيقة بإلهام كما سبق أن ذكرنا ، ولقد مضت سنوات على هذه الكارثة ، دون أن يعلم أحد على وجه الدقة كيف واجهت إلهام فقد وحيدتها . ولكنها بكل تأكيد مضت تمارس نشاطها وتتوسع فيه ، دون أن تتخلى عن الشقة التى شهدت مصابها . ومنذ اللقاء الأول ، كان حسن مبهورا بشخصية إلهام كان يرى فيها امرأة تعرف كيف تصل إلى قمة المجد ، فهى لا تتورع عن شيء ، قادرة على أن تستولى على ما تريد ، وتملك طاقة جبارة من الجشع والشراهة والمكر ، إنها فى نظر حسن ، صانعة امبراطورية ، تملك الثروة والسيطرة والنفوذ ، إنها من ذلك الطراز الوحيد من البشر ، الذى كتب له التفوق والسيادة فى مجتمع العصر ، وكلما كثر أمثال هذا الطراز ، استطاعت الأمة أن تقوى ، فالأمم لا تقوى بالأخلاق والفضائل والثقافة ، وإنما الأمم بما فيها من بشر قادرين على الافتراس لهم أنياب حادة ، ولهم قدرات خارقة على دخول الصراع والانتصار فيه ، إنها شبيهة بعبد الهادى

النجار فى مجالها ، وهى قوية مثله ، ولقد حاول حسن زيدان أن يتعرف على تاريخ حياتها ، وكان قد سمع أنها ابنة أحد الوعاظ كما سمع أنها من أصل مغربى ، ولكن إلهام لم تجبه على تساؤلاته أبدا ، وكانت تسخر منه إذا ماسألها مرددة : وما شأنك ، هل تريد أن تناسبنى ، وكانت تعامله أحيانا بوقاحة شديدة ، وأحيانا بنعومة بالغة ، وكان يراها ماكرة مندفعة ، وأحيانا حذرة سريعة الخوف ، وفى كل الأحوال كانت امرأة شديدة النشاط والحيوية والقسوة ، ومما بهر حسن زيدان فى شخصيتها قدرتها على الكلام باليونانية

والإيطالية والأسبانية وكان يسألهـا كيف تعلمت هذه اللغـات ، فتجيبه ساخرة ، إنها سافرت إلى كل بلاد العالم ، وكان حسن واثقا من أنها تكذب عليه وكان يصارحها بذلك ثم يؤكد لها إعجابه الشديد بها لما حصلت عليه من خبرات واسعة وما تستطيع أن ترويه من حكايات لا تنتهى عن بلاد العالم وطبائع رجالها . وفى الشهور الأخيرة كانت إلهام مشغولة بمشروع كبير يقوم على تهريب البضائع والنقود ، وكان يتردد على مسكنها الكثير من رجال لهم صلات بالخارج من بينهم طيارون وأجانب ، وكان حسن زيدان يتمنى فى قرارة نفسه أن تزداد صلته بإلهام ، فكان يتودد إليها وينقل إليها الكثير من الأخبار وقد لاحظ أنها تهتم أكثر فأكثر بالتطورات السياسية فى الداخل والخارج ، مما فتح له باب الأمل أن يعقد معها فى يوم من الأيام صفقة تستفيد منها من مركزه الهام فى جريدة واسعة الانتشار مثل العصر الجديـد ، ويستفيد هو من أصدقائها ومعارفها الذين يتكاثرون .

وحين دخل عليها حسن زيدان ومعه يوسف منصور ، كانت جالسة وحدها فى الصالة تستمع إلى راديو ترانزستور يذيع أغانى يونانية من محطة الإذاعة الأوروبية وكان الضوء فى الصالة خافتا يشيع جوا من الغموض فى المكان الذى بدا مزدحما بالتحف المتناثرة على المناضد والرفوف فى كل مكان وخيل إلى يوسف أنها لم تسترح لرؤيتهما . وزاد من إحساسه بذلك أنها هتفت فى حسن بصوت مبحوح فيه نبرة خيبة أمل .

أهو أنت ..؟

ولكن حسن الذى لا تفوته ملاحظة هذه النبرة ، تجاهلها ، وهتف بدوره فى مرح مصطنع :

- ماذا جرى لك يا إلهام .. كيف تستقبلين ضيوفا مثلنا .. هكذا .

قالت وقد ضحكت عيناها بسرعة وعلى شفتيها ابتسامة ترحيب :

- كنت أظنك شخصا آخر .

قال حسن وهو يغمز بعينيه :

ـ واحد أو واحدة ؟!

قالت بسرعة :

ـ رجل له شنب .

قال حسن وهو مصمم على الاستمرار فى التظاهر بالمرح وأنه صاحب البيت :

ـ هل تحبين شخصاً غيرى يا إلهام . أهي خيانة .

قالت متجاهلة مرحة :

ـ أبداً .. إنه موعد عمل .

صاح حسن محتجا :

ـ لن تطلبى منا أن نذهب .. قالت :

ـ مستحيل .. البيت بيتكم .. اتفضلوا فى الداخل .. ولن تطول مقابلتى معه .

قال حسن بلهجة من يستطيع أن يصدر أوامره :

ـ أضيئي النور يا إلهام .

قالت باسمة رغم أن يوسف كان يشعر بقلقها :

ـ تفضلا فى الداخل .

وقادتهما فى ممر إلى حجرة أنيقة ، أرضها مغطاة بسجادة صينية يقدر ثمنها بمئات الجنيهات وكان فى ركن الحجرة بار صغير وجهاز راديو وريكوردر وجرامفون . وقبل أن يجلسا على المقاعد الوثيرة المغطاة بقماش أزرق فى لون الستائر الزرقاء المسدلة على النافذة الكبيرة ، التفتت إلهام إلى يوسف تتفحصه على الضوء الشديد الذى انتشر من ثريا كريستال فى سقف الحجرة ، كانت تراقبه منذ البداية ، وقد أدهشها أنه لم يتكلم ، وأنه يتحرك وكأنه لا يريد أن يشعر أحد بوجوده .. قالت له ..

ـ لا تؤاخذنى يا أستاذ .. اتفضل أهلا وسهلاً .

كانت تنطق بالكلمات وعيناها مثبتتان على وجهه ، معلنة فى صراحة أنها

تتفحصه ، وبدا عليها التردد ، كانت تتوقع أن تلتقى عيناه بعينيها ، فهكذا تستطيع أن تفهم الرجل بسرعة ، وتتحقق من معدنه ، وتعرف الكثير مما يدور داخله ، ولكن يوسف كان أحرص من أن يواجهها بعينيه ، ولعل هذا ضايقها فعادت تردد بصوت آلى :

ـ أهلا وسهلا .

قال حسن وقد ضايقه أنها لا ترحب به كما يجب :

ـ قولى صراحة .. هل ضايقك مجيئنا ؟

فرفعت صوتها :

ـ أبداً والله .

والتفتت مرة أخرى نحو يوسف وهى تقول فى حماس يبدو حقيقيا :

ـ لا تقل هذا أمام صاحبك الذى يزورنى لأول مرة .. وإلا قال عنى إنى قليلة الأصل .

قال حسن :

ـ صديقى جاء من أجل الفرفشة .. ولقد وعدته بها ، إنه مهموم وحزين .. ومطلوب منك أن تغسلى همومه فورا وبلا إبطاء .

قالت إلهام فجأة :

ـ وصاحبك هذا أخرس ؟

فنطق يوسف بسرعة ضاحكا :

ـ أبدا .

فصاحت إلهام :

ـ الحمد لله .. ظننت والله أنك أخرس .

ـ قالتها بفرحة حقيقية ، لم يتوقعها يوسف ، بل أن فرحتها كست وجهها ، كان لها وجه كبير مستدير يحيط به شعر بنى مشوب بحمرة الحناء وكانت عيناها صغيرتين ثاقبتين ، وخداها بارزين ، وقد احتفظت بأنف دقيق وشفتين ممتلئتين وأثر لطابع حسن فى ذقنها الذى ينساب مع استدارة وجهها ،

واكتشف يوسف فى تلك اللحظة فقط أنها قصيرة أكثر مما خيل إليه أول الأمر، وأنها تحتفظ بقوام رشيق، شد عينيه إلى ساقيها فوجدهما جميلتين ورفع عينيه فالتقى بعينيها وكانتا تبتسمان له فى رقة بالغة كأنها توافق على أن يتفحصها .. وتسأله عن القرار الذى وصل إليه .. ولكنه عجز عن مخاطبتها بعينيه، فأشاحت برأسها فى حدة ونفاد صبر والتفتت إلى حسن الذى كان يقول :

- هذا صديقى يوسف منصور .. وهو زميلى فى الجريدة، وهو نوع غريب من الناس .. لا أظن أنك عرفت مثله من قبل .. فهم يقولون عنه إنه ملاك .. ولكن يبدو أنه زهق من هذه التهمة ويريد أن يتخلص منها .. إنه فى حاجة إلى قليل من فساد يصلح به معدته .

قالت إلهام ساخرة :

- لا أصدقك .. لا يمكن أن يكون صديقك ويكون ملاكا .. ولابد أنه ألعن منك .. والتفتت إلى يوسف مرة أخرى وسألته :

- ما هى الهموم التى تشغلك ؟

فصاح حسن محتجا :

- لا ليس بهذه السرعة .. أولًا لابد أن نطمئن على مستقبلنا .. هل كل شىء جاهز .. أم لا ..؟

قالت إلهام :

- ما الذى تريد أن تطمَئن عليه ؟

قال حسن :

- الشرب .. الجلسة الحلوة .

قالت إلهام وهى تنظر إليه فى مكر :

- وهل قالوا لك إنى فتحت كباريه ؟!

قال حسن وكأنه لم يسمعها :

- إذا لم تتدخلى فورا لإنقاذ هذا الشاب .. فسينتحر .

قالت إلهام باسمه متهكمة :

ـ إذا أراد أن ينتحر فلينتحر .. ولكن ليس فى بيتى .

والتفتت إلهام إلى يوسف وسألته فى وقاحة مفاجئة :

ـ لماذا جئت تزورنى يا أستاذ ؟

قال يوسف مرتبكا :

ـ فى الحقيقة حسن هو الذى جاء بى .. دون أن أعرف إلى أين أنا ذاهب .

فقاطعه حسن :

ـ هل تتراجع الآن ؟

قال يوسف محتجا :

ـ لا .. ولكنى لست أدرى ما الذى تتحدثون عنه !

صاحت إلهام بصوت بارد :

ـ ولا أنا .

قال حسن . فى غضب :

ـ افهمينى يا إلهام .

فقاطعته متحدية :

ـ أنا فهمتك وعجنتك وخبزتك .

ـ هل تريدين منا أن نقوم الآن ؟

ونهض صائحا فى يوسف :

ـ هيا بنا يا صديقى .

فتدخلت إلهام قائلة وهى تضحك :

ـ وما شأنك أنت وصديقك .

فتغير وجه حسن .. وقال لها وكأنه اكتشف خاطرا غريبا .

ـ هل تريدين منه أن يبقى وحده ؟ هل أعجبك .. تريدينه لك .. وماذا عن الرجل الآخر الذى تنتظرينه ؟

صاحت إلهام وكأن ما يقوله حسن قد أعجبها :

قلت لك ما شأنك أنت ؟

فتوجه حسن إلى يوسف قائلا :

- هل تريد أن تبقى ؟

قال يوسف بسرعة .

- نعم .

قالها بفرح شديد .. وكأنه استطاع أن يتخذ أخيرا قرارا هاما . فنقل حسن بصره بين إلهام ويوسف ، فى حركة تمثيلية وقال :

- على العموم أنا سعيد جداً .. بأنى عرفتكما ببعض .

ثم قال ليوسف :

- مادمت معجبا بإلهام . وهى معجبة بك .. فليس لى أن أتدخل .

قال يوسف والفرح مازال يغمره :

- طبعا .. أنا معجب بها .

فجعل حسن يضرب كفا على كف .. مرددا :

- علمناه الشحاذة فسبقنا على الأبواب .

عندما قال يوسف إنه معجب بإلهام ، كانت خواطر غريبة تنقض على رأسه ، فقد كان يشعر لدهشته وكأنه جالس أمام أمه .. رغم البعد الشديد بين المرأتين ورغم استحالة هذه المقارنة أخلاقيا أو اجتماعيا فى نظره ، ومع ذلك كانت الرابطة الشاذة بين إلهام وأمه تلح عليه وتشعره بنوع من الاطمئنان والدفء .. وبدأت أحزانه وآلامه تنساب وكأنها تبعد ، يجرفها تيار الخواطر .. فلا تبقى إلا هذه اللحظة وهذه الحجرة وهذه المرأة ، وصورة أمه فى خياله ، الشىء الوحيد الغريب عنه تماما والذى لا تفسير له ، هو وجود حسن زيدان معه الآن .

وهنا أقدمت إلهام على تصرف غير متوقع ، ولعلها أحست أنها أمام موقف لا يخلو من طرافة فقد نظرت إلى يوسف فى حنان ، وقالت له باسمه وهى تشير إلى موقع بجوارها على الأريكة التى تجلس عليها :

- تعال .. اجلس هنا إلى جانبى .. وحدثنى عن همومك .

ولم يتردد يوسف ، فنهض وذهب يجلس إلى جوارها ، وقد أشرق وجهه بابتسامة صافية .. بينما كان حسن زيدان مازال يصيح بصوته وانفعالاته النشاز :

- ادخل عليها .. لتأكل عظمك قبل لحمك .. هيا ادخل .

كانت الكلمات تخرج من فمه كطلقات رصاص ، وجسده ينتفض فى عصبية بالغة حتى اسكتته إلهام قائلة :

- كف عن هذا يا حسن .. ودعنى أتحدث معه .

- ولم تنتظر إلهام سكوت حسن واقتربت بوجهها المستدير نحو وجه يوسف . حتى شعر بأنفاسها ورائحة بشرتها ، وقالت له فى رقة :

- ما الذى يضايقك ؟

فصاح حسن فيما يشبه الشماتة :

- هموم عيال . تشاجر معه صديقه .. وهو فى نفس الوقت رئيسه فى العمل .

قالت إلهام موجهة الحديث إلى يوسف ، الذى كان يبتلع ريقه :

- هل تشاجرت مع دياب ؟

قال حسن وقد جمد مكانه :

- لا .. إنه عبد الهادى النجار .

ثم سألها فى دهشة ووجوم :

- ما دخل دياب .. لماذا ذكرت اسمه ؟

فتجاهلته إلهام .. واستمرت تنظر إلى يوسف منتظرة منه أن يقول شيئا ..

كانت أحزانه وآلامه قد عادت إليه دفعة واحدة .. فاحتقن وجهه بالألم الممض .. وهمس :

- أبداً .. ليست لدى مشاكل .

فمدت إلهام ذراعها حول كتفه فى أمومة ، وسألته .

- أجئت لتفرفش كما يقول حسن ؟

قال يوسف ونظراته تفضح ما يشعر به من ألم ويأس :

- ليتنى أستطيع .

قالت فى اهتمام .

- وهل هناك ما يمنع .. أتشعر بعجز ؟

- فهم يوسف ما تعنيه .. فقال ضاحكا :

- أبدا .

سألته :

- ألم تعرف امرأة من قبل ؟

قال يوسف :

- عرفت .

فسألته :

- وهل أحببت ؟

قال يوسف بسرعة :

- لم أعرف إلا من أحب .

فإذا بها تضحك وتمد يدها فتمسك أذنه وتفركها بين أصابعها قائلة .

- ولماذا لم تتزوج ياشاطر ؟!

قال يوسف فى ارتباك :

- الظروف .

فسألت فى اهتمام :

- أية ظروف ؟

وبدأ أن يوسف يفكر .. ثم قال مترددا :

- فى الحقيقة .. لا أدرى .. لم يحدث أن فتحنا موضوع الزواج كانت العلاقة تنتهى .

قالت له إلهام فى لوم :

ـ إذن أنت من ذلك النوع الذى يحب أن يوهم نفسه بأنه مخلص للفتاة التى يخدعها .

كان حسن قد أنصت إلى هذا الحوار باهتمام وفضول .. ولكنه الآن لم يطق السكوت .. فصاح :

ـ لن تتكلما إلى الأبد دون أن نفعل شيئا .

وقبل أن تجيبه إلهام ، ظهرت فتحية عند الباب .. وسألتها إلهام فى لهفة وقلق .

ـ هل جاء ؟

قالت فتحية :

ـ نعم ..

فنهضت إلهام ، وقد تغير وجهها واتخذ مظهره الأول المشحون بالتوجس والحذر .. وقالت إنها ستعود بعد قليل .. ولكن حسن أسرع وراءها خارجا من الباب .. ثم عاد مندفعا مادا يده إلى يوسف قائلا :

ـ هات عشرة جنيهات .

دس يوسف يده فى جيبه وأخرج العشرة جنيهات ، فاختطفها منه حسن .. وخرج .. وعاد بعد قليل وقد شحب وجهه ، وجلس علي مقعد بجوار يوسف صامتا يستنشق الهواء ويزفره بصوت مسموع ، ثم قال بصوت هامس :

ـ هذا شيء غير مفهوم . أتدرى من الذى تقابله إلهام ؟

قال يوسف :

ـ من ؟

فهمس حسن فى جزع :

ـ لا ترفع صوتك .. إنه لن يخطر لك ببال .. إنه خبر تدفع فيه ألف جنيه لتعرفه ..

كان يوسف ينظر إليه فى غير مبالاة .. ولكن حسن كان مشغولا بالخبر الذى اصطاده ، وهو ينظر إلى يوسف الآن مترددا فى أن يقول له ما يعرفه .. ربما

كان الأفضل أن يحتفظ لنفسه به .. ولكنه يكاد ينفجر لو كتم ما فى صدره إنه أكبر مما يطيق كتمانه فى هذه اللحظة بالذات .. فهمس ليوسف وهو ينطق الحروف ببطء كأنه يريد أن يسمعها ويتأكد منها لنفسه :

- خرجت لأعطى النقود لفتحية بعد أن اتفقت مع إلهام على ذلك .. وقد أدهشنى أن إلهام كانت فى عجلة من أمرها ، وأنها لم تنتظر ولو للحظة حتى أعطيها النقود فقلت لنفسى ترى من يكون هذا الشخص الذى تهتم به هذا الاهتمام ، وما أن خرجت حتى تسللت وأنا أمشى على أطراف أصابعى .. لأختلس نظرة إلى القادم .. ورأيته إنه شىء لا يصدق هل تعرف من هو .. إنه فهمى عبد السلام دياب .. شقيق دياب الذى يشتغل فى الاستيراد والتصدير .. أليس هذا غريبا .. ما الذى جمع الشامى على المغربى ؟ كنت أريد أن أنصت إلى ما يقولون ولكنى ما كدت أراه حتى شعرت بقلبى فى قدمى .. وخفت أن يرانى وتكون مصيبة .. إنه شقيق دياب .. ولابد أن ما بينه وبين إلهام .. يهمه أن يظل سرا بينهما .. ولو كان رآنى فربما كان طلب من شقيقه أن ينسفنى من فوق الأرض .. ترى هل يعرف دياب بهذه الصلة لابد أنه يعرف .. إنه رجل مخابرات .. ويقولون إن شقيقه هذا أيضا له صلة بالمخابرات .. هل يدخل مع إلهام فى مشروعها الخاص بالتهريب .. أم أنه يتجسس عليها ويدبر لها كمينا .. هناك شىء مثير يطبخ الآن خارج هذه الحجرة . وقد يتحول فى يوم قريب إلى ما نشيت كبير ، القبض على راقصة سابقة تقود عصابة تهريب أو ربما العكس .. فتقرأ اعلانات فى الصحف عن وصول آخر مبتكرات لندن وباريس من أجلك ياسيدتى الأنيقة .. ما رأيك ..

كان حسن يلهث ، وقد أرهقه التفكير والنطق ببطء .. وكان لا يخفى ذعره ، وفى الوقت نفسه يشعر بنشوة الحصول على خبر مثير . وكان يتمنى أن يسعفه يوسف برأى فى هذا الذى رآه وأربكه ..

قال يوسف فى هدوء :

- أظن أنك تبالغ .

فهمس حسن وهو يريد أن يصيح :

- ولكن لابد أن نتصرف فى هذا الموقف .. ما رأيك .. هل أفاتح إلهام فى الموضوع وأقول لها إنى رأيته ؟

قال يوسف :

- إذا أردت .

سأل حسن وكأنه يسأل نفسه

- أليس فى هذا خطورة ؟

فضحك يوسف وقال :

- أية خطورة تعنى ؟

فقال حسن فى عصبية :

- لا تستهن بهذه الأمور .. إن هؤلاء الناس جبارون .. إن إلهام امرأة شريرة .. ولا تفلح معها طريقتك فى أخذ الأمور بسهولة .. أنسيت ما رويته لك عنها وكيف أفسدت زوجة صديقك نور الدين بهنس ؟

نظر إليه يوسف في بلادة ، وكأنه يسمع اسم نور الدين لأول مرة فى حياته ، وكأنه لا يعرف زينب ولم يسمع عنها قط .. وشعر حسن باليأس من مشاركة يوسف له فى انفعالاته ، فمضى يحدث نفسه ، بينما نهض يوسف يفحص مجموعة من الاسطوانات بجوار الجرامفون .. حتى ظهرت إلهام وفى فمها سيجارة وفى عينيها شرود .. ولكنها ما كادت ترى يوسف ، حتى ابتسمت وكأنها تذكرت شيئا ما تحب أن تتذكره وسألته :

- أتشرب ويسكى يا أستاذ يوسف ؟

- أفضل البيرة .

فصاح حسن :

- دفعنا عشرة جنيهات لتشرب بيرة .. طبعا ويسكى .

فلم تعره إلهام التفاتا .. وقالت مخاطبة يوسف :

- سأشرب ما تشربه أنت .

صاح حسن :

- يامجنونة !!

فالتفتت إليه إلهام قائلة :

- وهل دفعت أنت مليما .

قال حسن :

- تستغفلينه ؟!

قالت إلهام :

- ليس هذا شأنك .

بينما قال يوسف ضاحكا :

- لاتقل هذا الكلام يا حسن .

وذهبت إلهام إلي الباب ، ونادت فتحية ، وطلبت منها أن تأتى بالبيرة .. بينما حسن يقول له فى غيظ :

- هذه المرأة تلعب بعشرة من أمثالك .. والله أنا نادم أنى جئت بك إلى هنا .

قال يوسف محتفظا بهدوئه :

- بالعكس .. أنا سعيد لأنى عرفتها .

وسمعته إلهام ، التى كانت قد فرغت من إصدار أوامرها لفتحية .. فاتجهت إليه وجلست بجواره وهى تنفث الدخان فى وجهه .. وتتأمله من جديد ، وكأنها تبحث فى وجهه عن شيء ما ، وقالت فجأة .. ليوسف :

- أنا أعرف نوعك من الرجال .. إنه أخطر والعن نوع .. ومدت يدها إلى عنق يوسف وفى عينيها الذكيتين شراسة غريبة وقالت وهى تلمس عنقه :

- مثلك يجب أن تخنقه الواحدة منا .. قبل أن يقضى عليها .

- قال حسن زيدان فى ضيق :

- هذا غزل من نوع جديد .. ولكننا نفضل أن تخنقنا واحدة من صديقاتك .

فالتفتت إليه والقت عليه نظرة احتقار قائلة :

- اسكت ياولد أنت .

فامتقع وجه حسن ، ولكنه كظم ما يشعر به بينما سألت هى يوسف :

- كم واحدة خدعتها .. وهربت من الزواج ؟

قال يوسف :

- ولا واحدة خدعتها .

صاحت إلهام :

- نصاب .

قال يوسف باسما :

- لست نصابا .. وصدقينى لو أن واحدة قالت لى تزوجنى .. لماترددت لحظة فى الزواج منها .

هتفت إلهام فى حرقة لا يقتضيها الموقف :

- ياخرابى .. وهل هناك نصب أشنع من هذا ؟

وأضافت ساخرة :

- إذن .. والنبى تتزوجنى يا أستاذ .

قال يوسف ضاحكا :

- تقولينها صادقة ؟

قالت إلهام وهى تضحك ضحكة عصبية .. وفى وجهها شراسة :

- ما معنى صادقة .. أتضحك على بمثل هذا الكلام .. إن كان على الكلام خذ صدق من هنا إلى باكر .. إلى يوم القيامة .. ولكن ما قيمته .. المهم التصرف .

ودخلت فتحية تحمل صينية عليها زجاجتا بيرة وثلاثة أكواب .. وصاح حسن ساخرا :

- ها هى البيرة .. كأننا فى روضة أطفال .. هل وصلت الحال بإلهام كمال أن تشرب البيرة .. لا أفخر أنواع الويسكى والشمبانيا .. طبعا أنت مسرورة لأنك وفرت الويسكى .. وأسرع يصب لنفسه البيرة .. وهو يتأفف :

- أعوذ بالله .. إنها ساخنة .. وليست لها رغاوى .

ومع ذلك جعل يرشف منها فى نهم مرددا :

ـ أمرى إلى الله . أنا الذى فعلت هذا بنفسى ..

قالت له إلهام فى وقاحة :

ـ إذا كانت البيرة لا تعجبك .. فاذهب واشتر زجاجة ويسكى .

قال حسن :

ـ بعد أن دفعنا لك النقود

قالت إلهام :

سأعيد ليوسف نقوده .. وادفع أنت .

فضحك حسن فى عصبية وقال :

ـ لا .. البيرة أحسن .

قالت إلهام :

ـ إذن اسكت .. واتركنى أتحدث مع صاحبى .

قال حسن متراجعا فجأة :

ـ افعلى ما تشائين . أنا أعلنت الاستسلام .

ونسيته إلهام تماما .. وصبت ليوسف ولنفسها كوبين .. وانتظرت أن يشرب .. فلما رأته يرشف فى حذر .. قالت فى انفعال :

ـ إذا كنت لا تشرب .. فلن أشرب أنا أيضا .. لقد شربت من الخمرة فى حياتى ما جعلنى لا أسكر أبداً .. رغم أنى أريد أن أسكر الليلة .. لست أدرى ما الذى حدث لى منذ رأيتك .. أنت لا تدرى أنك حركت فى نفسى مواجع

ورفعت صوتها المضطرب قائلة :

ـ هذا يوم صعب لى .

صاح حسن :

ـ ياسلام .

ولكنها مضت وكأنها لم تسمع وكان لتجاهلها له هذه المرة .. وقع الإهانة فى

نفسه .. فصمتت ولعله شعر بخوف مفاجىء منها .. كانت تقول ليوسف فى اضطراب شديد :

ـ الحب الحقيقى .. ليس كما تقول .. لقد أحببت فى حياتى مرة واحدة .. وكان رجلا من نوعك .. يقول عنه أصحابه إنه ملاك .. وكان طيب القلب بشكل لا يمكن أن تصدقه .. وجاء يوم قلت لنفسى .. إنى سأهجر كل شىء وأعيش له وحده .. ولكنه كان نصابا مثلك .. يحبنى .. وكنت خائفة من الناس ماذا فعلت .. إن ما أقوله لك لا يعرفه أحد .. ولكن لا يهمنى أن أقوله الآن .. حتى فى وجود هذا الشخص (تعنى حسن) الذى لا أفهم كيف تصادقه ولكنه كان مثلك كل أصحابه سفلة .. كان وحيداً وسطهم وكان يتمنى لو استطاع أن يعيش معى وحدنا فى هذه الدنيا .. وطبعا هذا مستحيل .. المهم .. أنا التى تصرفت .. بعد أن خاف من الزواج .

قضيت معه ليلة واحدة .. حملت فيها منه .. كنت أشعر أن الحمل الذى يملأ بطنى .. هو الشىء الصادق الوحيد فى حبنا .. هو خائف منى .. وأنا لا أصلح زوجة له وسط الناس .. ولكن ما قيمة هذا .. هناك مخلوق جديد يستطيع أن يعيش باسم حبنا .. بنى آدم من لحم ودم وله عينان وفم وشعر وابتسامة حلوة . هذا هو حبنا الصادق .. لا الكلمات والوعود .. وهكذا جاءت ابنتى سوسن .. التى عاشت وماتت ولم تعرفه .. وظنت أن أباها زوجى الذى تزوجته فيما بعد .. ورضى بأن يعطيها اسمه .. ماقيمة الأسماء .. المهم الدم .. اللحم .. الشبه .. المهم النفس .. الروح ... ولكنها ماتت .. وانتهى كل شىء .. ولم أعد أنا نفس العاشقة الولهانة .. أصبحت امرأة أخرى .. ولكن صدقنى .. أحيانا يخطر لى أن أذهب إليه ولو ليلة واحدة .. وأحمل منه مرة أخرى .. رغم أنى لم أعد أحبه .. ولا صلة لى به .. ولا هو يعرف أنه كانت له بنت وماتت .. ولا يهمنى أن يعرف هل تفهم مثل هذا الحب يا أستاذ ؟

لم يستطع يوسف أن يجيبها ولكنه فعل شيئا أكثر تعبيرا عما فى نفسه .. فقد سالت دموع غير مرئية من نفسه أجهشت روحه بالبكاء وإلهام تكاد تشعر

بأحزانه فربتت عليه ، وأخذت تجرى بأصابعها فى شعر رأسه .. وكان يشعر فى نفس الوقت بشلل كامل فى مشاعره فما كان متأثراً بقصتها ، أو كان مشفقا عليها ، أو منزعجا مما قالته ، ولا كان يشعر بحب نحوها أو بإغراء من أى نوع ، ولا كان يدرك بوضوح أن هناك معنى جديداً ينبع من أعماقه ، وكان رغم غرابة هذا يشعر بثقة فى نفسه أكثر من أية لحظة سابقة ، إنه واثق أنه لن يضيع ولن ينساق وراء حسن زيدان وكان فى دهشة من هذه الثقة العمياء التى تتضخم فى صدره مع بكائه .. وكان فى دهشة أكبر من شعوره بالألفة والطمأنينة نحو هذه المرأة التى أخذت منه نقوده ، كانت ثقته مفرطة إلى درجة أنه لا يستريب مقدار ذرة فى صدق حكايتها ، وأنها لا تبيع له عواطف أو حنانا ولكنها تقدم له شيئا من نفسها .. تتعامل به مباشرة معه .. وها هى تمسح بيدها على شعره وتقول له :

- قبلنى ..

فارتمى على صدرها وقبلها فى خدها ، وأمسك بيديها يقبلهما كما لم يفعل فى حياته أبداً ، حتى هدأ تماما .. فرفعت رأسه بأصابع يدها ..

وقالت له فجأة :

- اذهب الآن .

قال لها فى امتنان عميق :

- لن أنساك أبداً .

- كان وجه حسن مصفرا . عاجزا تماما عن التنفس ، وقالت إلهام مخاطبة يوسف وهى فى قمة اضطرابها :

- يجب أن اعترف لك بأنك علمتنى شيئا كنت انتظره منذ سنوات ، ألم تقل لى إنه لو كانت طلبتك واحدة للزواج لما ترددت فى القبول .. أنا أصدقك .. وأدرك الآن أنى لو كنت سألته أن يتزوجنى لما كان تردد رغم كل مخاوفه .. أخذت منه ابنتنا خلسة .. دون أن أدرى أنى أستطيع أن آخذه هو بكلمة أنطق بها .. إنى أفهم الآن وبعد فوات الأوان أنى كنت أستطيع أن أتزوجه ..

لا تظن أنى نادمة .. أنا سعيدة لأنى فهمت ذلك .

ارتاح قلبى .. ولكنى تغيرت .. ولم أعد أهتم بكل هذا .. وقد لا أراك بعد الآن .. ولكنى سأرى صاحبك هذا فهو صديقى .. ويتحمل سخافاتى .. أليس كذلك يا حسونة ؟!

قالتها وهى تضحك فى وجهه .. فضحك هو الآخر ..

وقال ضاحكا فى حقد واضح .

- ملعون أبوكى على أبو يوسف لقد كانت ليلتكما نكدا فى نكد .

وما كادا يصلان إلى باب العمارة ، حتى استأذن حسن من يوسف .. وأسرع مبتعدا عنه ، فقد كان لا يطيق لحظة أخرى يقضيها معه .





كما يحدث فى السينما

تأملت زينب وجهها فى المرآة غير راضية عما تراه ، بشرتها متعبة شعرها فقد حيويته وبريقه ، عيناها مرهقتان ، وهى يائسة تماما من استرجاع شىء من هذا الذى تفتقده فى جمالها . لقد انقضت ساعات طوال وهى واقفة أمام المرآة ، ومع ذلك فكل محاولة تبذلها تؤدى إلى نتيجة أسوأ ، وهى الآن ترى نفسها كالغولة منكوشة الشعر متورمة العينين من بكاء الغيظ لا تكاد تجد مخرجا لها إلا أن تقفز من النافذة وتنتحر . إن هذا الخاطر أصبح يلح عليها كثيرا فى الأيام الأخيرة ، خاصة ساعة الغروب ، عندما تبدأ العتمة تزحف وتنتشر فى كل مكان ، ولا تفلح الكهرباء فى طرد تأثيرها عليها . وها هى ساعة الغروب ، تدنو ، فإما أن تقدم على الانتحار أو تؤجله إلى يوم آخر ولحظة عذاب أخرى ، وتنجو مؤقتا بالهرب إلى الشارع وإلى ذلك اللقاء الجديد مع ذلك الشاب الوسيم الذى طاردها بعربته المرسيدس ٢٥٠ إس طوال الأسابيع الأخيرة . ولكن كيف تخرج إلى الشارع بهذا المنظر المخيف ، كيف تحدث المعجزة وتنظر إلى نفسها فى المرآة وترضى عما تراه . كيف تتخلص من هذه الأزمة الخانقة التى تواجهها ، إنها واثقة أنها بمجرد أن تفرغ من مرآتها ،

فسوف تنفرج الأزمة ، وستخرج إلى الشارع امرأة أخرى غير تلك التى هى عليها الآن ، وسوف تركب العربة المرسيدس ، تنطلق بهما ، ويلهوان ويضحكان ويشربان وسوف يضمها هى وذلك الشاب الوسيم فراش ، وسوف تحصل على نشوة ، ويسرى خدر لذيذ فى أوصالها ، وسيتورد خداها ، وستلمع عيناها ، وسيكون هناك مبرر لشعرها المنكوش بحيوية معركة الغرام ، وستنسى تماما كل ما تعانى منه الآن من ضيق ويأس ، وإن كانت واثقة أنها سوف تعود إلى الضيق واليأس مرة أخرى مع نهار جديد . فكرت فى أن تعدل عن المشروع كله ، ولا تذهب إلى ذلك اللقاء ، إنه لا أهمية له على الإطلاق ، وأغلب ظنها أن يكون لقاء ليلة واحدة تصنع فيها فرحا وبهجة ، ثم ترقبهما يشيعان فى نعش كذلك الذى حمل جدتها عصر يوم واختفى بها حاملا معه ماكانت تشعر به من فرح وبهجة فى حجرتها الزاهية الألوان ، ومع صناديقها المزركشة وملابسها الموشاة وجواهرها الجميلة البراقة . لقد لاحقها ذلك الشاب كما لاحقها الآخرون ، ولم تلتفت إليه أول الأمر لأنها كانت مشغولة عنه بأفكار جديدة خطرت لها منذ ذلك اليوم الذى هاجمها فيه عبد الهادى النجار وقال لها إنها امرأة تبيع جسدها بالنقود عند إلهام كمال ، عندما خرجت من عنده فى ذلك اليوم سارت فى الشوارع طويلا تتفرج على الفترينات ، وكانت خائفة من شعور غامض يطغى عليها ، كان قد اتهمها بأنها ترتكب أشياء بشعة ، وأن هناك رجالا فى الدولة يتتبعون حركاتها وتصرفاتها ويسجلونها فى تقارير ، لا بسببها ولكن من أجل علاقتها بعبد الهادى النجار ، وكانت لا تفهم لماذا يفعلون ذلك ، ولماذا هو مهتم بهم خائف منهم وخائف منها ومع ذلك فقد انهار أمامها وقدم لها جسده يريد أن يصالحها ؟ وكان يردد وهى خارجة من عنده متى أراك .. متى أراك .. وأدركت لحظتها أنه يتصرف بلا وعى ، وأنه لا معنى لهذا اللقاء الذى يتكرر بينهما ، ليقدم لها مخاوفه ، وليخاف منها ، ثم ينهار أمامها ويصالحها بجسده مرة أخرى ، ولا يمكن أن يستمر ما بينهما على هذا المنوال ، إنه عذاب لا معنى له ، ولقاء ليس فيه متعة ولا فرحة ولا بهجة . لقاء ممل لابد أن تهجره كما تعودت أن تفر

هاربة من دار السينما فى منتصف فيلم ممل سخيف . كانت واقفة أمام إحدى الفترينات فى شارع قصر النيل ، عندما وقع بصرها على مكتب شركة طيران تجلس داخله مضيفات فى زيهن الأزرق . وخطر لها فجأة أنها قد تكون أسعد حالا لو اشتغلت مضيفة طيران ، ولدهشتها لم تنتظر لحظة واحدة ، فاقتحمت باب المكتب ، ودهشتها من نفسها تتزايد وتتضخم . واتجهت إلى امرأة تبدو ذات أهمية خاصة إذ كانت تجلس على مكتب فى نهاية الصالة الكبيرة ، ورفعت المرأة عينيها إلى زينب تسألها عما تريد ، فقالت لها بصوت [illegible] على أذنيها :

- أريد أن أعمل مضيفة .

ترددت المرأة لحظة ، قبل أن تبتسم ابتسامة مصطنعة وتقول لها :

- طلبات الوظائف تقدم للمركز الرئيسى .

- وهل يقبلوننى ؟

قالت المرأة وهى تتفحصها باسمة :

- إنهم يجرون امتحانا للقبول .

ثم أضافت وقد اتسعت ابتسامتها :

- وشكلك حلو ، وسنك صغير .. هل تجيدين اللغات ؟

قالت زينب بسرعة :

- نعم ..

قالتها فى تصميم ، متجاهلة تماما أنها لا تجيد أية لغة ، وأن حصيلتها من الإنجليزية والفرنسية قليلة . وقالت زينب كأنها تقنع نفسها :

- لقد عشت فترة فى باريس .

- وأعطتها المرأة عنوان المركز الرئيسى ، وأخبرتها باسم الإدارة التى تتوجه إليها وتقدم طلب الوظيفة ، وخرجت زينب إلى الشارع وهى مذهولة من نفسها . وكأنها حققت معجزة ، وأصبحت بالفعل مضيفة تركب طائرة تشق بها عباب السماء إلى أماكن نائية فى هذا الكون العريض ، ولكنها بعد أن سارت خطوات شعرت بالخوف من أن تفقد الوظيفة التى حصلت عليها بخيالها . ولم

تعد تحتمل البقاء وحدها ، فأسرعت تركب سيارة أجرة ، وأمرت السائق ان يذهب بها إلى شارع المبتديان . كانت تتصرف بغير تفكير ، مندفعة فى اتخاذ قرارات لا تدرى لماذا تتخذها ، وها هى تقف أمام بيت أمها فى شارع المبتديان مترددة فى الدخول ، ولكنها مضت إلى الداخل . حيث وجدت أمها تجلس وحدها فى الظلام ، وانقبض قلبها ، كأنها ألقت بنفسها فى قبر ، وعاملتها أمها ببرود أول الأمر ، ولعلها كانت واثقة أنها جاءت ومعها مصيبة ، فقد يكون نور الدين يهمس قد طلقها ، أو ضبطها مرة أخرى متلبسة بخيانة مثلما حدث منذ عام عندما وقف خلف الباب المفتوح لحجرة نومها ينصت إليها وهى تتحدث مع أحد عشاقها بكلام صريح مفضوح ، ثم دخل عليها وشتمها ، وشتمته ، وطلبت منه أن يطلقها ، فتجاهلها ، وذهب إلى أمها يشكوها ، ويقول لها إن ابنتها فاسدة منحلة ، وأن عليها أن تؤدبها وتعيد إليها عقلها ، ثم جاءت زينب إلى أمها لتطلب الطلاق وتنكر فى وقاحة أمام أمها أنها فعلت شيئا مما يتهمها به نور الدين وأمها لا تصدقها . وتقول لها فى دهشة وحسرة :

– أنت التى تطلبين الطلاق بينما هو يتمسك بك رغم كل ما تفعلينه وهل تجد واحدة فى الدنيا رجلا مثل هذا الرجل .. يسامحك ويتستر على فضائحك .. ورغم ذلك ترفسين النعمة .. وتتنكرين له .. إن مثلك سوف تكون نهايتها بشعة وسوف ينتهى بك الحال إلى رجل لا يغفر لك ولا يتستر عليك .. ولكنه يقذف وجهك بماء النار ويشوهه .. هذا ما تسعين وراءه بأسنانك وأظافرك .. وكل ما أتمناه على الله وقد تقدم بى العمر أن يأخذنى إليه قبل أن يجىء هذا اليوم .

صاحت زينب فيها :

– وهل هذا رجل ذلك الذى يرضى بأن يتمسك بزوجته بعد أن يتهمها كل هذه الاتهامات .. إنه ليس رجلا .. إنه حيوان لا قلب له ولا إحساس .. وأنت السبب فى زواجى منه .. وأقسم لك أنه لا يتورع عن أن يدعونى إلى أن أسلم جسدى إلى أى رجل لديه معه مصلحة أو قرش يكسبه .. إنه قواد .. وكل ما يغضبه أنى لا أعمل لحسابه .

صاحت فيها الأم :

- اخرسى .. لست ابنتى ولا أعرفك ..

وتركت لها زينب البيت .. رذهبت لقضاء ليلتها عند إلهام كمال .. التى اتصلت فى الصباح بنور الدين بهنس .. فجاء إلى بيتها يعتذر لزينب ويصالحها ويقسم ألا يعود إلى اتهامها .. وعادت معه إلى البيت ، يائسة أشبه بفأر مذعور يتخبط داخل مصيدة .. ولكنها كانت لا تتحمل الذعر ولا اليأس فتنسى كل شىء ، وتعود إلى حياتها بما فيها من آلام و أحزان طويلة ، ولحظات قصار من الفرح والبهجة تصطنعها أو تختطفها من بين أنياب الحياة .

وهاهى أمها تتبين أن ابنتها لم تجىء بمصيبة فبدأ وجهها العجوز يستريح ويظهر بعض العواطف .. وشرعت خديجة تتحدث عن أمراضها ضغط الدم والمرارة ، وضعف البصر ، ثم هاهى تسأل فى حذر عن أخبار نور الدين .

قالت لها زينب فى وجوم وهى أشد ندما من قبل على مجيئها :

- أنت تعرفين أخباره أكثر منى .

فابتسمت خديجة .. لما اعتبرته إعلانا من زينب بهزيمتها أمامها وقالت :

- لقد اشترى عشرة فدادين جديدة .. ولو كنت عاقلة وتسمعين كلام أمك .. لكان كتب هذه الفدادين باسمك .. ولكنك عبيطة .

وسألتها أمها بصوت مفاجىء فى حدته :

- ألم تحملى بعد ؟

فاحتقن وجه زينب بغضب تحاول السيطرة عليه ، ولم تجب بينما مضت الأم تلومها ، وتسألها عن تفسير لهذا الامتناع عن الحمل وتؤكد لها أن نور الدين يريد ولداً وأنه كان يزورها يوم الجمعة الماضى ، وجلس يشكو لها حرمانه من الولد ، وأنه لا يصدق أن زينب تريد أن تكرر المأساة ، فهى ليست مأساة ولا ذنب لأحد فيما حدث ، ولو صممت زينب على موقفها ، فالنتيجة المحتمة ، هى أن نور الدين سيتزوج من أخرى وستنجب له عشرة صبيان وبنات وسيكتب لهم كل ما يملكه .

كانت زينب تستمع إليها وكأنها تتحدث عن شخص غريب لا صلة لها به ، وتتحدث عن ثروة لا تعنيها .. وكانت تفكر فى عشرات المرات التى ذهبت فيها إلى الدكتور عباس وإلى غيره لتجهض نفسها ، وكانت تحس بوخز فى صدرها لذكرى المأساة التى تشير إليها أمها وتقاوم هذه الذكرى وتبذل جهداً خارقا حتى لا تهجم عليها تفاصيلها .

كانت زينب قد حملت من نور الدين بعد عودتهما إلى القاهرة من باريس ، وكانت قبل ذلك تحتاط من الحمل ، حتى لا تتعرض لمخاطر الولادة وهى فى غربة بعيدة عن أهلها .. وكانت تتوقع أن يكون لها ولد .. وكأنه سوف يأتى من بطنها وحدها ، دون أن تكون له صلة بهذه الأفعال المقززة التى يقدم عليها نور الدين ، ولما شعرت بالجنين يتحرك فى بطنها استسلمت له تماما ، حتى أنها سمنت وتضخم جسدها ، ولا هم لها إلا أكل الحلاوة الطحينية التى توحمت عليها بشراهة غير عادية . وولدت طفلا سمينا وزنه ساعة الولادة زاد على أربعة كيلو جرامات .. ورغم أنهم قالوا إنه يشبه نور الدين ، وقالوا إنه يشبه جده الحاج رمضان .. إلا أنها لم تكترث بهذا الذى يقولونه .. ورأته يشبهها وصممت على أن تسمى طفلها مدحت على اسم أبيها ، ولكن نور الدين رفض وسماه مصطفى ، ورضخت لنور الدين ، وما كانت تستطيع أن تفعل شيئا غير ذلك .. فقد نهرتها أمها .. وقالت لها إن الولد لابد أن يكون على اسم جده لأبيه .. وأن عليها أن تنجب طفلا آخر لتسميه على اسم جده من أمه .. ولم تكتف خديجة بهذا بل اتفقت مع نور الدين على أن تتولى بنفسها تربية الطفل ، لأن أمه صغيرة وغير عاقلة ، ولن تعرف كيف تعنى به . واستسلمت زينب مرة أخرى لأمها ، وما كانت تدرى كيف تتصرف أمام صراخ الولد .. وطلباته التى لا تنتهى . كانت ترقب أمها ، وهى تشرف عليه ، وترضعه من « البزازة » وتغير قماطه ، وهى تشعر وكأنها تدوس بأقدامها على حياتها غير مكترثة بكيانها أو وجودها . ولعل خديجة أرادت أن تعيد تمثيل مشاهد أمومتها لزينب ، عندما استولت دودو هانم عليها وحرمتها منها ، إن خديجة تعيد

نفس المشاهد مع تبديل الأدوار ، فهى تقوم بدور دودو هانم ، وزينب تقوم بدورها هى ولم تدرك زينب هذا الذى تفعله أمها ، واستسلمت له وهى غير راضية ، غير فاهمة لما يضايقها ويفسد طعم حياتها .. وكان الطفل قد بلغ الستة شهور عندما توفى الحاج رمضان واضطرت خديجة إلى تركه لزينب لتتفرغ إلى جنازة شقيقها وطقوس العزاء .. ووجدت زينب نفسها فجأة وجها لوجه مع ابنها ، يحدق فى عينيها ويصرخ ، وهى عاجزة عن فهمه أو التعامل معه . واشتد صراخ الطفل .. حتى أصبحت لا تنام وعندما وجدته يتقيأ ما يرضعه من لبن صرخت وبكت ، ولكن نور الدين سخر منها ، وقال لها إن أمها سوف تعود بعد أيام وتعرف كيف تتصرف ، ولكن أحوال الطفل ساءت أو هكذا خيل إلى زينب التى أصبحت تعانى من فزع ملح يلاحقها فى كل لحظة ، وطلبت من نور الدين أن يسرع باستدعاء طبيب .. ومرة أخرى سخر منها نور الدين ، وجعل يلومها على مخاوفها .. كل الأطفال تصرخ وكل الأطفال تتقيأ ، وصدقته زينب واتهمت نفسها بالعجز والجهل ، وكانت تحتضن طفلها وتبكى ، وتدور به فى حجرات البيت كالمجنونة ، حتى هدأ ولم يعد يصرخ وأصبحت نظراته حالمة عميقة ، ولكن الفزع كان يصاحب زينب ولا يريد أن يفارقها ، لأنه كان لا يرضع .. وكان إسهاله مستمرا .. وهى عاجزة تماما عن إدراك ما تراه ، خائفة منه ، من نفسها .. حتى كان صباح اليوم الثالث .. فاستيقظت زينب ، لترى وجه طفلها أزرق وعينيه تنظران فى جمود .. لم تصرخ ، ولكن فزعها كان قاسيا مطبقا ، ووجدت نفسها تقول لنور الدين بغير وعى :

ـ أنا خائفة .

ونظر إلى الولد مرتابا .. وقال بصوت مضطرب :

ـ ربما كان مريضا .

وهنا صاحت زينب :

ـ استدع الطبيب .

قال نور الدين مترددا :

- لا .. سوف أطلب من أمك أن تجيء وتراه أولاً .

الكلب .. النتن .. البخيل .. لقد قتل ابنه بسبب خوفه من ضياع بضعة جنيهات يعطيها لطبيب .. ولكنهم لم يتهموه ، واتهموها هى .. وسمعت أمها تقول لها فى وحشية :

- أتركك يومين فتقتلين الولد ، قاومت زينب ذكرى هذه المأساة .. وأمها تعود إلى موضوع حملها وهى عاجزة تماما عن أن تجيب بكلمة ، لقد مضى ذلك الوقت .. ولقد عرفت كيف تتخلص بعد ذلك من أية مأساة أخرى .. فلجأت إلى الأطباء لتجهض نفسها ، ولكنها مع ذلك تؤمن أنه لابد أن يكون لها ولد ولكن من رجل تطمئن إليه .. ذات ليلة قال لها ماجد .. أنت ضائعة ، فلما شتمته ، قال لها ألست تتركين ابنك يموت ، قال ماسمعه منها من قبل فى لحظة اعتراف وليلتها تركته للأبد .. وليلتها ذهبت مندفعة إلى الحجرة التى يجلس فيها نور الدين مع أصحابه وطلبت من المخرج بكر سليمان أن يجعل منها ممثلة ..

ليلتها بحثت عن عمل لتنجو من الضياع ، وحدثت بكر سليمان .. وهى ترى نفسها ممثلة كبيرة مثل انجريد برجمان أو نعيمة عاكف كما كانت تتمنى فى سالف الأيام .. نعم إنها رفضت دائما تهمة الضياع وهى لم تفهم أبداً أنها خاطئة .. إن هذه الكلمة لا تعرفها ، وهى لا تدرى شيئا عن الخطيئة ولا تفسير لذلك إلا أنها جاهلة بالكثير مما فى هذه الحياة .. وجهلها يضعفها ، فرغم اندفاعاتها ، ونزواتها .. وانطلاقاتها فى مغامرات مع رجال ، إلا أنها لا ترتكب ذلك واعية بما تفعله أو متحدية لما فى الحياة من قيم ، وهى لا تواجه ، ولا تنحرف ، إنها هكذا تنجرف كما ينجرف قارب بلا قائد مع خضم الأمواج ، وهى فى أشد الحاجة إلى أن تجد مسلكا تسير فيه فتسعد ، ولقد أدركت بغريزتها أنها تريد رجلا يقودها إلى بر الأمان والسعادة رجلا يساعدها على الاختيار الصحيح ، رجلا له حكمة ، وله وقار ، وليس معنى ذلك أنها تبحث عن معلم ، أو تريد قديسا .. فهذا آخر ما يخطر لها ببال ، إن

ما تريده ، هو رجل يهديها إلى نفسها ، ويساعدها على أن تعقد صلحا بينها وبين نفسها ، فالرجل مهما كان ، ومهما أدركت بغريزتها أنها فى حاجة إليه ، ليس هو نهاية المطاف ، إن نهاية المطاف بالنسبة لها .. هى أعماقها ، هى انطلاق تلك المشاعر الغامضة الكامنة فيها هى إدراكها لها والسيطرة عليها والتعامل معها . لقد كانت تجربتها مع صالح عصيبة ، فقد حدثها عن

الله ، وحدثها عن الشيطان ، حدثها عن القوى الكبيرة التى تحيط بها ، ولكنه عجز عن أن يساعدها عندما لجأت إليه ليخلصها من الزواج بنور الدين .. لقد قال لها إنه رأى الشيطان أيام مرضه وأنه تحداه وانتصر عليه ولكنه لم يستطع أن ينتصر على أمها وخالها ونور الدين . ورغم أنها عانت فى حياتها مع نور الدين ، وجدت نفسها مازالت قادرة على الحياة ، حتى بعد أن مات ابنها ، واتهموها بقتله ، حتى بعد أن قالوا لها إن الله قد اصطفاه إلى جواره فى الجنة . قد يكون هذا مريحا لابنها ، ولكن نفسها مازالت تشقى ، ومازال ما بداخلها يدمدم فى انتظار الانطلاق وعرفت رجل بعد رجل ، وقضت أوقاتا تضحك وتمرح ، وتشعر بالحيوية والانطلاق ، ولكن ما وصلت إليه هو أنها حيوية مؤقتة ، وانطلاقة مقيدة وهمية ، وغالبا ما تشعر بعد النشوة السريعة بالوجوم والتقزز ، ويتحول الخدر اللذيذ ، والرطوبة التى سرت فى جسدها ، والضحكات التى اهتزت لها ، والدهشة التى تمتعت بها وهى ترى أجساد الرجال ، يتحول كل هذا إلى بلل تقرف منه ، ورائحة تزكم أنفها ، وإهانة تجرحها .. ثم أحيانا حملا تجهضه . إن الإجابة الوحيدة التى تستطيع أن تقولها زينب لأمها وهى تسألها عن الحمل ، هى أنها تنتظر علاقة تربطها برجل يصلح لأن يكون أبا لابنها ، وأنها تبحث عن هذا الرجل بغير هوادة أو تراخ ، تبحث عنه بعينيها وبجسدها تبحث عنه بكل حياتها ، ولكن كيف تصيغ هذه المعانى ، التى لا تكاد تدركها وإن بدت لها كخواطر غامضة . ربما كان المظهر الوحيد لصدق هذه الخواطر وأهميتها فى نفسها . هو تصرفاتها ، وإن أي تصرف تقدم عليه يحتمل ألف تفسير وتفسير . تركت زينب أمها تلك

الليلة وقد ساءت نفسيتها ، ولم تعد واثقة من أنها ستقدم طلبا إلى شركة الطيران . وعندما ذهبت لزيارة إلهام كمال بعد ذلك ، أخبرتها بمشروعها ، فبدا عليها الاهتمام ولكنها قالت لها إنهم لا يقبلون مضيفة متزوجة ، فقالت لها زينب ضاحكة فى أسى إنها لو ضمنت الوظيفة تستطيع أن تضطر نور الدين إلى طلاقها . ومع ذلك شعرت باليأس ، لأنها لاتدرى حقاً كيف تضطر مثل هذا الرجل إلى طلاقها ، ثم وجدت نفسها تنسى كل شىء عن العمل مضيفة فى الطيران ، حتى كان ذلك اليوم منذ حوالى شهر تقريبا ، عندما وقفت تتطلع إلى يافطة على مبنى تعلن أن بداخله مدرسة لتعليم اللغات ، وعاودتها الفكرة فى أن تتعلم وأن تلتحق بالوظيفة . وبينما هى تتأمل اليافطة من جديد ، أحست بغريزتها أن هناك عينا ترقبها داخل سيارة واقفة ، ورأت ذلك الشاب الوسيم الذى يسكن فى شارع حسن صبرى بالزمالك ، والذى بدأ يهتم بها بصورة ملحة فى اليومين الأخيرين ، ولقد التقت بعبد الهادى أكثر من مرة منذ أن واجهها باتهاماته ، وتكرر بشكل ممل ما بينهما من شد وجذب ، وخوف واستسلام ، وفى كل مرة كان أكثر ما يشغلها ، هو هل ستجد ذلك الشاب مازال ينتظرها بعربته عندما تهبط إلى الشارع ، وهل عرف أنها تأتى إلى هذه الشقة بالذات وتلتقى بعبد الهادى النجار ، وكانت تبتسم فى داخلها ، وتفكر فيما قد يقوله عبد الهادى لو عرف هذه الحقيقة ، فهو ليس وحده الذى يتتبعونه ويكتبون عنه التقارير وليست الدولة وحدها هى التى تقوم بهذه المهمة ، هاهم أشخاص يفعلون نفس الشىء لحسابهم الخاص ولأغراضهم الخاصة ، وصدق حدس زينب ، فعندما غادرت مسكن عبد الهادى ، والتفتت حولها تبحث عن سيارة أجرة ، انشقت الأرض أمامها عن ذلك الشاب ، الذى قدم لها نفسه وعرفت على الفور أنه ابن أحد الجواهرجية المشهورين فى الصاغة وركبت معه بشرط أن يوصلها إلى بيتها ولاشىء أكثر من هذا . ورضى وكان عند وعده ، وعاملها برقة ومبالغة فى الاهتمام ، وقال لها باختصار وبأسلوب مباشر إنه مدله بحبها ، وأنه لاشيء فى الحياة يساوى

لحظة لقاء بها ، وأنه سينتظر ولن ييأس أبداً . ولم تجبه بأكثر من ابتسامة خفيفة ، حتى هاجمها الملل بقسوة ، ولم تعد تطيق تلك الساعة التى تقضيها مع عبد الهادى ولا تفهم لماذا لا تجد فى نفسها الشجاعة لقطعها . إنها تدور وتدور فى حلقة مفرغة لا نهاية لها ، وهى تعلم أن هذا الشاب ابن الجواهرجى لن يخرج بها من هذه الحلقة ، ولكنها على الأقل ستحصل على ليلة ، على بضع ساعات من [illegible] ، وفى [illegible] حالتها لابد أن ترضى بهذا القلق وإلا لجنت أو انتحرت . إنها فى حاجة إلى ذلك القلق الذى لابد أن ينتابها وهى تذهب معه إلى المسكن الذى يلقى فيه النساء إنها فى حاجة إلى لحظة الفضول - مهما كانت تافهة - التى سوف تعيشها وهى تتعرف على جسده لأول مرة ، حتى ما سوف ينتابها بعد ذلك من قرف ، ستحتاج إليه ، لأنه سيكون مبررا واضحا ومباشرا لما تشعر به من تعاسة وما تعانيه من ألم ، إن آلامها المطلقة فى حاجة إلى مبررات صغيرة ، مبررات وقتية ، حتى تستطيع أن تصبر عليها وتتقبلها . ومع ذلك فمن يدرى ، هناك احتمال لا تجرؤ على مجرد ذكره ، أنه قد يكون الرجل الذى تبحث عنه ، إنه قد يكون البيت الحقيقى الذى تعيش فيه ، والأب الحقيقى لابنها الذى تتمناه ، والمساعد الحقيقى لإنطلاقها والتعرف على ذاتها ولأن تكون ماتكون . ممثلة أو مضيفة طيران أو صاحبة دكان أقمشة ، أو ربما - وهذا هو الأفضل دائما - أن يساعدها على أن تنطلق فى رحلة لا تنتهى تمرح وتضحك حتى تأتى نهايتها وتموت .

وعندما حدثت المعجزة - لا تدرى كيف - واستطاعت زينب أن تنزع نفسها عن المرآة ، وأن تقنع نفسها بعد إرهاق طويل ، بأنها لابد أن تخرج وتلحق بهذا الرجل الذى ينتظرها ، وجدت نور الدين واقفا عند باب البيت أمام سيارته .

وسألها :

- هل تريدين أن أوصلك ؟

قالت :

- لا ... سأمشى .

سألها فى ارتياب :

- إلى أين ؟

فقالت بسرعة :

- إلى إلهام .

قال نور الدين :

- ستتأخرين الليلة ؟

قالت :

لا أدرى .

وتركته . ومشت نحو السيارة المرسيدس التى كانت واقفة عند ناصية الشارع ، حتى وصلت إليها ، وفتح باب السيارة ، ودخلت ، وهى واثقة أن نور الدين يرقبها ، لم تلتفت إليه ، لم تفكر فى أن تمضى بضع خطوات لتختفى فى شارع آخر قبل أن تركب المرسيدس ، إن عيون الجيران تراها ، والكواء والبقال وعمال محل عصير الفواكه كلهم يرونها تركب سيارات ، وتهبط من سيارات ، وأحيانا تسمع تعليقات ساخرة ، أو ضاحكة ، ولكنها لا تكترث ولا تهتم ، لماذا تهتم بنور الدين لماذا تحميه مما لا يريد أن يحمى نفسه منه ، لماذا لا تواجهه بهذا التصرف ، وقد قبل أن يواجهه ورضى به . إن الضحكات والسخريات تلحق به هو ، والاتهامات توجه إليه هو ، وعليه أن يتحمل مسئولية إصراره الغبى على الإبقاء عليها .

سأل عزيز وهو يخفض صوت الموسيقى المنطلقة من راديو السيارة :

- إلى أين تريدين الذهاب ؟

هزت كتفها وقالت :

- كما تشاء .

قال لها :

- لقد أحضرت معى زجاجة براندى وبعض الطعام .. ما رأيك فى الذهاب

إلى المقطم . ونشاهد القاهرة من السيارة ؟

ـ كما تريد .

وقالت لنفسها ، إنه بخيل ، فهى تعرف هذا النوع من الرجال ، الذى يشترى البراندى حتى لا يدفع نقودا أكثر فى محل عام ، وهو لا يشترى زجاجة ويسكى لأنها تكلفه أكثر ، وهى واثقة أن الطعام الذى أحضره كيس مخلل وطعمية وبسطرمة ، وشمت على الفور رائحة الطعمية وتمسكت فى سرها ، وشعرت بعد ذلك بضيق وملل ، ولكنها لن تفرط أبداً فى هذه اللحظات القادمة .. إنها لن تحتمل العودة إلى بيتها بعد كل هذا الذى عانته ، لا يمكنها أن ترى وجهها فى المرآة مرة أخرى ، دون أن تصنع المبرر لضيقها من شعرها وبشرتها وعينيها المؤرقتين . لابد أن تذوق المر كله حتى الثمالة وأخرجت رأسها من السيارة وهتفت به :

ـ اسرع .

ولكنه كان يقود سيارته فى حذر نعم إنه بخيل ، وهو بكل تأكيد ابن ذلك الجواهرجى الحريص على اكتناز الذهب وتذكرت إلهام كمال ، هى وحدها القادرة على معاملة مثل هؤلاء ، قادرة على السخرية منهم وتوريطهم فى الصرف إلى حد التبذير . لو ضايقها أو كان سخيفا أكثر مما تتوقع فستعمل على توريطه مع إلهام القادرة على أن تستنزف منه دمه وكل ذهب ابيه . وضحكت زينب لهذا الخاطر ، وقد اشتعلت عيناها بشقاوة ومرح وكان عزيز يسألها .

ـ سعيدة ؟!

قالت فى مرح حقيقى :

ـ لو تسرع أكون أكثر سعادة هيا انطلق .. هل أنت خائف على عربتك المرسيدس .. لابد أنها عربة أبيك .. وسيضربك لو حدث لها شىء .

قال لها فى أدب ورقة :

ـ نعم .. إنها سيارة أبى .. ولكنه يتركها لى .. إنه يستعمل عربة فيات صغيرة .

صاحت زينب :

ـ إذن فهو لا يمانع فى أن تسرع بها .. وأن تقع حوادث .

قال لها فى دهشة :

ـ لماذا ؟

قالت فى مرح طفلة من يراها يقسم أنها أسعد مخلوقة فى العالم :

ـ كما يحدث فى السينما .

وانقضت على عجلة القيادة ، تحركها لتنحرف السيارة فى حدة ، فصاح فى ذعر وهو يقاومها :

ـ أتريدين قتلنا ؟!

صاحت فى لوم :

ـ هل أنت خائف .. أنا أحب الرجل الشجاع .. الذى يسوق عربته مثل دين مارتن .

وأحدثت بفمها صريرا تقلد به صرير احتكاك إطارات سيارة مسرعة فى منحنى حاد .

واستسلم لها ، أو كاد ، فإنه ما كاد يسرع بالسيارة ، حتى برزت أمامه فجأة عربة نقل كاد يصطدم بها ، فشحب وجهه ، وسال العرق على جبينه ، وقال لها وهو يلهث :

ـ كدنا نموت .

ـ هتفت فى مرح :

ـ وإيه يعنى .

قال محاولا مخاطبة عقلها :

ـ لو متنا فسوف نستريح .. ولكن لو فقدت ذراعى ... أو ...

ونظر إليها فى لهفة ومضى يقول :

ـ أو تشوه هذا الجمال .. فهذا شىء لا يغتفر .

صاحت :

ـ وهل يهمك هذا الجمال ؟

وضحكت فى غير مبالاة ، وقالت وفى عينيها كل شقاوة الدنيا :

ـ هل أنت تجرى ورائى بسبب جمالى ؟

وسكت ، بينما قال لها :

ـ أنت أجمل من رأت عيناى .

كانت ترى فى لمحات خاطفة ، جدتها محمولة فى النعش ، وناظرة المدرسة وهى تقرصها فى وجنتها لتمسح الأحمر من خدها ، وأمها تتحدث عن جمالها ثم وهى تصرخ « ماتت » بينما خالها الحاج رمضان يعلن موت جدتها دودو هانم .

قالت زينب وهى تضحك فى مرارة وسخرية :

ـ اجر كما تشاء وراء جمالى فهذا هو الذى سيقتلك .

قالتها وكأنها تقول نكتة فضحك فى غباء .. ووافقها ، على أنه صريع جمالها .. وبعد أن شربا قليلا من زجاجة البراندى ، امتدت يده إلى جسدها يعبث به فى غباء وشراهة ، أشبه بذلك الذى تحسه من نور الدين .. ولكنها استسلمت له ، ولم تقاومه ولم تكترث بما يفعله ، كانت مشغولة بالنظر إلى تلك الأنوار المتناثرة فى الوادى ، حيث تمتد مدينة القاهرة .. تحت هناك مثل فوق هنا ، كل شىء حقير غبى .. وعادت إلى البيت مرهقة ونظرت إلى المرآة ، وقالت لنفسها ما كانت تريد أن تقوله .. إن أفعالها السخيفة هى السبب فى هذا الذى تراه فى المرآة هذا الحيوان عزيز هو المسئول عن عدم رضاها ، فلتسبه وتلعن وجوده ، حتى يأتى الصباح ، وغدا تبحث عن رجل آخر تسبه أو تلعنه .. ووضعت على جسدها قميص نوم وخرجت إلى الشرفة تستنشق هواء الليل ، وترقب النور الشاحب المنبعث من أعمدة النور .

وهنا تذكرت تلك الليلة التى وقف فيها عبد الهادى مع صديقه يتحدثان عند مطلع الفجر .. لابد أنهما مازالا يلعبان فى الطابق الأسفل مع زوجها .. كانت رحلة لا بأس بها تلك التى قامت بها فى سيارة يوسف .. كان يقود بسرعة

وبغير حذر ، وكان الهواء يضرب وجهها وكأنه آت من بعيد ليتها ركبت سيارته هذه الليلة .. وتذكرت عبد الهادى يوم قال لها بغير مناسبة إن بينها وبين يوسف وجه شبه .. إنها لم تسأله أبداً ما الذى كان يعنيه .. لابد أن تسأله .. لم يعد يعنيها ما قد يفكر فيه وما قد يتوجس منه .. على أية حال هذه فكرة لا بأس بها ، قد تخرج منها بليلة جديدة وساعات قليلة تزداد فيها قرفا تبرر به هذه البشاعة التى يسمونها الحياة .

كانت تجلس على حافة الشرفة .. والطريق ممتد تحتها ، تنظر إليه من حالق ورأسها يخرج فى الفضاء يكاد يجذبها بثقله إلى أسفلت الطريق .. وفى صدرها تعبث ضحكة مجنونة ، وهى تسمع صوتها تقلد احتكاك إطارات سيارة مندفعة فى منحنى طريق .. مثل السينما .. وضحكت بصوت مرتفع جلجل فى فضاء الليل ، وكان لا يعنيها أن يسمعها أحد من الجيران ، كانت لا تشعر بوجودهم .. ولا تشعر بوجود نفسها .. إنها فراغ من حوله فراغ .. وفكرت فى أن تذهب إلى التليفون وتحدث إلهام كمال .. ماذا تقول لها ؟ إنها لم تعد ترتاح لها أصبحت أكثر انشغالا بأعمالها ، دائما مرهقة بمقابلات وزيارات ، وجرى وراء مصالح .. لم تعد تمنحها الوقت الكافى ، وتقدم لها حنانها المصنوع المريح .. أتصرخ منادية على رجل يستحق أن يوصف بأنه رجل .. وتذكرت فجأة الدبلوماسى الذى أحبته وهى فى باريس ، والسفير الذى قالت له إنها قامت يوم إعلان الثورة بمظاهرة فى مدرستها .. كذبت عليه ، ولكن ليتها كانت فعلت .. وعادت تتذكر وجه يوسف .. وقول عبد الهادى إنه يشبهها .. وقالت لنفسها .. ولماذا انتظر حتى أسأل عبد الهادى عنه .. سأتصل به ، وسأحدثه فى هذه الخواطر الغريبة التى خطرت لى الآن .. لن أذهب معه إلى فراش .. ولن أتحمل القرف معه .. سأطلب منه أن يتحدث معى فى أشياء أخرى ربما كان فى ذلك طرافة وجدة .. وليلة أخرى مسلية من طراز جديد .. وانطلق صوتها بالغناء .

وظلت ساهرة ترقب من الشرفة حتى رأتهم يخرجون ، وينصرفون إلى

سياراتهم ، ولدهشتها ، وجدت يوسف يرفع رأسه إلى الشرفة ويتوقف اتجاه نظراته ناحيتها برهة ، ثم يستدير متجها إلى سيارته ، ولم تر إذا كان عبد الهادى قد التفت ناحيتها أم لا لابد أنه فعل ، ولكنها اكتفت بالنظر إلى يوسف .. الذى ما كان يستطيع أن يرى وجهها فى الظلام ثم تراجعت بسرعة واندفعت داخل الحجرة ، وهتفت فى طفولة ومرح وهى تلقى بجسدها على السرير لابد أن أتصل به .. غداً أتصل به .. ولكنها لم تستطع الانتظار إلى الغد ..وإذا بها تمسك بالتليفون وتطلب جريدة العصر الجديد وتسأل عن رقم تليفون بيته .. وأدارت القرص . وسمعت صوت سيدة ، ما كادت تعلم أنها تسأل عن يوسف .. حتى قالت لها فى هدوء وصبر ودون احتجاج على إيقاظها فى هذه الساعات غير المناسبة من الصباح :

- إنه لم يصل بعد ، ربما يعود بعد قليل ، هل أقول له أن يتصل بك عندما يجىء ؟

كان الصوت يحدثها بترحاب ، وعلى استعداد تام لخدمتها .. وبغير اعتراض على هذه المغامرة التى أقدمت عليها .. ولم تتحمل كل هذا ، فقطعت المكالمة وقد عجزت عن الكلام رغم ما فى ذلك من قسوة لا مبرر لها مع من يعاملها برقة ولطف .. وندمت على هذا التصرف واتهمت نفسها بالجبن . وضاقت بهذا الاتهام إلى درجة الغضب ..وبغير تفكير أدارت القرص مرة أخرى تسأل عن يوسف منصور .





أنت أهم شىء فى حيـاتى

عندما جاء يوسف إلى بيته فوجىء بصالة البيت مضاءة ، وباب حجرة نوم أمه مفتوحاً ، فاندفع يستطلع الأمر ، فلم يجدها فى سريرها وتحرك بسرعة وهو يصيح قلقاً : ماما .. ماما .. وقابلته خارجة من باب المطبخ ، وقالت له فى لهجة هادئة مستسلمة إن جرس التليفون أيقظها وأن صوت واحدة كان يسأل عنه .

كانت تحدثه بلهجة محايدة ، ليس فيها لوم ، أو فضول ، ورغم ذلك حاول يوسف أن يعتذر ، وكان واثقاً أنه لابد أن يكون شىء خطير قد حدث وأن الجريدة اتصلت به لهذا السبب ، ولكن أمه قالت فى هدوء إنها لا تظن أن التى تكلمت لها صلة بالجريدة ، وإلا كانت قالت ذلك ولم تقطع المكالمة فجأة ، ثم رفعت صوتها قليلاً وهى ما زالت تحتفظ بنفس اللهجة المحايدة لتقول له ، إنها واحدة تعرفه .

واحتقن وجه يوسف ، وقد شعر بالغضب ، لا لأن أمه تتهمه بشىء ، ولكن لأنه لا يعرف واحدة تتصل به فى مثل هذا الوقت المتأخر ، واحدة جريئة إلى هذه الدرجة ، ووجد نفسه يتذكر إلهام كمال ، أتكون هى التى سألت عنه ،

أيكون حسن زيدان يقضي سهرته عندها ، وارتبك ، وردد فى ضيق أنه لابد أن يكون فى الأمرسر .. وتجاهلت أمه ارتباكه ، وصرفت اهتمامها إلى دعوته ليأكل ما احتفظت له به من طعام فى المطبخ . كانت أم يوسف قد شارفت على الستين ، قصيرة نحيفة ، لها وجه فلاحة سمراء ، وجه مستطيل له ذقن قوية وكان شعرها الأشيب القصير يضفى عليها هالة من الوقار والحزن ، وعيناها الصغيرتان تعلنان أنها امرأة قوية ، ليس بها من آثار أنوثة إلا امتلاء ملحوظ فى ردفيها لا يتناسب مع نحافتها الواضحة ، وهو امتلاء طبيعى فى امرأة حملت وأنجبت ثمانى مرات ، ومات علاء ابنها البكرى قبل أن يتم عاماً من حياته ومات إبراهيم ابنها الثانى إثر إصابته بحصبة وهو فى الثالثة من عمره .

وبقى لها يوسف من بين الصبيان ، أما البنات الخمس فقد كن أكثر حظاً ، وقد تزوجن جميعاً ما عدا سامية شقيقة يوسف الصغرى والتى ما زالت طالبة فى كلية الآداب ، وكانت لحظة دخول يوسف مستغرقة فى النوم فى حجرتها الخاصة . كانت أم يوسف قد سبقته إلى المطبخ بينما ذهب هو إلى حجرته ليخلع ملابسه ، وهو يشعر بضيق من هذا التليفون الغريب بعد الثانية صباحاً . وكان يفكر فيما سوف يقوله لأمه عندما يلحق بها فى المطبخ . إنها تعامله منذ سنوات طويلة ، بشىء من التحفظ وجدت نفسها تنساق إليه منذ مات أبوه .. وأصبح هو الرجل الوحيد فى ذلك البيت الذى كان مزدحماً بالإناث ، ولعلها تعمدت أن ترفع من مقامه رغم أنه كان ما زال طالباً فى كلية الحقوق ، فلم تعد تصدر إليه الأوامر ، أو ترفع صوتها مطالبة له بشىء .

وأحاطته بكثير من طقوس الرعاية والاحترام التى تحيط بها المرأة رجل بيتها ، فالإفطار يقدم له فى السرير ولا أحد يسأله عما يشيعه من فوضى فى حجرته فإذا ما خلع ملابسه وألقى بها هنا أو هناك ، أو تركها على أرض الحمام ، جمعتها أمه فى هدوء ووضعتها فى سلة الغسيل ثم أرسلتها إلى الكواء ، وأعدت له باستمرار قمصانه النظيفة حتى تنظيف حذائه كان لا يشغله ، كل ما يعرفه أنه سيجد حذاءه نظيفاً لامعاً كل صباح ، أدق تفاصيل حياته اليومية محاطة

باهتمام وعناية شديدين ، وطعامه يقدم له وحده ، دون أن تضطره أمه إلى مراعاة مواعيد لا ترهقها فهو يأكل متى يشاء ، وأين يشاء ، وتعود دون أن يطلب ، أن يأكل كل يوم اللحم أو الدجاج أو السمك حتى فى تلك السنوات الأولى التى تلت وفاة أبيه وماصاحبها من عسر وضيق مادى خاصة قبل زواج شقيقتيه فريدة وهدى ، ولقد تقبل يوسف هذه المعاملة بغير تفكير ، وكأنها أمر

مفروض ، ومفروغ منه ، وليست ميزة خاصة يحصل عليها ، وليست هناك تضحية أو مشقة فى توفيرها له ، وكانت شقيقاته يشعرن بأنه يعامل معاملة مميزة ، فيها جور على حقوقهن ولكنهن استسلمن للواقع الذى فرضته الأم ، وقد انتقل إليهن شعورها بأن هذا هو رجل البيت ، وهو عنوانه ، ورمز حمايته وأمنه .. وإن كن فى قرارة أنفسهن لم يصدقن أبداً هذه المعانى ، ومع مرور السنين ، وجدن أنهن قادرات على التصرف وحدهن ، فيذهبن إلى السينما أو يستقبلن صديقاتهن فى البيت ، ويصنعن أحلامهن ورغباتهن بغير حاجة إلى يوسف الذى كان يقضى الساعات الطوال خارج البيت لا يكاد يدرى ما يحدث فيه . وكأنه يعيش فى فندق كما كانت تردد بهيجة شقيقته الكبرى عندما تأتى لزيارة أمها :

ـ إنه ليس أخى .. إنه نزيل فى بنسيون تديرينه له .

كان يوسف قد لحق بأمه فى المطبخ ، فرآها أعدت له صحنا فيه صدر دجاجة وقطعة جبن وبجواره رغيف خبز فينو ، وكانت تحدثه عن الملوخية التى صنعتها سامية ، ولكنها تعرف أنه لن يأكلها فهو لا يحب أكل الطبيخ خاصة فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وعندئذ دق جرس التليفون .. وكان لرنينه دوى فى قلب يوسف ، وأسرع إلى التليفون وقد عاوده غضبه ، وكان واثقاً أنه سيصب غضبه على إلهام كمال ، ويفهمها أنها لا تستطيع لأى سبب من الأسباب أن تسأل عنه فى بيته فى مثل هذه الساعة المتأخرة .. وفوجىء بصوتها . صوت زينب ، ولم يتبينه أول الأمر وهى تقول « الأستاذ يوسف » ويقول « نعم » ، ولكنها قالت بوضوح وسهولة :

- أنا زينب ..

ودارت رأسه بطنين ، وسمعها تقول :

- لقد سألت عنك قبل هذا .. وأجابت واحدة ..

هل أزعجتكم ؟

- أبــــدا .

قالت في قلق :

- لماذا تتكلم بسرعة ؟

قال :

- أبــــدا .

قالت :

- من التي ردت على في المرة الأولى ؟

قال :

- والدتي ..

قالت :

- أنا آسفة ..

قال :

- أبـــدا ..

فصاحت ساخرة :

- أليس لديك ما تقوله غير أبدا ؟

قال ضاحكاً في عصبية والكلمات تتدفق منه بغير تفكير ..

- المفاجأة اربكتني .. أنا سعيد جداً بسماع صوتك .. وصدقيني كل ما أتمناه هذه اللحظة هو أن أراك وأخرج معك في سيارتي .. نطوف شوارع القاهرة .. في هذه الساعة من الصباح .. قالت بفرحة :

- صحيح ..

قال مؤكداً :

- طبعاً .

قالت :

ـ أنت مدهش .. هذا هو ما أريده فعلاً .

قال :

ـ سأكون عندك بعد ثلث ساعة .

قالت :

ـ سأنتظرك ..

قال في حماس :

ـ لن أتأخر ..

ولكنه سمعها تصيح فجأة قبل أن يغلق السماعة :

ـ اسمع .. لن أستطيع الخروج الآن ..

قال محتجاً :

ـ لماذا غيرت رأيك ؟

فقالت ببساطة :

ـ في الحقيقة أنا مترددة .

سألها :

ـ لماذا ؟

قالت :

ـ لأن وجهي ملخبط .. ولو رأيتني ستخاف من شكلي .

قال ضاحكاً .. وهو لا يدري كيف يقول ما يقوله :

ـ وسيكون هذا أجمل خوف شعرت به .

قالت وقد استقر رأيها :

ـ لا .. لا أستطيع أن أخرج الآن .. إن منظري كالغولة ..

قال في مرح :

ـ هذه فرصة بالنسبة لي لا تعوض .

قالت ضاحكة :

- لا .. لن أخرج ..

ثم أضافت :

- ولكنى على أية حال أشعر براحة الآن .. سأراك غداً فأنا فى حاجة إلى استشارتك .

كان يفكر فى عبد الهادى وسمعها تقول :

- أنت تعرف طبعاً ما الذى أريد أن أحدثك عنه .. موضوع صاحبك .. هل فهمت ؟

قال :

- نعم ..

- هل ستقول له إنى اتصلت بك ؟

قال :

- كما تريدين .

قالت مؤكدة :

- لا .. لا تخبره بشىء .

ثم أضافت متشككة .

- إياك أن تفعل .

قال بصوت صادق :

- لا .. لن أقول له .

قالت :

- هل أثق بك ؟

- قال :

- نعم ..

قالت وكأنها تخاطب نفسها :

- ربما قلنا له بعد ذلك .. ولكن ليس قبل أن أراك .. على فكرة .. أين أقابلك ؟

وحددت له موعداً فى محل بشارع الهرم يلتقيان فيه بعد ظهر اليوم . كان محلاً هادئاً .. يصلح للقاءات الغرام .. ففى أركان متباعدة ، يجلس عاشق

وعاشقة يتهامسان ولا يلتفتان إلى ما يدور حولهما . وسبقها يوسف وقد استولى عليه انفعال لا يستطيع أن يحدده ، كان فى دهشة من نفسه . ومن إقدامه على هذا التصرف الذى لا يفهمه .. وقد استسلم لما قد يحدث له وقد تخلت عنه تماماً كل الأفكار وكل المشاعر إلا ذلك الانفعال الأشبه بالطنين يحتدم داخله .. ورآها قادمة تخطو نحوه فى ثقة والجرسون يسرع إليها ويحنى رأسه .. كأنه يعرفها ورآها من قبل .. كان رجلاً بديناً له عينان منتفختان ورآه يوسف وهو ينظر إليه نظرة فاحصة .. ولعله شغل نفسه بنظرات الجرسون .. حتى لا يواجه هذه المرأة القادمة عليه فى فستان بنفسجى له زخارف من الدانتيلا البيضاء على الصدر وفى الأكمام وفى يدها حقيبة بيضاء وعلى عينيها نظارة سوداء ضخمة .. تسبقها إليه .. رائحة عطرها .. كان وجهها جاداً أو هكذا خيل إليه وعيناها من خلف النظارة فيهما نظرات حادة ولم تصافحه جلست وقالت له بسرعة :

ـ أطلب بيرة .

وانصرف الجرسون ليلبى الطلب .. وكان أول ما سألته عنه ماذا قالته له أمه عن حديثها معه فى التليفون .. ووجد يوسف نفسه يتحدث بسهولة ويروى لها أنه قال لأمه الحقيقة .. رفعت حاجبيها فى دهشة ، وهى تسمع إليه يصوغ حكايتها كما رواها لأمه .. زوجة فى محنة تعيش حياة مضطربة فهى متزوجة من رجل لا تحبه .. ولكنها على علاقة مع صديق له ، وهى تتصل به لاستشارته .

قالت له فى ضيق :

ـ وهل تحكى لأمك كل شىء ؟

قال ضاحكاً :

ـ لا أظن أنها تهتم بحكاياتى .. وليس من عادتها أن تسأل عما أفعله .. ولكنها استيقظت فى ذلك الوقت .. وكان لابد أن أقول لها كلمتين باختصار شديد .. ولم يقل لها إن أمه بعد أن استمعت إليه قالت فى هدوء :

- ولماذا لا تترك زوجها وتتزوج صديقك .

قال يوسف :

- أظن أن هذا هو ما تريده .

فسألته :

- هل لديها أولاد ؟

قال :

قالت :

- مسكينة .

كانت أمه تستمع إليه يحكى عن تلك المرأة التى تحدثه فى التليفون . وهى تتجاهل النظر إليه .. ثم رفعت رأسها فجأة ، وصوبت عينيها العميقتين ، وبدا فكها القوى أشد بروزا فى وجهها وقالت :

- أيكون صديقك هذا .. هو أنت ؟

لم يضطرب يوسف .. ولم يرتبك .. لأنه واثق أنها لا تتهمه وقال فى هدوء :

- لا ..

قالت ضاحكة :

- ربما تريد أن تتزوجك ؟!

قال يوسف فى غير اكتراث :

- وما ذنبى أنا .. حتى أتزوج مشكلة ؟

ولم تعلق الأم على إجابته .. وعادت تبعد نظراتها عنه ، ولعل قلبها كان يحدثها بأشياء خافت أن تفصح عنها .. فهذا الحديث التليفونى لابد أن يعنى ما هو أكثر بين يوسف وهذه المرأة .. وتظاهرت الأم أنها تثير حديثاً آخر .. ولكنها طرقت . نفس الموضوع بطريقة غير مباشرة ، فقد شرعت تتحدث عن أبيه .. وتروى له كيف أنه نصحها بألا تتدخل فى حياة ابنها ، وأنه قادر على أن يتصرف فى حياته ، ويفعل ما يشاء .. ويتزوج من يشاء . ولعلها كانت تردد

عليه هذه الكلمات التى سمعها أكثر من مرة فى مناسبات سابقة لتعلنه أنه حر تماماً فى اتخاذ أى تصرف يريد أن يقدم عليه .. لا لأنها تريد أن يقدم على هذا التصرف ، ولكن لتطمئن إلى موقفه .. ولعله يتشجع أكثر ويفصح لها عن المزيد من مشاعره ولكن يوسف لم يفهم محاولتها فقد كان منصرفاً إلى التفكير فى والده .. حتى جلس الآن مع زينب .. فإذا به يرى بوضوح لا لبس فيه .. ماذا كانت تعنيه أنه بهذا الحديث عن نصائح والده .. كانت تريد أن تعرف حقيقة صلته بهذه المرأة التى يجلس معها الآن .. وكانت زينب قد لاذت بالصمت ، بينما استرسل هو على غير عادته يحكى لها عن أمه وشقيقاته الخمس .. وكيف يشعر بعزلة كاملة عن كل أهله .. حتى قال لها :

- لا أريد أن أقول لك إن هذا يريحنى .. فهذا النوع من الوحدة ... أو من الحرية .. صعب ..

ثم قال وكأنه يقنع نفسه :

- ولكنه على أية حال أفضل من أى شىء آخر .

كانت قد رفعت النظارة عن عينيها ، وهى تشرب البيرة بسرعة غير عادية ، وفى عينيها ذلك الحزن المختلط بالألم ، تستمع إليه وكأنها تعودت أن تجلس معه وحده لسنوات ، وأن تقوم بدور المنصت الجيد لما يقول ، بينما يقوم هو بدور المتحدث الذى ينطلق فى الكلام . كانت تستمع إليه وهى تحاول أن تعرفه ، أو تفهمه ، وشكوك تساورها ، هل تطمئن إليه ، ومدت يدها إلى علبة سجائرها تخرجها من حقيبتها ، وإذا بيوسف يصوب إليها يده كمسدس يريد أن يطلقه عليها ويصيح بصوت طفل :

- بوم .

ضحكت فى غير فهم .

قال يوسف فى براءة :

- أتذكرين .. لقد فزعت منى وأنا أشعل سيجارتك فى السيارة .. كأنى واجهتك بمسدس ..

قالت وعلى شفتيها ابتسامة وفى عينيها دهشة :

- أحب أن أشعل سيجارتى لنفسى .

أعجبها أنه أدرك ما شعرت به فى ذلك الوقت ، وأدهشها أنه فهمها وشعر بها ، ونظرت إليه بملء عينيها تريد أن ترى فيه المزيد ، ليس أنيقاً كما يجب ، ورباط عنقه قديم ، ولكن وجهه طيب ، لا يثير فى نفسها ما يثيره الآخرون .. الذين يتطلعون فى اللقاء الأول للاستيلاء على المرأة وينظرون إليها فى شهوة ونهم .. وتذكرت عزيز ولقاءها به بالأمس إنه مختلف تماماً عنه .. إنه على الأقل مريح لولا أنها ما زالت تستريب فى هذه الراحة التى حصلت عليها معه فى هذه اللحظات القصيرة التى انقضت .. ولكنها على أية حال واثقة الآن أنها لا تفكر فى علاقة معه ، ولا تفكر فى أن تبهره هذه اللحظةَ على الأقل ، إنها لا تبذل جهداً على الإطلاق ، ربما أحسنت فعلاً الاختيار فى أن يكون هذا هو الشخص الذى تتحدث معه ، إنه مهذب جداً ، لا يثير فى نفسها تحديات كالتى يثيرها الآخرون .. إنه لا يتفرج عليها ، لا يحاول أن يختلس نظرة إلى ما بين صدرها أو إلى ساقيها ، وهذا عيب فيه ، قد لا تحتمله لو كانت بينهما علاقة .

ولكن انشغاله بنفسه ، يتركها مستريحة هادئة .. إنها لم تسمع أبدا مثل هذا الكلام من رجل جلست معه ، ليتحدث بمثل هذه الإفاضة عن أمه وشقيقاته .

ما الذى يعنيها من كل هذا الكلام الساذج .. ومع ذلك فهى دردشة مريحة ، ليس فيها إدعاء ولا يبدو أن وراءها محاولة لجذبها إلى فراش ..

وقالت زينب بصوتها الحزين القريب إلى الهمس :

- أنت تعرف كل شىء عنى وعن عبد الهادى .

واستمع إليها بوجهه الطيب ، وعينيه اللتين تتابعان كلماتها فى اهتمام ، ليس فى عينيه مكر ولا فضول . عيناه تقولان إنه مهتم وأنه يصدقها ، وهذا يشجعها على أن تفتح قلبها . وتقول له أشياء لم تتوقع أن تقولها . قالت له إنها تعيسة مع عبد الهادى ، ودهشت من الكلمة ، ودهشت من أنها لم تجد حرجاً ، أن تقولها ثم إذا بها تقول له إنها مرهقة وانها عندما اتصلت به بالأمس

كانت قد عادت من لقاء مع شاب أرادت أن تخرج معه لتتسلى ، ولكنها حصلت على مزيد من الشعور بالتعاسة وهى غير راضية عن نفسها ، وغير راضية عن علاقتها بعبد الهادى ، كانت تظن أنها علاقة كبيرة ، تستطيع أن تعتمد عليها ، ولكن كيف تعتمد على رجل تشعر وهى بجواره أنها فى حاجة إلى الخروج والبحث عن تسلية مع آخرين .

قال يوسف وهو يفكر فى نفسه ، ويفكر فى كلمات أمه له عن نصائح أبيه :

ـ المهم .. هو أن تشعرى بأنك حرة بالمعنى الحقيقى للكلمة .. أنك تريدين ما تفعلين ..

قالت فى غير فهم :

ـ أحياناً أفعل أشياء لا أريدها ..

قال فى أسى حقيقى :

ـ لا .. لا يجب أن تضطرك أية ظروف إلى هذا .. ثم أسرع يقول وقد رأى وجهها يتجهم :

ـ أنت فعلاً مرهقة .. كما تقولين .. الإرهاق هو الذى يدفعنا إلى تصرفات لا نرضى عنها .. على أية حال افعلى ما تشائين .. فهو أحسن من ألا تفعلى شيئاً على الإطلاق ..

وسكت لحظة قبل أن يضيف ضاحكاً فى عصبية :

ـ مثلى .

إنه لا يكاد يراها إلا من خلال نفسه ، لا يفهمها إلا كما يريد أن يفهم نفسه ، كان هذا غريبا على زينب ، ولكنه فى نفس الوقت جعلها تشعر بأنه يريد أن يشاركها تعاستها ، رغم أنه بعيد تماماً عن فهمها . إنه يقول كلمات معقدة ، لا تدرى ما الذى يعنيه بقولها . ولكن الشىء المؤكد أنه يردد فى كل لحظة أنا مثلك ، شعورى هو نفس شعورك .. رغم أنه بعيد تماماً عن أن يكون مثلها ومع ذلك فلابد أن تتذكر قول عبد الهادى إنه يشبهها .. أى كلام فارغ هذا .. يستحيل أن يكون شبيها لها .. هذا غير صحيح لولا ذلك الإحساس

العجيب الذى ينقله إليها بالمشاركة .. كيف يمكن أن يحدث هذا ، كيف ينتقل إليها هذا الإحساس ، من رجل لا تفهم كلماته ويكاد لا يفهم ما تقوله له .

قالت فجأة فى تحد وكأنها تريد أن تهدم الموقف كله الناشب بينهما :

– الذى خرجت معه بالأمس عنده عربة مرسيدس ٢٥٠ إس . وأبوه جواهرجى .. إنه غنى جداً .

شعر يوسف بالضيق .. ولكنه سيطر عليه ، وصمم على أن يحتفظ بابتسامته الهادئة .. وقال :

– ألم تقضى لحظات مرحة ؟

قالت وهى تتفحصه بعينيها تريد أن تسبر أعماقه :

– حاولت .. على أية حال هى لحظات أحسن من تلك التى أتعذبها فى البيت .. أفكر فى الانتحار ..

ضحك يوسف وكأنه سمع نكتة وقال :

– هل وصلت إلى هذا .

كانت ضحكته بلا تصنع .. ولا اصطناع خوف أو قلق عليها .. كانت ضحكة من أعجبته الفكرة أو توقعها ، أو لا يعنيه أن تنتحر ..

وأعجبها هذا .. كانت إجابته مريحة . وضحكته مخلصة لها من أى قيد . أعطتها حقها فى استقلالها حتى لو أرادت أن تنتحر .

قالت له فى استسلام :

– هل هناك شىء آخر .. غير الانتحار أستطيع أن أفعله .

قالتها وهى تعنى بماذا تنصحنى .

سؤال لم يخطر ببالها أنها ستوجهه يوماً ما إلى مخلوق فى هذه الدنيا .

قال بسرعة وكأنه أعد الجواب :

– فى الحقيقة .. أنا لا أحب النصائح ولا أعرفها .. إن شقيقتى سعاد ، تطلق زوجها كل يوم وتهدد بالانتحار كل يوم .. ولا أنصحها .. إنها لن تفعل إلا ما تريد .

هاهو يعود إلى شقيقاته ، وإلى التفكير فى نفسه .. إنه لن يسمعها أبدا ..
ومع ذلك فهذه الإجابة تريحها .

قالت :

ـ هل أتخلص من عبد الهادى ؟

قال بسرعة وتأكيد عجبت له ـ فلأول مرة بدا وكأنه يصدر لها أمرا وبغير تفكير .

ـ تخلصى .

سألته :

ـ ما رأيك فيه ؟

ثم أضافت :

ـ إنه صديقك .

قالتها كأنها تحذره من التحيز .

قال ضاحكاً :

ـ نعم إنه صديقى .. وأنا أحبه .. وهو رجل شرير .. لا مثيل له فى الشر ..

قالت باسمة ابتسامة شك فيما يقول :

ـ تحبه وتقول إنه شرير .. وتقول لى تخلصى منه ؟!

قال :

ـ ولماذا لا أحبه ؟

قالت :

ـ ألا تخاف من شره ؟

قال ببراءة :

ـ أبدا ..

وضحك كطفل وقال :

ـ آسف لأنك لا تحبين كلمة أبدا ..

ثم مضى يقول :

- إنه إنسان ضعيف .. لا يملِك حريته .. إنه ليس سعيداً كما تظنين .. أنت فى رأيى أسعد منه وأقوى منه .. إنه لا يستطيع أن يواجه نفسه كما تواجهينها أنت .. إنه لم يحصل على حريته يوماً ما .. إنه لا يستطيع أن يخطىء أو يتهور .. أو يندفع .. إن شره نظام دقيق .. هكذا الشر دائماً ، إنه جهاز يخضع له الإنسان .. ويفقد آدميته .. ويجعله معلقا فى ساقية تدور به .. إنه يعيش من يوم إلى يوم .. يرتق هلاهيل ممزقة يصنع منها حياته .

لم تفهم ماذا يعنى .. ولكنها قالت مصدقة :

- هذا صحيح ..

كانت قد أدركت على الأقل ماذا يعنيه بأنه أشبه بحيوان مربوط فى ساقية .. وفهمت على نحو غامض كيف أنه يرتق لحياته هلاهيل ممزقة .

ومضت تقول :

- ولهذا لم أجد أنى قادرة على الاستمرار .. لقد فكرت فى يوم ما أن أتزوجه ..

وسكتت .. ونظرت إليه .. كان ينصت إليها وفى عينيه الاهتمام والتصديق .. ولا أثر لفضول .. وانتظرت أن يقول شيئاً .. ولكن بدا عليه وكأنه نسى ما كانت تتحدث فيه ، إذ قال فجأة :

- شكلك .. كالكونتيسة .

ابتسمت فى راحة .. وعادت تسأله :

- ولكن كيف تقول عنه إنه ضعيف ؟

بدا أنه يحاول تذكر من هو الضعيف الذى تتحدث عنه . ثم قال وكأنه تذكر :

- آه .. هذا صعب شرحه ، إنه يبدو قوياً .. ولكن أتدرين ما هو أهم شىء عنده .

وسألها فجأة :

- ما أهم شىء عندك ؟

فكرت لحظة .. ثم قالت ضاحكة :

- شعرى .

ثم قالت :

ـ شعرى .. ووجهى .. وشكلى عموماً ..

قال لها :

ـ على الأقل هذا اهتمام بجسمك .. اهتمام بكيان بشرى .. أما عبد الهادى .. فلا أهمية لشىء عنده .. لا بشر .. ولا قيم .. ولا أخلاق .. ولا حتى شعره ووجهه وشكله .. أهم شىء عند عبد الهادى .. هو هذه الأشياء الجديدة التى يخترعونها .. الولاعات الجديدة على شكل لعب .. الراديوهات الترانزستور الجديدة .. الأقلام الجديدة .. أى شىء جديد .. وهو يهتم بالجديد .. حتى يعرفه الناس .. فيتركه ويبحث عن غيره .. صدقينى هذا هو أهم شىء فى حياته ..

ثم قال فجأة :

ـ حتى فى السياسة .

قالها وكأنها تعرف السياسة .. وشرع يتحدث عن نظرة عبد الهادى للاشتراكية كاختراع جديد .. ورأيه فى الإقطاع .. ورأيه فى الانتهازية .. كان يتحدث بكلمات لا تفهمها ، ولكنها رغم ضيقها شعرت بامتنان لأنه يتحدث معها فى هذه الموضوعات التى لم تسمعها من أحد .. وبقدر امتنانها أطلقت مشاعر مقاومة وتحد له ..

قالت له مقاطعة :

ـ ما أهم شىء عندك ؟

قال ضاحكاً :

ـ فى الحياة ؟

قالت :

ـ طبعاً !!

قال وابتسامة صافية على وجهه :

ـ أنت ..

ونظر إليها بملء عينيه الصافيتين .. كان من المستحيل أن تصدقه .. إنه يجاملها .. بل إنه يبالغ فى المجاملة بدرجة سانجة ، ومع ذلك فهو جاد فى لهجته .. فى نظرته كأنه فعلا يعتبرها أهم شيء فى حياته .

قالت وهى راضية :

- هيا ادفع الحساب .. فقد تأخرت ..

لم يسألها عن أى موعد تأخرت .. ولكنه همس :

- فى أى وقت .. فى أية لحظة .. أكون سعيداً .. لو رأيتك .

قالها بأدب شديد .. وبطيبة قلب حقيقية .. ولكن زينب كانت قد انشغلت عنه .. فعادت إلى صمتها ، بل تحول هذا الصمت إلى ما يشبه الوجوم ، وكأنها نادمة تماماً على هذا الوقت الذى ضيعته فى هذا المكان .. هكذا خيل إلى يوسف .. أما زينب فكانت تراجع فى صمتها .. مشاهد تطوف بمخيلتها لمشاجرات بينها وبين عبد الهادى النجار .. تقطع فيها علاقتها به إلى الأبد .



الهلع في نفوسنا

عندما اتصلت زينب بيوسف مرة ثانية ، كانت فى حالة من السأم تكاد تصل إلى الجنون ، وكان صوتها يأتى عبر سماعة التليفون مشحوناً بالغضب من كل شيء .. من نفسها ، ومن يوسف ومن اقتراحاته السخيفة ليذهب عنها السأم ولكنها قبلت أن تقابله فى نفس المكان فى شارع الهرم ، وجاءت وقد أفرطت فى أناقتها إلى درجة تصل إلى التبرج والابتذال ، لاحظها يوسف فى مرارة ، ولكن بغير احتجاج أو إدانة أو حتى شعور بالحرج لأنه يجلس مع هذه السيدة المتبرجة فى مكان عام ، فضلاً عن أنه كان ينسى خلال لقائه بها أنها زوجة رجل آخر ، وما يترتب على ذلك من إدانة أخلاقية واجتماعية لوجودهما معا فى ذلك المكان الذى يلتقى فيه العشاق . كان واثقاً من أنه لا يرتكب خطأ ، وأنه لا يتورط فى موقف مشين ، رغم يقينه أن حكم الناس هو على عكس ذلك ، وأنهم لابد أن يتهموه بالخطأ أو الجريمة . ولكن مثل هذا الاتهام يكاد لا يعنيه لأنه لا يشعر ناحيته بأى انفعال أو قلق ، إنه يلتقى بامرأة ينهشها السأم من الحياة ، وهى تريد منه أن يقدم لها بضعة لحظات من الراحة ، فهل يضن عليها بذلك لمجرد أنها زوجة رجل آخر . أو عشيقة صديقه عبد الهادى ، أو

لأنها جميلة تثير بجمالها الظنون ، أو لأن لها نزوات يتحدث بها الكثيرون . كل هذا لا يعنيه ، إن كل ما يهمه هو أنها اتصلت به ، وأرادت أن تلتقى به ، وأن تتحدث معه . وإن كانت هاهى تجلس صامتة شاردة ، وهو يبذل جهدا ما كان يصدق أنه قادر على القيام به ، ليسليها ويروح عنها .

كان بشوشاً ، ودودا ، قابلها وفى عينيه فرحة ، وعلى شفتيه ابتسامة وقال لها « أهلا ياكونتيسة » و « ماذا تشربين ياكونتيسة » و « فستانك جميل ياكونتيسة » و « تسريحة شعرك تسريحة كونتيسية » ، كانت تستمع إليه شاردة ، ولكنها غير غاضبة ، كما كانت وهى تحدثه فى التليفون ، وكانت أحياناً تبتسم ابتسامة خفيفة ، ولكنه إذا سألها فيما أنت سارحة ، لا تجيب ، وتكتفى بلفتة حادة من رأسها ، لتواجهه بعينيها فيجد فيهما ذلك الحزن الممزوج بالألم ، إن ما فى عينيها لا صلة له بفستانها الأحمر ذى الظهر المفتوح ، لا صلة له بهذه التسريحة الفخمة لشعرها الذى يعلو رأسها كبرج القاهرة ، لا صلة له بأى شىء يبدو على مظهرها .. وهو لا يستطيع أن يتحمل هذه النظرات الفاجعة وهو غير قادر على أن يقول لها إن نظراتك فاجعة ، يريد أن يجذبها بعيدا بعيدا ، ولكن إلى أين ..

وهكذا يجد نفسه مندفعاً فى حديث أشبه بالثرثرة عن أى شىء .. أحياناً عن بيته وأمه . أحياناً عن أيام طفولته ، أو عن شقيقاته .. وأحياناً يحدثها عن العمل الذى يقوم به ، ولقد لمح فى عينيها نوعاً من الاهتمام غير المتوقع وهو يحكى لها عن مسئوليته فى العصر الجديد بالنسبة للأنباء الخارجية .. وأخبار وكالات الأنباء .. والتعليقات اليومية التى يكتبها أو يراجعها ، والتحليل الأسبوعى للسياسة الدولية الذى يهتم به ويبذل فيه جهداً خاصاً يعتز به ..

كان يحدثها فى أدق تفاصيل مهنته ، دون أن يفكر لحظة فى أنها تجهل تماماً ما يتحدث عنه ، ودون أن يسأل نفسه إذا ما كان مثل هذا الحديث يرهقها أم لا .. كان قد اكتفى بتلك النظرة المهتمة .. أو التى خيل إليه أنها نظرة مهتمة .. حتى فوجىء بها تقول له :

ـ هل رأيت الذين دخلوا الآن ؟

كان لم يلحظ أحداً يخرج أو يدخل .. وسألها دون أن يلتفت برأسه :

ـ مـــن ؟

قالت وهى تشير برأسها إشارة خفيفة إلى يسارها :

ـ هنـــاك ..

ونظر فى اتجاه رأسها .. فرأى مجموعة من الشبان .. لم يستطع أن يحدق فيهم أو يتفحصهم .. سألها وقلبه يخفق :

ـ مالهـــم ..

قالت :

ـ ذلك الشاب الأسمر الذى يرتدى بدلة رمادية .. كنت أعرفه ..

ابتسم ابتسامة خفيفة يخفى بها اضطراباً صمم على أن يسيطر عليه .. وسألها :

ـ ومازلت تعرفينه ؟

قالت بصوت هادىء :

ـ لا ...

ثم أضافت :

ـ كان ينظر إلى بشدة عندما دخلوا ..

لم يعلق ، واحتفظ بابتسامته مرسومة على شفتيه .. واسترسلت تقول فى سأم :

ـ إنه حشاش .. نوع غريب من الناس ..

قال يوسف بصوت محايد وهو مصمم على ابتسامته ، كأنها ضرورية لحمايته من أى ارتباك :

ـ الدنيا مليئة بالناس .

قالت كالمخاطبة نفسها :

ـ عندما أفكر فى أنى عرفت أمثاله .. أعجب من نفسى ..

قال متفلسفاً .. وابتسامته ترهق شفتيه وعضلات وجهه :

- لا داعى للعجب ..ما دمت تستطيعين أن تقدرى تصرفاتك ..وتستطيعين أن تعرف حقيقة الناس .

ثم قال بانفعال .. وقد تخلى عن ابتسامته :

- صدقينى .. ليس المهم هو أنك فعلت كذا .. أوكذا .. المهم هو أن تعرفى حقيقة ما تفعلين .. عندئذ يمكنك أن تصلى إلى رفض ما هـو مزيف أو خاطئ .. وتصنعى ما هو صادق وحقيقى .

قالت له بصوت فيه لهجة لا مبالاة :

- وهل يهم هذا أو ذاك ؟.

قال باسماً :

- لا أدرى ؟!

وابتسمت راضية عن إجابته ، ولكنه كان يتألم لها ، ولا يريد أن يقول لها إنه يتألم .

وتعددت اللقاءات بينهما ، ولم يعد يوسف ينتظرها فى مكان اللقاء ، فأصبح أكثر جسارة .. وكان ينتظرها بسيارته الفولكس فاجن عند محطة بنزين قريبة من البيت ، وكانت تركب سيارته فى وضح النهار ، ويعود بها إلى محطة البنزين أمام مئات العيون .. إنه الآن لا يستطيع أن يتخلص من المواجهة ، لا يستطيع أن يهرب من الموقف المطروح أمامه ، لا مفر ..فإما أن يواصل لقاءه بها أو يقول لا .. ويذهب بهدوء .. ولكنه واثق أنه سوف يكون هدوءاً ظاهرياً ، لورفضها ، أوقال لها إنه لا يستطيع أن يقابلها أو أن يتحدث معها ، لو تركها .. فستكون خطواته بعد ذلك نحو هاوية مظلمة لا يدرى لها قرارا ، لقد قال لها فى أول لقاء لهما ، إنها أهم شىء فى حياته قالها فيما يشبه الإجابة السريعة اللبقة .. فيما يشبه النكتة المهذبة ، أو المجاملة اللطيفة لامرأة جميلة .. ولكن هذه اللباقة ، هذه النكتة .. هذه المجاملة ، كانت رغم بساطتها وسذاجتها بل وتفاهتها ، أخطر من أى شىء آخر مر به فى حياته . إنه لا يجد فعلاً ما هو أهم منها ، لا لأنها هامة ، بل لأن كل شخص آخـر

لا يستطيع أن يؤكد أهميته ، لا عبد الهادى ولا دياب .. ولا هؤلاء الذين يعملون فى العصر الجديد ، لا أحد بينهم كان قادراً على أن يقول له .. هاهو شىء خطير علينا أن نهتم به ، ثم يقدم الدليل على أنه جاد فيما يقول . حتى عندما يصل الأمر إلى تلك القضايا التى لا جدال فيها ، مصلحة البلد ..

إن عبد الهادى قد سخر تماماً من هذه الكلمة ، وجعل منها أضحوكة ..

أما دياب فقد تشنج وانفعل وثار ثم انتهى إلى لا شىء .. كل ما يتظاهرون بأهميته يتحول إلى كلمات ، مجرد كلمات مثل تلك التى يستخدمها التاجر ليبيع بضاعته المغشوشة ، إنه لن ينسى الكاتب العظيم الكبير محمود همام ، وهو يحول مشروعاته للنهوض بالعصر الجديد ، إلى أطماع فى سيارة جديدة ، ومرتب أكبر ، ورحلات إلى أوروبا وأمريكا .. إنه لا يستطيع أن يتجاهل تلك النظرات الذكية الحادة التى يهتك بها عبد الهادى نفوس كل المتحدثين عن القيم والمبادىء .. إنه لا يستطيع أن يمحو من ذاكرته مشهد دياب وهو يعتذر لعبد الهادى وأين ؟ ، فى بيت عبد الهادى ، ومتى ؟ ، بعد ساعات قليلة من إعلان دياب أنه قضى على عبد الهادى وتخلص منه إلى الأبد ، إنه لا يستطيع أن يتخلص من دعاوى حسن زيدان ، عن أهمية الشر والانحلال لنهضة الأمم .

وأن الشعوب ترتقى بأعمال القرصنة وبما يخرج منها من أشرار وقادة عصابات ، فهل لهؤلاء أهمية ، إذا كانت لهم أهمية ، فهى من النوع المدمر الذى يهدم ويحطم فى نهم وجشع .. أو بحماقة وغباء ، وفى كل الأحوال بنشاط ودأب ، أما هذه الإنسانة فهى لا تدعى لنفسها قيماً ، ولا تتظاهر بمبادىء .. إنها تواجه حياتها وقد وضعتها على راحة كفها ، تذوق مرارتها كاملة .. تتحمل قسوتها كاملة ، وهى لا تريد أن تحطم أو تدمر ، إنها تبحث عن فرحة ، تبحث عن حياة فيها بهجة ، ثم هى لا تمتلىء حماساً مثلهم للدمار .

إنها تمتلى يأساً لما هى فيه من ضياع .

نعم إنها أهم ، إنها أصدق ، إنها أقسى منهم جميعاً ، حتى عبد الهادى

الذى ظن يوما ما أنه أقوى الناس وأصدقهم وجده يستمد قوته من ضعف الآخرين ، قوته مصدرها العجز والحماقة والجهل فى الآخرين .. أما هى فتحارب العجز والحماقة والجهل فى نفسها .. تحارب بلا سلاح فى يدها ، تضيع ولا تريد أن تضيع ، تنتحر ولا تريد أن تنتحر ، ولقد وضحت هذه المعانى فى نفس يوسف ، عندما قالت له زينب ذات مرة وكانا يجلسان فى شرفة كازينو فى المقطم يطلان على القاهرة :

- هناك شيء لا أدرى كيف أقوله لك .

أنصت إليها وفى عينيه اهتمام .

قالت بصوت مضطرب :

- لى صديقة تريد منى ..

وسكتت ، وبدا أنها عاجزة عن الاستمرار فى الكلام ، ولكنه انتظر فى صبر وفى عينيه نظرات تشجيع ..

قالت وهى تنظر فى عينيه بسرعة ... ثم تحول نظراتها إلى القاهرة ببيوتها ومآذنها والصحراء من ورائها مصفرة بشمس ما قبل الغروب :

- لا تغضب منى ..

قال باسماً :

- لن أغضب أبدا ..

قالت بصوت يقرب من الهمس :

- إنها تريد منى أن أقابل رجلاً ..

حاول أن يبتسم فلم يفلح .. وظل جامد الوجه .. ولكن برودة سرت فى ظهره .. وانتظرت هى أن يقول شيئاً ، فلما لم تسمع صوته : قالت ببطء :

- أنت تعرف .. هذا النوع من الصديقات .. إنها تقدم لى الرجل .

وضحكت فى عصبية ثم قالت بسرعة :

- لأنها تستفيد .

ونظرت إلى وجهه الجامد .. ورفعت صوتها فى ألم واحتجاج :

ـ ألم تفهم ؟

قال بصوت مكتوم :

ـ نعم فهمت .

قالت وهى تنظر فى عينيه :

ـ ما رأيك ؟

قال بسرعة وكلمات تنطلق من صدره كسكين حاد لا يرحم :

ـ افعلى ما بدا لك .

قالت فى وجوم لا يخلو من تحد :

ـ أنا أفكر فى موافقتها ..

ضحك يوسف فى عصبية وهو يقول :

ـ ربنا لا تدخلنا فى تجربة ونجنا من الشرير .

قالت بصوت جاد حزين :

ـ أترى أن أرفض .

قال بصوته المكتوم محاولاً أن يبدو بعيداً عن النصح .

ـ ليتك ترفضين .

قالت بصوت خافت :

ـ ولكنى ما زلت أفكر .

ورفض أن يعلق بكلمة ، ونظر إلى الأفق ، وقال :

ـ الشمس توشك على المغيب .

قالت فيما يشبه الاعتذار :

ـ جاء موعد ذهابك إلى الجريدة .

قال بسرعة لا تخلو من جفاء :

ـ نعم ..

قالت :

ـ هل ضايقك ما سمعت ؟

قال مندفعاً :

ـ أبدا ..

ولكنها كانت واثقة من أنه غاضب . ولا تعرف كيف تفسر غضبه . بل إنها لا تدرى لماذا قالت له ما قالته ، وقبل أن تتركه ، قالت معتذرة وكأنها تلوم نفسها :

ـ ما كان يصح أن أغضبك بشيء .

وجد نفسه ينظر إليها فى توسل أقرب إلى الحنان . وقال :

ـ يجب أن تثقى بى أكثر من هذا .

وابتسمت ، ووجدت نفسها تقول :

ـ ربما لا أذهب إليها .

قال فى ثقة يتحدى بها أى شيء فى الوجود :

ـ تذهبين أو لا تذهبين .. أنت مازلت أنت ..

ولم تعد تذكر له شيئاً عن صديقتها ، التى كان لايشك فى أنها إلهام كمال ، ولم يستطع أن يثير معها الموضوع مرة أخرى .. رغم أنه انشغل به .. وتألم له ، ولام نفسه لأنه لم يطلب منها فى حسم ألا تقدم على هذه الفعلة .. ماذا لو طلب وأصر ، ثم تجاهلته ، أو فعلت ما فعلت وأخفت عنه ، سيفقدها إلى الأبد ، لن تكون بينهما صلة ، وسيفصل بينهما الكذب ، والتجاهل ، وستذهب فى طريقها وتضيع كما تشاء ، وتتركه وحده لهذا اللا شيء . الذى يحاصره ، وقال لها مرة أخرى وهو يفكر فيما قد تكون أقدمت عليه :

ـ حدثينى عن أبيك .

قالت فى ارتباك وقد فاجأها السؤال :

ـ وماذا تريد أن تعرف عنه ؟

كان يريد أن يقول لها ، لو كان أبوك حياً ، ما كنت تفعلين هذا .. تذكريه واسمعى نصائحه ، واحتمى بحضنه من هذه الأفكار السوداء التى تضيعك . وتخلصى من هذه النزوات التى تبددين بها نفسك .

قال باسماً فى براءة تخفى ما فى نفسه :

ـ احكى لى أى شيء .. هل عندك صورة وأنت طفلة صغيرة ؟

قالت بصوت حاد :

ـ يخيل لى أنى لم أكن صغيرة يوما ما .

وسكتت لحظة ، ثم قالت وقد اشتدت حدة صوتها :

ـ كانوا فى المدرسة يسألوننى عن أبى .. فأقول كأنى أردد محفوظات لا أفهمها مدحت بك الأيوبى متوفى .. وكنت لا أصدق ما أقول . أنت تعرف أنه مات .. وأنا صغيرة .

سألها بصوت خفيض يكاد لا يسمع :

ـ ألا تذكرين شيئاً عنه ؟

قالت فى عصبية :

ـ أشياء بسيطة .

وتحمست ، أو هكذا بدت فى عصبيتها وقالت :

ـ أذكر جدتى .. هى التى كانت تحدثنى عنه .. ولكن كل هذا يبدو وكأنى أحلم .. أساطير ..

قال :

ـ من المهم أن تثقى فى أهلك .

قلت وقد هدأ حماسها بعض الشيء :

ـ لا أدرى من أين جاءوا .. كانت جدتى تجلسنى فى سريرها . وتحكى لى حكايات غريبة .. عن جدة لى هربت من الحرب .. وسارت مع الهاربين حتى هجموا عليها . وأخذوها جارية .. وقالوا لها : ستعيشين فى سرايات وتأكلين الخبز الأبيض .. حكايات من هذا النوع .. حواديت فى حواديت .. كانت تحكى عن ركوب جدتى البحر .. وكيف كانوا كل يوم يقذفون فى البحر بجثة واحدة ماتت جوعاً .. حتى وصلت مصر .. وباعوها لعباس باشا .

وضحكت ضحكتها العصبية وقالت :

- هل تصدق هذا الكلام ..

كانت هذه هى فرصته ، شعاع من الأمل يتشبث به ، وقال لها :

- نعم أصدقه ..

كان ينظر فى عينيها محاولاً التأثير عليها ، وقال وهو يرقب تأثير المفاجأة عليها :

- عندما رأيتك لأول مرة .. قلت لنفسى .. لقد رأيت هذا الوجه من قبل .. أتدرين أين .. فى بلادكم الأصلية .. فى آسيا الوسطى .. كنت فى رحلة صحفية فى روسيا .. وذهبنا إلى بلاد الأتراك الأصلية .. هناك فى شوارع سمرقند رأيت وجهك .. كانت امرأة أكبر منك .. تبلغ الثلاثين .. بدينة نوعاً ما .. ولكنها صورة طبق الأصل منك .. كانت تطوف بنا .. جامع العباس .. وقبر تيمورلنك ..

واندفع يحدثها عن رحلته ، وهو لا يدرى كيف يتوقع أن يؤثر حديثه فيها ، أو يجعلها تعدل عن التفكير فى الاتصال بإلهام كمال ... ربما كان يتمنى أن تحدث المعجزة .. وأن تفهم أن هؤلاء الأجداد لا يصح أن ينتهى أمر ابنتهم إلى هذا الذى وصلت إليه .. كان يقول لها فى حماس .. إنهم مسلمون ..

تصورى .. كان مكتوباً على قبر تيمورلنك أنه من نسل على ابن أبى طالب ، شعرت لحظتها برهبة .. وعندما انصرفوا عدت وحدى إلى القبر .. كنت أريد أن ألمسه بيدى .. كنت أريد أن ألمس تيمورلنك بيدى . ولمسته ، لمست أصابعى الحجر ، وشعرت برجفة .. وكأنى ارتكبت شيئاً خطيراً .. وعدت مسرعاً أخفى سرى عن الجميع .. إنهم شيوعيون كما تعلمين .. ولكن حدث شىء هزنى وما زلت أذكره فيهزنى حتى هذه اللحظة .. تصورى أننا فى كولخوز شيوعى وسط فلاحين وما أن التقت عيناى بعينى واحد منهم ، وابتسمت لهم ، حتى وجدته يمد يده الخشنة إلى ويقول فى حماس ورجولة :

- مسلم .. ؟

قلت له :

ـ نعم .. وموحد بالله ..

فأمسك بيدى وشد عليها بقوة .. وقرأ قل هو الله أحد .. الإسلام كامن فى الصدر ، لقد حكم قرونا بعد قرون وأمجاده لم تذهب من النفوس .. وأجدادك حاربوا تحت رايته من الصين إلى المحيط الأطلسى .. ولكن شيئاً ما حدث .. فتداعى المجد وحاربوا أنفسهم .. وظلموا بعضهم بعضاً .. وانتهوا إلى مذابح ومجاعات .. لم يبق لهم إلا الذكريات .. وهذا الهلع مما أصيبوا فيه .. وحدق فى وجهها وقال :

ـ أنت لا تعرفين كم فى نفوسنا من هلع .. حتى تشاهدى الناس فى مكان مثل جامع السيد البدوى .. الذى يصرخ ياسيد ، الذى يستجير .. الذى يستغيث . الذى يتوسل .. الذى يبكى .. التى تكنس .. التى تستعطف .. كلها أصوات ألم . كلها أصوات استغاثة . الزمن سحقهم وحولهم إلى أشلاء .. ومع ذلك فالذكرى باقية .. ومع ذلك فنحن لن نخطو إلى الأمام وهذا الهلع باق فى نفوسنا .. لابد أن نتخلص منه .. كيف ؟ لست أدرى ..

وسألها فجأة :

ـ هل تعرفين أنت كيف الخلاص منه ؟

قالت باسمة :

ـ أنا ..

قال فى حرارة :

ـ أنت تتألمين .. وتبحثين عن البهجة والفرح ..

قالت ساخرة :

ـ وأين هما ؟

قال ضاحكاً :

ـ لقد عرفهما أجدادك ..

قالت وفى سخريتها مرارة لاذعة :

ـ وهل نموت لنقابلهم ، ونعرف منهم ؟

كان يريد أن يقول لها : إن لك أجدادا ، وأنهم حكموا ، وعرفوا الفرح والبهجة ، كان يريد أن يقول لها : إن ما فى نفسك من آلام وتعاسة ، ليست قاصرة عليك وحدك ، إنها أحزان الجميع ، وهى مسئولية الجميع ولعلها أدركت شيئاً من هذا ، فهاهى تقطب جبينها ، وتقول وقد تذكرت شيئاً :

- أتعرف .. كان جدى يحاول أن يكشف سر صناعة الذهب وضيع ثروته .. أكثر من ستمائة فدان فى هذا الكلام الفارغ .. لو كان ترك لنا نصفها ..

قال لها ضاحكاً :

كانوا طبقوا عليك قانون الإصلاح الزراعى .. وما كنت أعرفك أو أقابلك ..

قالت ضاحكة :

- الفدادين أهم ..

قال ضاحكاً :

- يوما ما .. ستقولين غير هذا ..

وقطع كلماته .. وقطع ضحكه .. وأدرك أنه تورط فى إعلان حب بطريقة غير مباشرة .. واختلس نظرة إليها .. وارتبك .. لأنه لم يستطع أن يرى فى وجهها ما يدل على أنها فهمت ما يعنيه أو لم تفهمه ..

كان هذا الحديث محاولة مستحيلة ، للوصول إليها ، ولم يصل به إلى نتيجة ، ولم يعرف خلاله أى شىء عن أخبارها مع إلهام كمال ، وكف عن المحاولة .

وسألته فى لقاء آخر ، سؤالاً واضح المغزى . قالت :

- أين تقابل صديقاتك ؟

واحتقن وجهه ، كانت الدعوة صريحة .. لا ينقصها إلا أن تقول له ، متى تأخذنى إلى مكان فيه فراش ..

وقال فى ارتباك :

- ليس لى مكان ..

قالت فى دهشة لا تخلو من ريبة :

ـ هل هذا معقول ؟

قالتها وكأنها تتهمه فى رجولته .

قال :

ـ أنا مثل الدببة والثعابين ..

عندى حالة سبات شتوى .. فى الصيف أذهب الى الاسكندرية .. وأؤجر شقة ..

قالت بلهجة هادئة :

ـ نحن فى يونيو ..

ولم تسعفه الكلمات ، عاملته يومها بجفاء ، وشعر منذ ذلك اليوم بأنه مقبل معها على شىء لا يستطيع معرفة أبعاده ، ولم يقو على التفكير فيه ، رغم أنه انشغل به ، وطافت برأسه ـ مئات المرات وكل يوم ـ صورتها فى شقة فى الأسكندرية يجمعهما فراش واحد .. ولكن كيف يحدث هذا ، وماذا يكون بعده ، إنه عاجز تماماً عن التفكير .. ومع أول يوليو كان قد استأجر شقة فى زيزينيا تطل على البحر ، وكان ينقل إليها أخبار تأجير الشقة ، ويصف لها أثاثها وحجراتها وشرفتها المطلة على البحر وهى تستمع إليه فى اهتمام وكأنها شقتها الخاصة .. وفى أول يوم دخل فيه الشقة فى الصباح .. كانت تدق الجرس بعد ساعة واحدة ، ما كاد يغلق الباب بعد دخولها ، حتى احتواها بين ذراعيه ، وذاق طعم شفتيها وشم رائحة جسدها .. وأحس بدفئها يسرى فى صدره وينتشر فى أطرافه ويملأ رأسه ، وسارا معا إلى الفراش وغابا فيه عن الدنيا .

وجلسا فى مطعم سمك بأبى قير .. كانت قد همست وهى راقدة فى الفراش بجواره :

ـ ليتنى استطيع أن أعيش معك .

قال وهو لا يصدق أنه يقول مايقول :

ـ ياريت .

قالت :

- أريد أن يكون لى منك طفل يشبهك .

وسكت ، بينما نهضت هى ودخلت الحمام ،وهو مازال يسمع صوتها فى غير فهم .. وتركته ليتقابلا فى الليل .. وها هما يجلسان إلى مائدة تطل على البحر الذى علت أمواجه ،ولكن أمواج البحر رغم احتدامها لاتصل إلى ذروة الاحتدام الذى فى صدره ، إنه لا يستطيع أن يبقى الأشياء على ماهى عليه ، تمضى به الحياة سنة بعد سنة ، هذا مستحيل ، وهاهى قد سألته .. أن تعيش معه ، أن يكون لها منه ولد .. عندما عرفها هذا الصباح ، عرف فى جسدها طيبة واستكانة ، قد يكون هذا الشعور انعكاسا لما فى نفسه ، فهو لم يصدق كل الناس ، ولكن لو لم يصدقها هى بالذات فسيقضى على نفسه ، سيخسر نفسه ، وسيخسرها بالطبع ، لابد أن يتمسك فى عناد بما واجهته به ، حتى ولو عذب نفسه ، أو امتحنها ، إنه فعلا فى حاجة إلى امتحان نفسه ، واثبات وجودها والتعرف على حقيقة معدنها .. كان الموقف جاداً .. ولا ملجأ للتخلص من وطأته .. إلا بالضحك الذى يساعده على السخرية من نفسه ، على تتبع هذه الورطة التى وقع فيها ، إنه يضحك وفى نفس الوقت يبدو جادا ، يضحك بوجه طفل عابس ، يعبس ويبتسم .. مزيج متناقض من المشاعر .

وكانت زينب ترقبه باهتمام .. ولعلها أحست أنه سيقول شيئاً له أهميته ، لابد أن تتوقع هذا .. إنها لا تتردد فى امتحانه .. فى هذه الأمسية مهما قال .. ومهما فعل ، لن تثق فيه أكثر من هذه الليلة .. التى تصنعها ، وكأنها قارب نجاة مؤقت ، يمنعها من الغرق فى البحر العاصف متلاطم الأمواج ، هذه الليلة لا غرق فيها ولا بلل .

هل هناك ما يمنعه من أن يقدم لى هذه الليلة ما يجعلنى أطمئن .. أنا وهو ونحلم معا ، وكأن كل شىء أصبح حقيقة . ولو لليلة واحدة ، ساعة واحدة .. أعيش فيها حياة جديدة تكون ملكى أنا ، وأجد فيها رجلاً أعتمد عليه ، أبا

لأولادى .. أجد فيه أشياء أخرى ، لا أجرؤ على معرفتها الآن ، هيه .. هل لديه مانع .

ألقت زينب بنظرة على أمواج البحر ، والزبد الأبيض يتدافع ويتسابق مع الأمواج فيضىء الظلام وفكرت فى أن تخرج المرآة الصغيرة من حقيبة يدها وتلقى بنظرة على وجهها وترى عينيها .. ولكن هذه الرغبة ظلت مطروحة على سطح الماء .. تتقاذفها الأمواج ، ويغطيها الزبد الأبيض ، ووجهها جامد لا تتحرك فيه عضلة واحدة ، كانت تحاول أن تهدىء من نفسها ، تريد أن تقوى ، أن تسيطر على هذه المشاعر ، إن ما تحاوله الآن ، هو محاولة كبرى ، مغامرة من نوع جديد وخطير ، كأنها تريد أن تعيد صناعة الكون ، كان وجهها أبيض مضيئاً بغير حمرة ، وجه من الشمع الساخن ، وجه واضح ، فى جماله قسوة وإرادة وتصميم وعندما حركت رأسها بحدة ، رأى عينيها تومضان كمبضعين يشقان صدره .. كان مبهوراً بها ، مبهوراً بطيبتها التى عرفها فى جسدها . مبهوراً بتلك الورطة التى أوقعته فيها .. وكان واثقاً فى هذه اللحظة من نفسه ، أنه يصدقها تماماً ، وهو قادر على أن يكون قوياً بصورة أكبر وأعمق من كل الذى قد تتخيله ، ولكنه لن يقول شيئاً الآن ، سينتظر حتى تفرغ هذه الشحنة المنطلقة من عينيها .. ثم يواجهها بكلماته .. بعد أن يأكلا البربون ويشربا النبيذ الأبيض .

لابد أن ترتاح أولاً . وتختفى هذه الكهرباء من عينيها وتتراخى تماماً ، وتحمر وجنتاها قليلاً ، وعندئذ يقول لها ما تريد ، إنها لا تطلب منه شيئاً تافها أو عادياً ، إنها تطلب منه حياته ، تطلب كيانه .. أو هكذا يجب أن يواجه ما تطلبه .. حتى لو كانت لا تعنيه ، حتى لو كانت تقوم بتمثيلية صغيرة ، تقضى بها لحظات هامة ، أو تريد أن تجعل لها أهمية خاصة ، هذا هو السلوك الوحيد الذى لا بديل له ، أن يرتفع بالموقف وبالمشاعر إلى مستوى جدير به أن يكون ، حتى لو كان فى هذا الارتفاع ما يثير ابتسامة سخرية ، أو ابتسامة عابسة ، فليضحك من نفسه ما شاء أن يضحك وأن يسخر ، ولكن الموقف

لابد أن يكون جليلاً كاملاً والمواجهة لابد أن تكون رائعة جميلة ، ليس فيها خجل أو ارتباك ولا حمرة فى الوجه ولا تلعثم فى الكلمات ولا هرب من لقاء النظرات .. وضوح كامل ، يكشف عن أدق المشاعر ، يكشف عن خبايا نفسه وألوانها الخاصة . يعرى أعصابه .. يؤلمه ويؤلمها ، يحرك مواجعه .. ويحرك مواجعها ، شىء أهم بكثير من أى جهد بذله فى كتابة تحليل سياسى أذاعته له إذاعة أو نقلته وكالات الأنباء والسياسة الدولية فى أسبوع يكتبها يوسف منصور .

هذا هو الخط السليم ، هذا هو أحسن تعبير عن موقفنا من التكتلات والدول العظمى .. هذا هو أروع موقف يتخذه رجل مع امرأة ، ولكنه لن يندفع ، إن إحساسه بأهمية ما هو مقدم عليه ، يجعله يحرص على الحذر ، يحرص على أن يقول ما عنده فى الوقت الذى يحدده هو ، لا أن يقوله لمجرد أنها نكشته لتخرجه من قوقعته التى يحتمى بها لن يتخلى عن تواضعه ، ولا عن غروره وسينتظر اللحظة المناسبة .

وألقى بدوره نظرة طويلة على أمواج البحر ، وأطلق صفيراً خافتاً ، وقد انداح فى نفسه شجن وهو يردد ألحاناً من السيمفونية السادسة لبيتهوفن ، اللحن المتفائل .. لحن عظمة الإنسان ، كان أبوه مريضاً ، وكان يستمع إلى هذا اللحن فى الراديو ، ودخلت عليه أمه ، وقد علا وجهها الانزعاج ، وقالت له :

ـ صوت الراديو عالى يايوسف ..

وارتبك ، وخفض الصوت .. ولكنه خاف من أن يسكته ، كان لسبب غير مفهوم قد ربط بين سماعه اللحن ، والتفاؤل بشفاء أبيه ، وتشاءم من أن يسكت الراديو .. فى بقاء اللحن شفاء لأبيه . وفى إخماد اللحن نهاية لأبيه ، وشفى أبوه ، لسنوات ثم مات . وهاهى ذكراه ، ووجه أمه ، وصورته وهو جالس بالبيجاما يستمع إلى الراديو .. وأبوه يتألم فى الحجرة المجاورة .. كل

هذا يعلو مع الزبد الأبيض فوق قمم الأمواج ، هى تنظر إلى البحر .. وأنا أنظر إليه ..

ـ هيه .. أيعجبك المكان ..

ـ نعم ..

قالتها دون أن تنظر إليه .. ولكنها تخلت عن البحر ، وامتدت يدها إلى الحقيبة ، وأخرجت المرآة ، ونظرت فيها ، وأصلحت شعرها ، أو هكذا بدت كأنها تصلح شعرها ، فلا فارق بين شكله قبل أن تمسه بأصابعها ، أو بعد أن مسته ..

كل ما فى الأمر دقيقتان من الحركة الروتينية ، القيام بما اعتادت عليه لسنوات . مرآة وأصابعها فى شعرها ، إنها لحظات مضمونة .. لا لبس فيها ولا غموض .. لحظات تسيطر عليها تماماً .. ولكنها لم تعد تتحمل هذا الروتين .. لابد أن توجه إلى هذا الرجل ضربة ، لابد أن توخزه ، لابد أن تحركه ، لابد أن تدفعه إلى اتخاذ موقف ، إما أن يصنع ما تريد ، ويقول ما تريد ، ويقول ويقدم لها فوراً لحظتها الخاصة التى طلبتها .. أو تغضب وتصب عليه تعاسة لا تضن بها عليه ، إنه الوحيد الذى ترضى أن تتعامل معه بكل ألوان التعامل ، بما فيها من تعاسة .. وشجار دموى تتمنى فيه لو تقضى عليه ، كان غضبها المباشر من سذاجة السؤال ، أيعجبك المكان ، أهذا وقته .. ما أهمية المكان .. وهل نسكن فيه ، هل اشتراه ، إنه مكان مثل أى مكان ، وسمك مثل أى سمك ، والبحر هنا مثل أى بحر فى ألف مكان آخر .. وامتدت يدها إلى كأس النبيذ وأفرغته ، وقالت له وهى تشير إلى كأسها الفارغة :

ـ اعطنى ..

وشربت نصف الكأس الممتلئة دفعة واحدة .. وعادت الحمرة إلى وجنتيها وعادت إليها رغبتها فى تحدى الحياة ، والاستهتار بها .. وعدم الاكتراث بما فيها ومن فيها .

قال لها :

ـ هذا بربون جميل .

قالت بصوت مكتوم :

ـ لن آكل ..

ـ لقد طلبت سمكاً كثيراً .

ـ لا أريد .

ـ كيف ؟

قالت فى ضيق :

ـ كم الساعة ؟

نظر فى ساعته وقال :

ـ الحادية عشرة ..

قالت :

ـ لا أريد أن أتأخر ..

قالتها وهى تقول لنفسها ، إنها ستقذفه بنكد وتعاسة وستظل تقذفه بهما حتى الصباح ..

ـ هل أنت مرتبطة بموعد ؟

قالت وقد وضح الغضب فى صوتها :

ـ أنت تعرف .. لا أحد ينتظرنى ..

قال فى تحد .. وقد وجد أن اللحظة المناسبة قد اقتربت :

ـ لدى شىء أريد أن أقوله لك .

ونظر إلى ساعته من جديد . كان يتشبث بها كتعويذة . الوقت . اللحظة الحاسمة .. اللحظة التاريخية فى حياة يوسف منصور .

نظرت إليه ترتقب ، عاودها الأمل ، قد لا تضطر إلى إتعاسه ، كانت تخفى نظرة الترقب ، بعدم الاكتراث ، بالالتفات إلى البحر ، بامتداد يدها إلى الحقيبة ، بالعدول عن مسك الحقيبة ، كان صوته جادا حادا ، كما يجب أن يكون فى هذه المناسبة .

ـ أتذكرين عندما قلت لك أنك أهم شىء فى حياتى ..

قاطعته فى جفاء يفضح غيظها :

ـ أهذا .. هو الذى تريد أن تتكلم عنه ؟

ليس هكذا يصح أن يبدأ كلماته ، لو كان يريد أن يكون رجلاً ، فلابد أن يتكلم بلغة مباشرة .. لا قصص ولا لف ودوران ولا توهان فى التعبير .. إنها ترفض لعبة حاورينى ياطيطة ..

لم يتأثر بسخرية لهجتها ومضى يقول :

ـ ليس هذا هو كل شىء .. عندما قلت لك إنك أهم شىء فى حياتى .. كنت لحظتها لا أدرى أهمية ما أقوله .. رغم أنى لم أكذب .. فبغيرك كانت وحدتى كاملة .. وعزلتى قاسية .. وكان من الممكن أن تكون كلمتى عابرة كلمة مجاملة .. كما تصورت أنت ولاشك ..

قاطعته وقد بلغ غيظها مداه :

ـ وماذا تريد أن تقول ؟

قال فى هدوء :

ـ يجب أن تسمعينى .

قالت متحدية :

ـ أنا لا أحتمل هذا الكلام الكثير .. يجب أن تعرف أنى سمعت من قبل عشرات الاعترافات بالحب .

قال بصوت قاطع :

ـ لن أتكلم .

قالها وكأنه يقرر أن هذه هى نهاية علاقته بها ، وإنه يعلن فى نفس الوقت إنه يأئس تماماً منها ومن كل شىء فى الحياة .

وأدركت إنه غاضب فخافت ، كان كل حرصها على أن تحركه ، أن تتعامل معه كل لحظة ، حتى ولو بالشجار ، لقد لجأت إليه لأنه لم يسعفها بكلمات حب وأبوة ورجولة وحماية لها .. كان يأكل البربون .

قالت بصوت حذر :

ـ أنا آسفة .

ـ أنت لا تفهميننى . ولا تريدين أن تفهميني ..

قالت فى طيبة ذكرته بها وهى معه فى الفراش هذا الصباح :

ـ ساعدنى ..

وتخلى عنه عناده .. وقال فى كبرياء لا يخلو من غضب :

ـ أنا أحبك .. وأنا لست مثل الآخرين ..

قالت :

ـ أعرف هذا .

قال :

ـ أنا لا أتمتع بلحظة معك .. ثم ينتهى ما بيننا .. كلما لقيتك شعرت بجرح كبير ، قلبى يدمى ، ليست هذه كلمات إنشاء .. هذه حقيقة .. وأنا لا أستطيع أن أطلب منك شيئاً .. حتى تقررى أنت بنفسك .. وتتحمل مسئولية ما تقررين .. لا يمكننى أن أخدع نفسى .. هل تريدين أن تعيشى حقاً معى . إما هذا .. أو نفترق نهائياً .

نظرت إليه ، والغضب يتجمع فى عينيها وفى خديها وفى شفتيها . ما كان يجب أن يسألها .. أو يطلب منها أن تختار بينه وبين الفراق . لابد أن يصمم على الحياة معها .. أهو خائف .. أهو ضعيف .. إنها لن تجيبه بكلمة واحدة . لو أجابته فهى واثقة أنها ستتخلى عنه .. حتى لو قالت له أريد أن أعيش معك .. ستقولها ثم تتخلى عنه ..

ولكن هاهو يوسف .. لايتركها تفكر لحظة أخرى .. هاهو يندفع قائلاً :

ـ أنا لا أسألك ، ربما هذه هى طريقتى فى التعبير .. ولكنى اقول لك .. لابد أن نعيش معا .. لا أمل لى بغير هذا .. قالها بثقة من يقول :

ـ أنا الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يقدم لك حياة حقيقية .. وأرادت أن تنظر إلى البحر .. وأرادت أن تخرج المرآة .. وأرادت أن تأخذ رشفة أخرى من النبيذ ، أرادت أن تفعل شيئاً تعودت عليه ، لتنجو من هجمة المشاعر لتتخلص من احتمال انهمار الدموع من عينيها .. إذن فهو فى نهاية الأمر

يستطيع ان يجيب عن سؤالها .. يستطيع أن يتخذ المواقف .. وان يقدم لها ليلة تحلم فيها .

كان يوسف يقول :

ـ هذه مسئوليتى .. التى لا أستطيع أن اتخلى عنها .. أنا وأنت لنا مصير واحد .. لن أحتمل أن يكون ما بيننا مجرد لقاء عابر .. أونزوة مؤقتة .. لابد أن أمضى فيما بدأناه .. حتى لو كان فى نظرك مجرد تسلية .

قالت محتجة :

ـ لا .. ليست تسلية .. لقد جئتك لأنى كنت ضائعة ..

قال بسرعة :

ـ لا .. أنت لم تضيعى ..

قالت فى غضب يكاد يكون من نفسها أكثر من أن يكون موجهاً إليه :

ـ إذا كنت تريد الدفاع عنى .. فهذا أسرع وسيلة لأن نفترق .

قال يوسف :

ـ أنا أدافع عن نفسى ..

قالت فى خوف :

ـ ماذا تعنى .. أتريد أن تتصور أنى امرأة بريئة حتى تقبل أن تعيش معى .. أتبحث عن تفسير ..

قال لها فى دهشة :

ـ هذا لم أفكر فيه أبداً .

قالت منكرة :

ـ إذن ما معنى ما تقوله ؟

قال :

ـ أنا أفكر فى ضياعى أنا .

قالت فى دهشة :

ـ أنت !

ونظرت إليه غير مصدقة ، وبدت له أنها تشكك فيما يقول .. عذاب عليه أن

يتحمله .. ومضى يشرح لها :

- إن ضياعى أخطر بكثير .. عندما أصل إلى الخامسة والثلاثين .. دون أن أدرى ما هو هدفى من الحياة .. تصبح المسألة معقدة .. أنا لست مثلك يائساً .. أو عانيت من ظروف قاسية غبية .. عندما أفكر فى نفسى أجد أن كل ما تهمس به هذه النفس .. معان عامة كعناوين موضوعات الإنشاء .. معان أخذتها عن أبى .. حبى لمصر .. تخلصها من الانجليز .. استقلالها .. الرغبة فى العدل التى كان أبى [illegible] .. وكان حديثه عن العدالة يتردد فى نفسى من قبل أن أعى معنى الكلمة .. ولكن كيف .. ما الوسيلة .. إن كل من حولى لهم هواية الظلم .. أو الاستغلال .. أو انتهاز الفرص على حساب أى شىء حتى لو كان كارثة تصيب البلد .. صدقينى .. أنا أحب مصر .. أحب النيل والصحراء .. أحب الحقول الخضراء .. لا تقولى إنى أخرف .. هذا حقيقى كما هو حقيقى أنى أحبك .. أريد أن أشعر بأنى جزء من هذا الكيان الرحب الذى يسوده الصفا فى جغرافية بلدنا .. لا فى ناسها الذين يعملون فى العصر الجديد ، إن طبيعتنا عادلة .. هل أنا أقول كلاماً سخيفاً ؟

أدهشها أن يتحول الحب إلى مثل هذا الكلام الغريب ، الذى لا صلة له بحب ، ولا صلة له بوجهها وشعرها وجسدها ، وسألت نفسها أيمكن أن ينجب هذا الرجل منها أولاداً .. كان سؤالاً عملياً مباشراً .. لابد أن تتحقق منه قبل أن تقدم على خطوة واحدة .. ولكنها فى نفس الوقت ، تشعر لدهشتها بأن هذه الكلمات الغريبة تقول لها إنه يحبها ، وإنه قالها بصوت قريب من قلبها .. رغم إنه يحمل معانى بعيدة عن قصص الغرام .. وسألت نفسها ، هل تستطيع أن تعرف أحداً غيره .. وقالت لنفسها .. إنها لا تستطيع . لم يبق إلا أن تتأكد من إنه قادر على إنجاب الأولاد ..

سمعته يقول :

- هل ضايقك كلامى ؟

لم يضايقها كلامه .. الذى ضايقها هو سؤاله .. قالت وهى تضحك فى

تحد :

- ما صلته بنا ؟

قالت له عيناها وضحكتها .. إنها لا تعنى حقاً سؤالها .. قال :

- أريدك .. أريد أن أعيش معك .. الآن .. منذ هذه اللحظة لا معنى لأن تنتهى الليلة بذهابك إلى بيت آخر ..

نظرت إليه تريد أن تحتضنه بعينيها .. الآن يقول كلاما معقولاً هاهو أخيراً يوسف منصور .. كله .. على بعضه .. ولا بأس به .. كانت تحاول إقناع نفسها ، بلا قلب ، بلا عاطفة فى أمر يختص تماماً بالعاطفة .. ولكن هذا هو الشيء المخلص الذى لابد أن تفعله بعد كل تقلباتها العاطفية التى مرت بها ، بعد أن ابتذلت عاطفتها وانتهت بها إلى الفشل والضياع . إنها لا تستطيع أن تفرط فى هذه اللحظة ، ولا فى كلماته ، إنها نادمة لأول مرة فى حياتها على أنها شربت ، كانت تريد أن تعى هذه اللحظة بكل ما تملكه من قدرة ويقظة .. إنها قادمة على اتخاذ قرار الطلاق من نور الدين والزواج من يوسف منصور ، وهى تشعر الآن ، على الأقل أنها فى حاجة إلى يوسف .. إنها تريد أن تتشبث به قبل أن تختطفه منها قوى ليست مجهولة .. قوى تعرفها جيداً .. عرفتها فى تلك السهرات وفى أولئك الرجال بشهواتهم ونزواتهم وتقاليدهم وغبائهم ، إنهم قد يحرمونها منه .. مع أنه لن يكون نزوة أخرى من نزواتها ، ولا حرية من ذلك النوع الذى تاهت فيه حتى وصل بها إلى حرية القضاء على نفسها بالانتحار .. إنه قادر على الصمود لنزواتها ، يستطيع أن يصمد - لمخاوفها - من نفسها .. كانت تبتسم ابتسامة خفيفة .. وقد اطمأنت أكثر .. هو على أية حال لا يطالبنى بشيء .. ولا يلزمنى بشيء .. وهى لا تريد أن تثور عليه ولا أن تتحداه .

وفجأة خطر لها أن هناك ما يجب أن تواجهه .. عليها أن تقول له ما الذى فعلته مع إلهام كمال .. لابد أن تصارحه .. وأظلمت الدنيا فى عينيها .. ولم تعد تتحمل البقاء .. وأصرت على أن يدفع الحساب ، ويعود بها إلى بيت زوجها

فى سيدى بشر .. وهى تردد :

- تأخرت .. تأخرت ..

كانت تريد أن تتخلص منه بسرعة .. لتفكر فى هدوء .. كانت تخشى أن تقول له .. ثم تندم ، ومن يدرى .. قد تكون فى صراحتها نهاية حياتها .

ولكنها طرقت بابه فى الثامنة صباحاً ، وأيقظته من النوم .. وجلست إلى جوارها فى السرير وهو يتثاءب

وقالت له :

- جئتك لأنى لم أنم ..

ثم مضت تقول :

- أتذكر تلك الحكاية التى حكيتها لك عن صديقتى ، كان ينّظر إليها فى امتنان .. إنها ستقول له إنها لم تفعل شيئاً .

إنها استطاعت أن تقف على قدميها وترفض النزوة القاتلة .

ولكنها قالت بصوت جاد حزين :

- لقد حدث .. وذهبت ..

ولم تجرؤ على النظر فى عينيه ولو نظرت لرأت دهشة وألماً كأنها قتلته . ورغم ذلك ، تجلد بجهد خرافى .. وأطلق من صدره ضحكة فيها طفولة .. لا يدرى كيف استطاع أن يتمالك نفسه ، وأن يعلو فوق آلامه ، وأن يطلق هذه الضحكة البريئة .. نعم كانت بريئة ولكنها تخفى فى طياتها كل ما فى الدنيا من ألم وغضب ومرارة وخيبة أمل وهتف فى مرح :

- هذا يحدث فى أحسن العائلات .

لم تصدق ما سمعته .. ولكن الكلمات صدمتها ، طعنتها ، جعلت أعماقها تصرخ ، هذا رجلى .. هذا هو حياتى التى بحثت عنها طوال العمر ..

كانت ابتسامته أشبه بغفران السماء الذى يطهر المذنب من كل الذنوب والآثام ، ومع ذلك فهى لم تشعر بأن يوسف هو الذى غفر لها ، بل إن قضية الذنب والغفران كانت بعيدة تماماً عن إدراكها ، كان ما شعرت به أقرب إلى

ذلك الإحساس الذى ينتقل إلى الإنسان وهو يشاهد منظراً طبيعياً جميلاً ، حديقة مليئة بالورود والأزهار ذات الألوان الحلوة الزاهية يفوح منها عطر بهيج ، ينعش النفس ويهزها بالحيوية والخصوبة ، كانت الصدمة التى طعنتها ، هى صدمة مواجهة موقف كانت تتمناه فى قرارة نفسها دون أن تستطيع أن تحدده ، موقف تشعر فيه إنها رغم كل شىء ، إنسانة طبيعية ، لا تطاردها الاتهامات ولا تلاحقها الأعين والألسن ، ولا تضطهدها الظروف ، إن كل ما أقدمت عليه من تصرفات ، وكل ما اندفعت وراءه من نزوات ، كان بمثابة محاولات يائسة للتشبث بالحياة ، ورفض الهزيمة أو الاستسلام القاتل لما تفرضه عليها علاقتها بنور الدين بهنس ، فإما أن تصبح جسداً مدهوساً لا روح فيه ، خرقة بالية لا قيمة لها ، أو أن تندفع فى مغامراتها ، ترتكب مايصفونه بالحماقة أو الجريمة أو الضياع حتى يكون ما يكون تحترق وتكون هى صانعة حريقها ، وتكون هى مدبرة ضياعها ، أو تحدث المعجزة ، فتنجو وتجد الخلاص وكانت لا تدرى كيف يمكنها أن تنجو ، أو تحصل على شىء من الراحة ، وكيانها كله قد ارتبط بهذه المعركة المتصلة التى لابد أن تخوضها ، تبدد فيها نفسها حتى تشعر أنها هى نفسها .. عندما ذهبت إلى إلهام كمال فى تلك المرة الأخيرة ، كانت تشعر بوهن فى قواها ، كأنها تنفق آخر ما تبقى لديها من حيوية ، وكانت خائفة على غير عادتها ، ولم يفلح استقبال إلهام الحافل لها فى أن يخلصها من مخاوفها ، كانت إلهام تتحدث عن جمالها ورشاقتها وأنها حلوة وطعمة ، وهى تستمع إليها فى ذهول . كأن إلهام تتحدث عن واحدة أخرى ، وكان الرجل الذى جاءت له يجلس فى حجرة مع الرجال يلعبون الكونكان ويشربون ، ولم تدخلها إلهام عليهم ، كان يهمها أن تثير حول زينب جوا من الغموض ، زوجة دبلوماسى ، زوجة رجل واسع الثراء ، بنت بارعة الجمال ومجنونة ، لا يهمها المال ، ولكنها صاحبة مزاج ، لو أخذت خمسين جنيهاً فى يدها فستنفقها فى خمس دقائق ، هى على أية حال امرأة غير مضمونة ، فقد تعدل فجأة ، وترفض ، هكذا كانت تتحدث عنها إلهام أمام الرجال ، البضاعة النادرة التى ستقدمها

لواحد منهم ، مقاول فى السابعة والخمسين قصير له وجه صعيدى أسمر ، وكرش صغير ، وهوزوج وله بنات متزوجات ، وأولاد بينهم المهندس والمحامى واثنان آخران يعملان معه فى أعمال المقاولات .. وكان يتبع نظاماً دقيقاً فى حياته ، فهوجاد ينفق فى عمله ، ولكنه تعود -وهذا نظامه الذى يحرص عليه - أن يقوم بمغامرة ترفيهية صغيرة ، كلما فرغ من مقاولة أضافت إلى رصيده فى البنك بضعة آلاف ، وكان قد أتى به [illegible] بإلهام كمال التى طلبت منه حلاوة كبيرة ، مقابل الهدية التى ستقدمها له « امرأة لم تعرف فى حياتك مثلها » استمع إليها وعيناه تلمعان بذكاء رجل الأعمال الذى يعرف أن محدثته تروج لبضاعتها ، وأن الصنف الذى تعرضه عليه لن يزيد على واحدة من إياهن . ولا بأس فى أن تتحدث عنها إلهام كما تشاء ، ولكن المهم هو أن تكون صغيرة ، كلما كانت أصغر كلما كانت أفضل ، ولكن إلهام أفاضت فى الحديث عن بضاعتها فى حماس غير عادى ، وتصرفت كما يفعل التاجر الشاطر الواثق من بضاعته ، فقالت له إنها ستحدد مقدار الحلاوة التى تقبضها بعد أن يعاين البضاعة ويختبرها بنفسه ، كان العرض واضحاً جريئاً ، فأثار اهتمام الرجل ، وأضافت إلهام إلى هذا الاهتمام إخراجها المسرحى المناسب . فها هو الرجل قد جاء ومعه أصحابه ، وجلسوا فى حجرة أغلقتها عليهم إلهام يلعبون الورق ، وقد تحرك فى نفوسهم شعور المغامرة وصاحبهم العريس الذى لا يلعب القمار ، وقد اكتفى بكأس ويسكى واحد يساعده على القيام بالمهمة المنتظرة ، يستمع فى سرور إلى تعليقات أصحابه حول رجولته وفحولته ، فإذا ما انصرفوا إلى اللعب وانغمسوا فيه ، أثارهم بكلمة ليعاودوا الحديث عن مغامراته ، حتى طرقت فتحية الخادمة الباب ، وهمست إلهام إن العروسة قد وصلت ، محذرة إياهم أن يخرجوا لمشاهدتها حتى لا تفر مذعورة ، كانوا لا يصدقونها ، ولكنهم قبلوا قواعد اللعبة كما تفرضها إلهام ، بينما بدا القلق على المقاول الصعيدى ، وطلب وهو الذى لا يدخن ، سيجارة من أحد أصحابه الذى قال له ساخراً إن رائحة الدخان قد تضايق

العروسة وهو يقبلها ، فقال له ساخراً ، إن رائحة فمها ستكون كرائحة دكان سجائر ، وأخذ السيجارة وأشعلها وجذب نفسا طويلاً ثم أطفأها فجأة عندما عادت إلهام ، وجذبته من يده ، وقادته إلى حجرة نوم ، كانت زينب واقفة فى منتصف الحجرة ، لم يروجهها الحزين ، رآه وجها متكبراً ، وكانت أجمل مما توقع ، ولم يعد يفكر هل هى صغيرة أم لا .. كان ما يفكر فيه ، هو أنه يملك الآن هذا الجسد ، هذا الكيان القائم أمامه فتمل وانقض عليها يقبض على ذراعيها ، وعلى صدرها وخصرها وردفيها وألقت بجسدها على السرير ، وألقى بجسده عليها ، محاولاً اقتحام هذا الكبرياء بسيل من الكلمات البذيئة يشجع بها نفسه ليسيطر على ما لابد أن يسيطر عليه ، وعندما أفرغ ما فى جسده دفعته بيديها ، وقفزت من السرير ، كانت لم تخلع ملابسها .. وأسرعت إلى المرآة ترتب شعرها ، وسمعته يقول :

ـ أنت بنت ناس كما قالت إلهام ما الذى جعلك تفعلين هذا ؟!

حولت رأسها عن المرآة ، فى حدة ، كان فى عينيها ألم ممض ، لم يفهمه ، وظن أنه ذلك الكبرياء المجنون الذى تصر عليه ولم تجبه ، قال : سأطلب من إلهام أن أراك مرة ثانية ..

قطعت زينب علاقتها بعبد الهادى النجار عقب هذا الحادث بيوم واحد كانت لا تحتاج لأن تفعل ما فعلت ، وتقوم بتلك المظاهرة الصغيرة التى قامت بها مع عبد الهادى كان يكفيها أن تتجاهله ، تعتذر عن اللقاء به ، وهذا هو ما كانت تلجأ إليه عادة عندما تريد التخلص من شخص عرفته ولكن يبدو أنها أرادت أن تجعل من قطع علاقتها بعبد الهادى نوعاً من المواجهة لنفسها ، ومناسبة لمناقشة نفسها ومراجعتها ، وكانت ـ وقد سبق ذكر هذا ـ قد سألت يوسف النصح فى هذه العلاقة ، وسمعته يقول لها تخلصى منه ، وسمعت منه كلاماً كثيراً عن عبد الهادى لم تفهمه ، وما كان يعنيها أن تفهمه ، لأنها كانت تبحث فى الحقيقة عن فهم نفسها ، وفى ذلك اليوم كانت قد أنفقت نهارها فى الشارع ، وفى حقيبتها الخمسون جنيهاً التى أخذتها من إلهام كمال تريد أن

تشترى بها كل ما تقع عليه عيناها ، أقمشة وحذاء . وحقيبة ، وعقودا وأدوات ماكياج ، وعادت إلى بيتها محملة بها اشترت ، وارتدت فستاناً جديداً ، يتناسب مع الحذاء الجديد والحقيبة الجديدة وذهبت إلى موعدها مع عبد الهادى .. الذى استقبلها قائلاً :

- لا أريد أن أضيع وقتنا فى الشكوى من أحوالك .. كلما جئت سألتك عن أسباب كثرة اعتذارك .. ثم نتشاجر .. ثم نتصالح .. ويتكرر هذا بيننا عشرات المرات حتى أصبح شيئاً لا معنى له .. إنى أفكر فى أن نتفق على مواعيد لقائنا ..

قالت فى هدوء :

- لقد جئت اليوم لأقول لك شيئاً آخر ..

أدرك فى الحال ما سوف تقوله ، ولكنه كان لا يصدقه ، أوكان يتوقع أن تثير مشاجرة أخرى تنتهى بصلح آخر . لم يخطر بباله أن هذه اللحظة ، هى نهاية كل شىء .

قال لها عاتباً :

- يازينب .. مرة واحدة نتقابل فيها بغير شجار ومشاحنة .

قالت فى ثقة :

- لا شجار .. ولا مشاحنة .. ولكن كل شىء بيننا قد انتهى .

قال :

- هكذا ؟!

قالت :

- نعم .

ضحك متجاهلاً ما قالت ، خيل إليه أن هذه الضحكة ستجعلها تنسى ما كانت تقوله .. وهتف :

- ألا نستطيع أن ننسى كل ما فات ، وكل ما سوف يحدث ، ونقضى الآن ساعة واحدة فى بهجة وسرور .. كأنى لم أرك من قبل ، وأنت لا تعرفيننى ..

ولكننا فى بيت مريح ، وهاهو البار فيه كل ما تريدين .. الجن موجود .. الويسكى موجود .. وسأحكى لك قصصاً مدهشة .. وسنتحدث معاً .

قاطعته :

ـ ليس لى مزاج اليوم .

قال فى وجوم مفاجىء :

ـ إذن فقد جئت لتقولى هذا .

قالها ، وهو يكاد يعني .. إذن ما السبب فى مجيئك ، مادمت لا تريدين شيئاً منى .

ـ أنت لست مثل الآخرين .. ولقد كان ما بيننا أقرب إلى علاقة حقيقية .. ولست نادمة عليها .. بل إنها ساعدتنى على أن أفهم نفسى أكثر .. ومثل هذه العلاقة لا أستطيع أن أقطعها بمجرد تجاهلها .. أردت أن أقول لك أنت ما أفكر فيه .. وما قررته .. وسكتت برهة قبل أن تقول :

ـ لأنى أريد منك أن تفهمنى .. كانت تتحدث بثقة غير عادية ، وتنطق الكلمات بوضوح ، كأنها كبرت عشرات السنين ، وكأن فى رأسها حكمة .

قال :

ـ ما الذى تريدين منى أن أفهمه ؟

قالت :

ـ إنى لست شريرة .. ولست طفلة كنت أتسلى بحياتك .. إنى أريد أن أعيش .. كما أريد أن تعيش .. ولكننا مختلفان ..

قال عبد الهادى أنه يحسدها على هذه الثقة غير العادية بالنفس ..

هنا ابتسمت زينب ، وتذكرت يوسف ، وكلماته عن عبد الهادى .. وأحست برغبة لا تخلو من القسوة ، فى أن تسخر منه ، وهو لا يدرى أنها تسخر منه ، قالت له وهى تراجع كلمات سمعتها من يوسف :

ـ إن الأخلاق والعواطف التى تتحدث عنها ليست هى التى أبحث عنها .. ما قيمة الأخلاق التى يستطيع إنسان أن يتجاهلها أو يحطمها .. ما قيمة

العواطف التى تستطيع أن تعيش بدونها .. أنت سلطان على أشلاء وجثث ..

أنا لا أكترث بالأخلاق التى تعرفها أو تسمع عنها ، ولا تهمنى القيم التى تقتلها وتطالبنى باحترامها .. وإذا كان قد جمعنا فراش فلأنى كنت أريد أن أعرفك على حقيقتك .. وكان يخيل إلى أنك الرجل الذى أبحث عنه .

ومضت تتحدث حتى سمعته يحتج :

- أنت تبحثين عن نبى

قالت وثقتها المفرطة تملأ نفسها :

- فليكن .

قالتها ، وهى فى ذروة اليأس . وفى ذروة الأمل ، قالتها وهى ترى فى المرآة وجه ذلك المقاول الصعيدى يقول لها قبل أن يخرج من الحجرة :

- لا تتركى إلهام تضحك عليك .. سأعطيها مائة جنيه .. حلاوة العمارة الجديدة .. ولك منها خمسون جنيها ، ورأته يبتسم . مشجعاً لها أن تبتسم له ، أن تشكر له هذا المبلغ الضخم الذى يمنحه لها ، كان يجب أن تفعل شيئاً ، تضحك .. تبتسم .. تقول كلمة شكر ، ولكنها لم تقو إلا على هز رأسها ، وكلمة خافتة نطقت بها .. « طيب » كلمة لا معنى لها ، كانت قواها الواهنة قد استسلمت إلى شلل تام مهيمن على روحها ، وظلت هكذا طوال يومها حتى تذكرت يوسف وتذكرت أنها سألته رأيه فى ذهابها للقاء هذا الرجل .. وتذكرت لدهشتها أنه قال لها .. « تذهبين أو لا تذهبين .. أنت ما زلت أنت » عندئذ فقط ، قفزت إلى حقيبتها وأحصت الخمسين جنيها ، وأعدت مشاريعها لمشتريات الغد ، وليكن ما يكون .. فهى ما زالت هى .. وهذه هى ذروة الأمل .

وسمعت عبد الهادى يقول لها :

- سوف ينتهى بك الأمر .. إلى أن تنسى ماذا كنت تبحثين عنه .

ودارت رأسها وتشبثت بيوسف ، ألحت فى أن تتذكره ، وعندما انتبهت إلى عبد الهادى مرة أخرى كان يقول :

ـ إن أفكارك العظيمة سوف تحولك بسرعة إلى مومس . هذه هى الحقيقة التى يجب أن تعلميها الآن ..

قالت ووجهها شاحب .. وليس فى رأسها سوى صورة يوسف :

ـ أعرف هذا .. ولذلك فأنا أفكر فى شىء آخر ..

كانت لا تدرى ما الذى تعنيه ، وما هو ذلك الذى تعرفه أو ذلك الشىء الآخر الذى تفكر فيه .. الحقيقة الوحيدة .. هى أنها فى ذروة اليأس ، وهى فى ذروة الأمل ، ويوسف معها .

كان عبد الهادى يسألها .. أن تقول له شيئاً عما تفكر فيه .. وهى تردد :

ـ لن أقول لك .

إن ثقتها تحولت إلى عصبية ، أو إلى نوع من الجموح الخطر ، حتى ظن عبد الهادى أنها تفكر فى ارتكاب عمل خطر .. فى الانتحار مثلاً .

ولكنها قالت له :

ـ إنها حماقة .. ولكنها ليست كما تظن .. فأنا أحب الحياة ..

كانت لحظة مشحونة بالغرابة ، ما تصور عبد الهادى أبدا ، أن مثل هذه المرأة ، تستطيع أن تخرج مثل هذا المشهد ، وأن تطلق مثل هذا الحوار حتى أنه استراب فى حقيقة ما يراه وما يسمعه ، إنه أمام حالة نادرة لا يستطيع أن يسخر فيها من الشخص الذى يواجهه ، حالة يستطيع بكل تأكيد أن يرفضها ، أو أن يتحاشاها .. ولكنه عاجز عن تجميع قواه للهزء بها .. وتذكر عبد الهادى يوسف منصور .. وهو يقول له بعد أن تصالحا إنه يرفض الذهاب معه إلى بيت نور بهنس ، قالها بنفس اللهجة ، تكاد أن تكون نفس النغمة ، نفس الجموح الخطر ، ونفس الغرابة التى يراها فى كلمات زينب الآن .

قال لها وهى تمد يدها مصافحة :

ـ ما زلنا أصدقاء ..

وانحنى على يدها يقبلها .. كان يريد أن يصنع شيئاً لائقاً للمشهد الختامى ..

قالت له :

ـ لا .. لسنا أصدقاء سنكون غرباء ..

قال :

ـ أنت قاسية .. لم أعرف فيك هذه القسوة أبدا ..

قالت بقسوة أشد :

ـ باى .

ولم تكررها ، وأمسكت بلهوها ، ومضت لحالها

وهاهى زينب .. أخيراً .. أخيراً .. مع يوسف تشعر بأنها ارتاحت بعد إرهاق طويل ، كان ما زال راقداً على سريره ، تعتصر قلبه الآلام . وابتسامته قد تحولت إلى شحوب .. أما زينب التى لم تتردد فى أن تعتبر ابتسامته قبولاً لها فقد أطلقت من صدرها كلمة خرجت كالقذيفة :

ـ خـــلاص ..

قالتها باندفاع وحرقة ، وقالتها وهى لا تدرى أنها تنطق بها ، وسمعها يوسف تقولها ، فوجه إليها نظرات متسائلة ، كانت عيناه تحدقان فى فضاء الغرفة ، كأنهما تبحلقان فى شىء مجهول .. وأدرك أنها كانت تخاطب نفسها ، وأنها لابد أن تكون قد اكتشفت شيئاً هاماً .. أو فهمت معنى ما .. أو إنها وصلت إلى قرار ما له خطورته .. وأدرك فى غير وضوح ، أن ما وصلت إليه مصدره هو ذلك الضبط الهائل للنفس الذى جعله لا يظهر فزعاً أو غضباً بعد اعترافها له .. هو الذى جلب على نفسه كل هذا ، هو الذى أراد أن يجعل مما بينهما شيئاً له روعته وجلاله ، هو الذى أراد أن يحول التسلية أو التفاهة أو النكتة أو الضياع إلى شىء مجيد جليل .. هو الذى أراد أن يجعل من اعترافها اعترافاً مقدساً ، ومن سماعة للاعتراف شرفاً وكرامة وغفراناً .. هو الذى أراد وعليه أن يتحمل وأن يتألم .. ولكن شيئاً يصعب وصفه ، أو التعبير عنه . قد حدث .. إن الهلع فى نفس زينب يوشك أن يذهب عن قلبها .. إنه ـ الهلع ـ هو المجهول الذى تحدق فيه فى فضاء الحجرة وهى تقول « خلاص » .

نور الدين بهنس

ذهب نور الدين بهنس إلى خديجة السبع فى بيتها بالمبتديان ، وقال لها :

ـ ابنتك طفشت ..

قالت خديجة على الفور وبغير تفكير ، وكأنها ترد على لطمة وجهها إليها نور الدين :

ـ من خيبتك .

قال لها بصوت بليد :

ـ ظننت أنها عندك ..

قالت خديجة :

ـ وهل تجرؤ على أن تجىء إلى ؟!

قال نور الدين مكملاً :

ـ ولكنها اتصلت بى هذا الصباح .. وقالت إنها لن تعود إلى البيت ، ثم أضاف وهو يرقبها :

ـ إنها تريد الطلاق .

ولم تستطع خديجة أن تواصل تحديها ، بدا عليها انهيار مفاجيء كان أول علاماته انها وضعت كلتا راحتيها فوق رأسها تمنعه من الانفجار ، فى لحظة خاطفة كانت قد برزت أمامها فجأة ، صور الأتراك ، مدحت بك وأمه دودو هانم والجوارى ، أيام كانوا يختطفون منها زينب ، ويعاملونها وهى أمها كخادمة أقل شأناً من الجارية ، كان جسد خديجة العجوز لا يتحمل وطأة ما تراه بمخيلتها من ذكريات ، كانوا أشبه بمردة خرجوا من قمقم ، عادوا ليختطفوا منها ابنتها ، عادوا ليصنعوا نهاية حياتها ، البنت تذهب وتختفى معهم ، ويتركونها عاجزة بلا حول ولا قوة ، تموت وحيدة تعيسة ليس لها أى أثر أو شأن فى هذه الحياة ، زينب أنكرت أمومة خديجة ، وأدارت ظهرها لكل ما صنعته لها ، حطمت إرادة خديجة ووجهت لها الإهانة القاضية ، كانت خديجة تولول ونور الدين يروى لها كيف تركته زينب .. بالأمس قالت له فجأة وبلا مقدمات ، إنها تريد الطلاق ، إنها كثيراً ما تقول هذا الكلام الفارغ وهو يأخذها على قد عقلها ، فهى طائشة لا تعى ما تقول ، ولكنها بالأمس كانت مجنونة ، وقد أعدت حقيبة وضعت فيها بعض ملابسها ، وصممت على أن يذهب معها إلى المأذون فى الحال ، قال لها إن الصباح رباح ، فقالت له إنها ذاهبة ، فوقف عند الباب يمنعها ، فجرت إلى المطبخ ، وأمسكت سكيناً حاداً وهجمت عليه « كانت تريد قتلى » ولم يكن هناك ما يستطيع أن يفعله أمام هذا الجنون ، سوى أن يتركها ، وهو واثق أنها سوف تذهب إلى أمها . قال نور الدين هذه الكلمات الأخيرة ، وهو يعلم فى قرارة نفسه أنه لم يكن واثقاً من ذهابها لأمها ، وفى الصباح اتصلت به ، ورفضت أن تخبره بمكانها وصممت مرة أخرى على الطلاق .

صاحت خديجة :

- وهل هذا كلام يقوله رجل .. تترك زوجتك تخرج من البيت هكذا .. وأنت لا تعلم إلى أين هى ذاهبة .. تتركها وهى فى هذه الحالة من الجنون .. لو كنت مكانك كنت اختطفت السكين من يدها وقتلتها به .. هذا أفضل لها ولك ..

كانت خديجة تعنى ما تقول ، موت ابنتها ولا ذهابها على هذا النحو كانت لا تفكر فى الفضيحة ، ولا فى نور الدين ، كانت تفكر فى نفسها . وفى هذه الهزيمة التى لحقت بها .. وولولت ..

- إنها ليست ابنتى .. ولا شأن لى بها ..

ورفعت يديها إلى سقف الحجرة وكأنه السماء وصبت اللعنات على زينب ، ألّا ترتاح لحظة فى حياتها ، أن يكون مصيرها إلى جهنم فى الدنيا والآخرة ، أن يحرمها الله من النسل ، أن يشوهها ويجعل منها مسخاً . أن يقعدها بمرض يكون فيه القضاء عليها ، كان نور الدين يستمع إليها فيما يشبه الاستسلام والاستكانة ، وقد ارتاح إلى ما يتدفق من هذا الجسد العجوز .. من سباب وشتائم ، حتى انتبه فجأة على صوت خديجة تصرخ فيه أن يذهب ، ويبحث عن ابنتها ، حتى يعثر عليها حية أو ميتة ، وياليته يعثر عليها ميتة ..

ونهض نور الدين ، وغادر البيت لينفذ ما كان اعتزم أن يفعله .. وهو أن يذهب إلى إلهام كمال ليسألها عن زينب ، كان واثقاً أن إلهام تعرف الكثير عن أسرار زينب ، وأنها لابد أن تقوده إليها ، وأغلب ظنه أن زينب قد قضت ليلتها فى بيتها كما فعلت من قبل ، ولكنه لم يذهب إلى إلهام أولاً ، لأنه أراد أن ينشر الفضيحة ، ومن هنا كان حرصه على الذهاب إلى خديجة ، ولقد تحقق له ما يريد ، فقد أنعشته خديجة بأحقادها ، ولعناتها ، وأراحته وهى تدعوه إلى قتلها ، إن مثله لن يستطيع أن يقتل زينب ولا غيرها لأى سبب كان ، ومع ذلك فهو قد حصل على قدر لا بأس به من المتعة ، وهو يرى نفسه مدعوا إلى أن يقتل ، إنه شعور يصعب تفسيره ، وعلينا نحن الذين نتابع أحداث هذه الرواية أن نقبله ، مسلمين بأنه من المستحيل أن نستطيع تفسير كل شعور ينتاب نفس أحد من البشر ، خاصة إذا كانت هذه النفس تحمل بين جنباتها كمية لا بأس بها من العاهات ، كما أننا لا نستطيع أن نلوم نور الدين على ما يشعر به ، إلا إذا كان من حقنا أن نلوم إنساناً لأنه أصيب بالعمى ، أو

خرج إلى الدنيا مشوه الخلقة ، أو أصيب فى حادث ما بفقد ساق أوذراع ، ومع ذلك فقد يكون هناك تفسير ، لمن يريد ، لتلك العاهات التى أصابت نفس نور الدين . وهو تفسير غير مضمون ، فليس هناك ما يثبت لنا أن هناك صلة بين عاهات نور الدين النفسية ، ومرض أمه الطويل بعد ولادته بحمى النفاس وما أعقبه من مضاعفات ، قضى خلالها نور الدين أياما وليالى طوالا يبكى .

ولا يجد من يسعفه ، حتى يستخلصوه غارقا فى إفرازات جسده من بول وبراز ، وكان أبوه أيامها يعانى من فقر مدقع ، ولم يكن قد حصل بعد على ثروته التى استولى عليها كأحد أغنياء الحرب العالمية الثانية .. كانت أمه تموت ، وهو يموت ، وأبوه مصطفى بهنس يحارب فى السوق من أجل لقمة عيش من أول النهار إلى آخر الليل ، ولا أمل فى رعاية زوجته أو ابنه الرضيع ، إلا فى خدمات عابرة تقدمها الجارات ، وبعد تلك الفترة ، توالت كل أنواع الأمراض على الطفل نور الدين بهنس ، النزلات المعوية والتيفود والملاريا .. حتى القراع لم ينج منه ، وكان لذلك أثره عندما ذهب نور الدين إلى المدرسة ، كان ولداً منطوياً خاملاً بليداً ، وكان منظره يستفز المدرسين ، حتى أكثرهم صبرا وقدرة على ممارسة قواعد التربية ، كان يفقد أعصابه مع نور الدين وينهال عليه بالصفعات والركلات ، ولكن كل هذه التعاسة أصبحت توازيها رعاية خاصة وأن كانت متأخرة بعض الوقت من الأم .. وكان نور الدين يسمع منذ البداية ، أن ولادته كانت نحساً وأنه أوشك أن يقتل أمه ، وقد أفسد هذا الذى سمعه طعم كل مالاقاه من رعاية وحنان أغدقتهما عليه أمه ، وعندما أصبح مصطفى بهنس ثرى حرب ، بدا وكأنه يريد أن يعوض أولاده . عما عرفوه من تعاسة فى أيام الفقر والنكد ، وكان نور الدين أكبر الأولاد . هو أكثرهم حصولاً على المال والاهتمام . ولكنه كان فى نفس الوقت قد شق له طريقه الخاص الذى يخفيه مظهره البليد وسلوكه الشديد الانطواء ، وكان طريقه الخاص هو السرقة ، إن ما يحصل عليه علنا وجهاراً لا يرضيه ، ما يقدمه له أبوه ، أو ما تقدمه له أمه لا يشبعه ولكن ما يحصل عليه خلسة

يثير فى نفسه نشوة لا حدود لها ، سرق وهو صغير من بائع الأمهات ومن بائع الترمس ، وسرق من أدراج تلاميذ الفصل كل ما استطاع أن يختلسه من أقلام ومساطر « وأساتيك » وسرق عندما كبر من جيوب أبيه . وكان يلعب القمار ، لأنه يرى أمامه نقوداً تروح وتجىء .. فيقضى ساعات ممتعة ، وهو يتفنن فى طريقة يمتد بها أصبعه خلسة .. ليجذب شلنا إلى كومة نقوده من نقود الآخرين . كان ما يكسبه فى القمار من السرقة أو الغش أعز لديه مما يكسبه بورقة ، وفشل فى إكمال تعليمه العالى ، والتحق بوظيفة إدارية فى السلك الدبلوماسى ، وحاولت أمه أن تزوجه ، وكان أبوه قد مات وشقيقه عز الدين قد لقى مصرعه على نحو ما عرفنا فى فصول سابقة .. كما عرفنا كيف أن أمه فشلت فى تزويجه ، خاصة بعد ذلك الحادث الذى اكتشفت فيه خطيبته ابنة سعيد باشا حجازى هى وصديقتها أن خطيبها نور الدين يسرق الملبس والشيكولاتة ويملأ بهما جيوبه ، ولم يصدم نور الدين بهذا الفشل ، ولم يحرك فى نفسه تحدياً للزواج حتى وجد فرصته مع زينب . التى رفضته هى الأخرى ، ولكنه كان لا يفهم هذا الرفض ، ولا يحس به ، إذ كان من المستحيل أن يدرك أنه بعيد تماماً عن أحلامها ، وهى التى كانت تحلم بأن

تكون نعيمة عاكف ، أو جان دارك . تحلم بمن يرقص معها فى الطرقات ، أو يهرج معها ويدير لها البيانولا وهما يتسكعان معا من شارع إلى شارع كما كانت تفعل نعيمة عاكف فى الفيلم . وهو أيضاً لن يحارب فى جيشها لإنقاذ الوطن ، كما حاربت انجريد برجمان فى فيلم جان دارك . إنه معذور فى عدم قدرته على فهم هذا أو ذاك ، وهو من دون البشر جميعاً ، أبعد الناس عن القيام بمثل هذه الأعمال المفرطة فى علانيتها ، وهو الذى صنع حياته السرية فى مواجهة القهر النفسى الذى واجهه منذ بداية حياته ، وهو لا يعلم أن زينب لا ترى فيه إلا مجرد ضفدعة مقززه ، عيناه هما اللتان تركتا فى نفسها ذلك الإحساس الغريب بأنه ضفدعة ، عينان زجاجيتان ليس فيهما بهجة ولا دعوة إلى المرح ولا إلى القتال .. ولا إلى أى شىء ، عينان صنع شكلهما

النظرات المختلسة الخفية ، التى تتحاشى إظهار ما يعنيه ، وبعد هذا كله فإن نور الدين كان يرقب محاولات وصله بزينب ، وهو لا يفكر جدياً فى الزواج ، الذى كان مجرد حديث ، وكلمات تقال ، تدعمها أمه أحياناً بقولها إن أى بنت تتمنى أن تتزوج منه ، أى بنت لا ترفض الفدادين وعزبة الفيوم والحساب المفتوح فى البنوك .. كلمات كل مالها من ميزة لدى نور الدين ، أنها تغطيه ،

وتساعده على الانطواء وعلى تحين الفرص لممارسة هوايته الحقيقية ، فى الاختلاس ، فى ممارسة حياته مع أسرار نفسه ، مع تلك النشوة الخفية التى يتوج بها شعوره الدفين بأنه نحس وذليل وعاجز ، والذى جعل نور الدين يهتم بكلمات خديجة عن زواجه بابنتها ، كانت تلك النغمة المتآمرة التى خاطبته بها ، ثمّ اكتشافه أنه سيقدم على هذا الزواج فى الخفاء ، كأنه سيقوم باختلاس عظيم ، وهذا هو ما شرع فيه فعلاً ، وبموافقة خديجة ، أو على الأصح بتسترها عليه ، فكانت يده تمتد إلى زينب ، إلى ذلك الجسد الذى يصفونه بالجمال الرائع ، والذى يشعر برغبة عارمة فى أن يستفيد منه ، ويختلسه وكأن صاحبته لا تدرى ما يفعل ، وهاهى خديجة السبع ومعها الحاج رمضان يشاركانه السر ، أنهما أول صديقين حقيقيين له ، أدرك هذا بغريزته وهو يستمع إلى همسات خديجة تغريه بجمال ابنتها وروعة جسدها ، وبهمسات الحاج رمضان وهو يشجعه ، إنه نفس الحاج الذى طالما سمع من أبيه أنه رجل لا يتورع عن شىء ، وأنه سرق الأيوبى بك الكبير ، وأخذ منه أرض المبتديان وشيد فوقها عمارة كبيرة تدر عليه دخلاً ما كان يحلم به ، إنهما خديجة وشقيقها رمضان ، شريكاه ، إنهما من ذلك النوع من البشر الذى يريحه .. ويصنع له مجتمعه ويعطيه مشاعر من الحب والصداقة . كان محروماً منها ، إن الطيور على أشكالها تقع ، وهو قد وجد أخيراً مجتمع

طيوره ، يتعاطفون معه ، ويتسترون عليه ، ويتآمرون ويتهامسون ويبررون له اختلاسه ، وهم لا يحرجونه ولا يخذلونه ، ولا يشعرونه بالذل ، إنه ليس فى حاجة إلى مقاومتهم أو الانطواء والابتعاد عنهم بل إنهم يساعدونه بما

يتحدثون به عن ثرائه ، وهم مستعدون لنهب أى قرش معه . إن خديجة السبع المفلسة تريد أن تحصل على ثروته عن طريق ابنتها ، تلعب معه لعبة اللصوص ، ولا أحد يجهل محاولات الحاج رمضان القديمة مع أبيه ليتسلل إلى ثروته ويحصل منها على ما يستطيع نهبه ، إن نور الدين يدخل على خديجة ، فيتنفس جواً طبيعياً ، لا يجد له مثيلاً فى أى مكان آخر ، فى ذلك البيت يستطيع أن يفعل ما يريده ، إنهم لا يمنعونه أبداً ، ليتحسس جسد تلك البنت ، اختلاس القبلات ، وخديجة كأنها لا ترى ولا تسمع فكأنها تقدم له بتصرفها هذا المشهيات ليختلس المزيد ، أما هذه البنت المكومة على الكنبة بجواره ، فلا شأن لها ، إنها لابد أن تقبل اختلاسه لها ، كما تقبل النقود أن تمتد إليها يد السارق ، حتى لو كانت محفوظة فى خزائن البنك الأهلى المصنوعة من الصلب فى سراديب تحت الأرض ، إن اللص الذى يقتحم متسللاً السراديب والأقفال وأجراس الإنذار يستطيع أن يمد يده إليها ويأخذها فلا تقاومه ، ستستسلم له ، وستتركه يحملها معه ويذهب بها أينما شاء ، وهكذا تستسلم زينب .

كان يجلس مع زينب أحياناً بينما تكون خديجة تتحدث مع الحاج رمضان فى حجرة مجاورة ، وكان يسترق السمع إليهما ، ورغم حرصهما على الهمس ؛ كان لابد أن ينفعلا ، وأن ينسيا ماهما فيه فترتفع أصواتهما قليلاً ، وكان يسمعهما يتآمران عليه . ويقولان إنه الفرصة الرائعة التى لا يجب أن تفوتهما ، لولا خيبة البنت ، وجهلها بما يجب أن تفعله . ذات مرة ارتفع صوت خديجة « آه ياناری ، لو كنت أنا .. كنت عرفت أطويه » وكان نور الدين يفرح بأنهما لصان مثله كان يفرح لهمسهما ، ولأنه يسمع ما يقولان رغم حرصهما الشديد ، وكان ينتشى بالجشع فى عيونهما ، لابما ينظران إليه فى جشع ، وكان يسعد بأنه يعود إلى أمه التى تنتظر عودته ، فلا تعرف ماذا كان يدبر ، ولكنها قد تلقى عليه نظرات مستريبة ، لقد تعود على أن تحيط به الهمسات ، وأن توجه إليه هذه النظرات المستريبة حتى فى عمله إنه يتاجر بالعملة الصعبة ..

إنه لص .. إنه ليس دبلوماسياً بل مجرد موظف إدارى .. يجب أن تعد أصابعك بعد أن تصافحه .. بل تعود على أكثر من الهمسات .. عندما يصرخ واحد ممن يلعب معه الورق .. أنت حرامى .. أنت غشاش .. وهاهو يجد أخيراً الزواج الذى يتفق مع كل هذا الإطار الذى عاش فيه ، إنه بالنسبة له زواج يملأ روحه وينعشها تماماً ، وزاد من هذا الانتعاش ، رفض زينب له دون أن تعلن رفضها .. كانت قد سمعتهما يقولان عنه قبل أن يثار مشروع الزواج : إنه نتن ولم تفهم ما الذى يقصدونه ، كما أنها لم تشعر أول الأمر بنفور كامل منه ، ولكنها فهمت بسرعة أنه شىء آخر ، مخلوق آخر لا صلة لها به ، ولما واجهت يديه العابثتين المختلستين ، كانت تخنقها رغبة فى البكاء ، ولكنها لم تعرف الثورة . كانت خاضعة تماماً لمشيئة الأم ، وتعلم أن عليها قبول هذه المشيئة حتى ولو كرهتها ، وكانت خديجة لا تفهم دموع زينب ، كانت تفاجئها فى حجرتها وقد سالت دموع على خديها لا تقوى على مسحها ،

بل تكاد تبتلعها فى استسلام ، وفضلت خديجة أن تبرر هذه الدموع ، بأنها مخاوف بنت من الزواج ولكنها فى قرارة نفسها مثل أى بنت تتلهف على الزواج وتفرح به ، فكانت تحدثها عن روعة الزواج من شاب غنى ، فلما جادلتها زينب ، عاملتها بعنف .. وواجهتها بفقرها ، وبالواقع المر الذى يجب أن تعترف به ، وإنها حماقة ليس بعدها حماقة ، أن ترفض زينب ما هو فى صالحها ، وما ترى الأم أنه فعلاً فى صالحها .

وتصمت زينب ، وتبتلع دموعها أكثر ، وتبتلع مع دموعها أحلامها التى تتخلى عنها ، وهى توشك أن ترتبط إلى الأبد بهذا الضفدع .. كانت تراه ينظر إليها وهى ترقب جسدها العارى فى المرآة ، كأنه يلوثه أو يفرز عليه شيئاً لزجا تفوح منه رائحة منفرة .

وكانت تراه ، وهى راقدة على السرير ، وجسدها يفور بما فيه من خصوبة وبكارة ، فترتعد وقد قفز هذا الضفدع فوق جسدها يلوثه ويفسده ، كيف تتحمل كل هذا ، إن أمها تقول لها إنه سيكون من حقه هذا الجسد الذى يرتعد

ويرفض ما تراه بعينيها ، وتتذكر زينب ذلك اليوم البعيد ، الذى جاءت فيه أم إسماعيل لتقوم بعملية ختانها ، وترى وجهها الصارم يطل من جسدها المكسو بملابس سوداء ، وترى جدتها المشلولة .. وهى تصرخ ، ياولاد الكلب ، ماذا تفعلين ياخديجة بابنة مدحت .. وتتذكر كلامهم عن العريس الذى سوف تتزوجه ، وأنه لابد أن يكون مصرياً لا أميراً تركياً .. وأنه لابد أن تكون زوجته هكذا ..

وتتذكر أمها وهى تشير إلى جسدها العارى فى الحمام .

فهل هذا هو الرجل الذى تحملت من أجله كل هذا ، هل هذا هو المصرى الذى أعدوه لها هذا الذى ينظر إليها بعينى الضفدع .. وتفاجأ دائماً بيده ، فى صدرها فى وقاحة وبلادة تثيران كل مشاعر التقزز والنفور فى جسدها وروحها .. حتى ذلك اليوم الذى كانت فيه مريضة تتقيأ فى الحمام . ذهب إليها بدعوى مساعدتها ، وقبضت كفه على ثديها ، وكل ما أفلح فيه هو أنه بما فعله ساعدها على التقيؤ بسرعة ، وكأنها تخرج من جوفها ذلك الشىء المنفر الذى يقبض على صدرها ، ما قيمة الكلمات أمام هذا النفور الذى تعانى منه ، ما قيمة ما يرددونه بأنه غنى ، وأن أحداً لا يرفض عريساً مثله ، ولا أحد يرفض العزبة والفدادين والمواشى والخزين .. ولا أحد يرفض السفر إلى باريس .. ولا أحد يرفض نور الدين بهنس ، حتى صديقاتها فى المدرسة لم يفهمن سر تعاستها رغم أنها مقبلة على الزواج ، حتى سوسن ابنة إلهام كمال .. قالت لها وهى راقدة إلى جوارها فى السرير :

- يا عبيطة .. ترفضين السفر إلى باريس ..

لم تفكر واحدة منهن فى الرجل .. ولم يساعدها أحد على التفكير .. وتركوها أسيرة الخضوع لما فرضوه عليها ، دون أن يخطر ببالهم لحظة إنها أسيرة ، بالعكس .. ياهناها .. ما أسعدها بالعزبة وباريس .. والفرجة على العالم .. وبعد الزواج تحول الضفدع إلى بقة ، هكذا وصل التقزز بزينب من ذلك العبث المهين الذى يحدثه نور الدين بجسدها ، وكان أخطر ما فى هذه الإهانة ، أنها

تتم وكأنها موجهة إلى وسادة ملقاة على الفراش . كان لا يتعامل معها ، ولا تشعر أنه يعطيها أو يأخذ منها ، ولا مجرد محاولة بالتظاهر ، إنه يقربها ليختلس ، وهو لا يكاد يعى أن هذا الذى يختلسه له أنفاس وله عينان . وله أذنان ، وأنه على أية حال بشر يحس ، وكانت أجهل من أن تفهم هذا الموقف الرهيب ، ولعل استسلامها له كان من بعض أسبابه ، أنها سمعته مرة واحدة يقول :

- أنت أجمل من أن أستحقك .

كان فى العادة لا يتكلم .. وإذا خرج منه صوت ، لا تكاد تسمع ما يقول ، ولكنه هذه المرة كان صوته مسموعاً واضحاً ، وبعدها لم تعد تسمع أو تفهم ، وظلت هذه الجملة الفريدة « أنت أجمل من أن أستحقك » تربط بينها وبينه طوال سنوات الزواج ، وهى تذكر ما شعرت به وقتها . كان يقولها بذلة ، مذلة حقيقية ، نفرت منها ، ولكنها تأثرت بها . كانت لا تستطيع أن تتعامل مع هذه المذلة التى كشفها فى تلك اللحظة .. والتى ظهرت عليه وكأنها طفح فى وجه مريض ، ومع ذلك بقى هذا الطفح ، هو الشىء الوحيد الصادق الذى عرفته فيه .. فغير ذلك ، هو بهيم . أو ضفدع . أو بقة .

كلما تذكرت صوته الواضح الذليل ، ونظراته الذليلة ، قالت لنفسها إنه عالم مغلق على نفسه ، لن تدخله أبداً ، حتى لو أرادت فلن تستطيع ، ولكنه على أية حال إنسان ، وليس آلة .. وعيناه ليستا زجاجيتين تماماً ، فإنسانيتهما ممكن أن تظهر ، عندما تصبحان نافذة لما فى أعماقه من مذلة ، فإذا ما أغلق النافذة ، وعادت عيناه إلى حالتهما الزجاجية .. لم يبق منه إلا النظرات المتلصصة التى تتحين الفرص ، فهو ينظر إليها لا لتراه ، ولكن ليقنع نفسها بأنها لا تراه ، وهو يتحسس وجودها لا ليقدم إليها وجوده ، ولكن ليشعرها بعدم وجوده ، هذا هو أسلوبه الذى لا يتخلى عنه ولا يبدو أنه سيتخلى عنه فى يوم من الأيام .

وكانت زينب تسمع أمها وهى تنصحها ، فيثيرها ما تقوله الأم عن حق الزوج الذى أمر به الشرع ،كانت تريد أن تصرخ « ولكنه لا يأخذ حقه ، إنه يختلسه » ولكنها لا تستطيع أن تصيغ المعنى ، فتفزع من هذا التهديد الذى تلاحقها به الأم باسم الشريعة ، ويخيل إليها أن الدنيا تسير بنظام ظالم أخرق ، ولا تفهم كيف يقبله الناس ويعيشون به راضين .. وكيف يتحمسون للدفاع عنه ، عن هذا النظام الذى [illegible] يسمع بدوره ما يرددونه أمامه عن حقه الشرعى فيرتاح لكلامهم ، لا لأنه يصدقه ، ولكن لأنه يغطيه ويخفى مشاعره الحقيقية ، إن نشوته ليست فى حصوله على حقه ، إنما فى اختلاس ما ليس حقا له ، فى امتداد يده إلى ما لا يمكن أن يحترف أحد بملكيته له .

وعندما تمردت زينب ، وعرفت طرقا ومسالك إلى أشخاص خارج البيت زادت نشوته ، رغم كل ما كان يتوهمه فى نفسه من غضب .. لأنه فى قرارة نفسه غير قادر على الغضب الحقيقى . كان ينتظرها حتى تعود آخر الليل .. ويصعد إليها بعد أن ينتهى اللعب وينفض اللاعبون ، ويحوم حولها ، وفوجئت زينب ، بأنه يتشممها ويبحث بأنفه عن رائحة الخمر التى تفوح من فمها .. ولا يفكر فى أنها شربت ، ولا يسأل أين شربت ولا مع من شربت . كان كل ما يفكر فيه هو أنه سيختلس الآن ذلك الذى كان ملكاً للآخرين .. ولقد روعت زينب بهذا الاكتشاف ، وكانت أول الأمر تحاول أن تضع فى فمها أقراص نعناع لتخفى رائحة فمها ، وكانت تقلق وهى تفكر فيما قد يوجهه إليها من أسئلة ، وكانت تستعد على أساس مواجهته ليحسم ما بينهما ويطلقها ، ولكنه خيب ظنها تماماً .. كان يلقى بأسئلته أين . ولماذا تأخرت . وكأنه يقوم بإجراء روتينى .. ليخلص منه بسرعة بل إنه يتعجل الخلاص منه فلا يناقشها .. ولا يراجع ما تقوله ولا يتشكك فيه ، وقد يرفع صوته فى مظهر من مظاهر الغضب والشجار ، ولكنها ما تكاد تأوى إلى فراشها وهى مطمئنة تماماً إلى أنه لن يقربها ، وتطفىء النور ، وتشرع فى النوم ، حتى يتسلل إليها

فى الظلام ، ويلح ببلادته . وتجاهله الكامل لإحساسها بوجوده ، فى أن يلوثها وأن يغمر جسدها بهذا العبث الذى ليس فيه أية علامة إنسانية .

ولكنها كانت قد عرفت أنه ليس قدراً مفروضاً عليها ، وأنه ليس « المصرى » الذى لابد أن تتزوجه .. عندما رأت الدبلوماسى المصرى فى سفارة باريس ، قالت لنفسها ،. هذا هو رجل أحلامى .. وكأنها كانت تقول :

هذا هو المصرى الذى كان يجب أن يعدوه لى .. وبعد ذلك مضت تبحث بين

الرجال عن الرجل ..

أما نور الدين ، فهو القذارة أو الأتربة التى لابد من تحملها إذا ما حكمت علينا الظروف أن نعيش بعض الوقت فى مكان مترب قذر .

ولن يكون لهذه القذارة أثر فى نفس زينب ما دامت تبحث ، ما دامت تأمل ، وهذا هو مالم يفهمه أبدا نور الدين الذى كان لا يجرؤ على أن يفهم ، والذى كان يطرق الآن باب إلهام كمال وكل ما يفكر فيه أن تعود زينب إليه .. وأن يعود كل شىء إلى ما كان عليه ، إنه لا يريد شيئاً آخر ، وإصرارها على الطلاق غير مفهوم ولا معنى له .

وقضت إلهام وقتا أطول مما يجب أن تأخذه امرأة ذكية مجربة مثلها ، قبل أن تفهم ما الذى يقوله لها نور الدين ، رفضت أن تفهم أول الأمر ، لأنها رفضت فى نفس الوقت أن زينب الطائشة هذه تستطيع أن تترك بيتها وتقضى ليلتها فى الخارج دون علمها .. رفضت ما اعتبرته جرحاً لكبريائها .. متجاهلة له بالتظاهر بعدم الاهتمام بما تسمع ، وانشغالها بإحضار الشاى لنور الدين وتقديمه له ، وبإطلاق ضحكات عصبية عالية .. تعلن بها إنها لا تصدقه ، ولكنها استسلمت لما تسمعه فى نهاية الأمر .. كانت ترتدى روباً أزرق .. وجمعت شعرها وربطته بايشارب أصفر استعداداً للذهاب إلى الحلاق .. وأشعلت سيجارة ثانية ، وسيطرت على أعصابها وقالت لنور الدين بصوت هادىء :

ـ اطمئن سأعيدها إليك .

قالتها فى ثقة ، وفى يقين بأنها لابد أن تكون هى المسئولة عن عودتها إلى هذا الرجل ، كانت تشجع نفسها على مقاومة ما شعرت به من غضب . كيف فعلت زينب ما فعلت دون أن تتصل بها .. ولحساب من قامت بهذا التصرف المجنون .. وإذا كان لابد أن تترك هذا المغفل . فعلى الأقل كان عليها أن تتفق معها أولاً .. تتفقان على صورة أخرى لحياتها . كان نور الدين يقول لإلهام للمرأة العاقرة .. وهو لا يدرى كم يؤلمها بقوله :

ـ ظننت أنها قضت ليلتها عندك . وكانت إلهام تجيبه :

ـ أبـــدا ..

وكانت تتمنى لو لم يصدقها ، فهذا أفضل من أن تكون هذه هى الحقيقة ولكنها قالت هذه المرة :

ـ البنت جنت ..

قال نور الدين :

ـ خرجت ومعها حقيبة صغيرة .. ولا أظن أن معها نقوداً .

قالت إلهام :

ـ ليس هذا هو المهم .. المهم أنك لم تتصرف بعقل .. لقد أخطأت عندما اتصلت بك هذا الصباح .. كان يجب عليك أن تطمئنها وتطلب منها مقابلتها وكأنك موافق على الطلاق ..

وتحمست إلهام للفكرة فرفعت صوتها كأنها تصدر إليه تعليمات واجبة النفاذ .

عندما تتصل بك فى المرة القادمة .. قل لها إنك موافق .. حدد لها موعداً فى أى مكان .. وأخبرنى .. وسأذهب إليها .. وسأعيدها لك .

نظر إليها نور الدين بعينيه الزجاجيتين .. ورآها تنفث الدخان فى وجهه . وتبتسم ابتسامة ساخرة وتسأله :

ـ هل مازلت تريدها بعد كل هذا الذى حدث ؟

قال نور الدين :

ـ نعـــــم ..

قالت إلهام :

ـ ألا تخادع .. ألن تحاول الانتقام منها .. إنى أسألك لأنى سأكون مسئولة عنها ..

وإذا بنور الدين ينتفض .كأن معجزة حدثت وحركت روحه ..وإذا بزجاج عينيه يتكسر .. وتتفجر من عينيه دموع وهو يقول :

ـ أنت تعرفين أنها هى التى تنتقم منى .. أنا رجل غلبان ياإلهام ..منذ ماتت المرحومة أمى .. وليس لى أحد فى الدنيا غيرها .. وهى تفعل ما تفعله .. وأنا ساكت وراض بقسمتى .. هذا هو نصيبى .. واللهم لا اعتراض .. وتقولين بعد هذا .. أنى سأنتقم ..

كانت لحظة نادرة فى حياة نور الدين ، لحظة لا يغش فيها ولا يسرق ، ليواجه تعاسة لا يتحملها البشر عادة ، لو كان واجه هذه اللحظة من قبل ، ربما كان قد مات ، وربما كان لم يكن ما هو عليه .

ولم تتمالك إلهام من أن تعطف عليه ، فربتت على كتفه ، وقالت وقد تخلت تماماً عن سخريتها :

ـ وهل تجد زينب من هو أفضل منك ؟

قال نور الدين وهو يبكى :

ـ كل الناس أفضل منى .. إنها معذورة .. أنا لا أستحقها .. ولكنها كل ما بقى لى فى هذه الدنيا .. إنها الشىء الوحيد الجميل فى حياتى .. أنا أحبها ياإلهام .

قالت إلهام :

ـ لو سمعتك زينب فستندم على ما فعلت .. آه من هذه البنت الطائشة ..

قال نور الدين باكياً :

ـ قولى لها إنى سأنفذ كل طلباتها ..كل ما تريده سأقدمه لها .. أى شىء .. أنا عبد لها .. فقط تعود ..

وفى المساء سمع عبد الهادى النجار القصة من نور الدين .. وغضب عبد الهادى ، وتذكر وهو يقول لها فى آخر لقاء بينهما .

ـ أترتكبين حماقة .

وتذكر أنها قالت له إنها تحب الحياة . ماذا تكون قد فعلت هذه المرأة المجنونة .. كان غضبه أكثر لأنه عاجز تماماً عن مجرد التكهن بما فعلته .

ما الذى يمكنها أن تفعله ، أتكون قد هربت مع شاب فى مغامرة طائشة ، لينتهى بها الأمر تتسكع وحدها فى الطرقات كان لا يرى لها مخرجاً آخر غير هذا .. الدنيا لا يحدث فيها إلا مثل هذه النهايات المؤسفة لأمثالها من الحمقى . إنها اندفعت أخيراً فى الطريق الذى لابد أن ينتهى بها إلى بيوت الدعارة ، ليس هناك احتمال آخر .. ولا واحد فى المليون .. ما الذى يمكنها أن تفعله وهى لا تملك مالا ولا عملاً .. ولا شىء غير أنها امرأة جميلة تستثمر جسدها .. الحمقاء .. دمرت نفسها بنفسها ، وهو يلوم نفسه لأنه لم يستطع أن يعلمها كيف تكون ذكية ، كيف تواجه الحياة كما يجب ، إنها تدفع الآن ثمن تمردها عليه ، ورفضها الخضوع له ، ستذوق آلام جهلها وغطرستها الكاذبة . ومع ذلك فهو يشعر بحنين إليها الآن .. هذه الحيوية المتدفقة . هذا المرح الجامح الرائع . هذا التقدير المفرط بالنفس ، كان ينقصه لمسة معلم مثله ، لمسة فيها قليل من الذكاء والمهارة ، وكانت بعدها تتفوق وتأخذ مكانتها فى هذا المجتمع ، وكانت تترك نور الدين الحيوان هذا ، غير هاربة منه إلى المجهول على هذا النحو الأبله .. كانت تتركه باحترام وسطوة ، ولكنها حمقاء ، وقد كان أجدر بها أن تقضى على حياتها وتنتحر . فهذا أكرم لها من أن تنهار وتتحول إلى مصير أسود كمومس رخيصة لا تساوى قلامة ظفر ..

قال عبد الهادى لنور الدين :

ـ لابد أن تجدها .. وسأساعدك ، سأكلفهم فى الجريدة أن يسألوا عنها فى كل مكان فى أقسام البوليس فى المستشفيات فى الفنادق .. إن عندنا مخبرين فى كل مكان .

ثم قال له :

ـ إذا اتصلت بك .. وافقها .. واعرف مكانها .. ثم اخبرنى .. واتركنى أتصرف ..

واجتمع شمل اللاعبين .. وسمعوا القصة من جديد ، ولكنهم انشغلوا عنها باللعب ، وكسب نور الدين بشراهته .. ولم يضبط مرة واحدة وهو يغش . كان متألقاً .. وكانوا يرددون :

ـ تعيش فى الحب .. سعيد فى الحظ .

وفرح بغنائمه حتى أنه قال وهو يمد يده إلى كومة نقود كسبها :

ـ سأطلب منها أن تظل ليلة أخرى بعيدة عن البيت .

وصاحوا فى غيظ :

ـ ياحيوان .

وفى الصباح اتصلت زينب به .. وقال لها :

ـ أنا موافق على الطلاق .. المهم أن نتقابل لاتخاذ الإجراءات .

قالت فى امتنان غريب عليها :

ـ كتر خيرك ..

وحدد لها موعداً فى الخامسة بعد الظهر .. فى جروبى سليمان باشا . ليذهبا معا إلى المأذون .

زينب تتخذ قرارا

كان يوسف فى مكتبه بالجريدة مساء ذلك اليوم يكتب مقاله الأسبوعى فى تحليل السياسة الدولية . كان قد أغلق عليه باب حجرته لأكثر من ساعتين وقد غرق فى موضوع مقاله « الآثار المترتبة على حرب اليمن فى الصراع بين الشرق والغرب » وكان يوسف قد توقف عند خاتمة المقال ، فهاهو قد حدد بدقة خطط القوى الغربية ومصالحها كما تكشف عنها تصريحات ساستهم ودراسات معاهدهم الاستراتيجية ومراكز أبحاثهم . كما حدد بدقة خطط قوى الشرق ومصالحه كما تكشف عنها بيانات وتقارير مؤتمراتهم . ثم وجد نفسه فى حاجة إلى دراسات وإحصائيات تحدد بوضوح مصالح القومية العربية ،

وشعر بأسى لأن هذه المعلومات غير متوافرة . وأنه قد يتورط فى كتابة فقرة عاطفية عن آمال العرب فى الوحدة والقومية الواحدة ، دون أن يؤيد عاطفته بدراسات علمية مقنعة . وخطر له فى لحظة أن يمزق ما كتب من أوراق ، وخطر له أن يقوم بنفسه بالدراسة المطلوبة . ولكنه ابتسم يائساً ، فالمجهود أكبر وأضخم من أن يقوم به فرد . وستنتهى محاولته إلى فشل ذريع ، وسأل نفسه

حائراً ، هل يفهمه دياب إذا شرح له هذا المأزق الذى يتعرض له باستمرار فى كتابة مقالاته ، كثيراً ما قال يوسف لدياب « أنا أكتب فى موضوعات خطيرة ، وليست لدى معلومات كافية ومدروسة دراسة علمية عن مصالحنا إنى أحياناً أشعر وأنا أكتب كأن لحم مخى يتآكل من التفكير بغير معلومات ، وكان دياب يضحك ساخراً من هذا التعبير « لحم مخه » ثم يقول له « عليك بنشرات التنظيم اقرأها » .. فيحتج يوسف قائلاً : « إنها موضوعات إنشاء فى اللغة العربية » وهى تقدم صياغات عامة وعائمة يجد فيها كل إنسان التفسير الذى يرضى هواه فيقطع دياب ضحكته ، ويقول بلهجة جادة :

- هذا يايوسف هو أهم ما يجب أن نتمسك به .. ألا نثير بيننا أسباب خلافات لا مبرر لها .. أنت تريد أن تقفز فوق الواقع الذى نعيشه .. نحن لسنا أمريكا ولا روسيا ، وجمع شمل العرب المتفرقين .. أهم بكثير فى هذه المرحلة من تحديد مصالح تثير صراعات ومشاكل هنا وهناك .

فيقول يوسف :

- لا أريد مشاكل .. أريد دراسات علمية .. أريد أن أعرف الجغرافيا والتاريخ .. أريد أن أجد بين يدى جيولوجيا الأرض العربية .. أريد أن أتخلص من الشعر الذى يطاردنى كلما كتبت عن القضية العربية ..

كان يوسف يستعرض هذه المناقشات عندما دق جرس التليفون ليخرجه مما هو فيه ، وسمع صوتها ، صوت زينب تقول له بلا مقدمات :

- هل أنت عند كلامك ..

وفهم فى الحال ماذا تعنيه ، وقال وقلبه يخفق :

- نعم .. الآن وفى هذه اللحظة أنا مستعد .

قالت له والكلمات تتدفق عبر سماعة التليفون بسرعة غير عادية :

- إذن .. فأنا قادمة إليك .. سأنتهى الليلة من كل شىء .. وانتظرنى

ارتعشت يد يوسف الممسكة بسماعة التليفون .. واجتاحت الرعشة كل جسده . وخفق قلبه وكانت تقول :

ـ لن تذهب هنا أو هناك .

قال وهو يسمع صوتها فى ذهول :

ـ أنا فى انتظارك .. أين أقابلك ؟

قالت :

ـ ليس الآن .. وسأتصل بك مرة أخرى .. هل ستكون فى مكتبك ؟

قال وقد تذكر فجأة :

ـ قد أكون فى اجتماع عند رئيس مجلس الإدارة .. سأنبه على عامل التليفون ليتصل بى هناك .

قالت وفى صوتها ضحكة عصبية :

ـ لقد قررت ألا أنتظر يوماً آخر .

وأردفت تقول فى مرح :

ـ ألست مسروراً منى ؟

قال فى لهفة :

ـ أحبك ..

قالت :

ـ عندما أخبره .. ويتم الطلاق سأتصل بك .. إياك أن تخرج ولا أجدك ..

كانت تتحدث بثقة وبساطة ، حتى أنه لم يجرؤ على سؤالها كيف يتم الطلاق فى الحال . وما كان يعنيه هذا السؤال . فقد انتقلت إليه ثقتها بنفسها ، وهاهى مشاعر حب جامح تملأ قلبه . إنها تناديه ، وتقول له أنا قادمة إليك . قادمة لأعيش معك . وهذا النداء يغمره بمشاعر لا يستطيع أحد وصفها أو تحديدها ، إنه يكبر . إنه يتضخم ، إن كيانه يكاد يملأ الحجرة التى يجلس فيها . وكانت قد أغلقت السماعة وتركته ينظر أمامه فى فضاء الحجرة ، وقد عجز تماماً عن التفكير . حتى انتبه إلى الأوراق التى أمامه ،

وأمسك بالقلم وكتب بسرعة خاتمة المقال . كتب قصيدة شعر عن اليوم الذى سوف تصبح فيه وحدة العرب حقيقة قائمة ، بفضل ما يصنعه جنودنا الأبطال فى اليمن ، فإن فى هذه الأمة العربية إرادة سوف تتفجر فى لحظة مفاجئة لتحقق المعجزة . ودق الجرس ، فجاءه الساعى فناوله المقال ليرسل به إلى المطبعة . ونظر إلى ساعته . كان ما زال على موعد اجتماع دياب أكثر من نصف ساعة ، ولكنه لم يستطع البقاء فنهض ونفسه تحدثه بأنه يريد أن يقول لدياب شيئاً لا يستطيع أن يحدده بعد . وقبل أن يغادر حجرته ، دق جرس التليفون مرة أخرى فوثب إليه وقلبه يتوثب بين ضلوعه . واختطف السماعة وصرخ فى لهفة « ألو » .

وسمع صوت يونس المهندس زوج شقيقته سعاد . كان يسأله :

- مالك تصرخ ياأستاذ يوسف ؟

وتلعثم يوسف ، بينما كان زوج شقيقته يدعوه إلى العشاء مع والدته وبقية شقيقاته وأزواجهن يوم الخميس القادم . عزومة عشاء يدفعونها ضريبة عقب كل شجار حاد ينشب بين يونس وسعاد .

وبغير تفكير وجد يوسف نفسه يقول ليونس :

- أنا سأتزوج يايونس !!

وسمع يوسف عشرات الأسئلة تتدفق عليه ، ثم سمع صوت شقيقته سعاد وقد اختطفت السماعة من زوجها . وهى تسأله فى دهشة :

- هل صحيح أنك ستتزوج ؟

قال يوسف :

- نعم .

- من ؟

قال يوسف ببساطة تشبه الجرأة :

- واحدة أحبها .

ثم إذا بيوسف يقول لسعاد :

ـ أنا فى حاجة إلى شقتك الليلة .. إن ظروف زوجتى « هكذا قال » تضطرها إلى أن تبيت فى مكان غير بيتها .. هل أستطيع أن أعتمد عليك أنت ويونس ؟

قالت سعاد وقد عجزت تماماً عن التفكير :

ـ طبعاً .

قال يوسف :

ـ تذهبين أنت ويونس عند ماما .

قالت سعاد :

ـ طبعاً .

ثم سألته :

ـ وهل ماما تعرف ؟

قال يوسف :

ـ أظـن .

عندما عاد من الأسكندرية بعد أجازة الصيف ، قالت له أمه فجأة ذات مرة وهى تبتسم :

ـ شافوك وأنت مع واحدة فى المنتزة .

فابتسم وضحكت عيناه وسألته أمه :

ـ أهى تلك التى حدثتك فى التليفون فى الليلة إياها ؟

قال بهدوء :

ـ نعـــم .

قالت أمه وكأنها تلقى بنبوءة :

ـ إذن فستتزوجك أنت .

لحظتها ، أطرق يوسف برأسه لا يدرى بماذا يجيب ، ثم رفع رأسه وقال بصوت جاد :

ـ ياريت .

وسكتت أمه ، ولم تعلق بكلمة .

نعم لابد أنها تعرف ، ولن يفاجئها ما ستخبرها به شقيقته سعاد . وسمع يوسف يونس يتحدث معه :

- سأترك لك المفتاح مع عم أحمد البواب .

وقف يوسف فى منتصف حجرته مذهولاً من تعاقب الأحداث ، كأنها معجزات تتوالى ، بلا تدبير .. بلا تخطيط .. وهاهو يمضى فى تورطه الباهر المعجز نحو مبناه الجديد [illegible] المسالك كما تنفتح الأبواب ذات العيون الألكترونية بمجرد اقتراب الداخل منها . وأسرع يوسف الخطى نحو مكتب دياب . الذى استقبله مرحباً بقدومه المبكر . كان اجتماعا خاصاً بالتنظيم السرى ، يضم رؤساء المجموعات ليتسلموا من دياب نشرات التنظيم ويقدموا له تقارير مجموعاتهم . وكان دياب يرى فى علانية هذا الاجتماع أكبر ضمان لسريته . فهذا اللقاء الذى يتم مرة كل شهر من الممكن تفسيره بأنه اجتماع للتحرير ، وخاصة أنه يضم بالفعل حسن زيدان ، ويوسف منصور ورئيس المستخدمين الذى يمكن تبرير وجوده بأنه يقدم المعلومات المطلوبة فى الاجتماع عن المحررين من واقع ملفاتهم ، ومع ذلك فقد كان كل من فى مبنى العصر الجديد ، يعرف أنه اجتماع لما يسمونه التنظيم السرى ، وكان هناك

بين المحررين من يصفه ساخراً باجتماع البهوات أو يصفه باجتماع « التقارير » ولكن المجموعات التى يرأسها حسن ويوسف ورئيس المستخدمين كانت تضم محررين لا يعرف أحد بانضمامهم للتنظيم السرى وكانت مجموعة يوسف لها وضع خاص ، لأنها كانت تضم مجموعة من العمال ، عددهم أربعة من بين عمال المطبعة الذين يزيدون على المائة وخمسين عاملاً . وكان يوسف يلتقى بهم سراً فى بيت واحد منهم فى بولاق ، وكان يحاول أن يبذل جهداً حقيقياً هو الذى تطوع به من أجل أن يدرس لهم مبادىء الثورة ومفهوم الاشتراكية بالنسبة لها . وكان لا ييأس أبداً مما يواجه فى هؤلاء الأربعة من مقاومة تعددت أشكالها واختلفت دوافعها ، أحدهم عباس أبو المعاطى صاحب البيت عامل فى قسم اللينوتيب ، كان يقاوم يوسف ،

باستسلامه المطلق لكل ما يقال ، لا يسأل ولا يناقش ، ويتظاهر بالإنصات الشديد لما يقول يوسف ، وهو أسرعهم جميعاً لترديد الشعارات ، ولكنه كان فى قرارة نفسه ـ هكذا شعر يوسف ـ خائفاً من السلطة التى اختارته فى هذا التنظيم السرى ، وكان يبدو عليه القلق طوال الاجتماع ، فهو قلق أمام أهله وجيرانه لأنه عاجز عن تفسير مجىء هذا الرجل الذى يركب سيارة فولكس ويتركها أمام البيت فى الحارة الضيقة ، وذات مرة عبث أطفال الحارة بإطار السيارة فنام . ومن يومها توسل عباس ليوسف أن يترك سيارته بعيداً عن البيت ، وأشار عليه أن يتركها فى محطة البنزين بالشارع العمومى ، وكان عباس يغطى قلقه بكلمة « حاضر » وزجاجات الكوكاكولا ، التى يحضرها بنفسه ، ويفتحها ويكاد يطلب من يوسف منصور أن يشربها وحده من دون زملائه . أما سيد الحنك العامل فى قسم الطبع التجارى ، فكان شخصية مندفعة ، يزيد من اندفاعها شبابه الذى لم يتجاوز الخامسة والعشرين ، وكان قد تورط فى زواج حب ، وأنجب ثلاثة أطفال ولدين وبنتا ، ولم تورثه كثرة العيال الجبن ، بالعكس ، وجد أن أفضل ما يستطيع أن يواجه به ضائقته المالية ، هو كثرة الشجار ، وتهديد رؤسائه إذا أخروا عنه مكافأة أو عاقبوه على ساعة غياب . وكان اسم سيد مطروحاً للمناقشة فى ذلك الاجتماع الذى دعا إليه دياب . فقد وصل إليه أنه هدد بحرق مبنى العصر الجديد ، إذا لم يحصل على علاوة تساوى العلاوة التى حصل عليها زميل آخر فى نفس القسم ، وكان إبراهيم لطفى الدقاق يمثل نوعاً آخر . فرغم عضويته للتنظيم السياسى ، إلا أنه يتبع فى ولائه المباحث ، وكان يخرج من كل اجتماع ليبلغ عما حدث فيه ، وكان فى نفس الوقت أكثر أعضاء المجموعة إبلاغاً عن المؤامرات التى تتم داخل العصر الجديد وخارجها .. هناك مدير فى المطبعة قبض عمولة من زبون ، أمين المخازن سمح بخروج عربة نقل محملة بورق ساتنيه من المخزن وباعها لتاجر فى الساحل .. وهكذا فى كل اجتماع لابد أن يمد محضر الجلسة بما يملؤه من حوادث وشائعات .. حتى جاء ذات مرة

وطلب أن يسجل فى المحضر ، أن هناك مؤامرة للاعتداء على دياب يدبرها له مدير المطبعة بالاتفاق مع بعض العمال ذكر أسماءهم .. وعندما قرأ دياب المحضر .. قال ليوسف ضاحكاً :

- كلام فارغ .. إنه يؤلف هذه الحكايات .. ليبرر ما يقبضه من المباحث ..

وسأله يوسف على الفور :

- ولماذا نحتفظ بشخص مثله فى تنظيم سياسى ؟

فأجاب دياب ساهماً :

- الله أعلم .

ثم أردف قائلاً :

- هذه هى البداية .. وبكرة تتعدل .

وفى الاجتماع التالى .. قال يوسف لإبراهيم الدقاق :

- لقد علمت أنك تعمل مع المباحث .

ونظر إليه إبراهيم نظرة طويلة باردة وقال :

- أبـــدا !

ثم ارتفع صوته فى هياج .. كان واضحاً أنه مصنوع ، وطالب باثبات هذا الاتهام فى المحضر .. وطالب بالاعتذار عنه .. وأثبت يوسف ما حدث . وانتظر رد الفعل من الجهات التى تصل إليها تقارير مجموعات التنظيم ، ولكنها لاذت بصمت .. وكأنها لم تقرأ شيئاً .. كان سيد الحنك هو الذى تأثر بما سمعه من يوسف .. فعندما انتهى الاجتماع خرج معه وسار فى الطريق بجواره وقال :

- كلامك عن الولد الوسخ هذا .. صحيح .. ولقد قررت أن أضربه .. فتوسل إليه يوسف ألا يفعل .. وبعد ذلك بشهر .. هاج سيد مرة أخرى فى وجه يوسف .. وقال له :

- إما أن تخرج هذا الولد الـ .. من التنظيم أو أقدم استقالتى .

ولكن هاهو سيد الحنك يوشك أن يتلقى قرار فصله من التنظيم قبل أن يقدم استقالته ..

وأخيراً كان رابع الأعضاء حنا منقريوس الذى كان يحاول جاهداً أن يفهم ما يقوله يوسف وكان يقرأ النشرات بعناية وتدقيق فيثير أسئلة لا تنتهى حول كل شىء ثم يأتى إلى الاجتماع ومعه قصاصات من الصحف . ويقول ، ما الفرق بين ما هو مكتوب فى هذه المقالات المنشورة مع كل الناس وبين ما جاء فى هذه النشرات التى تقولون لنا إنها سرية وأنكم ستشنقون من يفشى أسرارها .

ـ أريد أن أفهم .. هل هى سرية والسلام ؟

سأل دياب يوسف :

ـ ما أخبار مجموعتك ؟

وقبل أن يسمع إجابة يوسف . كان دياب يقول :

ـ هذا الولد سيد .. تقرر فصله .

قال يوسف فى دهشة لا تخلو من غضب :

ـ إننا لم نجتمع بعد لبحث الموضوع .

قال دياب فى حسم :

ـ الموضوع لا يحتاج إلى اجتماع .

قال يوسف وقد احتدت لهجته :

ـ إن سيد لا يعنى ما يقوله .. إن لديه طاقة كبيرة ومن الممكن توجيهها لمصلحة البلد .. إنه .. ملىء بالحيوية .. ولكن تنقصه بلا شك التربية السياسية .. ينقصه الوعى . ومن منا لا تنقصه التربية والوعى .. إنه لم يذهب إلى مدارس .. ولكنه زوج وأب مسئول .. وشهم .. ألا تعلم أنه كان يريد الاستقالة من التنظيم ..

صاح دياب :

ـ وتدافع عنه .

صاح يوسف :

ـ إنه إنسان .. إنسان حقيقى وهو أفضل من الدقاق الذى تحتفظون به ..

وأنت تعلم أنه آخر من يصلح للانضمام لتنظيم سياسى . ومع ذلك تتجاهلون أمره وتقررون فصل سيد الحنك .

نظر إليه دياب طويلاً .. ثم قال :

- أنت عصبى أكثر من اللازم يايوسف .. ماذا بك ؟

قال يوسف محاولاً السيطرة على مشاعره :

- إنى أحاول أن أجد منطقاً مقنعاً لما تفعله .. متى ينصلح حال هذا التنظيم ؟

وقطع كلامه .. فقد دخل عليهم حسن زيدان ، الذى بادر يوسف بسؤاله :

- هل انتهيت من مقالك ؟

قالها بلهجة من يتخذ مظهراً رئاسياً على زميل له .. ثم التفت إلى دياب وقال :

- أرجو ألا نتأخر فى هذا الاجتماع فالعمل كثير .

قال دياب فى حماس أثار ابتسامة خفيفة على شفتى حسن لاحظها يوسف فى ضيق :

- وهل هناك ما هو أهم من اجتماعات التنظيم ؟

قال حسن بسخرية لا يحاول إخفاءها وكأنه غير مكترث لحماس دياب ، أو تعود عليه وأيقن بتجربته الطويلة أنه حماس لا يعنى شيئاً خطيراً وراءه :

- والله .. هذه الاجتماعات تضيع الوقت .. وكان من الممكن إنجازها بالتليفون والساعى .. أية توجيهات سيادتك تقولها فى التليفون .. والمنشورات يوزعها الساعى فى ظرف مغلق ونوفر الوقت .

قال دياب :

- وأين الرابطة التى تجمعنا ؟

شعور الجماعة .. شعور الزمالة فى التنظيم ..

قال حسن :

- هاهو يوسف .. زمالتنا لن تتحقق من جديد بهذه الاجتماعات بعد طول العشرة فى الكلية وفى العمل .

قال دياب :

ـ أعنى الزمالة السياسية .. وحدة الفكر .. التقارب بين وجهات النظر .

وهنا دخل رئيس المستخدمين ، رجل بدين له كرش ، وأنفاسه تلهث من وطأة الشحم الذى يجثم على صدره .. ووقف وقد عقد يديه أسفل كرشه ، يكاد يقف على أطراف قدميه أدباً وخوفاً من دياب .. حتى أمره بالجلوس فتقدم وتأخر حتى اطمأن إلى جلوس الجميع ثم جلس على حافة مقعده فى حذر .. وانصرفوا إلى عملهم .. فأمسك رئيس المستخدمين بورقة وقلم ليكتب محضر الجلسة ووزع دياب النشرات .. وجمع التقارير .. وأبلغهم بقرار فصل سيد الحنك من عضوية التنظيم ويوسف صامت شارد .. حتى فوجئوا به يقول وكأنه يخاطب نفسه فى ذهول :

ـ أنا سأتزوج ..

ووجموا ، قبل أن يطلق حسن زيدان ضحكة عالية هاتفاً :

ـ مبروك .. ألف مبروك .. من هى العروس يايوسف ؟

أما دياب فقد قال متهللا بعد أن تخلص من المفاجأة :

ـ إذن فهذا هو سبب انفعالك لقد أدركت من البداية أن فى الأمر سرا .

وفى هذه اللحظة .. دق جرس التليفون ، ولعل يوسف قال ما قاله وقد شعر بقلبه أنها ستتصل به الآن . وقفز من مقعده ليقف بجوار دياب قبل أن يقول له فى دهشة :

ـ هذا التليفون لك .

وصاح حسن :

ـ العروسة ..

بينما كان يوسف يردد فى التليفون :

ـ بعد عشر دقائق .. سأكون هناك ..

صاح حسن :

ـ ألا تخبرنا ؟!

ولكن يوسف لم ينتبه إليه ، وطلب من دياب أن يسمح له بالانصراف .

فنهض دياب ومشى معه حتى الباب ، وقد وضع يده على كتف يوسف فى حنان وقبل أن يغادر يوسف الحجرة ، نظر إليه دياب فى عينيه وعاد يسأله :

- مالك يايوسف ؟

قال يوسف بصوت خفيض حتى لا يسمعه الآخرون :

- هناك مشكلة فى زواجى

قال دياب باهتمام محتفظاً بصوت خفيض مماثل :

- أية مشكلة .. أنا على استعداد لمساعدتك .

همس يوسف :

- إنها متزوجة .

وبدت على دياب الدهشة .. وتراجع بوجهه مصدوماً ، وهمس :

- كيف هذا ؟

قال يوسف :

- سأحكى لك فيما بعد .

قال دياب :

- ولكن لا تتهور .. هذه مسألة خطيرة .. وعضويتك فى التنظيم تفرض عليك مسئوليات أنت لا تجهلها ..

قال يوسف باسماً فى ألم :

- من يدرى .. فقد تفصلوننى مثلما فعلتم بسيد .

رفع دياب صوته محتجاً معاتباً :

- كيف تقول هذا .. مستحيل ..

قال يوسف معتذراً :

- سأتصل بك غداً .

وأسرع خارجاً من مبنى العصر الجديد .

رآها واقفة على الرصيف بجوار محطة بنزين شارع حسن صبرى

بالزمالك .. وبجوارها حقيبة متوسطة .. ولما وقف بسيارته بجـوارها .. ابتسمت له ابتسامة واثقة .. أضفى عليها نور الفلورسنت المنبعث من محطة البنزين . شحوباً وغموضاً .. ووضع حقيبتها فى المقاعد الخلفية ومضى بها .

سألته :

- إلى أين ؟..

قال فى هدوء :

- إلى بيتنا ..

قالت فى دهشة :

- أيـــن ؟!

قال :

- بيت شقيقتى .

فنظرت إليه فى عدم فهم ، لولا أنه أسرع قائلاً :

- تركت لنا هى وزوجها شقتها .

صاحت فى مرح وكأنها تقبلت هدية لا تتوقعها :

- غير معقول !!

قال :

- بل معقول .

سألته فى فضول عابر :

- وماذا قالوا لك ؟

قال متظاهرا هذه المرة بالبساطة ، فقد كانت أعماقه مضطربة إلى أقصى حد ولا تتفق مع هذه البساطة التى يتحدث بها :

- لم يقولوا شيئاً .. قلت لهم زوجتى تريد .

فقاطعته ضاحكة :

- ماذا قلت ؟

عاد يقول :

- قلت زوجتى .

صاحت :

- وهل صدقوك ؟

قال :

- إنهم يعلمون أنى لا أكذب .

قالت فجأة :

- أنا جوعانة .

ثم أردفت بسرعة :

- ولكنى لا أريد أن آكل .

وأوقف سيارته عند بقال اشترى منه بعض المأكولات الخفيفة ولما عاد إليها ، كانت وكأنها قد تغيرت .. فقد التزمت الصمت وكلما حاول أن ينظر إليها فوجىء بصلابة فى عينيها أقرب إلى الجمود أو البلادة .. واكتفى بأن يسألها وهما يهبطان من السيارة أمام باب العمارة :

- ما الذى تفكرين فيه ؟

فلم تجبه .. وسارت بجواره وهو يخطو نحو حجرة البواب .. ويأخذ منه المفتاح ، ثم وهما يصعدان فى المصعد ، حتى وصلا إلى باب الشقة ، ففتحه بينما وقفت هى بلا حراك ، وأضاء النور ، فاستقبلتهما صالة كبيرة ، فى أحد أركانها تليفزيون ، ومقعدان ، وفى ركن آخر مكتبة صغيرة ومائدة عليها مفرش من المشمع وصحن كبير ملىء بموز وبرتقال .. وتحرك يوسف حاملاً حقيبتها إلى حجرة نوم شقيقته .. ولكنها لم تتبعه .. وقفت جامدة على غير ما تعود أن يراها ، حتى عاد إليها وسألها من جديد :

- ما الذى تفكرين فيه .. ألا يعجبك المكان ؟

قالت فى بطء :

لا أفكر فى شىء .

وكان من الصعب أن يتقبل إجابتها . ولكنها قالت فى ثقة لا تخلو من هذا

الجمود الأقرب إلى البلادة .. كانت وكأنها لم تجمع ثيابها فقط فى تلك الحقيبة بل جمعت كل روحها ومشاعرها ووضعتهما مع ملابسها فى الحقيبة .. أما غير ذلك فلم يكن ملكاً لها ولا شأن لها به ، لا ذكريات ، ولا أهل ، ولا زوج . ولا بيت كانت تعيش فيه ، ولا شيء على الإطلاق لقد تخلت عن كل ما كان .. وهى هنا بكل كيانها ، بكل أبعاد جسدها وروحها معا ، وروحها هى جسدها ، هو ذلك الكيان الذى جاءه ولا شىء أبعد منه ، ولا شىء غيره .. إنها فى هذه اللحظة عاجزة عن التفكير فى المستقبل إنها لا تدرى ما الذى قد يحدث فى اللحظة القادمة بل هى لا تدرك أن هناك لحظة قادمة .. الدنيا بأسرها تجمدت فى هذا المشهد الذى تعيشه الآن ..

وكانت فى غاية أناقتها ، أنفقت ولاشك وقتاً لا بأس به فى تسريحة شعرها ، رغم ما فعلته منذ ساعة رغم الشجار مع نور الدين وسكين المطبخ الذى استلته لتقتله به .. لقد تم كل ذلك وهى مستعدة أقصى الاستعداد بأناقتها .. حتى الكورسيه لم تنس أن ترتديه ليضيق خصرها كما يجب ، ويلتف ردفاها كما يجب أن يلتفا .. ولم تنس خطوط العين ومسحة الأحمر على شفتيها .. لم تهمل مانيكير أظافرها لتتوهج بذلك الأحمر القانى والعطر يفوح من كل ثنايا جسدها . أدق التفاصيل فى المكياج والملابس قد اعتنت بها ، فهذا هو الشيء الوحيد الذى تملكه ، وهذا الشيء الوحيد الذى تستطيع أن تحتفظ به .. وماعدا ذلك فهو ليس لها ، ولاقيمة له .

كانت تجلس على المقعد أمام المنضدة التى عليها صحن البرتقال والموز ، وقد أضاف يوسف صحون الجبن والخيار ، وبدا وكأنها تجلس وحدها فى جانب ، ويوسف ومعه العالم كله يجلس على الجانب الآخر قبالتها .. كانت رموش عينيها تنفرج كمروحتين سوداويتين مخملتين ، تنبضان بانطلاقة غير مرئية .. إنها لاتتكلم ولاتسأل ولاتشعر بأدنى قلق ، والخوف بعيد تماما عنها ، إنها كيان من الصعب وصفه ، لامرأة اعتزمت شيئا فى مواجهة حياتها ، وكأن مااعتزمته تفرضه على العالم بأسره .. وكأن هذا العالم مجرد

كيان صغير تفرشه رموش عينيها بسهوله .. كان يوسف يريد أن يعرف ماالذى حدث .. كيف تم الطلاق .. كيف صنعت المعجزة ، ولكن جسدها الجميل يحتفظ بتعبير أصم .. جمال بلا خيال ، يكتفى بذاته ، جمال وحيد غير مهتم ، لايريد أن يشارك ، ولا يريد أن يأخذ أو يعطى .. كان فستانها من الحرير الطبيعى الرمادى انتشرت فيه زخارف ذات درجات من اللون الأحمر والبمبى لورود ضخمة ، زخرفة واضحة ثقيلة تملأ العين ، وتغطى جسدها بعناية ، وتلتف بقوامها فى احترام وعشق للثنيات ولبروز الصدر واستدارة الردفين ، كان الحرير يبدو خاضعا تماما لتأثير نهديها ، وكأنه يفهم بحرارة وذكاء أهمية ذلك الجسد الذى يلتف به .. وكان ذقنها مرتفعا قليلا وكذلك أنفها فى شموخ غير عادى ، وهناك هالة من الضوء تكشف تلك المنطقة بين الذقن والشفتين وطرف الأنف وكأن مخرجا ذا مزاج غريب يوجه الأضواء ويركزها على هذه المنطقة بالذات هل تتكلم .. هل تفصح .. أهى تمثال لجسد . جسد يرمز لمعنى ما .. الشجاعة .. ربما الكبرياء .. ربما الانتقام .. إن يوسف فى عجب من هذا الكيان .. وهذا العجب يشغله أكثر وأكثر .. فيبعده عن تلك الخواطر المزعجة خاصة بالمجتمع خاصة بأمه وشقيقاته ..

خاصة بعمله .. ودياب والتنظيم السياسى .. أشياء خاصة بالمستقبل . ولكن هذا الكيان المستقل القائم بذاته يفرض عليه نسيان كل هذا الذى يجب ألا ينساه .. ورفع يوسف عينيه مرة أخرى إلى وجهها .

وخفق قلبه .. ياإلهى .. إن عينيها قد تخلصتا تماماً من نظرتهما الحزينة .. إن الألم الممض الذى كان فى عينيها ووجهها قد انقشع .. ذلك الألم الفاجع قد تحول إلى صرامة ، أو جمود ، أو بلادة . أو جمال من نوع غريب .. حتى حيويتها قد تحولت إلى نوع .. ماذا يقول .. لعل أقرب وصف له .. أن حيويتها أصبحت رصانة ونبلا .. أو شيئاً من هذا القبيل .

وهمس يوسف .. وكأنه يناجيها :

- هل انتهى كل شىء ؟

قالت :

ـ نعم !

ونهض ، وعبر ذلك البعد الشاسع الذى يفصل بينهما كأنه جبال وبحور عبر امتداد المنضدة .. ومال عليها يقبلها .

قالت وهى تستقبل قبلاته فى اطمئنان وثقة :

ـ ولكنه رفض أن يطلقنى ..





الأنبياء .. والبشر

هل تدرك زينب معنى ما قالته ؟ إنها تتركه يقبلها وهى تقول له ببساطة مفزعة إن نور الدين يرفض الطلاق . أى أن أساس ما يبنيانه يتقوض .

وما يفعلانه الآن يتحول إلى ورطة أخطر وأفدح . تراجع يوسف وهى غير منتبهة إليه ، كانت قد مدت يدها إلى موزة تقشرها وتأكلها . بينما وقف يوسف فى منتصف الصالة ذاهلاً والأفكار تعصف برأسه . أهى جادة فيما أقدمت عليه . أهى مقدرة تماماً لما فعلت وعواقبه . كأنها لا تعرف أن المرأة المتزوجة لا تستطيع أن تترك بيتها وزوجها هكذا ببساطة ، لتذهب إلى بيت آخر ورجل آخر ، ثم تتصرف وكأن هذا البيت الجديد هو بيتها ، وهذا الرجل الآخر هو زوجها ، الأمور لا تستقيم أبداً على هذا النحو . كأن الدنيا التى تعيش فيها ، بلا تقاليد ، بلا قانون بلا آداب بلا قيم .. كأنها وحدها هى صانعة دنياها .

هى ومن بعدها الطوفان ، إن يوسف قد روعه ما سمعه ، إذن فهى لم تطلق بعد ، وهى ما زالت على ذمة نور الدين بهنس وهذا يعنى بكل تأكيد أن هناك مشاكل سوف تثار ، وأن ورطته قد تفاقمت . لقد كان يستمد قوته من قدرته

على أن يتحدث عنها مع شقيقته وزوجها ، ومع دياب أو مع أى شخص آخر ، على أنها زوجته ، وكان قد وثق فى أنها سوف تحصل على الطلاق من نور الدين ، وتأتيه حرة من كل قيد . ولكنها جاءته ومعها نور الدين ، جاءته وهى ما زالت زوجة لرجل آخر . فكيف يقول إنها زوجته ، وهل يقبل أن يقول الآن إنها عشيقته وليست زوجته . وهاهو يشعر بثقل أكتافه ، ويرى وجه أبيه ، لا يراه أبا . ولكن يراه قاضياً ينظر إليه بعينين قاسيتين فيهما إتهام . أنت ياولد مجرم ترتكب فى هذه اللحظة عملاً مشيناً يؤدى بك إلى السجن .

وسمعها تقول :

ـ هذا الموز لذيذ .. لقد أكلت ثلاثة ..

ابتسم ابتسامة واهنة .. وكانت قد نهضت متجهة إلى المطبخ ، وفى يدها قشر الموز .. بينما تدمدم فى رأسه حروف مبهمة .. ألف لام راء .. ألف لام راء .. ألف لام راء .. كانت الحروف تدوى الآن فى رأسه قوية مجلجلة .. وكان يرى نفسه وهو جالس إلى الشيخ رمضان يحفظ سورة يوسف .. « الر .. تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين »

وسمع الشيخ رمضان يقول له : « لقد ذكر الله نبيه عليه الصلاة والسلام فى عشر آيات إن هذه القصة من أخبار الغيب الذى لا يعلمه إلا سبحانه ، ولم يكن ليعلمها صلوات الله عليه ، وما كان ليعلم وقائعها وتفاصيلها قبل أن ينزل عليه الوحى » وانساق يوسف منصور مع أحداث قصة سيدنا يوسف . لقد ذهب يوسف إلى السجن لأن امرأة العزيز راودته عن نفسه ، « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » فجرى يوسف مبتعداً عنها ، واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر . ولما فاجأها الزوج عند الباب . قالت المرأة لزوجها « ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم » وقال يوسف مدافعاً عن نفسه « هى راودتنى عن نفسى » ولما رأى الزوج قميص يوسف وقد تمزق من ظهره علم الحقيقة ، وقال

لزوجته إن كيدكن أيتها النساء عظيم ، واكتفى الزوج بهذا الذى عرفه ، فلم يعاقب زوجته ، وكان كل همه أن يستر الفضيحة ، وألا يعلم الناس أن زوجته أغوت خادمها . حتى أنه التفت إلى يوسف وقال له يايوسف اعرض عن هذا الأمر ، تجاهله واكتمه ولا تذكره لأحد ، ثم التفت مرة أخرى لزوجته وقال لها استغفرى لذنبك فقد ارتكبت الإثم واتهمت غيرك ، ورغم حرص الزوج تسربت الأخبار إلى المدينة وذاعت شائعة تحدثت بها النساء أن امرأة العزيز تغرى

خادمها ، وقالوا إن مسلكها لا يصح وإنها ضلت وأذنبت .. ولكن زوجة العزيز ما كانت لتكترث بما يقولون ، ولم تسمع نصيحة زوجها ، ولم تستغفر لذنبها ، كان الحب قد سيطر عليها وملك شغاف قلبها . كانت لا ترى ولا تسمع ولا تفهم إلا أنها أحبت يوسف .. فلا بيت لها إلا بيت يوسف . ولا رجل لها إلا يوسف إنها أحبته . وهى تريده لابد أن تحصل عليه . فما قيمة الفضيحة ، وما جدوى الشائعة ، بل إنها قادرة على تحدى كل النساء فى المدينة . وهكذا وجهت إليهن الدعوة ، وأعدت لهن الوسائد والنمارق ، ووضعت أمامهن أصناف الطعام ، فلما أمسكن بالسكاكين ليأكلن أمرت يوسف أن يخرج عليهن . فلما رأينه . بهرهن جماله البارع . ونسين أنفسهن وجرت السكاكين التى تقطع الطعام لقطع لحم أيديهن . وهن فى دهشة وذهول ، حتى تعالت صيحاتهن « ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم » وهنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها ، وعرفت أن سلطان حبها كان أقوى من كل الشائعات ، فقالت معقبة على صيحاتهن هذا هو الفتى الذى لمتننى فى أمره ، وتشجعت بانتصارها ، فوضعت تقاليدها الخاصة وآدابها الخاصة وقيمها الخاصة ، وكأن الدنيا ملكها بحبها وبمن تحب ، فأعلنت قانونها جهاراً ..

نعم هذا هو الفتى الذى طلبته لنفسى .. هذا هو الرجل الذى حاولت أن أغويه ، هذا هو من أعشق ولا أعشق سواه ، ثم أضافت فى قوة وحسم . لقد أردت منه أن يستجيب لندائى ، فامتنع ورفض .. وهنا انفجرت النساء محتجات فى وجه يوسف . كيف ترفضها كيف تتمنع عليها . كان الدم ينزف من أيديهن .

والسكاكين ملوثة بدمائهن . ورائحة الدم تزكم أنوفهن ، ورفعت زوجة العزيز صوتها مرة أخرى ، تعلن إنذارها النهائى . أقسم إذا لم يفعل ما طلبته منه ولم يستسلم لغوايتى ليعاقبن بالسجن وليلقين الهوان والذل ، وسمع يوسف تهديدها ، وسمع النساء الأخريات يدعونه إلى التعقل ومطاوعتها ، وصاح يوسف : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » وكان جزاء يوسف أن دخل السجن ، والذى أدخله هو الزوج الذى كان يعلم أنه برىء ، ومع ذلك فضل أن يحفظ زوجته وأن يصونها من إغراء يوسف ، فأرسله إلى الزنزانة زمناً يقصر أو يطول ، حتى تهدأ الشائعات ، وحتى تهدأ زوجته ، وحتى يتخلصون من هذه الورطة التى أثارها يوسف بطهره ونقائه .

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذا جمعوا أمرهم وهم يمكرون . وما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين » .

كان يوسف منصور يرى أحداث سورة يوسف تتوالى على مخيلته فى تتابع سريع خاطف ، وكان قلبه يدق بعنف ، وعقله يفكر محموماً . كأنه فى عجلة من أمره ، يريد أن يخلص إلى نتيجة سريعة يواجه بها ذلك الاتهام الذى يراه فى وجه أبيه الذى كان يقول للشيخ رمضان .. « لا .. لا تشرح له هذه الآيات » .. وكان الشيخ رمضان يجيب « هذا ما فعلته » ثم سمع يوسف الشيخ رمضان يقول « إن الذى أنقذ يوسف من الغواية أن جاءه برهان ربه » . ونحن لا نملك أن نهدى يوسفنا حتى يجيئه برهان ربه .. وكل ما فى يدنا أن نهيئه لاستقبال البرهان . ورأى يوسف والده يضحك .. وارتجف يوسف لما يراه بعيون الذكرى .. كان أبوه يقول للشيخ رمضان : « أشك فى أن برهان ربه سوف يجيئه فى هذه الأيام التى امتلأت بالفساد » ورأى يوسف نفسه وهو يقول لدياب « سأظل أنتظر برهان ربى » وهاهو قد وصل إلى هذه الشقة ومعه زوجة نور الدين ولم ير برهان ربه . هل كان فى حاجة إلى كل هذه التجربة . ليعرف أنه ليس نبياً من الأنبياء ، ليعلم أنه من الغافلين ليعلم أنه من تلك الأكثرية التى حتى لو حرص الرسول على إيمانها ، فهى لن تملك

الإيمان كما يجب أن يكون ، الإيمان الذى ينجيه ، الذى يجعله يستبق الباب ، أو الذى يجعله فى أى موقف من مواقف الحياة قادراً على أن يقول « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » كانت قشعريرة باردة تسرى فى أوصال يوسف ، كانت وحدته مخيفة ، ورؤياه مفزعة ، وإحساسه بالضعف أقصى مما يحتمل البشر . والقاضى الذى كان أباه ما زال يجثم فوق كاهله يوشك أن يحكم عليه حكماً يبعده عن عينيه إلى الأبد . ورأى يوسف زينب وهى تسأله :

ـ أتظل واقفاً هكذا ؟!

وقالت دون أن تنتظر إجابته :

ـ سأغير ملابسى .. وعندما أفرغ سأناديك ..

وتحركت متهجة إلى حجرة النوم ، ولكنها عادت فجأة متهللة الوجه وعيناها مفعمتان بالحب ، وطوقت رقبته بذراعيها ، وهى تنظر فى عينيه بكل ما فى عينيها من حب وحنان ، وقبلته قبلة سريعة ، وهمست :

ـ كم أحبك ..

وسحبت ذراعيها ، وجرت مبتعدة عنه . نعم إنها تحبه ، لاشك إنها تحبه ، وهى على استعداد لمواجهة زوجها ومجتمعها ، إنها على استعداد لأن تفعل أكثر مما فعلت امرأة العزيز ، ولعلها تتوقع من نور الدين بهنس أن يفعل نفس ما فعله ذلك العزيز . لعله يكتفى بستر الفضيحة ، لعله يطلب منها أن تعود وتنسى ما حدث ، ولعلها قادرة على أن تواجه الشائعات .. وما لابد أن تلوكه الألسنة ، ستقول للجميع ، هاهو من أحببته ، هاهو من لمتننى فيه .. الشيء الفاجع أن يوسف الذى واجه هذا الموقف كان نبياً يسنده وحى الله .. أما هو فمجرد إنسان عادى ، فإذا كان يعرف ما الذى يصنعـه الأنبياء ، وهم يصنعونه بوحى من الله ، فما الذى يستطيع أن يفعله إنسان عادى حرمه الله من نعمة وحيه . أية قواعد يتبعها ، أى سلوك يسلكه ، إنه يكاد يسمع الصيحات ترتفع هنا وهناك .. يسمع عبد الهادى يصيح « يوسف الملاك يفعل هذا » يسمع دياب يصيح « يوسف الطيب يفعل هذا » .

إنه يسمع النصائح تلاحقه « يوسف اعرض عن هذا » يوسف لا تتورط . يوسف انج بنفسك . يوسف انقذ نفسك من هذا الذى أنت فيه . وما أغرب هذه الصيحات . إنها تبدو وكأنها صيحات طهر . كأنها بديل لبرهان الرب ، إنها تتمسك بالقيم والأخلاق .. وما أغرب ما يشعر به يوسف فى مواجهتها .. إنها صيحات لا تعنى ما تقول ، إنها صيحات نفاق ، إن عقله يقول له : رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه . إنه يستريب فيما يقولون .. لو رضخ لهم فسيواجه الذل والهوان مع نفسه . ما أشد حيرته ، إن أفكاره أصبحت مشوشة ، وهاهو خاطر بدأ يلح عليه أن يترك لها البيت فى الحال .. وأن يعود إلى بيته وحجرته ، ويعود إلى أمه لعله يسمع منها كلمة ، يكفيه أن يرى نظراتها إليه وما تقول نظراتها . فيقول لها إنها لم تطلق بعد . وإنى أخذتها إلى بيت سعاد وهى ما زالت على ذمة ذلك الرجل الآخر .. لابد أن يفعل شيئاً يواجه به هذا الذى يشعر به .. ولكن كيف يقول لزينب إنه ذاهب إلى حاله .

كيف يتركها وحدها فى هذا البيت الغريب عنها ، كانت الدماء تصعد فوارة إلى رأسه ، وأنفاسه تتلاحق ، وصوته يوشك أن ينطلق صائحاً .. سأتركك الليلة هنا .. لا يصح أن نبقى معا مادمت لم تطلقى بعد . ولكنه قبل أن ينطق رآها أمامه فى قميص نوم أزرق وعلى شفتيها ابتسامتها الواثقة الحنون المستسلمة تدعوه إليها . وتحركت قدماه كالمنوم ولحق بها فى غرفة النوم . وساعدته فى خلع ملابسه وأرقدته إلى جوارها فى السرير وقالت له :

- لاتطفىء النور حتى أنام .

ثم همست :

- احضنى ..

فأحاطها بذراعيه ، وتكوم جسدها بين ضلوعه ، وهمست وهى تنظر فى عينيه تلك النظرة العاشقة ..

- أنا متعبة .. ولكنى لو نمت فى حضنك هكذا حتى الصباح .. فسأرتاح ..

همس يوسف :

ـ أنا معك ياحبيبتى ..

قالت باسمة :

ـ ما هذا الوقار الذى ترسمه على وجهك ؟!

ابتسم وقال :

ـ لابد أنه وقار الأزواج .

قالها وارتجف قلبه . بينما قالت هى فى اطمئنان ودعة :

ـ أتدرى ما الذى كنت أفكر فيه ؟

ـ مـــــاذا ؟

قالت وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة :

ـ لن تضحك منى ؟

قال باسماً :

ـ لن أضحك .

قالت :

ـ إنى أعرف الآن لماذا تنادينى ياكونتيسة ..

قال :

ـ لأنك بالفعل كونتيسه ..

قالت :

ـ أنا أتكلم جادة ..

قال :

ـ عندما كنت جالسة منذ قليل فى الصالة .. كنت تبدين كتمثال لكونتيسه ..

قالت معترضة :

ـ لا .. أنا أعرف السبب .. لأنك تخجل من أن تنادينى باسمى ، لقد اكتشفت الآن فقط .. أنك لم تقل لى مرة واحدة يازينب ..

واحمر وجه يوسف ، فاجأه اكتشافها ، وخيل إليه أنها صادقة فيه ، ومضت زينب تقول :

- والآن يجب أن تتخلص من هذا الخجل .. نادنى باسمى ..

همس :

- زينب .

قالت :

- قلها مرة ثانية وثالثة . أنا لم أسمعها منك بالقدر الكافى ..

رد :

- زينب .. زينب .. زينب ..

وابتسمت .. وقالت :

هكذا تخلصنا من الكونتيسه :

قالتها وكأنها تعنى أن زينب أهم من كل كونتيسات الدنيا .. وابتسمت وأغمضت عينيها ، وبعد قليل كانت قد نامت ، ومد يوسف يده بحذر وأطفأ نور الأباجورة ، وعاد لأفكاره مع الظلام ، وجعل يقول لنفسه ، إنه يجب أن يهدأ ، وأن يسيطر على ما فى رأسه ، وأن يتغلب على هذا الموقف الذى يعيشه الآن ، إن كل لحظة فيه ، هى لحظة جديدة ، قادمة من الغيب ، من أنباء الغيب ، من خواطر وأفكار وانفعالات أعماق الإنسان العادى لا أعماق نبى أو قديس ، أعماق يوسف منصور لا أعماق سيدنا يوسف ابن سيدنا يعقوب ، وهاهو يشعر بألم فى ذراعه التى جعلت منها وسادة لرأسها ، ويود لو يسحب ذراعه ، ولكنه غير قادر على سحبها ، ليته يستطيع أن يفهم نفسه ، وأن يفهم حبه ، لو أن ذراعه لا تؤلمه لاستطاع أن يفكر بوضوح أكثر فى هذا الظلام ، إنها لا تحب الظلام وتفزع منه ، وما أكثر المخاوف التى تعرضت لها ، وما أشد الآلام التى عانت منها ، كم تلقى هذا الجسد الذى يرتاح الآن على ذراعه من طعنات ، لابد أن يواجه الواقع ، لابد أن يفكر فى هدوء وبرود ، ليته يستطيع أن يقفز إلى المستقبل ويرى كيف تكون حياته معها ، ولكنه لا يضمن الغد ، ولقد حجبت عنه كل المعلومات رغم أنها جاءته تدعوه إلى حياة مشتركة بينهما ، وهاهى راقدة بجواره فى حضنه . وهو مأخوذ بهذا الكيان الملتصق به

كأنه مأوى لا غنى عنه ، ومع ذلك يفكر كيف يتخلص منه ، ومـع ذلك لا يستطيع أن يحسم أمر آلام ذراعه التى تشتد فيسحبها من تحت رأسها ، ولكنه قد يفعل فى أية لحظة قادمة . وقد يقرر فى أية لحظة ما هو أهم ، إن هذا الكيان لا صلة له به ، وأن الشىء الوحيد الذى لابد هو فاعله ، هو أن يقول لها عندما يأتى الصباح . اذهبى لحالك .. اذهبى ياكونتيسة .. كان هذا خطأ فى خطأ .. ارجعى إلى نور الدين ، قولى له إنك أمضيت ليلتك فى أى مكان . ربما عند إلهام كمال ، ثم تحملى مسئولية حياتك ، وابعدينى عن هذا الذى لا أفهمه ولا أريد أن أتورط فيه ، ولكن هل من الممكن أن يحدث هذا ، يأتى الصباح ويرى نفسه ويسمعها وهو يواجهها بهذه الكلمات الحاسمة ، هل يجرؤ ؟ ألن تخونه شجاعته ؟ هل هى شجاعة أم جبن أن يواجهها على هذا النحو القاتل ؟ إن أنفاسها هادئة منتظمة وعينيها المغمضتين ستفتحان فى الصباح فيرى فيهما الثقة والحب ، سيرى فيهما الحنان الذى تخلص من كل الحزن وكل الألم ، هل يعيد إلى هاتين العينين حزناً أشد ألماً وأقسى .. مستحيل ، إنه يحبها ، لو هرب منها فسيهرب من نفسه .. نعم .. رب السجن أحب إلى من أن أفعل هذا .. ربما جاء يوم آخر استطاع فيه أن يتخلص منها ، ربما بعد سنة .

أو سنوات ، بعد عشرات أو مئات الآلاف من الكلمات والنظرات المتبادلة بينهما .. بعد عشرات أو مئات الآلاف من الصلات الصغيرة ، من تصرفات الحياة العادية ، عندما تهدأ هذه الأفكار والمشاعر الجامحة . التى تهدر كالعاصفة فتثير فى النفس كل ما له صلة بأسرار الوجود . عندما يناديها مليون مرة يازينب بلا خجل أو شعور بغربة ، أو إحساس بدهشة .

إن قلبه الذى يحبها يقول له ، تخلص منها ؛ قلبه هو الذى يخاف ، أما عقله الذى يفكر به وينصحه بعدم التورط ، هو الذى يقول له : ابق ولا تهرب . العاطفة لا تقنعه بالبقاء . والعقل يكاد يحكم عليه بأن يمضى معها إلى نهاية الشـوط ، وعقله وقلبـه لا يتفقان ، إنهمـا متخاصمـان مع بعضهمـا ، متخاصمان متناقضان كل واحد فى منطقته أو عاطفته .. أهذا هو نسيج حياته

وحده ، أم أن مثل هذا الخصام والتناقض يسيطر على نسيج حياة كل البشر .

إنها لا تبدو كذلك ، لقد نامت ، غير مكترثة بشيء وكأنها وصلت إلى انسجام كامل في قلبها وعقلها ، إنها أقدمت على أكبر مغامرة في حياتها بلا أدنى شعور بالمغامرة ، قذفت بنفسها في أخطر نزواتها ، دون أى أدراك لأنها نزوة أو مخاطرة ، كان كل ما يعنيها قبل أن تنام هو أن تسمعه يناديها باسمها ، وأن يردد زينب ، زينب .. لا تريد منه إلا ترديد اسمها ، وذراعه هذه التي حولتها إلى وسادة تنام عليها ، وهكذا ظلت الهواجس والخواطر تزار في رأس يوسف ، وآلام ذراعه التى تيبست تزيد من حدة توتره حتى نام هو الآخر دون أن يسحب ذراعه من تحت رأسها ، واستيقظ في الصباح ليراها تتحرك بنشاط في الحجرة ، وكانت ترتدى ملابس الخروج .

قالت له :

- لم أعد لك شيئاً للإفطار . قال بغير تفكير :

- نفطر في أى مكان .

قالت بصوت هادىء ليس به ذرة من انفعال :

- اتصلت به .. ورفض الطلاق .

وضحكت وقد بدا الانفعال يظهر في صوتها وقالت :

- يريد منى أن أعود إلى البيت تصور بعد كل هذا .. ويقول لى عودى إلى البيت ..

أوشك أن يقول لها .. وماذا بعد .

ولكنه فضل أن يسكت ، وقد أدهشه أنه عاد إلى تلك الحالة التى لا يهمه فيها السؤال .

حتى قالت له :

- هيا نخرج ..

وذهبا إلى الهرم ، وجلسا في ذلك الكازينو الذى يطل على أبى الهول ، يرقبان السياح فوق الجمال والخيول ، وكأنهما ينعمان بأجازة يتمتعان فيها

بالهدوء وراحة البال ، وكانت زينب هى التى سألت يوسف أن يتصل بالجريدة ليعتذر عن تغيبه وأن يتصل بأمه وشقيقته ، وكان يقول لها إنه سيفعل هذا . ولكنه يتباطأ ، ويمضى فى حديث طويل عن أبى الهول . وعن السياح ، وعن منظر الصحراء . حتى صاحت فيه :

- متى تقوم وتتكلم فى التليفون ؟

فنهض ، وذهب إلى التليفون ، وطلب محررا فى قسم الشئون الخارجية وأبلغه اعتذاره عن الحضور ، كان لا يريد أن يتصل بعبد الهادى أو دياب أو حسن زيدان ، ثم اتصل بأمه التى ما كادت تسمع صوته حتى قالت فى لهفة :

- مبروك يايوسف .

قال لها وألم حاد يشق صدره :

- هناك مشاكل ياماما ..

قالت دون أن تسأله عن طبيعة هذه المشاكل :

- إنى أدعو لكما .. أن يوفقكما الله .. وأن يحميك أنت وهى من كل سوء .

قال لها :

- قد نضطر إلى البقاء فى شقة سعاد بضعة أيام .

قالت أمه :

- اطمئن .

ثم أضافت فى حرارة :

- إذا أردت فتعال هنا .

شعر بعاطفة جامحة نحو أمه ، وتساءل هل تعلم حقيقة الأمر ؟ هل تعلم إنها ما زالت زوجة رجل آخر !.

قال فى هدوء لا يعبر عن مشاعره :

- شكراً لك ياأمى .. ولكننا سنبقى فى شقة سعاد .

وقبل أن يغلق السماعة سمع أمه تهتف بلوعة :

- طمئنى عليك ياابنى ..

قال فى ضيق مفاجىء ، فرض نفسه عليه ، ضيق من نفسه .. ومن هذا المجهول الذى يلاحقه فيجعل أمه تطلب الاطمئنان عليه ، قال :

ـ اطمئنى ..

وعاد إلى زينب بخطوات متمهلة وكان واجماً فنظرت إليه مترددة ، وقد غاب عنها تماماً ما يعانيه وسألته :

ـ هل حدث شىء ؟

فابتسم فجأة ، وضحكت هى لابتسامته . لقد بددت أى خاطر قد يطوف بها . وقال :

ـ قلت لأمى إننا سننتظر فى بيت سعاد حتى تنتهى المشكلة .. إنها تريد أن نذهب إليها . لكنى فضلت البقاء وحدنا ..

قالت زينب بلا تعقيب على ما سمعته :

ـ وماذا قالوا لك فى الجريدة ؟

قال وهو يهز كتفه ، فيطرد أشباح عبد الهادى وحسن ودياب :

ـ لا شىء .. أخبرت أحد المحررين بأنى معتذر اليوم .

وبدا على زينب ، وكأن المشاكل كلها قد انزاحت ، وقالت وكأنها تعلنه بشىء هام غاب عنها أن تقوله من قبل :

ـ آه . نسيت أن أقول لك لقد حلمت هذا الصباح حلماً غريباً .

قال يوسف باسماً :

ـ أنا أفسر الأحلام .

هتفت :

ـ صحيح .. إذن فاسمع ..

وروت له حلمها ، استمع إليه يوسف وقد امتقع وجهه ، كان الحلم يعبر عن آلام تمزق نفسها ، كانت تدمى وتتمزق وهى لا تدرى ، كأن عقلها الباطن يحتج على ما تنعم به الآن من هدوء واستقرار ظاهرى . فيتسرب الألم إليها فى صورة حلم ، ترويه فى دهشة .. وهى لا تدرى أية فاجعة تعبر عنها روايتها .

ذهبا فى ذلك اليوم ، لتناول الغداء فى حلوان ، كانا يبحثان عن الأماكن النائية أوهكذا يفعل يوسف ، وما كانت تسأله ، لماذا الهرم ، أولماذا حلوان . كانت مستسلمة لكل ما يقترحه . مستكينة وديعة لكل ما يطلبه ، حتى الغداء تركته يأمر الجرسون بما يريد . مكتفية بأن تقول :

ـ أى شىء

ورفضت أن تشرب البيرة .. واكتفت بالكازوزة . ثم عادت معه إلى البيت ولازمته حتى صباح اليوم التالى ، وكان يوسف قد استيقظ قبلها ، وذهب إلى الحمام ، وهناك سمع صراخها .

ـ يوسف .. يوسف ..

كانت كمن يستغيث ، وسمعها تجرى وتدق باب الحمام .. حتى اطمأنت إلى وجوده ، وسمعها تقول كطفلة فزعة ، من خلف باب الحمام :

ـ لقد حلمت حلماً مفزعاً .

وخرج لها ، واستمع إليها تروى حلمها ، وهى جالسة فى حضنه ، وكانت خائفة لا تدرى أبسبب الحلم المفزع ، أم لأنها فتحت عينيها فلم تجده إلى جوارها فى السرير .

ونهضت فجأة قائلة :

ـ سأتصل به .. وإذا رفض هذه المرة .. فسأعرف كيف أجبره على الطلاق .

ولم يسألها يوسف كيف تجبره ، وتركها تذهب إلى التليفون وسمعها تتكلم فى لهجة رقيقة . وتشكر محدثها .

ثم سمعها تصرخ مهللة :

ـ خلاص .. خلاص .. وافق على الطلاق .

ونبض قلب يوسف بالفرح ، وجذبها من يدها ودارا حول نفسيهما فى الصالة .. وجذبها من يدها إلى السرير ، وغابا فى حب طويل .

حتى جاء موعد ذهابها للقاء نور الدين فى جروبى سليمان باشا ، وركبت مع يوسف سيارته ، وطلبت منه أن ينتظر داخل السيارة التى أوقفها فى الميدان .. قالت له لا تتحرك من مكانك .. حتى ترانى خارجة معه .. وإذا ابتسمت

فاعرف .. أنى ذاهبة إلى المأذون وانتظرنى أمام مكتبه فى الزمالك .

ولم يطل انتظار يوسف ، فبعد عشر دقائق من دخولها جروبى ، رآها خارجة ، قادمة نحوه . ومعها إلهام كمال ، تردد طويلاً ، قبل أن يهبط من السيارة رأى إلهام تتقدم نحوه باسمة ، وهتفت وهى تصافحه :

- ما هذا الذى فعلتماه

قال يوسف بلهجة متحفظة .

- أرجو أن يكون الموضوع انتهى .

قالت إلهام :

- وهل هذا كلام عقلاء ياأستاذ يوسف .. لقد تدخلت وجئت بنفسى لأمنع الفضيحة .. كان يريد أن يقبض عليها بالبوليس فى جروبى ..

كانت زينب ساهمة ، شاحبة الوجه ، وتتحاشى النظر فى عينى يوسف .. الذى قال لإلهام ورأسه يدور :

- لماذا البوليس .. لقد اتفق مع زينب على الطلاق .

قالت إلهام بلهجة عملية :

- وهل هذا معقول .. أنت رجل عاقل .. ومركزك لا يسمح لك أن تتصرف هكذا .. إنها على ذمته .. والقانون والبوليس والدنيا كلها ستكون ضدك ..

ثم ضحكت ضحكة جافة . وقالت :

- ثق أنى جئت لأساعدكما .. ولن أستريح حتى أحقق لزينب كل ما تريد .

ولفت ذراعها حول كتف زينب وقالت وهى تربت عليها :

- أليس كذلك يا حبيبتى ؟!

ثم مالت على زينب تقبلها وهى تقول بصوت كالفحيح :

- آه يامجنونة .

وعادت توجه كلامها إلى يوسف :

- لقد اتفقت مع زينب أن تأتى معى .. لن تعود إلى زوجها .. وأنا أضمن لك هذا .. ولكنها ستكون معى ، فلا تتعرض هى وأنت للمشاكل .. وسأعمل على

أن يتم الطلاق فى خلال أيام .

كانت لم تكمل ما تريد أن تقوله ، عندما التفت يوسف إلى زينب يسألها :

- ما رأيك يازينب فيما تقول ؟

قالت زينب بصوت ضعيف :

- وهل هناك شيء آخر نستطيع أن نفعله .. إنها تقول إن أشياء فظيعة سوف تحدث لك .

اعترضت إلهام قائلة :

- هو يعلم أكثر منى ما الذى قد يحدث .

فانفجر يوسف ، وهو لا يدرى ما إذا كان يتكلم أو يصرخ أو يتشاجر .. كان مندفعاً فى قوة جامحة مصممة على أن تقضى على أى شيء يقف فى سبيلها .. كان قد مد يده إلى زينب وأمسك بذراعها بقوة .. وهو يقول لإلهام :

- إنها لن تذهب معك .. فهى زوجتى .. وليس لها بيت غير بيتى ..

ونظر فى عينى زينب ، إنه لا يعرف التردد .. بل هو يعرف أكثر أنها حياته ، أنها معركة حياته ، وهو لن يعيش بغيرها وهى لن تعيش بغيره ، تبددت تماماً كل الأوهام أمام خطر تركها له ، وهتف :

- تعالى يازينب .

صاحت إلهام :

- ولكن هذا جنون .

صاح يوسف متحدياً واثقاً من نفسه ، يعلم أنه لو ترك زينب الآن ، فهذه هى نهاية كل شيء :

- نعم نحن مجانين .

وفجأة ابتسمت عينا زينب ، كأنها تفيق من نوم دهمها رغم ما كان يبدو عليها من يقظة .. وهتفت :

- نعم ياإلهام .. سأذهب معه .

وتركا إلهام .. تنظر إليهما فى دهشة ، وغضب ، وركبا السيارة ، التى اندفعت بهما مبتعدة عن ذلك المكان .



صالح الأخرس

صالح الأخرس

سمع صالح الأخرس بهرب زينب الأيوبى مع يوسف منصور فى موقف غريب ، فقد ناداه عبد الهادى النجار ، فدخل عليه ليلبى النداء ، وإذا بعبد الهادى ينظر إليه طويلاً بعينين ساهمتين : ثم يطلب منه أن يغلق الباب عليهما ، وامتثل صالح الأخرس للأمر وهو خالى البال تماماً مما يفكر فيه عبد الهادى .

قال عبد الهادى لساعى مكتبه :

ـ اجلس يا صالح .

فلم يفهم صالح ، وخيل إليه أنه أخطأ السمع ، ولكن عبد الهادى كرر طلبه مشيرا إلى المقعد الجلدى الوثير أمام مكتبه ، نفس المقعد الذى رأى صالح الوزراء وكبار رجال الدولة يجلسون عليه ، ويقدم لهم القهوة ، وهم منصرفون إلى الحديث مع عبد الهادى ، ولم يطل تردد صالح ، فليس من طبعه التردد فجلس فى ثقة ونظر إلى عبد الهادى بعينين قويتين ، لم يضعفهما سنه الكبيرة التى تجاوزت الستين ، بينما كان القلق واضحاً فى عينى عبد الهادى ، الذى شرع يقول بصوت خفيض :

ـ اسمع ياصالح ، هناك مسألة شخصية أريد أن أحدثك فيها ، وأعتقد أنها تهمك لأنك تعرف أصحابها .. ولقد فكرت طويلاً فى هذا الموضوع الذى سأحدثك عنه ، وهتف بى هاتف أنك يا صالح تستطيع أن تفعل شيئاً .. وتنقذ الموقف .

ملأ صالح صدره بالهواء ، واتسعت عيناه بفيض من الحماس والشهامة والاهتمام معلناً بقسمات وجهه أنه على استعداد لأن يفعل كل ما يطلب منه .

وقال بصوت قوى :

ـ سعادتك تأمر ..

قال عبد الهادى وهو محتفظ بصوته الخفيض :

ـ الأمر يحتاج لحكمة رجل عجوز مثلك ياصالح .

قال صالح بسرعة :

ـ خير إن شاء الله .

قال عبد الهادى وقد اتخذ مظهر الحزن والأسى .. بينما عيناه تتفرسان فى وجه صالح ، ليرى أثر ما سيقوله عليه :

ـ إنه يخص إنساناً عزيزاً علىَّ وإنسانة عزيزة عليك .

قال صالح :

ـ أنـــا .

قال عبد الهادى وقد استراح لدهشة صالح :

ـ نعم .. إنه يخص يوسف منصور .. و..

وتعمد عبد الهادى أن يبدو متردداً قبل أن يقول بسرعة :

ـ وابنتك .. أعنى زينب الأيوبى .

تجهم وجه صالح ، وضاقت عيناه .. وانعقد مابين حاجبيه .. ولكنه آثر أن يصمت فى انتظار ما يقول عبد الهادى .. الذى قال وقد زال عنه تردده :

ـ الموضوع شائك وحساس ، والمهم هو أن نمنع الفضيحة .

وهنا صاح صالح بصوت قوى غلبه الانفعال :

ـ أى فضيحة ياأستاذ .

قال عبد الهادى مواجهاً انفعال صالح بما لديه من معلومات :

ـ لقد هربا معا .

فقاطعه صالح بحدة : وقد نسى تماماً أنه يخاطب رئيسه ، وأنه مجرد ساع يخدمه :

ـ مستحيل يا أستاذ .. مستحيل .. زينب مدحت الأيوبى لا تفعل هذا ، قاطعه عبد الهادى :

ـ اهدأ ياصالح .. فليس هذا هو وقت الغضب ..

ولكن صالح لم يعبأ بكلامه . فعيناه تطلقان شرراً ، وصوته يزداد هياجاً ، وهاهو يقول :

ـ إن هذا المكان الفاسد ملىء بالشائعات .. والناس تنهش فيه بعضها بعضاً .. ويقولون أى كلام كنباح الكلاب النجسة .. ولكن من يتحدث منهم عن ابنه مدحت الأيوبى لن أرحمه .. والله سأضربه بنعل حذائى هذا .

كان صالح يتكلم وقد فقد تماماً سيطرته على انفعالاته ، واثقاً تماماً من تلك الإنسانة التى يدافع عنها ، لايشك من يسمعه فى أنه سينفذ تهديده ، حتى ولو كان هذا التنفيذ يقع على عبد الهادى نفسه ، مع ذلك كان عبد الهادى يشعر براحة خفية ، وقد طافت برأسه خيالات غامضة ، يرى فيها هذا الثور العجوز الهائج يمزق يوسف بنعل حذائه أو يسفك دم زينب فى أول فرصة تقع فيها عيناه عليها .

وقال عبد الهادى فى لهجة آمرة مذكرا صالح بالشخص الذى يخاطبه :

ـ اسكت .. واسمع كلامى حتى النهاية .. ثم نفذ ما أقوله لك .. فتراجع صالح أمام لهجة عبد الهادى .. ودمدم :

ـ أنا لا أصدق .. مستحيل ، هذه افتراءات الكلاب فى هذه الجريدة .

قال عبد الهادى بذكاء :

ـ نعم يا صالح .. قد يكون ما تقوله هو الحق .. فأنا مثلك لا أصدق أن يوسف منصور يفعل هذا .. ولما سمعت .. هذه .. هذه الشائعة . قلت نفس

كلامك ، مستحيل أن يفعل يوسف شيئاً مثل هذا .. إنه رجل عاقل وإنسان طيب .. ولا يمكن أن يجازف بسمعته ومركزه وعمله بفضيحة مثل هذه .

صاح صالح بقوة وقد ارتاح لما يقوله عبد الهادى :

- نعم ياأستاذ .. والكلب حسن زيدان هو الذى فعلها وأطلق هذا الكلام الذى سأجعله يندم عليه

قال عبد الهادى فى هدوء :

- أنا أقول عنك إنك رجل عاقل ياصالح .. والعاقل يتصرف بحكمة ولا يتهور ، وإذا ذهبت إلى حسن زيدان الآن وضربته ، فسأكون أنا المسئول .

قاطعه صالح :

- لا ياأستاذ .. أنا المسئول .

قال عبد الهادى محتداً :

- أنا الذى قلت لك .. فأنا المسئول اسكت حتى تسمع منى ما أريده .

فسأله صالح فى عناد :

- أريد أن أعرف منك شيئاً واحداً .. استحلفك بالله أن تقوله لى .. من الذى أخبرك بهذا الكلام القذر .. أليس حسن زيدان .. عدو يوسف الذى يكرهه كما يكره العمى .

قال عبد الهادى مبتسماً ابتسامة ماكرة :

- نعم ياصالح هو الذى أخبرنى .

فصاح صالح :

- وماذا بقى .. حتى أقوم وأنزع لسانه من حلقه وأخرسه إلى يوم القيامة يوم يحاسبه ربه .

قال عبد الهادى آمراً :

- قلت لك اسكت . واسمعنى .. ثم افعل بعد ذلك ما تشاء .. إن كل ما أطلبه منك الآن .. هو إن تذهب إلى يوسف فى بيته .. وتأتى به إلى .

قال صالح فى غير فهم :

- ولماذا لا تطلبه سعادتك بالتليفون .

ـ والله .. حاولت .. فلم يجب أحد .. والأكثر من هذا إن يوسف لم يحضر اليوم إلى الجريدة .. وقالوا إنه اعتذر .. ولكنه لم يعتذر لى .. ولا لأحد أعرفه .

استمع إليه صالح ، وقد بدأت المخاوف تساوره ، ولكنه كان يطردها ، مستعيذاً بالله من الشيطان .. مستعيداً ثقته بأن شيئاً مما يخشاه لم يحدث .

ومضى عبد الهادى يقول :

ـ وبالصدفة .. كان صديقى نور الدين مهدى .. يخاطبنى فى التليفون .. فوجدته مهموماً لأن زوجته خرجت من البيت منذ أول أمس ولم تعد إلى البيت حتى الآن .. وهذا هو ما جعل الفأر يلعب فى عبى .

صاح صالح فى عناد :

ـ أبداً .. مستحيل ..

فأسرع عبد الهادى يقاطعه ..

ـ نعم .. نعم .. ولكن ليطمئن قلبى .. اذهب الآن إلى بيت يوسف واسأل عنه .. وإذا لم تجده اسألهم أين هو .. لنتصل به .. ونكذب هذه الشائعة ..

ثم ضحك فى عصبية وقال :

ـ وبعد ذلك .. لك إن تفعل بحسن زيدان ما تشاء ..

قالها وهو واثق من إن حسن زيدان سوف ينجو هذه المرة من صالح الأخرس وإن هذا الهياج والغضب المحتدمين فى صدر صالح ، سوف ينقضان على يوسف وزينب .. ولكنه كان قبل هذا ، مهتماً بأن يرى يوسف ، ويريد إن يتحدث معه ، وإن ينصحه ، وإن يمنع هذه الحماقة التى يوشك إن يرتكبها أو التى ارتكبها بالفعل .

ولسوف نعود إلى عبد الهادى لنتابع معه أفكاره وتصرفاته ، ولكننا سنمضى الآن مع صالح الأخرس فى تلك المهمة التى انطلق وراءها وهى العثور على يوسف منصور ، واحضاره من حيث يكون ، لإنقاذه وإنقاذ زينب بنت مدحت الأيوبى من هذه الشائعة القذرة التى يلوكها الكلاب .

لقد عرفنا صالح الأخرس فى الفصول الأولى من قصتنا . ومنذ كان يعمل بواباً فى عمارة الحاج رمضان السبع خال زينب . ولا بأس من إن نضيف الآن

بعض ما نعرفه عن شخصية هذا الرجل ، إنه لاشك ذو إرادة قوية . ولكن جهل صاحبها الذى لم يتعلم بطبيعة الحال .. قد حول إرادته إلى ما يشبه العناد . فهو صاحب أحكام على الناس والمواقف ، ومتى اتخذ هذه الأحكام فمن الصعب إن نتصور عدوله عنها يوما ما . إلا إذا حدث ما يشبه المعجزة . ومن ذلك حكمه على مدحت الأيوبى .. الذى كان يعامل صالح البواب بترفع وعزوف طبيعيين . فما كان لهذا الرجل التركى إن يتصور أى نوع من الرابطة الإنسانية تجمعه بعم صالح ، بل لعله كان يعامل أمثال عم صالح كمخلوقات غير آدمية .. وهو يعاملها على هذا النحو .. بغير تعمد أو وعى منه . وقد رفض عم صالح هذه المعاملة بفطرته ، فانفجر يوما ما فى مدحت الأيوبى - وهو ما سبق إن ذكرناه - وقال له إنه إذا كان يظن نفسه « بيه » فهو « بيه » على نفسه . وإنه لا عظيم إلا الله ، وما كان عم صالح ليغير حكمه هذا . لولا تلك المعجزة ، التى جعلت مدحت الأيوبى وهو على فراش الموت ينادى عم صالح ويطلب منه الاقتراب من سريره . ثم ينهال « البيه » على رأس « البواب » تقبيلاً ، معتذراً له . طالبا منه إن يستغفر له فى صلواته ليلقى الله كعبد من عباده ، فى تلك اللحظة انكسر عناد عم صالح ، وتفجرت الدموع من عينيه . وقد رأى فى اعتذار مدحت الأيوبى . علامة من علامات وجود الله ، وهو ما زال يتذكر كلمات ذلك الرجل التركى وهو فى فراش موته ، يوصيه بابنته زينب .. اسمع ياصالح .. لقد ناديتك .. لأنى خشيت إن أموت وأنت غاضب منى .. وقلت إن غضبك قد يجعلك تسىء إلى ابنتى .. فهل أطمئن الآن عليها .. أنت لن تخدمنى ياصالح إلا فى زينب .. وبكى صالح ووعد الرجل وهو يموت إنه سيضع ابنته فى عينيه ، ولن يمسها أحد بسوء .. وكان واحدا من المواقف النادرة فى حياة صالح الأخرس ، التى رأى فيها قوة الله جل جلاله ، وهى تتجلى ، وهى تخاطبه ، وهى توصيه ، وهى تفرض عليه إن يغير أحكامه التى اتخذها على أحد البشر ، أما إذا لم تظهر لصالح الأخرس علامة من السماء ، فهو عنيد متشدد الرأى ، يواصل عناده إلى أقصى حد ، ويمضى إلى ما يراه الحق بلا التواء .. ودون النظر إلى العقبات فهو لا يراها ، ولا يصدق

وجودها ، إنه أحياناً يتصرف كمن يصر على نطح رأسه فى حائط صلب ، دون إن يساوره أدنى شك فى إن الحائط هو الذى لابد إن يتحطم لا رأسه ، والغريب إن عم صالح رغم عناده لم يتحطم أبدا ، ربما لأنه مع كل عناده ، وغضباته المتعددة ، كان يؤمن إيماناً حقيقياً بأنه لا يفعل ما يفعله ، وأن الله هو الذى يحركه ويوجهه أينما شاء ، حتى لو ثار وغضب ، فهو فى قرارة نفسه غير غاضب ، ولكن الله هو الغاضب ، والواحد منا مجرد عبد بلا حول ولا قوة ، فالحول والقوة بالله ، الواحد منا مهما كان الأمر غير قادر على إن يغضب من أحد ، بل الله وحده هو الذى يغضب عليه أو لا يغضب ، وعم صالح رجل شريف ، بالمعنى البلدى للكلمة ، شرف واضح بسيط خالى تماماً من تعقيد الفكر . كان الحاج رمضان يعتمد عليه ويثق فيه ثقة مطلقة ، رغم إنه لا يثق فى أحد آخر حتى نفسه ، وهو يعرف الواجب ، ولكنه بعيد تماماً عن ذلك النوع المثقف من الرجال ، الذى يقول لك بملء فمه « إن الواجب مقدس » فلا قداسة عند عم صالح إلا الله . إرادته وحدها هى المقدسة ، أما الواجب فهو بالنسبة لعم صالح عمل يؤديه من أجل المحبة ، من أجل الرجولة ، أو الأخوة . أو الأبوة . وفى كل هذه الأحوال . قد تقتضى الرجولة أو الأبوة أو غيرها ، إن تضرب بالواجب عرض الحائط ، لأنه فى ميزان قيم عم صالح . الأبوة أهم من الواجب ، والمحبة بين البشر .. أعظم شأناً من أى واجب يؤديه على حسابها .

ولذلك لم يشعر صالح بوخز ضمير وهو يترك خدمة الحاج رمضان .. ولم يشعر بأنه مقيد أمامه بواجب مقدس يفرض عليه إن يظل فى خدمته حتى يموت ، وهو فى نفس الوقت لم يفكر فى الأجر الضئيل الذى كان يتقاضاه من الحاج ، وإنه سوف يحصل على أجر أكبر عندما يبحث عن عمل آخر ، ولقد كان راضياً بأنه يحصل على أجره فى مواعيده المنتظمة أولّ الشهر ، عندما كان يمر على السكان ويجمع أجرة الشهر منهم . فكان يسلمها ويأخذ أجره من الحاج فى الحال . بلا مماطلة أو تسويف ، وكان راضياً بصحن الفول . وخمسة أرغفة من الخبز والبصل والفجل والكرات والشاى . وبما قد ترسله له زوجتا الحاج

من « غموس » فى المناسبات .. ولولا ذلك الهاتف الذى جاءه فى المنام ، لما ترك الحاج ، فقد رأى ذلك الملك الجميل فى ملابسه البيضاء الذى قال له قم يا عم صالح واذهب إلى عملك ، فانصاع للهاتف . ثم رأى زيارة زينب الصغيرة له ، علامة أخرى من السماء على نحو ما سبق ذكره فى فصل متقدم من قصتنا .

ومع ذلك ظل عم صالح واثقاً من نفوذه ، سواء على الحاج رمضان أو على شقيقته خديجة السبع ، وكان يعرف مواطن ضعفهما ، وكان يستشعر ما فيهما من خبث أو شر . وهو الذى لا يعرف الخبث ولا الشر فى نفسه ، فكان يقبلهما كما خلقهما الله . فهذه إرادته وحكمته ، ولقد انقذ الحاج رمضان فيما مضى من ورطات كثيرة ، عندما كان يتشاجر مع المستأجرين . ويكون هو المخطىء . وهو مرتكب الحماقة ، ويكاد الأمر يتطور إلى تدخل البوليس ، وأحياناً إلى تدبير اعتداء على الحاج ، لولا عم صالح ، الذى كان يعرف كيف يهدىء النفوس . وكيف يفرض على الحاج إن يرضخ لما هو حق وعدل ، كذلك كانت علاقة عم صالح فيما بعد بعبد الهادى النجار ، الذى بهره ما يقدم عليه عم صالح من مواجهات للوزراء والكبارات الذين يزورونه . وعبد الهادى لا يعلم إن صالح سمع من الهاتف الذى جاءه فى المنام « .. عملك هناك واذهب إليه .. إنه ينتظرك وستكون النقود كثيرة بين يديك .. وستقابل الحكام فتقول لهم كل ما تريده والذى لا يعجبك منهم اطرده من بيتك ..» وقال عم صالح للملك الهاتف « أين أذهب ..» فغضب منه وقال له لا تسأل فأنت تعرف الجواب .. وهكذا عندما وجد عم صالح نفسه يستقبل الحكام ويقدم لهم القهوة فى مكتب عبد الهادى النجار ، قال إن هذا هو كلام الهاتف يتحقق ، فانبرى يحاسب الرجال حساباً عسيراً ، ولكنهم قابلوه كمخلوق طريف ، ومن بينهم من نفر منه ، ونصح عبد الهادى بأن يتخلص منه ، ومع مضى الوقت استطاع عم صالح إن يفسر ما قاله له الهاتف ، بأن كل من لا يرضى عنه من هؤلاء الحكام الذين يزورون عبد الهادى ، سوف تدور بهم الدوائر يوما ما ، إنها لابد أن تدور ، وإنه لن يطردهم بأية قوة أخرى . غير قوة التمنى والدعاء ،

وكان عبد الهادى يتباهى بصالح ، ولكنه أحياناً كان يخاف منه ، وهو خوف مبهم ، فما معنى إن يخاف رجل قوى مثل عبد الهادى النجار من ساعى مكتبه ، إنه نوع من الخوف لم يواجهه عبد الهادى أبداً ، لأنه ما تصور لحظة إنه فى حاجة إلى هذه المواجهة ، ولكنه كان يستشعر فى عم صالح إنه أقوى مما يبدو ، ومع ذلك ما قيمة هذه القوة مهما كانت بالنسبة لعبد الهادى . ولكنه فكر فيها عندما قرر إن يناديه ليطلب منه إن يبحث له عن يوسف منصور ، وكان صادقاً عندما قال لصالح إن هاتفاً هتف به إن يلجأ إليه ، فقد هبطت عليه الفكرة فيما هو أشبه بالوحى ، وكان لا يستطيع إن يعقلها بمنطق معين .

ولكنه تقبلها كما يتقبل المتلقى قصيدة شعر جيدة ، إن يواجه صالح الأخرس بيوسف منصور وزينب الأيوبى ويرى ما يكون ، ولعل أحد أسباب ذلك الخوف المبهم الذى استشعره عبد الهادى النجار من عم صالح ، إنه كان واثقاً إنه رجل لا يعرف الخوف ، وهذا صحيح ، فقد تخلص صالح من الخوف نهائياً منذ زمن بعيد فى أعقاب حادث أشبه بالأسطورة ، وكان وقتها صالح الأخرس شاباً لم يتجاوز العشرين من عمره ، عندما قبضوا عليه فى قريته بالصعيد باسم السلطة ، وأخذه الإنجليز مع حشود أخرى من الفلاحين إلى المعارك الدائرة فى فلسطين أيام الحرب العالمية الأولى ، وصالح لا يعرف إنه كان فى فلسطين ، ولا يعرف حول ماذا كانت الحرب تدور ، وكان عدوه الذى يراه هو « السرجنت الإنجليزى » والجنود الإنجليز الذين يسوقونهم بالسونكى لتمهيد الأرض فى الصحراء ، تحت وابل الرصاص والقنابل ، وذات ليلة كان صالح مكلفاً بحراسة مسافة من شريط سكة حديد فى الصحراء وأغلب الظن إنها كانت فى سيناء ، وكان واقفاً وسط الليل وحده فى ظلام بلا قمر ولا نجوم ، عندما رأى المارد أمامه ، أسود طويلاً قبيحاً مفزعاً ، وتشبث صالح بعامود خشبى قريب منه ، وظل ملتصقاً به وهو يرتجف ، والعرق البارد يتسرب من ظهره ، وظل هكذا حتى ذهبت الرجفة ، وذهب العرق ، بل وذهبت روحه ، فلم يعد يحس بشىء كأنه قطعة أخرى من الخشب ملتصقة بخشب

العامود ، كم طال هذا الحال ، إنه لا يدرى ، ولكنه على أية حال قدره فيما بعد بأكثر من ثمانى ساعات ، كأنها ثمانية دهور ، فقد طلع عليه الصبح وهو لا يعرف إنه صبح ، ولم يفق حتى استدارت الشمس وصوبت أشعتها فى عينيه ، فانتبه إلى إنه واقف يحدق فيها ، وتذكر المارد ، وكأنه شاهده منذ لحظة ، وتلفت حوله فلم ير مخلوقاً يستنجد به ، أو ينتشله من هذا الالتصاق الذى يربطه بالعامود الخشبى ، حتى سقط ونام مكانه ، ثم نهض وقد ذهب عنه الرعب تماماً ، لقد عرف الخوف كله ، وشربه حتى الثمالة ، ولم يبق فى قدرته إن يخاف بعد ذلك ، استنفد فى ذلك الحادث كل طاقته على الخوف وأفرغها ولم يعد هناك من مزيد ، ومن يومها وعم صالح « البواب » يفسر نحافته بالمارد الذى رآه . ويفسر ذلك الشعر الأبيض فى فودية بالمارد الذى رآه ، وهو أيضاً يسخر من كل خوف ، ومن كل حديث فيه ذعر يرويه أحد أمامه ، لأن ما يسمعه ، لا يقارن بما عرفه ، وهكذا قامت ثقته على جذور عميقة من تجربة الخوف الذى لا مثيل لها ، وكان عبد الهادى فى الأوقات التى تشتد به الأزمات ، يجد نفسه مدفوعاً أحياناً إلى التفكير بغير سبب واضح فى صالح الأخرس ، وكان مجرد إدراكه لأنه واقف وراء الباب كفيلاً بأن يبعث فى نفسه شعوراً بالراحة ، وأحياناً كان يدخل عليه صالح بالقهوة أو بأوراق ، فيستوقفه ويقول له ، « انتظر يا صالح » فهناك شيء أريده منك .. ويقف صالح فى الانتظار ، حتى يكتشف عبد الهادى إنه لا يريد شيئاً ، فيصرفه ، ويخرج صالح من الحجرة ، بينما يتهم عبد الهادى نفسه بالسرحان ، أو بأن مشاغله قد أربكت تفكيره ، وهو لا يدرى ، إنه على غير وعى منه ، كان يطلب من صالح البقاء لمجرد إن يراه ، وإن يتفحص وجهه ، وربما يسمع صوته ، ولأنه على غير وعى منه كان يجد بعض الراحة بعد إن يفعل هذا ، وهى تلك الراحة التى تجعله قادراً على اتهام نفسه بالارتباك فى التفكير أو بالسرحان بسبب ما يواجه من أزمات وصعاب .

وكان عم صالح لا يتكلم كثيراً ولكنه لا يترك فى النفس الشعور بأنه رجل

صامت أو مبهم ، إن حضوره واضح ، وعينيه واضحتان ، وصوته واضح ، ولعل هذا هو ما يغنيه عن الكلام ، فإذا تكلم خرج صوته رصيناً حتى وهو غاضب ، وكان بعض الوزراء الذين واجههم فى أمور التموين أو المعارك مع الإنجليز .. وكل المعارك فى نظره . كانت مع الإنجليز ، كانوا يقولون بعد انصرافه لعبد الهادى ، خذوا الحكمة من أفواه السعاة ، فكان يقول لهم ، إنه رجل نادر [illegible] كل السعاة ، [illegible] الوزراء [illegible] استقى أفكار مقاله من صالح الأخرس ، ولكنه كان يدلى بمثل هذه الاعترافات فيما يشبه الدعابة التى تثير الابتسام ، والتى قد يفسرها البعض على أنها ليست مدحاً فى صالح الأخرس بقدرما هى سخرية بالمحررين الذين لا يعرفون كيف يقدمون الأفكار الصالحة فيما يكتبون للجريدة ، ومن الأشياء التى لم يتحدث عنها صالح أبدا ، حياته الخاصة ، فهو لم يذكر أبدا زوجته التى هجرها بقريته فى قنا ، وكان قد تزوجها عقب عودته من السلطة وأنجبت له عيالاً كثيرين ، وذات يوم استيقظوا فى الصباح ولم يجدوه ، وكان قد « هج » إلى بحرى ، وتذكر خديجة السبع قبل زواجها ، زيارة « مسعدة » زوجة صالح ، فقد جاءته من بلادها ، وكانوا يجلسونها بينهم ويتفرجون عليها ، ويضحكون من لهجتها ومما ترويه ، وكان من أعجب ما روته لهم الأسلوب الذى تم به ختانها ومما ترويه ، فقد قطعوا كل شىء ، ولم يصدقوها وأرادت خديجة أن تكشفها لترى ما فعلوه بها ، لولا أن « مسعدة » خجلت وتمنعت ، وقضت شهرين ثم مرضت ، وعادت إلى قريتها ولم يعد أحد يسمع عنها ، حتى أخبر صالح الحاج ذات يوم أن ابنه الأكبر محمود قد جاء من البلد ، وأنه يبحث عن عمل ، واستطاع الحاج أن يتوسط له حتى اشتغل فى أحد البنوك بالأسكندرية ، واختفى من حياة أبيه ، لولا خطابات متفرقة على مر الأعوام ، يحتار صالح فى البحث عمن يقرأها له ، أو من يكتب له الرد عليها ، وصالح لا يعبر أبداً عن مشاعره نحو أهله وعياله ، فلا أحد يعلم إذا ما كان يحبهم أم لا ، ولعل صالح يرى أن السؤال فى غير محله ، فالبشر جميعاً بما فيهم أولاده أبناء الله ، وهو أيضاً لله الذى يملك الأرض والبشر ، وما هناك من صلة بين أب وابنه أو أخ

وأخيه . أوزوج وزوجه ، إلا عن طريق الله ومن خلاله ، ولذلك فقد كانت صلة صالح بالحاج رمضان وبخديجة السبع وزينب وصلته فيما بعد بعبد الهادى النجار أقرب وأوثق من صلته بأهله ، ولا ننسى عندما أرادت خديجة أن تنتحر أنه هو الذى أنقذها من الانتحار ومنعها من قذف نفسها من حالق ، ولقد رأى صالح أن الله هو الذى أرسله فى تلك اللحظة ليمنعها من الموت ، لأن أجلها ما زال فيه بقية من عمر ، فهو ليس صاحب فضل وما كان أكثر من أداة فى يد قدرة الله ، ومثل هذه النظرة إلى العلاقات بالبشر ، التى تجعل المحبة والعشرة والصداقة والأبوة وغيرها من خلال الله ، تربك كل من يتعامل معه عم صالح ، فهم جميعاً رغم ما يزعمونه لأنفسهم من تدين لا يفهمون هذه النظرية ، ولا يقبلونها ، وصالح لا يتشكك فى تدينهم ، أو هو لا يثير هذه التساؤلات فى نفسه ، فقد تكون بعض أعمال خديجة لا ترضى الله ، وكذلك عبد الهادى النجار أو غيره ولكن لله فى ذلك حكمة ، وقصة سيدنا الخضر وردت فى القرآن وهى معروفة ، وأعماله الغريبة أو التى كانت تبدو كالجرائم كانت لها حكمتها التى جهلها البشر ويعلمها الله وحده ، فلكل شيء حكمته ، والشر الذى يحدث قد يكون وراءه خير ، والخير الذى يتم قد يكون وراءه شر ، فلا بأس إذا كانوا يواجهون صالح بالشر أو بالنكران وتجاهل ما قدم من خدمات ، لا بأس أن تنسى خديجة السبع أن صالح هو الذى أنقذها من الموت ، وأن تعامله بقسوة بعد أن أصبحت زوجة « البيه » التركى ، فكل هذا له حكمته التى قد يجهلها البشر ، ولا يعلمها إلا الله شخص واحد هو الذى عامله صالح الأخرس على أنه شر مطلق ليس فيه من الله شيء ، ولكنه شر خالص للشيطان ، وهو حسن زيدان ، ولعل هذا هو الاستثناء الذى يثبت القاعدة التى يتخذها صالح فى علاقاته بالناس .

إن الكاتب يعتذر للقارىء فقد أطال بعض الشيء فى الحديث عن صالح الأخرس ، هذا البواب والساعى ، وابتعد به بذلك عن الأحداث فعذرا .

وعذرا مضاعفاً لمن يأنفون من حديث السعاة والبوابين .

قابلت أم يوسف صالح الأخرس ، وقالت له ببشاشة وبلا تردد :
يوسف فى بيت شقيقته منذ يومين .

قال لها صالح :

ـ هناك عمل ضرورى فى الجريدة يطلبونه من أجله .

فأعطته العنوان ، ووصفت له البيت فى الدقى ، وانصرف صالح ، كانت الساعة السابعة مساء ، بعد مرور ساعتين على لقاء إلهام كمال بزينب ويوسف فى ميدان سليمان باشا ، وكانت إلهام الغاضبة قد تحركت بسرعة على نحو ما سنعرف فيما بعد ، فاتصلت بحسن زيدان ، وأخبرته بما فعله صديقه الذى جاء به إلى بيتها فى يوم من الأيام ، وتحرك حسن زيدان ، كالمحموم ، وهكذا عرف دياب وعرف عبد الهادى الذى فكر فى إرسال صالح الأخرس وراء الهاربين .

ذهب صالح إلى العمارة التى حصل على عنوانها من أم يوسف وسأل عنه فعلم من البواب ، أنه فعلاً يقيم فى شقة شقيقته مع « واحدة ست » ربما هى زوجته ، منذ يومين ، استمع إليه صالح فى هدوء وهو يكظم غضبه وانفعالاته غضبه من محدثه ، لا من زينب أو يوسف ، كان مازال عنيداً فى مشاعره ، يرفض أن يفهم ما يسمع .. ومازال واثقا أن زينب لا تفعل ما يقولونه .. وأن يوسف لا يفعل ما يقولونه .. قال له البواب إنهما خرجا قبل الخامسة ، وأنه لا يعرف متى يعودان .. قال صالح بصوت قوى رصين :

ـ سأجلس هنا معك وانتظرهما .

وتشبث صالح بعناده ، فرفض الشكوك التى كانت تحاول أن تساوره ، كان يطردها كما يطرد المرء الذباب من على وجهه ، ولم يحاول أن يتدبر أمره ، أو يعد نفسه لما قد يراه ، كان انتظاره صامتاً واثقاً ، ومضت أكثر من ساعة ، وهو يستمع إلى ثرثرة البواب عن أحواله وأحوال الدنيا ، فانصرف صالح إلى ما يسمعه حتى نسى تماماً ما كان قد جاء إليه ، ولم يبق فى نفسه سوى توقع عام ، إنه فى انتظار يوسف وتلك المرأة التى معه ، دون أن يحدد إذا ما كانت

وهاهو يوسف ، وتهلل وجهه ، وأقبل عليهما يحييهما بلهفة وحرارة ، وهما ينظران إليه فى وجوم سرعان ما تحول إلى دهشة وارتباك .

كان صالح يهتف فيهما :

- أين أنت يابنتى ؟.. أين أنت ياأستاذ يوسف .. لقد انتظرتك أكثر من ساعة . والجميع قلقون عليك .

قالها ، وكأنه هو غير قلق ، وكأن ما يراه لا يغضبه . ولم يكن غاضباً بالفعل .

وتمتم يوسف فى ارتباك :

- ما الذى حدث ياعم صالح ؟

قال صالح بصوته القوى :

- لا شىء .. خير بإذن الله .

وعاد ينظر إلى زينب فى حنان ، كان يراها ما زالت طفلة ، وكان متشبثاً فى عناده الأعمى ، بأنها لم ترتكب شيئاً ، كل همه فى هذه اللحظة ، أن يساعدها ، وأن يخدمها ، وأن يضعها فى عينيه كما وعد المرحوم أباها وهو فى فراش الموت .

قالت زينب فى ارتباك لا يخلو من فرحة :

- كنت أفكر فيك ياعم صالح .. كنت أريد أن أقول لك ..

قال صالح بسرعة :

- لا تقولى شيئاً الآن ..

ثم أردف بلهجة تكاد أن تكون آمرة :

- ألا نصعد إلى الشقة ونتكلم .

فتحركا وهو يتبعهما ، وقد غرق فجأة فى صمت طويل .

كان قد بدأ يدرك أنهما هربا بالفعل ، وأن ما سمعه من عبد الهادى النجار صحيح ، فهى تركت زوجها ، وهاهى مع يوسف منصور ، ولكنه غير قادر على

اتهام زينب أو اتهام يوسف . فرغم ما يراه ما زال يتمسك بأنهما لم يفعلا شيئاً لابد أنهما على حق فيما يفعلانه ، إن حبه لزينب يمنعه من الاتهام ، وهو يطرد تلك الهواجس التى تلح عليه لأنها وسوسة شيطان له حيله الغريبة فى تشويه الحقائق ، وفى تلويث الخواطر ، هذان الطفلان لابد من إنقاذهما من هذا الشيطان الذى يهاجمهما ، وهو كفيل بذلك . وقبل أن تغادر زينب المصيعد ، التقت عيناها بعينى صالح .. وانهمرت من عينيها الدموع .

هتف صالح فى جزع :

ـ مالك ياابنتى ؟

فقالت زينب :

ـ لا أريد أن أعود إلى نور الدين .

وسمعها يوسف ، وكان قد سبقهما إلى باب الشقة يفتحه ، فقال بسرعة :

ـ لكنك لن تعودى .

وتمتم صالح :

ـ ادخلا أولاً .. ادخلا ..

ودخلوا ثلاثتهم الشقة .. وماكاد يغلق عليهم الباب .. حتى قال صالح موجهاً الحديث إلى زينب :

ـ ماذا تريدين ياابنتى ؟

قالت زينب :

ـ أريد أن يطلقنى نور الدين .

قال صالح بصوت قاطع :

ـ سيطلقك ..

والتفت إلى يوسف يسأله :

ـ وأنت ياابنى ؟

قال يوسف قبل أن يكمل صالح سؤاله :

ـ سأتزوجها ..

قال صالح :

ـ على سنة الله ورسوله ؟

قال يوسف :

ـ على سنة الله ورسوله ..

قال صالح ليوسف :

ـ أنت تعنى ما تقوله ؟..

قال يوسف باسماً :

ـ نعم ياعم صالح .

فالتفت صالح إلى زينب وسألها :

ـ وأنت ياابنتي تريدين الزواج منه .

قالت زينب :

ـ نعم ياعم صالح .

قال صالح مؤكداً :

ـ إذا كان هذا هوما تريدان فلابد أن يتحقق بإذن الله ..كانا ينظران إليه فى انبهار .. وكأن عم صالح شخصية قادرة صاحبة قوى هائلة . وكانت تحمل إليهما معانى كثيرة .. أن الدنيا ما زالت بخير .. أن نفوس البشر ما زالت قادرة على الفهم .. أن القلوب تستطيع أن تلتقى ..ليس فى كل العيون المحيطة بهما شر .. أن الصدق الذى تمسكا به ، وتمسكا به وحده فى مواجهة كل ما قد يوجهه إليهما الناس من ضربات ، يجد من يفهمه ويؤيده . إن تلك المخاوف التى أثارتها مقابلتهما لإلهام كمال ، ليست من الخطورة بحيث يكون عدم الاهتمام بها ضرباً من الجنون .. إن عم صالح يعيد إليهما وجودهما . وحقهما فى الحياة .

كان صالح يقول لزينب :

ـ ستأتى معى ياابنتى .

قالت زينب فى دهشة :

ـ إلى أين ؟

صاح صالح :

ـ إلى بيتك .. إلى بيت أبيك .

قالت زينب مترددة :

ـ ولكن أمى ..

قاطعها صالح :

ـ وهل تمنعك من بيت أبيك ؟

قال زينب متشككة :

ـ ستقول لى عودى إلى نور الدين ..

صاح صالح :

ـ أبـــداً ..

ثم أردف يقول بصوته القوى الواضح وهو يلوح بذراعه :

ـ أمك هذه .. أمسكتها بذراعى هذه حتى لا تقذف بنفسها من السطوح .. لأنها كانت لا تريد الزواج من رجل غير أبيك .. أنا أعرف كيف أخاطبها .. فلا تخافى وادخلى بيتك .. لأنك صاحبته .. وهناك فى بيتك يتم كل شىء وأنت عزيزة مكرمة .

والتفت صالح إلى يوسف وقال له :

ـ الا توافقنى ياأستاذ على أن هذا هو ما يجب أن تفعله .

قال يوسف فى ثقة :

ـ نعم ياعم صالح ..

وابتسمت زينب .. كأنها كانت تتمنى أن يحدث هذا .. وقالت لصالح بصوت خفيض :

ـ لن تتركنى يا عم صالح ..

قال صالح فى حنان :

ـ أبداً .. لن أتركك .. ولن يمس أحد شعرة منك بسوء .. اطمئنى ياابنتى .. وهيا بنا ..

وحمل صالح حقيبتها ، وأراد يوسف أن يهبط معهما . وأن يأخذهما معه فى عربته .. ولكن صالح رفض فى حزم وقال له :

ـ إلى هنا .. وتتركها معى .. وبعد ذلك يتمم الله كل شىء بخير أما أنت فاتصل بالأستاذ عبد الهادى .. لأنه يريدك الآن ..

وأخذ عم صالح زينب معه وذهب ..

المدافعون عن الفضيلة

كان دياب يتفحص وجه حسن زيدان فى ريبة وحذر ، بينما انطلق حسن يروى تلك القصة الغريبة التى سمعها عن هرب يوسف منصور مع إحدى السيدات المتزوجات ، وكان أول ما تبادر لذهن دياب أنها وشاية رخيصة من حسن ، يجب أن يواجهها بما تستحق من ردع حاسم ، وهكذا قاطع دياب محدثه قائلاً فى ضيق واضح :

- أنا لا أسمح لك ياحسن بأن تتحدث عن زميل لك بمثل هذا الكلام .

ووجم حسن ، الذى فاجأته كلمات دياب ، فهو لا يكذب ، ولا يختلق شائعة ، وما يقوله الآن لدياب ، سيصبح حقيقة معروفة ، بل فضيحة بعد يوم أو يومين وربما ساعة أو ساعتين .

قال حسن مدافعاً عن نفسه :

- ولكن ما أقوله لسيادتك هو الحقيقة ، ولقد أسرعت بها إليك ولم أخبر بها أحداً غيرك لتسرع بعمل شىء ينقذ يوسف منصور من هذه الحماقة .. إنه قبل أى شىء زميل لى فى التنظيم ..

قال دياب متجاهلاً إصرار حسن زيدان على أنه صادق فيما يقول :

- أنا أعرف كل شىء ياحسن والمسألة بسيطة .. ولقد سبق وحدثنى يوسف عنها .. ولو كان فعل ما تقوله لما كان طلب نصيحتى .

ورفع دياب صوته موجهاً الاتهام لحسن زيدان :

- أنت الذى تريد الفضيحة لزميلك .. وهذا عيب فيك ياحسن زيدان لابد من تقويمه .. حاول أن نسيطر على هذا العيب ..

صاح حسن فزعاً :

- ولكنك تظلمنى .

فواجهه دياب بقوة :

- أنا لا أظلمك .. أنت الذى تظلم نفسك بهذه المحاولات الساذجة التى لا أدرى ما الذى تفيده منها .

صاح حسن يائساً والدموع تكاد تنفجر غيظاً من عينيه :

- قل عنى ما تشاء .. اتهمنى بأشنع التهم .. ولكنى هذه المرة لا أكذب .. ولا أطلق الشائعات .. ولو كان هذا ما أريد ما تصرفت على هذا النحو .. ما كنت جئت إليك فى السر .. كنت أطلقت شائعتى بين المحررين وتركتها تصل إليك .. صدقنى .. أنا هذه المرة أسعى للخير .. حقيقة أنا أفعل ذلك .. لقد سمعت الخبر بالتليفون ..

فقاطعه دياب :

- من الذى قال لك ؟

- واحدة اسمها إلهام كمال .. كانت راقصة مشهورة .

كان حسن يفكر فى ذلك المشهد فى بيت إلهام الذى رأى فيه شقيق دياب وهو جالس معها فى صالة بيتها .. واندفع حسن قائلاً :

- وأظن سيادتك تعرفها وتستطيع أن تتصل بها .

ردد دياب الاسم محاولاً التذكر .

- إلهام كمال .

وقرر حسن ألا يسمح له بأن يتجاهل معرفته بها ، فقال بسرعة :

ـ لقد رأيت شقيق سيادتك عندها ذات مرة .

ـ شقيقى .. من .. مصطفى .. أم كمال

صاح حسن .

ـ أعتقد أنه كمال بك .. الذى كان فى الكويت

ولاذ دياب بصمت مفاجىء ، وقد رأى أن يمنح نفسه بعض الوقت ليراجع أفكاره .. ثم قال بصوت بارد .

ـ على أية حال .. أقول لك بوضوح .. اخرج أنت من هذا الموضوع .

قال حسن فى ألم :

ـ وهل دخلت فيه حتى أخرج منه .

فرفع دياب صوته قائلاً بلهجة من يفهم كل شىء ، الواثق من كل شىء .

ـ لا تلعب بزميلك .. قلت اخرج منها .

قال حسن مستسلماً :

ـ حاضر .. أقسم لك أنى كنت أقوم بواجب تنظيمى يفرض على أن أبلغك بأمر خطير يمس أحد أعضاء التنظيم ..

واستأذن فى الانصراف ، وغادر مكتب دياب ، وهو ينتفض من غيظ يكتمه ، وخوف يجتاحه ، كان يشعر أنه أهين إهانة بالغة ، لا فى كرامته ، ولكن فيما هو أهم ، أهين فى ذكائه ، وفى قدرته على التعامل وفهم النفوس لقد صدق بالفعل فى أنه لم ينقل الخبر لأحد ، وأسرع إلى دياب بمجرد أن أنهت إلهام مكالمة التليفون ، فكر لحظة واحدة فى أن يتصل بعبد الهادى أولاً ، ولكنه طرد الخاطر بسرعة ، لأنه أدرك أن عبد الهادى سيحتكر الخبر ، وسيصول ويجول به ويحرمه هو من أن يتألق بما حصل عليه من معلومات هامة تمس أحد الرجال البارزين فى العصر الجديد ، ثم أنه خشى أن يلومه دياب لأنه لم يتصل به أولاً ، ولكن هاهو يدرك الآن مدى خطئه الذى وقع فيه ، لقد تسرع واندفع ، فبدا وكأنه واش يكذب ، وهو الذى لو أراد ، لاستطاع أن

يجعل وشايته تنطلى على دياب وعشرة من أمثال دياب ، ومع ذلك ، فلن يدوم هذا الموقف ، وسرعان ما سيعرف دياب أنه ظلمه ، وأن كل حرف قاله كان حقيقة لاشك فيها ، هكذا كان يفكر حسن زيدان وهو يدخل مندفعاً على عبد الهادى النجار فى مكتبه ، ويصيح فيه وقد انفجر غيظاً :

- لا تشتمنى أنت الآخر .. وتقول إنى جئت لك واشيا .. أطلق الشائعات ..

ابتسم عبد الهادى متوقعا خبرا مثيراً .. وقال :

- هات ما عندك ..

- إن رئيس مجلس إدارتنا إنسان لا يحتمل .. أقول له خبرا صحيحاً مائة فى المائة .. فيقول لى هذه وشاية ..

فاستعجله عبد الهادى فى اهتمام :

- ما الخبر ..

قال حسن :

- عدنى أولاً أنك لن تفعل مثله .

قال عبد الهادى باسماً فى سخرية :

- أعدك .

قال حسن :

- الموضوع يتعلق بيوسف منصور .. لقد هرب مع زوجة صديقك نور الدين بهنس ..

وجمد وجه عبد الهادى ، كأنه يقاوم لطمة كان يستعد لها دون أن يدرى من أين تجىء .

ومضى حسن يقول :

- صديقتها .. أو معلمتها .. هى التى قالت لى الخبر فى التليفون .. وقد فهمت منها أن الموضوع سيتطور إلى فضيحة .. وبوليس .. لابد أن يحدث هذا ما دام السيد دياب قد صمم على أن هذه وشاية وأكاذيب يخترعها حسن زيدان لإرضاء مزاجه الشرير .. سيضيع الوقت ويذهب يوسف فى شربة ماء .

قال عبد الهادى بصوت لم يدرك حسن مدى ما يحمله من ألم :

ـ أنا أصدقك .. لقد هربت بالفعل ..

نظر إليه حسن فى دهشة وسأله :

ـ أكنت تعرف .

قال عبد الهادى فى أسى :

ـ لم يخطر ببالى أنها هربت معه .

فهتف حسن :

ـ الحمد لله .. أخيراً وجدت من يصدقنى .

قال عبد الهادى بسرعة :

ـ ليست هذه المشكلة .. أنت على حق .. يجب أن نفعل شيئاً .

فصاح حسن مستنكراً :

ـ أنا .. لقد تلقيت أمراً حاسماً من السيد رئيس مجلس الإدارة بأن أخرج من هذا الموضوع .

قال عبد الهادى مهموماً :

ـ وما شأنك أنت .. لعلها مسئوليتى أنا .. هل قالت لك إلهام أين هما .

قال حسن :

ـ لا .. إنها لا تعرف مكانهما .. ولكنها قابلتهما منذ ساعة ونصحتهما وقالت لهما إن هذا جنون .. فقال لها يوسف متحدياً .. إنهما فعلاً مجنونان .. وأخذ زينب معه فى عربته واختفيا ..

كان عبد الهادى يقاوم اضطرابه ، وقد اختلطت فى رأسه ذكريات كثيرة لعلاقته بزينب . وهو يراها لأول مرة ، وهو يعترف لها بحبه ، وهى تضحك غير مكترثة به ، وهى تحنو عليه عندما يفشل لقاؤهما الجسدى ، وهو يعرض عليها الزواج فترفضه ، وهى حامل منه ، وهى تجهض الحمل .. وهى خارجة إليه فى ساعات الصباح بينما هو واقف مع يوسف أمام بيتها .. لم تكن مشاعره فى تلك اللحظة حبا خالصاً لها ، أو حسرة خالصة على ضياعها ، فقد

اختلط الحب بالكراهية . واختلطت الحسرة بالشماتة ، وهو فى كل الأحوال يعانى من ألم دفين ، كامن فى مكان ما فى صدره ، ليته يشعر بوخزه ، أو بما يفصح عنه ، ولكنه ألم يمزقه ، دون أن يوجعه ، يفتك به كأنه مشرط فى يد جراح مجنون يعبث بجسد واقع تحت تأثير البنج ، وصاحب الجسد يرى ويعى ما يحدث له ، وهو عاجز عن إطلاق صرخة ألم .

قال حسن زيدان فجأة وقد تملكه ما يشبه الذعر :

- أنا لن أخرج من هذا الموضوع بسبب دياب أو لأنك تقول لى ما شأنك به .. أنا أخرج منه لأن يوسف منصور الذى أقدم على هذا العمل إنسان خطير .. وأعترف لك بأنى أول مرة فى حياتى أشعر بخوف حقيقى منه .

صاح عبد الهادى فى ضيق :

- لا تكن مغفلاً .. إن ما أقدم عليه بلاهة فاقت كل الحدود .

فهتف حسن منفعلاً :

- لا .. إنه يحتمى وراء هذه البلاهة إنك توافقنى على ذلك .

فخفض عبد الهادى عينيه حتى لا تلتقيان بعينى حسن زيدان .. إنه لا يستطيع أن يجادله فيما يقول . كل ما فى الأمر إنه يرفض سماعه ، يرفض فهمه .

ومضى حسن قائلاً :

- يجب أن أكون منطقياً مع نفسى طالما قلت لنفسى إن الأشرار فى هذا العالم هم الذين يفوزون فيه وهاهو شرير فاق كل الأشرار .

وزادت حدة انفعال حسن وهو يقول لعبد الهادى :

- هل هناك شخص طعنك بخيانة أقسي من هذه .. ألم يكن يعرف صلتك بها .. فهل أخبرك بشىء مما كان يدبره .. ألم تقل لى منذ لحظة إنه لم يخطر ببالك أنه يقدم على هذه الفعلة ..

كان من المستحيل أن يتحمل عبد الهادى هذه الكلمات ، كان من

المستحيل أن يترك المشرط المجنون يمزقه ، وهو يتأمله فى استسلام ، لابد أن يقاوم ، لابد أن يصرخ .

وصاح عبد الهادى :

- كف عن هذا الكلام الفارغ ياحسن .. ولا تتكلم كلام النسوان .. إن امرأة مثلها أو ألف امرأة مثلها لا يفسدن ما بين رجلين من صداقة .. قلت لك أنا المسئول . وإذا كان يوسف قد تورط فى شىء .. فبسببى أنا . إنه خام غشيم ، وقع على أسنانه عند أول مغامرة يتعرض لها .. والذنب ليس ذنبه ، إنها هى التى لعبت به ، وكلها أيام وسوف تتركه لغيره .. بعد أن تلحق به الفضيحة ويجد نفسه مطروداً فى الشارع .. إن ما رويته لى عن دياب يخيفنى .. فهذا الرجل سيصعقه أن يدرك الحقيقة .. وهو لن يتردد فى إيذائه .. ولذلك لابد أن أعمل بسرعة .

كان عبد الهادى يسترجع قواه مع كل كلمة يقولها . هاهو يطرق الباب الذى يخرجه من أزمته ، أن يتخذ دور المنقذ ، دور العاقل الحكيم الذى يرشد ابنه الضال إلى السبيل الصحيح . الإنسان ذى القلب الذى يمنع كارثة تحطم مستقبل ربيبه ، ولكن حسن كان غير مستعد لتقمص هذا الدور الذى يؤديه عبد الهادى ، إنه واثق أن عبد الهادى لا يعنى حرفاً واحداً مما يقول ، وأنه منذ هذه اللحظة ، سوف يعلن حرباً لا هوادة فيها على يوسف ، وأنه يكرهه كمالم يكره أحداً فى حياته ، ورغم أن هذا يسعد حسن زيدان ، أو على الأصح كان يسعده منذ ساعات قليلة ، إلا أنه الآن خائف ، يريد أن ينجو بنفسه من هذا الصراع الذى سينشب حتماً بين عبد الهادى ويوسف الشرير .

قال حسن مضطرباً :

- لا تلدغ ياأستاذ من جحر مرتين ..

فنظر إليه عبد الهادى نظرة طويلة قاسية وقال :

- حسن .. اخرج منها كما قال لك دياب ..

لم يشعر حسن بالخوف كما شعر به بعد أن نطق عبد الهادى بهذه

الكلمات ، لقد دعمت يقينه بأنه أمام حالة أقوى وأخطر منه ، إن الرجلين اللذين تحدث معهما عن يوسف ، يفوران بمشاعر حادة ، توشك أن تنقض عليه هو .

وهمس حسن وقد شحب وجهه :

- أقسم لك بشرف .. أني منذ هذه اللحظة .. لا شأن لي بشيء .. فأنا لم أسمع ولم أر ولم أقل شيئاً .

وخرج حسن من حجرة عبد الهادي ، وكأنه ينجو بنفسه من خطر داهم ، وذهب إلى صالة التحرير يشرف على عمل المحررين ، ولكنه كان عصبياً حاد المزاج ، حتى سمعه من حوله يقول إنه يشعر بمغص ، وذهب إلى دورة المياه الملحقة بمكتبه ، وأغلق على نفسه الباب ، وبه رغبة محمومة فى أن يرى وجهه فى المرآة ، حدق فى وجهه وهمس « ماذا بك ياحسن زيدان ما الذى يخيفك .. ما الذى يزعجك .. ما هذا الخطر الذى تشعر به .. أجننت يـاحسن .. لا خطر هناك على الإطلاق ، إنهم سيطردون يوسف ، فما الذى يزعجك أو يخيفك فى ذلك .. أهى تلك الصدمة الغبية التى صدمك بها دياب ، أهو توقعك لشر يقدم عليه عبد الهادى يضرب به يوسف ، ولكنه يضربك معه من باب التلذذ بضرب الناس » وهـز حسن رأسه بحـدة ، ورأى وجهه وعينيـه مضطربتين .. وهمس لنفسه .. أكثر ما يخيفنى ، هو أن يوسف سخر من كل القيم والتقاليد التى علمنا عبد الهادى كيف نتمسك بها لنسخر منها ، يوسف لم يسخر منها فقط ، بل ضرب بها عرض الحائط .. وإذا لم يحل به العقاب فسوف يكشفنا جميعاً .. كان وجه حسن يتقلص فى المرآة . وقد اتقد ذكاؤه ، وأصبح حادا شديد المضاء . إن يوسف سوف يتزوجها ، إنه يرتكب المعصية الاجتماعية الخطيرة ، ليقتل المعصية ، وهى أيضاً تفر من زوجها وتخونه الخيانة الأخيرة لتقضى على الخيانة الزوجية ، اللهم رحماك إنى افهم الكثير ، وأرى بوضوح ما لا يراه الآخرون ، إن يوسف لا يأخذها كما أردت أنا أن آخذها ، وهو يواجه فى سبيل ذلك ما أعجز أنا ويعجز الآخرون عن عمله ..

إنه يتفوق على أنا الذى كنت على استعداد للانتحار لو تأخر ترتيبى عن الأول ، إنه يرتكب الشر ببراعة معجزة ، ويرتكبه بنبل وجلال ، لابد أن أسلم بهذه الحقيقة ، لابد أن أواجهها وأعترف بها الآن أمامك ياحسن زيدان لتعلم مقدار تفاهتك وضياعك فى هذه الدنيا ، لقد انتصر يوسف عليك ياحسن ، ألم تدبر أن تسحبه إلى بيت إلهام لتراه مبتذلاً وضيعاً ، هاهو يقتحم الابتذال بجسارة ويحوله إلى زواج ، يفعلها وهو يقول لإلهام نعم نحن مجانين .. هكذا ببساطة ، تلك البساطة التى هزمت عبد الهادى ، وجعلته يتخذ هذا الدور الهزلى ، دور الأب الذى يحافظ على حياة ولده ويرعى مستقبله ، لقد قتلك يوسف ياأستاذ ، فعل ما لم أستطع أن أفعله لأتحرر منك ، ربنا يحميك يايوسف .. سوف أحترمك فى السر .. سوف أجعل منك رمزاً لكل ما هو باهر وعظيم فى الحياة ، ولن تعرف هذا يايوسف طوال حياتك .. حتى لو فضحوك وطردوك وأهانوك .. ستظل شهيداً عظيماً ، كما أراك بكل وضوح فى هذه اللحظة .. ولكنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً .. إن ما أبقى عبد الهادى النجار فى مكانه .. هو إدراكه بسر اللعبة .. إن كل هذه القيم التى يتشدقون بها مجرد أقنعة تخفى فراغاً وجهلاً وضياعاً .. أقنعة براقة لمضمون فاسد .. سيصرخون وسيبحثون وسينصحون . ولكن فى النهاية لا شىء .. لا شىء على الإطلاق .. اختبىء ياحسن زيدان ، وارقب ما سيجرى من الأحداث ، ولسوف تتحقق نبوءتك ، آه .. إن ما يخيفك ياحسن هو أنك ضعت مع الضياع ، واكتشفت أن هناك طريقاً آخر عرفه ذلك العبقرى يوسف ، ولم تفهمه أنت ولم تدرك وجوده ، فعندما كشفه لك يوسف كان قد فات الآوان ..

فى ذلك الوقت كان عبد الهادى قد نادى صالح الأخرس ليتحدث معه فى أمر يوسف ، أما دياب فكان قد اندفع فى طريق آخر أدى به إلى تلك الأزمة الفاجعة والتى كانت سبباً مباشراً فى القضاء على معنوياته مما أثر على صحته وأدى به إلى ترك عمله فى العصر الجديد ، ولقد بدأت بوادر هذه الفاجعة بخاطر تسرب إلى رأس دياب بعد حديث حسن زيدان إليه ، وذكره لإلهام كمال وأن شقيقه

يتردد عليها ، كان خاطراً بسيطاً ومعقولاً ، وقد نفذه دياب فى الحال ، فرفع سماعة التليفون .. واتصل بصديق مسئول كبير فى المخابرات وسأله دياب :

ـ ما معلوماتك عن إلهام كمال ؟

قال رجل المخابرات :

ـ ما الذى تطلبه بالضبط ياأحمد ؟

قال دياب :

ـ إن نائب رئيس التحرير عندى واسمه يوسف منصور متورط فى موضوع قد يتحول إلى فضيحة .. يقال إنه هرب مع سيدة متزوجة ، وإنها على صلة بإلهام كمال .. ثم أن هناك شيئاً آخر .. هل لهذه المرأة صلة بشقيقى كمال .. ثم استدرك دياب فى شبه اعتذار :

ـ أنا لا أريد منك أسراراً .. كل ما يهمنى هو أن أطمئن على تصرفات شقيقى ..

قال رجل المخابرات فى هدوء :

ـ لا أظن أن فى الأمر شيئاً له أهمية .. فكمال أعقل منى ومنك ، أما بالنسبة للموضوع الآخر فامهلنى بعض الوقت وسوف أتصل بك .

ولكن الرجل لم يتصل بدياب ، الذى انشغل بأمور أخرى ، حتى كانت الساعة العاشرة والنصف مساء ، وعبد الهادى يجلس معه فى مكتبه يتحدثان فى شئون العمل ، وقد تعمد كل منهما الا يذكر للآخر شيئاً عن يوسف منصور وما سمعاه من حسن زيدان وإذا بهما يريان أمامهما يوسف منصور ، رآه عبد الهادى فجأة ، بوجهه الشاحب أبيض البشرة ، ينظر إليه بوجه طفل تطل منه عينان فيهما صفاء غريب ، خيل إلى عبد الهادى إنه يحلم بوجود هذا الشاب كأنه لا يعرفه ، نفس إحساسه عندما رآه لأول مرة يدخل عليه فى مكتبه منذ حوالى خمسة عشر عاماً ، هذا هو ما تذكره عبد الهادى ، ورآه بعينى الذكرى قبل أن يراه فى الواقع .. فى ذلك الزمن البعيد ، عندما دخل يوسف عليه تهلل وجه عبد الهادى ، وهتف مرحباً فى ود حقيقى .. أهلاً .. أنت الذى

أرسلك مدكور باشا تفضل إنى استبشر بك ولا تسألنى عن السبب .. كانت صورة المشهد ما زالت محفورة فى رأسه ، والكلمات التى نطق بها ما زالت تدوى فى أعماقه .. كل ما حدث بينهما بتفاصيله فى ذلك اللقاء يمر الآن أمام عينيه حتى إنه لم يتمالك نفسه ، فأعاد المشهد كأنه مدفوع إلى ذلك بقوى أكبر منه ، فإذا به يهتف :

ـ أهلاً .. أهلاً .. كم استبشر برؤيتك .. ولا تسألنى عن السبب .. كانت كلماته غريبة .. وصوته غريباً ، كأنه يحلم وهو يقظان .. بينما قال دياب :

ـ ومن لا يستبشر بيوسف .. ما أخبارك .. اجلس وقل لنا ماذا فعلت .

قال يوسف بعد أن جلس وأطرق برأسه برهة ثم رفعها مواجهاً دياب :

ـ ما زلت فى مشكلة زواجى ..

صاح دياب معابثاً :

ـ لقد أخبرتنى بهذا الموضوع بسرعة .. وتركتنى ..

وإذا بعبد الهادى ينهض فجأة . محتقن الوجه قائلاً :

ـ أترككما .. فلدى موعد .

ثم أضاف بصوت غلبه الانفعال :

ـ ياسيد دياب .. يوسف هذا ابنى .. ولو هناك أية مشكلة فأنا على استعداد لتذليلها على الفور ..

قال كلماته وهو يتحاشى النظر إلى يوسف الذى قال فيما يكاد يكون براءة تامة :

ـ المشكلة محصورة فى طلاقها ..

فتجهم وجه عبد الهادى ، وقد زاد احتقانه ، وأضاف إلى تجهمه دهشة مفتعلة كأنه لا يعلم شيئاً عما يتحدث عنه يوسف وسأل :

ـ طلاق من ؟

قال يوسف باسماً فى خجل :

ـ طلاقها من نور الدين .

فردد عبد الهادى ببطء وقد زادت دهشته :

- نور الدين .. نور الدين .. أتعنى ..

ثم بدا وكأنه فهم فصاح متقناً دوره فى براعة ممثل قدير :

- أتعنى هذا الزوج .. هو .. آه .

وأطلق ضحكة عالية .

- هذا موضوع بسيط للغاية . إنه لا يحتاج إلى أى انزعاج . لا مشكلة ولا يحزنون .. سأنتهى منه هذه الليلة ..

ففتح يوسف فمه يريد أن يقول شيئاً ، ولكنه عجز عن الكلام ، فقد تضاربت الكلمات فى رأسه .. لا أرجوك لا تتدخل .. أشكرك هذا جميل .. لا أنساه .. لا أظن أنك ستفعل هذا .. إنى غير مستريح لضحكتك ..

بينما قال عبد الهادى وهو يغادر الحجرة :

- لا داعى للارتباك يايوسف . اطمئن .. هذه الليلة تحصلان على ما تريدان .

استمع إليه يوسف فى ضيق ، وارتاح لخروجه ، بينما عاد دياب يسأل :

ما الحكاية بالضبط ؟

قال يوسف بسرعة :

- زوجتى متزوجة .

وأدرك غرابة كلماته ، فسكت ، بينما قال دياب ضاحكاً :

ما هذا الكلام .

قال يوسف فى إصرار :

- إنها زوجتى ..

فسأله دياب بسرعة :

- أين هى الآن ؟

قال يوسف بغير تردد

- معى ..

صاح دياب منفعلاً :

- هربت معك ..

وأكمل فى حدة :

- زوجة نور الدين بهنس هربت معك .. هذا جنون .. أنت لا تعلم ماذا تفعل يايوسف .. إن ما يقوله عبد الهادى تخريف .. لا طلاق .. ولا زواج .. قبل أن تغادر الحجرة .. سوف أجعلك تنسى كل شىء عن هذا الموضوع .. كان يوسف ينظر إليه ساهماً ، كأنه يتحدث كلاماً غير مفهوم أو كأنه يخاطب شخصاً آخر غير يوسف .

ومضى دياب يقول :

- أنت تفعل هذا .. ألا تعلم عن علاقتها بعبد الهادى ، أنت تعلم كل شىء .. وأنا الذى قلت لك فى هذه الحجرة .. وأنت جالس على هذا المقعد .. ماذا أقول لك أكثر مما قلت .. إنها امرأة سيئة .. شريرة .. منحلة تماماً .

قاطعه يوسف محتدا :

- أرجوك .. لا تتحدث عنها هكذا .. وإلا تركت الحجرة على الفور .

صاح دياب وقد تملكته شهامة أصيلة :

- تغضب أو لا تغضب .. لن يهمنى هذا .. أنا أحدثك كأخ كبير . يحبك .. يجب أن تفهم هذا .. أنا لا يعنينى أى شىء آخر ، سوى مصلحتك أنت ..

قال يوسف :

- أنا أعرف مصلحتى ..

فقاطعه دياب :

- كلنا نقول مثل هذا الكلام .

ونهض دياب ودار حول مكتبه ، وذهب إلى مقعد بجوار يوسف وجلس إلى جواره ، وربت على كتفه فى حنان وقال :

- أنت تذكرنى بنفسى يايوسف .. ولكنى كنت أصغر منك بكثير . كنت ملازماً

ثانياً فى السويس .. لم أبلغ سن الرشد بعد .. أما أنت فرجل .. كم عمرك الآن ؟

قال يوسف :

ـ فى أكتوبر القادم أكون فى السادسة والثلاثين ..

هتف دياب :

ـ أى رجل عجوز ..

ـ قال يوسف :

ـ نعم أنا عجوز .

فقال دياب فى حرارة :

ـ ولذلك نستطيع أن نتفاهم .. أنا شخصياً رفضت التفاهم .. وصممت على الزواج منها .. راقصة فى كباريه فى السويس .. عرفها كل أصدقائى .. ماذا أقول عرفها العالم كله .. ما من بحار أو ضابط فى سفينة تمر بالسويس إلا وذهب إلى الكبارية ونام معها ، ولكنى أحببتها .. الحب أعمى كما يقولون .. مصيبة تهبط على الإنسان .. مرض إذا تمكن من القلب فهو أخطر من السرطان والعياذ بالله .. نعم لقد جربت هذا الحب .. كنت أسمع أغانى أم كلثوم وأسمهان وأبكى .. اللوعة والعذاب ونار الحب .. والوصل والهجران والغيرة .. كل هذا الكلام عرفته .. كان يسرى فى دمى .. ولكنه مرض .. لم أشف منه إلا بعملية جراحية .. أتدرى ماذا فعل أصدقائى .. أقاموا حفلة .. ودعوها إليها وكنت مسافراً فى القاهرة .. ولما عدت أخذونى من المحطة إلى الحفلة .. ورأيتها ترقص بينهم عارية .. لا حياء ولا كرامة .. جسد عار نهشوه جميعاً .. زبالة .. مبولة .. هكذا قالوها لى بطريقة عملية .. ثم دفعوا بنا أنا وهى إلى حجرة نوم .. قالوا إذا كان لابد فافعل معها مثلما فعلنا وتخلص مما عندك من كبت .. وفضنا من هذه السيرة وخلصنا من هذه الورطة .. ودخلت ياصديقى العزيز معها الحجرة .. وأغلقوا الباب .. وارتمت هى على السرير .. وفقدت أية رغبة فيها .. انتهى كل شىء فى لمح البصر .. ونجحت

العملية الجراحية .. كانت عملية بالبنج .. لم أشعر بالآلام إلا فيما بعد ..

كان يوسف يستمع إليه فى اهتمام ، وقد نسى كل شيء عن حبه ومشاكله ..

وسأل فى براءة :

ـ ما الآلام التى شعرت بها .

فتردد دياب ، وفقد حماسه فجأة ، وقال متلعثماً :

ـ هذا أمر آخر .

سأله يوسف محتفظاً بإلحاح الطفل :

ـ أندمت ؟

قال دياب وقد اختلج صوته :

ـ أحياناً كنت أندم .. هذا صحيح .. أحياناً كانت تعاودنى لوعة الحب .. هذا صحيح .. أحياناً كنت أشعر إنى تخليت عنها .. وإنى لم أدافع عنها أمامى أصدقائى .. نعم .. كل هذا يحدث لك عندما تحب .. ولكنها آلام ما بعد الجراحة .. فقد شفيت .. وعدت إلى نفسى .. وشكرت لأصدقائى أنهم انقذونى من خطأ العمر ..

قال يوسف فى هدوء :

ـ لو تركت زوجتى .. فسيكون هذا هو خطأ عمرى .. وسأمرض .. بل سأموت حتى لو بقى جسدى حياً .

هتف دياب :

ـ أتعلم عن سلوكها ؟

قال يوسف بسرعة :

ـ كل شيء .

سأله دياب :

ـ عبد الهادى وغير عبد الهادى .

أجاب يوسف مقاطعاً :

ـ قلت لك أعلم كل شيء ..

فرفع دياب يديه يائساً وقال :

ـ ولكنك لست مراهقاً .. حتى تفسد حياتك على هذا النحو ..

قال يوسف باسماً :

ـ اطمئن فحياتى لا تفسد ..

سأله دياب :

ـ أواثق أنت ستتحمل كل ما تقدمه لها .. ألن يأتى يوم تصرخ فيها .. إنها كذا وكيت ..

قال يوسف وقد اتسعت ابتسامته يدارى بها انفعاله :

ـ لا .. لن يحدث ..

قال دياب فى حيرة :

ـ ماذا أقول .. هناك شىء لابد أن تعلمه .. إنى لن أسمح بالفضيحة .. فلو رفض الزوج الطلاق .. ولو رفع قضية زنا . ولو اشتكى منك .. فلن تجد أحدا يقف إلى جانبك ..

قال يوسف فى هدوء :

ـ أعلم ذلك ..

قال دياب :

ـ وعلى أية حال .. لا يجب أن تكون معك ..

قال يوسف :

ـ لقد ذهبت إلى بيت والدتها ..

فتنهد دياب فى ارتياح وقال :

ـ هذا أفضل ..

ثم .. أضاف :

ـ يوسف .. أنا لا أريد أن أفقدك .. لا فى العمل فى الجريدة ولا فى التنظيم السياسى .. ومن أجل هذه الـ .. أعذرنى .. لابد أن أقولها .. هذه الـــ ..

فصرخ يوسف :

ـ لا تقل شيئاً .. إنها زوجتى ..

وينهض مغادراً الحجرة .

وفى صباح اليوم التالى .. طلب نور الدين بهنس مقابلة أحمد عبد السلام دياب رئيس مجلس إدارة العصر الجديد .. كان عبد الهادى النجار قد أسرع إليه يخبره بأنه علم من هربت معه زوجته . وسأله نور الدين :

ـ وماذا أفعل يا عبد الهادى .

قال عبد الهادى :

ـ اذهب فى الصباح إلى دياب .. واطلب منه أن يحميك من تصرفات الموظفين الذين يعملون تحت رئاسته .. أغضب واعلن ثورتك .. وهدد بأنك سوف تقلب الدنيا رأساً على عقب .. لولم يفعلوا شيئاً لإنقاذ بيتك وأسرتك من سوء أخلاق أمثال يوسف منصور ..

قال نور الدين وهو ينظر إلى عبد الهادى فى عتاب :

ـ أنت الذى أحضرته إلى بيتنا .. وكان يجلس صامتاً .. لا يتحدث ولا يشترك فى اللعب .

ثم صرخ نور الدين :

ـ إنه لص .. تصرفاته تصرفات لصوص ..

وصاح عبد الهادى ضاحكاً فى سخرية :

ـ نعم .. لقد سرقك لص أشطر منك .

وفي الصباح .. كان نور الدين يعلن دياب بأنه يطالب بحقه فى الحماية .. وفى مراعاة العاملين تحت رئاسة السيد دياب لما يجب أن يكونوا عليه من أخلاق حميدة وحسن سلوك ..

صاح نور الدين :

ـ أنا لا أريد الفضيحة .. كل ما أريده أن تمنع عن زوجتى هذا اللص الذى يسرق الأعراض ..

وامتلأت خياشيم دياب بالهواء وزفر غاضباً :

ـ سأؤديه .. وإذا لم يمتثل .. فسوف أطرده من العمل .

فقال نور الدين بصوت أشبه بالصرير :

ـ وتعود لى زوجتى ..

فصاح دياب وقد اتخذ القرار الذى لا رجعة فيه :

ـ حتماً سوف تعود إليك .



ورطة دياب

تورط دياب ، أمام شكوى نور الدين بهنس ، فجرفته انفعالاته ، وكان يحتقر نور الدين فى قرارة نفسه ، ولكن القضية ليست قضية نور الدين ، إنها قضية المبادىء ، ومن يكون مسئولاً عن الدفاع عنها ، إذا لم يكن المسئول هو دياب ، وقد لا نغالى او نقع فى مبالغة شديدة ، إذا قلنا إن دياب تمتع على نحو ما بما حدث . فقد أراد أن يتخيل نفسه وكأنه أحد أبطال التراجيديات العظيمة ، التى يتمزق فيها البطل أثناء ذلك الصراع الناشب بين عاطفته ، وهى هنا عاطفته نحو يوسف منصور ، وواجبه وهو هنا واجبه نحو الأخلاق والقيم ، وهكذا اندفع دياب فى هياج عام يصول فيه ويجول ، مؤدياً رسالته المقدسة ، موجهاً ضرباته إلى أعز الناس لديه ، لو كان يوسف ابنى لما ترددت فى معاقبته ، إننا فى حاجة إلى الرجال الشرفاء ، إننى لا أستطيع أن أتعامل مع خاطفى الزوجات ، حتى لو كان يوسف ضحية لتلك المرأة التى خدعته ، أنا لا أستطيع أن أعتمد على المخدوعين .. إننا نريد أن نبنى وطننا بالأخلاق والقيم ، لا بالضعف والفساد .. هكذا كان يردد دياب الشعارات لنفسه فى حماس ومتعة ، ولقد خطر له أن عبد الهادى النجار زعيم الفساد ، لم يصبه

شيء ، و إنه عندما أراد مواجهته فى الماضى فوجىء بمن يقول له إن المصلحة العليا تقتضى مهادنته ، وقد كان هذا الخاطر كفيلاً بأن يثير الارتباك فى نفس دياب ، ولكنه لم يتوقف عنده ، وتجاهله عامداً ، حتى لا يفسد حماسه ، وجعل يقنع نفسه بأن يوسف منصور لابد أن يلقى حساباً أشد ، لأنه من جيل الثورة ، عاش بها .. وكبر معها .. فلا عذر له إذا ما ارتكب ما يـرتكبه عبد الهادى النجار ، ونادى دياب يوسف للمرة الأخيرة ، ووجه إليه انذاراً نهائياً . قال له فى جفاء واضح :

- لقد سبق وأن حذرتك .. وهاهو الزوج قد جاء يشكو .. وأنت تضعنى فى موقف كنت لا أتمناه .. إنى أتـألم لأنى لا أستطيع مسـاعدتـك .. كل ما يمكننى أن أنصحك به .. هو أن أطلب منك كتابة استقالتك فوراً .

قال يوسف فى هدوء :

- حاضر .

ونهض يريد الانصراف ، فصاح دياب منفعلاً :

- إلى أين أنت ذاهب ..

أجاب يوسف .

- سأكتب استقالتى ..

قال دياب وقد تملكه ذهول :

- وكيف تعيش .

فقاطعه يوسف مواصلاً حركته نحو الباب ..

- سأكتب استقالتى أولاً .

فاغتاظ دياب وهتف :

- نعم .. اكتبها فوراً .

وبعد قليل دخل سكرتير دياب ، وقدم له ورقة الاستقالة ، قرأها دياب باهتمام :

« السيد رئيس مجلس إدارة العصر الجديد »

بعد التحية : أتشرف بأن أقدم لكم استقالتى من العمل وشكراً

«يوسف منصور »

وامسك دياب بالقلم ليوقع على الورقة بقبول الاستقالة .. ولكن شيئاً فى نفسه جعله يتلكأ ، كانت موافقة يوسف أسرع مما توقع ، وهو يريد أن يطيل هذه الفترة التى ينعم فيها بمشاعر الصراع البطولى بين العاطفة والواجب إن مثل هذه المشاعر لا تتوهج فى نفسه كل يوم ، مثل هذا الموقف الكبير لا يصح إجهاضه على هذا النحو ، لو وقع بقبول الاستقالة فى هذه اللحظة فسينتهى كل شىء ، سينتهى ذلك الشعور بأنه يضحى ويتألم من أجل يوسف منصور ، وسينتهى ذلك الشعور بأنه يؤدى واجبه المقدس بقوة السيف البتار الذى يدافع عن الأخلاق والقيم ، إنه فى حاجة إلى أن يلوك هذه المشاعر لفترة أطول . وهو فى حاجة أيضاً إلى جمهور يشاهد ما يعانيه ويتتبع باهتمام ورهبة ما يدور فى نفسه من صراع ، ونحى دياب ورقة الاستقالة ، واستدعى إلى مكتبه . عبد الهادى النجار وحسن زيدان . ودخل عليه حسن أولاً ، فقرأ له دياب الاستقالة بصوت متهدج ، لا يتفق مع كلماتها السريعة الشديدة الاختصار ، ثم صاح دياب :

ـ هذا موقف صعب .. ولكنى مرغم على قبولها .

قال حسن :

ـ خسارة .. أليس هناك أمل فى العدول عنها ..

صاح دياب ممارساً حماسه :

ـ لا أمل على الإطلاق .. لقد ركب رأسه وصمم على أن يقضى على مستقبله .. ولماذا .. من أجل امرأة عاهرة .

قال حسن :

ـ لقد ضحكت عليه .

فصاح دياب :

ـ إنى واثق من ذلك .. ولكنى لست مسئولاً عن حماية المغفلين .. إن مكانهم ليس فى العصر الجديد .

وهنا رأى عبد الهادى النجار يدخل عليه ، فسكت دياب فجأة ، وقد شعر بثقل فى صدره ، ثم أعاد قراءة الاستقالة بسرعة وعبد الهادى ينصت إليه واجماً ثم قال بصوت خفيض :

ـ هذا شيء مؤسف ..

فسأله دياب بصوت بالغ التأثر :

ـ هل أنت حزين ياعبد الهادى .. لن تكون حزيناً مثلى ..

قال عبد الهادى :

ـ لست حزيناً فقط .. إنى أشعر بالذنب ، إن يوسف كان ضحيتى .. لقد فعلت أكثر مما فعل .. ولا أحد يجهل إنى كنت على علاقة بهذه المرأة .. ولكنى لم أعرض نفسى للفضيحة ..

فنظر إليه دياب فى ضيق ، كان لا يريد أن يتذكر مايتحدث عنه عبد الهادى ، فهو يفسد موقفه . كأنه يقول له إن كل حماسك يا دياب ، من أجل المظاهر . لا من أجل القيم الحقيقية كما تريد أن تدعى .. ووجد دياب نفسه يقول :

ـ المسألة ياعبد الهادى .. ليست فى حاجة إلى كلام عن الأخلاق والقيم . فهذه المرأة على استعداد لأن تفعل نفس الشيء مع أى شخص تقابله .. أنا نفسى تعرضت للغواية فى وقت ما .. أيام الشباب ، ولكن المهم . هو ألا يبيع الإنسان نفسه لمثل هذه المرأة .. أنت لم تبع نفسك .. نعم .. أنا لم أوافق أخلاقياً على تصرفاتك معها .. ولكنك لم تصل أبداً إلى هذه الدرجة التى وصل إليها يوسف منصور ، إنه لا يكتفى بارتكاب خطأ أو نزوة .. لبعض الوقت ..

ثم يتخلص منها ، ويتوب ويتوب .. وتقول له إن الله غفور رحيم .. لا .. إنه مصمم على أن يبيع نفسه تماماً إلى هذا الانحلال .. مصمم على أن يضع نفسه فى وضع اجتماعى غير مقبول .. وضع مشين .. فكيف يستمر تعاملنا معه وهو على هذه الحال .. سوف يلوثنا دون فائدة نجنيها من ورائه .

كان عبد الهادى ينصت إليه وقد شحب وجهه ، فاقداً حيويته ، وقدرته

على أن يسخر من دياب ، إنه يشعر بالضعف يسرى فى أوصاله ، ضعف كالمرض يهاجمه منذ أن أوحى إلى نور الدين بأن يذهب إلى دياب ويثير الفضيحة .. منذ تلك اللحظة وهو عاجز عن تحديد أفكاره ، عاجز عن اقتحام نفوس الآخرين .. وهو الشيء الذى كان يمارسه ببراعة وذكاء وثقة . كانت الخواطر التى لا يستطيع السيطرة عليها تضج فى رأسه محدثة نوعاً من الفزع والرهبة التى تنهشه نهشاً ، كان يتذكر تلك الليلة أمام بيتها وهو يقول ليوسف « هنا فى هذا البيت المرأة التى أحببتها » إن التقارير التى يمتلىء بها مكتب دياب عن مباذلى وشرورى التى ارتكبتها مع المرأة التى تعيش حبيسة هذا البيت .. هى أفضل ما فى حياة عبد الهادى النجار .. كان يتذكرر وهو يقول ليوسف « أنت وزينب كل ما بقى لى من إنسانية فى هذه الحياة » كان يتذكر رأيه فى دياب وإنه يعيش هو وأمثاله بوجود الفساد ويجدون فيه مبرراً لحماسهم فى محاربته . « ثق يايوسف أن فسادى يطمئن دياب على نفسه ، ويمنحه الثقة بأهمية وجوده ويبرر له سلطته » . كان يتذكر وهو يعترف ليوسف كأنه يلقى نبوءة ..

« إن الصراع سوف يشدنى بعيداً عنها .. اشهد يايوسف أنى عشت هذه اللحظات .. تذكرها ولا تنسها .. حتى وأنا ارتكب أفظع الآثام .. حتى لو جاء يوم رأيتنى فيه حيواناً قذراً أدوسك تحت قدمى .. تذكر أنى كنت صاحب قلب أحب .. وأنى تشبثت لحظة بسور بيت من أحب .. أتمنى لو توقف العالم وجمدت اللحظة ونجوت من الماضى والمستقبل » .. كان يتذكر وجه حسن زيدان وهو يقول له : « اعترف لك أنى قلت للجميع إنك ستتزوج امرأة ساقطة تبيع نفسها بالنقود » .. كان يتذكر وهو يقول لحسن زيدان « ليست الغلبة للطيب وليست للعادل وليست للمثقف وليست للمتدين .. الغلبة الآن لمن يقبل هزيمة كل هذه القيم ..» إنه يتذكر ويتذكر ولكن الغريب إنه لا يفهم ما يتذكره ، إنها مطارق تدوى كأنه كان يمتلك مفتاح كل الخزائن والأسرار وفقد ، وهاهو ينصت إلى دياب ، فيزداد ضعفاً وعجزاً .

قال عبد الهادى ببطء :

- ولكن استقالته تعنى إنه ماض فيما اعتزمه وإنه سيتزوجها ..

قال دياب :

- نحن أدينا واجبنا .. وأخرجناه من زمرتنا .. ونور الدين يتحمل بعد ذلك مسئوليته ويتصرف .

قال عبد الهادى كأنه يخاطب نفسه :

- لقد أخذ الآن الأمر مأخذ الجد .. ويوسف ولو يضحى بوظيفته .. من أجلها يقول إنهابالنسبة له مسألة حياة أو موت .. وفى هذه الحالة علينا أن نتوقع أى شىء ..

أقبل عليه دياب فى اهتمام . إنه يرحب بأية خطورة تضيفها جماهير على الموقف . وهاهى فرصته لأن يزداد حماساً وتألقاً ..

- هو ما تقول يا عبد الهادى ولاشك أنك صاحب خبرة بنفوس الناس .

قال عبد الهادى مندفعاً :

- إنه قد يقتل نور الدين .. أوهى قد تقتله ..لقد قال لى نور الدين إنها أمسكت بسكين المطبخ وهجمت عليه مما اضطره لأن يتركها تغادر البيت .. إنهالم تهرب خلسة ..لقد اقتحمت طريقها بحد السلاح . اقتحمته عنوة ..وكان من الممكن جداً أن تقتل نور الدين لو إنه وقف فى طريقها .. أقسم لك إنهاكانت تفعلها .. ولم ينقذه إلا إنه جبان رعديد .

قال دياب فجأة :

- أما من وسيلة نستطيع أن نمنع بها هذه الكارثة .

قال حسن :

- الأمل الوحيد .. فى إلهام كمال .

قال دياب :

- ليكن .. هل تستطيع أن تفعل شيئاً .. اذهب إليها .. وأخبرنى قال حسن متردداً :

- لا أظن إنهاتستطيع أن تفعل أى شىء .

فانفجر عبد الهادى فى حقد غريب :

ـ لا تتفلسف .. نفذ الأمر .. واترك الظروف تقول كلمتها ..

كان عبد الهادى قد شعر بخوف مفاجىء من حسن زيدان .. أخذ قوله بأن لا يمكن منع يوسف وزينب على إنه إدانة مباشرة له .. ورغم إحساسه القوى بهذه الإدانة إلا أنه لم يستطع تقبلها وقرر لنفسه ، واكتفى بهذا الانفجار الحاقد على حسن زيدان .

أما حسن فقد صمت ، أمام غضبة عبد الهادى ، كان يعرف أن لسانه قد أفلت بما قد يفسره عبد الهادى بأنه احتقار لشأنه وكان حسن فى دهشة من إنه يستطيع أن يستفز عبد الهادى ويوجعه بهذه البساطة إن خوفه من عبد الهادى اقترن فى تلك اللحظة بدهشة وفضول ، هل أصبح من الممكن أن يوجه طعناته إلى عبد الهادى . ولم لا .. لقد قتله يوسف .. وما أسهل أن يوجه طعناته إلى جثته .

وضحك حسن زيدان قائلاً :

ـ لا تغضب .. سأنفذ الأمر فوراً .. سمعا وطاعة ياسيدى .

فقال دياب منتفخاً :

ـ نعم .. هذا أمر .. وعليك تنفيذه .. وسوف أرجىء قبول الاستقالة حتى أسمع منك عن احتمالات هذه المحاولة الأخيرة .

وخرج حسن زيدان لينفذ ما صدر إليه من أوامر ، وفى تلك الليلة فوجىء دياب وهو فى مكتبه بسكرتيره يقول له :

ـ هناك سيدة على التليفون تقول إن اسمها زهرة من السويس وتريد أن تتحدث معك .

ورغم أن السكرتير أخطأ فى سماع الاسم ونقله خاطئاً إلى دياب ، إلا أن دياب سمعه صحيحاً ، سمع .. زهرة .. على أنها .. نزهة .. فهى والسويس يتداعيان معا ، وهاهو قلبه يخفق ولسانه يتلعثم وهو يعلن السكرتير قبوله للمكالمة ..

جاء صوتها ، ومعه ضجة كباريه السويس ، والبحارة ، وحادث إطلاق النار ، ثم تلك الليلة الأخيرة التى ودعته فيها ، واستسلما معا للحب والدموع فى « وداع تاريخى مؤثر » هكذا وصفه لأحد أصدقائه بعد أيام من فضيحة الحفلة ، فقد جاءته تسأله ليلة واحدة ثم فراق للأبد ، وأعطاها الليلة ، وكانت أخر آلامه وأفراحه معها ، « كانت فضل من الله أن جاءت إلىّ فقد ساعدنى ذلك على الشفاء منها ، ولو تمنعت لكانت نوبات الندم هى التى دفعتنى إليها ، فمن يدرى ربما كنت صممت على الزواج منها .. هكذا كان يفسر لقاءهما الأخير ، راضياً عن نفسه « لاشك إنهاكانت تحبنى حباً حقيقياً رغم أن مثلها يتحول قلبه إلى شوارع يجوس خلالها آلاف البشر » .

سمعها تقول بصوتها الذى كان يملأ أذنيه بحرارة وشجن :

ـ أنا نزهة ياأحمد ..

ـ أهلاً .. أهلاً ..

ـ هل تعرفنى .. فاكر ..

ـ طبعاً .. كيف أنسى ..

ـ أريد أن أراك .

هنا تردد ، ولكنه قاوم تردده وقال بسرعة :

ـ أهلاً تفضلى ..

قالت فى ثقة :

ـ أفضل أن تزورنى أنت ..

قال فى حذر :

ـ ولماذا لا تأتين أنت ..

قالت بلهجة من يفهم ما يدور بخلده :

ـ أنا سيدة محترمة ،، وبيتى محترم .. ولا يتردد عليه إلا أحسن الناس .. أنا أعرف شقيقك كمال بك .. أنا سيدة أعمال .

قال دياب فى ارتباك :

ـ أمــــــرك ..

قالت بلهجة عملية :

ـ هل يمكنك أن تأتى إلى الآن ؟

وأعطته عنوانها ، وتركته لذلك الخاطر المفاجىء ، بأن نزهة هى إلهام كمال .

كان أول ما فعله دياب هو أن أمسك بورقة الاستقالة التى ظلت أمامه لعدة ساعات ، ووقع عليها بحركة آلية « تقبل الاستقالة » ونادى سكرتيره ليعطيه الورقة ، ولكنه كان قد نهض ووضع استقالة يوسف فى جيبه ، وعندما دخل عليه السٌكرتير ، قال له إنه سينصرف لأمر عاجل .

كان حسن زيدان قد ذهب إلى إلهام كمال ، فاستمعت إليه .. ثم سألته مستريبة :

ـ ما الذى يجعلك تسعى لتخليص صاحبك من ورطته .

قال لها حسن :

ـ صراحة .. أنا لا أسعى إلى شىء .. ولا أظن أن هذا الموضوع سينجح .

قالت له تتفحصه :

ـ لماذا جئت بهذا الكلام إذن ؟!

قال لها ساخراً :

ـ أنا أنفذ أوامر رئيس مجلس إدارتنا ..

هتفت إلهام :

ـ دياب .

قال حسن :

ـ نعم ..

قالت إلهام فى لهجة غامضة وهى تشير بأصبعها إلى عينيها واحدة بعد الأخرى :

ـ أوامره سأنفذها من عينى هذه .. وعينى هذه ..

ثم سألته فجأة :

ـ إذن فدياب يريد أن يمنع هذا الزواج .. لماذا .. ألم يقل لك السبب ..

كان فى صوتها فضول ، وربما ما هو أكثر من الفضول .

قال حسن :

ـ إنه يقوم بدور الفارس رسول الإنسانية والأخلاق .. الذى ينقذ يوسف الصديق من امرأة العزيز ..

سألته إلهام فى اهتمام غير عادى :

ـ ما رأيك فى دياب ..

كان حسن يرى أن اهتمامها يحتاج إلى تفسير . فسألها متخابثاً :

ـ ماذا تعنين ؟ .

سألته باهتمامها غير العادى :

ـ هل هو سعيد .. هل هو مرتاح ..

قال حسن فى غير فهم لما تهدف إليه :

ـ على الأقل إنه يشعر بأنه رجل خطير جداً .

ضحكت إلهام ضحكة عصبية حادة هاتفة :

ـ خطير ..

فمضى حسن يقول :

ـ إنه يتصور نفسه مكلفاً من السماء بحماية الأخلاق الفاضلة على الأرض .. والدنيا عنده إما خير أو شر .. أبيض أو أسود وهو مع الأبيض ضد الأسود .. تماما كما أنت مع الأسود ضد الأبيض ..

قالت ساخرة :

ـ ما هذا الكلام الفارغ الذى تقوله .

قال حسن :

ـ هناك من يتحمسون لفريق كرة بفانلة بيضاء أو حمراء .. هو أيضاً يتحمس لفريق الخير بفانلة بيضاء ..

قالت إلهام وقد عاودها اهتمامها الملح :

ـ كف عن هذا التخريف .. وقل لى بذمتك .. هل هو الذى قال لك اذهب إلى إلهام وأطلب منها منع هذا الزواج ..

قال حسن :

ـ نعم .. وبأمر إدارى من رئيس مجلس الإدارة .. أنا كما ترين أقوم بزيارة رسمية ..

صاحت إلهام :

ـ ياخيبتك ..

ثم تجهم وجهها وسألته :

ـ ولماذا لم يطلب منى أنا .

قال حسن بسرعة :

ـ المفروض .. أنك لا تعلمين إنه أرسلنى إليك .

قالت إلهام :

ـ طبعاً .. طبعاً ..

كان وجهها يزداد اكفهرارا وسألها حسن :

ـ مالك ياإلهام .

قالت :

ـ لا شئ ..

فعاد يسألها :

ـ أيمكنك حقاً .. أن تنقذى يوسف ..

قالت بصوت غريب :

ـ نعم .. سأنقذه ..

ونهضت إلهام .. معلنة أن على حسن أن ينصرف فى الحال .. وبعد تفكير مضطرب ، أمسكت إلهام بالتليفون ، واتصلت بدياب ..

عندما دخل عليها دياب ، كانت قد اتخذت قرارها ، لقد فاض بها الكيل ، وهذا الحادث الأخير الذى جعل دياب يرسل لها حسن زيدان ، قد أوجده الله

لتفضفض عن نفسها ، إنها لم تعد قادرة أن تتحمل وحدها كل ما تحملته ، ودياب يجب أن يشاركها فى كل ما عانت منه ، كان دياب خجولاً ، بادى الارتباك .. وسمعها وهى تقول له إنهالا تريده من أجل حكاية يـوسف وزينب ، فما هذه الحكاية التافهة ، إلا سبباً صنعته المقادير للقائهما ، لقد أرسلت لى حسن زيدان يطلب منى أن أفعل نفس الشيء الذى فعلته أنت ياأحمد وأصحابك حتى لا نتزوج .. نفس الشيء ياأحمد أليس كذلك

قال دياب مرتبكاً :

ـ ليس تماماً .

قالت إلهام وهى تخفى انفعالها بضحكة عصبية متقطعة .

ـ نعم « ليس تماماً » لأنه يستحيل أن يكون هناك حب مثل الذى كان بينى وبينك ..

فتمتم دياب :

ـ كل شيء انتهى على خير ..

قالت له إلهام فى حدة :

ـ عشرون عاماً وأربعة أشهر وتسعة أيام .. وأنا أعيش معك ياأحمد .. بلحمك ودمك .. وأحافظ عليك كما أحافظ على عيونى .. عشرون عاماً وأربعة أشهر وتسعة أيام .. وأنت معى ..

كان دياب ينظر إليها فى غيرفهم ، وقد أدهشه ما فى وجهها من تقلصات ، وذلك الاتساع الغريب لعينيها وكأنها تحدق فى مجهول تراه وحدها .

ـ كنت أعيش مع ابنتك .. التى لا تعرفها .. وما أردت أن تعرفها .. حتى قالت بحرقة :

ـ أبدا .. لأنها كانت تغنينى عنك ..

همس دياب فزعاً :

ـ ماذا تقولين ؟

صاحت فى ألم :

ـ أقول ابنتك سوسن .

أيقن دياب إنه أمام مؤامرة إنها تدبر له كميناً تورطه فيه ، فصاح غاضباً :

ـ هذا كلام فارغ .. لم يكن بيننا شيء .. ما الذي تريدينه من وراء هذا .. هل تسجلين هذا الكلام ..

ومضى يفتش في حجرة .. ويتحسس بخبرة رجل المخابرات الأماكن التي قد يكون مدسوساً بها جهاز تسجيل .. كان يفتش محموما .

وصاحت فيه :

ـ ما الذي تفعله .. أنا لا أدعي عليك .. ولا أطلب منك شيئاً .. ولا أريد منك أن تعترف بأحد .. وليس بيني وبينك أية صلة .

صاح :

ـ إذن لماذا تقولين أن هناك بنتاً ؟

صاحت :

ـ لأنها ماتت .. ماتت .. وأنا أتاجر بجثتها الآن .. كل ما أفعله .. هو أني أنقل إليك بعض ما تحملته من آلام بسببك .. وهذا يكفيني .. اتركني الآن .. ولا تدعني أرى وجهك ياأحمد دياب .. منك لله ياأحمد عبد السلام دياب .

ولم يتردد في الخروج .. دون أن ينبس بكلمة ، وهو واثق أن هناك مؤامرة ما قد تم تدبيرها له .. هذا أمر لاشك فيه .. وفكر في صديقه المسئول الكبير في المخابرات .. والذي سأله عن إلهام كمال ، وطلب منه معلومات عنها فلم يتصل به .. أسرع يتحدث إليه في التليفون .

وسمعه يقول له ضاحكاً :

ـ نسيت والله ياأحمد .. على أية حال من الذي يسأل الآخر عن إلهام كمال .. أنا أم أنت ؟

قال دياب في عصبية :

ـ هل في تصرفات هذه المرأة ما يريب ..

فضحك مسئول المخابرات وقال :

ـ اطمئن ياأحمد ..

ثم أضاف ضاحكاً :

ـ هل نسيت أنى أنا أخذتك من المحطة إلى الحفلة إياها !

قال دياب وقلبه يدق بعنف :

ـ أنا نسيت كل شىء ياأبو على .. كل ما يشغلنى هو موضوع نائب رئيس التحرير وعدى الذى فقد عقله .

قال صديقه وهو يقهقه :

ـ اعمل له حفلة .. هذا علاج موصوف .

ثم قال مستمراً فى مرحه :

ـ إياك أن تكون قد عاودتك فكرة الزواج منها ياأحمد .

صاح دياب :

ـ أعوذ بالله من هزارك السخيف .

ومع ذلك ، أثر هذا الحديث فى نفس دياب تأثيراً عنيفاً ، فما كاد يضع سماعة التليفون حتى وجد نفسه يهمس فى ألم يمزق روحه .

ـ إذن فقد كان لى بنت منها .

ودارت رأسه ، وكانت هذه بداية تدهور معنوياته التى سوف نتعرض لآثارها فيما بعد ، كل ما يهمنا الآن ، أنه عندما وقعت يده على ورقة استقالة يوسف فى جيبه ، تشنجت أصابعه ، ولم يتمالك إلا أن يمزق الورقة إلى قطع صغيرة ويلقى بها فى سلة المهملات ..

وهكذا تراجعت فجأة كل القوى التى كانت تسعى إلى فشل زواج يوسف وزينب ، تداعت منهارة ، كأنها أكلت بعضها بعضا ، كل ذلك ويوسف وزينب لا يدريان ما الذى كان يدبر لهما .

حتى خديجة السبع ، تداعت قواها هى الأخرى ، فقد دخلت عليها زينب مع عم صالح فقابلتهما فى فتور ، ونظرت إليها زينب كما تنظر إلى امرأة غريبة عنها ، لا تجمعهما أية صلة .. وجاء نور الدين بهنس .. وتحدث مع خديجة

حديثاً طويلاً ، انتهى بأن ذهبت خديجة إلى حجرة زينب وقالت لها :

ـ نور الدين ينتظرك ..وأنصحك بالعودة إليه .. أنا لا أستطيع أن أطعمك .. ولا أن أجعلك ترتدين ما عليك من ثياب ..

لم تجبها زينب ، وانتفضت قائلة فى حدة :

ـ قلت لك لن أعود إليه ..وما دام هذا هو رأيك ..فسأخرج ،ولن تريني بعد الآن ..

واعترضها نور الدين ، فأمسك بذراعها صارخاً :

ـ أهى فوضى .. إنك لن تذهبى إلى أى مكان .

فدفعته بيدها فى صدره ، ثم جعلت تصرخ صرخات هستيرية عنيفة متلاحقة .. ترددت أصداؤها فى شارع المبتديان ، ولعل الذين كانوا يعرفون عن جنون العائلة التركية التى تسكن ذلك البيت ، من الجيران القدامى ، قد استمعوا إلى هذه الصرخات الصادرة من بيت الأيوبى فيما هو أقرب إلى حنين الذكرى ، فقد كانت قد مضت سنوات وسنوات ، وذلك البيت القديم هامد خامد ، لا حياة فيه ، ولا شخصية له ، ولكن هاهو الجنون الأيوبى يعود قوياً مجلجلاً كما كان ، هاهى إحدى نساء البيت تصرخ تلك الصرخات الحادة الغريبة ، معلنة أن الأيوبيين ما زالوا فى ذلك البيت ..

ولعل خديجة قد شعرت بنفس هذا الشعور ، وهى على أية حال أم تلك الأيوبية المجنونة ، لابد أن تدافع عنها ، وهجمت خديجة على نور الدين صارخة فيه :

ـ ابعد يدك عن بنتى .

صاح نور الدين في هياج :

ـ لابد من تأديبها .

صاحت خديجة فى وحشية :

ـ لا أنت ولا غيرك يمس شعرة منها .. طلقها .. كما تريد .

قال نور الدين فى بلادة :

ـ لن أطلقها .

فصرخت خديجة :

ـ والله .. إن لم تطلقها لأذهب إلى الحكومة .. وأبلغها بسرقاتك ونقودك التى تخفيها عندى فى البدرون .

كأن تهديد خديجة حاسماً ، وقد فاجأ نور الدين بضربة لم يتوقعها .. إن حقائب الليبية بالنقود [illegible] زينب [illegible] وطلاقها .

وجاء عم صالح على صوت الصراخ :

وقبل أن يفتح فمه ، سمع خديجة تقول له :

ـ اذهب واحضر المأذون . نظر صالح إليها نظرة شكر .. ونظر إلى زينب نظرة حنان .. ونظر إلى نور الدين نظرة غضب وتهديد ، ولقد جمع كل هذه المعانى فى نظرة واحدة يصعب وصفها وجاء المأذون ، وتم الطلاق . وكان يوسف راقداً فى سريره ، كأنه لم يفعل شيئاً .. عندما دق جرس التليفون وسمع صوت زينب تهتف ضاحكة ـ خلاص ـ الطلاق تم .



أحلام زينب الأيوبى

يستأذن الكاتب فى أن يعبر التفاصيل فيما يتعلق باتمام إجراءات زواج زينب ويوسف ، ليقدم للقارىء كراسة أحلام زينب التى سبق ذكرها ، لأنها وثيقة كتبتها زينب ، وسجلت فيها كل ما كان يفور فى أعماقها من آلام وعذابات وحب للحياة هى التى دفعت بها إلى الإقدام على ذلك التغيير الحاسم لحياتها بارتباطها بيوسف منصور . ولعل الذين يقولون إن زينب الأيوبى ، كانت تعيش حياة مستهترة ماجنة بلا أدنى شعور بعذاب الضمير ، يشاهدون فى هذه الوثيقة ، جوهر نفس بشرية ، وهى تعانى وتحارب وتأمل من أجل الخلاص .

لقد كانت هذه الاحلام التى هاجمت زينب بعد زواجها من يوسف ، مواجهة فريدة وفذة ، لكل ما فى نفس زينب ، وكأن عقلها الباطن أراد أن يقوم بعملية جرد وحصر لحياتها السابقة ، قبل أن تمضى فى حياتها اللاحقة . ولم تدرك زينب هذا المعنى ، وإن أدركه يوسف منصور ، ولكن زينب استطاعت من خلال تدوينها لأحلامها أن تلقى نظرة جديدة على كل ما فات وكانت هذه النظرة هى بداية الصلح الذى لابد منه بين زينب ونفسها ، ويقرر الكاتب أنه

حاول أن يعيد صياغة الأحلام بأسلوبه ولكنه فشل ، كما فكر الكاتب فى أن يشرح هذه الأحلام حسب القواعد العلمية المقررة فى تفسير الأحلام ، ولكنه عدل عن هذه المحاولة ، لأن الأحلام ذاتها تنقل إلى القارىء مباشرة جوهر النفس ، فأية إضافة إلى هذا الجوهر ، حتى لو كانت شرحاً أو تفسيراً تحجب رؤيته ، ولذلك انتهى الكاتب إلى أن يقدم هذه المجموعة من أحلام زينب . بلا تدخل منه ، وبلا تفسير أو تعقيب . مدلنا للقارىء أن هاهى أعماق زينب الأيوبى انظر فيها وتأملها ، قبل أن تمضى معها فيما هو مقبل من رحلة الحياة . وينبه الكاتب قارئه العزيز ، إلى أن يحذر وهو يحدق فى أعماق النفس ما أصاب الكاتب من دوار أشبه بدوار البحر .

الحلـــــم الأول

أنا وحدى جالسة على كنبة بواب فى شارع كبير . الدنيا نهار . الشارع خال تماماً . أمامى عمارة كبيرة جداً مائلة وفى أعلاها نافذة تطل منها امرأتان .. واحدة شقراء والأخرى سمراء ، ومعهما طفلة صغيرة بشعر أصفر وفستان أحمر تكاد تلقى بنفسها من النافذة ، ومجهول يشدها إلى الداخل ، المرأتان لا تنتبهان إلى الطفلة وتتحدثان .

أنا مضطربة جداً دخلت البيت أجرى ، البيت ظلام مضاء بالشموع عند الدور الأول جاءت المرأتان ومعهما الطفلة ، وكأنى أعرفهما ، نبهتهما إلى أن الطفلة كادت تسقط . قالت أمها وهى المرأة الشقراء إن البنت عقلها ليس سليماً ، وأنها ورثت جنون عماتها . جاءت ثلاث نسوة وقفن طابوراً وعملن حركات تدل على أنهن مجنونات ، مشيت وحدى أتجول فى المنزل الكبير ، غرف كثيرة جداً تداخل بعضها فى بعض ، فى شبه ظلام ، دخلت المطبخ كان مضاء بنور ، وامرأة سمينة جداً تجلس وراء منضدة وأمامها ميزان ، وقفت أمامها .. المطبخ ملىء بدواليب بيضاء عالية كأنه أجز خانة .

الحلـــــم الثانـــــى

بيت كبير . حجرة فسيحة جداً . الشرفة مفتوحة تطل على حدائق خضراء . الدنيا نهار . أمى جالسة على السرير . أنا وسط الحجرة أزعق وأشتم بألفاظ قبيحة جداً . رجل كبير أعرفه يرتدى (روب مخطط) منظره بائس جداً .. بيننا علاقة جنسية ، أذهب إلى الحمام . الشمس تملأ الحمام بالنور أدخل

الحمام وأخرج رأسى من فتحة الباب . يأتى الرجل وينظر إلى بعينين قلقتين . أخرج من الحمام وفى يدى بيض ودجاج أوجهها نحوه . أمى فى ركن من السرير .. يأتى الطباخ ويكلمها ويعلم أنها لا تحبُ صنف الطعام الذى يطبخه . يفتح فمها بالقوة ويضع الأكل فيه . أنا جالسة جوارها على السرير .

الحلـــــم الثالـــث

الدنيا نهار شديد ، الضوء قوى يغلق العينين . لا توجد شمس .. بيت واسع جداً بدون غرف .. كله بلاط أبيض شديد البياض . أنا جالسة أمام التليفزيون معى هانى حمادة . نجلس بدون كراسى .. ولكن جلستنا على هيئة كراسى .. الدنيا كلها عيد . أصوات بومب .. فى التليفزيون احتفالات . ناس كثيرون يتحركون فى البيت وأنا لا أرى شيئاً .

أنا فى الصحراء وحدى . نفس النور الشديد ، دبابة كبيرة الحجم أنا لست أنا . أنا ارتدى ملابس جيش والدبابة ترتفع فى الجو . وأنا فى مقدمتها ، يلقون بى إلى الأرض . فى يدى رصاصة صفراء صغيرة . يقولون إن التفجير الذرى وقع على الأرض . أصرخ . ابنى راح ليس معى أحد . الصحراء واسعة .

الشمس محرقة . على الأرض صخور كثيرة مرتفعة ومنخفضة . أطلع وأنزل . الجو غريب . الشمس ليست فى السماء . أمامى وفوقى سواد . أريد أن أصل إلى شىء لا أعرفه .. أنا تائهة مذعورة .

الحلـــــم الرابـــــع

الوقت غروب .. المنزل قديم .. أرضه عارية مليئة بأشياء قديمة مكسرة .. حول البيت مزارع .. دق الباب . ذهبت لأفتحه . ابنى فى ملابس مدرسية قبلته فى فرح وأخذته إلى الغرفة .. أمى جالسة على كنبة . ذهبت إلى حجرة أخرى كل ما فيها مقلوب . جلست على كرسى أمام النافذة أراقب الضوء وهو يكاد يختفى . جاءت امرأة وجلست على الأرض فى ركن الحجرة .. تذكرت أنها زميلة دراسة .. نامت صديقتى . جلست بجانبها ، ذكرتها بنفسى وضحكنا سوياً . وجاءت بعد ذلك بنات كثيرات من أيام الدراسة جلسنا فى صفين أمام بعض على الأرض بجانب الحائط . ضحكنا كثيراً ، سألونى . هل تزوجت .. قلت وأنا أشير بأصبعى مرتين .. ضاع الغروب . وظهر القمر .. الظلام لامع جداً .. تركتهم ومشيت وحدى فرحة بضوء القمر .. خرجت من البيت . مشيت تحت بواكى سقفها مقوس وأرضها لامعة ..

أنا وحدى فى العالم كله ولا أحد غيرى .. أرتدى مايوه .. مر بجانبى عدة رجال .. أطلقوا صفيراً .. ضحكت . مشوا بعيداً . دخلوا غرفة . أحسست أنهم سيغيرون ملابسهم ويرتدون المايوهات .. خرجت من البواكى .. البحر أمامى وعلى حافة الماء نخيل يكاد يصل إلى السماء .. البحر هادىء يضوى كمرآة .. الشاطىء طين به حشائش قليلة .. فى السماء قمر كبير .. لا شىء غير البحر ومن بعده ظلام .. نزلت البحر . عدة رءوس فى الماء .. تلفت ورائى لأرى هل جاءوا .. مشيت فى الماء .. وفى منتصف البحر ظهروا ، وغازلونى أنا فرحة أضحك .. وصلنا للشاطىء .. خرجت من الماء .. لمست أرجلى الأرض .. نظرت بدهشة إلى المايوه وجدته مخططاً .

الحلـــــم الخامـــــس

الدنيا ليل لا أرى أى أثر لضوء ، ضباب كثير ، ولكنى أرى كل شىء ، الشارع واسع جداً وعلى الرصيف من الجانبين جمهور كبير ، طابور عسكرى

يمشى وسط الشارع .. عسكرى مرور فى يده فانوس أحمر يخطط الأرض بعلامات بيضاء .. أترك الطابور وأعبر الشارع .. العسكرى يصرخ . أعبر مرة ثانية لا أحد يلتفت إلى صراخ العسكرى كأنهم ليسوا اناساً كثيرين كأنهم شيء واحد يمشى على الجانبين . بيت كبير .. الدور الأول ليس به غرف .. واسع جداً وليس له سقف .. لا أرى غير شمعة واحدة مضاءة . على الجانبين ورود كثيرة ملونة و[illegible] فى ركن نافورة ماء .. أقف تحت الماء ولا أبتل . فجأة جاء رجل وتكلم فى التليفون فى ركن .. إنه يقول إنه سيقتل امرأة .. أقف بجانبه .. لا يلتفت إلى .. يدخل غرفة جانبية يبحث عن شيء يقتلها به .. أنا لست معه فى الحجرة .. ولكنى أراه ..

الحلـــــــــم السادس

الشارع واسع هادىء خال تماماً من الناس . ملىء بالعمارات العالية . أنا ويوسف فى العربة والوقت فجر . وصلنا إلى حديقة كبيرة مليئة بالأشجار . تشبه الغابة . الدنيا مظلمة . فى الحديقة ناس كثيرون فى ملابس السهرة . وسط الحديقة سراى كبيرة .. دخلنا شرفة مضيئة بأنوار كبيرة . بلاطها كبير أبيض وقفنا صامتين بجوار بعض الأشخاص سمعت ضجة فى الحديقة . قالوا إن السفير وزوجته وصلا ، صعدا إلينا . تقدمت نحوى زوجة السفير وهى شقراء . وصافحتنى أنا وحدى ثم نظرت إلى يوسف وقالت له إن شكلى به شر كبير ضحك يوسف وتكلم معها ، سألت يوسف ماذا قالت ، لأنها تحدثت معه بلغة أجنبية تركتهما ومشيت فى الحديقة ، وجدت أناسا كثيرين واقفين حول بوفيه أعرف بعضهم وقفت بجوارهم حزينة . نظرت إلى السماء السوداء ، كان بها شباك مغلق . خفضت بصرى ونظرت فى وجوه من حولى . كانوا يرتدون أقنعة على وجوههم كالأراجوزات . نظرت إلى السماء ، اختفى الشباك وظهرت النجوم . مشيت لأخرج من الحديقة . جاء يوسف ورائى ليمنعنى من الخروج صرخت فى وجهه وخرجت إلى شوارع ضيقة مرتفعة

لا أسمع صوتاً ولا أرى ناساً . وكل شيء مهجور . أنا ويوسف فى شارع مظلم واقفين بالعربة بجوار شجرة ضخمة . هبطت من العربة وتركته وصعدت إلى عمارة فى شارع جانبى .. وجدت رجلاً على السلم أخذنى معه ودخلنا غرفة عرفت أنها مستشفى .. وجدت إلهام كمال راقدة على السرير مرتدية فستاناً أسود وشعرها أبيض ونحيفة إلى درجة غريبة ، الحجرة مضاءة بنور النهار . جلست بجانبها على الفراش ، أرتنى دماء كثيرة تحتها . والرجل جالس أمامى . وأنا حزينة قلقة .

الحلـــــــم السابـــــــع

صعدت عمارة كبيرة عالية .. دخلت شقة واسعة ليس بها أحد ، غرفتها مفتوحة وأبوابها بيضاء وسقفها عال . الغرفة مظلمة . تجولت فى كل الغرف . وخرجت إلى الشرفة ونظرت إلى الشارع ، لم أكن أتصور كل هذا الارتفاع ، الوقت كأنه غروب . تجولت فى الشرفة من أولها إلى آخرها ، وقفت أطل على عمارة بيضاء كل نوافذها مغلقة .. فى شقة من هذه العمارة كانت لى مغامرة سريعة . تركنى إبراهيم وذهب . قال إنه خائف منى . تذكرت فشلى فى استرجاعه . كنت قلقة وشعورى غريب . نظرت إلى الشقة فوجدت بها شرفة صغيرة مستديرة بغير قاع وغارقة فى الظلام . نزلت إلى الشارع وأمسكت ولدى فى يدى . مشيت حافية .. دخلنا سوقاً مضاءة بمصابيح كهربائية ، أنا قلقة وفرحانة فرحاً غريباً . ذهبت إلى أمى فوجدتها جالسة على الأرض فى شرفة كبيرة أرضها خشبية مرتدية ملابسها السوداء وأمامها شيء لا أتذكره . مشيت بجوارها ولم أكلمها . وأخذت ركناً بعيداً وجلست على الأرض ، واسندت ظهرى إلى جدار من أخشاب قديمة ، تحت الشرفة بحر هائل . الشمس غاربة . الجو ربيع ومركب بشراع أبيض كبير مائلة تقاوم الغرق وموج يدفعها . أسند رأسى وأنظر إلى السماء وأشعر باضطراب . البحر الهادى اختلط بالسماء وأصبحا شيئاً واحداً لونه رمادى .

فراغ أسود غريب . مدرجات خشبية يجلس عليها ناس كثيرون كلهم فى حجم واحد وشكل واحد . كلهم ينظرون إلى أسفل . لحم أحمر ينزف دماً . اللحم معلق فى الهواء . رجل ضخم يرتدى جلباباً أبيض مبقع بالدماء يمسك

اللحم ويقطع منه بالسكين . رجل آخر ليس من الجالسين . يرتدى جلبابا أسود وحول خصره حزام عريض يتحدث مع الرجل الذى يقطع اللحم .. تحدث بينهما مشادة . يمسك الأول السكين ويرفعه فى وجه الآخر . لا أحد من الجالسين فى المدرجات يتحرك . تحدث أشياء لا أعرفها . أنا بعيدة أرقب .. ملابسى قصيرة مائلة للبياض ، أمشى بعيداً عنهم ، أذهب إلى الطفل وأضعه فى عربته الصغيرة وأمسك العربة وأجرى .. أهبط فى منحدر ضيق جداً أرضه تراب ، على جانبيه أشياء أعرف أنها بيوت ، أنظر إلى الطفل ، وجهه أبيض جميل . يضحك . كما تخيلت وجه سيدنا يوسف وأنا طفلة . نقف أمام شرفة مفتوحة بها امرأة عجوز شعرها أبيض وعلى كتفها شال أسود . تداعب الطفل . إنها تعرفنا ، كأننا نمر كل يوم أمامها . الطفل نائم .. الطريق يزداد انحداراً . نكاد نسقط . أتوقف عن السير . وأنظر حولى فى فزع . الدنيا مظلمة لا لون لها . التراب يملأ الجو ولا أرى شيئاً .

الدنيا كلها خضراء . حتى السماء خضراء . كل الأرض مزروعة بحشائش خضراء . ضوء باهر غريب يضىء الدنيا كلها ، دوائر كبيرة بيضاء منتشرة فى كل مكان . ناس كثيرون حجمهم صغير جداً يملأون الدنيا فى مجموعات . أنا ويوسف ومعنا أشخاص أعرفهم نقف بجوار فسقية ماء مستديرة بيضاء ، امرأة طويلة كبيرة الحجم جداً ، لها رأس صغير بدرجة ملحوظة ترتدى فستاناً واسعاً أسود به نقوش بيضاء . تتجول بين الناس . المرأة أعرف أنها مطربة . تهبط على سلم تحت الأرض . السلم أبيض من رخام مزدحم بناس يعرفون أنى أريد سلماً . يضحكون . أخرج مع يوسف إلى شارع طويل . له لون واحد

يميل إلى السواد . خطواتنا سريعة .. أمامنا أشخاص يحملون سلماً حديدياً رفيعاً .. يرفعون السلم أمامنا وينظرون إلينا . نجرى بسرعة كأننا نطير . انا وحدى أجرى وألهث ، كأنى أسقط فزعة .. السلم لا يتحرك . وأنا لا ألحق به ، اختفى السلم وأنا أجرى فى اتجاهه . أجرى فى سواد .. لا توجد أرض أجرى عليها . أنا مرهقة ..

الحلـــــــــم التاســــــــــع

المكان ملىء بناس كثيرين فى أوضاع مختلفة .. كل واحد فى وضع .. أحدهم رجلاه فى أعلا . أخرى راسها بجوارها وشعرها أسود طويل ناعم ينسدل على الأرض .. كلهم على كنب مغطى بملاءات بيضاء ومرصوصة بجوار الحائط .. زحام هائل .. ضوء ضعيف يملأ المكان : أحس أنها حجرة واسعة .. اختفى الحائط ، الجميع ما زالوا مكانهم .. ظهرت بدل الحائط بنت صغيرة وطفل صغير أسمر اللون شعره قصير خشن يرتدى جلباباً أبيض ، وساقاه سوداوان وحافى القدمين ، وعيناه محمرتان ، أرفع السكين وأقتل الطفل فيقع على الأرض .. الجميع ما زالوا يتكلمون .. أعرف أن أم الطفل بين الجالسين على الكنب تنظر ولا تتكلم .. البنت الصغيرة تلف حولى .. أخرج إلى الصالة . مجموعة من الناس جالسون حول منضدة مستديرة يتحدثون عن أشياء أعرفها ، يشيرون إلى لأجلس وأشترك معهم فى الحديث .. أتركهم وأقف بعيداً مضطربة .. اسمعهم يقولون إن الولد مات مذبوحاً بالسكين .. وكأن الحدث وقع من زمن بعيد .. أنا وحدى أعرف أنه لم يزل غارقاً فى دمائه داخل الحجرة .. لا ينظرون إلىّ .. اشعر بذنب كبير ، أنا قلقة ، المكان يزداد نوراً .. أرضه بلاط أبيض .. أمامى باب عال مفتوح ووراءه شباك مفتوح يطل على حدائق .. أريد أن ادخل من الباب لا أتحرك .. وأقف فى ركن أرقب الجميع وأنا حزينة خائفة ..

الحلـــــم العاشـــــر

أنا فى مكان واسع سقفه عال نوافذه ضيقة مغلقة ، نجف كبير به شمع مشتعل .. موائد صغيرة عليها مفارش بيضاء تملأ المكان .. بعض أشخاص يرتدونَ ملابس نصفها أسود والآخر أبيض يتحدثون بصوت منخفض .. كراسٍ صغيرة حول الموائد ولا أحد يجلس عليها أنا أريد أن أجلس وهم يصرخون فى وجهى ويمنعوننى بقسوة .. أنا مصممة على الجلوس فينادون على امرأة .. أعرف أنها تملك هذا المكان .. انتظر غاضبة .. وتأتى المرأة مرتدية معطفاً أسود واسعاً وتدور حول الموائد .. أحاول أن أكلمها فلا تلتفت إلى وتتركنى وتخلع المعطف لتكشف عن ثوب « باليه » لونه وردى يلمع .. ساقاها عاريتان .. ترقص بين الموائد .. أنا غاضبة ، أقترب منها وأمسك بها والقى بها على الأرض فتقع محطمة كأنها ميتة ويلتف حولها جمهور كبير . الدنيا صامتة ، وأنا فزعة أحاول الهرب . أسمعهم يقولون إن الذى أوقع الراقصة سيسجن خمس عشرة سنة .. وكأنهم لا يعرفون أنه أنا .. يتكلمون بهمس غريب .. أهرب بسرعة لأجد نفسى فى ظلام أسود لا أرى فيه شيئاً .. أخاف أن يتبعونى .. لا ألتفت ورائى .. السواد أصبح بئراً ضيقة ، أكاد اقع لا أريد أن أسجن ، أنا لا أريدها أن تموت .

الحلـــــم الحـــادى عشر

أنا ويوسف فى ملهى ليلى مظلم لا نكاد نرى أنفسنا .. موسيقى عالية وضجيج ، وناس يرقصون وآخرون يقفون .. نتكلم ونضحك ثم نترك المكان . الشارع مظلم . وخال . نصل إلى بيت واسع مظلم ملىء بالغرف .. أمى فى غرفة . والصالة واسعة أرضها باردة وهواء خفيف يلفح وجوهنا . ندخل حجرة بها سرير عليه ملاءة بيضاء ننام على ظهورنا بجوار بعض .. أنا أنظر إلى السقف .. أسمع أصواتاً عالية . أخرج لأرى أمى تقول إنه آتى ، أمى جالسة

فى غرفتها تقول لى يجب أن أستقبله ، أسلم عليه .. وأحاول أن أرى وجهه ، يمسك يدى بشدة .. أنا قلقة .. أمى تقول يجب أن أذهب إلى يوسف وأنبهه إلى ترك البيت بسرعة .. أنا فزعة لا أتكلم .. أحاول أن أتحرك فلا أعرف . أنظر إلى الباب .. فى الصالة تيار هواء شديد بارد .. الضوء أحمر قوى .. كل شيء لونه أحمر .. فندق عال به سلالم مستديرة حولها غرف كثيرة أنا أملك أغلبها .. ناس كثيرون يطلون من السلم وأنا فى أعلى السلم أنظر إلى أسفل .. المكان مزين بأشياء لامعة حمراء .. رجل كبير فى السن أسفل السلم يعزف على البيانو ويرتدى ملابس لها بريق غريب ، ينتهى من العزف فتصفق له كل الناس إلا أنا . يرانى فينظر إلى بقلق . بجوارى امرأة ملابسها سوداء ، تنبهنى إلى أنى يجب أن أصفق . أنا أعرفه جيداً فالغرفة التى يسكنها ملكى فلا داعى للتصفيق .. تركت له الغرفة وسكنت فى أخرى تطل على البحر .. أنا أحب البحر ووجهه بعيد حزين . أنا أصفق . هو أيضاً فرح يصفق . الدنيا كلها تصفق .

الحلـــم الثانـــى عشر

أنا نائمة على السرير تأتى لتوقظنى فأهب فزعة أصرخ بصوت عال وهى جالسة بجوارى ، لا أرى شيئاً .. أنا خائفة .. أضيئوا النور .. تضحك وتقول إن النور مقطوع .. ثم تأتى بشمعة .. أتبين أثاث الحجرة بصعوبة .. أراها تبتسم .. وتقوم وتفتح دولاب الملابس تريدنى أن أريها فستانى الأحمر الجديد .. أخرج فستانى وألقي به على السرير .. أكتشف أن لونه ليس أحمر ولكنه أسود .. أحس أنى أريد أن أبكى .. أنظر إليها فأجدها تضحك .. أجرى فى الظلام بعيدا وأنا أنادى على يوسف .. أسمع صوته من بعيد يقول : أيوه ياحبيبتى . أكرر النداء عدة مرات وأنا فزعة .. وهو يـردد : أيوه ياحبيبتى .. تعالى ياحبيبتى .. ولا يأتى .. أجرى مسرعة فى ممـر ضيق مظلم .. أصطدم بالباب أفتحه .. ضـوء الشمعة يكشف لى الجـالسين

بصعوبة .. أمي جالسة على مقعد منخفض تتكلم بصوت مرتفع جداً وتشوح بيديها بعصبية .. توجه الكلام إلى بعض أشخاص من أقارب يوسف معهم أطفال صغار جالسين فى مواجهتها صامتين .. يوسف جالس أمامهم يعطيهم ظهره . أنا أقف عند الباب ولا أدخل .. أدق الأرض بقدمى ، وأصرخ بغضب ليأتى معى .. وهو جامد مكانه لا يتحرك .. يقول : تعالى أنت مافيش حد غريب .. أظل أدق الأرض بقدمى بعصبية وأصرخ .. وهم لا يلتفتون إلى . ويستمرون فى الحديث ، أفتح الباب أريد أن أعود لحجرتى .. وأجرى فزعة فى نفس الممر الضيق ، الشمعة فى الحجرة اختفت ، وساد ظلام تام .. يدخل من النافذة ضوء باهت يقلقنى .

الحلـــــــم الثالـــــث عشر

الشارع ضيق .. الأرض رطبة بها ماء .. بيوت مهدمة على الجانبين .. أطفال سمر عرايا يلعبون .. الشمس غاربة .. الضوء قوى ، أدخلونى بيتاً مظلماً . وقفت وحيدة حائرة لا أدرى شيئاً ، أحدهم نائم على الأرض .. أزاح بابا صغيراً وفتحت طاقة .. نمت على الأرض لأرى .. تحت الأرض دنيا مضيئة بنور أصفر .. ناس وسلالم وخشب وغرف .. أشياء كثيرة . أريد أن أهبط إليهم .. ذهبت إليهم .. استقبلتنى امرأتان صغيرتان على رأس كل واحدة غطاء أسود .. أمسكتانى من يدى لأرى ذلك العالم .. خلعت حذائى ونزلت على سلم خشبى كبير .. نوافذ كثيرة زجاجها أحمر وأزرق .. النوافذ مغلقة يدخل منها ضوء خافت أصفر .. تفتح حجرة .. أرى جمعا كبيرا .. رجالاً ونساءً يقفون أمام بعض ، أيديهم واحدة فى أعلى والأخرى فى أسفل .. عيونهم مفتوحة .. ينظرون لـلا شىء .. ولا يتحركـون . مشيت بجانبهم أتأملهم أحس أنى أختنق . أدخل غرفا أخرى كثيرة مظلمة وأرى خليطاً غريباً من ناس مختلفين فى ملابسهم وأحجامهم وأشكالهم وأوضاعهم . جالسين على الأرض وواقفين على مناضد ، ونائمين على كنب هم لا يتحركون ، أفتح

أبواباً ، فأنظر وأغلقها وأفتح أخرى ، أطلع سلالم ، وأنزل متعبة حائرة أخرج للحديقة فأجد شجرة كبيرة ضخمة حولها ماء وطين .. أضع حجرا فى الماء وأقف عليه وأصل إلى الشجرة وأحتضنها .. السماء زرقاء .. يأتى رجل ويجلس فى الطين بجانب الحجر .. يخبرنى أنهم يريدوننى تحت فى الداخل .. أدخل إليهم .. رجل مغطى بملابس كثيرة غريبة ينتظرنى .. يمسك يدى وينظر فى عينى .. أجرى فزعة .. أطلع السلم وهو يجرى ورائى .. أنا

خائفة .. أجرى أجرى .. أطلع السلم وأنزل وهو يجرى ورائى .. أخرج إلى الشارع مذعورة .. يأتى مع ناس آخرين يمسكون يدى ويقطعون يدى بالسكين .. لا تنزف نقطة دم واحدة .. أنظر إلى يدى لا تؤلمنى .. يدى بعيدة .. أتركها يأخذونها ، يدى مقطوعة .. مشوا بعيداً .. أنا أمشى وحدى حزينة فى شوارع خالية .. لا أحد .. لا بيت .. لا صوت .. السماء زرقاء .. وأنا أنظر إليها ..

الحلـــــــم الرابـــــــــع عشر

تركت البيت .. أغلقت باب الشقة .. نزلت على السلم .. خرجت إلى الشارع .. وقفت مبهورة بكل هذا النور أنظر حولى وفوقى .. أريـد أن أنطلق .. أجرى .. أطلع إلى السماء وأنزل إلى الأرض وأحتضن كل شيء احترت من أين أبدأ .. الدنيا مضيئة والسماء والأرض تلمعان ذهبت إلى البحر .. وجدته ينتظرنى فى قارب صغير وجهه أبيض عيناه منكستان .. أوقف القارب .. اقترب من الشاطىء .. ركبت معه .. جلست أمامه .. يحـرك المجداف ويحكى لى حكايات كثيرة .. أنا أضحك .. فرحة بالبحر لا ينظر إلى أبدا .. القارب يسرع . طيور سوداء فى السماء . الشاطىء طينى تلوح لى من بعيد بيوت صغيرة بيضاء . ونخيل عال فروعه يحركها هواء خفيف .. أنا جوعانة .. يوقف القارب .. يذهب بعيداً ، ويأتى وفى يده خبز كثير يضعه بجانبى .. يخرج نقوداً كثيرة ويضعها بجانب الخبز .. يتركنى وحدى ويمشى

بعيداً .. حملت الخبز .. سرت على الشاطىء .. مشيت كثيراً .. ذهبت إلى محطة القطار .. لا أدرى لماذا .. وقفت مع ناس كثيرين ننتظر القطار .. يأتى القطار ويذهب ولا أحد منهم يتحرك .. كلهم ينظرون إلى لا يسألوننى شيئاً .. فقط يتكلمون وأنا متعبة .. أجلس على مقعد وأسند ظهرى إلى الحائط . أفواج من الناس يجيئون .. ضجيج هائل أسد أذنى .. دخان يملأ الجو . انطفأ بريق السماء .. تأتى عربة بها بعض أشخاص .. تقف بجوارى يخبروننى أنهم ذاهبون بعيداً .. أذهب إليهم .. أركب العربة .. تنطلق العربة فى صحراء واسعة .. قلبى يدق .. أحس بقلق .. رمال عاصفة تملأ الجو .. أنا وحدى فى العربة .. أصرخ فزعة لتقف . أريد أن أرجع .. العربة لا تقف تجرى بسرعة هائلة .. تكاد تنقلب أصرخ وأصرخ حتى تقف .. يفتح باب العربة لأهبط .. أنا حافية ، أتردد لحظة ثم أنزل .. الأرض ساخنة ملتهبة . قدماى تحترقان .. أجرى وأجرى والعاصفة تدفعنى . أصل إلى الناس متعبة يائسة .. أمشى ببطء .. أنظر فى الأرض .. أعود للبيت .. أطلع السلم المعتم أتلمس طريقى فى الظلام بصعوبة أدخل الشقة .. التراب يغطى كل الأثاث .. ضوء خافت ينبعث من حجرة بعيدة .. البيت لونه ترابى أنادى على الخادمة . تأتى مرتدية جلباباً أبيض .. شعرها كثيف ، خشن أسود طويل .. أمسكها من شعرها وأوقعها على الأرض . أظل أخبط رأسها فى الأرض .. أصرخ وأبكى بصوت مرتفع .. لماذا يغطى التراب كل شىء ..

الحلــــــم الخامـــــس عشر

الشارع أسود طويل .. جبال عالية سوداء .. أنا أسير وحدى . ثوبى أبيض .. أمشى ببطء .. أنظر فى السماء .. لا توجد سماء .. لا أرى غير السواد .. أمشى كثيراً أطلع جبلاً عالياً . أقف على قمته . سحابة بيضاء .. مضيئة فوقى . أرفع رأسى بسرعة لأراها .. فلا أرى غير السواد .. أهبط إلى الأرض .. أسير .. أمامى مبنى قديم .. أدخل من الباب .. أريد نورا .. أريد

أن أرى .. أمشى فى ممرات طويلة ليس لها نهاية . على الجانبين أبواب عالية مغلقة أنا وحدى أمشى .. أريد أن أرى الناس .. أريد نـورا .. لا أحد لا شىء .. يفتح باب .. قاعة واسعة ممتلئة بناس كثيرين .. جالسين على الأرض صفوفاً .. الأرض بلاطها أبيض كبير . لا أحد يتحرك .. خافضو الرءوس . على أجسامهم أثواب سوداء . مشيت بجانبهم بحذر .. وصلت إلى ركن خلعت حذائى .. ومشيت بعيداً عن الآخرين .. جلست على الأرض مثلهم .. صمت غريب .. ثوبى أسود .. نظرت أمامى .. أتى رجل ووقف يتحدث بصوت خفيض قال شيئاً .. هبوا قياما على أثره .. جروا كلهم فى اتجاه واحد .. وقفت حائرة أريد حذائى أبحث عنه ولا يوجد حذاء أبيض .. أريد أن ألحق بهم .. أخاف أن يتركونى .. كلهم اختفوا وأنا وحدى ..

الحلـــــــم السادس عشـــر

أنا ومعى ولدى .. أشعر أن أعمارنا متقاربة .. ابنى الصغير عيناه زرقاوان .. أبيض شعره قصير أشقر .. ينظر إلى دائماً ويضحك .. أنا أحبه .. ثوبه به خطوط عريضة .. وأنا ثوبى أبيض جرينا فى شوارع كشارع المبتديان جرينا على الرصيف .. الترام وسط الشارع نسابقه ونحن نجرى أنا أسبق ولدى .. والترام .. وهم ورائى يحاولون اللحاق بى ، ويضحكون .. الصغير يرفع عينيه إلى .. أمسك رقبته وأقبله .. وصلنا إلى ميدان واسع وجمع هائل من الناس ملتفون حول قطعة أرض مستديرة مزروعة بحشائش خضراء .. حاوى فوق رأسه طاقية حمراء ، يخرج نيراناً من فمه ولدى يمسك بطرف ثوبى يريد الاقتراب من الزحام والفرجة على الحاوى .. أمسك بيده ونمشى بعيدا .. الوقت ظهراً .. الشمس محرقة .. بدا علينا التعب .. نمشى بطيئاً فى الظل تحت البواكى ذهبنا إلى حى آخر هناك جوامع كثيرة مآذنها مرتفعة ، مبنية من زمن بعيد .. الشارع ضيق مرتفع ومنخفض .. نرفع أعيننا إلى المآذن .. المبانى كلها لونها أصفر شاحب .. الجولون العاصفة ..

دخلنا جامعا وتجولنا فيه .. ثم جلسنا فى ركن متعبين .. على الأرض بساط أحمر . وجدران الجامع ملونة .. والأبواب لها زجاج أحمر وأزرق .. والنجف مدلى من السقف .. لا يوجد أحد غيرى أنا وابنى فى الجامع .. أحس كأنه بيتنا .. أحكى حكايات كثيرة وهو ينصت إلى وفى عينيه فرحة .. ولدى عيناه تؤلمانه .. أنا منزعجة أربط عينيه بقماش أبيض . أصحبه إلى مبنى كبير قديم .. الظلام .. أنا خائفة من الظلام .. قلبى منقبض .. على باب المبنى يقف رجل شعره طويل ولحيته تصل إلى الأرض وعيناه حمراوان .. يرفع يديه وينظر إلى السماء ويرتل دعاء بصوت غليظ مرتفع .. حوله ناس كثيرون شعرهم أسود طويل يجلسون على الأرض .. بعضهم نائم والبعض رءوسهم متدلية .. وعيونهم مغمضة .. لون أحمر ينعكس على كل شىء .. أخاف الاقتراب .. أريد من الرجل أن يشفى لى عين ولدى .. فيقترب منى ، ويأخذه منى ، ويتحسسه ولا ينطق بكلمة .. ويتركه لى .. آخذه ونعود إلى المبتديان بخطى بطيئة .. شوارع وناس يروحون ويجيئون . الترام يجرى والدكاكين صغيرة وكثيرة .. دخلنا دكاناً مزدحماً والناس صفوف .. نريد شراء طعام نأكله فى الطريق .. تشاجرنا مع البائع .. جحظت عيناه . اقترب منى يريد الإمساك بى .. أخذنا الطعام وابتعدنا بسرعة ولم ندفع نقوداً .. جرينا وهو يجرى وراءنا .. لا يستطيع اللحاق بنا .. نجرى فى حدائق ونضحك .. اختفى البائع .. الوقت غروب .. كل الدنيا حدائق .. ورد أحمر .. أشجار عالية .. حول كل حديقة سور طين .. نتسلق ونهبط إلى الحديقة .. نجرى .. ونلعب .. ننام على الحشائش .. نتمرغ على الأرض . أقبل ولدى .. ليس لنا بيت ..

الحلـــــم السابــــــع عشـــــر

الشقة واسعة .. أرضها خشبية .. الصالة خاوية من الأثاث ناس كثيرون يروحون من غـرفة إلى أخـرى .. أغلبهم متعارفـون .. يتبادلـون بعض الكلمات .. كل من فى الشقة نساء .. وغرف كثيرة مفتوحة ما عدا غرفة واحدة

مغلقة وقفت على بابها ونظرت إليه من أعلى إلى أسفل لا عرف من أين يفتح أريد أن أفتح باب هذه الغرفة .. التف البعض حولى ودفعنا الباب بالقوة .. وفتحت الغرفة كل هذا حدث فى الظلام ..وكأنه فى مكان آخر غير هذه الشقة .. وقفنا ننظر إلى الغرفة كانت خالية تماماً ولها شرفة كبيرة مغلقة فتحت باب الشرفة بسرعة فأنا أكره الظلام ..تحت الشرفة حقول خضراء ..واسعة ليس لها نهاية .. نور .. نور كثير أضاء الحجرة .. صحت بأعلى صوتى أنادى عليهن ليشاهدن كل هذه الخضرة جرين إلى مسرعات . ثم وقفن ينظرن مشدوهات .. لا يوجد ناس ولا حيوانات ولا طيور .. صمت غريب .. سرت رهبة فى نفسى .. جررت مقعداً وجلست عليه .. وأسندت ذقنى على حديد الشرفة ..للبيت شرفات أخرى تطل كلها على شوارع ومبان وسيارات إلا هذه الشرفة تطل على الحقول الخضراء .. انصرفن وبقيت وحدى . الهواء بارد منعش ظلال اللون الأخضر تنعكس على كل شىء حتى السماء .. السماء رائعة ومهيبة .. جاءت إحداهن ووقفت بجوارى تثرثر .. قالت إنى لو مشيت إلى نهاية هذه الحقول سأصل إلى بيتى .. اندهشت وأحسست كأنى أعرف هذا .. هبطت بسرعة ووقفت على الحشائش ونظرت بعيداً .. أحسست بخوف .. المنظر تغير حين وضعت قدمى على أرض الحقول .. أصبح مقبضاً .. بدأت أسير فى حذر .. الخضرة لا تنتهى وأنا أسير .. ومشيت كثيراً .. على بعد جبل أخضر قمته مستطيلة وسفحه متدرج .. منظر غريب أحس أن بعد الجبل صحراء .. أدرت وجهى بسرعة ومضيت فى السير .. بدأت أحس بالتعب فلابد توجد نهاية ..فكرت أن أجلس على الأرض . ولكنى خفت ، فاستندت برهة على مبنى متهدم .. فاقترب الظلام وأنا خائفة .. أسرعت فى السير أنظر أمامى ، لا أتلفت أبدا من بعيد ظهرت قمم مبان .. طمأنينة بدأت تعود إلى نفسى .. أخذت أجرى وأجرى بغير وعى .. فجأة انتهت الحقول .. وخيم الظلام ..ولكنى وصلت إلى منازل وشوارع ودكاكين كلها غريبة على .. تجولت قليلاً لا أبحث عن شىء .. من بعيد رأيت بيتى .. منظره غريب .. ليس كما كنت أتخيله .. ولكنه بيتى ..

يقظة زينب الأيوبى

لا تذكر زينب متى توقفت عن تسجيل أحلامها ، أو كيف أهملت كراستها فى ركن من دولاب ملابسها ، كما أنها لا تذكر كيف اختفت هذه الأحلام من لياليها ، أو كيف بدأت أحلام من نوع جديد تتأجج فى نفسها ، أحلام يقظة لا أحلام نوم . فكانت تشعر بحنين مفاجىء لمغامرات ونـزوات الماضى ، يهاجمها ساعات العصر وهى جالسة وحدها فى البيت وقد ذهب يوسف إلى عمله فى الجريدة . وكان حنينا من نوع خاص ، فهى لا تذكر التفاصيل ، ولا تكاد ترى الوجوه وجوه الرجال الذين عرفتهم فى مغامراتها ، ولكنها تطل من نافذة حجرة النوم على الشارع الهادىء ، وترقب ظلال الأشجار الممتدة على أسفلت الطريق بينما تعربد ضحكة فى صدرها ، وتظهر الشقاوة فى عينيها وتلتوى شفتها السفلى التواءة خفيفة مستهترة ، مثل تلك الالتواءة التى ذكرت يوسف ببوهيمية فرانس هالز يوم ركبت زينب معه السيارة لأول مرة ، فجر تلك الليلة الشهيرة ، وتستقبل زينب وهى على هذه الحال صوراً ومشاهد متقطعة ، ترى فيها نفسها وهى تخرج إلى شارع مزدحم ساعة العصر ، ملابسها حلوة . معجبة بنفسها ، راضية مختالة ، مزهوة بما رأته فى المرآة

وهى تضع اللمسات الأخيرة لزينتها ، ثم ترى نفسها تسير وسط الضجيج ، مخلوقة جديدة ، زينتها جديدة ، ملابسها جديدة ، قلبها يخفق ، وضوء الأصيل يبهر عينيها بما فيه من وهج وحيوية ، ودقات قلبها تعلن أنها منتشية بما هى مقدمة عليه . قدماها تخطوان ، وساقاها تخطوان . وبطنها وثدياها قد اندفعت فيها دماء حارة واثقة ، أما رأسها فخفيف .. تسكره النسمة ، وتموج به أفكار مرحة ، تعبر عنها أنغام غير واضحة كأنها تسمعها ، ثم هى تمضى فى هذا الجو الباهر إلى ذلك العاشق الذى لا تذكره ولا تريد أن تذكره ، كان العجب سوف يبطل ، والنشوة سوف تضيع ، لو تذكرت التفاصيل .

وأحياناً كانت ترى نفسها والوقت ربيع بعد لقاء ما تم وقت الظهيرة .

وهاهى منكوشة الشعر ، هندامها غير مرتب .. وقد وصلت إلى مدخل بيت نور الدين فى الزمالك فتخلع حذاءها وتمسك به فى يديها وتصعد السلم قافزة درجاته وهى تلهث ، كأنها تهرب من مطاردة لذيذة ، لم تعد تتحمل استمرارها واكتفت بما حصلت عليه منها ، وهى تريد الآن أن تسرع إلى حجرتها حافية القدمين ، لتتجرد من ملابسها فتلقى بها هنا وهناك . حقيبة يدها تطير وتسقط على السرير ، والحذاء سقط عند الباب ، أما « الجوب » فينزلق إلى الأرض بجوار السرير ، والبلوزة استقرت على حافة المقعد ، والسوتيان وقع هناك تحت التواليت ، كل ما كان يلف جسدها يتبعثر ، كل ما كان يقيدها قد تفكك وانتثر حولها على مساحة عريضة فى كل أنحاء الحجرة ، لم يعد يلف جسدها غير الهواء ، ثم ترتدى قميص نوم خفيف وتذهب إلى الشرفة ، وتجلس على أرضها البلاط ، وتدفع بقدميها بين فتحات سور الشرفة ، فإذا بساقيها تتدليان وتتأرجحان فى الفضاء ، بينما أحنت هى برأسها على أعمدة الحاجز ، وقد تطاير شعرها ، وتنطلق فى الغناء .

مشاهد تتذكرها وتضحك ، تتذكرها مجردة عن مقدماتها أو عواقبها ، مجردة من أسبابها أو التفاصيل التى أحاطت بها ، مجردة من ذكرى أولئك الذين شاركوا أو ساهموا فى صنع ما فيها من فرحة أو نشوة ، إنها ترى

نفسها وهى مقبلة على حب ، لا تذكر أى حب كان ، ولا ذلك الرجل الذى كانت مقبلة على حبه ، كل ما تذكره فى حنين وشوق ، هو مشاعر ، ورجفة جسدها ، وهى تنتظر هذه العاطفة الجديدة ، وهى تستعد لها وهى تعقد عليها الآمال ، وهى تتوقع منها المفاجآت المفرحة ..

وفى كل الأحوال كان لا يصاحب هذا الحنين إلى تلك المشاهد ، أى تفكير فى العودة إليها ، لم يدر بخلدها أن ترتدى ملابسها وتتزين وتخرج إلى الشارع وإلى المغامرة أثناء غياب يوسف فى عمله ، وحتى عندما تضايقها الوحدة أو يحاصرها السأم ..

إن هذه المواقف التى تذكرها فى حنين لا صلة لها بأحد غيرها .. إنها ملكها ، فلا معنى لأن تعود إلى ما تملكه بالفعل .. إنها تجارب حية فى نفسها ، مارستها واحتفظت بها ، وتخلصت من كل ما علق بها من شوائب ، تخلصت من الآخرين بنظراتهم وكلماتهم وتصرفاتهم وحجرات نومهم . وبقيت تلك البللورات الصافية من الفرحة والضحكة والنشوة . تتذكرها ، أو تخرجها من جيب ذاكرتها وتتمتع بها عندما تريد .

ولقد تنبهت زينب الأيوبى إلى أنها لا تريد المزيد من المغامرات بعد حادث وقع لها وكان قد مضى على زواجها بيوسف منصور حوالى شهرين ، عندما رأت أمامها عزيز يعترض طريقها وهى داخلة إلى « هانو » لتشترى بعض الأقمشة . نظرت إليه فى انقباض وغير فهم ، بينما كان يبتسم لها ابتسامة واسعة مطمئنة ، وسألها فى لهجة عتاب :

- أين أنت ؟

قالت له بجفاء غير ظاهر ، وهى تبتسم ابتسامة عصبية :

- ماذا تريد ؟

قال بنفس اللهجة المطمئنة :

- أريدك أنت .

قالت وقلبها ينقبض بشدة :

ـ لقد تزوجت .

قال متهكماً :

ـ ومنذ متى ولزواجك هذه الأهمية ؟

قالت باسمة ، وفى قلبها صرخة خوف :

ـ اتركنى أحسن .

فقال ببلاهة التاجر الذى يضيع ثروته ويبددها من الوقت فى صفقة خاسرة .

ـ تقولين لى هذا ، من أجل ذلك الذى يجعلك تركبين عربة فولكس .

قالت زينب :

ـ نعـــم .

قال ساخراً :

ـ أتفضلين الفولكس على المرسيدس ٢٥٠ إس .

كانت غاضبة ، ولكنها تستمع إليه وكأنه يقول نكتة ، فابتسمت ورددت فى حيرة :

ـ قلت لك إنى تزوجت ..

فقال عزيز وكأنه لم يسمع ما تقول :

ـ غير معقول .. أمامك المرسيدس .. فتتركينها وتركبين الفولكس .. لا أصدق أنك تفعلين هذا .. ما الذى حدث لك ؟

قالت زينب وهى تنتفض خوفاً وقد قررت أن تحسم أمرها بسرعة لتنجو من هذا الموقف الذى يثير فى نفسها ألواناً غامضة من الحيرة والارتباك .

ـ أرجوك .. اتركنى ولا تفعل هذا مرة ثانية ..

كان وجهها غاضباً ، وفى عينيها بريق شرس .. وقد اختفت تماماً تلك الابتسامة التى تمسكت بها أول اللقاء ، وهز عزيز كتفيه وابتعد ، وما كاد يختفى حتى تنهدت ، وشعرت وكأن كابوساً قد انزاح ، واندفعت فى شراء كل ما تقع عليه عيناها حتى انتهى ما معها من نقود . وخطر لها أن يوسف قد يغضب لإسرافها ، وقررت أنه لن يعنيها غضبه ، فلقد كان لابد أن تفعل

ما فعلت لتتخلص من هذه المأزق النفسى الذى واجهته ، وعادت إلى البيت ، فكومت ما اشترت من أقمشة على سريرها وجلست تتفرج عليها وتقلبها ، وفجأة تنهدت وتذكرت مغامراتها القديمة ، تذكرتها بذلك الغموض الذى يخلو من التفاصيل .. وسألت نفسها هل أخطأت عندما عاملت عزيز بهذا الجفاء .. وابتسمت ولم تحاول الإجابة عن سؤالها ، وعندما جاء يوسف قالت له :

ـ هناك شئ حدث هل تحب أن أحدثك ..

وروت له لقاءها بعزيز .. وصممت على أن تذكر مشاعرها وتقلباتها وتصف ابتساماتها ، وحيرتها ، ثم تساؤلها لنفسها إذا ما كانت قد أخطأت فى معاملته .

وابتسم يوسف ابتسامة كادت تشق صدره الماً ، وإن بدت لزينب وكأنها ابتسامة طيبة حنون . وقال يوسف :

ـ إنه معذور .. لابد أنه يتصور أنك جننت .. لأنه يتعامل مع الدنيا ولا يفهمها إلا بمنطق واحد .. وهو أن المرسيدس أغلى من الفولكس ..

كانت زينب تستمع إلى مثل هذه التعليقات التى يصبغ بها يوسف رأيه فى اعترافاتها . بضيق تجهل أسبابه ، كانت على أية حال لا ترتاح إلى هذا التبرير الذى يسرع بتقديمه لتصرفاتها ، وكان يثير فى نفسها شعوراً بالتحدى نحوه . لقد مضى زمن طويل منذ اعترفت له بأنها أعطت جسدها لرجل مقابل ثمن . فقال لها « هذا يحدث فى أحسن العائلات » لم تعد مثل هذه الإجابات تبهرها ، أو تجعلها تشعر نحوه بإعجاب وحب . لقد أصبحت هذه الإجابات أشبه بنوع من الفرار وعدم الرغبة فى المواجهة ، بل أصبحت نوعاً من الاتهام لها ، اتهام ملتو ، ملفوف ، يعزلها عن يوسف أو على الأصح . إن يوسف هو الذى يعزل نفسه عنها .. لماذا لا ينشب أظافره فى اعترافها ، وينبشه ، ويحقق معها ، ويطالبها بأن تردد له المزيد من التفاصيل ، لماذا لا يتشكك فيما تقول ، لماذا لا يتشاجر معها ، لماذا لا يشعرها بغيرته ، لماذا لا يتعامل تعاملاً دموياً معها ، لماذا لا يواجه بشاعتها ، إن تبريراته السهلة السريعة ،

تجعله يبدو متعالياً ، أنوفاً ، كأنه يتفرج عليها ولا يحبها .. ومع ذلك لم تدرك زينب هذه المشاعر بوضوح ، فكانت تشعر بالضيق والتحدى ، أو تشعر بالخوف ، فتسأل يوسف فى خوف حقيقى :

- أتحبنى حقاً ؟

فيجيبها فى دهشة :

- طبعاً يا حبيبتى

فتنظر إليه فى قلق ، وتعجز عن التعبير عما فى نفسها من مخاوف ، فإذا جاء الليل ، كانت تلك الأحلام التى تراودها ، فتستيقظ لتسجلها وتطلب من يوسف أن يفسرها لها فيقول لها ، أنت قادرة على تفسيرها بنفسك ، ويشرح لها الرموز ، ويحدثها عما فى أحلامها من آلام وشعور بالذنب ، وذكريات إجهاض ودعارة ، وحنين إلى فرحة حقيقية وولد . فتستمع إليه فى رهبة تلميذة أمام أستاذ يحاضرها ، وتتذكر فى أحلامها صوراً من طفولتها ، ومشاهد لها مع أمها أو جدتها ، ومواقف تعرضت لها فى بيت إلهام كمال ، وتفرح بالتذكر ويتحرك فيها فضول التعرف على نفسها ، ولكنها لا تكاد تمضى فى التعرف ، حتى يعاودها ضيقها من حديث يوسف ، ولهجة الأستاذ المحاضر التى يحتمى وراءها ، ويعزل بها نفسه عن حياتها ، فتثور عليه وتنتحب ، لتعود وتصالحه وتسأله فى قلق « أتحبنى حقاً » .

ورغم ذلك ، فقد احتفظت زينب لنفسها بذلك الحنين الذى كانت تشعر به نحو حياتها الماضية .. فلم تعترف به ليوسف أبدا .. وجعلت منه أحد أسرارها الخاصة التى لا يعرفها إنسان غيرها فى هذا الوجود . كأنها أدركت بفطرتها أن مثل هذا الحديث عن هذه المشاعر يفسدها أو يعقدها أو يزيل عنها مافيها من سحر وجاذبية ، كما أنها كانت لا تريد أن تسمع من يوسف تبريراً سخيفاً لما تشعر به . وما تعتبره فى قرارة نفسها ، أحد أفراحها التى حصلت عليها فى الحياة ، رغم ما تعرضت له من عذاب وآلام من أجل تحقيقها .. كانت زينب تشرك يوسف فى أحلام ومشاعر أخرى تستقبلها فى يقظتها . فقد كان يراودها

حنين من نوع جديد تماماً لم تعرفه من قبل . حنين للأهل . فقالت ليوسف ذات مرة :

- أنا لم أزر قبر أبى .. ولا أعرف أين مكانه ..

قال لها يوسف :

- هيا نزره .

توجمت برهة ، ثم قالت :

- سأسأل أمى عن مكانه .

ولكنها لم تسأل أمها . ولم تذهب لزيارة قبر أبيها . وكانت تسأل نفسها أحياناً ، أليس لى عم . أليس لى خال .. وتذهب لزيارة أمها .. وقد فكرت تفكيراً طويلاً مرهقاً قبل أن تقدم على هذه الزيارة ، وهى تدبر لأن تكتسب صداقة أمها ، وأن تجعل منها أما حقيقية لها ، وتشعر بأنها ابنتها ، أو كما قالت ليوسف وهى تفكر بصوت عال :

- أريد أن أشعر أنى بنى آدم مثل بقية الآدميين .. أنا أذهب لرؤية أمى . فأشعر كأنى غولة .. كلامى حاد ، لا أريد أن أسمع منها اية كلمة ، وأرفض التعامل معها .

قالت زينب هذه الكلمات ليوسف ، وهما واقفان فى دكان للتحف بالعطارين ، وقد أحاطت بهم أوان خزفية .. وتماثيل من العاج ، وصناديق مزركشة تذكرها بحاجيات جدتها دودوهانم .. ورفعت زينب رأسها إلى سقف الدكان المزدحم بالثريات الكريستال تتدلى منه .. وتأملت نجفة تركية من زجاج بوهيميا الأحمر ، وفحصتها طويلاً فى إعجاب .. وكان الزجاج الأحمر يجذبها إلى عالم مسحور ، ثم سألت يوسف فجأة :

- هل أنا غولة حقاً ؟

قال ضاحكاً :

- أحياناً ..

سألته فى إلحاح طفلة :

ـ قل لى الحقيقة ..

قال محتجاً :

ـ هذا سؤال غريب ياحبيبتى .. أنا أحبك فكيف أقول إنك غولة ..

قالت فى تردد وقلق :

ـ أريد أن أقول لك أشياء كثيرة ولكنى خائفة .

قال متعجباً

ـ تخافين منى ؟!

قالت :

ـ لا .. لست خائفة منك .. ولكنك قد تسخر منى .

وتشجعت فمضت تقول :

ـ أريد أن أكون سيدة اجتماعية .

قال يوسف موافقاً بسرعة :

ـ عظيم ..

فتجهم وجهها فجأة وقالت فى غضب :

ـ أنت سخيف ..

وخرجا من العطارين ، وذهبا إلى البحر ، وشاهدا الغروب ، وقالت زينب بعد أن غرقت الشمس فى الماء :

ـ ليتنى أستطيع أن أجعلك تفهمنى .. أنا أريد أن أكون واحدة من تلك السيدات اللاتى يعقدن الزيارات ، ويعرفن التعامل مع الأهل والصديقات .

وسكتت برهة . ثم قالت :

ـ عندما نعود إلى القاهرة سأزور بنات خالى .. وسأتصالح معهن ..

قال يوسف :

ـ ولكنك لم تتشاجرى معهن .

ـ قالت :

ـ هأنت لا تفهمنى .. أريد أن تكون بيننا صلة اجتماعية مثل بقية الناس .. نتزاور وتكون بيننا ..

وحاولت أن تبحث عن الكلمة المناسبة لتصف ما يكون بينها وبين أهلها ثم قالت :

ـ عيشة .. نعم تكون بيننا عيشة .

ولكن زينب اكتشفت أنها حامل بعد عودتها من الأسكندرية ، فانقطعت الدنيا ، أو هكذا خيل إليها وقضت حياة راكدة تماماً ، حتى جاءها المخاض

وولدت مدحت ، والذى سماه هو يوسف ، وكان يعتقد أنه يقدم لزينب هدية عظيمة بأن يمنح ولده اسم أبيها ، ولكن زينب لم تقابل هذه الهدية باهتمام أو فهم لمغزاها . بل إنها قالت ليوسف :

ـ لماذا هذا الاسم الذى يذكرنى بالموت .. ؟ !

فقال يوسف مدافعاً عن هديته :

ـ أنت تذكرين والدك فى أحلامك . ألم تذكريه وهو يرتدى الروب المخطط .. وبينك وبينه علاقة جنسية ؟

وابتسمت زينب ، وتذكرت دهشتها عندما فسر لها يوسف ذلك الحلم ، وشعرت بأنه فعلاً قدم لها شيئاً عظيماً ، ولكنها لسبب غير مفهوم لديها لا تريد أن تعترف بأهمية أن يكون اسم ولدها مدحت ومع ذلك فقد هيأ لها طفلها الصغير الفرصة التى كانت تبحث عنها فأقبلت عليها أمها وبنات خالها . وجلبت الأم معها قريبات .. كانت تسمع زينب عنهن ولا تراهن منذ زمن بعيد . وردت زينب الزيارات .. وذهبت إلى أعياد ميلاد أولادهن ومعها الهدايا المناسبة ، واستطاعت أن تعقد صلة ما مع أمها ، فتتحدث معها أحاديث عادية هادئة ، خالية من ذلك الإحساس الملح بالتحدى والتمرد وتوجيه الاتهام . ولكنها لم تحقق ما تريده . فقد عادت من إحدى تلك الزيارات وجلست وحدها تبكى . حتى عاد يوسف من عمله . وسألها :

ـ ماذا بك ؟

ولكنها رفضت أن تجيبه . ثم انفجرت غاضبة منه واتهمته بأنه تأخر فى عمله أكثر من المعتاد . وأنها لا يعنيها عمله ، ولا ما يسميه واجبه ، وأنها

ترفض هذه الحياة المهينة الراكدة التى تموت فيها .. إنها لن تعيد سيرة أمها وتتحول إلى خادمة لابنها . ولن تنتهى حياتها بين جدران هذه الشقة الشبيهة بالسجن الذى تتعذب فيه لغيرما سبب جنته . ولم يدم شجارها أكثر من يوم فصالحت يوسف ، واعتذرت له قائلة :

ـ السبب فيما حدث بيننا هو زيارتى لبنت خالى .. كانت زيارة نحس ..

فسألها يوسف فى دهشة :

ـ ألست أنت صاحبة فكرة العلاقات الاجتماعية ؟

قالت :

ـ لا فائدة .. كنت أريد أن أكون مثلهن .. مثل أية بنت أخرى .. أحبت وتزوجت وأصبحت أما لولد .. ولها صاحباتها بينها وبينهن صداقة وعمار .. ولكن حياتى لا تصنع صداقة .. هذا ما اكتشفته وما تأكدت منه .. حياتى تفسد أية محاولة للصلح بينى وبين الناس .

قال يوسف محتجاً :

ـ كيف تقولين هذا .. لقد رأيتهم يرحبون بك .

قالت يائسة :

ـ أنت تعيش فى عالمك .. أنت لا تعرف الناس على حقيقتها .. إنى أجلس مع الواحدة منهن وأفكر .. هل أستطيع أن أحكى لها عن نفسى .. هل أستطيع أن أروى لها قصتى .. هل تفهمنى . فأجد أن مثل هذه المحاولة مستحيلة مرعبة .. لو سمعت الواحدة منهن حقيقة ما فعلته أو ما أفكر فيه سيغمى عليها .. إن قصتى غير العادية تفرض علىّ حياة غير عادية ..

ثم نظرت إليه فى لهفة وقالت :

ـ أنا لم يبق لى فى هذه الحياة سواك .

فقال لها يوسف :

ـ ومع ذلك .. هأنت تغضبين منى .

قالت وهى تقبله :

ـ ولكنى أحبك .. ويجب أن تتحملنى .

همس يوسف :

ـ أحبك نعم .. ولكن أن أتحملك .. فهذا أمر آخر ..

فسألته فى خوف :

ـ ما الذى تعنيه ؟

قال يوسف :

ـ الذى يحب .. لا يشعر بأنه يتحمل من يحبه ..

قالت فى ريبة :

ـ أنت تفكر فى شىء آخر .

قال يوسف مفكراً :

ـ أبدا ياحبيبتى .

فألحت عليه :

ـ لا .. هناك شىء آخر لم تقله ..

قال يوسف متردداً :

ـ كل الذى فكرت فيه .. هو قولك .. إنه لم يبق لك فى الحياة سواى .. هذه الكلمات صعبة يازينب .. ومثلك لا ترضى بأن تقيد حيويتها وتصبح أسيرة لمشاعر إنسان واحد .. سوف يأتى يوم وتتمردين علىّ .

قالت خائفة :

ـ أبداً .. هذه هى أفكارك أنت لأنك ترفض أن أكون أنا كل شىء فى حياتك .

قال يوسف :

ـ كونى عاقلة يازينب .. هناك العمل .. والدنيا .. وبلدنا .. الذى لابد أن نعمل من أجله ..

قالت معترضة :

ـ كل هذا لا يعنينى .. أريد منك ألا تهتم بأحد سواى .. هذا هو الحب الحقيقى الذى لا أرضى بغيره ..

قال يوسف :

- أنت تفكرين فى الحب بجشع طفلة ..

صاحت فيه :

- أنت لا تعرف الحب .. لابد أن أعلمك كيف تحبنى كما يجب أن يكون الحب ..

هتف يوسف :

- أمامك مدحت علميه .. أما أنا فقد تعبت ..

فقالت فى إصرار :

- سأعلمك أنت ..

كانت قد قررت فى تلك اللحظة أن تحصر مشاعرها فى يوسف .. وأن تتخلى عن كل الآخرين .. حتى مدحت ، لقد صاحب ولادته خوف مضاعف على حياته .. وقد تذكرت ولدها الذى مات ، كما أن مدحت لم يشفع لها فى أن تكون مثل الأخريات ، فلم يستطع أن يساعدها فى أن تذوب بينهن ، وأن تتحول إلى مجرد أم عيال ، ليس لها اهتمامات غير تلك الثرثرة التى يلوكونها عن مشاكل العيال وأكلهم وتربيتهم .. لقد عجزت تماماً عن عبور ذلك الحاجز الذى يفصل بينها وبينهن .. إنها ببساطة لا تستطيع أن تحكم على نفسها بالجلوس معهن لتردد كلاماً سخيفاً أو ليراقبنها وتراقبهن ويتفرجن عليها ، وتتفرج عليهن .

وإلى متى تتحمل مثل هذا الموقف الشاذ . نعم لم يبق أمامها سوى يوسف تتشاجر معه وتتصالح معه ، وتعلمه كيف يحبها . لتتخلص من هذا الغباء الذى يقدمه لها الأهل .. وياليته غباء ، إنه نحس وتفاهة ، ومع ذلك بقى الحنين إلى الأهل والناس ، يعاودها ، وبقيت أحلام اليقظة تراودها فى أن تكون يوماً ما امرأة عادية لها حياتها العادية المحافظة الرتيبة مثل الأخريات ..

ولعل هذا الأمل فى الحياة المحافظة الهادئة ، كان سبباً فى انفعالات أخرى من أحلام اليقظة .. كانت تغمض عينيها وتفتحهما . فتجد نفسها فى بيت آخر مع رجل آخر غير يوسف منصور ، حب جديد ، يأتى فيه فارس الأحلام ،

ويتقدم إليها ، ويلقى فى أذنيها بكلمات حب ، ويطلب يدها . ولا تفكر زينب فى تفاصيل طلب يدها ، ولا من هو الشخص الذى يتقدم إليها فى صورة الفارس النبيل ، ولعلها كانت تتخيله على نحو غامض ، وقد جاء بموافقة من أبيها يحمل معه رسالة من مكان بعيد مجهول ، ثم ترى نفسها فى كوشة الفرح بملابس العرس البيضاء محاطة بوصيفات الشرف . والطرحة البيضاء مسدلة على وجهها ، وهى ممتلئة بخجل عذرى ، وعريسها الماثل بجوارها فى ملابس السهرة السوداء ، طويل مهيب ممشوق القوام له عينان سوداوان جسورتان وله سمات حاكم عظيم قلبه يخفق بغرام حار جارف ، وله بيت بعيد فى مكان ناء لا إنه ليس بيتاً ، إنه قصر منيف ، له حديقة واسعة . تحرسها كلاب ضخمة ، تمنع الغرباء من الاقتراب . قصر هناك فى المعادى أو فى أطراف مصر الجديدة ، حيث تعيش حياة هادئة وديعة ، لا تسمع من فارسها إلا كلمات الحب ، ولا تقول له إلا كلمة الحب ، وقد انتهى ذلك الماضى كله ، بذكرياته وتجاربه ، لا تفكر فى المغامرات ، وتنسى كل شىء عن الأهل . حتى يوسف قد اختفى من حياتها وكأنه لم يكن ، فلا يوجد ذلك الإنسان الخرافى الذى اسمه يوسف منصور والذى اعترفت له هذه الاعترافات ، والذى قابل اعترافاتها بتلك العبارات والكلمات المثيرة للغيظ .. وهى ليست فى حاجة إلى أن تعلم أحداً كيف يحبها ، أو تجد نفسها مندفعة إلى الشجار معه ، أو تحس برغبة فى أن تنشب أظافرها فى قلبه ، أو أن ينشب هو أظافره فى قلبها ، لقد اختفى يوسف الذى يعرف عنها الكثير ، والذى يجادلها أحياناً ويناقشها فى تلك الأمور التى خلفتها لها الذكريات ، اختفى يوسف الذى شاهد خروجها من العذاب ، والذى عاش معها كل هذه الحياة المرهقة المتعبة المضطربة بإشكالات وصراعات لا تنتهي . وخمدت الانفعالات ، وانفضت الإشكالات ، ولم يبق إلا فارس الأحلام الذى تتطلع إلى وجهه الغامض قبيل الغروب .. وتكاد تراه يبرز لها من وراء السحب فى الشتاء ، ومن وهج نسيج أشعة الشمس فى الصيف ، ليدعوها إليه لتعيش معه كما يجب أن تكون الحياة .

ولكن هذا الحنين للعاشق المجهول يدفع بها إلى آلام جديدة . فإذا بها

كمرجل يغلى .. تحتدم فى نفسها تلك الأحلام المتضاربة بلا ضابط أو رابط فتكاد تجن ، وتسقط فى يأس مرير . وتصيح فى يوسف :

ـ لقد ضاعت حياتى بسببك ..

فيرد عليها فى حدة :

ـ أنت حرة فيما تريدين ..

فتصيح فى شراسة :

ـ ألا تستطيع أن تساعدنى ؟

فيجيب فى غير فهم :

ـ كيف أساعدك .. ما الذى تريدينه ؟

فتصرخ :

ـ لا أعرف .. لا أعرف ..

ولا تجد زينب خلاصاً مما يعذبها ، إلا فى الإقدام على الانتحار تموت كما ماتت سوسن .. تفتح أنبوبة البوتاجاز فى الحمام أو المطبخ وتموت . تتناول عشرات من أقراص منومة وتموت . تقفز من النافذة وتموت . وقرأت فى مجلة عن انتحار مارلين مونرو .. الفتاة التى عاشت فى طفولتها مع آلام لا تطاق . وبلغت ذروة الشهرة ، بعد أن اندفعت فى ممارسة كل أنواع المغامرات . ثم لم تجد حلاً لحياتها إلا فى الانتحار .. نعم تموت كما ماتت مارلين مونرو .. نفس الحلم الذى سجلته فى كراستها ، وهى تقتل راقصة الباليه .

وقال لها يوسف مفسراً الحلم :

ـ هأنت تقتلين نفسك .. يجب أن تتصالحى مع نفسك لتتخلصى من هذه المشاعر المؤلمة ياحبيبتى ..

ما الذى أفادته من معرفتها بهذا التفسير .. كل ما عرفته من يوسف هو أنها تريد الخلاص من نفسها .. تريد أن تقضى على نفسها .. تضرب بكل هذه الحياة عرض الحائط .. وتعطيها ظهرها وتقول لها .. كفى أيتها الحياة عن هذا السخف .. كفى عن العبث بى والعربدة بمشاعرى .. إنى لا أقبل هذه المرمطة إلى الأبد ..

ولكن زينب لم تحاول مرة واحدة الانتحار . لم تمد يدها إلى أقراص ولم تفتح أنبوبة البوتاجاز وهى تفكر فى أن اللحظة قد دنت لتنفذ ما تفكر فيه . وأصبحت فكرة الانتحار أحد عناصر الدوامة الهائلة التى تصارعها وتكاد تصرعها وما كانت لتستطيع أن تتحمل حياتها ، تمضى بها على هذا النحو تتلاطمها أحلامها وانفعالاتها . إن ما تعانيه من هذه الحال أقسى مما كانت

فيه قبل تعرفها على يوسف منصور . كانت على الأقل تعرف ما الذى تتمرد عليه ، وتكره ذلك الذى كانت تتحداه ، أما الآن فقد اختلط أمامها كل شىء إنها لا تعرف ما الذى تريده . وهى تتحدى من تحبه . وهى لا تثور ولا تتمرد ولكن مشاعرها وأحلامها هى التى تثور وتتمرد عليها ، وتجعل منها أسيرة لها ، مستحيل أن تستمر هذه الحال ، لابد أن أفعل شيئاً لأخرج من هذه الورطة ، هكذا كانت تقول زينب . أخرج إلى الشارع وأبحث عن مغامرة . أو أنتحر قبل أن أجن ..





دخول الدنيا

كان من العسير أن يخضع يوسف منصور تجربة زواجه إلى منطق يشعر أنه مفهوم من الآخرين . إن ما أقدم عليه كان تصرفاً ، كان فعلاً ، كان مخاطرة ، يدرك فى قرارة نفسه أن الآخرين يرون فيها تهوراً وخروجاً فاضحاً على أحكام العقل وما تقضى به الحكمة ، ومع ذلك فقد اندفع فى التصرف ، لأن منطق الآخرين لم يفتح له بابا للحياة . ومقتضيات حكمتهم كانت تحرمه من التعرف على حقيقة نفسه .. فلو أنه تراجع ولم يتزوج زينب ، لشعر بأنه أراجوز تحركه خيوط تقاليد وأحكام ومظاهر لا صلة لها بالحياة لقد ألقى بنفسه فى غمار البحر ليواجه حياته ، وليخرج من عزلة المتفرج الذى يصون نفسه ويحميها ثم يكتشف أن ما يصونه ويحميه هو مجرد فراغ عقيم . كان زواجه بزينب أشبه برحلة إلى عالم آخر . كأنه سافر إلى أمريكا أو إلى روسيا .. كأنه هاجر إلى بلاد غريبة كان يقرأ عنها فى الكتب ويتفرج على صورها فى الأفلام وهو جالس فى مقعد مريح يعانى من الكسل والخمول . بينما تجرى أمامه الأحداث .. ألم يشعر فى لحظة ما ، بأنه وحيد وأنه فى حاجة إلى أن يخرج إلى الشارع ويعانق أول إنسان يصادفه فى الطريق ويقبله ويقول له إنى

إنسان وأنت إنسان فهيا نثبت أننا قادران على أن نعيش معا . ألم تكن أحزانه الحقيقية مصدرها شعوره المخيف بالعجز عن التعامل مع الآخرين وفهمهم وأن يجعلهم يفهمونه إن حبه لزينب وزواجه منها هو الذى فتح له باب الحياة . لقد صدقوا عندما شبهوا الزواج بالدخول إلى الدنيا . وهاهو يدخل دنيا عريضة خصبة محتدمة بالحيوية متوهجة بالحياة . وإذا كان الناس

لا يفهمون تصرفه . فلا أهمية للفهم . إن ارتباطه الآن بالحياة سوف يفرض نفسه عليهم ، وسيدركون حتماً أنه بزواجه من زينب قد شاركهم وتعامل معهم واقتحم غابتهم . وهو يلمس ذلك فى تصرفاته الآن فهو لا يتفرج ، بل يشعر بحماس للاهتمام بكل شيء . إقباله على عمله أكبر ، حماسه للعمل فى التنظيم أكبر ، فهو يطلب لنفسه مسئوليات فى العمل السياسى ، ويشارك فى إلقاء المحاضرات ، ويتخلى عن خجله الطبيعى ويدخل انتخابات الاتحاد الاشتراكى لوحدة العصر الجديد ، مواجهاً ما يقوله عنه منافسوه ، وما يرددونه عن قصة زواجه ، وقد شعر بأن له طاقات كبيرة ، ينفقها فى العمل . ثم يعود إلى زينب ليواجه حبها وحيويتها وانطلاقاتها إنه الآن يتخلص من عزلته ووحدته ويقبل على الناس فى جرأة غريبة عليه . حتى أنه فتح بيته للمحررين وفاجأ زينب بدعوته عبد الهادى النجار وحسن زيدان إلى العشاء . وقبلت زينب الدعوة وهى مستريبة فى أمرها . ولكنها لم تعارضه . فقد كان مرحاً لا يبدو عليه ارتباك أو حرج . واستقبلت عبد الهادى وحسن ، ومن اللحظة الأولى ، أدركت أنهما هما اللذان يشعران بارتباك وحرج ، وسخرت فيما بينها وبين نفسها .. من ضحكات عبد الهادى العصبية ، وأدب حسن زيدان المفرط . ولم يجسر واحد منهما أن يسمح لعينيها أن تلتقى بعينيه . وما كادوا يفرغون من العشاء حتى سارعا بالهرب .

وقالت زينب ليوسف بعد أن خرجا :

ـ أنت مجنون إذ دعوتهما ..

وضحكت .. كأنها ترحب بجنونه .

قال يوسف وعلى شفتيه ابتسامة هادئة :

- ولم لا أدعوهما ؟

قالت فى مرح :

- كان منظرهما غريباً .

ثم وجهت إليه سؤالها الجاد الذى كانت تحتفظ به منذ أن سمعت بأنهما قادمان للسؤال عن بيتها .

- ولكن .. ما الذى جعلك تدعوهما ؟

قال يوسف :

- لأنه طبيعى أن أدعوهما بعد زواجى .

قالت زينب :

- كنت تريد أن تراهما معى أليس كذلك ؟!

قال يوسف :

- لا .. لم أفكر فى هذا .

قالت زينب :

- لا أصدقك .

قال يوسف :

- بل صدقينى .

قالت زينب وهى تقاوم أن تصدق ما يقول :

- لو صدقتك .. فأنت إنسان عجيب ..

وكانت تشعر داخلها بفرحة انتصار ، لم تعبر عنها . حتى مضت على تلك الزيارة ستة شهور عندما فاجأها يوسف بأن عبد الهادى تزوج سعاد حرب محررة باب المرأة والطفل فى العصر الجديد .

صاحت زينب فى دهشة :

- غير معقول !!

ثم غرقت فى تفكير طويل .. وفجأة قالت ليوسف :

- أتدرى لماذا تزوج ؟

• ثم قالت فى تأكيد قاطع :

ـ لأنك تزوجتنى .. ولأنه يريد أن يقلدك .. لقد شعرت بأنه لابد أن يفعل شيئاً عندما رأيته فى تلك الليلة التى جاء فيها عندنا . إنى أعرفه .. لقد واجه فى بيتنا شعوراً بالهزيمة .. كان يتمنى أن يرانى فى بيت من تلك البيوت .. لا أن يرانى زوجة سعيدة .. كان لا يصدق أن هناك شيئاً آخر غير الضياع .. وهو يرى الآن أنه كان مخطئاً ..

فضحك يوسف قائلاً :

ـ احذرى ياحبيبتى الغرور .

فصاحت فى نشوة :

ـ أنا أقول الحقيقة .. لقد تزوج من امرأة لا يحبها . وكم سخر منها فى كلام معى .. ثم أضافت باهتمام وفضول :

ـ ألا يدعونا إلى بيته كما دعوناه ؟

قال يوسف :

ـ لا أستطيع أن أطلب منه ذلك ..

ولم يوجه عبد الهادى الدعوة إليهما ، فكان مصرا على الابتعاد عنهما وكان يتجنب سؤال يوسف عن أحواله فى الزواج . كذلك حسن زيدان الذى كان يثرثر مع المحررين فى صالة التحرير عن زواج عبد الهادى بسعاد حرب . فلما دخل يوسف عليهم قطع حديثه مرتبكاً وقد احمر وجهه على غير عادته . لقد أصبح يتحاشى يوسف . وكف عن محاولاته فى التظاهر بصداقته .. وكان حريصاً على أن يثبت ليوسف أنه بعيد عن أية مناورات يقوم بها منافسوه فى الانتخابات ، فكان يدخل مكتب يوسف ، فيما يشبه اللقاء الرسمى ويؤكد له بلهجة جادة لا تخلو من الانفعال أنه يؤيده ، ولا صلة له بمنافسيه ، ثم ينظر إلى يوسف فى أسى ويقول بلهجة حزينة :

ـ أنا أعلم أنك لا تصدقنى .. ولكنى أقسم لك أن هذه هى الحقيقة .. وينتفض حسن واقفاً ، ويخرج ، وقد غلبة تأثر حقيقى ، وكأنه واثق أن

يوسف لن يصدقه وأنه سيظل دائماً موضع اتهام بأنه مصدر كل ما يرتكب فى العصر الجديد من سفالات . وكان يوسف يصدقه ، ويحاول أن يستعيد ما كان بينهما من مظاهر صداقة . ولكن حسن ينظر إليه فى توجس ، ويقابل محاولات يوسف . بنظرات حذرة خائفة . ويسارع بقطع ما بينهما من حديث . معتذراً بانشغاله بعمل ما . لم يعد حسن قادراً على التظاهر بأى نوع من أنواع العلاقة بيوسف . وكان عاجزاً تماماً عن إدراك محاولات يوسف لأن تكون بينهما علاقة جديدة غير تلك التى كانت بينهما فى يوم من الأيام .

- ولم يستطع يوسف أن يدعو دياب إلى بيته ، لأنه مرض ولزم فراشه ، وكان قد أرسل إلى بيت يوسف باقة كبيرة من الورد بمناسبة زواجه ، وأرفق بها بطاقة كتب فيها بحماس واضح « بكل إخلاص ومن صميم قلب صديق وفى ، وزميل كفاح ، أدعو الله لكما بالزواج المبارك السعيد وبالرفاء والبنين ، والأحفاد . وأن يجعل أيامكما كلها أفراحاً وأعياداً ..» وزاره يوسف فى بيته ، فقابله فى سريره شاحب الوجه ، واهن الجسد ولكنه كان يقاوم ضعفه ليرحب بيوسف . وجعل يردد :

- يجب أن تغفر لى كل ما بدر منى .. لقد أخطأت فى حقك .. وما شعرت فى حياتى بندم مثلما شعرت نحو ما قلته لك .

وتنهد ، وبدا أنه يوشك على البكاء تأثراً وقال :

- إنى أعيش الآن بهذين البيتين من الشعر ياصديقى .. أفطر وأتغذى وأتعشى بهما وردد دياب :

« لا تعذليه فإن العذل يولعه » .
« قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه » .
« فاستعملى الرفق فى تأنيبه بدلًا » .
« من عنفه فهو مضنى القلب موجعه » .

ثم تنهد وقال :

- إنى متعب ، ولا أدرى هل أستطيع أن أواصل العمل معكم أو أطلب نقلى إلى مكان آخر .

وسرت شائعة فى العصر الجديد .. أن دياب مرضه خبيث ، وقالوا إنه سرطان فى الدم .. وتحولت هذه الشائعة إلى يقين عندما جاء عبد الهادى النجار بأخبار تؤكد أن دياب سوف يترك الجريدة . واتصل دياب بيوسف وطلب منه أن يزوره ، وقال له فى ألم :

ـ يقولون إنى مريض بالسرطان وهذا غير صحيح .. الكلاب عبد الهادى

وحسن زيدان يريدان موتى .. كذب هذه الشائعة يايوسف .. فهم يسلقونك وهاجم الكلاب ولا ترحمهم .. لن تفيدك طيبة القلب .

كان دياب يخاطبه فى حنان زائد ، وينظر إليه فى شوق وقال ليوسف قبل أن يتركه :

ـ يجب أن تزورنى كثيراً .. فأنا أحب أن أراك ..

ثم قال :

ـ لقد أوصيتهم بأن يكون لك وضع أهم فى التنظيم .. وأنا واثق أنك تستطيع أن تفعل الكثير ..

كان يوسف ينقل هذه المشاهد بتفاصيلها إلى زينب ، وكان يدهش لأنها تفسر كل ما يقوله على أنه حدث بسبب زواجهما ، وكأن هذا الزواج هو الذى يحرك نفوس البشر ، وكأنه معجزة آثارها تمتد إلى الجميع .. هكذا كانت تريد أن ترى الدنيا فى ذلك الوقت .. فكان حديثها يبدو ليوسف كنوع من الثرثرة .. أو أحلام أطفال .. وكان يحاول أن يقطع ثرثرتها ليجرب معها حديثاً جاداً فى السياسة أو عن عمله ، فتستمع إليه وكأن ما يقوله هو استمرار لثرثرتها ، وحدث أن كانا يشاهدان مسرحية فكاهية فى التليفزيون . عندما سمعا شويكار تنادى فؤاد المهندس :

ـ ياكوتوموتو ..

فالتفتت زينب إليه وسألته :

ـ ألم يدللك أحد باسم غير يوسف ؟

قال :

ـ أبداً ..

قالت له :

- ولا والدتك ؟

قال :

- أبدا ..

فنظرت إليه فى دهشة وكأنها تختنق من شىء اكتشفته ولا ترضى عنه .

وقالت :

- لهذا .. أنت جاد دائماً .

قال :

- وما العيب فى ذلك ؟

قالت :

- لأنك لا تعرف كيف تعامل المرأة .

قال مستسلماً للاتهام :

- هذا صحيح .. فأنت أول امرأة فى حياتى ..

وما كاد يقول كلماته .. حتى أدرك أنه وجه إليها معنى لم يكن فى حسبانه ، لقد ذكرها بأنه ليس الرجل الأول فى حياتها . كأنه وجه إليها اتهاماً . وارتبك . ولكنها مضت تقول :

- لابد أن كانت فى حياتك نساء كثيرات ..

قال :

- لا قيمة لهن .

قالت فى ثقة :

- وأنت أيضاً حبى الأول .

وتنهد فى ارتياح . وشعر نحوها بحنان وامتنان . إنها لم تلتقط اتهامه ، ولم تفطن إليه . ولام نفسه لتلك المقارنة التى يفرضها بينه وبين نفسه ، بين ماضيها وماضيه . كان يريد أن ينسى كل هذا ولا يفكر فيه . ولو كانت تهتم بحديثه الجاد ولا تتكاسل أو تشرد أو يبدو عليها عدم الاهتمام أو الإدراك لجدية ما يقوله لساعدته على أن ينسى تماماً تلك المقارنة بين حياتها وحياته

الماضية ، ولكنها مصرة على انشغالها بهذه الثرثرة عن تسريحة شعرها ، أو تفصيلة فستانها الجديد .. أو حذائها أو حقيبتها التى أعجبت بها عندما رأتها فى إحدى فترينات شارع قصر النيل . حتى فوجىء ذات مرة وهو يحدثها عن مقال يريد كتابته عن البترول العربى ، بملل لا تخفيه وغضب يلوح فى وجهها ، لأنها كانت تحدثه عن قماش جديد اشترته فقاطعها ، وتكلم عن البترول

وانفجرت غاضبة :

- هذه قلة ذوق منك .. على الأقل تتظاهر بالاهتمام بما أقوله ..

وأدرك أن ما خيل إليه أنه ثرثرة إنما هو حديث جاد بالنسبة لها ، وأن حديثه الذى كان يعتقد أنه جاد ، مجرد ثرثرة بالنسبة لها . ولكن هذه المناوشات لم تصل أبدا إلى درجة من الحدة تفسد ما بينهما من حب وصداقة .. فكل ما تقوله مقبول حتى لو كان لا يوافق عليه ، وكل ما يقوله مقبول حتى لو كان لا يهمها ، وكانت أحياناً تفاجىء يوسف باهتمام غير متوقع بتلك القضايا السياسية التى يثيرونها فى الصحف والتليفزيون ..

فتسأله :

- ما هذا الذى يتحدثون عنه ليل نهار عن اجتماعات عربية ؟

أو تسأل :

- ما الذى يفعله الاتحاد الاشتراكى .. أريد أن أفهم ما الذى تفعلونه ؟

ولكنه لا يكاد يبدأ الكلام ، حتى تقاطعه وقد هجم عليها الملل . وكأنها ندمت على إثارة الموضوع ، ويتهمها يوسف أنها لا تريد أن تفهم هذه القضايا الخطيرة التى يتوقف عليها مستقبل البلد . فتسخر منه ، ثم تسخر من غضبه دون أن تتخلى فى سخريتها عن شقاوة الطفلة ..

يقول لها يوسف :

- ألا تتخلين عن هذه الطفلة الشقية .. لقد كبرت يازينب ؟

فتدافع عن نفسها بوضوح لا تقدر عليه طفلة :

ـ سأظل كما أنا ..

ثم تضيف :

ـ أعترف لك بأنى لست زوجة ولا أماً .. ولا شقيقة .. وتضحك ثم تكمل الحديث عن نفسها :

ـ وبعد زواجى منك .. لم أعد حتى عشيقة .

كان يراها متمسكة بأن تكون الطفلة المتحررة من كل القيود . القادرة على أن تسخر فى حرية واطمئنان من كل ما يقول . وهى واثقة من حبه . واثقة من أن غضبه لن يجعله يفقد ذرة واحدة من حبه لها .

فيقول يوسف محتجاً فى سخرية وحنان :

ـ أنت ياحبيبتى تبرطعين داخلى .

كان يوسف يرى من خلال هذه المناوشات نفسه أكثر فأكثر ، كان قادراً على أن يفهم ، وعلى أن يحدد ماذا يجب أن يصنع ، وأن يبلور بعض الأفكار التى تبدو له هامة ، فحديثها معه ، هو فى نفس الوقت ضمان له بأن الحب لن يغمره فى دوامة ، بل هو يفتح له بابا للخروج من الدنيا أو دخولها . الشيء الوحيد الذى يستغرقه تماماً فى حبه لزينب هو جسدها . فهو يأخذ منه كل الحب ، فعند ماتستقبله بجسدها كأنها تأخذ روحه ، ولكنها بعد ذلك ودون أن تدرك هى ، تعيد له روحه أكثر توهجاً ورغبة فى الحركة والتصرف بعيداً عنها ، ولقد شعرت زينب بذلك على نحو غامض فقالت له ذات مرة :

ـ أنا لا أشعر بأنك تحبنى .. إلا وأنت معى بجسدك .. ثم تتركنى وكأنك غريب ..

وكان لا يعرف كيف يجيبها ، أو يشرح لها ، أنه عندما يموت فيها ، يستعيد حياته كاملة . مستقلة عنها .

وعندما حاول أن يشرح قال تلك الكلمات الصعبة :

ـ أنت تميتيننى ثم تحييننى بجسدك ..

قالت فى تهكم لا يخلو من زهو :

- لا أريد أن أحييك لتبعد عنى . وقرصته من أذنه وقالت :
- إذا شعرت يوما ما أنك تبعد عنى . فسألتهمك .. وأميتك إلى الأبد ..
قال وهو يقبلها :
- هذه ميتة لذيذة .. أنا على استعداد لها .
ولكنه شعر برجفة خفية بمجرد أن قال لها هذه الكلمات ، رجفة خوف وإنكار لما يقول ، واكتشاف لأنه يكذب ، رغم أنه لا يريد أن يكذب ، فهى لن تقضى عليه . وهو لم يجد فى حبها إلا بابا يدخل منه على الحياة .. وهو صادق عندما يهمس فى أذنها كلما التقى جسداهما :
- أحبك أكثر .
فتهمس :
- ألن تشعر بملل ..
فيهمس :
- لا .. كلما عرفتك .. كلما أحببتك أكثر وأكثر ..
فتقول وفى عينيها شقاوة :
- لم أكن أعرف أنك تهتم بالجسد كل هذا الاهتمام .
ولكن ارتباطه الجسدى لم يستغرق مشاعره . رغم أن فرحته به كانت أعظم مما توقع . وكان يعجب من أنه لا يتعود على هذه الفرحة . وكانت تملأه إلى درجة يعجز عن التعبير عنها بالكلام . وقد حاولت زينب أن تدفعه إلى أن يعبر عما يشعر به ، كانت ترى أن من حقها أن تسمعه يقول لها كم هو فرح بها ، وكم هى تؤثر فيه وتنقل إليه شعوراً بالسعادة الغامرة يحصل عليها منها ، ومنها وحدها ، ولكن صفة « البجم » كما كان أبوه يتهمه . كانت تلاحقه وتتشبث به بمجرد حصوله على الفرحة والنشوة ..لو أنه كان تعود على فرحته ، لكان استطاع أن يكون عاشقاً مثل الآخرين ولأصبحت صلته بها عادة تسمم جسده ، وينشدها ويلح فى طلبها ولكنها لم تصبح عادة ، وهو لدهشته لم ينشدها ، ولا يلح فى طلبها رغم ما تقدمه له من فرح ، فكان لقاؤهما الجسدى يبدو وكأنه يتم صدفة ، حدث غير متوقع قبل حدوثه

بلحظات . ولذلك لم يتعرض أبدا لذلك الشعور الخفى بالرغبة فى الخلاص من هذا الإدمان الذى يأسره ويسمم جسده . كانت حدة الحياة وحيويتها تبعده عن الملل ، وكانت لحظات سعادتهما غير متوقعة ، فلم تذبل ولم يتسرب إلى علاقتها ما يتسرب إلى كل علاقتهما بين رجل وامرأة .. كان هناك شعور غير واضح ولا محدد بالامتلاء فى نفس يوسف ، شعور بالراحة وسط زوابع

وأعاصير أعصابها الثائرة . شعور بالصفائية والصفاء وسط هجمات المخاوف التى كانت تنتابها . والتى عبرت عنها فى إلحاح وقسوة فى كراسة أحلامها . حتى أنه كاد يصاب بنوع من البلادة ، هى التى اتهمته بها ، ونبهته إليها ، قد فاجأه هذا الاتهام ، فهو يبذل طاقة مضاعفة فى العمل وفى التنظيم ، ثم هو يتقبل باهتمام كل ما تبديه رغباتها فى أن تكون سيدة مجتمع أو بنى آدم مثل بقية الآدميين ، أو وهى تثور فى أعقاب زيارة لأمها وتفاهتها ، أو وهى تلوم نفسها أو بنات خالها . من أحاديثهن لأنها لا تستطيع أن تتعامل مع غيره من البشر ، أو حتى وهى تحلم أمامه برغبتها فى الحياة بعيداً عن كل من عرفوها وعرفتهم ..

وكان يسمعها تهتف بحرقة :

ـ أريد أن أبعد عن هذه الحياة .

فيسألها :

ـ بعيدا عنى أيضاً ؟

فتقول :

ـ نعم .. وبعيداً عنك أنت بالذات ..

فيبتسم وتبتسم ، ولا يدرك مدى ما يعتمل فى نفسها من عنف المشاعر ، وإلى أى مدى تحترق بهذه الرغبات والانفعالات . فرغم اعترافها . فهى تبدو له مستقرة واضحة . حتى عندما قالت له ذات مرة :

ـ هل تظن أن واحدة مثلى قد يكون مصيرها الانتحار ؟

فقال فى هدوء :

ـ أى شيء فى هذه الدنيا ممكن .

نظرت إليه فى دهشة . ثم ابتسمت وقالت :

ـ كم أنت بليد .. ألا يعنيك أن أفكر فى الانتحار .. ولكن اطمئن فلن أتركك لتتزوج واحدة غيرى .

وأخرجت لسانها وقالت :

ـ سأظل بجانب جثتك فوقها أكتم أنفاسك .

قال فى هدوء :

ـ لو مت أنا .. فستتعرفين على رجل آخر قبل أن تشيع جنازتى .

قالت فى تحد :

ـ طبعاً ..

قال ضاحكاً فى عصبية :

ـ أنصحك أن تفعلى هذا .

قالت فى غيظ :

ـ لست فى حاجة إلى نصيحتك ..

ولكن مثل هذه المبارزات .. التى تحاول فيها أن تنهشه .. لم تكسر شعوره بالطمأنينة .. ولم تكسر شعورها بالثقة فيه ، وأنه لن يفكر أبدا فى واحدة غيرها ، ولكنها كانت تصرخ فى غيظ :

ـ منذ تزوجتنى .. أصابتك بلادة مخيفة فى الشعور .

وكان يتوجس أنها تمتحنه ، وأنها تهاجمه لتطمئن إلى صلابته . واستقراره ، وأن ما يربطهما يعتمد كثيراً على هذا الذى تتهمه بأنه بلادة فى الشعور ، كان الشد والجذب بينهما أشبه بلعبة يمارسانها لإثارة أعصاب تخشى الاستقرار الذى لم تتعود عليه من قبل . وتخاف أن تفقد ما بها من حدة وحيوية ، وقد استطاع يوسف مع الوقت أن يخرج زينب من هذه اللعبة ، وأن يشغلها أحياناً بما يعتقد أنه أهم . فكان يقرأ لها مقالاته الأسبوعية فى السياسة الدولية قبل نشرها ، فتنصت إليه ، وقد تلقى بتعليق ، ثم قبلت أن يملى عليها مقالاته ، وكانت تسأله عما بها من معلومات وتطلب المزيد .

وسألته ذات مرة :

- كيف لم أهتم بهذا من قبل ؟ .

كان يمليها مقالاً عن توزيع الثروات فى العالم العربى .. ونصيب الفرد الواحد بالجنيهات .. وهالها ذلك الثراء الفاحش عند البعض ، وذلك الفقر المخيف عند البعض ، وخيل إلى يوسف أنها قررت الاهتمام بعمله ومقالاته .

ولكنها قطعت خياله بقولها :

- ربما كان أفضل لى أن أتزوج شيخاً من شيوخ البترول ..

ثم استدركت بسرعة وكأنها تخاطب نفسها ..

- ولكن الأغنياء الذين عرفتهم لا يحتملون ..

قال يوسف :

- بينهم ناس طيبون ..

فقالت فيما يشبه القرار الحاسم :

- الرجل الطيب الوحيد الذى عرفته غيرك .. هو عم صالح .. وهو فقير ..

قال يوسف :

- وأنا أيضاً فقير ..

قالت :

- لا تقارن بينك وبين عم صالح .. إنه يسكن حجرة فى السطوح وينام على دكة خشب ..

ثم أضافت فى لهجة حنونة :

- كم أحب هذا الرجل .. أحياناً أفكر فيه وكأنه أبى ..

قال يوسف :

- السياسة الحقيقية هى التى تعمل من أجل عم صالح ..

فهتفت زينب :

- لا أحد يعمل له شيئاً .. إنه هو الذى يعمل للآخرين ..

ولم يستطع يوسف أن يحدثها بالمزيد عن السياسة ، فقد قفزت فجأة ، ودخلت الحمام . وسمعها تغنى تحت ماء الدش ..

وانصت يوسف إلى غنائها وهو يشعر بأن هذا الغناء قد امتزج بروحه على نحو ما ، ولكنه امتزاج ما زال يتصارع داخله ، إنه يسمعها تغنى وقد امتلأ بذلك الجنان الذى يعجز عن الإفصاح عنه ، وهو يضحك أحياناً ضحكات عالية تشبه ضحكاتها ، وقد يفاجىء نفسه وهو يفكر بنفس الطريقة التى تفكر بها ، حتى وهو فى اجتماعات التنظيم .. يقطع المناقشة بضحكة ، وكلمة ساخرة ، يبتسم لها الجميع ، وينظر إليه فى سرور ، وعندئذ يتذكر زينب ، وكأن الابتسامات موجهة إليها ، إلى وجودها الذى يكمن داخله ، والذى يراقبه مراقبة دقيقة .. تعطل الامتزاج . وتزيد من حدة الصراع بين وجودها وبين نفسه داخل نفسه . صراع لا هدف وراءه .. فهو لا يريد أن يتخلص من ضحكته العالية الجديدة . ولا يريد أن يمنع نفسه من أن يعجب بنفس ذوقها فى الفساتين والألوان . ولا يعنيه أن يكشف ذوقاً خاصاً له فى هذه الأمور . بل هو يرحب باستضافة وجودها داخله . ولكنه لا ينساه ، ولا يتركه ينساب داخله ويمتزج به فى هدوء . وكأنه يتوقع منه مفاجأة تؤلمه أو خطرا يحيق به ..

وقد شعر بهذا الخطر . عندما قالت له زينب إنها قابلت إلهام كمال فى الطريق . وأنها سألتها أن تزورها ..

قال لها يوسف وقد هجم عليه ذلك الشعور بالخطر :

- هل تريدين زيارتها ؟

فنظرت إليه فى تحد وقالت :

- نعـــــم .

قال فى هدوء مصطنع :

- ما زلت تشعرين نحوها بصداقة ..

قالت زينب مواصلة تحديها :

- ليست لى صديقات غيرها ..

وذهبت لزيارة إلهام كمال . وأثناء غيابها ، كان يوسف يعانى من نفسه أكثر مما يعانى من ذهابها .. كان يواجه وجودها الذى يستضيفه داخله .

يمنع ضحكته التى أخذها عنها .. يرفض ماتراه عيناه من ألوان تعجبها .. ويتوقف عن إبداء ملاحظة عابرة ساخرة على طريقتها . كان يطاردها ، فيطارد نفسه . حتى عادت إليه من تلك الزيارة .. فرآها واجمة ، وكان قلبه يخفق . فيواجهها بصمت عنيد . وصاحت فيه :

ـ الا تسألنى عما فعلت ؟

نظر إليها صامتاً .

وهتفت :

ـ أنت غاضب من ذهابى ؟

قال فى غضب :

ـ لم أقل هذا ..

قالت وقد انفجر غضبها :

ـ أنت تقبل أن تموت .. ولا تطلب منى شيئاً .. أصنعه من أجلك .

قال فى هدوء :

ـ هذا صحيح .

صاحت فى حرقة :

ـ لماذا .. لماذا ؟.

قال يائساً :

ـ لا أدرى ..

وهدأت .. وعادت تصف له كيف استقبلتها إلهام بترحاب كبير لم تسترح له .. وكيف أنها اكتشفت أن إلهام تغير من زواجها . وروت له كيف انطلقت إلهام فى حديث طويل لاتشك فى أنها اخترعته عن رجل كان يحبها فى الماضى . ثم جاءها يعرض عليها الزواج أخيراً وبعد عشرين عاماً من القطيعة بينهما . ثم قالت زينب منكرة :

ـ تصور أنها تدعى أن هذا الرجل هو دياب .. وأنها رفضت عرضه للزواج منها .. ثم قضت ليلتين تبكى ..

قال لها يوسف فى دهشة :

ـ سمعت منها هذه القصة من قبل ..

صاحت زينب :

ـ أيـــن ؟

قال يوسف :

ـ فى بيتها .. ولكنى لم أعرف منها أنه دياب ..

قالت زينب فى عجب

ـ إذن فقصتها حقيقية ..

قال يوسف :

ـ لا أدرى إنها أشبه بالمصادفات التى تحدث فى الروايات العبيطة التى تخرجها السينما المصرية ..

ثم ضحك وقال :

ـ مسكين دياب .. إن أغرب الأشياء تحدث له .. ويخيل إلى أنه السبب فى ذلك .. فهو يعيش فى عالم غريب .. كله قيم ومعتقدات حماسية .. وكأنه يحارب حرباً مقدسة من أجلها .. هو الذى جلب لنفسه هذه المواقف الخرافية المضحكة .. التى تنتهى بفاجعة ..

كانت زينب تستمع إليه ثم انفجرت :

ـ هل هذا هو كل ما يهمك .. أن تتحدث عن دياب .. أتهرب من سؤالى عما قالته إلهام ..

نظر إليها فى دهشة وسأل :

ـ ماذا قالت لك ؟!

قالت زينب وهى تلقى بنظرات فى عينيه :

ـ لقد لمحت لى .. بأن أعود إليها .. قالت لى .. إنها تفتقد أيامى .. وجنونى ..

فابتسم يوسف ولم يجب كان يقاوم نفسه فى عناد وصبر .

وصاحت زينب :

ـ إنها لا تحبنى .. ولا أريد أن أعود لزيارتها ..

وسكت يوسف .. بينما همست زينب :

ـ هل ضايقتك ياحبيبى ؟

قال متجهماً :

ـ أبــــدا .

فقالت فى حنان واعتذار :

ـ لن أفعل ذلك مرة ثانية .. ليس لى أحد سواك ..

كانت حياتهما تبدو وكأنها تتغير .. بكل ما حدث بينهما ، ولكن هذا التغير بدا وكأنه على السطح . فالماضى ما زال جاثماً بحكاياته وانفعالاته .. وهاهى إلهام كمال تعيده من جديد بكل وضوح .. زينب ما زالت لم تتخلص مما كانت فيه . ولكنها لم تتخلص أيضاً من حيويتها ، فالماضى ليس كله عذاباً ، وهاهى حجرات بيتها تأخذ طابع الدندشة التى تذكرها بحجرة جدتها دودو هانم .. وهاهى قد نثرت فى البيت أشياء جلبتها من أمها كانت لجدتها .. الصناديق المزركشة وصور الأعمام والعمات والأجداد والجدات .. وسجادة صغيرة كانت تصلى عليها دودو هانم قبل مرضها .. إن الحاضر مثقل بالماضى .. ويوسف يواجه ذلك الامتزاج الذى يتسلل إليه ، ويراقبه ، ويستشعر منه الخطر ...





الخطـــر..

كان إحساس يوسف بالخطر قوياً ، فى أية لحظة قد تخونه زينب ، فى أية لحظة قد تنهار أعصابها وتفقد تماسكها وسيطرتها على نفسها وتقدم على أى تصرف ، غير أن يوسف واجه هذا الإحساس بمحاولة الانشغال عنه بمطالب الحياة اليومية ، تماماً كما ينشغل أى إنسان بحياته ، وهو فى أعماقه يعرف أنه محكوم عليه بالموت ، وأنه قد يموت فى أية لحظة . إن فكرة نهاية العلاقة بينه وبين زينب بشكل ما ، فى وقت ما ، كانت عنده أشبه بفكرة الموت ، وخطرها هو نفس خطر الموت ، ولأن هذا الخطر جسيم ، ولا يستطيع أحد من البشر أن يتحمله ويواجهه فى كل وقت ، فقد جاهد يوسف حتى لا يواجهه ، وليجعله يتراجع إلى الوراء ، فيتخذ حالة أشبه بهذيان خفيف تنتاب يوسف من حين لآخر فيما يشبه الحمى البسيطة التى يتحملها المصاب بالبرد فيقاومها ، ويواصل ممارسة نشاطه اليومى على أمل أن تزول هذه الحمى ، ويذهب البرد وينقشع الصداع . كان يوسف مصرا على أن تستقر به الأمور فى حياته الجديدة مع زينب وأن تصنع العشرة بينهما حياة جديدة من نوع آخر غير تلك التى خلفتها لهم ذكريات الماضى . وكان أحياناً يخيل إليه أن تلك

المخاوف التى تحيط بعلاقته بزينب هى مخاوف شخص آخر ، غيره . وأن هذا الشخص يزامله لبعض الوقت ، ولكنه سيذهب يوما ويتركه لزينب جديدة تعيش مع يوسف جديد .. وهكذا حاول يوسف أن ينظر إلى حياته وكأنها خالية من العقبات ، أو ستخلو يوما ما من كل العقبات . وذات ليلة كانا راقدين فى السرير وقد دفنت رأسها فى صدره ، وإذا بزينب تسأله :

ـ يوسف ما الذى يشغلك

وبدا وكأنها ضبطته متلبساً بتلك المخاوف التى يحاول طردها من رأسه ، وكانت قد لاحظت طوال النهار نظراته الجافة الباردة ، وعزوفه عن الحديث ، فثارت فى نفسها مشاعر مبهمة ، حتى جمعهما الفراش فلم تطق أن تكتم مخاوفها وهمست زينب :

ـ هل أنت نادم على زواجك منى ؟

فقال له بصوت غلبه الانفعال ، انفعال من يتهرب من الإجابة ، لا من يريد مواجهتها بمرارة :

ـ أبدا ياحبيبتى .

وضايقته إجابته الجافة ، التى لا تتناسب مع خطورة السؤال ، وأحس بضيق فى صدره ، فقال بسرعة بحرارة مصطنعة :

ـ لا أسمح لك ياحبيبتى أن ترددى هذا الكلام .

قالت بصوت جاد :

ـ ولماذا لا أقول لك ما أشعر به ، أنت تتهرب من سؤالى ، ويجب أن تكون صريحاً معى مثلما أنا صريحة معك .. أنا أريد أن أراك فرحاً سعيداً .. وأنت لا تبدو لى كذلك .

قال مرتبكاً :

ـ ربما أنا متعب .

قالت محتجة :

ـ لا .. أنت منذ الصباح متجهم ترفض الكلام . نظراتك تتجاهلنى ..

فقاطعها ..

ـ المسألة أبسط من هذا بكثير أنا متعب وأريد أن أنام .

ـ أنت تكذب .

قالتها بصوت شرس ـ وكانت قد جلست فى السرير تريد أن تفترسه بنظراتها .. ومضت تقول :

ـ أنا لا أحتمل هذا .. إذا كنت نادماً قلها بصراحة . لا أحد يفرض عليك أن تعذب نفسك .

ـ أنا لا أعذب نفسى . وليست لى حياة أخرى غير حياتى معك ..

صاحت :

ـ هل أنا لا أفهم ما أراه .. هل تريد أن تتهمنى بالجنون .

قال يوسف محاولاً اصطناع الهدوء :

كل ما فى الأمر عصبية أكثر منِ اللازم .

فصاحت فى وحشية :

ـ هل كنت تريد أن تتزوج امرأة أخرى .. أن يرتبط مصيرك بواحدة ليست لها مشاكل .

قال بصوت مرهق :

ـ أنا لا أفهم ما تتحدثين عنه .

فصرخت :

ـ قلت لك إنك تكذب .

حاول أن يبتسم ، وقال وهو يتألم :

ـ صدقينى ياحبيبتى .. أنا أحبك بمشاكلك .. أحبك كما أنت .

فصاحت فى هياج :

ـ لماذا لا تقول الحقيقة .. وتعترف بأنك تكرهنى .

فتح فمه ليطلق صرخِة ألم ، ولكن الصرخة لم تنطلق . إنها لم تفهمه ، ولعلها لن تفهمه أبدا .. إنها لا تريد أن يتخلص مما كانت فيه ، تريد أن

تواجهه بخطرها الذى يبذل كل جهده ليتخلص منه ، كلما أقلقه شىء خاص بالمستقبل . فسرت قلقه على أنه يكره الماضى ، يكره ماضيها ، كلما عجزت عن فهم مشاعره ، أو بدا لها أى تصرف من تصرفاته غامضاً نبشت كل الذكريات ، وفجرت كل المواقف القديمة ، كأنه لا ضمان لها إلا فى أن تذكره ليل نهار بما كان ، لابد أن تعيد المواقف ، لابد أن تسترجع لحظة اتخاذ القرارات . وتستعيد الشكوك والعذاب ، مثل أولئك الذين يعيدون مشاهد

تعذيب الحسين ومصرعه ، ويبكون ويعذبون أنفسهم عاماً بعد عام لمئات السنين ، ولا طريق واضح أمامهم إلا فى تكرار المعاناة ، وممارسة العذاب ، كيف يقطع هذا التكرار الفاجع ، لعله كان يستطيع منذ بدأت فى سؤاله ، أن يدفق عليها حناناً جارفاً يقتلعها من تلك الحالة التى تورطت فيها ، لو كان أسرع بتقبيل يدها ، بتقبيل قدميها لو كان أكثر حضوراً للبديهة ، فهمس فى أذنها بكلمات حب ، لو كان واجه سؤالها بابتسامة صافية ، ولم ينفعل ذلك الانفعال المريب الذى أراد به أن يتهرب من سؤالها ربما كانت الآن هادئة راضية ، ولكن ها قد فات الأوان ووقعت الواقعة ، ولابد أن تراه يعانى من نفس الآلام التى تعذبها حتى ترتاح ربما لن تكف عن مهاجمته حتى تراه يبكى . وعندئذ تحصل على حريتها فى الانطلاق والخلاص من كل هذا الذى أثارته . كيف يشرح لها هذا كله ، إنه غير واثق من صحة ما يفكر فيه ، ولعله يرسم فى خياله صورة غريبة لها ، قد تكون حقيقية وقد لا تكون ، ولكن كيف يتأكد . الشىء المؤكد الوحيد هو أنهما الآن معا .. الشىء المؤكد الوحيد هو أنهما ارتبطا بالحياة معا . أما هذا الخاطر الذى يلح عليه بأنها تريد أن تراه يتحمل عنها ما كانت تشعر به من آلام . فهو خاطر لا يستطيع أن يبوح به لها . بل لا يستطيع أن يقنع نفسه بصحته ، لو فعل ، فكأنه يجعل منها قصة يرويها لنفسه ، ويحلل شخصيتها ، كما يفعل الناقد الأدبى .. لا .. إن زينب الأيوبى ليست شخصية فى رواية يقرأها إنها أم ولده ، زوجته وحبيبته ، وهى ليست ذكريات يستعيدها وكأنها مسرحية يشاهدها أكثر من مرة . ولابد أن تساعده زينب فلا تصر على أن تحول العلاقة بينهما إلى أسطورة ، أو فيلم فى

السينما لا حياة زوجية ينعمان فيها بنوع من الهدوء والاستقرار ، فلا يكون بينهما هذا الشجار الملح ، ونبش الماضى ، ولا يكون بينهما أحكام تصدر عليه منها ، أو منه عليها .

قالت زينب محتدة :

- يجب أن أعرف الآن ما الذى تريده من حياتنا ؟

فاعتدل يوسف . وقد اغرورقت عيناه بالدموع . ولوح بيديه يائساً :

- أريد أن تكونى سعيدة معى .

وفجأة تغير صوتها ، وتحول من الحدة إلى الحنان ، ولكنه حنان عاصف .

وقالت :

- أنا على استعداد لأن أفعل ما تريد .. ما الذى تريده .. قل بوضوح .. حقيقة أنى أريد أن أعرف .. لأنى ..

تهدج صوتها وهى تقول :

- لأنى أريد أن أعيش .

قال وقد نشط عقله ، وتخلص مما كان يشعر به من إرهاق :

- أريد أن تكون بيننا علاقة . لا أطلب منك و لا تطلبى منى .. ولا تسألينى .. ماذا تريد منى ؟ ولا أسألك ماذا تريدين منى ؟ .. ولكن أنا وأنت ... نحن الاثنان معا نصنع حياتنا معا .. ما نضع فيه روحينا وعواطفنا ، هو ما نريده .. وما عداه لا قيمة له .

قالت وهى تهز رأسها فى غير فهم :

- أنا لا أفهمك .. وكأنك تتعمد إغاظتى .. لو كنت تحبنى لطلبت ، ولقلت لى .. إنى أريد ولأخذت كما آخذ منك .

قال مفكراً :

- أنت تتحدثين وكأننا غريبان أليس هناك ما هو أكثر بيننا ..

فصاحت :

- ما هذا الذى هو أكثر ..

كاد يقول .. إنهما واحد .. هو وهى حياة واحدة فى جسدين .. ولكن قبل أن يقول كان صراخ مدحت قد ارتفع فى الحجرة المجاورة ولعله استيقظ على صراخها .

وهمس يوسف مذعوراً :

- الولد يبكى ..

فصاحت :

- يبكى . ينفلق . ولكنى أريد أن أعرف كيف ستكون حياتى معك .

وبدا أنها تفقد سيطرتها على نفسها ، وأنها تريد أن تحطم كل شيء وتمزق تلك العلاقة التى بينها وبين هذا الرجل الذى لا تفهمه . بدا وكأنها ترحب بصراخ مدحت ، كأنه يشيع الجو المناسب من الكآبة التى تتفق مع الدمار الذى تسعى إليه .

وحاول يوسف أن يعتذر .

فصرخت فى جنون :

- أنت لا تفكر الآن فى صراخ الولد .. وأنا مصرة على أن تفكر فيما سوف تنتهى إليه حياتنا .

صاح يائساً :

- أمامنا كل الوقت .

فصاحت :

- لا .. الآن لابد أن انتهى من هذه المصيبة التى أوقعتنى فيها .

كان صراخ الولد يزداد إصراراً وخيل إلى يوسف أنه فى كابوس غير محتمل . وتوسل إليها :

- الولد .

فصرخت :

- لا شأن لك به .

ونهض يوسف متجهاً إلى حجرة ابنه ، ولكنها هجمت عليه وجذبته تمنعه من الذهاب .

وصاح يوسف وقد فقد أعصابه :

- ما الذى يفيدك من هذا الجنون .

فانطلقت تشتمه :

- أنت غبى .. أحمق . حقير .. إن أى رجل عرفته أحسن منك ألف مرة ..

هاهى تدمر وتحطم .. هاهى تعيد مشهد تعذيب الحسين . وصاحت :

- طلقنى الآن .

كانت حالتها الهستيرية قد تفاقمت . وتوالى صراخها يعلو على صراخ مدحت .

- لا أريدك .. لا أريدك .

وكان لابد أن يرتدى يوسف ملابسه للخروج .. وما كاد يصل إلى الباب حتى صرخت :

- لا تعد إلى هنا .. لو كنت رجلاً لما عدت .. أتحداك أن تعود .

وانتهى بيوسف المطاف إلى مقهى المحطة .. وجعل يرقب المسافرين مع قطارات الفجر ، حتى أشرقت الشمس ، وفرغ من قراءة « العصر الجديد » ومشى فى الشوارع ، حتى وصل إلى النيل . كانت مياهه تجرى ، ومراكب شراعية تتهادى . والدنيا هادئة واسعة . وشعر بحنين جارف إليها : فأسرع إلى أول تليفون صادفه ، وكلمها ، وما كادت تسمع صوته حتى سألته بلهفة :

- أين أنت .. ؟

وعاد ، ورأى فى عينيها الحب ، ورأت فى عينيه الحب ، وأمسكت بيده تقبلها ، وهمست فى ألم وكبرياء :

- لو لم تكلمنى لانتحرت .

ثم عادت تهمس فى توسل :

- خذنى على قد عقلى .

ومع ذلك كان يدرك أنها لن تطيل استسلامها ، وأنه لابد أن يحدث شجار آخر فى أية لحظة ، وما يدريه ما قد يحدث بعده . وليس أمامه إلا أن يطرد هذا الخاطر مؤقتاً ، وأن يحوله إلى ذلك الهذيان الخفيف ، يتحرك به . على أمل

أن يزول عنه يوماً ما . فلا فائدة من التفكير فى هذا الذى يتفجر بينهما ، إن الأفكار لا صلة لها به . وحدث ذات مرة أن غاب يوسف حتى ساعة متأخرة من الليل فى أحد اجتماعات التنظيم ، وعاد إلى البيت ومعه أوراق كثيرة أسرع بإخفائها فى أحد أدراج مكتبه ، وهو يقول بصوت تعمد أن يضفى عليه لهجة تحذير واهتمام :

- هذه أوراق سرية ، لا تتحدثى عن وجودها أمام أحد .

فسخرت زينب من لهجته وقالت :

- وما الذى يهمنى من هذه الأوراق . ومن الذى قد أتحدث معه عنها . وشعر يوسف أنها توشك أن تنفجر فى نوبة من تلك النوبات الخطرة . فأسرع ليقبل يدها ، قائلاً فى حنان :

- لا أقصد ياحبيبتى إزعاجك ولكنها أوراق التنظيم .

كانت قد سمعت منه عن التنظيم السرى الذى انضم إليه ، وتقبلت النبأ بغير اكتراث . حتى سمعته ذات يوم يتحدث فى التليفون مع أحد المسئولين فى التنظيم وكان يردد كلمات « سيادتك » .. « يافندم » ، فعندما انتهى من حديثه . نظرت إليه واجمة وقالت له :

- كيف تخاطب هؤلاء الناس بمثل هذه اللهجة المهينة .

فسألها يوسف فى دهشة :

- أية لهجة مهينة .

فقالت فى اشمئزاز :

- أفندم .. سيادتك . هل أنت خادم عندهم .

وعبثاً حاول يوسف أن يقنعها بأن هذه هى ألقاب التخاطب بين هؤلاء الناس .

قالت له غاضبة :

- أنت تنافقهم .. أتريد منهم منصباً .

ثم كرهت زينب صلة يوسف بالتنظيم ، بعد اجتماع خاص ، ذهب إليه

يوسف ،وكان مكان الاجتماع هوبنك النيل .جلس المجتمعون فى قاعة مجلس إدارة البنك . نفس القاعة التى كان يجلس فيها المليونير مدكور باشا الذى أنشأ جريدة العصر الجديد فى أول الخمسينيات .وكان يرأس الاجتماع أحد قادة التنظيم السرى ،وقد جلس على نفس المقعد الذى كان يجلس عليه مدكور باشا وأمامه ملفات ضخمة تكاد تحجبه عن عيون الآخرين ، وكانت هذه الملفات مليئة بالتقارير عن كل عضو من أعضاء التنظيم السرى ، تقارير كتبتها المباحث العامة ، وتقارير كتبتها المخابرات ، وتقارير من الاتحاد الاشتراكى ، وتقارير كتبها أعضاء التنظيم عن بعضهم البعض ، وفوجىء المجتمعون بأن الغرض من هذا الاجتماع الخاص ، هو إعادة تقييم أعضاء التنظيم . واختيار أصلحهم وفصل من يثبت من التقرير أنه لا يصلح للعمل السياسى ، وبدأ رئيس الاجتماع بخطبة طويلة ، استمع إليها يوسف وهو يتابع بعينيه الزخارف الذهبية فى جدران القاعة الفخمة ، والبذخ المفرط فى سجاجيدها وستائرها ، وخشب البلوط الذى يغلف الجدران والثريات الكريستال الضخمة التى تتدلى من السقف . وذلك الساعى الأنيق الذى يرتدى السموكن .. ويدخل عليهم بفناجين قهوة من الصينى الفاخر ، مع أكواب عصير الليمون الكريستال . وكان رئيس الاجتماع يتحدث عن الاشتراكية ، والكادحين ، ويوسف قلق بمظاهر الثراء الفاحش التى تحيط به ، يكاد يصرخ كيف تخرج من هذه القاعة أفكار تواجه مشاكل الفقراء وآلامهم . حتى خرجَ من أفكاره ، وانتبه إلى حديث الرجل ، وهو يقول :

ـ أنتم تمثلون قيادات تنظيمية مختلفة ، تم اختيارها من مستويات تنظيمية جغرافية ونوعية . وقد قمنا أولاً بمراجعة التقارير عنكم وثبت لقيادة التنظيم أنكم من المخلصين للعمل السياسى .

وكاد يوسف يصيح مقاطعاً :

ـ أية تقارير هذه التى راجعتموها عنا .

انتابته غضبة حاول أن يسيطر عليها حتى سمع الرجل يسألهم :

ـ هل هناك استفسار أو سؤال قبل أن نبدأ مراجعة الأسماء .

وإذا بصوت يوسف ينطلق بغير تفكير :

ـ ما الذى نستفيده من الحكم على الناس بينما العمل السياسى يتطلب منا أن نبذل كل جهد حتى لو بدا مستحيلاً لكى نجمع كل الناس حوله .

فنظر إليه الرجل نظرة طويلة قبل أن يقول :

ـ هذا كلام نظرى ياسيد يوسف .. إن الذين يناضلون لابد أن تكون لهم مصلحة حقيقية فى هذا النضال .

فاندفع يوسف بصوت عصبى :

ـ وهل نحن وحدنا أصحاب المصلحة .

وتلفت حوله ناظرا إلى القاعة وزخارفها الذهبية وقال بصوت متحشرج غلبه الانفعال :

ـ إن الفقراء أصحاب مصلحة ، وهم لا يعرفون مثل هذه القاعة ، بل إنهم لا يتحملون وجود مثلها فى هذه الدنيا .

وابتسم الرجل قائلاً :

ـ لو دخلنا فى هذه المناقشة فلن ننتهى من عملنا أبدا .

ووجم يوسف ، وشعر بأنه محاصر ، وقد أسكتوه لينطلقوا فى مراجعة الأسماء فى لهفة ، وكان رئيس الاجتماع يفتح أحد الملفات الضخمة المكومة أمامه ، ويخرج أوراقا ، ويعلن . فلان يتردد على غرزة حشيش . وفلان حاول الانتحار بعد فشله فى علاقة مع زوجة صديقه ، وفلان سكير أدمن على الشراب ويعالج نفسه عند طبيب يذكر اسمه ، وعند ذكر أحد الأسماء اعترض أحد الحاضرين . وقال :

ـ إن هذا الرجل أعرفه .. وهو طيب ولا غبار عليه .

فاندفع رئيس الاجتماع محتجاً وهو يضرب بيده على أحد الملفات الضخمة :

ـ أنت لا تعرف كل شىء عنه . وليس كل ما يعرف يقال .

وهنا همس الذى يجلس بجوار يوسف :

ـ كل شىء معروف .. إنهم يفصلونه لصلته الوثيقة بـ ..

وذكر اسم أحد رجال الثورة .

ورغم أن الرجل همس بكلماته ، إلا أن رئيس الاجتماع استطاع أن يلتقط كل كلمة ، فكأنه قد درب أذنيه على ذلك .

فصاح مبتسماً :

- نعم هذه هى الحقيقة .. إن التنظيم يصفى بعض قطاعاته ..

فسأله الرجل الذى ضبط متلبساً بالهمس :

- لماذا ؟

فأجاب رئيس الاجتماع بلهجة يغلب عليها نفاد الصبر :

- هذا الموضوع لا يدخل فى اختصاص هذا الاجتماع .

ونطق باسم جديد لبحث أمره . وإذا به اسم عبد الهادى النجار ، وابتسم رئيس الاجتماع ابتسامة واسعة وقال :

- لا أظن أن أحدا يوافق على بقائه فى المنظمة ، ولو قرأت لكم التقارير المكتوبة عنه لاستغرق ذلك منا ليلتين كاملتين على الأقل .

وفجأة اتجه الرجل بعينيه فى نظرة سريعة خاطفة ناحية يوسف والتقت العيون . فأشاح الرجل بعينيه بسرعة . ولكن هذه النظرة الخاطفة كانت كافية لتنقل إلى يوسف مشاعر وأحاسيس جعلته يدرك أن هذا الرجل قد قرأ فى هذه التقارير كل شىء عن علاقة عبد الهادى النجار بزوجته .. ودق قلب يوسف بعنف :

كان الرجل يقول وهو يشطب بقلمه الأحمر على اسم عبد الهادى النجار :

- نشطب اسمه بدون الدخول فى التفاصيل .

وأيقن يوسف أن هذه الكلمات موجهة إليه شخصياً . وكان الرجل يشطب بقلمه فيمزق قلب يوسف . وكاد أن ينهض تاركاً المكان ، لولا أن قدميه لم تستطيعا النهوض ، فظل مشلولاً مكانه لا يسمع ولا يفهم . حتى انتهى الاجتماع . فاتجه يوسف إلى رئيس الاجتماع وقال له منفجراً :

- لماذا تفصل عبد الهادى النجار .. وتطلب منى حضور هذا الاجتماع والتقارير عنا واحدة .

وفوجىء الرجل بهذه المواجهة المباشرة ، فارتبك وقال متردداً :

ـ هناك شهادة طيبة عنك من الأخ دياب .

صاح يوسف منفعلاً :

ـ أنا لا افهم كيف يتجمع الناس للعمل من أجل البلد بمثل هذا الأسلوب .

قال الرجل وقد استعاد بسرعة لباقته ولهجته العملية :

ـ نحن ما زلنا فى البداية .. وأمامنا طريق طويل شاق للتدريب على العمل السياسى .. ثم واجه يوسف بالسؤال :

ـ الا تؤمن بالتنظيم ؟

قال يوسف :

ـ أنا أؤمن بمصلحة البلد أولا وأنتم لم تتركوا لنا باب أمل .. إلا من خلال هذا التنظيم ..

فلجأ الرجل إلى ابتسامة مؤدبة وقال :

ـ تأكد أن كل شىء سوف يكون على ما يرام .

ثم أضاف بلباقة :

ـ وأنا شخصياً معجب بحماسك .

ولم يسترح يوسف لهذه الكلمات ، لأنه لم يصدقها . ولأنه كان غاضباً من هذه التقارير التى تلاحقه فى حياته الخاصة ، حياته التى صنعها مع زينب ، وعاد إلى البيت ومشاعره تفتك به ، وروى لزينب ما حدث ، لم يختصر شيئاً من التفاصيل . واستمعت إليه ولم تقل شيئاً .. ولكنها كرهت هذا الذى قاله يوسف ، وكرهت هذا التنظيم الذى ينضم إليه ، ولم يشعر يوسف بأن كراهيتها هائلة ولم تشعره هى بها ، وكأن كبرياءها رفضت أن تفصح عما تشعر به ، وقررت بينها وبين نفسها أن تمتحن يوسف فيما قد يفعله وكان فى رأيها أنه لابد أن يستقيل من هذا التنظيم السرى . ولكنه كان يحدثها بين وقت وآخر بلهجة غريبة عليها . كان يقول : « لابد أن نتحمل التجربة » . أو يقول : « هذا هو الأمل الوحيد أمامنا » أو « هناك بينهم رجال حقيقيون صادقون » .

وذات مرة قال لزينب :

ـ أحياناً أسمع من يتكلم فأشعر بالفزع من هذا الجهل الذى يجثم على النفوس .. إن بينهم من لا يهتم إلا بنفسه وما يتصور أنه لابد أن يحصل عليه من قوة ونفوذ .. كان نسخة رديئة من عبد الهادى النجار .

وكانت تقول له ضاحكة ، تخفى كراهيتها :

ـ ربما لو كنت معكم لما حدث هذا .

فيقول لها :

ـ أنا واثق من هذا ..

وقالت له مرة أخرى :

ـ إذا كان لا يعجبك ما تفعله فى هذه الاجتماعات فتعال نصنع تنظيمنا نحن .. تنظيم زينب الأيوبى ويوسف منصور .

فقال ضاحكاً فى أسى :

ـ أى تنظيم يكون هذا .

قالت ساخرة :

ـ تنظيم يسعد الناس .

كانت تتظاهر بأنها تلقى بدعابة ولكن صدرها كان يغلى لأن يوسف لم يفهم بعد ، أنه لابد أن يترك هذا التنظيم الذى تسجل تقاريره حياتها على أنها خزى وعار .

قال يوسف ضاحكاً لدعابتها :

ـ تنظيم لنشر الحب .. الناس تريد أن تأكل ..

قالت فجأة بلهجة جادة :

ـ إنى أعرف هذا ..

وسمع منها يوسف لأول مرة ، قصة الولد الذى سرق سلسلتها الذهبية وهى ذاهبة إلى المدرسة ، وكيف أنها ما زالت تذكر عم صالح ومعه الآخرين يضربونه وقد تكوم على الرصيف ممزق الملابس ، يصرخ أنا جوعان ياست هانم .. خذونى السجن أو اقتلونى .

قال يوسف فى دهشة :

ـ أنت تعرفين هذا ؟

قالت فى كبرياء :

ـ أنا أعرف عن الحياة أكثر منك . وأكثر من أعضاء تنظيمك .

قال يوسف :

ـ ولكن ما الذى نستطيع أن نفعله أنا وأنت وحدنا .

قالت زينب بصوت قوى مفعم بالتحدى :

ـ ليتك كنت تستطيع أن تجيب بنفسك عن هذا السؤال .

وسكت يوسف وقد شعر بأنها تتحداه لأول مرة فى شىء غير ذلك الماضى وذكرياته ، وانتعش بهذا الشعور فبادرها متحدياً :

ـ أتتحملين معارك السياسة ، أتتحملين ما قد يصيبنى فيها ؟!

قالت بلا تردد :

ـ لو كنت تريد أن تصنع شيئاً لما سألت نفسك .. ولما سألتنى هذا السؤال ..

وسألته :

ـ هل سألت نفسك هذا السؤال عندما تزوجتنى ؟

ووجد يوسف نفسه يصيح فى اجتماع للتنظيم :

ـ إننا نجلس هنا ونتكلم .. ولا شىء يحدث .. يجب أن نعمل وأن نضحى بكل شىء .. حتى بأولادنا ..

وتبادل الآخرون نظرات فيها معان مختلطة .. بين اعتراف بحماسه وطيبته ، واتهام ببلاهته وسذاجته ..

كان خيال يوسف يتسع ، وآماله تتفتح بعد تلك الكلمات التى سمعها من زينب ، ولم يعد يرى نفسه معها ، فى قصر تملأه تلك التحف والثريات التركية التى أعجبت بها فى العطارين . بل كان يراها معه يعيشان فى هذا العالم العريض .. فيما يشبه الحلم الذى يراود الشاعر فى قصيدة شعر .. حتى فاجأته بغضبها عندما عاد إلى البيت ومعه تلك الأوراق السرية للتنظيم .. فرغم أنه قبل يدها معتذراً بأنه لم يقصد إزعاجها بالحديث عن الأوراق .

إلا أنها لم تعد تحتمل ..

وصاحت فيه :

ـ لا أريد أن أسمع منك شيئاً بعد الآن عن هذا التنظيم ..

قال لها فى حيرة :

ـ إنه عملى السياسى .

قالت فى حدة :

ـ أنت تريد أن تشركنى فى الاهتمام به .. تريد أن تجعل منى امرأة أخرى غيرى .. وهذا مستحيل .

قال يوسف فى دهشة :

ـ أبدا ياحبيبتى .. أنت تظلميننى ..

ولكنها كانت قد فقدت أعصابها تماماً ، وفرضت عليه الشجار ، وإذا به يصيح فيها :

ـ أنت شريرة .. أنا نادم على زواجى منك .. هل تظنين أن حبك هو كل شىء فى حياتى .

وجنت زينب . صرخت فى شراسة :

ـ سأحطمك وسأقضى عليك .. سأخونك مع كل الناس .. وسأجعلهم يملأون تقارير تنظيمك بما لم يخطر على بالك من فضائح .

وصممت هذه المرة على الطلاق ، وخرجت معه إلى مكتب المأذون ، ووقفا بالسيارة أمام المبنى الذى به المكتب والدنيا ظلام ، وكأنه سيوقظ المأذون من نومه ويفرض عليه أن يطلقهما فى الحال . كانت لحظة جنون لكليهما . وهبط يوسف من السيارة . ووقف أمام الباب المغلق ، وكأنه يواجه العدم . ومد يده ليطرق الباب . وعندئذ انتبه إلى غرابة ما يفعل .. ما هذا الذى هو فيه . وقف متسمراً لحظة ، ثم عاد متمهلاً إلى السيارة ، ومضت بهما صامتين منهكين متعبين . وألقيا بجسديهما على السرير ، وبكت وبكى ، حتى تلامست يداهما فاقترب برأسه منها ، ومس شعره شعرها ، وأسلمت له نفسها وأسلم لها

نفسه ، كان يوسف يفكر فى تلك اللحظة بأنها حياته ولا حياة له بعدها ، فلتحطمه أو تسحقه أو تخونه مع الجميع فلتملأ تلك الملفات الضخمة التى شاهدها فى تلك القاعة الفخمة ببنك النيل بالتقارير فلتملأ الدنيا بالفضائح ولكنه عاجز عن فراقها ، وكانت تفكر فى أنه قادر على أن يصنع بها ما يشاء .. أو فليتركها وحدها ضائعة بلا أمل ، يدفع بها إلى هاويـة مظلمة تنتهى بالانتحار ، ولكن لا حياة لها من بعده ، وكانت هذه هى آخر مرة يصل فيها الشجار بينهما إلى حافة الطلاق ، حتى جاء ذلك اليوم الذى سمعت فيه مصر نبأ فجيعة هزيمتها . ليلة ٩ يونيو .. صباح ذلك اليوم كانت زينب تصرخ فى يوسف بكل ما تعرفه من شراسة ووحشية :

ـ أضعتم البلد .. خربتموها .. أين الانتصارات التى حدثتنى عنها أين هذا الكلام الذى قالوه لك فى التنظيم .. عن الطائرات التى أسقطناها لإسرائيل .. كل ماقالوه لك كان كذباً فى كذب ..

ولكنها فى المساء ، كانت واحدة من بين ملايين تخرج إلى الشارع كما لم تخرج من قبل . منكوشة الشعر . فى ملابس غيرمرتبة ، وفى قدميها شبشب ، وكانت تبكى وهى لا تدرى إذا كانت تبكى مصيبة مصر أو تبكى مصيبتها .



وداع في اللحظة المناسبة

لابد أن يقف الكاتب فى قصته عند نهاية ما . لحظة ما يختارها ليودع أبطاله ، ولكن الكاتب يشعر كلما دنت هذه اللحظة ، وكأنه يوشك أن يقفز من قطار مندفع بأقصى سرعته يحمل معه أبطال قصته إلى مواقف جديدة وأحداث جديدة ، فهكذا الحياة طالما نحياها . وزينب الأيوبى ويوسف منصور وعبد الهادى النجار ودياب وحسن زيدان كلهم ما زالوا أحياء يواجهون أيامهم بالأمل أو اليأس . بالحركة والتصرف أو بالضياع والاستسلام لما قد تأتى به الأيام ، والكاتب نفسه يواجه مثلهم حياته ، ولا يستطيع بل ولا يجرؤ على أن يتنبأ بمصيره ، فمن باب أولى عليه أن يتحرج فى أن يتنبأ بمصير أبطال القصة التى رواها . كل ما يستطيعه هو أن يختار اللحظة المناسبة التى يودعهم فيها ، وهو اختيار صعب ، ولقد فكر الكاتب أول الأمر فى أن تكون نهاية قصته مع تلك الأيام الفاجعة من يونيو ١٩٦٧ عندما واجهت الأمة الهزيمة فبدا وكأن كل شىء فى الدنيا ينهار كما بدا وكأن كل شىء فى الدنيا سوف يولد من جديد . فى تلك الأيام كانت زينب ترى فى الهزيمة نهاية كل الرجال . وكانت تشعر بذلك على نحو غامض لا تستطيع أن تعبر عنه ، إلا بتلك النظرة

اليائسة التى كانت تنظر بها إلى يوسف وهو يتحدث عن الصمود وعن قدرة البلد على محو الهزيمة . كانت تسمعه مشفقة راثية لحاله . فهى لا تستطيع أن تقنع نفسها بأنه مؤمن بما يقول . وهو فى نفس الوقت لا يكذب ، ولكنه يضلل نفسه ويخدعها ، وهى لا تواجهه بظنونها ، تعرف أنه يهرب من آلام فظيعة يحاول أن يتستر عليها بالحماس والتفاؤل ، وفى ذلك الوقت أحست زينب بآلام [illegible] فى معدتها ، [illegible] الأمر [illegible] إلى طبيب مشهور وكان أستاذاً عالماً فى الطب ، فحصها بعناية ثم سألها :

– هل هناك شىء أحزنك أو أثار أعصابك ؟

قالت زينب بغير تفكير :

– نعم .. إن ما حدث لبلدنا يكفى .

فنظر إليها الطبيب الكبير فى دهشة ، إذ كانت إجابتها هى آخر ما يتوقعه من تلك الغادة الجميلة المتأنقة التى يفوح من جسدها العطر ولا يبدو عليها أنها تهتم بما يحدث خارج عالمها الخاص الذى تعيش فيه والذى لابد أن يكون – هكذا قدر الطبيب – عالم أزياء وموضة وتسريحات وسهرات . وهذه أشياء لم تمسها الهزيمة ولم تؤثر فيها .

قال الطبيب وقد تملكته الدهشة :

– هذه أول مرة أسمع فيها هذه الإجابة .. ولكنها ياسيدتى صحيحة مائة فى المائة .

ولما روت زينب ضاحكة ليوسف ما سمعته من الطبيب ، وأنه وافقها على أن مصرانها الغليظ قد التهب بسبب الهزيمة ، لم يضحك يوسف لضحكتها ، بل تجهم وجهه ، وكأنه سمع نبأ خطيراً . واتخذ قراراً سريعاً بضرورة سفرهم إلى الأسكندرية لتستريح ، كان يريد أن يفعل شيئاً ، أى شىء .. وبسرعة وفى حماس ، وهكذا حزموا حقائبهم وذهبوا إلى الأسكندرية وقضى يوسف معها يومين ، ثم أعلن أنه مضطر إلى العودة لعمله فى القاهرة ، وأن هناك اجتماعات ، هامة للتنظيم لابد من حضورها . كانت زينب تشعر بإرهاق شديد وتجد صعوبة فى مقاومة أرق يلازمها ساعات الليل وكان أشد ما يقلقها

هو إحساس بفراغ مخيف ، يأكل حياتها ، فلا شيء تصنعـه ، ولا شيء تستطيع أن تصنعه ، وعندما قال لها يوسف إنه راجع إلى القاهرة لم تعارضه ولم تطلب منه البقاء .. ولم تكلف نفسها عناء تكرار مصارحته بيأسها من هذا التنظيم الذى يتحدث عنه ، وقالت لنفسها ربما لو خلوت لنفسى أحصل على بعض الراحة واستطيع أن أنام فى هدوء أكثر ، وكانت تصحب ابنها مدحت كل صباح إلى البحر ، وفى يدها رواية مترجمة لدستويفسكى أو فرانسـوا مورياك ، فكانت تقرأ وهى ترقب الولد يبنى القلاع والحصون على الرمال ، ثم يهجم عليها الملل وتدور برأسها دوامة الخطر عن حياتها الماضية ، وأهلها ، وفارس أحلامها الذى كانت تحلم به ، والانتحار ، وتسأل نفسهـا كيف تستطيع أن تواصل هذه الحياة دون أن تجن .. لو كانت تستطيع أن ترسو بسفينة حياتها على بر ، أى بر . وعصر يوم مرت أمامها على الشاطىء غجرية تقرأ الودع ، وألحت على زينب أن تقرأ لها طالعها فاستسلمت لها . ووشوشت الودع وقالت لها الغجرية ، إنها ستتزوج ثلاث مرات ، وأن أسعد زيجاتها هى الثالثة ، وضحكت زينب ضحكة مجلجلة غير عابئة بمن حولها على الشاطىء وانتابها فرح هستيرى ، وتمنت لو يأتى يوسف فى هذه اللحظة لتقول له النبأ الخطير ، وأنها ستتزوج مرة أخرى ، ولما عاد إليها يوسف مع نهاية الأسبوع كانت نبوءة الغجرية أول ما استقبلته بها ، وكأنها أهم ما حدث فى حياتها فى تلك الفترة التى غاب فيها عنها . وضحك يوسف فى عصبية ، وقال لها معاتباً :

ـ هل أصبحت تعتمدين فى حياتك على نبوءة الغجريات .

فهتفت ساخرة :

ـ وهل هناك شيء آخر اعتمدت عليه .

وتعمد يوسف أن يروى لها عن اجتماعات القاهرة ، وضرب بيده على ساقه قائلاً :

سمعت الوزير المسئول يقول لو وقع الواحد منا تحت عجلات الترام فبترت ساقه ، فهو لم يمت ولابد أن يواصل حياته ، والأرض التى ضاعت منا لم تبتر

إلى الأبد فنحن قادرون على استردادها . المهم هو ألا نيأس .

فقالت زينب بصوت حزين يغلب عليه عدم الاكتراث :

ـ ألم يقل لك نفس هذا الوزير قبل إعلان الهزيمة بيوم واحد ، إننا سنسحق العدو .. أنا لم أعد أصدق شيئاً مما يقولونه .

فسألها يوسف بصوت ضعيف :

ـ ما الذى تريدين قوله ؟

أجابت زينب :

ـ لا أدرى .. أنا فقط حزينة من أجلك .. لأنك فى هذا التنظيم تنفخ فى قربة مقطوعة ثم أضافت وقد استغرقها التفكير :

ـ كنت فى يوم ما أحلم بأنى جان دارك التى أنقذت وطنها ، ولكنى عندما أفكر فى الرجال الذين عرفتهم . أسأل نفسى كيف يستطيع مثل هؤلاء الرجال أن يحاربوا دون أن تلحق بهم الهزيمة .

فقال يوسف معاتباً :

ـ حتى أنا ؟؟

قالت بسرعة :

ـ حتى أنت .

قال يوسف :

ـ أنت ظالمة .. ألم تصادقى فى حياتك رجلاً واحداً تستطيعين ضمه إلى جيش جان دارك .

قالت بلا تردد :

ـ نعم .. عم صالح ولا أحد غيره .

فردد يوسف منكراً :

ـ عم صالح وحده .

فهتفت :

ـ من غيره .. نور الدين بهنس .. اللص . أم عبد الهادى النجار . أم ..

فقاطعها يوسف بسرعة :

ـ معك حق . هؤلاء لن يحققوا شيئاً على الإطلاق . ولكن مصر ليست هؤلاء . وهى مليئة بالملايين من أمثال عم صالح .

فهتفت زينب :

ـ وهل تعرفهم .. وهل يعرفونك .. هل لك بينهم أصدقاء ؟؟ .

صاح يوسف :

ـ إننا نحاول .

فصرخت فيه :

ـ لا تقل لى فى التنظيم وإلا أصبحت نصاباً مثلهم .

فهجم عليها يوسف قابضاً على ذراعها بشدة ، وهو يصيح فى شراسة :

ـ لست نصاباً .. ولو كنت تعتقدين أنى نصاب فلا معنى لبقائنا معا ..

فهمست فى خوف من منظره الشرس الذى لم تعهده فيه من قبل :

ـ لا أقول إنك نصاب .. ولكنك لا تواجه الحقيقة .

وتجمدت يد يوسف القابضة على يدها ، كانت آلامه أكبر مما يطيق . وطفرت الدموع من عينيه وهو يقول :

ـ أنا على استعداد لأن أموت ولا أهرب من الحقيقة .

قالت زينب وهى تسترد بعض هدوئها :

ـ فكر فى هؤلاء الرجال الذين تتعامل معهم .. وأنت تعرف الحقيقة وهمس يوسف :

ـ لقد فكرت .. ووجدت أنى لا أملك غير أن استمر فيما بدأت فيه .. همست زينب :

ـ إذن فأنت المسئول عن تعذيب نفسك ..

نعم .. كان يوسف يعذب نفسه وهو يواصل فى عناد ، عمله فى العصر الجديد ، وعمله فى التنظيم ، والرجال من حوله يتساقطون ، بينما يتمسك هو بأمل غامض فج ، فى أنه لابد أن يأتى يوم ينصلح فيه الحال . لقد شهد يوسف كيف تحول أحمد عبد السلام دياب من الرجل الممتلىء حماساً للكفاح ، إلى

رجل شبه مجذوب ، وكان دياب قد ترك العصر الجديد . والحق سفيراً بوزارة الخارجية .

وكان فى يونيو ١٩٦٧ نزيلاً بأحد مستشفيات لندن للعلاج وعاد من لندن محطماً أكثر مما كان ، واتخذت حياته شكلاً جديداً فهو إما يتردد على سيدنا الحسين ليصلى ويشهد مع بعض معارفه جلسات دينيه ، أو هو يتردد على نادى الجزيرة ليلعب الدومينو ويتشاجر كطفل صغير مع من يغلبه فى اللعب وأحياناً يقفز من مقعده تاركاً بقية اللاعبين بدعوى أن موعد الصلاة قد حان .

بينما يدرك الجميع أنه يهرب من خسارة محتومة أوشكت أن تلحق به .

ولقد ذهب يوسف لزيارته أكثر من مرة فى النادى وكان يقابله بترحاب وقد اتخذ مظهراً جاداً وكأنه ما زال رئيس مجلس إدارة العصر الجديد ، وأحد كبار المسئولين فى التنظيم السياسى .

ويسأل يوسف بلهجة خطيرة عما كان يصفه « بالأحوال » وكيف تسير وقد يسأله عن أخبار التنظيم .

ثم فجأة يقول له :

ـ الدنيا فسدت ولم يعد فيها خير .. والنفوس مريضة تبحث عن السلطة .. ولا أحد يبحث عن مصلحة البلد . ولا يكاد يقول هذه الكلمات ، حتى يبدو عليه الضيق . فيتلفت حوله ويصيح فى أحد الحاضرين :

هيا يا أبا على أغلبك عشرتين دومينو .

ويستأذن يوسف للانصراف :

فلا يلح عليه دياب فى البقاء .

ويقول له وهو يودعه :

ـ حافظ على نفسك يايوسف ولا تصدق كل ما يقال لك .

كان دياب قد اختار هذه النهاية لنفسه ، هربا من مواجهة الآلام التى أثارتها فى نفسه ذكرى ابنته سوسن ، فقد اعترف بها على نحو ما . عندما ذهب إلى إلهام كمال وسألها عن قبر ابنته . وهى تلك الزيارة التى حولتها إلهام بخيالها ومشاعرها وهى ترويها لزينب . فقالت لها إنه جاء ليعرض عليها

الزواج ورفضته ، وذهب دياب إلى القبر ليرتل القرآن وبكى . ثم مضى مسرعاً ، يبحث عن توبة يقضى بها ما تبقى له من أيام فى هذه الحياة التى ما جاء إليها إلا ليواجه أخطاء النفس والندم عليها وطلب الغفران عنها .

وتولى عبد الهادى النجار رئاسة مجلس إدارة العصر الجديد ، وعندما جاءت الهزيمة أيقن عبد الهادى أن كل شىء قد انتهى ، وأن هذا النظام القائم لابد أن ينهار وأن عليه أن يجامل أو ينافق لا ليكسب مزيداً من النفوذ بين من سوف يضيع منهم النفوذ ، ولكن لينجو بنفسه مما قد يصيبه إذا ما انتابتهم لحظة جنون ساعة الانهيار وكان مشغولاً فى الوقت نفسه بالاستعداد للحياة الجديدة ، لولا أنه لا يستطيع أن يحسم أمره فيقرر من يكون السيد الجديد . وأحياناً يخيل إليه أن الشيوعية سوف تسيطر على البلد ، وأحياناً يخيل إليه أن أمريكا هى التى سوف تسيطر . وظهرت حيرته فى مقالاته . فكان يهاجم اليسار فى أول مقاله ويمدحه فى آخره . ويمدح اليمين فى أول مقاله ويشتمه فى آخره . وفى كل الأحوال لا يستطيع أن يفكر فى مخرج من هذا المأزق ، وأصبحت جلساته التى تحفل بخليط متنافر من اليساريين والإقطاعيين ، جلسات مرهقة لا يتحملها ويخشاها . ومنذ زواجه من سعاد حرب ، فقد الكثير من زهوه وحيويته . وانقطعت صلته بيوسف ، فكأنه لا يعمل معه ، وزاد اعتماده على حسن زيدان وكان يحضر الاجتماعات السياسية ويسمع المطالبة بتأكيد معانى استمرار المعركة والصمود ، فيخرج من هذه الاجتماعات ليناقش مع حسن أهمية نشر قصص الهيبيز ومغامرات جاكلين كيندى والإفاضة فى التعليق على مباريات كرة القدم وكان يعلن فى جرأة أن الموقف ميئوس منه . ثم يكتب مقالات حماسية عن الانتصار الوشيك ..

وعندما يفاجىء حسن زيدان وهو ينظر إليه فى خبث . يقول له :

ـ نحن نعيش يوما بيوم .

فيزفر حسن الهواء من صدره ويقول :

ـ كل ما أتمناه .. أن أجد فرصة للعمل فى الكويت إنى أستطيع أن أحصل هناك على خمسمائة دينار تساوى ألف جنيه فى الشهر .

وسمع يوسف حسن زيدان . وهو يردد هذه الأمنية ويقول له :

- ألا تأتى معى ؟

وابتسم يوسف ، وعجز عن أن يقدم لحسن إجابة أخرى غير ابتسامته . لو قال له أى كلام مما يجيش فى أعماقه لما صدقه . لن يصدق أنه لا يستطيع أن يتخلى عن البلد فى أيام المحنة ، ويوسف نفسه لا يستطيع رغم مشاعره الحماسية أن يرى أهمية لما فى أعماقه من حماس طيب .. ومع ذلك فهو يتمسك

بهذا الأمل الغامض الذى يكاد يتخذ طابع انتظار معجزة ..

عند هذه المعجزة التى كان ينتظرها يوسف ، فكر الكاتب أن يودع أبطاله . ولكن حادثاً وقع فرض نفسه وكان لابد من تسجيله . لما كان له من أثر بالغ فى نفس يوسف منصور . لقد مات عم صالح الأخرس . وكان يوسف تلك الليلة فى مكتبه . عندما دخل عليه أحد العمال يقول له إن صالح الأخرس يموت فى حجرته . وأنه لابد أن يذهب إليه الطبيب فوراً . وإن عبد الهادى النجار غير موجود لا فى مكتبه ولا فى بيته ليصدر أوامره . واتصل يوسف بطبيب العصر الجديد . وأسرع إليه بسيارته ليأخذه إلى حجرة عم صالح فى شارع المبتديان وقال له الطبيب وهما فى الطريق . إن صالح الأخرس يعانى من ربو مزمن .. وإنه فى الشهور الأخيرة ساءت حالته . ومع ذلك كان يعاند ويقاوم المرض . وقال الطبيب معبراً عن دهشته من اهتمام يوسف غير العادى بهذا المريض :

- إنه قارب السبعين .. وليت الواحد منا يستطيع أن يصل إلى مثل عمره .

قال يوسف معلناً فى حسم عن مشاعره :

- لا أستطيع أن أصدق أن هذا الرجل يموت ..

ولكنهما وصلا متأخرين . كان عم صالح قد مات . كان يرقد على ظهره بوجه جاد ، وكأنه يستريح لبعض الوقت ، وكان لا يبدو عليه آثار مرض ، بل اتخذ فى رقدته مظهراً وقوراً ، وكانت عيناه مغمضتين ، دون أن يغمضهما أحد وفمه مغلقاً ، وفى شفتيه احمرار .

وبدا ضوء الكهرباء الضعيف كنور ساطع . يبهر عين يوسف .

وكان الطبيب قد فتح جفن عم صالح ، فبدت له عين قوية تحدق فيه .

ورفع الطبيب ذراع عم صالح وخفضه وفحص قدميه وجس نبضه ولم يكن فى حاجة إلى أن يقول ليوسف إنه مات . ولما سمعت زينب النبأ من يوسف . تقلص وجهها ، وكأنه تشوه . وجعلت تصرخ :

ـ مستحيل .. مستحيل .. أنا لا أصدقك ..

وبعد قليل ، فتحت نوافذ حجرات البيت ، وأضاءتها وفتحت المذياع على أعلى صوت . فامتلأ البيت ضوءاً وغناء . وهى تنظر من نافذة حجرة نومها شاردة واجمة وتناولت ثلاث حبوب منومة دفعة واحدة لتنام .

ذهب يوسف فى الصباح ليشرف على ترتيبات دفن عم صالح ، ومر على بيت حماته ، التى استقبلته فى دهشة ، زادت عندما علمت بسبب مجيئه .. كأنه لا معنى لاهتمام يوسف بمثل هذا الموضوع . وكان ابن عم صالح قد جاء فى ملابس السعاة .. وكان ينظر إلى يوسف فى ارتباك . ولعله كان يتوقع أن يعطيه يوسف بضع جنيهات وينصرف . وظهر بعض العمال قادمين من العصر الجديد . وحملوا النعش فى عربة سوداء كبيرة .

وقد ركب مع النعش كثيرون حشروا أنفسهم حشراً . وبقيتهم ركبوا مع يوسف ، ووصلوا إلى المقابر وأسرعت الأيدى تخرج النعش من العربة ، ووجد يوسف نفسه مندفعاً يمد يده مع أيديهم .

وما كادوا يرونه بينهم حتى ارتبكوا وزلت قدم أحدهم فكاد النعش أن يقع على الأرض ، فاندفعوا يحمونه من السقوط بينما تراجع يوسف وقد دفعته أجسادهم بعيداً عنهم .

واتجهوا بالنعش إلى القبر المفتوح ، كانوا مستغرقين فى عملهم . وقد ساد بينهم صمت ، وهناك رجل يرتل كلاماً سريعاً . وأطفال متجمعون هنا وهناك يقفزون أحياناً أو يجرون وراء بعضهم بعضاً ، وتقدم واحد من العمال يحمل كرسياً قدمه ليوسف ليجلس عليه ، وشعر يوسف بما يشبه الإهانة . هو وحده يجلس بينما الآخرون يدفنون عم صالح . ورفض المقعد ، ولكنه أذعن وجلس أمام إصرار الرجل ، وما كاد يجلس حتى كانوا يهبطون بالجثة من فوهة القبر وأجهش يوسف بالبكاء ، ونهض ، ولم يلتفت إليه أحد . ولما أهالوا التراب على

فوهة القبر .. ورووها بالماء . تكاثرت الأيدى الممتدة إلى يوسف تطلب منه نقوداً . أيدى رجال كالشحاذين . وأيدى الأطفال الذين كانوا يلعبون منذ لحظة . وأخرج ، يوسف من جيبه النقود . كان لا يعطيها . كانوا يختطفونها منه ، ولما عاد إلى زينب قالت له فى هدوء حزين :

سوف أزور معك قبره ..

وذهبا إلى القبر قبل الغروب ، وزينب تحمل ورودا اشترتها فى الطريق . نثرتها فوق القبر . وقد تجمع رجال وأطفال ينظرون إليها فى دهشة ، لا تخلو من هيبة واحترام . وامتدت أيديهم إلى يوسف مرة أخرى وجاء شيخ يقرأ .

وقالت زينب ليوسف فى انفعال :

- إن صوته قبيح .. وعم صالح لا يحب الصوت القبيح ..

وهمس يوسف :

- لا معنى لهذا الكلام الآن ، فبدا الغضب على زينب . وتوقع يوسف أن يبدو منها تصرف شاذ . فجذبها من يدها إلى العربة .

قالت زينب فى حدة :

- كان يجب أن تمنعه ..

قال يوسف حائراً :

- كيـــف ؟ .

قالت زينب :

- عم صالح .. كان يمنعه ..

وأسرع يوسف بعربته ، وكأنه يحاول الفرار من المكان ، ومن الإجابة عن ما تثيره زينب من رغبات ، وكان يكفيه ذلك الشعور المرير بالعزلة الذى عانى منه . وهو مع العمال يدفنون جثة عم صالح فى الصباح . كانوا معه وليسوا معه ، عم صالح وحده كانت له قدرة على أن يفهمه على نحو ما . كيف كان يستطيع أن يتزوج لولا عم صالح . كان هو المجتمع الذى قبل ما أقدمت عليه زينب وأقدم عليه يوسف . كان هو المأذون الشرعى الحقيقى الذى وثق زواجهما ، أيبالغ . أيعطى عم صالح أكثر مما يستحق ، لا .. إنه يفكر فى عم

صالح كما كان يجب أن يكون . كما كان يجب أن يصنعه هذا البلد الذى عاش فيه معتمداً على نفسه القوية الصامدة ، يحارب تهاويل الأشباح والمردة والشياطين الذين كانوا يظهرون له . كيف كان يستطيع عم صالح أن يتخلص من هذه التهاويل .. كيف كان يستطيع أن يوجه حربه إلى ما هو أنفع .

ومع هذا السؤال الذى خطر ليوسف عن عم صالح . خطر للكاتب أيضاً أن يودع أبطاله . على ظن منه أن هذه قد تكون اللحظة المناسبة التى يكف فيها عن الكلام . لولا أن الكاتب تذكر تلك السطور التى جاءت فى بداية قصته ، وهو يتساءل هل يبدأ بالكلام عن زينب أو عن عبد الهادى النجار .

وقال إننا لو وجهنا هذا السؤال ليوسف منصور ، قد تدمع عيناه ، ويهمس مرتبكاً .. أنا لا أفهم ماذا تسألوننى عنه . ولكنى لا أرى ولا أسمع إلا كلماتها وقد تأخر الليل فى ذلك الشارع المهجور المفضى إلى البحر فى الأسكندرية ثم .. ثم الكارثة التى وقعت ..

فما هذا الذى لا يرى ولا يسمع سواه يوسف منصور .. لابد أن يروى الكاتب عن ذلك الذى حدث قبل أن يودع أبطاله ..

والذى حدث لم يكن سهلاً . فى تلك الليلة فى الأسكندرية خرجت زينب مع يوسف بعد منتصف الليل . بعد نوم مدحت .. يسيران فى الشوارع الهادئة . وقد اكتشفت زينب أن هذه هى أفضل وسيلة لمقاومة ذلك الأرق الذى لا يتخلى عنها .. وكانا يصعدان منحدر شارع سوريا قادمين من رشدى فى اتجاه البحر ، وكان الشارع خالياً هادئاً كعادته ، وأضواء قليلة تنبعث من بعض النوافذ وعمارات الجانب الأيسر . والعتمة كاملة فى القصور القائمة على الجانب الأيمن ، وكانت زينب تسير فى نشاط واندفاع ، وقالت فى مرح :

ـ يخيل إلى أنى فهمت أشياء جديدة .. أتعرف .. لقد تغيرت .. هذا الصباح قلت لنفسى .. إنى ظلمتك ..

قال لها يوسف ضاحكاً :

ـ طبعاً .. ظلمتينى ..

فالتفتت إليه ضاحكة وسألته :

ـ ما الذى تعنيه ؟

قال يوسف :

ـ أنا أقول نفس كلماتك ..

قالت زينب ضاحكة فى دلال :

ـ أنا أقولها .. أما أنت فلا تقولها أبداً ..

قال يوسف :

ـ لا أستطيع أن أوضح لك شعورى .. ولكنى على أية حال ، تعلمت من علاقتنا الكثير ..

سألته فى لهفة :

ـ ما الذى تعلمته ؟

قال :

ـ تعلمت أن الإنسان عندما يحتاج إلى إنسان آخر .. فهو لا يحتاج إلى قديس .. ولا يحتاج إلى فارس أحلام .. إنه يحتاج إلى إنسان فقط .

فنظرت إليه متهللة .. تكاد ترقص بجسدها طرباً وهتفت :

ـ كم أنت مدهش .. لقد قلت الآن فى كلمات بسيطة ما عجزت أنا عن التعبير عنه فى سنوات .. نعم .. كان يضايقنى منك .. أنك كنت تبدو لى كقديس .. تصور .. كنت أقول لنفسى مالك يابنت وهذه الورطة .. نعم هو طيب وملاك .. وأسطورة .. ولكنى كيف أحتمل الحياة مع مثل هذا الرجل .. كنت لا أحتملك فأقول .. لا .. إنه ليس أكثر من نصاب ..

وضحكت ثم أضافت :

ـ أما حكاية فارس الأحلام .. فهذه تمثيلية مضحكة أردت أنت أن تقوم بها .. لأنك بالطبع لست فارس أحلامى .. إنى أتخيله طويلاً .. أسمر .. ذا عينين هادئتين جسورتين .. ليست فيهما هذه الطيبة التى فى عينيك .. وليست فيه هذه الطفولة التى تتمسك بها .. ولكنى ظلمتك .. لأنى وضعتك مرة فى صورة ملاك .. وحاولت مرة أخرى أن أعوض بك أبى .. وأن أجعل من نفسى ابنتك .. وأنت لست أبى .. وأنا لست ابنتك ..

همس يوسف :

- وماذا أكون .. ؟

قالت بكل ما تملكه من دلال :

- أنت حبيبى .. أنت إنسان عادى .. لك مزاياك .. ولكن لك عيوبك .. لابد أن أتحملك كما أنت .. لابد أن أقنع نفسى بأن أرضى بالإنسان العادى .. لن أتخلى

عن أحلامى .. لا داعى لأن أتخلص منها .. ولكن المهم هو ألا أجعلها تسيطر على ، وتفسد على واقع حياتى .. أريد أن أتحرر .. كما أشعر الآن من سيطرة أحلامى ، أتعلم ماذا أريد فى هذه اللحظة .. أريد أن أرقص بجسدى هكذا ..

ولم تمهله .. فجرت فى خفة ورشاقة ، وكأنها فى حلم إلى منتصف الطريق .. ودارت حول نفسها ترقص .. كانت قد ابتعدت عن يوسف . الذى امتلأت مشاعره بدهشة مما فى الحياة من جدة وخيال . وكان يقترب منها ببط .. عندما ظهرت تلك العربة الضخمة الصفراء .. برزت فجأة من شارع جانبى كوحش ضخم بلا أنوار . وقد حملت فوقها معدات ضخمة مغطاة بقماش سميك .. وزأرت واجتاحت الطريق . ولما ابتعدت كانت زينب قد اختفت . رأى يوسف الشارع خالياً ، ودق قلبه بعنف . ولما اقترب أكثر . رأى جثتها راقدة على الأرض غارقة فى الدماء ، لم يفهم ما حدث ومرت به لحظة غباء . وكأنه فقد عقله ، وخاف أن يقترب منها أو أن يبتعد . وقف متسمراً مكانه مشلولاً . كأن العربة الضخمة شجت عقله .

وفجأة صرخ :

- زينب .. زينب ..

ولم يسمع سوى صوته ، وجرى يريد أن يبحث عن عون فى الشارع الخالى . ولم يجرؤ أن يتركها هكذا ، ولكن ما فائدة العودة ، وبرز له شبح بواب .. وصرخ فيه يوسف :

- تليفون .. ألا يوجد دكتور .. الإسعاف ..

وبدا له أن الرجل لا يتحرك . ومضت لحظات لا يذكرها يوسف ، ثم تكاثر حوله البوابون ، وخرج طبيب من إحدى العمارات ، وفحصها وقال ليوسف

بلهجة جادة :

ـ اطمئن .. ولكن يجب أن نسرع ..

وحملها معه الطبيب فى سيارته إلى المستشفى . وقبل أن يصلا ، طاف برأس يوسف ذلك الخاطر المفاجىء ، أنها لو ماتت فقد يستريح ، وقد تنتهى كل مشاكله .. ولكنه ما كاد يواجه هذا الخاطر .. حتى فزع من نفسه ، وفزع من أن تموت .. لكنها لو ماتت ستكون هو قاتلها .. وتذكر نفسه وهو فى احتفال للصحفيين فى موسكو ، ورجل يخطب بالروسية ، وآخر يترجم له بلغة عربية رديئة .. ثم قدم له الخطيب خنجراً فى جراب من الجلد الأخضر . وقال له المترجم :

ـ إن لينين قال إن الصحفى لا يحارب بقلمه فقط .. ولكن تأتى لحظات لابد أن يحارب فيها بالسلاح .

لم يسمع يوسف الكلمات جيدا . رغم احترامه الشديد للينين .. فقد كان يفكر فى زينب عندما ترى الخنجر ، وكان يراها تضحك قائلة :

ـ إنه ينفع فى المطبخ .

ولما عاد إلى زينب ، أسرع وهو يريها الخنجر قائلاً :

ـ ستقولين إنه ينفع فى المطبخ .

فقالت ضاحكة :

ـ لم أقل هذا ..

فقـــال ..

ـ قلت أنا قبل أن تقولى أنت .

ثم روى ما قاله الخطيب عن الصحفى الذى يحارب بالسلاح لا بالكلمة وحدها . فهتفت زينب :

ـ أتحارب بخنجر .. كانوا أعطوك دبابة .. أو صاروخاً ..

وضحكا .. واختفى الخنجر فى ركن من دولاب يوسف ، حتى كان ذلك الحادث الذى نشرته الصحف ، عن الطبيب الذى قتل زوجته ، يومها كان

يوسف يتناول الغداء مع أحد الصحفيين الإنجليز ..ووجد يوسف نفسه يقول ضاحكاً ، معلقاً على ذلك الحادث الذى بدا مثيراً للصحفى الإنجليزى .

ـ إن عندى فى البيت خنجراً هدية من روسيا .. قالوا وهم يهدونه لى .. إن الصحفى فى رأى لينين يجب أن يحارب بالسلاح أيضاً .. ولكن يبدو أن المثقفين أمثالنا أصبحوا لا يستعملون السلاح إلا فى قتل زوجاتهم .

فقال الصحفى الانجليزى ضاحكاً :

ـ هذه هى الحرب الأهلية التى يرحب بها كل الأزواج فى العالم .

ولكن يوسف فزع مما قاله . إنه ليس ككل الأزواج ، وهو لا يفكر فى قتل زينب . وهو يريد فعلاً أن يحارب من أجل بلده بالسلاح ..كان يلوم نفسه لأنه قال ما قال .. وظلت ذكرى ذلك المشهد تعاوده .. فيلوم نفسه من جديد ، ولكنه الآن يواجه ذلك الخاطر الذى لا حيلة له فيه .. أن تموت زينب ويستريح .. مستحيل ..لو ماتت فسوف تموت حياته معها .. إن خوفه عليها هو الذى جعله يفكر على هذا النحو خلاصاً من الخوف .

كان يوسف يجلس إلى جوار زينب وهى راقدة فى سرير المستشفى ، تعالج مابها من رضوض وسجحات ومدحت يعبث فى علبه الشيكولاتة ، وكأنه سعيد بهذه المناسبة التى ملأت حياة أبويه بحركة ونشاط غير عاديين .. يتبادلان فيها الحب والحنان مصحوباً بعلب الشيكولاتة والملبس وباقات الورود .

وقالت زينب فجأة على طريقتها التى تعودت عليها أخيراً :

ـ لقد اكتشفت هذا الصباح اكتشافاً جديداً .. أتعرف ..لقد قررت أن أكمل تعليمى ..

ابتسم يوسف فى حنان .. فنظرت إليه فى لوم .. كأنه كان يجب عليه أن يظهر جدية أكثر . واهتماماً أكبر باكتشافها الخطير ..

وقال يوسف مستدركاً :

ـ هذا اكتشاف عظيم ..

قالت له :

ـ فكرت طوال اليوم .. وكنت أحلم بأنى راجعة إلى مدرستى .. أدخل

الفناء .. وأذهب إلى مكتب الناظرة .. وتستقبلنى ، وأقول لها إنى كنت تلميذة فى هذه المدرسة .. وأطلب منها شهادة بأنى درست عندها ، ثم أكمل تعليمى ..

قال يوسف مفكراً :

- هذا خبر عظيم ..

قالت زينب :

- لا فائدة من تضييع الوقت هكذا .. لابد أن أملأ فراغ حياتى ..

وتركها يوسف ، وهو يفكر فى محاولتها الجديدة .. نفس المحاولة التى طالما نادى بها عباقرة مصر لمقاومة التخلف عبر القرون .. ولكن هل يعترف لها من الآن .. بأن التعليم وحده لم يحقق شيئاً .. ألم يتعلم عبد الهادى النجار .. ألم يتعلم حسن زيدان .. ألم يتعلم دياب .. ما الذى صنعوه .. ما الذى حققوه .. إن نفوس الأفراد تفسد .. وإذا لم تفسد فهى تموت .. وهاهو قد حاول أن يحفظ الصدق فى نفسه . فماذا وصل إليه . لا أحد يستطيع حماية صدق نفسه إلا إذا تكاتف الجميع على أن يصونوا معا صدق نفوسهم .. ولكن كيف .. وهنا خطر ليوسف خاطر جديد .. لم يكن واضحاً .. ولكنه أحس برغبة فى أن يندفع فى سيره بحيوية ونشاط .. وكأن هذا الخاطر تصحبه موسيقى ينتظم بها سيره .. عندما يتضح له هذا الذى يطوف بوجدانه .. سوف يسرع إلى زينب ، ويقول لها بدوره :

- اسمعى .. عندى اكتشاف جديد ياحبيبتى ..

« تمـــــــت »

كتاب زينب والعرش جزء أول
رقم الايداع ٢١١٤/٨٨
الترقيم الدولى ٨ ــ ٠٠٥١ ــ ١٢ ــ ٩٧٧



هذا الكتاب

شخصيات « زينب والعرش » تتصارع على سلم النفوذ والسلطة والشهرة ، بعضها يدوس بأقدامه البعض الآخر في معارك لاهوادة ولا رحمة فيها . إنه التنافس المميت يخوضه أفراد اهتزت أفكارهم وتقاليدهم والقيم التي كانوا يعيشون بها ، فتحولوا من بشر إلى حيوانات في غاب !

هل استطاعت زينب الأيوبي أن تحقق أحلامها ، وأن تجلس على عرشها في مجتمع الغاب ؟ إن أحلام الطفولة تواجه في كل خطوة فخاً من فخاخ الحياة القاسية ، التي تغلف قسوتها بمظاهر البذخ والمتعة والرفاهية . إن البراءة تختنق في جو الخداع ، والطهارة تسقط في شرك الضياع ، وأحلام المجد والشرف تتحول إلى كابوس مخيف ، ومع ذلك ، هناك بارقة أمل ، وإصرار على التشبث ببهجة الحياة وفرحها الحقيقي وإصرار على أن تجلس زينب على العرش .

لقد فرضت شخصيات « زينب والعرش » على الروائي فتحي غانم أن يكتب أضخم أعماله الأدبية ـ بعد « الرجل الذى فقد ظله » ليسجل بقلمه أعماق مجتمع ، أعماق البشر فيه ، ليلقي ضوءاً كاشفاً ، يصعب على المؤرخ لحياتنا المعاصرة أن يسجله بهذا الوضوح والجراة والصراحة .

« الناشر »

مطابع روزاليوسف